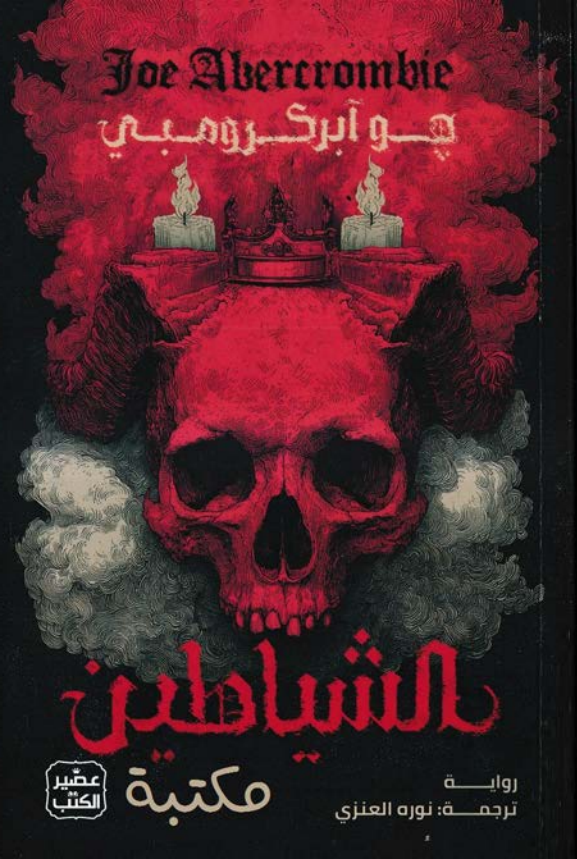
Joe Abercrombie

جو آبركرومبي



الشياطين

مكتبة عصير الكتب

رواية

ترجمة: نوره العنزي

Joe Abercrombie

جو آبركرومبي

الشياطين

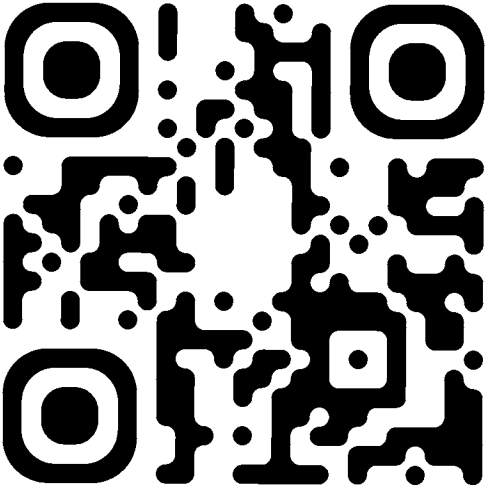
مكتبة عصير الكتب

رواية

ترجمة: نوره العنزي

الشياطين





سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR



للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان الأصلي: THE DEVILS

● العنوان العربي: الشياطين

● حقوق النشر:
Copyright © Joe Abercrombie 2025

● الطبعة الأولى: يناير 2026م

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

● تأليف: چو آبركرومبي

● ترجمة: نوره العنزي

● تحرير: أحمد حسين

● تدقيق لغوي: محمد عبد العال

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● رقم الإيداع: 31275/2025م

● الترقيم الدولي: 978-977-992-602-5

مكتبة
t.me/soramnqraa

Joe Abercrombie

جو أبركرومبي

مكتبة
t.me/soramnqraa

الشياطين

رواية

ترجمة: نوره العنزي





المدينة المقدسة

طرواذة

الجزء الأول

أسوأ أميرة في التاريخ

مكتبة
t.me/soramnqraa

1

يوم القديس ألفريك

كان الخامس عشر من شهر الوفاء، وقد أدرك الأخ دياز أنه تأخَّر عن موعد مثوله بين يدي قداستها البابا.

تململ قائلًا: «اللعنة»، إذ لم تبرح عربته موضعها، وقد سدَّ عليها الطريق موكب من اللطَّامين الصائحين، وقد شُقَّت ظهورهم من السياط، وسالت دماؤهم مع دموع النشوة على خدودهم، يضربون أنفسهم تحت راية مكتوب عليها كلمة واحدة: «توبوا». ولم يُبَيَّن علامَ تجب التوبة.

لكل امرئ ذنب، أليس كذلك؟

قالها ثانية: «اللعنة». ليست من الفضائل الاثنتي عشرة، لكن الأخ دياز يتفاخر بدقته في المواعيد، إذ جعل بينه وبين اللقاء خمس ساعات، ظنًّا منه أنَّ ذلك يُبقي له ساعتين على الأقل يتأمَّل فيهما بوقار تماثيل القديسين الأوائل قبالة القصر السماوي. فقد قيل إنَّ جميع طرق المدينة المقدسة تنتهي هناك.

غير أنَّ كل الطرق فيها بدت تؤول إلى دورانٍ أبدي في دوائر في جو بارد، تزحف فيها أفواجٌ لا تحصى من الحجاج، وبائعات الهوى، والحالمين، والدجَّالين، وجامعي المُقدسات، وباعة صكوك الغفران، وطالبي الكرامات، والواعظين والمتطرفين، والمخادعين والمحتالين، وبائعات الهوى، واللصوص، والباعة والصيارفة، والجند والبلطجية، وما

لا يُعدُّ من المواشي على أقدامها، والكُسح، وبائعات الهوى، وبائعات هوى كُسح، وهل ذكرت بائعات الهوى؟ إنهنَّ يفقن القساوسة عددًا، عشرين ضعفًا على الأقل. وقد كان وجودهنَّ الفاضح في قلب الكنيسة المُقدَّسة، وهنَّ يصرخن بعروضٍ دخانية، ويكشفن عن أطرافٍ اقشعرَّ جلدها في وجه البرد القاسي، أمرًا صاعقًا لا ريب، وفاضحًا لا شك، غير أنه أيقظ في الأخ دياز رغائب ظنِّها خمدت منذ زمن. فاضطرَّ إلى أن يسوِّي رداءه، ويحوِّل بصره إلى السماء، أو على الأقل إلى سقف عربته المرتجِّ.

ومثل هذه الأمور هي ما جرَّ عليه البلايا من قبل.

صاح: «اللعنة!»، وجذب زجاج النافذة، فأطلَّ برأسه في الهواء الصقيعي. فإذا بجلبة الأناشيد والدعوات، والاستعطاف والتوسل للمغفرة، ورائحة الدخان والبخور الرديء وسوق السمك القريب، تضاعفت كلُّها عليه في لمح البصر، حتَّى لم يدرِ أيغطي أنفه أم أذنيه، وهو يصرخ على السائق: «سأتأخر!».

أجابه ذلك بلهجةٍ وادعةٍ فيها فتور المستسلم: «لن أتفاجأ». كأن لا علاقة له بالأمر، كأنه ليس السائق المؤجَّر بمال جزيل ليوصل الأخ دياز إلى أهم لقاءٍ في عمره. ثم أضاف: «إنه يوم القديس ألفريك يا أخي».

- يعني؟
- رُفعت رفاته إلى أعالي برج كنيسة السكينة الطاهرة، وعُرضت على أهل الحاجة. ويُقال إنها تشفي النقرس.ذاك ما فسَّر كل العَرَج والعِصِي والكراسي المدولبة في الجمع المحتشد. ليته كان الداءَ الخبيث، أو الفُواقَ المزمن، أو علةً تُبقي المُصاب قادرًا على التدحرج بعيدًا عن طريق عربةٍ مسرعة؟

صرخ الأخ دياز، وصوته يعلو فوق لغط الناس: «ألا يوجد طريق غير هذا؟».

أجابه السائق وقد أمال كتفه إيماءةً فاترة نحو الحشود المتضاربة: «بل مئات. ولكنه يوم القديس ألفريك في كل مكان».

وقد بدأت نواقيس صلاة الظهيرة تتجاوب أصداؤها في أرجاء المدينة، فافتتحتها طقطقةٌ خافتة من مزارات الطريق، ثمَّ علت إلى جلبةٍ متنافرة إذ أخذ كل معبد وكنيسةٍ وكاتدرائية تُضيف رنينها المحموم، تتسابق إلى جذب الحُجَّاج إلى أبوابها، ثم إلى مصاطبها، ثم إلى صناديق نذرها.

تقدَّمت العربة خطوةً، فغمر الفرجُ صدرَ دياز، ثم توقَّفت فجأةً، فغشيه اليأسُ من جديد. ولم يكن على البعد إلا كاهنان رثَّا الهيئة من طائفتين متناحرتين من فقراء الرهبان، قد رُفعا على منابر تُطاوِل بعضها بعضًا، تترنَّح بهم فوق الجموع، وتئنُّ بها مكائن معذَّبة، وقد تهاطل البُصاق من أفواههما وهما يتسابَّان بأشد ما يكون من جدل، يتخاصمان في معنى دعوة المخلِّصة إلى التهذيب.

زمجر الأخ دياز وقال: «اللعنة!».

كل ذلك الجهد في تثبيط إخوته في الدير. وكل تلك المشقَّة في الحيلولة دون علم عشيقات رئيس الدير عن بعضهن. وكل افتخاره بأنه دُعي إلى المدينة المُقدَّسة، مُفرَدًا من بين الجميع، مختومًا بعلامةٍ لمستقبلٍ جليل.

وهكذا إذًا تموت آماله، مدفونةً في عربةٍ متوقِّفة وسط وحلٍ بشري، في ساحةٍ ضيقة تحمل اسمَ قدِّيسٍ لم يسمع به أحد، باردةٍ كالبيت الجليدي، مزدحمة كالمسلخ، ووسخة كبيت الخلاء، بين حظيرةٍ مزينة قد حُشرت فيها زمرة شحَّاذين مُرخَّصين، ومِصطبةٍ من خشب الزيزفون أُعدَّت للعقوبات العلنية، يلعب عليها صبيانٌ بإحراق دُمى قشية تشبه الإلف.

رمق دياز الصغار وهم يضربون الدُمى مدببة الآذان والأسنان، فتنثر ضرباتهم شراراتٍ في الهواء، والمتفرِّجون يُصفِّقون باستحسان. أجل،

الإلف يبقون إلفًا، والحرق أولى بهم من البقاء طبعًا، ولكن في وجوه أولئك الأطفال السمينة المشبعة بالبهجة العنيفة شيئًا أثار فيه قلقًا غامضًا. ولئن لم يكن علم اللاهوت بضاعتَه التي يعرفها، إلا أنه على يقينٍ أن المخلِّصة أكثرَ الحديث عن الرحمة.

أما القناعة، فهي في جملة الفضائل الاثنتي عشرة، وذكر دياز نفسه بها كلَّما اجتاز شحَّاذو باب الدير من غير الالتفات إليهم. غير أنَّ المرء لا يجني ثمرةً بغير غرس نواة. فأطلَّ من النافذة يصيح بالسائق ثانيةً: «عدني بأن تبلغ بي قصر السماء على الموعد، وأدفع لك ضعفين!».

فقال السائق، ولم يُكلِّف نفسه حتَّى عناء هز كتفيه: «هذه المدينة المُقدَّسة يا أخي. لا يقطعُ فيها العهودَ إلا المجانين».

عاد دياز إلى العربة، والدموع تلسع عينيه. وانزلق عن مقعده على ركبة واحدة، واستخرج القارورة التي علّقها في عنقه، وقد صقلَتْها قرونٌ من احتكاكها بجِلد أسلافه. همس وهو يقبضها برجاءٍ: «أيَّتها القدِّيسة بياتريكس المباركة، أيتها الشهيدة الطاهرة، وحامية نعل المخلّصة، لا أسألُك إلا هذا: أن أبلغَ المقابلة الحقيرة للبابا في وقتها!».

ولمَّا سبَّ في دُعائه، ندم على الفور، ورسم دائرةً على صدره بيده، ولكن قبل بلوغ موضع الوخز الذي يُكفِّر به عن ذنبه، كانت القديسة بياتريكس قد أفصحت عن سخطها.

فوقع خبطٌ هائلٌ على السقف، واهتزَّت العربةُ برجفةٍ عظيمة، واندفع الأخ دياز اندفاعًا عنيفًا إلى الأمام، فانقطع صوته اليائس إذ صدمه ظهرُ المقعد الذي أمامه في فمه مباشرة.

2

هكذا تجري الأمور

أحكمت أليكس القفزة من النافذة إلى سقف العربة، فاستوت في حركتها استواء الزبد على السمن، ونهضت بعدها بحلاوة العسل، غير أنَّها أفسدت القفزة الأسهل من سقف العربة إلى الأرض، فلوَت كاحلها، وتعثَّرت متخبِّطة وسط الحشد، واصطدم فمها بالجزء المُغطَّى بالروث اليابس من الحمار، ثمَّ تدحرجت حتَّى انطرحت في المزراب. غضب الحمار، وغضب صاحب الحمار أكثر. ولم تستطع أليكس تمييز ما كان يصيح به وسط عويل التائبين المارِّين، غير أنَّه لم يكن مديحًا.

صرخت به: «اركل نفسك!».

فرمى عليها راهبٌ من العربة نظرة ذاهلة، وفمه مخضَّب بالدم، وفي وجهه تلك الكآبة الفزعة التي يعرفها السائحون في المدينة المُقدَّسة، فصرخت به أيضًا: «وأنتَ اركل نفسك أيضًا!».

ثمَّ أضافت، وقد أدبرت عرجاء، بصوتٍ متخاذل: «اركلا بعضكما».

فالسباب لا ثمن له في نهاية المطاف.

انتزعت خرقةَ صلاةٍ من كشك لم يكن صاحبه ينظر. ولم تر في ذلك سرقة، بل حُسن بديهة -فلفَّت بها رأسها على هيئة خِمار، ثم اندسَّت بين التائبين، تُرسل أنينًا شجيًّا. وما أسهل ذلك، فالوجع يخفق في ساقها، والإحساس بالخطر يقرص عنقها. رفعت يديها إلى الشريط الأزرق

المتقطِّع بين السقوف غير المتناسقة، حرَّكت شفتيها بدعاءٍ يتصاعد منه البخار تطلب به النجاة. وللمرَّة الأولى، كادت تعنيه حقًّا.

هكذا تجري الأمور.

يبدأ المرء مساءه باحثًا عن لهو، فيختم صباحه يتوسَّل الغفران.

يا إلهي، كم شعرت بالغثيان. معدتها تغلي، ولهيب يصعد في حلقها، وثمَّة قرقرة في آخر أمعائها أيضًا. لعلَّه لحم الأمس الرديء، أو حظ هذا الصباح العاثر. لعلَّه المال الذي خسرته، أو المال الذي تدين به. وربَّما بقي شيءٌ من روث الحمار على شفتيها. ثمَّ إنَّ رائحة الحجَّاج كريهة -أولئك الممنوعين من الاغتسال في أسفارهم الطويلة إلى المدينة المُقدَّسة- وتلك لا تُعين أحدًا على الصبر.

طوَت طرف الخرقة على فمها، وسرقت نظرةً خلفها تتلصَّص من بين غابة الأذرع المرفوعة إلى السماء.

- ها هي ذي!

ومهما اجتهدت، لم تُحسن التوغل بينهم قطُّ.

دفعت بكوعها حاجًّا معصوبَ العينين، ودفعت آخر يزحف على ركبٍ جرباء، ثمَّ اندفعت في الشارع بأسرع ما يسمح به كاحلها الملتوي، ولم يكن ذلك بالسرعة التي تريدها. وفوق ضجيج من يُنشِد الترانيم طمعًا في قطع نحاس، سمعت الفوضى تتصاعد خلفها. لعلَّه شِجار إن أسعفها الحظُّ؛ فالحجَّاج قد يهيجون إذا حيل بينهم وبين نعمة الإله. ثم دارت حول زاوية ودخلت سوق السمك في ظلِّ الأخوات الشاحبات.

مئةُ حانوت، وألفُ زبون، وصخبٌ يتخلَّله سِباب التجَّار، ورائحة البحر المالح، وأشعة الشتاء المائية تنعكس على صيد الصباح اللامع. لمحت خفقة حركة، فهوت ارتكاسًا. انتزعت يد خاطفة خصلةً منحلة من شعرها وهي تنزلق تحت عربة كادت حوافر حصانها تخبطها،

فتدحرجت لتنسلَّ بين ساقي أحدهم على البلل البارد من الأحشاء والعظام والأوحال تحت الأكشاك.

- أمسكتك يا ملعونة!

انغلقت يد على كاحلها، وخلفت أظفارها خطوطًا ملتوية في عجينة السمك وهي تُسحب نحو الضوء. كان أحد بلطجية بُسترو، بقبعة ذات ثلاث زوايا جعلته وكأنه قرصان فاشل. نهضت لتضرب، وأصابت خده بضربة طقطقت مفزعة، فخافت أنها هشَّمت يدها لا وجهه، فأمسك بمعصمها وجذبها جانبًا. بصقت في عينه فارتدَّ، وركلته في خاصرته فترنَّح، وهي تتخبَّط بيدها الحرَّة. لم يطرحها أحد قط إلا ونهضت من تحت الركام. لمست أصابعها شيئًا فصرخت وهي تهوي به. مِقلاة ثقيلة. لطمت خد القرصان بصوتٍ كأجراس صلاة العشاء، أطارت قبعته الغبية، وأوقعته ممدَّدًا، والزبائن يقفزون هربًا من زخات الزيت الحار.

استدارت أليكس، وخصلة شعرها المسمكة ملتصقة بعينيها. حدقت الوجوه، وأشارت الأصابع، وشقت أجسام الزحام نحوها. قفزت إلى الكشك الأقرب، والألواح تتأرجح على دُعاماتها وهي ترفس عبر خيرات البحر، أسماك تتخبط، وسرطانات تتحطم، وتجار يصخبون شاتمين. قفزت إلى الكشك التالي، فانزلقت على سمكة تروتة ضخمة، وترنَّحت خطوةً يائسة أخرى قبل أن تهوي على كتفها وتتهاوى وسط رشقة من الأصداف. نهضت تلهث، تعرج نحو زقاق خانق مليء بالنفايات، قطعت فيه أربع خطوات قبل إدراك أنه طريقٌ مسدود. فتوقَّفت متقوسةً بالرعب، تحدِّق إلى الجدار الأخرس ويديها تفتحان وتغلقان في عجز. ببطء شديد، التفتت. وقف بُسترو عند فم الزقاق، قبضتاه الضخمتان على خاصرته، وفكُّه المتقدِّم مثل صخرة تهديد. نقر لسانه نقرًا بطيئًا: «تَتْ تَتْ تَتْ».

وانضمَّ إليه أحد رجاله، يلهث من أثر المطاردة. صاحب الابتسامة المليئة بالأسنان الصُّفر، ويا له من منظر. إن ملكتَ مثل تلك الابتسامة، فاغسل أسنانك على الأقل، وإن كانت تلك أسنانك، فعلى الأقل لا تبتسم.

- بُسترو!

أخرجت أليكس أحسن ابتسامةٍ استطاعت، وهي تلهث، وكانت سيئةً حتَّى بمقاييسها: «ما علمت أنه أنت».

تنهد تنهيدة بثقل جسده. ظلَّ يجمع للبابا كولِّيني أعوامًا، وسمع من الحيل والأكاذيب والمعاذير والنُّواح ما لا يُحصى، ولا شكَّ في أنه سمع ما لا يُتخيَّل. وهذه لم تُعجبه.

قال: «نفد الوقت يا أليكس، البابا يريد ماله».

مدَّت له كيسها المنتفخ: «مفهوم، هاك المبلغ كاملًا».

رمت به نحوه ثم اندفعت لتفرَّ، لكنهما كانا مستعدَّين. أمسك بُسترو بالكيس، وصاحبه ذو الأسنان القذرة أمسك بذراعها، ولفَّها، ثم قذفها إلى الجدار فارتطم رأسها بالطوب وتدحرجت في القمامة.

ثم فتح بُسترو الكيس وألقى نظرة على ما فيه.

- يا للمفاجأة.

قلبه فتساقطت الأوساخ وقال: «كيسك مملوء بالخَرَاء مثلكِ تمامًا».

انضمَّ القرصان الطامح إلى الجمع وعلى وجهه أثرٌ ورديٌّ من المقلاة. وقال وهو يضرب قبعته الملطخة بالسمك ليُزيل انبعاجها: «احذر، فهي شرسةٌ حين تُحاصر. كابن عرس جائع».

وقد سُبَّت بأسوأ من هذا من قبل. تمتمت وهي تنهض: «اسمعوا»، وتساءلت هل كُسِرت كتفها، ثم لما جرَّبت لمسها تساءلت هل كُسِرت يدها.

- سأدفع له المال. أستطيع توفير المال!

سأل بُسترو: «وكيف؟».

أخرجت خرقةً من جيبها وبسطتها بخشوعٍ لائق: «تفضَّلوا، عظام أصابع القدِّيس لوسيوس...».

فضربها صاحب القبعة من يدها وأسقطها: «نعرف قوائم الكلاب حين نراها، أيتها النصّابة». وقد ساءها ذلك، إذ صرفت وقتًا طويلًا في برد أطراف الكلاب.

قالت وهي تتراجع: «اسمعوني»، ويداها المثخنتان بالضرب والسمك مرفوعتان، والزقاق ينفد من تحت قدميها.

- أحتاج إلى المزيد من الوقت!

قال بُسترو وهو يسوقها إلى الوراء: «البابا منحك وقتًا، وقد نفد».

أنَّت: «ليس دَيني أصلًا!»، وكانت صادقة، لكنه أمر لا يغيِّر من الموقف شيئًا.

- البابا أنذرك ألا تكفليه، أليس كذلك؟ لكنك كفلته.

وكان ذلك صحيحًا، ويقع في لبِّ المسألة.

ارتفع صوتها درجة بعد درجة: «سأدفع! لك أن تثق بي!».

- لن تفعلي، ولا أثق بك، وكلانا يعلم ذلك.

- سأقصد صديقًا!

- ليس لك أصدقاء.

- سأجد وسيلة. دائمًا ما أجد وسيلة!

- ما وجدت وسيلة. ولذا نحن هنا. أمسكوها.

هوت قبضتها على وجه ذي أسنان الخراء بيدها السليمة، ولم يعبأ حتَّى. ثم أمسك من ذراعها، وتلقَّاها القرصان من الجهة الأخرى، فضربت برجلها، وتمرغت، وصرخت طلبًا للنجدة كما تصرخ الراهبة

إذا سُلبت. كانوا ليطرحوها أرضًا، غير أنَّها لم تكن لتبقى مطروحة، فضربها بُسترو في بطنها.

صدر عن الضربة صوتٌ كصوت فتى الإسطبل إذا أسقط سرجًا مبتلًا، وانسلت القوة من جسدها، واغرورقت عيناها، وتراخت ركبتاها، ولم تقدر إلا أن تترنح، وتُخرج أنفاسًا كأنَّها قيءٌ متصل، وتفكِّر في نفسها: لعله من الأجدر أن أبقى مطروحة. لا شيء في اللكم على البطن يُغري إذا كان الضارب ضعف حجمك، ولا سيما أنَّ ما ينتظرك هو ضربة أخرى. أحاط بُسترو عنقها بكفه الضخم، وخنق أنفاسها حتَّى تحوَّل زفيرها إلى خرخرة رخوة. ثم أخرج من ردنه الكلاليب.

كلاليب من حديد، لماعة من كثرة الاستعمال. لم يكن سعيدًا بذلك، غير أنَّه أخرجها، وقال بصوتٍ متحشرج وهو يزفر: «ماذا تختارين؟ الأسنان أم الأصابع؟».

- انتظر لحظة...

سال ريقها، وكادت تزدرد لسانها. كم مضى عليها وهي تراوغ الزمن؟ أسبوع أو اثنان؟ أم ساعة أو اثنتان؟ لقد انتهى بها الحال إلى أن تتشبث باللحظات: «انظر...».

زأر بُسترو: «اختاري!». والكلاليب تقترب من وجه أليكس حتَّى أحالت عينيها حولاء من شدة القرب: «وإلا فكلتاهما...».

خرج صوتٌ صارخ آمِر: «مهلًا!». فالتفتوا إليه جميعًا، بُسترو واللصوص، وأليكس أيضًا، على قدر ما استطاعت وهي في نصف اختناق.

وقف رجل طويل القامة حسن الطلعة عند فم الزقاق. ومن اشتغل في صنعة اللصوص تعلم أن يعرف الغني من النظرة الأولى، وأن يميِّز من يُستحق الاحتيال عليه، ومَن هو أغنى من أن يُسرق. وهذا كان من

أغنى الأغنياء، رداؤه من حريرٍ جيد، مهلهل في الأطراف، مطرَّز بالتنانين بخيوط الذهب.

قال: «أنا الدوق مايكل من نيقيا». وكان في نطقه أثرٌ من لحن الشرق. ثم دنا منه رجل أصلع، وجبينه يرشح عرقًا، فقال: «وهذا خادمي يوسابيوس».

فجعل الكل يتأملون في هذا الحضور العجيب، والدوق ينظر إلى أليكس. وقد حسبت أنَّ وجهه لطيف، ثم تذكرت أنها تستطيع أن تُظهر وجهًا أشد لطفًا، وقد علم الكل أنَّها كلبة سارقة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال: «أفهم أن اسمك أليكس؟».

قال بُسترو وهو يزفر: «أصبت».

قال الدوق: «وهل لك وحمة تحت الأذن؟».

حرَّك بُسترو إبهامه، فظهر له موضع من عنقها، فقال وقد رفع حاجبيه: «نعم، لها».

تنهد الدوق وقال: «بالقديسين جميعًا...». ثم أغمض عينيه، وتنفس تنفسًا عميقًا، فلمَّا فتحهما بدت الدموع في أجفانه، وقال: «أنتِ حيَّة».

خفَّت قبضة بُسترو بما أتاح لها أن تزفر وتقول: «حتَّى الساعة». وقد بهتت كما بهت سواها، غير أن الفائز هو من ينسى صدمته أسرع من غيره، ويبدأ في حساب الغنيمة.

قال الدوق وهو يعلن: «أيها السادة! هذه هي صاحبة السمو لا غير، الأميرة أليكسيا پايروجِنتوس، الابنة المفقودة منذ زمن بعيد للإمبراطورة إيرين، والوارثة الشرعية لعرش الأفعى في طروادة».

ولربَّما سمع بُسترو من الأكاذيب والحيل والأعذار والنحيب ما لا يُحصى، لكنه ما إن سمع هذا حتَّى ارتفع حاجباه دهشة. وأخذ يحدق

إلى أليكس كأنما قيل له إن الروث الذي شاهده منذ هنيهة يخرج من دبر عنز، ما هو إلا سبيكة من ذهب.

أما هي، فما استطاعت إلا أن ترفع كتفيها بشدة. لقد سُميت من قبل بالماكرة، والسارقة، والمخادعة، والسارقة، والكلبة، والكلبة السارقة، وبنت آوى خبيثة، وبنت عرس خبيثة، وتلك فقط الأوصاف التي عدَّتها من المحامد. لكنها ما سُمِّيت أميرة قط، ولا حتَّى على سبيل المزاح السخيف.

فغر ذو أسنان الخراء فاه حتَّى بدت أنيابه الخلفية الأقبح، وقال: «هي ماذا؟!».

نظر الدوق إلى أليكس، المتدلية كأنها سجادة بالية في نصف نفضتها السنوية، وقال: «أعترف أنَّها لا تبدو... أميرية كثيرًا. لكنها ما هي عليه، وسنرضى بذلك. وعليه، أصرَّ على أن إخلاء سبيل جسدها الشريف».

قال القرصان: «نُخلي؟».

قال الدوق: «دعها، الآن»، وقد خف لطف الدوق قليلًا، وأبصرت أليكس صرامة وراء ذلك.

قال بُسترو: «ابنة عرس الكذوب هذه مدينةٌ لسيدنا».

قال القرصان وقد نزع سنًّا من فمه المدمى: «وقد خلعت بنت آوى لي سنًّا من أسناني!».

رفع الدوق حاجبيه وقال مشيرًا إلى السن: «مؤسف، يبدو أنَّها سنٌّ جيدة».

فزفر الرجل ورماها بغضب، وقال: «كنت أحبُّها».

قال الدوق: «أرى أنَّكم قد لقيتم بعض المشقة». ثم مدَّ يده إلى جيب ردائه المطرَّز بخيوط الذهب: «والرب يعلم أنَّني أعرف كم هن الأميرات

عسيرات الطباع، ولهذا...». أخرج بعض النقود، ورفعها نحو الضوء، ثم ردَّ بعضها إلى جيبه، ونثر الباقي على الحصى المتَّسخ: «هذا شيء... لقاء عنائكم».

حدَّق بُسترو إلى الأرض، ولم يكن أكثر اكتراثًا من نظره إلى نقود أليكس التافهة، وقال: «ظننتها أميرة لعينة؟».

قال الدوق: «إذا ناداها المُنادون فلا يذكرون معها اللعن، لكن نعم».

قال بُسترو: «وهذه قيمة حياتها؟».

قال الدوق: «أوه، لا». ثم جثا خادمه بجانبه برشاقة، وفتح ردنه، وأخرج سيفًا عظيمًا، غمده الملطخ محفوف بأسلاك لامعة، ومقبضه الذهبي المضرب مائل نحو سيده، فوضع الدوق طرف إصبعه عليه، وقال: «هذه قيمة حياتكم».

3

الفضيلة الثالثة عشرة

- أنا... أنا...

أسدل الأخ دياز ذيل ثوبه، وقد اضطر إلى أن يرفعه فوق ركبتيه كعروس مذعورةٍ أدركها الحفل وهي لم تزل تعدُّ خُطاها، تتخبَّط في ممرَّات قصر السماء المتشابكة، وصوت قدميه المتسارعتين يخفق فوق رخام مصقول كالمرآة، وعرقه يتصبَّب، وروعه يشتدُّ.

- أنا... أنا...

كان قد انزلق فوق لطخة لعاب طرية، حيث لعق رهط من التائبين الرفيعين الأرض تطهيرًا، وظنَّ أنه أصيب بأذًى في موضع ما بين الفخذين. وكان ذلك كلُّه أبعد ما يكون عن الصورة المهيبة التي حلم أن يخطو بها في هذه الدهاليز المُقدَّسة، حين يُعترف له بالمكانة التي يراها لنفسه أخيرًا. يا إلهي، رأسه يدور. أهو مغشيٌّ عليه؟ أم هو يموت؟

سألت الكاتبة فارعة الطول على نحو هائل: «الأخ إدواردو دياز؟».

بدت له التسمية مألوفة: «أحسب ذلك...».

أسند قبضتيه إلى الطاولة، يجاهد ليكبح لهاثه، ويبدو بمظهر يليق بمنصب وقور في وسط سلّم الكنيسة، وقال: «ولا يسعني إلا... الاعتذار... عن التأخير».

وقد قاوم ببأس شديد لئلا يتقيأ: «كان الزحام اللعين في يوم القديس ألفريك لا يُطاق والسائق...».

- أنت مبكِّر.

- ... لم يُعِنِ بشيء، وأنا... ماذا؟

هزَّت الكاتبة كتفيها: «هذه المدينة المُقدَّسة، أيها الأخ دياز. كل يوم فيها هو عيد لقدِّيسٍ ما، وكل أحد يتأخَّر. فنؤخِّر المواعيد لأجل ذلك».

أرخى دياز كتفيه براحة عظيمة. لقد استُجيبت توسلاته للقديسة بياتريكس الطيبة في نهاية المطاف! ولجثا في موضعه باكيًا شكرًا، لولا خشيته ألا يستطيع النهوض بعدها أبدًا.

- لكن لا تقلق.

هبطت الكاتبة من كرسيٍّ يبدو أنه شديد العلو، فإذا هي قصيرة على غير المتوقع.

- لقد أفرغت الكاردينالة زيزكا جدولها، وأوصت بأن تُدخل عليها فور وصولك.

ثم أشارت إلى باب بإيماءة كأنها مقدم مسارح.

جلس رجل ضخم، متهدِّل الوجه، معقوف المفاصل على مقعد بجانب الباب، لعلَّه ينتظر موعده هو الآخر. بعينين رماديتين تحدِّقان إلى الأخ دياز، بسكون تامٍّ كأنَّما بُني قصر السماء من حوله. شَعره المقصوص رماديٌّ كحديدٍ علاه ندبتان عظيمتان، ولحيته القصيرة رمادية كذلك وفيها ثلاث ندبات أو تزيد، وفي حاجبيه الرماديين أكثر ندبًا منهما شعرًا. بدا كمن قضى خمسين عامًا يتدحرج من جبل، ربما جبل من فؤوس.

تمتم الأخ دياز: «مهلًا، الكاردينالة زيزكا؟».

- أجل.

- ظننت أني ذاهب لمقابلة قداستها البابا... لتعهد لي بـــ...

- لا.

أيعقل أنَّ الأقدار بدأت تميل إلى صالحه؟ قداستها البابا قد تكون قلب الكنيسة، لكنها توزِّع آلاف المناصب العشوائية، والمكاتب التافهة، والبركات الجوفاء، على طوابير من الرهبان والراهبات العشوائيين كلَّ يوم، على الأرجح بذات الفكر الذي يمنحه قاطف العنب لكل حبَّة يقطفها. أما لقاء الكاردينالة زيزكا، سيِّدة هيئة الكنيسة الدنيوية، فشيء آخر تمامًا. هي بلا منازع سيدة البيروقراطية التي لا حد لها، وإيرادات الكنيسة الهائلة. لا تلقي بالًا إلا لذوي الشأن. وقد أفرغت جدولها...

- حسنًا إذًا...

مسح الأخ دياز عرقه عن جبينه، وربَّت على شفته المنتفخة، ورتب ثوبه المُجعَّد إلى وضعه، وبدأ يبتسم لأول مرَّة منذ وطئ أبواب المدينة المقدسة. وبدا أن القديسة بياتريكس قد فاقت التوقعات هذه المرة.

- أعلني قدومي دون تردُّد!

وكان مكتب الكاردينالة زيزكا، على ما يُمثِّله من ذروة السلطان الكهنوتي، مخيِّبًا للرجاء. هو فسيح بمقياس راهب ريفي، لكنه بدا ضيِّقًا حقًّا، إذ احتشدت فيه أوراق شاهقة مكوَّمة كالجبال، تزدحم بالشراريب والوسوم والأختام، مصطفَّة على المقاعد من الجانبين كما تصطف جيوش متحاربة. توقع الأخ دياز بهاءً، جداريات، ومخملًا، ورخامًا تتخلَّله ملائكة مذهبة تملأ الزوايا. غير أنَّ الأثاث المحشور في الشريط الضيِّق من الأرض بين هذين الجرفين التوأمين من البيروقراطية، فلعلَّ أصدق ما يُوصف به أنَّه كئيب المنظر، نافع لا زينة فيه. أما الجدار الخلفي، فامتدَّ صلدًا من الحجارة المتموِّجة كأنها قد انصهرت ثم تجمَّدت على هذا الشكل، لعلها بقايا الخرائب القديمة التي بُني فوقها قصر السماء. ولم يكن في الحجرة من زينة سوى لوحة صغيرة عنيفة

تُصوِّر جلدَ القديس بارنابوس. وأما نظرة المرء الأولى إلى الكاردينالة زيزكا نفسها، فلم تكن أحسن حالًا. فهي امرأة جَسور، لها شعر رمادي على غير المتوقع، تنقل الأوراق من كومة على يسارها فتوقِّعها بخطٍّ متعرِّجٍ مبعثر، ثم تودعها في كومة على يمينها.

وقد وضعت طوقها الذهبي -رمز المنصب- على أحد شوكات ظهر الكرسي، وكان صدر ثوبها القرمزي مذرورًا ببعض الفُتات.

ولولا قبَّعتها الحمراء المقلوبة على وجهها على سطح المكتب، لظنَّ الناظر أنه مكتب كاتب صغير، يباشر شؤون كاتب صغير. ومع ذلك، وكما قالت أم الأخ دياز، فليس ذلك عذرًا ليُفرِّط هو في وقاره. قالها بصوت مهيب منكس الرأس: «سماحتكم»، وانحنى أعظم انحناءة رسمية يقدر عليها.

غير أنَّ ذلك ضاع سُدى، إذ لم ترفع الكاردينالة عينيها عن ريشة القلم التي تخدش بها الورق. قالت بخشونة: «الأخ دياز، كيف وجدت المدينة المقدسة؟».

ردَّ وهو يُنقِّي حنجرته بأدب: «مكان... فيهْ روحانية عجيبة؟».

قالت دون رفع نظرها: «أوه، لا ريب. وأين في غيرها تبتاع من ثلاثة أكشاك مختلفة عضوًا مجففًا للقديس أوستاس، في حدود ميل واحد؟».

تردَّد الأخ دياز أيعتبرها مزحة أم إدانة لاذعة، فحاول الأمرين معًا؛ ابتسم وهو يهز رأسه وقال هامسًا: «معجزة، حقًّا...».

ولحسن الحظ لم ترفع الكاردينالة بصرها بعد. قالت: «رئيس ديرك يثني عليك كثيرًا».

وكان لزامًا عليه أن يفعل، بعد ما قدَّم له الأخ دياز من معروف. تابعت: «يقول إنك خير من تولَّى إدارة الدير منذ سنين».

لعق الأخ دياز شفتيه وهو يتخيَّل تحرُّره من قبضة الدير الخانقة لينال ما يستحقه. قال: «إنه يبالغ في الثناء يا سماحتكم. لكنني سأسعى لخدمتكم وخدمة قداستها، بما تطلبون، إلى أقصى حد».

فزع فجأة حين أُغلق الباب خلفه بضربة، فاستدار فإذا بالرجل الرمادي المليء بالندوب الذي رآه على المقعد خارجًا قد تبعه إلى مكتب الكاردينالة. أظهر أسنانه البالية وجثا على كرسي صلب قبالة مكتبها.

تابع الأخ دياز بتردُّد: «إلى أقصى حدود... قدراتي».

قالت وهي ترمي القلم وتضع الورقة الأخيرة برفق فوق كومة الوثائق: «طمنتني». ثم فركت إصبعها الملطَّخة بالحبر بإبهام مماثلة، ورفعت بصرها.

ابتلع الأخ دياز ريقه. فلئن كان مكتب الكاردينالة زيزكا كئيبًا، وأثاثه باهتًا، وأصابعها موشومة بالحبر ككاتب صغير في الدواوين، فإن عينيها كعيني تنين، تنين مهيب على وجه الخصوص لا يحتمل الحمقى.

أشارت إلى الداخل قائلة: «هذا يعقوب الثورني». ذلك الوجه الذي يُشبه لوح الذبح كان مقلقًا في الرواق، أما وقد دُفع به إلى مقابلة الأخ دياز عن قرب، فقد غدا باعثًا على الاضطراب حقًّا، ولو وجدت متسوِّلًا على بابك، لامتعضت بعض الشيء، أما إن وجدته في فراشك، فتلك المصيبة.

قالت الكاردينالة: «هو فارس معبد، في خدمة قداستها المُؤتَمَنة»، وكان ذلك بعيدًا عن التفسير، وأبعد عن كونه عزاء. أكملت: «رجل ذو باع طويل، خبير».

زمجر يعقوب بكلمة واحدة خرجت من فمه المتخشِّب كحفنة حصى قديم بين فكي رحى جديدة: «طويل».

تابعت الكاردينالة: «إن إرشاده ونُصحه، فضلًا عن سيفه، سيكون لك عونًا لا يُقدَّر بثمن».

- سيفه؟

ما عاد الأخ دياز يدرك إلى أين تمضي هذه المقابلة، لكنَّه لم يُحبَّ البتَّة أن يُفهم منها أنه قد يحتاج إلى سيف حيث يُرسَل.

ضيَّقت الكاردينالة عينيها قليلًا وقالت: «نحن نعيش في عالم تحفه الأخطار».

قال: «نعيش؟»، ثم لمَّا تروَّى في معناها، بدَّلها إلى ملاحظة حزينة: «نعيش»، ثم إلى تقرير قاتم: «نعيش». وإن لم يكن هو شخصيًّا يعيشها.

فهو يسكن زنزانة صغيرة لكن -حين تفكر فيها- مريحة، تطلُّ على البحر، وتهبُّ عبر نوافذها نسائم تحمل روائح العَرعر في مثل هذا الفصل من السنة. غير أن الريح المُحمَّلة بالعَرعر لم تكن -كما خمن- من الأخطار التي تعنيها الكاردينالة. وقد صحَّ حدسه على الفور.

قالت الكاردينالة: «الكنيسة الشرقية والغربية في شقاق». بدت سماحتها تُحدِّق فوق رأس الأخ دياز إلى بُعدٍ تملؤه المخاطر.

فقال الأخ دياز، راغبًا في إظهار علمه بشؤون الساعة واللاهوت معًا: «أعرف أنَّ المجمع المسكوني الخامس عشر لم يُفلح في رتق ما بقي من خلاف». وكان يعلم أن كنيسة الشرق تسمح بوجود رجال دين، وأنهم يلبسون العجلة بدل الدائرة، وأن ثمَّة نزاعًا مريرًا حول تاريخ عيد الفصح، لكنَّه في الحقيقة لم يفقه شيئًا من جذر الانقسام. وقليلون غيره يفقهونه هذه الأيام.

قالت: «إن أمراء أوروبا الطامعين أعرضوا عن واجباتهم المُقدَّسة وتنازعوا على السلطان الدنيوي».

فرفع الأخ دياز عينيه إلى السقف بتقوى مصطنعة وقال: «سيقف جميعهم للحساب في الآخرة».

لكن الكاردينالة قالت بحدَّة جعلت شعر ذراعيه ينتصب: «بل وددتُ لو وقفوا للحساب أبكر بكثير، وفي غضون ذلك، فإننا نُبتلى بغزوٍ من شتَّى الوحوش، من العفاريت، والغيلان، والساحرات، والمشعوذين، وكل من يتعامل بأصناف السحر الأسود».

ولم تسعفه الكلمات لوهلة، فاكتفى برسم دائرة على صدره.

قالت: «ولا ننسى القوى الأشد شيطنة، التي تحيك خراب الخلق من ليلٍ عاوٍ سرمدي وراء هذا العالم».

قال الأخ دياز هامسًا، وهو يرسم الدائرة بتلهُّف أكبر: «شياطين يا سماحتكم؟".

قالت: «ثم إنَّ ثمَّة خطر الإلف الماحق. فلن يظلُّوا في الأرض المُقدَّسة إلى الأبد. وإن أعداء الرب ليخرجوا من الشرق ثانيةً، حاملين نارهم النجسة، وسمومهم القذرة، ونهمهم الملعون».

قال بصوت مبحوح، وقد أوشك أن يحفر دائرة في صدر ردائه: «عليهم اللعنة... هل هو أمر محتوم يا سماحتكم؟".

قالت: «إن عرَّافي الجوقة السماوية قد سُئلوا، ولم يتركوا في الأمر شبهة. نحن نعيش في عالم غارق في الظلمة، وكنيستنا هي النور الوحيد فيه، وهي رجاء البشرية الأوحد. فهل يجوز لنا نحن الأخيار، أن ندع ذلك النور يُطفأ؟".

فأجاب الأخ دياز، وقد وجد هذه سهلة: «قطعًا لا يا سماحتكم»، وهزَّ رأسه بقوة.

قالت: «وفي هذه المعركة التي لا توصف إلا بأنَّها صراع الخير المحض مع الشر المحض، فإن الهزيمة ليست خيار».

قال دياز، وقد تحوَّل من الهزِّ إلى الإيماء: «كذلك هو يا سماحتكم».

قالت: «وإذا كانت خليقة الرب ونفوس عباده جميعًا على المحكِّ، فإن التريُّث جنون. التريُّث خيانة شنعاء لواجبنا المقدَّس. التريُّث إثم».

شعر الأخ دياز أنَّه بدأ يتقدَّم في أرضٍ لاهوتية رخوة، كمثل دبٍّ أخرق يطارد الأرانب فوق بحيرة متجمِّدة لم تكتمل صلابتها. قال متردِّدًا: «حسنًا...».

قالت: «يأتي وقت تبلغ فيه جسامة الرهان مبلغًا يجعل من الاعتراض الأخلاقي ضربًا من اللا أخلاق».

قال متردِّدًا وهو يتلعثم: «أيفعلون؟ أعني... يفعلون؟ أي أنَّهم... يفعلون. أيفعلون؟".

ابتسمت الكاردينالة زيزكا، وابتسامتها لسببٍ ما كانت أشد إقلاقًا من عبوسها. قالت: «هل تعرف معبد الذرائع المُقدَّسة؟».

قال: «لا... لا أظنُّني...».

قالت: «هو أحد المعابد الثلاثة عشر في القصر السماوي. بل من أقدمها، قدمَ الكنيسة ذاتها».

قال: «كنت أظنُّها اثني عشر، واحد لكلِّ فضيلة من الفضائل الاثنتي عشرة...».

قالت: «قد يقتضي الأمر أحيانًا أن نُسدل الستار على بعض الحقائق المؤسفة. غير أنَّنا، في صميم الكنيسة، لا بُدَّ أن ننظر إلى ما وراء مظاهر الفضيلة. علينا أن نُعالج الواقع بأدواته».

تساءل الأخ دياز في نفسه: أهو اختبار من نوعٍ ما؟ ربِّي، ليتَه كذلك. لكن لو كان، فما له أدنى فكرة عن كيفية اجتيازه. قال: «أنا... إه...».

قالت: «لا بدَّ للكنيسة أن تظلَّ وفيةً لتعاليم مخلِّصنا، هذا أمر لا ريب فيه. لكن ثمَّة أعمالًا لا بُدَّ أن تُؤدى، ووسائلَ لا بُدَّ أن تُستعمل، لا تصلح لها الأرواح الطاهرة ولا الذين لا غبار عليهم».

وإن كنتَ تضيق بصرك كثيرًا، فلعلك ترى في ذلك منطق، غير أن الأخ دياز لم يرد أن يقف قريبًا منها، ولا من بعيد. نظر إلى يعقوب الثورني، فلم يجد فيه عونًا البتة. لقد بدا كرجلٍ لا تُغتفر وسائله.

قال: «لست متيقِّنًا أنني أستوعب تمامًا...».

قالت: «إن تلك الأعمال تؤدى، وتلك الوسائل تُستعمل، على يد جماعة معبد الذرائع المُقدَّسة».

قال: «على يد الجماعة؟».

قالت: «بإمرة راعيهم»، ورفعت حاجبيها إشارةً بليغة.

وسارع الأخ دياز إلى رفع حاجبه هو أيضًا دون إرادةٍ منه، ثم أشار بتردُّد إلى صدره بأطراف أصابعه.

قالت: «إن قداستها قد اختارتك لهذا الشرف. بابتيست ستقدِّمك إلى مَن أُوكلوا إليك».

استدار الأخ دياز للمرَّة الثانية، فإذا امرأة تسند ظهرها إلى الجدار خلفه، وقد عقدت ذراعيها. ولم يدر أأقبلت في خفية أم كانت واقفةً هناك منذ البدء، وكلا الأمرين لا يُطمئن. لم يستطيع تمييز موطنها، لكنه خمَّن أن لها أصلًا من شواطئ البحر المتوسِّط. وقد بدت له مساويةً في الخطر ليعقوب الثورني، لكن على صورةٍ مناقضة. فإن كانت ثيابه رثَّة، فثيابها متباهية. وإن كان وجهه جامدًا، فوجهها واسع التعابير. ولها هي الأخرى ندوب: واحدة عبر فمها، وأخرى تحت طرف عينها تشبه دمعة، وقد بدت في غير موضعها إذ ظلَّت زاوية فمها تلوِّح بابتسامة ساخرة لا تفارقها.

رفعت قبعة مزيَّنة بشرائط من ذهب، وانحنت انحناءة بالغة حتَّى لامست خصلاتها السوداء البلاط، ثم استوت واقفة، ووضعت قدمًا على الأخرى في هيئة استهتار أثارت استياء الأخ دياز، وهو يغوص في فزعه المتزايد.

قال متردِّدًا: «أهي... من رعيَّتي؟».

انفرجت تلك الابتسامة الجانبية عن ابتسامةٍ كاملة. قالت: «مآآآآه».

قالت الكاردينالة زيزكا: «بابتيست هي، إن صحَّ القول في السياق الخاص للمعبد... خادمة علمانية؟»، وسكتت لحظة وهي تتأملها.

أصدر يعقوب الثورني صوتًا غريبًا، ولو صدر من وجهٍ آخر لظنَّه الأخ دياز ضحكة.

قالت بابتيست، وهي تحاول دس خصلاتها النافرة تحت القبعة من جديد، وقد أفلت منها كثير: «الإقامة في دير نساء لبضعة أسابيع هو أقرب ما اقتربت به من الكهنوتية. ولم يكن الأمر على هوى الراهبات، لكنهن كنَّ بحاجة إلى المال».

قال دياز: «الراهبات؟».

قالت: «الراهبات يشربن يا أخي كغيرهن من الناس. بل ربما أكثر. وقد تشرفتُ بخدمة أكثر من راعٍ سابقٍ للمعبد، ومنهم الذي سبقك».

قال: «خدمته بأي صورة؟»، وكان في نفسه يخشى الجواب.

اتسعت ابتسامتها، وانكشف خلف الندبة سنَّان من ذهب، في الأعلى والأسفل. قالت: «بكل ما هو نافع في حينه».

قالت الكاردينالة: «تبدو عليك الحيرة».

والحيرة أقل ما كان فيه. فلم يدرِ ما الذي أوقعه في هذا، ولا كيف، غير أنَّه بدأ يشعر يقينًا أنَّه لا يريد البقاء فيه، وإن لم ينسحب سريعًا، فلن يُتاح له ذلك أبدًا. قال: «أنتم تعلمون... إنَّ شأني... في الأغلب... الإدارة؟»، وكان الجدار الحجري الخالي من النوافذ خلف الكاردينالة قد أخذ يبدو له كزنزانة.

قال: «أنا أنظم السجلات في مكتبة الدير. تلك كانت... مساهمتي الكبرى»، وكان يجاهد لتصغير ما بالغ في تعظيمه شهورًا. قال:

«الحسابات. الأوراق. بعض التفاوض على حقوق الرعي، وما إلى ذلك. أصابع مغمَّسة بالحبر»، وضحك، فلم يضحك أحد، فماتت ضحكته ميتةً موجعة كميتة القديس برنابا في صورته المؤطرة على الجدار.

قال متردِّدًا وهو يشير نحو يعقوب الثورني: «ولذا، فرسان، و...». ثم أشار نحو بابتيست، وتبيَّن أنَّه لا يدري ماذا يُسمِّيها، فاستسلم وقال: «... وشياطين تهدر في ليل سرمدي خارج العالم...».

قالت الكاردينالة زيزكا، وقد بدا الضيق في نبرتها: «نعم؟».

قال: «يبدو هذا كلُّه خارج نطاق خبرتي...؟».

قالت: «أكان لدى القديسة إفاريست خبرة حين تناولت رمح أبيها وهي في الخامسة عشرة، وقادت الحملة الصليبية الثالثة ضد الإلف؟».

قال دياز متردِّدًا وهو يقطِّب جبينه: «لكن ألم... ينتهِ بها الحال، تُؤكَل حيَّة؟».

كشر جبين الكاردينالة وقالت: «نحن في حربٍ دفاعًا عن وجودنا ضد أعداء لا يعرفون الرحمة. ولكي ننتصر، ينبغي أحيانًا أن نستعمل أسلحة خصمنا. ولكي تحارب النار، ينبغي أن تُسخر النار».

ازدادت تقطيبة دياز تعقيدًا. قال: «أفلا يُفضي ذلك يا سماحتكم إلى ضرورة الاستعداد لتطويع الشياطين... إذا أردنا الاستعداد لمحاربة الشياطين؟».

نهض يعقوب الثورني ببطء، متَّكئًا إلى الأمام، وكشف عن أسنانه وقال: «أصبت كبد الأمر».

قالت الكاردينالة، وهي تنهض، وتنزع السلسلة من ظهر الكرسي وتُلقي بها على كتفيها مائلة، فاهتزَّت الدائرة المرصَّعة في عنقها: «هذه فرصة عظيمة لرفعك، ورفعة مصالح الكنيسة. ولكن، والأهم... لفعل

الخير». ثم وضعت قبعتها على رأسها بإحكام، في إشارة لا لبس فيها إلى أن الحديث قد انتهى، وأن أمره قد قُضي.

- أليس هذا سبب التحاقنا بالكنيسة؟

أمُّه هي من دفعته إلى سلك الرهبنة، اتِّقاءً للفضيحة التي جلبها على أسرته. غير أنَّه شكَّ أن سماحة سيِّدة هيئة الكنيسة الدنيوية ترغب في سماع ذلك. وكان ثمة أمر واحد يدخل في باب خبرة الأخ دياز: أن يقول للناس ما يرغبون في سماعه.

قال، وقد تكلَّف ابتسامة باهتة: «بالطبع. لفعل الخير».

أيًّا يكن ما يعنيه ذلك.

4

مثل هذا الحظ

وقفت أليكس عند النافذة، ولامس النسيم البارد خدَّها، والنار الدافئة وراء ظهرها، تفرك قبضتها المضمدة وتنظر إلى المدينة المقدسة من علو.

ومن هذا العلو، لا مطمورة في أزقتها، بدت كأنها مكان آخر. مكان جميل، بل مهيب. جنائن وقصور شاحبة على رؤوس التلال، وتماثيل للملائكة على رؤوس قرميدها. شوارع فسيحة، ودور شاهقة على السفوح، وعشرات من منارات الكنائس ومقامات العابدين تعلوها دوائر الإيمان. كلها تذوب إلى متاهة عشوائية من أسطح الأحياء الفقيرة في الأودية، لماعة من أثر مطر ثلجي بارد انقطع لتوِّه. وكان بالإمكان أن تبصر الخرائب التي شيَّدت المدينة فوقها، وحولها، ومنها -كتل شاهقة، وكتل مبهمة، وجدران مائلة يثقلها اللبلاب، بقايا إمبراطورية خَرِبة، تطل من الحشد كعظام هيكل عظمي هائل. برزت الأُختان الشاحبتان كالأصابع، عمودين متداعيين خلَّفهما معبد فخم، وقد شيَّد عليهما بعض القساوسة الأذكياء برجين متنافسين للناقوس، ينتصبان فوق المدينة ويقرعان على بعضهما في كل حين صلاة وكأنهما طفلين توأمين يصرخان طلبًا لحنان أمٍّ.

ومن هنا، ما كان ليدور في خلد المرء ما يجري في ظلالهما من عناء وصراع، حيث لا أوفر لحظة من نسيم عليل من حظٍّ قزم في أن يلمس الجنة. والنفاية الآدمية تزحف فوق بعضها كنمل على تلته. الكذب، والمكر، والجرح لأجل التقدُّم خطوة. أصداء الترانيم وصياح الباعة تتصاعد إلى فوق، واهنة على الريح الباردة، لغط الإيمان والغضب مخنوق بالمسافة، كأن لا شأن لها به بعد الآن.

غسلتها طائفة من الراهبات، ودعكن جسدها، ولففنها في رداء موشى بوجوه القدِّيسين بخيوط فضية، عليه فرو عند الياقة، ويكاد دفؤه على خدِّها يبكيها. بالكاد عرفت وجهها في المرآة. بالكاد عرفت يديها وقد كُشط الوسخ من تحت أظفارها المقضومة. ولا تحسب أنها اقتربت من هذا القدر من النظافة في حياتها، ولم تكن واثقة بأنها ترتاح لها، إذ صدمها ملمس شعرها، بعدما جززن عقده الألف، ومشطنه حتَّى برق.

وقد ترك لها المشط. من فضة، وفي مقبضه كهرمان. وما فتئت تتساءل عن السعر الذي قد تقدره به جال ذات الصرة، وكم تبلغ قيمته الحقيقية. ما كفت يدها عن الزحف إليه، وإصبعها تنقر، تنقر، تنقر على حافة النافذة. وما كانت لتعدَّها سرقة في عُرفها، بل التقاطًا لما أُلقي.

إن لم تشأ أن يُسرَق منك مشطك، فلا تتركه مع سارقة...

طَرق طارق على الباب، فسحبت يدها بعنف، وقلبها يدق كطبول ساخطة، واجتاحتها رغبة مجنونة في الانزلاق من النافذة والهبوط ممسكة بماسورة صرف، وصوت مروع في رأسها يصرخ بأنَّها ضحية خدعة ما، وقريبًا ستعاني الأمرين.

لكن كان ثمَّة صوت أبرد وأرق، يهمس بأنها قد تعتصر من هذا المقام ما هو أغلى من مشط ثمين. غنيمة عظيمة. كل ما يلزمها هو ابتداع كذبة، أليست كذَّابة؟ لقد لعبت من الأدوار ما جعلها بالكاد تعرف أيها كانت. فهي بَصَلة من قشور لا قلب لها.

فسحبت نفسًا بطيئًا، وبسطت قبضتيها، وحاولت الانسلال من قوقعتها المعهودة، وتبدو كأنها تستحق أن تكون هنا. حاولت التلطف: «تفضَّل»، كما قد تقول أميرة، لكنها نطقت «تفضّ» بصوت أجش، ثم ذهبت بعيدًا في «ل» فخرج منها صوت يشبه حمامة تتحوَّل إلى خنزير، وكادت تصفع وجهها من خيبتها إذ فُتح الباب.

دخل منقذها غير المحتمل، الدوق مايكل، كما يصف نفسه. وابتسم ابتسامة مترددة، كأنه لا يثق بها، وذلك من حصافة رأيه، إذ أنها جرذ غادر، وسل أي أحد.

قال: «ها؟ أليس هذا أحسن؟».

دست خصلة من شعرها خلف أذنها بطريقة أرادت بها أن تبدو جذَّابة، لكنها لا تدري ماذا تعني «جذَّابة» أصلًا، فضلًا عن كيف تبدو بها.

قالت: «أخرجت السمك من شعري».

- يعاملونك برفق؟

- خير من أولئك الأنذال الثلاثة في السوق. كان من الأجدر أن تقتلهم وتأخذ المال.

بل الأحسن أن تعطيها إياه.

قال الدوق مايكل: «القدير لا يحب القتل، إن كنتُ أذكر كتابه المقدَّس».

قالت: «له استثناءات كثيرة ممَّا رأيت».

- للرب تلك الرفاهية، فهو أقل تعرُّضًا للطعن في سوق سمك.

- معك سيف.

- الرجال المسلحون يموتون بسهولة موت سائر الرجال، هذا ما تعلمته بعد كل تلك السنين في حمله. بل غالبًا قبلهم. ثمَّ إنني لم

أشأ أن أخاطر بيوسابيوس. الدوقات الجدد يُخلَقون بكلمة، لكن الخدم المُخلصين كنوز نادرة. أتأذنين لي بالدخول؟

وما كانت أليكس لتتذكر أن أحدًا سألها مثل هذا من قبل. وما ملكت قط مأوى لها. والناس الذين خالطتهم لم يكونوا ممن يطلبون الإذن. فطابت لها الوقفة القصيرة قبل هز رأسها هزَّة متعالية وتقول: «ادخل».

قال الدوق مايكل وهو يخطو إلى الغرفة: «أتوقَّع أن لديكِ... بعض الأسئلة».

قالت، ونظرتها صلبة كعقدة الحبل: «سؤال أو اثنان. أولًا، أكلُّ هذا لأجل متعة خاصة؟».

فانفجر ضاحكًا وقال: «لا. يا إلهي، لا. أبدًا».

قالت: «حسن. ممتاز». وحاولت ألا تبدي ارتياحها. فما الحاجة إلى أن تفتح الحديث عن شروطٍ كانت تفكِّر بها أن الأمر لمتعته.

قال: «أنا خالك يا أليكس. طال بحثي عنك. وأنتِ الآن في مأمن».

قالت، وهي تكبت خطوتها إلى الوراء: «أمان». وما كانت تدري ما تصنع بالأمان أكثر مما تدري ما تصنع بـ «هل أدخل؟». خالها الثري خرج من العدم ليقول لها إنها مميَّزة. ولا يكفي أن تصف الأمر على أنه يفوق الوصف.

- أأنت دوق حقًّا؟

- أنا كذلك، وإن... بلا دوقية، في الوقت الحاضر.

- تفريطٌ فادح. أن يفقد المرء دوقيته.

- سُلبت منِّي.

ثم خطا خطوة أخرى نحوها: «أتعلمين شيئًا عن سياسة إمبراطورية الشرق؟».

وكانت لتسرد عليه ما شاء من خفايا السياسة في الأحياء الفقيرة، أمَّا إمبراطورية الشرق فلطالما بدت بعيدة المنال.

- لعل في علمي بعض الثغرات...

- أسمعتِ بالإمبراطورة ثيودوسيا المباركة؟

قالت كاذبة: «طبعًا».

قال: «أنجبت ثلاثة أولاد. إيرين، ويودوكسيا، و... أنا».

قالت: «أُمُّك كانت إمبراطورة؟».

قال: «جدَّتك كانت إمبراطورة. عظيمة. وحين وافاها الأجل، كان الواجب أن تتوَّج أختي الكبرى إيرين، غير أنَّ أختي الصغرى يودوكسيا...». ثم صرف وجهه، وانكسر صوته، وقال: «... يودوكسيا قتلتها واغتصبت العرش. فقامت الحرب بيننا».

حدَّق إلى النار، وهزَّ رأسه كأنما أثقلته الندامات.

- قامت الحرب، وحلَّ القحط، وانقسمت الكنيستان في الشرق والغرب، وتعفَّنت مدينة طروادة الحصينة من داخلها. حمل خدم إيرين ابنتها الرضيعة بعيدًا إلى المدينة المقدسة، إلى حماية البابا. لكنَّها ضاعت في الطريق. وظننتُها قُتلت، زمَنًا طويلًا.

ثم رفع بصره إلى أليكس: «كان اسمها أليكسيا».

قالت: «وتظن... أنها أنا؟».

قال: «بل أعلم ذلك. هنالك وحمة في عنقك، والسلسلة التي ترتدين...». وأشار إلى حلقات قليلة تلمع بين الفرو الناعم عند الياقة.

فشدَّت ثوبها يغطيها وقالت: «لا تساوي شيئًا».

- أخطأتِ. أفيها نصف قطعة نقدية بالمصادفة؟

وببطء شديد، أخرجتها. لمع نصف قرص من النحاس على طرف السلسلة، مصقولًا بنعومة من أثر السنين على بشرتها، وحافته المسنَّنة تبرق.

- من أين عرفت؟

فمدَّ يده إلى ياقة ردائه، وأخرج سلسلة يلبسها هو، وحدَّقت وهي ترى على طرفها نصف قطعة نقدية أخرى. اقترب منها، ورفع سلاسلهما، وشعرت أليكس بشعيرات عنقها تنتصب إذ أبصرت أن الحواف المكسورة تتطابق تمامًا. قطعة واحدة.

- أعطوكِ هذه يوم غادرتِ طروادة. حتَّى لا يُشتبه في هويتك قط. لكنني علمت، منذ رأيتك.

ابتسم، وقد انقشع الحرج من وجهه، وكان دفؤه وصدقه يكادان يجعلانها تصدق.

- حتَّى والسمك في شعرك، وقبضة حول عنقك. تشبهين أمَّك تمامًا.

قالت أليكس، وبلعت ريقها: «أنا... لا أذكرها...».

- كانت خيرَنا. شجاعة دائمًا. واثقة دائمًا.

ثم أخذ يدها السليمة، وتلك المضمدة، وقبض عليهما بكفَّيه. كانت يداه كبيرتين، قويتين، ودافئتين، وحين كبتت غريزتها في نزع يديها، شعرت براحة غريبة في لمستهما.

قالت تتمتم: «انظر... أنا لا أعرف شيئًا... عن كوني أميرة...».

قال: «كل ما أريده... أن تكوني أنتِ».

وما كانت أليكس لتصدق أنه كان ليقول ذلك لو عرفها حق المعرفة. لكنَّ جال ذات الصرة لطالما قالت: «لا تقاطع الضحية حين تخطئ». وكان الدوق الآن يقطِّب حاجبيه إلى الأرض، فتركته يسترسل.

- علمت قبل أسابيع قلائل أن أختي يودوكسيا ماتت. ولم يحزن عليها أحد. بعضهم قال سُمًّا. وبعضهم قال تجربة سحرية انقلبت وبالًا... آخر عمل من أعمال الكِبر الشعوذي...

قالت أليكس، مستغربة: «شعوذي؟».

قال: «مهما يكن السبب، فإن عرشها فارغ!». ثم رمى ببصره إليها وثبَّته إلى عينيها: «وقد آن لك أن تعودي».

رفعت حاجبيها أكثر: «إلى عرش؟».

قال: «عرش الأفعى في طروادة».

في لقائهما الأول ناداها أميرة. وفي الثاني وضع لها لقب إمبراطورة. على هذه الوتيرة، ستصبح ملاكًا في وقت الشاي، وإلهة بحلول الليل.

قال، وعيناه تلتمعان: «لا أطيق انتظار أن أريكِ إياه يا أليكس! العمود، الذي شيده مهندسو قرطاجة السحرة القدماء، ينتصب فوق المدينة، ويلقي بظلِّه على الميناء كلِّه! وعلى قمَّته، الجنائن المعلَّقة المشهورة، أجمل مما يخطر على البال، تسقيها الينابيع الجبلية المنحدرة عبر القناة الكبرى!».

ثم قبض على كتفها، وبسط يده الأخرى كأن المنظر ماثل أمامهما.

- كاتدرائية الزيارة الملائكية تعلو الخُضرة، غاصَّة بالحجَّاج الذين يأتون لرؤية بقايا الحملات الكبرى! والقصر كذلك، والفنار فوق الجميع، أعظم منارة في أوروبا، وفي قمَّتها شعلة القدِّيسة نتاليا، تتلألأ كالنجم، تهدي أبناء طروادة وبناتها إلى الديار!

ثم استدار نحوها، وقبض على كتفها الأخرى، وأمسكها من ذراعيها، يباعد بينهما: «ديارنا يا أليكس!».

فحدَّقت إليه ترمش. وكل غرائزها -التي شحذتها عبر محن شتَّى- حثَّتها على اعتبار كل شيء كذبًا، وهل كان هنالك أقبح من هذا الركام من الخرافات المضحكة؟

ومع ذلك، ها هي. في القصر السماوي. دافئة أول مرَّة منذ أسابيع. في يدها مشط أغلى من كفَّيها. وعلى بدنها رداء أغلى من رأسها. وكان في هذا الرجل اللعين شيء يجعل كذبه محتمَلًا. وبدأت تُراود نفسها عن تصديقه. وبدأت تُراود نفسها عن تصديق من يزعم أنها هي.

فبدا أن الدوق مايكل أدرك إسهابه، فتركها وسحب يديه.

قال: «أدرك أنَّ هذا... كثير. وأدرك أنه لا بُدَّ مرعب. لكنني سأكون معك، في كل خطوة من الطريق».

قالت: «ما حظيت يومًا... بعائلة...». وما كانت تدري أقالتها صدقًا أم تقمُّصًا لدور، ولعلَّ في اختلاط الحال خير، فهنا تكمن أعظم الأكاذيب.

قال: «أنا آسف يا أليكس. أسف لأنني استغرقت كل هذا الوقت لأجدك. سنين طويلة... انطفأ فيها الأمل. دعيني أُصلح ما فات. دعيني أُعينك الآن». وقد لاح البلل في عينيه، فحسبَت أن الأنسب أن تظهر مثله. وما كان يلزمها إلا قليل من الذكريات الحزينة.

قالت وهي تشهق، وترفُّ عينيها، وتبتسم ابتسامة حيية: «أستطيع المحاولة». وقد راقها أداؤها.

قال: «ذاك كل ما أطلب». ومسح عينيه بمعصمه.

- هنالك الكثير من العمل. لا بُدَّ أن تلتقي الكاردينالةَ زيزكا! إنَّها قادرة على إعانتنا. عمَّا قريب، سنعود إلى حيث ننتمي يا أليكس!

ثم ابتسم، ولا أثر فيه للحرج، وتراجع خطوتين، وأغلق الباب وراءه.

قيل لأليكس أكثر من مرَّة أين يجب أن تكون. في السجن. في مجرى المياه. في حفرة ضحلة. في الجحيم، على قول بعضهم. مثل هذا الحظ لا بُدَّ أن يخبِّئ نصلًا في طيَّاته، لكن ما الخيارات؟

إنَّها مدينة للبابا كوليني بضعف ما تساويه، هذا إن كنت غاية في السخاء في تقدير قيمتها، وذاك ليس دينها الوحيد. فقد اقترضت من ملكة الكبة مالًا بفائدة فادحة، لتغشَّ في لعبة الورق ضد سوز الصغيرة، لكن تبين أن سوز أمكر منها في الغش، فخرجت أليكس مدينة لسوز، التي ستجدع أنفها لذلك، ولملكة الكبة، التي ستخلع ركبتيها لذلك، وما زالت مدينة لبابا كوليني، الذي سيأخذ بعض أسنانها وأصابعها، ثم -حين يعلم بالدينين الآخرين- على الأرجح عينيها أيضًا.

شكرًا جزيلًا، لكن اللعنة على هذا كله.

ومهما يكن في مسألة الأميرة هذه من شك، فإنها قد جاءت في وقت لا مثيل له. ستلعب الدور، وتأخذ ما يمكن أخذه، وحين تبدو الغيوم آتية، ستترك ما يسمى خالها في طريق متعرجة ما إلى طروادة، وتتخذ لها اسمًا جديدًا، وتستقر في موضع آخر.

كانت جال ذات الصرة تقول دائمًا: «عليك أن تعامل الناس كالبرتقال، اعصر ما استطعت من الأوغاد، ثم لا تذرف عليهم حسرة إذا ألقيت قشورهم اليابسة. عليك أن تعامل الناس كالأحجار التي تطأها. كدرجات السُّلَّم. وإلا استيقظت يومًا وما على ظهرك إلا آثار أحذية غيرك».

ولم تملك أليكس منع الابتسامة التي امتدَّت على وجهها. قد مرَّ زمن منذ جرَّبت واحدة، وأعجبها شعورها. بدأت تفكر أن الدوق مايكل قد يكون حجرًا يُوطأ في طريقها إلى مكانٍ شهيٍّ. لم تكن تدري ما هو ذاك المكان. فهي لا ترفع بصرها إلى أبعد من الوجبة القادمة منذ زمن طويل. لكنها ستكتشفه على الطريق. فهي سريعة البديهة، سل من شئت.

أسندت مرفقيها على حافة النافذة، والنسيم البارد يلامس خدَّها، والنار الدافئة على ظهرها، وابتسمت نحو الأحياء السفلية. وقد كان المرء ليرى أناسًا هناك إن دقَّق كثيرًا. لكنهم بعيدون جدًّا في الأسفل. ولم تملك إلا أن تدلِّك خدَّها بذاك الفرو الجميل مرَّة أخرى، وتضحك ضحكة خفيفة. ثم دسَّت المشط في كُمِّها.

فمن الأسلم التزام الحيطة.

5

قطيع من الخراف السود

استدار الأخ دياز ببطء، رأسه مائل إلى الوراء، وفمه مفتوح، يترنَّح من فرط الذهول.

- إنه بديع الجمال.

ولربما كان معبد الذرائع المقدسة أربعة أضعاف ارتفاعه في عرضه، بئرًا مجلجلة من رخام متعدد الألوان، تنفذ إليه أعمدة نور ملائكي من قبة شاهقة في الأعلى. وحوت المحاريب المحفورة تماثيل الفضائل في هيئة بشر، والجدران مكتظَّة بصور القديسين الكبار السبعة والسبعين، وزمرة مربكة من الصغار. وثمَّة منبر من الرخام السماقي، ما كان ليُعدَّ محورًا مخيِّبًا حتَّى في كاتدرائية، ونسخة مرصعة بالجواهر من الكتب المقدسة مفتوحة على المنضدة.

منضدته، كما أدرك، وقد بدأت الدهشة تذوب في دفء الرضا. منبره في معبده. لكنه لم يعرف بالخطابة قط. لكن في مكان كهذا؟ فليصنع لنفسه قدرة.

قالت بابتيست، وقد ألقت ذراعًا ودودة أكثر مما ينبغي على كتفيه وأشارت إلى لوحة: «إنها جميلة فعلًا، ذاك القديس ستيڤن من صنع هاڤاراتزا».

- حقًّا؟

- عرفته في الحقيقة.

- القديس ستيڤن؟

قالت: «هاڤاراتزا». ثم أزاحت خصلة شاردة عن وجهها، فعادت لتسقط على الفور، وقالت بتواضع: «رسم لي لوحة ذات مرَّة».

- رسمك؟

- كنت بين وظيفتين آنذاك، أعمل وصيفة لدى ملكة صقلية.

- أنتِ... ماذا؟

- كان يرسمها في النهار، وكنت أجلس ليرسمني مساءً.

ثم مالت لتهمس: «أراد التعري».

- آه...

قالت: «لكنني أصررت أن يبقى مرتديًا ثيابه!». ثم انفجرت ضاحكة، وتحوَّلت الضحكة إلى قهقهة، ثم تلاشت في صمت حرجٍ. ومسحت عينيها وقالت: «ومات بالزهري».

قال: «هاڤاراتزا؟».

قالت: «وملكة صقلية بعده بقليل. افهم من ذلك ما شئت. أظن أن دوق ميلان يحتفظ بتلك اللوحة».

- لوحة ملكة صقلية؟

- لا، لوحتي أنا. كان رجلًا رائعًا.

- دوق ميلان؟

قالت: «أغغ، لا. إنه خراء خالص. أعني هاڤاراتزا». ثم تأمَّلت تلك اللوحة للقديس ستيڤن، يبتسم ابتسامة ابتهاج فيما يعصر إلفان مسننان خصيتيه بملاقط محمَّاة.

- أحد أولئك النفوس الطاهرة التي لا تُصادف كثيرًا.

- أنا... آسف لسماع ذلك. عن موته، أعني، لا عن طهارة روحه...

ثم انتهز الفرصة لينسلَّ من تحت ذراع بابتيست. وما خالط امرأة على هذا القرب مذ سنين، وكانت العاقبة يومها غير سعيدة. فمدَّ يده بحنوٍّ إلى إحدى عشرات الشموع النذريَّة العملاقة، يزيد طولها عليه، وسماكتها كجذع شجرة، يتساءل كم كلفتها. وكان قد حقق نصرًا غير مشهود حين فاوض بنفسه على عقد جديد مع بائع شموع لديره، فله في ذلك دراية لا بأس بها.

- إنه معبد جميل حقًّا...

- وما عُدَّ الكبرياء من بين الفضائل الاثنتي عشرة، لكن بعد أن نُقِع في الخزي دهورًا، لم يملك إلَّا أن يتخيَّل وجوه إخوته المزعومين في قاعة الطعام حين يصلهم النبأ. قسيس؟ على معبد فخم يخصه؟ داخل القصر السماوي؟ وتخيَّل عِظم خيلاء أمِّه، وقد طُمست منجزات إخوته الحقيقيين، وصارت الأطباق تُدفع إليه أولًا، قبل أن يتنازعوا على البقايا...

وقطع صوت يعقوب الثورني الحادُّ حلمه من عرقه.

قال: «لن نمكث هنا طويلًا».

- لن نمكث؟

وقد دس الفارس يده تحت المنصة، يتأوَّه وهو ينقِّب عن شيء. فصدر صوت ارتطام، وصرير تروس، وانزاح المنبر ليكشف عن دَرَجٍ خفيٍّ يغور إلى الأسفل.

قال: «رعيتك في الأسفل».

ابتلع الأخ دياز ريقه، وهو يحدِّق إلى السواد الدامس تحت المعبد، وكلمات الكاردينالة زيزكا عن العواء فيما وراء الخليقة ترنُّ في أذنه، وشعر رقبته ينتصب.

قال: «لِمَ هم في الأسفل؟».

- قد يكون لحمايتهم.

قالت بابتيست، وهي تتناول شمعدانًا فيه ثلاث شمعات ترتجف نارها: «والأغلب أنه لحماية الآخرين».

ولمَّا هبط في إثرها، بدأ دياز يلحظ كثرة الخناجر التي على جسدها. فما كان ليفوته ذاك الضخم المشدود إلى فخذها اليمنى، ولا ذاك الأصغر قليلًا على فخذها اليسرى، لكنه الآن رأى واحدًا مقوَّسًا في أسفل حزامها، ولمعان قبضته من أعلى حذاء طويل، وبحق القدِّيسة بياتريكس، اثنين آخرين في الحذاء الآخر.

همس: «تحملين عددًا كبيرًا من السكاكين».

قالت: «وجدت أن نفادها فكرة سيئة». وأضاءت الشموع عينيها بلمعة لعوب لا تناسب موضوع الحديث.

- كيف أقتل أحدًا إذن؟

- أتفعلين ذلك... كثيرًا؟

قالت: «أحاول أن أقلِّله قدر المستطاع. لا تمدَّ عنقك، ذاك شعاري». ثم تنهدت وقالت: «لكن الحياة الطيِّبة لا بُدَّ أن تحوي بعض الندم».

قال دياز بلا نية: «لا بد».

وخلفه، زفر يعقوب الثورني تنهيدة متألِمًّا في كل خطوة يحتُّك فيها حذاؤه بالأرض.وتحوَّلت الجدران كلَّما نزلوا. فتغير الحجر المصقول إلى طوب مرصوص بإهمال، ثم إلى ذلك الصخر الرمادي الأملس الغريب، كالجدار الخلفي في مكتب زيزكا، والضوء المرتجف من الشموع يلقي ظلالًا عجيبة من حدباته وتموُّجاته. فمدَّ الأخ دياز يده، ولمسه بطرف أنامله. ناعم جدًّا، وصلب جدًّا، وبارد جدًّا.

قال يعقوب الثورني: «بقايا المدينة القديمة».

قالت بابتيست، من فوق كتفها: «لم يبقَ فوق الأرض سوى القليل، لكن في الأسفل أميال من الأنفاق. لا أحد يدري عمقها. كلها من صنع مهندسات قرطاجة الساحرات».

فنزع دياز أصابعه بعنف، ووضعها بتوتر على الانتفاخ في ردائه حيث خبَّأ قارورة القدِّيسة بياتريكس. ولم يقدر على طرد الشعور اللا عقلاني بأنه ينزل في أحشاء وحش.

ضحكت بابتيست وقالت: «مفارقة، حقًّا. قبل أن تصير المدينة المُقدَّسة، كانت... حسنًا...». وأضاء نور الشمعدان بابًا ضخمًا مرصَّعًا بالحديد، وقد احترق بعضه بالنار، ونُقشت عليه دوائر متداخلة من الرُّقى.

قالت: «مدينة غير مُقدَّسة؟». ثم ابتسمت بابتيست من فوق كتفها، وطرقت الباب بمفاصل يدها.

وتصلب الأخ دياز لما قد يكون من أهوال خلف الباب، فيما راحت الأقفال تصطكُّ، والباب يفتح على مصراعيه، لكن ما وراءه لم يكن إلا مخزنًا يحوي موقدًا وقدر طبخ، وصناديق وبراميل، ورفوفًا عليها أوانٍ وصحاف، ورجلًا أصلع ضخمًا يحمل مصباحًا من زيت الحوت. عبست بابتيست وهي تحدِّق إلى بابٍ آخر، أثقلَ من سابقه وأكثر امتلاءً بالنقوش.

قالت: «أكلُّ شيء مستقر؟».

أجاب الرجل الضخم، بلكنةٍ غليظة، وهو يجلس إلى مائدة ممسكا بكتاب صغير جدًّا: «اشتكى الساحر من طعامه، أمَّا سواه فلا شيء». ثم أومأ ناحية دياز وسأل: «أهذا كاهننا الجديد؟».

قال يعقوب: «الأخ دياز».

- آه، قشتالي؟

- ليونيسي...

غير أن الإصرار على التفريق بدا ضربًا من العبث في مثل هذه الحال.

- يسرُّني لقاؤك. اسمي هُب، وأتولى رعاية الشياطين.

ابتلع الأخ دياز ريقه وقال: «رعاية ماذا؟».

سأله هُب: «أما فهمتك الكاردينالة زيزكا؟».

قال يعقوب الثورني: «فهمته».

قالت بابتيست وهي تمضي إلى رفٍّ طويل تدلَّت منه عشرات الحلقات الضخمة من المفاتيح: «ليسوا شياطين بالضبط».

تمتم الأخ دياز: «لديكِ عدد هائل من المفاتيح».

قالت بابتيست، وقد اختارت أحدها وأخذت تنقِّب بينها: «حسنًا أيها الأخ، هذا لأننا بحاجة إلى عدد هائل من الأقفال».

قهقه هُب وقال: «ستكون بخير. فقط... لا تقترب من القضبان».

قال الأخ دياز بصوتٍ خفيض وهو يراقب بابتيست تعبث بالأقفال واحدًا تلو الآخر: «من ماذا؟».

- إيَّاك أن تقترب من القضبان، وكن متيقظًا، ولا تصدِّق حرفًا مما يقولونه، وستصيب خيرًا أكثر من سلفك.

- ماذا؟

قال هُب وقد وضع قدمًا على المائدة وصرف عينيه إلى كتابه: «أحسنتَ القول. ولا تمد عنقك، أليس كذلك يا بابتيست؟».

- أبدًا.

دفعت بابتيست المزلاجين الضخمين إلى الوراء أخيرًا، وفتحت الباب الثاني بكتفها، فانبثقت منه نسمة باردة خفيفة.

قال الأخ دياز بنبرة خافتة تشبه الأنين: «إنه يعتني بالشياطين».

قال يعقوب الثورني وهو يقدمه عبر العتبة: «لكنه من إنجلترا، وكلهم شياطين هناك».

امتد ممرٌّ في العتمة، يكون سقفه وجدرانه قبوًا نصف دائري من صخرٍ بدا كأنَّه ذائب. النور الوحيد جاء من ثلاث شمعاتٍ تتراقص في مشاعل صدئة، مسلَّطة على مجموعة من الأقواس في الجدار الأيسر. كاد أشبه بسرداب نبيذ، لولا القضبان التي سدت تلك الفتحات، وهي من حديدٍ أسود غليظ بسمك معصم الأخ دياز، وقد أُحكم إقفالها بأقفالٍ ثقيلة أخرى.

بلع ريقه وقال: «أهذه... زنازين؟». وبدت قديمة للغاية: «أي نوع من الأسرى كانت مهندسات قرطاج الساحرات يحبسن؟».

قالت بابتيست وهي تهز كتفيها: «الأخيار؟ أو شديدو الشر؟».

قال يعقوب: «من أبغضوهم، ومن خافوهم».

ثم انبعث صوت جرَّ سلاسل من أقرب زنزانة: «ومن لم يفقهوا أمره، ولا يزال الأمر على حاله».

خرج رجل من الظلال.

كان ذا هيئة مهيبة، كأنَّه من نبلاء شمال إفريقيا، شعره ولحيته سود قد شابهما الشيب.

- السجَّانون يتبدَّلون، ربَّما... لكن الظلم الحقير، والنفاق، والطغيان كلها خالدة.

وقد شوه هيبة الغاضب أمران لا سبيل لتجاهلهما: قُيد كاحلاه بسلسلة من حديدٍ أسود ثقيل، وكان عاريًا تمامًا.

أسندت بابتيست ظهرها إلى حافة القوس وقالت: «هل لي أن أعرِّفكم إلى أحدث فردٍ في أسرتنا الصغيرة. اسمه بالثازار...». ثم حدَّقت إلى السقف وهي تطنطن حلقة المفاتيح على سبَّابتها.

- نسيت بقيَّته.

قال الرجل وهو يفتح منخريه بفخر: «بالثازار شام إيفام دراكسي. وذاك اسم سيرنُّ صداه عبر التاريخ!».

قالت بابتيست وهي تغمز الأخ دياز: «طويلٌ بعض الشيء كي يُردِّد صداه، أليس كذلك؟ هكذا هم المشعوذون وأسماؤهم...».

صاح: «أنا ساحر أيها الأحمق!».

قالت بابتيست وهي تبتسم أوسع، ولمعت أسنانها الذهبية: «آه، أنا الحمقاء وأنت العبقري. ولهذا أنت عارٍ في قفص، وأنا التي بيديها المفتاح».

صرخ الساحر وقد ألصق وجهه بالقضبان، والأخ دياز يتراجع خطوة بحذر: «اضحكِ ما شئت! لكن لا قيد يقيدني! ولا تعويذة تملكني! سأحرِّر نفسي، وإذا فعلت، فإن انتقامي سيغدو حديث الأساطير!».

لوَّح بقبضته وهو يشتدُّ في ثورته حتَّى بلغ من الغضب أقصاه، وكان كلما فعل ذلك تأرجحت عورته في الهواء، وعلى الرغم من أنَّ الأخ دياز لم يرغب في رؤيتها، لكنه لم يقدر على صرف بصره، واضطر إلى رفع يده ليحجب عينيه.

- أيلزمه أن يكون عاريًا؟

قالت بابتيست: «كان يكنس تراب الزاوية ويكتب به على قميصه».

- والكتابة... خطيرة؟

قال يعقوب: «بل خطيرة للغاية».

قالت بابتيست: «هو متمرس شهير في فنون السحر الأسود، طارده صائدو السحر لتسع سنوات، وأدين إدانة قاطعة في محكمة السماء».

سأل الأخ دياز، وقد بلع ريقه: «أما كانوا... يحرقون الناس أحيانًا لأجل ذلك؟».

قالت بابتيست: «في بعض الأحايين النادرة يُمنَحون فرصة العتق لخدمة دائمة لقداستها».

زمجر بالثازار شام إيفام دراكسي: «عتق؟ ها! الفرق بين السحر الأسود والأبيض حيلةٌ مفضوحة، ولِدَت من الجهل المتعمَّد. كلاهما يُستخرج من بئرٍ واحدة، بل يُغرفان بدلو واحد! ثم تغمسون أنتم يا عقول الطوب كأسين وتسمُّون ما يوافق أهواءكم بياضًا، وما يُعجز عنه فهمكم سوادًا، وما هما إلا شيءٌ واحد...».

قال يعقوب: «وثمَّة مسألة الجثث الراقصة».

أضافت بابتيست: «ومسألة التفاوض مع الشياطين».

لوَّح بالثازار بيديه: «صفقة واحدة مع شيطان، ولا ينفكُّ الناس يتكلَّمون عنها!».

تمتم الأخ دياز: «أحتاج إلى الجلوس».

لكن لم يكن ثمَّة كرسي.

بدت الزنزانة التالية مرتبة، فيها سرير ضيِّق مرتب، وسجادتان باهتتان، ورفٌّ عليه كتب كثيرة، منها نسخة جميلة من الأسفار المقدسة. لكنها بدت خالية.

قالت بابتيست وهي تنقر على القضبان بخاتم رجل تلبسه: «ساني؟ يمكنك الظهور».

لم تقفز من الظلال، ولا ظهرت فجأة. لا بُدَّ أنها كانت واقفة هناك طوال الوقت. لكن، ولسببٍ لا يفهمه الأخ دياز، لم يرها حتَّى استدارت نحوه، وزفرت زفرة طويلة.

فذاك الوجه لا يمكن أن يُخطئه أحد. أنثوي، منثور عليه نمشٌ عادي، لكنه بدا كأنَّه صورة في مرآةٍ معوجَّة: نحيلًا على نحوٍ مستحيل عند

الفك، عريضًا على نحوٍ مستحيل عند الوجنتين، أنفٌ صغير للغاية، وعينان غاية في الاتساع لا تطرفان.

قال وهو يرسم دائرة النجاة على صدره: «فليحفظنا منقذنا». وكأنَّ الساحر ليس مرعبًا بما يكفي.

- إنها إلف.

تقدَّمت، وأصابعها الطويلة تنشب في القضبان كأرجل العناكب.

- الكاهن الجديد؟

يظنُّ المرء أن عدوة الرب تنطق بفحيحٍ شيطاني. لكن صوت الإلف حاد، عالٍ، عادي تمامًا، وقد خيَّب الظن.

قال يعقوب الثورني: «هذا هو الأخ دياز».

تأمَّلته الإلف، ولم ترمش، كأنَّها سحلية.

قالت: «تشرفت».

ثم اختفت.

همس الأخ دياز، بالكاد يخرج صوته من ضيقه: «لماذا... توجد إلف تحت قصر السماء؟».

لوَّحت بابتيست نحو الزنزانة التالية.

- للسبب ذاته الذي يجعل مصَّاص دماءٍ تحت قصر السماء.

في تلك الزنزانة رجلٌ هو الأشد شيخوخةً ممن رآهم الأخ دياز في حياته. ظهرٌ منحنٍ، وجهٌ كالقناع المتيبِّس، عنقٌ مترهِّل، بضع شعرات عائمة على رأس متجعِّد. لكن صوته فخم، ناعم، رفيع.

- لكي ننهض بالأعمال التي لا يجرؤ عليها أهل الطوابق العليا. أنا البارون ريكارد، ولا يسعني إلا الاعتذار عن وضاعة حالتي.

ثم نظر إلى العكَّاز الذي يتَّكئ عليه بيدٍ ملتوية مرتجفة.

- كنت لأنحني، لكن صلابة ظهري تنذرني بأنني لن أقوم...

قال الأخ دياز: «رجاءً، لا تجهد نفسك!».

لم يلتق الأخ دياز بارونًا من قبل، ولا يدري أين يضعه في متاهة أرستقراطية أوروبا، لكنَّه شعر أنَّ عليه أن يكون في أرفع حالات الأدب.

- إنه لشرفٌ لي أن...

مدَّ يعقوب الثورني ذراعه ليمنعه حين اقترب من القضبان.

- الأفضل أن تبقى بعيدًا.

قال البارون وهو يقترب، ويبتسم: «لا شكَّ أنك أدركت أن يعقوب مزعجٌ بحق».

له أسنانٌ عظيمة بالنسبة إلى سنه، بيضاء كاللؤلؤ، دقيقة الحواف، فدقق الأخ دياز تأملها من كثب.

- لا يسعني أن أخبرك عن حاجتي الشديدة إلى محادثة طيِّبة، وتعليمٍ روحي. من سبقك لم يكن نافعًا بشيء في هذا...

قاطع يعقوب بصوتٍ خشن: «لا تقترب من القضبان».

وتفاجأ الأخ دياز إذ وجد نفسه، دون أن يشعر، قد خطا خطوة أخرى نحو القفص.

قال البارون: «صدقًا يا يعقوب، ما من أحدٍ أدرى منك بكمِّ الدم الذي يحويه شابٌّ صحيح. نحن نعلم جميعًا أنه يستطيع التبرُّع ببضعة أرطال، أليس كذلك يا أخ دياز؟».

لمعت عينه بالمرح، فضحك دياز. يا له من شيخٍ لطيفٍ ظريف! كم ستفخر أمُّه إذا علمت أنه صادق بارونًا ذا مكانة! ولماذا يُسجن أصلًا؟ لقد خامرته فكرة أن ينتزع المفاتيح من بابتيست ويفتح الباب...

صرخ يعقوب: «ارجع عن القضبان!».

فوجئ الأخ دياز إذ وجد نفسه قد بلغ الشبك، وكان على وشك إدخال يده بين القضبان، قريبًا من وجه البارون الذابل. ثم انتزعها فجأة كمن سُفع بنار. فلحس البارون نابه بطرف لسانه ثم سحبه عنه بمصة تنم عن خيبة.

- لا يُلام المرء إن حاول.

قال الأخ دياز، قابضًا يدًا على صدره فوق الأخرى: «هل سحرتني؟ أكانت تلك تعويذة؟».

قال مصَّاص الدماء: «الأدب قد يبدو سحرًا في هذا الموضع. والفرق بينهما ليس بالبعيد كما يفضِّل البعض أن يتوهَّم. كما هو الحال بين الخير والشر».

شهق الأخ دياز في سخط.

- لكنَّنا، في الأعمِّ الأغلب، نتَّفق أنَّ التلذذ بدم الأبرياء شرٌّ بَيِّن!

قال البارون: «كنت لأنحني لحكمتك. لو كان ظهري يسمح».

ثم زفر زفرة من جلدٍ يابس وهو يستدير.

- لو أن مصَّاصي الدماء يملكون حُسن التقدير الأخلاقي... لما احتاجت الدنيا إلى كهنة.

الزنزانة التالية لم تحوِ إلا قشًّا متَّسخًا، ودلوًا، ومجموعة خدوشٍ مقلقة، ورائحةً حيوانية ذكَّرت الأخ دياز بزيارة ندم عليها فورًا إلى مسلخ في أبيليس.

قالت بابتيست وهي تحكُّ عنقها: «اضطررنا إلى نقل آخر أفراد قطيعنا إلى سكنٍ أكثر أمانًا بسبب...».

وكان بحثها عن الكلمة المناسبة، وهي التي لا تفتقر إلى الكلمات، نذيرًا غير مبشِّر.

قال يعقوب: «سلوك غير مقبول».

- هذا وصف مُخفَّف. أحيانًا يكون عندنا نزلاء أكثر، وأحيانًا أقل. المهمات الموكلة إلى معبد الذرائع المُقدَّسة تؤدي إلى نوع من...

قال يعقوب: «التقلُّب».

لم يجد الأخ دياز ما يقول. وحقًّا، وجد صعوبة في التنفس هنا. وشعر بدوار. وكأن الأرض تحت قدميه قد تُسحب في أي لحظة. حاول أن يرخي طوقه من جديد. كلُّ ما أراده حياة مريحة، في مكان مشمس، أن يُحترم في أعين التافهين، ويُحسب حكيمًا عند الجهلاء، ويُعدُّ ذا شأنٍ عند من لا شأن له. لكنَّه، لسبب لا يفقهه، وجد نفسه مدعوًّا إلى مجالسة فرسان مجروحين وعارضات بدوام جزئي، في وجه أخطار مجهولة تهدِّد الخليقة، وكلُّ ذلك دون الاقتراب من الأقفاص التي يُحبس فيها رعيَّته.

قال بصوتٍ يكاد يكون نحيبًا، لا إلى أحد: «قضيت سنين كثيرة في دير... بعيدًا عن كل شيء، في المكتبة أغلب الوقت، أقضي وقتي في بعض أعمال المحاسبة، وقليل من تنسيق الأعشاب في الحديقة...».

ربَّاه، وقد بدأ يشتهي الرجوع إلى هناك.

أكمل: «وليس عندي... أي خبرة في...». ولوَّح بيده ليشمل سرداب الساحرات المهندسات حيث الساحر العاري، والإلف المتلاشية، والمصَّاص الهرم، وذلك الشيء الذي لم يُؤذن له أن يبقى: «كلُّ هذا».

قال يعقوب الثورني: «سلفك كان ذا خبرة».

قالت بابتيست، وهي تلوِّح بالمفاتيح بحزن: «ولا أحد أزيد منه خبرة».

سأل الأخ دياز، متعلِّقًا ببصيص رجاء في نهاية نفقٍ مظلم: «وماذا حدث له، منصب آخر؟».

تجهم وجه بابتيست: «الأم فرَّارا كانت امرأة... صلبة. مفعمة بالإيمان. مفعمة بالحماسة».

قال يعقوب: «هَه».

قالت بابتيست: «لكن الأشياء الصلبة... إذا وُضعت تحت ضغطٍ شديد... تنكسر».

ردَّد الأخ دياز: «ضغط... شديد؟».

قالت بابتيست وهي تضع يدًا على كتفه، فإن كان القصد منها التطمين فقد أخفقت أيَّما إخفاق: «أنت ترى. معبد الذرائع المقدسة لا يصلح لمن يتعنَّتون في الدين».

قال يعقوب: «همم».

قالت بابتيست: «عن خبرتي، وهل ذكرتُ لك خبرتي؟...». ثم مررت ذراعها فوق كتفي الأخ دياز في عناقٍ لم يُطلب، وكان مقبض أحد سكاكينها الكثيرة يضغط على جنبه: «... خبرتي واسعة، إذا تعاملت مع كل شيء وكأنه قتال، عاجلًا أم آجلًا، والأغلب أنه عاجل...».

زمجر يعقوب وهو يحدِّق إلى الظلال بصرامة: «ستخسر أحدها».

تنحنح الأخ دياز. لم يكن من قبل يحتاج إلى التنحنح، لكنَّه صار مؤخرًا يفعل ذلك قبل كل جملة.

- لا أجرؤ على منازعة اتساع خبرتك...

قالت بابتيست: «وتلك بشارة بأنَّنا سننسجم انسجامًا عظيمًا!».

- لكن يبدو أنكِ لم تشرحي لي، تحديدًا، ما الذي جرى لسلفي.

التفت يعقوب بعينيه الرماديتين نحو الأخ دياز، كأنَّه تذكَّره لتوِّه.

- ماتت.

ثم شرع يعرج راجعًا من حيث أتوا.

همس الأخ دياز: «ماتت؟».

قالت بابتيست وهي تعصر كتفيه عصرة وداع: «ماتت تمامًا، ماتت تمامًا».

6

وُلدت في النار

الكاردينالة بوك، طويلة القامة، طيِّبة الطبع، لكنَّ ذهنها بدا مشغولًا دومًا بأمرٍ آخر.

- ما من أحدٍ يُساوره الشك، ما اسمها؟

قال الدوق مايكل: «أليكس».

قالت الكاردينالة بوك: «ما من أحدٍ يُساوره الشك يا أليكس».

وليس في هذا شيء من الصحة، فهي لديها شكوك كثيرة، وليست هي إلا شكًّا متجسِّدًا. في أيِّ لحظة الآن وسيدركون أنهم لم يعثروا على أميرة ضائعة، بل على كومة قذارة. لكنَّ جال ذات الصرة تقول دومًا لا تتخل عن كذبتك أبدًا. إن اعترفتَ بالحقيقة، فأنت في خبر كان. تمسَّك بالكذبة، فلا تدري ماذا سيحدث. اكذب حتَّى تصل إلى المشنقة، اكذب والحبل حول عنقك، دعهم يدفنون جثتك الكاذبة وأنت لا تزال تروي القصة ذاتها. الحقيقة رفاهيةٌ لا يقدر أمثالك على ثمنها.

قالت الكاردينالة بوك وهي تسرع بخطى مزلزلة في دهاليز قصر السماء الباردة: «هذه هي عملتك النصفية، ووحمتك، وخالك مقتنع تمامًا...».

قال الدوق مايكل وهو يبتسم لأليكس ابتسامةً كانت ممتنَّة لها أيما امتنان: «تمامًا».

قالت بوك: «... فما من أحدٍ هنا يساوره شك. لكن حين تصلين إلى طروادة... إن وصلتِ إلى طروادة... فسيطلبون دليلًا لا جدال فيه. وأتفهم هذا طبعًا. فليس الأمر متجر جبن ورثتِه عن جدتك، أليس كذلك؟».

قالت أليكس ضاحكةً ضحكةً فيها شيء من الحسرة: «لا».

راقتها فكرة متجر الجبن. كانت لتقدر عليه. وسيكون في حدود مسؤولياتها.

قالت بوك وهي تربِّت على بطنها بتفكُّر: «إنه فقط ذلك اليقين الإضافي الصغير. الكريمة فوق الكعكة».

ثم التفتت إلى إحدى الراهبات المرافِقات.

- الأخت ستيفانو، سجِّلي أني أحتاج إلى إرسال طلب كعكة. رغبتُ في واحدة الآن. أحدٌ آخر؟ كعكة؟

وكانت لأليكس قاعدة: لا ترفض طعامًا يُعرض. لكنها لم تُفلح في النطق بـ «نعم»، إذ توقَّفت الكاردينالة بوك فجأة أمام باب ثقيل يحرسه جنود مدرَّعون، وقالت: «وها نحن هنا».

ثم بدأت تلوِّح بيدها: «آزول ساز كَرغا، بهذا العصا، بهذا الزيت، بهذه الإرادة، بهذه الكلمة، أُقدِّس البوابة. دروز نوكس كَرغا، لا أسمح لفكرة نجسة أن تعبر. آمين. الأقفال، من فضلكم».

أدار كلُّ حارس عجلة، ودوَّى طحن الحديد بينما انزلقت القضبان المسنَّنة إلى الوراء. غريب أن يكون القفل من الخارج، كأنما صُمِّم ليُبقي شيئًا محبوسًا في الداخل. فُتح الباب وأُطلق زفير كأنه تنفُّس بعد كتم، ودخلت بوك.

أما أليكس، فلم تحبَّ السحر قطُّ، سواء الأبيض منه أو الأسود، أو حتَّى الخداع بورق اللعب. وتذكرت تلك الحادثة حين كُلِّفت بسرقة كتاب من أحد المشعوذين ولم تَسِر كما ينبغي. لكن هذا بدا أشد خطرًا وأثقل وطأة، وقد انتصبت شعيراتها القصيرة. لكن حين التفتت رأت

الدوق مايكل يبتسم لها ثانيةً، بتلك النظرة المشجِّعة، كأنه يصدقها، ذاك الأحمق، وظنَّت أنه سيُخيِّب أمله لو فرت. ولم يكن في وسعها إلا أن تدخل.

وما إن خطت خطوة حتَّى تمنت لو أنها لم تفعل.

فالغرفة من الجهة الأخرى كانت واسعة، دائرية، ذات قبة، مطلية كلَّها بالأبيض، شديدة السطوع حتَّى إنها آذت بصرها بعد عتمة الممرات. والأرضية المصقولة مرسوم فيها حلقات وخطوط عجيبة ورموز من معدن لامع. وانضمَّ تسعة رهبان على الجدران، كلٌّ منهم يقبض على شيء بين يديه: شمعة، منجل، حزمة أعشاب، وجباههم تلمع عرقًا، وشفاههم تتحرَّك بلا انقطاع، والهواء مفعم بهمس دعائهم الذي لا ينتهي.

قفزت أليكس حين صُفق الباب خلفها، وسُمِع صوت القضبان وهي تعود إلى موضعها من الداخل.

ولفتاةٍ لا تكفُّ عن التفكير في الهرب، فقد كانت بارعة في إضاعة الفرصة.

قطعت الكاردينالة بوك مسافة بالفعل فوق أرض السحر الواسعة، مرَّت بجانب كاتب يبدو شديد الارتباك على مكتب صغير، متَّجهة إلى كاهنةٍ برأس محلوق عند مركز الدائرة، والتي ركعت وفي يدها كتاب مفتوح وهي تلمِّع الأرضية بخرقة بهوس، ثم تنفخ فيها وتلمِّع من جديد.

قالت بوك هامسة: «رائع... رائع، رائع، ممتاز، ممتاز... هل راجعتِ الأختام ثلاث مرَّات؟».

قامت الكاهنة وهي تنفض ركبتيها، وطوت خرقتها: «وثلاثًا بعدها يا سُموك». ثم ناولتها بلَّورة لها مقبض.

سألت بوك: «المجامر ممتلئة، إن وقع شيء من جديد؟».

قالت الكاهنة: «لن يمرُّوا من بيننا هذه المرَّة يا سُموك».

أغمضت بوك إحدى عينيها وراحت تُجيل النظر بالبلّورة في أنحاء القاعة: «أولئك الأوغاد دائمًا ما ينكشون عند الحواف. دائمًا».

ابتلعت الكاهنة ريقها. وكانت قد حلقت حاجبيها أيضًا، كما لاحظت أليكس.

- كيف لأنفسنا أن تنسى يا سُموك؟

قالت بوك: «حسن، جميل، ممتاز». ثم أشارت إلى أليكس أن تتقدَّم.

- لا تقلقي، لا توجد إجابات خاطئة هنا.

حاولت أليكس الابتسام. لكنها عرفت من خبرتها: دائمًا هناك إجابات خاطئة، وغالبًا ستكون هي من ينطق بها.

قالت بوك: «أمرٌ واحد قبل أن نبدأ...».

أمسكت كتفي أليكس وأزاحتها خطوة إلى الأمام، ثم أرجعتها خطوة أو اثنتين حتَّى رضيت عن موضعها.

- ابقي داخل الدائرة.

تبعتها أليكس، ثم نظرت إلى أسفل فرأت حذاءها المُستعار الأنيق واقعًا ضمن دائرة نحاسية في مركز الأرض.

- ابقي داخل الدائرة مهما حدث.

فتراجعت بوك إلى الوراء باتجاه الكاهنة التي تحمل الكتاب، ولوَّحت إلى الدوق مايكل: «لو تتكرم وتنضمَّ إليَّ هنا يا سُموك. ينبغي أن نقف جنوب المركز طبعًا. لا تقلق البتَّة... ما اسمها مجددًا؟».

قال الدوق: «أليكس».

- لا تقلقي أبدًا يا أليكس. هذا كلُّه من الإجراءات المعتادة. وإن كانت الإجراءات المعتادة لا تخلو من المخاطر الجسيمة، فنحن كلُّنا نعرف المخاطر...

بلعت أليكس ريقها: «إيه...».

- فقط ابقي داخل الدائرة. مهما حدث. أدخِلوهم الآن!

فُتح بابان متقابلان في طرفي القاعة، ودخل فريقان من أربعة حراس، كل فريق يحمل كرسيًّا منصوبًا على أعمده. شعرت أليكس أن الرهبان التسعة يعرقون أكثر، ويتلون الأدعية أكثر، ووجوههم أشد ألمًا.

وجلس شخصان على المقعدَين، في قمصان بيضاء، معصوبي الأعين، وأيديهم وأرجلهم موثقة بالسلاسل. رجل وامرأة على الأرجح، لكن من الصعب الجزم، لأنَّهما نحيلان حد التلاشي. كانا جلدًا على عظم، شاحبا البشرة، وقشور حول شفاههما اليابسة. متدلِّيان كخِرَق، رؤوسهم تتأرجح مع كل خطوة، كجثث شحاذين. وقد ألفت أليكس الأجساد من هذا النوع أكثر مما تود، بل كادت تكون هي إحداها أكثر مما تحب أن تتذكَّر.

وُضع المقعدان، أحدهما عن يمينها والآخر عن يسارها، ثم انسحب الحرس مسرعين، كأنَّهم وضعوا برميلَيْ نفط وأليكس هي الشرارة. ثمانية محاربين لوَّحتهم المعارك، وكلُّهم بدَوا مذعورين.

قالت أليكس وهي تفتِّش بعينيها عن مخرج: «إيه...».

لكنَّ الأقفال بالخارج، وهي تعلم.

قالت بوك: «ابدؤوا».

صلصلت السلاسل، واندفع الأعمَيان إلى الأمام في مقعدَيهما، وتشابكت أيديهما بيدي أليكس.

فارتعدت وتراجعت، ثم أدركت أنها قد تخرج من الدائرة، فبقيت في موضعها.

بصوتٍ رنان قالت المرأة: «أرى الإلف!».

قال الرجل وهو ينوح: «الإلف قادمون! آلهتهم الجائعة المجنونة العمياء قادمة!».

صرخت المرأة وهي تشدُّ يد أليكس حتَّى كادت تكسرها: «نجِّنا يا رب، الإلف قادمون جوعى، جوعى، جوعى، يضحكون!».

نظرت أليكس إلى بوك كالمجنونة، لكن العجوز لوَّحت بيدها بلا مبالاة.

- لا تقلقي. هم يقولون ذلك دائمًا.

قالت أليكس بصوتٍ مبحوح: «وهذا أمرٌ حسن؟». أدخلت الكاردينالة بوك إصبعها تحت قلنسوتها القرمزية تحكُّ رأسها وقالت: «على المدى الطويل، لا شكَّ أنَّه مَثار قلق، لكن في الوقت الراهن...».

صرخت المرأة فجأة، وهي تنتفض، ترنح رأسها يمنة ويسرى: «أرى مبنًى عظيمًا! مبنًى قديمًا تعلوه مبانٍ، تحيط به مبانٍ، قدماه في البحر، رأسه في السحاب، أرى أنهارًا في السماء، وجنائن في القمة!».

قالت الكاردينالة بوك، ناظرةً إلى الدوق مايكل نظرة ذات معنى: «عمود طروادة».

وقد أخرجت الكاهنة التي بجانبها قلمًا قصيرًا من خلف أذنها وشرعت تخطُّ بعجلة في سجلِّها.

قال الرجل بصوت واهٍ كأنه يُسحب من ورقة: «أرى ابتلاءً... أرى محنًا واختبارات».

لم يُعجب أليكس وقع هذا الكلام. لكن لو أن هذين الشبحين الهزيلين تكلَّما عن كعكة، لكان وقعها بدوره مخيفًا.

قالت المرأة: «برجٌ... برجٌ عالٍ... أعلى برج، وفيه ضوء، ضوء يهدي المؤمنين، ضوء زائف، ضوء صادق، ضوء منعكس».

وقفت الكاردينالة بوك، تضيق عيناها بتركيزٍ كمن ينقِّب في الحصى عن الذهب.

قال الرجل: «مطاردةٌ داخل أخرى... مسلكٌ معوَّج... في البرِّ وفي البحر».

قال الرجل: «أرى أنيابًا».

قالت المرأة: «أرى أنيابًا».

هل ازداد الجو حرًّا؟ تصببت أليكس عرقًا.

- أرى راهبًا وفارسًا وذئبًا مدهونًا... أرى موتًا ولا موت... أرى دمًا... أرى دائرة.

- أرى عجلة.

صرخت المرأة بصوتٍ مفاجئ جعل أليكس تنتفض: «أرى نارًا! أرى نارًا، أرى نارًا، أرى نار تطهِّر، أرى نارًا في نهايتها!».

قال الرجل، بصوتٍ خافت، بالكاد يُسمع وسط الأدعية، يهمس به ثم يرفعه شيئًا فشيئًا: «أرى نارًا في بدايتها، أرى نارًا في بدايتها».

تبادلت بوك والدوق مايكل نظرةً أخرى.

- وُلدت في النار...

- پايروجينيتوس...

وارتسمت ابتسامة على وجه الدوق مايكل.

قال الرجل وهو يصرخ، قابضًا على يد أليكس حتَّى اشتعلت نارًا: «الإلف قادمون!».

وكوت حرارة كفَّيه جلدها، فأطبقت على أسنانها تكتم الأنين. وبدأت العصابة على عينيه تتفحَّم، نقطتان محترقتان تندلعان فوق مقلتيه.

الإلف قادمون!

قالت بوك بحدة: «يكفي!».

فارتخت أصابع العرَّافَين دفعةً واحدة، وسقطت أيديهما عن أليكس، وذوت ملامحهما، وانثنت رؤوسهما إلى الخلف، وعادا جثتين جائعتين.

أسرع المستجدون بدلاء الماء، وسكبوه على الأرضية، فتصاعد منه بخارٌ يئنُّ حين يلامس المعدن. ثم فتَّشت الكاهنة الحليقة في أداة تشبه البوصلة، ودوَّنت ملاحظة جديدة، ثم نفخت وجنتيها في تنهيدة، وأومأت إلى بوك.

قالت بوك وهي ترفع رأسها نحو السقف: «جيِّد، جيِّد! رائع... إذًا... في هذا اليوم، الحادي والعشرين من شهر الولاء...».

وانطلق قلم الكاتب يخطُّ على الورق.

- أنا، الكاردينالة بوك، ذات العقل السليم غير الملوَّث بفن أسود أو قوًى شيطانية، إلخ إلخ، أُثبت أنَّ المرشحة قد خضعت للفحص في قاعة باهتة مطهَّرة، تحت تسعة أختام، على يد عرَّافَين من جوقة السماء. اللعنة! ما اسمها مجددًا؟

قال الدوق مايكل: «أليكس».

- يمكنك الخروج من الدائرة الآن يا أليكس، لقد انتهينا!

تراجعت أليكس عن العرَّافَين المرتخيين، تفرك يديها بتوتر، وأصابعها لا تزال وردية وتخزها من أثر الحرارة.

قال الدوق مايكل وهو يضغط على كتفها ويبتسم: «أحسنتِ».

- كلُّ ما فعلته هو أنني وقفت هناك.

قال: «ذاك تسعة أعشار ما تفعله الإمبراطورة».

ثم ساقها عبر الأرضية المصقولة نحو المكتب.

همست: «ما معنى پايروجينيتوس؟».

- اللقب الذي يُمنح لأبناء الأسر الحاكمة الذين وُلدوا في حجرة النوم الإمبراطورية، في أعلى منارة طروادة، مباشرةً تحت شعلة القديسة نتاليا. ولا يُؤذن إلا للإمبراطورات أو لبكر الإمبراطورات أن يلدن هناك. إنها أقصى درجات الشرعية.

انحنت بوك فوق كاتبها، ويدٌ على المكتب، وهي تُكمل الإملاء: «... لذلك، فإنَّ قداسة بندكتا الأولى، الممنوحة سلطة الكاردينالية كاملة، والمتكلِّمة بمرسوم بابوي وكتاب مقدَّس، وبصوت الرب على الأرض، إلخ إلخ، تعلن أنَّها لا غيرها: الأميرة أليكسيا بايروجينيتوس، المولودة في النار، كبرى بنات إيرين، كبرى بنات ثيودوسيا، والوارثة الشرعية الوحيدة لعرش الأفعى في طروادة».

رمشت أليكس وهي ترى بوك تنتزع القلم من يد الكاتب، وتخطُّ إمضاءً متفجِّرًا.

قالت بوك وهي تعيد القلم إلى المحبرة، تتناثر منها نقطٌ سوداء على الكاتب: «وهكذا... نكون... قد...».

ثم ابتسمت في وجه أليكس ابتسامةً ساطعة.

انتهينا.

قالت أليكس وهي تبتلع ريقها: «حسنا، اللعنة».

قالت إحدى العرافات وهي تُحمَل بعيدًا، والدموع تسيل تحت عصابتها المحترقة، منحدرةً على وجنتيها الغائرتين: «سيأكلوننا جميعًا...».

جلست أليكس إلى المائدة، تقرب وجهها من الصحن، وتحرك الشوكة والسكِّين بأسرع ما تستطيع. كانت تفضِّل الأكل بيديها، فكلُّ شيءٍ يسقط من الملاعق، لكن ما دام أن شيئًا يدخل جوفها، فقد عُدَّ ذلك نصرًا.

راقب الدوق مايكل من الجانب الآخر للطاولة، بنظرة فيها شيء من التألُّم.

ولعل أحدا لا يتصور أنها طريقة أكل الأميرة، لكن من ذاق الجوع الحقَّ يأكل قدر ما يستطيع، وبأسرع ما يستطيع إذا عُرض عليه الطعام قبل أن يتردَّد المضيف.

تكلمت الكاردينالة زيزكا من المقعد الكبير في رأس المائدة: «الإلف سيعودون. تلك حتميةٌ رهيبة، ينبغي لنا جميعًا أن نُسلِّم بها. ينبغي لأوروبا أن تقف صفًا واحدًا في وجه ذاك العدوِّ الذي لا يرحم، الجائع، النجس، أو تسقط في الظلمة إلى الأبد».

قالت أليكس، وفمها ممتلئ: «همف».

لم تكن تشكُّ في أنَّ الإلف أوغاد. ومن لا يظن ذلك؟ لكنهم بعيدون على ما يبدو. ولم يكونوا هم من أمسك كماشة عند وجهها منذ يومين.

قالت: «كلُّ ما أريده، وكلُّ ما تريده قداسةُ البابا، أن يُطوى ذلك الشقاق العظيم، وتُلتئم تلك الجراح الغائرة، وتعود إمبراطوريةُ الشرق إلى حضن أمِّها الكنيسة».

الشقاق والكنيسة وما إلى ذلك من ترهات، لو تناولت بعرةً بِملقاط لما اهتمَّت بأمرهم أقلَّ، لكنها أذكى من أن تُفصح عن نفسها. فقد رأت من زينة مجلس زيزكا ما دلَّ على رِفعة مقامها: من الأثاث الداكن العظيم في غرفة الطعام، والذي مسحته مؤخراتٌ مُقدَّسة قرونًا طوال، ومن اللوحات الشاهقة، تُمثِّل شهداء يتجرَّعون العذاب صابرين، ومن الصحاف والسكاكين والملاعق والشمعدانات والشموع المضيئة فيها. ولربَّما بللت جال ذات الصرة سراويلها لو أبصرت ذلك كله. ثم ذاك العقد الذهبي، دائرة مرصَّعة بالجواهر، مرمية بإهمال على ظهر كرسيِّها.

الغنى شرطٌ لامتلاك مثل هذا، لكن إهماله؟ فتلك هي السُّلطة.

ما كانت أليكس تمانع لو دست من تلك النفائس وأخفته في ردائها، ولن تعدها سرقة، بل عملًا كريمًا لإعادة توزيع الخيرات. لكن الرداء الذي ألبسوها إيَّاه قد فُصِّل للجلوس والتبسُّم، لا للاغتراف من الكنوز، وكانت أكمامه ضيِّقة.

لعلها تغتنم غفلةً منهم حين يقدمون الحلوى، فتنشل ملعقة أو اثنتين.

استرسلت الكاردينالة: «يجب أن يتَّحد المخلِّصون في وجه أعداء الرب، تحت راية المخلِّصة، تحت راية البابا، متأهِّبين للمسير قُدمًا حين تُبشِّر الأبواق السماوية بحملة صليبية جديدة، فنطرد الإلف إلى الهاوية التي نُفوا إليها!». ثم رمقتها بنظرة جعلت أليكس تُجمِّد شوكتها في منتصف الطريق إلى فمها. فتناثرت قَطرة طويلة من المرق على صحنها.

كانت نظرة الكاردينالة لأليكس توحي بأن الأمر كله تمثيلية للمتعة؛ والكهنة وإن مُنعوا من التمتع، فكثيرًا ما أثارتهم تلك القاعدة. تسلل خادم من خلف الستار وصبَّ المزيد من الخمر، وأما أليكس فقد طبقت قاعدتها في الطعام على الشراب أيضًا، فانهمكت في الكؤوس. وسرعان ما دارت بها الغرفة، واحمرَّت أذناها، وتندى أنفها بعرق لم تكفَّ عن مسحه بظاهر كُمِّها.

قالت وهي تمضغ ما في فمها: «يسعدني أن أساعد». فالموافقة على كلام أصحاب السلطان خير من منازعتهم، ومن ثم يُمكنها التملُّص: «في الحملات الصليبية... وكل ذلك...».

رفعت الكاردينالة حاجبًا واحدًا وقالت: «ستُجزين لقاء ولائك لقضية الكنيسة، في هذه الدنيا وفي الآخرة».

سعلت أليكس وقد حاولت ابتلاع كمية كبيرة دفعة واحدة، فخبطت صدرها ثم ارتشفت الخمر لتغسِل ما ابتلعت. قالت مبتسمة: «أما مكافآت

الآخرة، فيمكنك تأجيلها، إن كان لي أن أستلم مكافآت الدنيا الآن، ها؟ ها؟». فلم يضحك أحد.

يا إلهي، لقد سَكرت. ورأت أن السبيل إلى النجاة هو شرب المزيد، فأفرغت كأسها.

قال الدوق مايكل: «علينا أن نخرج إلى طروادة بأسرع ما يمكن. صديقتي العزيزة السيدة سيفيرا بقيت في المدينة بعد الحرب الأهلية، وكانت وصيَّة على مجلس يودوكسيا». ثم رفع ورقة صغيرة مطويَّة: «خاطرت بكل شيء لتُبقيني على علم بالأوضاع». ثم فعل ما خافت منه أليكس، ناولها الورقة.

قالت وهي تفتحها: «السيدة سيفيرا... حسنًا... حسنًا جدًّا». قلبتها عابسةً كما رأَت الكهنة يعبسون عند قراءة الكتب المُقدَّسة. الخط جميل منمَّق، لكن معناه عندها كمعنى خطوط زرقاء تركها براز الحمام على زجاج نافذتها: «هممم، هممم».

مال الدوق مايكل إليها قليلًا مستاءً، وأخذ منها الرسالة، وأدارها في الاتجاه الصحيح وقرأها: «إن أبناء يودوكسيا يتحركون لترسيخ مواقعهم. ولولا خصوماتهم المريرة، لربما تمكَّن أحدهم من...».

قالت أليكس، وقد أوقفت كأسها قبل أن تفرغ في فمها: «ماذا؟ لي أبناء خالة؟».

قال مايكل: «أبناء يودوكسيا، أبناء أختي. أربعة دوقات، كل وغد أخبث من الآخر: مارسيان، وقنسطنس، وساباس، وأركيديوس». نطق أسماءهم بأسنانه كما ينطق الواعظ الخطايا المميتة.

- ألا يرغبون في العرش؟

قالت الكاردينالة زيزكا: «بل لن يردعهم رادع عن نيله».

مصَّت أليكس بقايا طعام من بين أسنانها، وقد تغيَّر طعمُه في فمها: «هل هم خطرون؟».

قال مايكل: «رجالٌ نافذون في إمبراطورية الشرق. رجالٌ استمتعوا بتعذيب الناس في عهد يودوكسيا الطاغية».

قالت الكاردينالة، وهي تغرز شوكتها في قطعة لحم بدقة قاتلة: «رجالٌ بأراضٍ، ومال، ونفوذ. رجالٌ لهم جنودٌ، وجواسيس، وقَتَلة مأجورون. رجال لا يبالون بأرواحهم الخالدة. رجال -إن صدقَت الشائعات- لا يتورَّعون عن استخدام السحر المحرَّم، ومبايعة الشياطين، وما هو أشد من ذلك».

قالت أليكس، وهمسها أشبه بغصة: «أشد؟».

بدت على الدوق مايكل علامات الضيق، وهذا غير مستغرب، ولم يكن قد ذكر أبناء الخالة من قبل، والسحر المحرَّم. قال: «لم تكتفِ أختي يودوكسيا بقتل أمك واغتصاب عرشها، بل كانت ساحرةً ذات سلطانٍ مهول. وبعد انتصارها في الحرب الأهلية، أسَّست محفلًا سحريًّا في طروادة».

قالت زيزكا وهي تعبس عبر المائدة: «هي وتلميذاتها مارسن السحر الأسود، علنًا! آثامٌ تُقترف على مرأى من الأرض الطاهرة التي يرقد فيها أبطال الحملات الكبرى!».

هزَّ الدوق رأسه: «لطالما كانت يودوكسيا مهووسةً بالروح».

قالت أليكس، وهي تقلِّص عينيها: «هذا يبدو... تقيًّا؟».

زمَّت زيزكا شفتيها في سُخط: «الروح نفخة من الرب في كل واحدٍ منَّا. والعبث بها أعظم كفر».

تمتمت أليكس، لا رغبة لها في الجواب: «وكيف يُعبث بروح؟».

قال مايكل: «كانت تُجري... تجارب».

قالت زيزكا: «تجارب فاحشة».

- بدأت تدمج بين الإنسان والحيوان.

قالت أليكس، وكانت على وشك الضحك: «رأس كلب على جسد إنسان؟». ثم نظرت إلى تبادل النظرات بين زيزكا ومايكل، فخفت كل ضحكها. قالت: «بربكم... رأس كلب على جسد إنسان؟».

قال مايكل: «البشر أُعطوا الأرواح، أما الحيوانات فلا. ظنَّت يودوكسيا أنَّها بدمج لحم الإنسان بالحيوان قد تَعثُر على الروح. تطلقها. تأسرها. تُخضعها».

قالت زيزكا، وعيناها تقدحان الشرر: «سعت لتستعبد قطعة من الرب. وفي خمسة عشر عامًا من رئاستي للهيئة الدنيوية، ما سمعت بكفرٍ أشنع من هذا».

قالت أليكس بصوتٍ خفيض: «أُوه».

قالت الكاردينالة، وهي تمضغ كلامها كما تمضغ اللحم: «أترينِ الآن يا صاحبة السمو لمَ لا يجوز أن يجلس أحدٌ من أبناء يودوكسيا على عرش الأفعى؟ ولمَ يجب أن تُقلَع جذور إرثها الملعون، وتُطهَّر أرض طروادة من دنسها؟ إنه لأمرٌ شجاع ما تفعلينه يا صاحبة السمو، أمرٌ نبيل، قويم، وشجاع».

هبَّت في أليكس قشعريرة كأن ريحًا مرَّت بها، ولم تجد فرقًا، فقد اقشعرَّ جلدها رغم ضيق الأكمام، تمتمت: «لم يخبرني أحدٌ أني سأحتاج إلى الشجاعة».

قال الدوق مايكل: «هذا من المُسلمات في الإمبراطورة».

قالت زيزكا: «لكن تذكَّري أنك تتقدمين بخطوة على أبناء خالتك. لا أحد خارج القصر السماوي يشكُّ بأن الأميرة أليكسيا حيَّة، ناهيك بالعثور عليها. ستدخلين طروادة سرًّا، تحت حماية مجموعة مختارة

بعناية. وسنرسل نسخًا من مرسوم البابا الذي يُثبت هويَّتك إلى السيدة سيفيرا، لتُعلن عنه قبيل وصولك. إلى ذلك الحين، سيكون أبناء يودوكسيا غارقين في خصوماتهم. ستنقضِّين عليهم كالصاعقة من السماء!».

ما شعرت أليكس أنها صاعقة: «ماذا لو فاز أحدهم قبل وصولي؟».

قال الدوق مايكل: «لا ينكر أحدٌ وجود المخاطر. الطريق إلى طروادة يقارب الألف ميل، ولا نستطيع التيقُّن من الدعم الذي ستحظين به هناك. المخاطر عظيمة، وأعداؤنا أقوياء، ولن يدَّخروا جهدًا لإيقافنا...».

قاطعتهم وهي تلوِّح بالشوكة نحو النافذة، فقفزت منها حبَّة بازلاء ولصقت بالحائط: «انتظروا، أنا نشأت هناك، في الأحياء الفقيرة. وفعلتُ...». ثم خفت صوتها إذ لم تجد شيئًا مما فعلته يصلح لهذا المقام: «كل أنواع... الأمور. لكني لا أعرف كيف أصبح أميرة...».

قالت زيزكا، دون أن تتحرك فيها شعرة: «لكني أستشفُّ أنك تتعلمين سريعًا». وبدت كأن لا شيء يحركها إلا زلزالًا، وربما حتَّى الزلزال لا يؤثر فيها كثيرًا.

قالت أليكس: «لكن هؤلاء الأربعة، بجنودهم وأموالهم وأراضيهم، ألن أضطر إلى قتالهم، عاجلًا أم آجلًا؟».

قال مايكل مبتسمًا ابتسامة جعلتها تكاد تتبوَّل، أم إنه كان الخمر: «سأقاتل عنكِ».

قالت زيزكا: «بطل مشهورٌ إلى جانبك! وستحظين بدعم قداسة البابا، ومعها»، ثم نظرت إلى السقف المرسوم كسماء مغيمة تخترقها أشعة أمل: «عون المخلِّصة، المباركة، ابنة الرب. لعلَّ لأعدائك جواسيس وقتلة يا صاحبة السمو، لكن القديسين والملائكة في صفِّك!».

ومن خبرة أليكس، الرب ينحاز إلى أصحاب الحظوة، فإذا اضطُرتَ إلى وضع آمالها على ملائكةٍ لتوازن الكفَّة، فقد هلكتَ لا محالة. لكنها أحسَّت أنها سبق وهلكت منذ زمن ولم تُدرك ذلك إلا الآن.

مال مايكل إليها وقال: «ولا تنسي قط أن لديك ما لا يملكه أولئك المغتصبون الأربعة».

سألت أليكس بصوت خافت: «وما ذاك؟».

ضرب المائدة بقبضته وقال: «الحق! أنتِ الأميرة أليكسيا پايروجينيتوس، المولودة من النار، وزكاك الرب نفسه عبر نبوءات جوقة السماء!». ثم ضرب الطاولة مرَّة أخرى أشدَّ، فطارت الملاعق والسكاكين. وكان من الممكن أن تُخبِّئ إحدى تلك الشُّوَيكات الصغيرة، لكنها لم تجد في نفسها الجرأة.

قالت: «عندي الحق...». لكنها كانت واثقة بأن الحق لا يُساوي شيئًا على طاولة جَال ذات الصرة. ورأت في الكعكة زجاجًا مكسورًا، لكنها قضمَتها على كل حال. أغرتها الغنيمة الكبرى، حتَّى عثرت ساقاها على فخٍّ في الظلِّ، فهوت إلى قعر منجم. منجمٍ يضجُّ بأبناء خالتها القتلة، وبالسحر الهرطوقي، وبأرواح مسروقة.

حاولت محاولة أخيرة يائسة: «لكنكم قلتم أن عندهم سَحَرة، وكائناتٍ بين الإنسان والوحش، و... شياطين، على حد قولكم...».

- فعلًا...

ابتسمت الكارديناله زيزكا، وكانت أول ابتسامة منها، وقد تمنَّت أليكس لو ظلَّت عابسة، فذلك أرحم. قالت: «لكن لنا شياطيننا أيضًا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

7

بداية نكتة سيئة

زفر بالثازار زفرة ثقيلة الوَقع، لكن أحدًا لم يلحظها. وكان له من الأسباب ما يكفي ليتنهَّد: ذاك الفِراش المقيت، والطعام البئيس، والرطوبة الباردة، والرائحة التي لا توصف في حجرته، والحرمان المجحف من اللباس، والغياب المؤلم للحديث الذكي، والفقد الذي يفتُّ الكبد لكتبه الجميلة، البديعة. لكنه، بعد طول تأمل، خلُص إلى أنَّ أفظع ما في اضطراره إلى الانضمام إلى معبد الذرائع المقدسة... هو الخزي المهين.

أن يحبس هو، بالثازار شام إيفام دراكسي، الحاذق المتبحر في دوائر السحر التسع، المتوَّج بمفاتيح الأسرار، مُروِّض القوى الخفيَّة، مَن لُقِّب برعب دمياط -أو بالأحرى، مَن لقَّب نفسه بذلك راجيًا أن يلتصق به اللقب- أحدُ أعظم ثلاثة باعثي موتى أوروبا، ويُحتمل أن يكون الرابع، إن احتُسِبَت سُكاسترا من بيفورت، التي يراها تافهةً شخصيًّا -أن يُقبض عليه بيد سفهاء، وتحاكمه أذهان مغلقة، ثم يُزجُّ في خدمة مهينة جنبًا إلى جنب مع حفنة من الحمقى المُزرين، فذلك ما لا يُغتفر.

نظر من طرف عينه نظرةً تتكلَّم بالقرف البليغ، فلم يعره أحدٌ انتباهًا. ذاك المُسنَّ مصَّاص الدماء، وقد نخَره جوع الدم حتَّى صار هيكلًا ذا شعرٍ منكوش، يتدلَّى فوق كرسيه كمن ملَّ الحياة برمَّتها. وتلك

الإلف، قائمة كخيط سلكٍ شاحب، لا يبدو من وجهها شيء تحت شعرها الرمادي الغريب، لا تتحرَّك إلا سبابة يدها اليمنى، تَرِفُّ بتوتُّرٍ لا يُطاق. وسجَّانهم الأكبر، يعقوب الثورني، جاثم في الزاوية وذراعاه معقودتان بإحكام، فارسٌ مُسنٌّ أنهكته الحروب، كأنَّما قضى شطرًا طويلًا من عمره في دولاب عصارة، فعصرَت منه -فيما يبدو- آخر ما نُزِعَ من بشاشة. ثمَّ الراعي الروحي المفترض لهذا الجمع البائس: الأخ دياز، فتى أرعن يرتعد على الدوام، ينتمي إلى طائفة رهبانية لم يسمع بها أحد، أقل شأنًا من أن تُذكر، ووجهه يُشبه وجه غريقٍ فوق سفينة تغرق.

كاهنٌ لا حول له، وفارسٌ منهَك، وإلف زاهدة، ومصَّاص دماء أثري. لكأنها نكتة بائسة ما زال آخرها الحزين ينتظر الكشف. ولعل المرء يرجو على الأقل، موضعٌ مهيب: قاعة قديمة منحوتة بالتماثيل، تُرصِّع أرضها الرخامية رموزُ الملائكة والقديسين. فإذا يلقون في غرفةٍ خانقة في أحشاء القصر السماوي، تطل نافذتها الوحيدة على جدارٍ قريبٍ تُقشِّره مزاريب مثقوبة.

في المحاكمة الهزلية التي مثل فيها بالثازار، وُضِع أمام خيارين: التكفير عن جرائمه بالخدمة في ظل قداسة البابا، أو يُلقى في النار حيًّا. وبدا له آنذاك أن لا مجال للتردد، لكنَّه بدأ يظنُّ أن الاحتراق، على المدى الطويل، أقل ألمًا.

هو، بالثازار شام إيفام دراكسي، الذي اتَّخذ من الأموات ألعوبة، ومن العاصفة مركوبه، الذي دفع بحدود الفناء إلى الوراء، وأخضع شيطانة الجحيم شاكِسِپ لإرادته -أو على الأقل استمالها ببعض الحيل ونجا بحياته- لم ينحدر إلى العبودية وحسب، بل إلى عبوديةٍ تافهةٍ فارغةٍ من أي شأن.

تهيَّأ لزفرةٍ تَفجِّر صدره بها تفجيرًا، عسى أن تُجبر أحدهم على الاعتراف بشقائه. حينها دوَّى صوت المفاتيح في الأقفال، وانفتح الباب على مِصراعَيه.

دخل جمعٌ من المبتدئين، كلٌّ منهم يلبس رداءً أبيض، وهيئةً تقيةً غير دنيوية، ووشاح صلاةٍ منقوشٍ بعباراتٍ من النصوص المُقدَّسة. أحدهم يئنُّ تحت إطار خشبي ثقيل على ظهره، يثبِّت عليه كتابًا عظيمًا مفتوحًا، وآخرُ ينثر الحبر راكضًا ليتابع الكتابة على صفحات ذلك السِّفر في آنٍ واحد. وثالثة عُلق على عنقها إكليلٌ عريض من زهور يكاد يلامس الأرض. أما الرابع فيقبض بيد على صليب فضِّي، وبالأخرى على رزمة من أوراق الصلاة، وعيناه تُحملقان نحو السقف، وشفاهه لا تتوانى تهمهم بتضرُّعات لا تنقطع، للقدير والمخلِّصة والقدِّيسين أجمعين.

قال البارون ريكارد وهو ينهض على عصاه متنهِّدًا، وإن لم يكن وقوفه يُعدُّ وقوفًا، إذ لم يرتفع أنفه عن حزامه: «ها قد جاء المهرِّجون».

ثم انفرج صفُّ المبتدئين، ليكشف عن امرأتين كبيرتين بالعمر، شعرهما رمادي، ومهيبتي المنظر: كاردينالتَين بدت عليهما علامات المنصب من الحزام القرمزي والقلنسوة، ناهيك بالحِلَق المرصَّعة بالجواهر تتدلَّى من أعناقهم بسلاسل مرصَّعة. إحداهما فارعة الطول، مهيبة الطلعة، توزِّع نظراتها في لطف كأنها ثريَّة جاءت تعطي صدقة. أما الأخرى، فأقصر، أثقل، جبينها مجعَّد، ونظراتها قاسية كالحجر. أدرك بالثازار أنَّ هاتين هما زيزكا وبوك، قطبا القيادة في الكنيسة، رأسا الهيئة الدنيوية وجوقة السماء. ومن نظرته الأولى لم يجد ما يُبهره.

ثم دُفِعت العجوزان جانبًا، ودخلت بينهما طفلة في العاشرة من عمرها، بثوب أبيض عادي، وضعت يديها على خاصرتيها ونظرت إلى الجمع المُكره بحاجب مرفوع ينتقد.

- أتمانعان؟

ها هي ذي، بندكتا الأولى، البابا الطفلة. لم يكن انتخاب أم مُقدَّسة قطُّ يخلو من الجدل، لكن هذا الاختيار بالذات -إذ كانت دون سنِّ الأمهات لا ريب- قد أثار سخطًا عارمًا وتنديدًا واسعًا، وأفضى إلى حرمانٍ كنسيٍّ لثلاثة كاردينالات متمردات، ونحو اثني عشر أسقفًا، وكاد أن يشتعل شقاق جديد في جسد الكنيسة، ولم يكن يهم ما نُسب إليها من قدرة سحرية.

همس بالثازار في نفسه: «من حمق إلى مهزلة».

لم يُطق الديم يومًا. وما هو في حقيقته إلا خرافةٌ تكتنز المال.

غنَّت قداستها، بصوتٍ لا يُشبه الاعتذار: «آسفة يا جماعة! السفير الفرنكي جلب لي طائرًا، وشكله مضحك جدًّا! ما اسمه؟».

بدت الكاردينالة زيزكا كأنَّها أذلُّ من بالثازار بهذا التهريج، وقالت: «طاووس، يا قداسة البابا».

قالت مبتسمة: «ألوانه رائعة. هل كنتم تنتظرون؟».

أجاب الأخ دياز، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة المتذلل، وانحنى كما ينحني التائب عند العتبة: «كلا يا قداسة البابا. لا، لا، لا، لا...».

قال البارون ريكارد، وهو يتفقد أظفاره المصفرَّة: «بل نعم. لكن ما خيارنا؟».

ابتسمت البابا الصغيرة ابتسامة أوسع وقالت: «حسنٌ، لو كنت البابا، لجاءك الناس بطاووس. لكنك مصَّاص دماء، يا لشقائك».

زفر البارون زفرة طويلة وقال: «من أفواه الأطفال...».

وفي الزاوية، انبعث أنين خافت، وترنَّح المتدرب المهمهم، وتساقطت من بين أصابعه أوراق الصلاة وتبعثرت على الأرض، حتَّى سقط على جنبه مُغشيًّا عليه، فنهض رفيقه فورًا، وشبك يديه، ورفع عينيه إلى

السماء، وراح يُحرك شفتيه بدعاءٍ لا ينقطع، وابتسامةٌ ساكنة ترتسم عليه.

ظلَّ بالثازار، حيث يقيم أكثر وقته، ممزقًا بين السخرية والحسد. فقد علم أنَّ ما حوله تمثيلية، لكن الإيمان بالخديعة يُسكن نفس المؤمن، كما يُسكن العارف صدقُ اليقين. ولحظةً لم يملك إلا أن يتساءل: «أحقًّا خيرٌ للمرء أن يكون ساخرًا تائهًا، أم مغفَّلًا متهلِّلًا؟».

هوت بوك على المتدرب المغشي عليه بحزمة أوراق متناثرة للصلاة، لكنَّ واحدة منها سقطت مصادفةً عند قدم بالثازار العارية. وكتب على أحد وجهيها الصلوات، لكن الوجه الآخر كان خاليًا تمامًا، فانشرح صدره فرحًا، وبحركة هادئة، انزلقت قدمه جانبًا حتَّى أخفى الورقة. ولم يقدر أن يكتم ابتسامته المنتصرة إذ أحسَّ برقَّتها تحت روحه. سيتحرَّر من هذا الذلِّ، وسينتقم انتقامًا يبكي له الشهداء! وسيندمون جميعًا على اليوم الذي تجرَّؤوا فيه على بالثازار شام إيفام دراكسي!

تنحنحت زيزكا، وقد حُمِل المتدرب المغمى عليه إلى خارج القاعة، والتفتت إلى البابا الصغيرة وقالت: «هل نُجري الطقس يا قداسة البابا؟ يومك مليء بالمشاغل».

أطلقت البابا بندكتا الأولى نخرةً صغيرةً من أنفها وقالت: «ففففت. كلُّ الأيام مشغولة. كون المرء بابا ليس فيه نصف ما يظنُّه الناس من متعة».

همست الإلف، على مهل: «معظم الأمور ليست كذلك». ورغم أنَّ زنزانتهما متجاورتان، فقد ضاعف هذا الجواب تقريبًا عدد الكلمات التي سمعها بالثازار منها من قبل.

جثا أحد المتدربين، ممسكًا بطَستٍ من الحبر الأحمر، فغمسَت فيه قداستها الصغيرة سبَّابتها، ورسمت خطًّا عاديًّا على معصم مصَّاص الدماء. ثم كرَّرت ذلك بوسطى يدها على الإلف.

خطت البابا خطوةً أخرى، فرفع بالثازار بصره إلى وجه نائبة الرب على الأرض. فتاةٌ شاحبة، صغيرة، تعلو إحدى حاجبيها شامةٌ كبيرة، وقبعتها البيضاء تكاد لا تسع كتلة شعرها البني المتجعد. سمع بالثازار عنها أنها أعظم قوَّة سحرية وُلدت في العالم منذ قرون، وما صدَّق. وسمع أقاويلَ تُشيد بها بوصفها المجيء الثاني للمخلِّصة، وما استطاع إلا أن يضحك. لكنه، وقد نظر إلى شخصها المقدَّس بعينيه، مالت نفسه إلى البكاء. إن كانت هذه الطفلة البائسة آخر وأعظم أملٍ للعالم، فالعالم هالك لا محالة، كما يقول الجميع.

رفعت حاجبها ونظرت إليه، حتَّى كادت قلنسوتها تسقط، وقالت: «من هذا الولد الجديد؟». وكان أحد المتدربين يقف خلفها بقلق، لعلَّه يتأهَّب للإمساك بها إن وقعت.

تنحنح الأخ دياز وقال: «هذا هو بالثازار... آه...».

تنفَّس بالثازار بتقزُّز، وكان أقرب إلى التأوُّه وقال كل مقطع منفصل: «شام... إيفام... دراكسي».

قال الأخ دياز: «مشعوذ...».

قاطع بالثازار: «ساحر». ولربَّما بدا أكثر وقارًا لو لم يكن يرتدي قميص نوم وفروه له لهذا اللقاء. لكنه اجتهد في أن يبدو غامضًا مهيبًا، فرفع حاجبه إلى أقصاه، وحدَّق إلى رئيسة الكنيسة العليا من علوِّ أنفه، ولم يكن ذلك صعبًا، إذ بالكاد بلغت سرَّته.

حاولت البابا أن تُصفِّق بإصبعيها، لكنَّها لم تحسنها، فلم تصدر إلا فرقعة خفيفة وقالت: «انتظر! أنت الذي يُحيي الجثث ويرقصها؟ سمعتُ أنك أديت أوبرا كاملة!».

قال بالثازار: «حسنًا... لم يكن سوى الفصل الأول في الحقيقة. كنت أُعدِّل على النص الغنائي حين هاجمني صائدو السحر، ولو أردت

الصدق، فما زلتُ عاجزًا عن جعل الجثث تُغنِّي. لا على نحو يُرضي الذوَّاقة. بل أقرب إلى تأوُّهات متنغِّمة...».

صرخت قداستها وصفَّقت يديها: «أود أن أرى ذلك!». ولا بد أن يقر أن حماستها الطفولية فاتنة.

- سيسرُّني أن أُقيم عرضًا...

قاطعتها زيزكا بفتور: «ربما في وقتٍ لاحق».

دارت عينا البابا وقالت: «حاشا للرب أن نمرح هنا!». ثم غمست طرف إصبعها الصغرى في الحبر، ورسمت خطًّا على معصم بالثازار الممدود، وبدا عليها منتهى الرضا بفعلها: «ها قد تمَّ!».

انتظر بالثازار بقية الطقس. لكن لم تكن هناك بقية. وبدا أن ذلك كل ما في التعويذة. خطٌّ. لا، بل ليس مستقيمًا حتَّى. بل ليس متساويًا أصلًا. وبقعة الحبر في أحد طرفيه تمدَّدت إلى قطرةٍ تتسلَّل إلى أسفل معصمه. لا دوائر داخل دوائر، ولا رموز عُليا وسفلى، ولا لولب سوجايجونتون بنصوصه المُقدَّسة عند الزوايا المضبوطة للأركان الخمسة عشر. كأنَّها لوحةٌ بإصبع طفل، حرفيًّا. لم يعرف بالثازار أيسعدُ بتلك التفاهة السهلة التي سيتخلَّص منها، أم يغضب لأن أحدًا ظنَّ أنَّها قد تقيِّد ممارسًا للسحر بقدرته.

رجعت البابا الصغيرة خطوةً، تتأمَّل جماعة معبد الذرائع المقدسة، واضعةً إصبعها الحمراء على شفتيها، وتاركةً أثرًا بيِّنًا. ثم مالت نحو بوك وهمست: «ماذا أقول؟».

ابتسمت رئيسة جوقة السماء لها كجَدَّة حنونٍ وقالت: «لا أظنُّ الأمر مهم...». وكاد فكُّ بالثازار يسقط من الدهشة. هذه المرأة يُفترض أنَّها من أعلم السحرة في أوروبا! فإذا بها أقل شأنًا من سكاسترا الحقيرة من بيفورت! ثم تناولت حلقتها المرصعة، وأخذت تلمِّعها في كُمِّها، وأعيُنها تبحث في سقف القاعة، وكأنها تؤلِّف النصَّ في حينه. حدَّق بالثازار

أمامه، وقلبه يضطرب. تلك العجوز اللئيمة تُنشئ ألفاظ الطقس ارتجالًا! ألفاظ تعويذةٍ جليلة! الرباط البابوي نفسه! جاهد بالثازار في تصور وجوه نظرائه ومنافسيه وأعدائه الصرحاء في جماعة السحرة حين ينقل إليهم هذا الخبر.

قالت بوك: «أُوجب عليك مرافقة الأميرة أليكسيا إلى طروادة... إطاعة تعليمات الأخ دياز... وأن تراها تُتوَّج إمبراطورةً على الشرق».

وحين ذكرت اسم الأميرة، أشارت إلى شابة تحاول الاختباء خلف حامل الكتاب. ضيَّق بالثازار عينيه، وشرع يجمع شتات هذا المشهد البائس. هذه الهائمة الكالحة، التي في وجهها بؤس الكلاب السائبة، وفي عينيها لمعة السماسرة الوضيعين، هي الأميرة أليكسيا پايروجينيتوس، ابنة إيرين، المنويُّ تنصيبها على عرش الأفعى في طروادة، دميةً للبابا؟

تمتم ساخرًا: «من المهزلة إلى الخرافة».

- قالت بوك وهي تلمع صليبها مجددًا: «أظنُّ هذا كافيًا. هل من رأي آخر؟ زيزكا؟».

حرَّكت زيزكا فمها بمرارة، ثم هزَّت رأسها، وكأن في صدرها آراء كثيرة، لكنها آثرت أن تسكت عنها.

جمعت البابا الصغيرة قبضتيها وغمضت عينيها تركيزًا وقالت: «سأبدأ إذا، أوجب عليك مرافقة الأميرة أليكسيا إلى طروادة، وإطاعة تعليمات الأخ دياز، وأن تراها تُتوَّج إمبراطورةً على الشرق!». ثم صفَّقت بيديها وقالت: «أتممتها من المرة الأولى!».

قالت بوك: «رائع!».

قالت البابا: «رائع!». ثم صفَّقت من جديد وقالت: «ثم عودوا فورًا، طبعًا!».

قالت بوك: «تنبيهٌ جيِّد يا قداسة البابا. تذكير طيِّب».

واكفهرَّ وجه البابا فجأة وقالت بجدٍّ: «إن لم تفعلوا ما عليكم، فستشعرون بتوعُّكٍ شديد. و...». ثم لوَّحت بإصبعها لكل واحدٍ منهم على التوالي: «...كونوا طيبين مع بعضكم في الطريق. لأن الطيبة... طيبة. هل حان وقت الغداء؟». قالت وهي تلتفت إلى الباب.

قالت زيزكا: «قريبًا يا قداسة البابا. عليكِ أولًا أن تُتمِّي الطقس مع العضو الغائب من الرعيَّة».

قالت البابا وهي تغادر بخطى راقصة: «أحبُّ ڤيجا! أتظنون أنَّها ستسمح لي بالركوب على كتفيها من جديد؟ ثم الغداء؟».

قالت بوك: «متى ما أنهيتِ لقاء وفد الأساقفة من رابطة الهانزا. فهم يطلبون فتوى في العلاقة بين الرب، والقديسين، والمخلِّصة...».

زفرت البابا زفرة طويلة وقالت: «مملٌّ!». ثم اختفت في الرواق، والمتدربون يلحقون بها، أحدهم لا يزال يُصلِّي، وآخر يحاول بخيبةٍ التدوين في الكتاب العظيم، وثالثة تعبس وهي تحاول حشر إكليلها الهائل من بابٍ ضيِّق. أما الأميرة الأكثر خيبةً في التاريخ، فقد رمقت الجميع بنظرة قلقة، ثم انسحبت معهم بخفية.

راح بالثازار يفرك أثر الحبر على معصمه وقال: «هذا؟..» ولم يستطع منع نفسه من السؤال: «كلُّ شيء؟».

قالت بوك ببساطة: «هذا كلُّه. ستغادرون صباح الغد مع حرس بابوي. فليبارك الرب مسعاكم... وما إلى ذلك». ثم رفعت يدها ببركةٍ فاترة.

هوى البارون في كرسيه وقال من تحت جفونه المتدلِّية: «هل يمكن للرب حقًّا أن يبارك شياطين مثلنا يا كارديناله؟».

قالت بوك، وهي تدفع قلنسوتها إلى أسفل لتخدش قفاها: «يُقال إن كلَّ أداةٍ في يده صالحة. كنتُ أرى دوما أن لا شيء يُحرِّرك أكثر من

ربطك بهدفٍ مشترك». ثم رمقَت بالثازار بابتسامةٍ غامضة، وضبطت قلنسوتها من جديد، مائلة بعض الشيء، ثم غادرت.

أقصى ما استطاعه بالثازار أن يكتم ضحكة غير مصدقة. حفنة من حمقى خطرين، لا يُحسنون العمل معًا، منطلقون في رحلة تمتد ألف ميل أو يزيد، والغاية؟ تنصيب تلك المتأفِّفة على عرش الأفعى في طروادة؟ شكرًا، لكن قداسة البابا الصغيرة تستطيع شطب اسمه من القائمة. سينزع عن نفسه خط الرباط هذا، ويُحلِّق على أجنحة الريح قبل أن يدرك أحدٌ غيابه!

شعر بحُرقةٍ مفاجئةٍ في حلقه، لا بُدَّ أنها من الطعام البائس الذي يُقدَّم له هنا. وراح يُسلِّي نفسه بتخيُّل نظرة بلهاء على وجه البلهاء بابتيست المتغطرسة وهي تسمع نبأ فراره، وتوقن أنها ستقضي بقيَّة عمرها تلتفت وراءها، تنتظر انتقامه الذي لا مفرَّ منه. راح يتأمَّل أيَّ صنفٍ من الانتقام الخفي يمنحه أعظم شفاءٍ لروحه، وأوضح عبرةٍ لسواه، وأصدق تمثيلًا للمهانة التي ذاقها على يديها هذه الأميرة المغفَّلة تستطيع أن تجد طريقها إلى...ولو أنَّ بالثازار ضُرِبَ في بطنه لما تفجَّر من فمه قيءٌ أكثر فجاءةً وعنفًا. بلغ الأرض على بُعد أربع خطوات تقريبًا، وأحدث رشقات متعاقبة وصلت إلى قدميه العاريتين، ثم انقلبت إلى شهقة متقطعة مرتجفة. ظلَّ مُنحنيًا، ولسانه خارج فمه، عيناه دامعتان، والخيوط تسيل من أنفه، ويداه تمتلئان بقَيئه.

قالت الإلف، وقد استدارت تنظر إليه بعينيها الواسعتين الساكنتين، بوجهٍ خالٍ من التعبير: «هذا هو الرباط، يعمل أفضل مما تظن».

8

تمسَّكي بشيء

شدَّت أليكس قبضتها على اللجام حتَّى أوجعت يديها، وجلُّ همِّها أن تبقى فوق ظهر الفرس.

ركبت حميرًا من قبل، في ذلك الخريف حين ذهبت شمالًا للعمل في الحصاد. قال لها أحدهم إن الأجر مجزٍ والعمل خفيف، وأخطأ في الأمرين معًا. أمَّا الفرس الذي أُجلست عليه الآن، فكان أطيب رائحة وأحسن طبعًا من الحمير، لكنه أعلى بكثير، والركوب الجانبي عليه أشبه بدعوة مفتوحة لكسور في الجمجمة. كلُّ هزَّة تفزعها، فتتخيَّل نفسها تنزلق وتسحقها العربة الضخمة المجلجلة التي تسير خلفها. نهاية تليق بحكاية خرافية من هذا النوع.

جفت شفتيها، كأنها تدير حيلةً مرتجلة رديئة. ظلَّت تمنع نفسها من لحسهما بلسانها كما تفعل السحالي. أيمكنها أن تؤدِّي دور أميرة؟ وفي اعتقادها أن جل ما تفعله الأميرات هو أن يُغسَلن ويُمشَّطن ويُلبَّسن ويُهمَلن كأنَّهن لسن موجودات. قطعة خشب ستؤدِّي الدور ذاته. وأليكس تجيد دور قطعة خشب، أليس كذلك؟

لقد أدَّت من قبل دور مريضة شُفِيَتْ معجزة، وبلهاء شفاها شراب، ويَتيمة عثرت على كيس نقود، وطفلة تخدم الحجَّاج، تدلُّ القادمين على غرفةٍ جيدة رخيصة في آخر الزقاق المعتم. لا تقلق، تُقدَّم قليلٌ وحسب،

الغرفة بعد المنعطف، غرفة رائعة فعلًا، فقط استمرَّ. حتَّى إنَّها أدَّت مرَّة دور ابنةِ نَبيل، لكنَّها بالغت في اللكنة، فاكتشف الضحية الأمر، واضطرَّت إلى القفز في القناة هربًا من اللكم.

خشيت أن في آخر هذه المغامرة ما هو أسوأ من اللكم. فظلت تبحث بعينها عن منفذ، لكنَّها محاطة برجالٍ مدجَّجين، وجوههم صلبة، وقلوبهم أصلب، والكثير من الحديد على أجسادهم، ودوائر المُخلصين على صدورهم. قال لها الدوق مايكل إنَّهم لحمايتها، لكنَّها، من خبرتها مع الرجال -وخاصَّةً المسلَّحين، وخاصَّةً مسلَّحي الكنيسة- لم تطمئن البتَّة.

في الحقيقة، إن أردت رؤية نقيض الطمأنينة بعينك، فلك أن تراه راكبًا فرسًا عظيمة على طرفه.

تنفَّست أليكس بعمق. وحاولت أن تهدِّئ أعصابها. لا تُخبَز الكعكةُ بالخوف، كما تقول جال ذات الصرة للأيتام الجدد. الكلُّ بحاجة إلى شيءٍ يتمسَّك به. وأما أليكس، فكانت تتمسَّك بذكائها الحادِّ، وبأن لا تُحبط أبدًا. فإن خابت الخطط، وراحت كما تروح الفضلات في العواصف لتتحول إلى مياه نتنة، وهذا ما تفعله الخطط غالبًا، فستعصر خطط غيرها.

كلُّ ما عليها فعله هو الصبر، وانتزاع ما يمكن انتزاعه، والبقاء يقِظة، مستعدَّة للاختفاء عند الحاجة. فما من موهبة أنفع من الغياب حين تسوء الأمور. لطالما أحبَّت رؤية نفسها انفرادية، تعتمد على نفسها كما قطط الأزقة. لكنَّ كلَّ أحدٍ يحتاج إلى صديق أحيانًا. ومن يدري متى تحتاج إلى من يُلام مكانك؟

خالها -إن كان خالها حقًّا- كان في مقدِّمة الركب، ومعه الكاهن المتحيِّر، والفارس الرمادي الذي لا يبتسم، والمرأة ذات القبَّعات المتعدِّدة، التي تبتسم كثيرًا. ولم تكن ترى فائدةً لذلك الكهل الممدَّد على سطح العربة. يلوح كجثَّةٍ في معطف، لا هو جديد، ولا بهي. وأما

ذاك المتغطرس الذي تكلَّم عن إحياء الموتى رقصًا، فقد صرف وقته كلَّه يحدِّق إلى معصمه. وكانت هنالك وصيفة، تركب كأنها وُلدت للركوب الجانبي، لكنها تُمشِّط أليكس وتجملها وتُلبسها بصمتٍ يقطر احتقارًا، حتَّى ليخيَّل إليك أنَّها الأميرة، وأليكس الخادمة.

تبقى الإلف.

لم يسبق لأليكس أن رأت واحدةً من قبل، لحمًا ودمًا. الناس يقولون إنهم أعداء الرب، وإنَّهم يأكلون البشر، ويُخيفون الأطفال، وتُشعل الحملات الصليبية ضدَّهم، وتُحرَق تماثيلهم في الأعياد. وإذا كان لا بُدَّ من إلقاء اللوم، فالإلف خيرُ من يُلام. هي إسفنجةُ تُهم بأذنين مُدبَّبتين، وهي الآن بين يديها. فشدَّت أليكس يدها على اللجام، ودفعَت فرسها في اتجاهها.

شرعت بالكلام: «إذًا...». عادةً ما ينطلق لسان أليكس وحده إذا بدأ، لكن حين استدارت تلك الأعيُن الغريبة إليها، أعيُنٌ واسعة حدَّ اللا واقع، لم تجد في جعبتها إلا: «... أنتِ إلف».

مال رأس الإلف، يهتزُّ برفق مع حركة فرسها، وعنقها طويلٌ رفيع كحزمةِ أغصانٍ شاحبة، ثم فتحت عينيها أكثر.

- وما الذي فضحني؟

قالت أليكس: «أوه أنا بارعة الملاحظة. قد يكون شيءٌ في اللكنة؟».

قالت الإلف وهي تعود ببصرها إلى الأشجار: «آه... سببٌ آخر لألزم الصمت».

ولو أن أليكس تستسلم بهذا اليسر، لهلكت جوعًا منذ أعوام.

قالت: «أنا أليكس». ثم خاطرت بأن تركت اللجام ومدَّت يدها، فاهتزَّت واضطرَّت إلى التشبث بقرن السرج، ثم مدَّت يدها ثانية: «أو... أليكسيا پايروجينيتوس؟ لا أدري حقًّا من أكون الآن...».

نظرت الإلف إلى يدها، ثم إلى الحرس. ثم مدت يدها وصافحتها. ولسببٍ ما، توقعت أليكس أن تكون تلك الأصابع الطويلة الرقيقة باردة. لكنها كنت دافئة، كأيِّ يد.

قالت الإلف: «ساني».

قالت أليكس: «حقًّا؟ هل هو اختصار لشيء... إلفي؟».

- سانيثيليان ذات الناب الداكن.

- حقًّا؟

رفعت الإلف حاجبها الأبيض النحيل ببطء.

قالت أليكس: «ليس فعلًا».

- ساني هو ما كانوا ينادونني به في السيرك.

- كنتِ في سيرك؟

- درَّبتُ الأسود.

- حقًّا؟

رفعت الإلف حاجبها النحيل إلى أعلى.

قالت أليكس بحرج: «ليس فعلًا».

قالت الإلف: «جروني بسلسلة، وصرخوا بوجهي، وقذفوني بالأشياء».

- ذلك... لا يبدو ممتعًا.

- هم بدَوا مستمتعين.

- كنتُ أقصد... بالنسبة إليك؟

هزَّت ساني كتفيها وقالت: «حتَّى العروض الرديئة تحتاج إلى شرير».

ساروا صامتين، الحرس يجلجلون في سروجهم، ومحاور العربة الكبرى تئنُّ. وكانت أليكس وحيدةً بالطبع، لكنَّها وجدت أنها تستطيب الصحبة.

قالت: «كنتُ أسمع أنَّ الإلف كلَّهم متوحشون دمويون».

قالت ساني: «وكنتُ أسمع أن الأميرات كلَّهن جميلاتٌ بليدات».

- امنحيني فرصة. لم يمضِ على كوني أميرة سوى أيَّام.

رفعت ساني حاجبها ثانية وقالت: «وأنتِ بارعةٌ بالفعل».

* * *

حدق بالثازار إلى الرباط، وما كاد يرفع عينيه عنه منذ رُسم. بدا وكأنَّه ليس أكثر من لطخة صدئة، لكنَّ الغثيان المستمر، ونوبات القيء المتقطِّعة، وفي إحدى المرَّات -حين خطرت له فكرة قتل الأميرة أليكسيا بالسُّم للخلاص من الرباط- انبجس انفجار مفاجئ من الطرف الآخر من القناة الهضمية، كلُّها أمور أقنعته بقوَّة هذا السِّحر المشؤوم. وما كان في الدنيا ما يثير كراهيته أكثر من لغزٍ لا يستطيع فَكه.

قرَّب تلك اللطخة إلى وجهه حتَّى صارت بقعةً مبهمة في عينه، وتساءل: هل ثمَّة رموزٌ صغيرةٌ مخبأة؟ هل نُقِشت على طرف إصبع البابا الطفلة قبل أن تلمسه، ثم انتقلت بطريقةٍ مجهولة؟ أم طُبعت على جسده وهو نائم؟ بين كتفيه؟ على باطن قدميه؟ على مؤخرة عورته مثلًا، حيث لا أحد يفتِّش؟ لا أحد على الأقلِّ فتش هناك منذ زمن -وهذا ما أقرَّ به على مضض.

رموز غير مرئية، منقوشة بسلكٍ نحاسيٍّ؟ إشارات بالأصابع لم تلامس جلده أصلًا؟ أيمكن أن تكون تلك الكاردينالة الحقيرة التي تتعمد الألغاز بوك، قد نسجت تعويذةً خفيَّة وهو غافل؟ مهما بدَت شاردة في

حينها، فقد قيل عنها أنها ساحرةٌ بالغة البراعة. ولن تكون تلك أول مرَّة يُخطئ فيها بالحكم على المظاهر.

جر بالثازار نفسًا حادًّا، وحاول تجريد نفسه من الشعور، والاحتكام إلى المنطق الصارم. الجميع بحاجة إلى ما يتمسَّك به. أما هو، فكان تمسُّكه في علمه بالسحر، وقوَّته الباهرة في الاستدلال العقلي. فلكلِّ شيءٍ جواب! راح يُقلب في ذهنه كلَّ لحظة من ذلك اللقاء، يتمنَّى بمرارة لو كانت نسخته الأصلية من ستمئة تحريف للحرابي بين يديه، ونظاراته الألمانية الممتازة، ولو لم يكن جالسًا في عربةٍ تهتزُّ.

كانت العربة من ذلك الطراز الثقيل، المبالغ في تصميمه، يُنقَل فيه المتاع الثمين، بسورٍ مرتفعٍ على سقفها، ومقعدٍ أمامي للسائق العبوس، ومقعدٍ خلفي للركَّاب. ومن خلال صرير العجلات الحديدية، لم يكن بالثازار متيقِّنًا، لكنه تخيَّل مرارًا أن شيئًا ضخمًا يتحرَّك في الحجرة السفلى المغلقة تحت قدميه. ولم يقيِّدوه بالسلاسل حتَّى، مكتفين فيما يبدو بالتعويذة لمنعه من الهرب، وهو قرارٌ سيندمون عليه أشد الندم. فلن تكفي لطخةُ إصبع طفلةٍ فطنة لإخضاعه...

وفور أن خطرت له تلك الفكرة، اجتاحه غثيانٌ جديد، فاضطر إلى انتزاع معصمه بعيدًا عن وجهه، مجاهدًا لئلا يفرِّط بإفطاره، بينما هو يتفحَّص الركب من حوله. كانوا واحدًا وعشرين من حرَّاس البابا المسلَّحين، لكنَّ بالثازار لم يخصَّهم باهتمام يُذكر، فالقوة الغاشمة يملكها كلُّ حيوان. وأما الامتياز البشري فالعقل، والمعرفة، والعلم، وأرفع العلوم جميعًا، هو تسخير السحر.

نظر إلى مقدِّمة الركب، فلم يجد غير يعقوب الثورني الكئيب، وبابتيست القراصنة المتغطرسة، والراهب الرخو المتهالك، كلُّهم يثرثرون مع دوق نيقيا. أما الأميرة المقلَّدة، فكانت -يا للعجب- تُنشئ

صداقة مع الإلف الصامتة. «الأميرة والإلف» كأنها حكاية وعظٍ لا يُطيق بالثازار قراءتها، فضلًا عن مشاهدتها.

لكن مصَّاص الدماء، النائم الآن على الطرف الآخر من المقعد، فكان أمرًا آخر. واضحٌ أنه من العتيقين، وذلك يعني قوَّة، ودهاء، وخطرًا عميقًا في أدنى تقدير. هو الفرد الوحيد في هذه المهزلة المملة الذي رأى فيه بالثازار تهديدًا كعدو... ومن ثم قيمةً كحليف.

مال إليه، محافظًا على مسافةٍ حذرة، ورفع معصمه وهمس: «ما سرُّها؟».

فتح البارون عينًا قاتمة نصف فتحة، وارتفع حاجبٌ ثلجيٌّ، تتراقص شعراته الطويلة في النسيم، وقال بصوتٍ أجش: «رباط البابا بندكتا؟».

قال بالثازار: «نعم، الرباط».

أغمض البارون عينه من جديد وقال: «يُقال إنَّها أعظم قوة سحرية وُلدت في العالم منذ قرون».

قال بالثازار: «ها» بفتور. فبما أنه هو أيضًا من ألمع السحرة، لم يرَ ما يُثبت ذلك.

تقلَّص جانب فم البارون في طرف ابتسامة وقال: «بل سمعتُ من زعم أنها هي المخلِّصة ذاتها، في عودتها الثانية».

قال بالثازار مُتَجَهِّمًا: «مزحة لطيفة».

فتح البارون عينه مرَّة أخرى وقال: «أنت الساحر. فلتخبرني أنت، ما السرُّ؟».

حرَّك بالثازار فمه بامتعاض، وهو ما بات يفعله كثيرًا. ثم قال: «هل جرَّبتَ كسرها؟».

وحينها انفتحت العين الأخرى لمصَّاص الدماء وقال: «رباط البابا بندكتا؟».

- نعم، نعم، الرباط!

- لم أفعل.

- ولمَ لا؟

- ربَّما لأنني في المكان الذي أردته.

قهقه بالثازار وقال: «جائعٌ، هزيل، يُنقل إلى طروادة في عربةٍ تعجن المؤخرة؟».

تنفَّس البارون بصوتٍ متعب، وأطلق زفرة طويلة وقال: «إستلا الأرتوازية كانت واثقة بأنها ستكسره».

- لا أعرف الاسم.

- مشعوذة شغلت زنزانتك تحت القصر السماوي مدة زمن. قضت شهورًا تهمهم بالتعاويذ ليل نهار، تقسم إنها ستكشف السرَّ. إلا حين كانت تتقيَّأ طبعًا.

- هل نجحت؟

- أترى لها أثرًا هنا؟

- فقد نجحت إذًا!

قال البارون: «أوه، لا». ثم تمدَّد، وطقطقت مفاصله العتيقة، وأغمض عينيه وقال: «ماتت، وأحرقوا جثَّتها، وقالوا: ‹علينا أن نجد مشعوذًا جديدًا›. وها أنت ذا».

قال بالثازار مغتاظًا: «أنا ساحر. هل الرباط هو ما قتلها؟».

قال البارون: «أوه، لا. سقط عليها عملاق».

وقد أثار هذا أسئلة أكثر مما قدَّم أجوبة، لكن قبل أن يصوغ بالثازار استفسارًا آخر، قطعت عليه الإلف فكره.

مرَّت راكبة، وقالت دون أن تنظر: «تشبَّث بشيء». ثم أسرعت نحو مقدِّمة الركب.

قطَّب بالثازار حاجبيه وراءها وقال: «ماذا تعني؟».

قال مصَّاص الدماء: «ليس كلُّ شيءٍ لغزًا». ثم قبض على العارضة بيد مبقعة، ونظر إلى بالثازار من تحت جفونه الذابلة: «ساني هي نقيضك، في وجهٍ من الوجوه».

- وما تعني؟

- قلَّما تتكلَّم. لكن إن فعلت، فاستمع لها.

* * *

قال الدوق مايكل: «وقل لي، كيف انتهى بك المطاف أيها الراهب بأن تُشرف على هذه الرعيَّة العجيبة؟».

قال الأخ دياز: «بصراحة يا صاحب السمو...».

كان في وقتٍ غير بعيدٍ، ليُسارع بالكذب لنيل الحظوة. أما الآن، فما عادت نفسه تشتهي: «لا أدري».

ابتسم الدوق وقال: «يُقال إنَّ أفعال الربِّ كلها أسرار. وأحيانًا، تبدو كنيسته أعجب».

قال الأخ دياز: «قبل شهرٍ، ظننتُ نفسي رجلًا ذكيًّا...».

وتذكَّر بوضوحٍ موجعٍ ما شعر به في ذاك اللقاء الأخير مع رئيس الدير. كم استحسن حيلته، وكم تباهى بالنتيجة، وكم كان انتصاره صغيرًا ومغرورًا وهو يمرُّ بين إخوته في قاعة الطعام، أولئك الذين ظنَّهم سجناء مللٍ أبديٍّ في معبدٍ مغمور.

والآن يتساءل، هل كان الأب يعلم ما ينتظره؟ هل شارك الرهبان في المزحة، وضحكوا من خلف أكمامهم الخشنة عليه طيلة الوقت؟

- الآن أعلم أنني أحمق.

اتَّسعت ابتسامة مايكل وقال: «فأنت إذًا أحكم مما كنت قبل شهر. وتلك نعمةٌ يُحمد عليها».

ولم يجد الأخ دياز شيءً آخر يُحمد عليه. فمنذ أن صار راعيًا لمعبد الذرائع المقدسة، امتلأ فمه بقُرَحاتٍ موجعة كأنها بلاء شهيد. ألمها لا يُصدق، ومع ذلك، لم يكن يقدر على منع لسانه من تحسُّسها، وكأنَّه يحتاج إلى تذكير بما يُعاني. بل مسحها بماءٍ مقدَّس، من جرنٍ عُمِّد فيه القديس أنسِلم ذي الأعيُن، لكنَّ الألم ازداد بعده، ولم يقل. ويبدو أن القرحات صارت من مكدرات الحياة التي عليه تقبلها، كاحتكاك السروج، ورطوبة الثياب، وتقييده بسحر مصَّاصي الدماء.

تمتم بحزن: «ظننتُ أنهم يموتون تحت الشمس».

همهم يعقوب الثورني: «أسطورة لا أكثر، البارون ريكارد يستمتع بها».

وحُقَّ له أن يقول ذلك، فقد كان مصَّاص الدماء العتيق يستلقي على سقف العربة، رأسه إلى الخلف يتأرجح على عنقٍ هش يابس. والعربة أضخم من المعتاد، مغشَّاة بالحديد، وبابها الخلفي بلا نافذة، يُغلق من كلِّ ركنٍ بمزلاجٍ عظيم، ويتحكَّم فيها قفلٌ واحد.

ولم يرغب في السؤال، لكنَّه لم يستطع كبح لسانه: «ما الذي... في العربة؟».

أجابته بابتيست، وهي تُظهر أسنانها الذهبية: «الملاذ الأخير».

كانت تركب كما تتكلَّم، بتراخٍ واستهزاءٍ دائم: «إن حالفنا الحظ، فلن تضطرَّ إلى المعرفة».

لكن حظَّ الأخ دياز ليس في أحسن حالاته مؤخرًا. فتنفَّس تنفُّسًا عميقًا، وضغط على الانتفاخ تحت ردائه حيث قارورة دم القدِّيسة بياتريكس تلاصق جلده، وأرسل إلى حافظ نعلي المخلِّصة دعاءً صامتًا آخر من أجل نجاته. الجميع بحاجة إلى شيء يتمسَّكون به، وقد عقد

العزم أن يجعل إيمانه مرساته. فهو راهبٌ مُكرَّس، وإن لم يرغب يومًا في أن يكون كذلك، وقد آن له أن يفي بنذره. أليست هي أولى الفضائل الاثنتي عشرة؟ التي تنبع منها جميعًا؟ سيحفظ الإيمان. بأن الرب يملك خطة. وأن له فيها دورًا. وإن لم يكن دور هام، على الأقل دور شاهد عابر. ابتسم ابتسامة باهتة، لكنها أوجعت قُرحاته، فتوقَّف.

سأل الدوق مايكل بخفةٍ عذبة تقابل عبوس يعقوب الصخري: «هل لك قرابةٌ بِذاك يعقوب الثورني الذي كان بطلًا لإمبراطور بورغنديا؟».

ضيَّق الفارس عينيه الضيِّقتين أصلًا: «ثورن مدينةٌ عظيمة. فيها يعاقيب كثر».

قال الأخ دياز، متذكِّرًا بالكاد أنه قرأ الاسم في سجلٍ عتيق عن حروب ليفونيا في أثناء فرزه لمكتبة الدير: «بل أظنُّ أن هناك يعقوب الثورني، وتولَّى قيادة الفرسان الذهبيين».

ضحكت بابتيست بخفَّة، كأنها تتذكَّر نكتةً خاصة: «أو لم يكن هنالك من تولَّى مهامَّ بابوية الإعدام؟ أم تراه يانوس الثورني؟ أم يوسف؟».

- يعقوب.

ارتدَّ الأخ دياز فجأة، فقد وجد نفسه يواجه وجه الإلف، قريبًا منه على نحوٍ مزعج، ذي تناسقٍ غريبٍ لا يريح العين. كانت، فيما يبدو، قادرةً على الركوب بصمتٍ مطبق.

قال يعقوب: «ساني».

قالت بصوتٍ ميت النبرة، لا تحرَّك فيه شفة: «نحن ملاحقون».

قال الأخ دياز، وهو يلتفت ذات اليمين في سرجه، فعَلِق، ثم دار ذات الشمال، يرمق الأشجار خلفهم بنظراتٍ جُنونيَّة: «ماذا؟ لا أرى أحدًا!».

قالت الإلف: «أنا أفضِّل الإنذار قبل أن يرى الجميع الخطر».

فتلاشت ابتسامة الدوق مايكل. وقال: «كم عددهم؟».

- ثلاث إلى أربع عَشَرات. يسايرون الركب على مسافة نصف ميل.

القلق الوحيد الذي أبداه يعقوب كان في شدِّ عضلةٍ في جانب وجهه المليء بالندوب. قال: «أيوجد أحدٌ أمامنا؟».

ضمت الإلف شفتيها البشريتين بغرابة، وحدَّقت بعينيها غير البشريتين، وأمالت رأسها لحظة، ثم قالت: «ليس بعد».

راح الأخ دياز يلوك إحدى قرحاته وقال: «أكيد أنكم لا تتوقعون... مشكلات...».

يا قدِّيسين ويا مخلِّصة، لم استخدم تلك الكلمة بالذات؟ وكأنَّ نطقها يستجلبها: «قريبًا إلى هذا الحدِّ من المدينة المُقدَّسة؟».

قال يعقوب: «أتوقع كل شيء، ولا شيء. منذ تولَّيتُ هذا المنصب، بابتيست! هل في هذا الطريق ما يمكن تحصينه؟».

- نُزُلٌ مُسوَّر جنوب كالنتا. الدبُّ المتدحرج. لا أعرف أصل الاسم. يقولون إن الإمبراطور كارل المُترنِّح نام هناك في طريقه إلى التتويج. قصة طريفة، في الواقع...

قاطعها يعقوب: «في وقتٍ لاحق».

قالت ساني: «إذا بقينا أحياء».

كان شيءٌ مريبٌ يحدث. فقد ازداد إيقاع الركب، واهتزت العربة أشد من ذي قبل. تراجع الدوق مايكل ليلقي بكلماتٍ عاجلة في أذن ابنة أخته المبتلاة، بينما استل حرَّاسه أسلحتهم ومسحوا الغابة بأعينهم.

نوى بالثازار الانتظار إلى حلول الظلام وتوقَّف الركب، لكنَّ الرجل الحصيف لا يترك الفرصة تمضي. فأدار ظهره للسائق، وسحب ورقة الصلاة من كُمِّه خلسة.

سأل البارون ريكارد، وفي عينيه بريق فضول: «ما الذي تفعله أيها الساحر؟».

فرش بالثازار الورقة على سطح العربة، ووضع رسغه الأيسر المخضَّب بالخط الأحمر في مركز دائرة القوة التي رسمها: «أكسر هراء هذا الرباط».

واجتاحه غثيانٌ من الفكرة، لكنه كان جاهزًا لها فصبر.

سأل البارون: «ومن أين جئتَ بالورقة؟».

قال بالثازار: «ذاك المرتعش الذي أغشي عليه أسقطها. فاقتنصتها».

- ماهر. والقلم؟

- ارتجلت بظفر من إصبع قدمي.

- بارع. لكن الحبر قوامه غريب.

توقَّف بالثازار عن معايرة زاوية الرسم، وعبس نحو مصَّاص الدماء.

الدم هو الخيار البديهي، وفيه شيءٌ من السحر المظلم، لكنه بعدما قضى نصف ساعةٍ مروِّعة يحكُّ جلده على جدران الزنزانة، تخلى عن الفكرة وسلك طريقًا آخر.

قال بحدَّة: «نحن في معبد الذرائع المقدسة. فعلتُ ما يلزم».

قال البارون، مجعِّدًا أنفه أكثر: «ظننتُ أنني شممت شيئًا».

تأفف بالثازار: «لا ريب أنك شممت أسوأ».

لم تكن الكتابة مثالية، بل متعثِّرة، ملتوية. لكن إن اضطُرَّ المرء إلى رسم طلاسمه بظفره مستعينًا ببرازِه، فليقبل دون تأفف.

كتم موجة أخرى من الغثيان، وأجرى التعديل الأخير على الاتجاه. فهذه الدائرة البائسة، المفتقرة إلى التقسيم ولوح الطقس، ينبغي أن تُوجَّه شمالًا. لكن من يضمن الشمال في عربةٍ تهتز؟ والسائق يلهب ظهر الخيول بالسوط طلبًا للسرعة، والريح تنزع أطراف الورقة.

آه، لو أن في حوزته دبابيسه الفضية، أو مغناطيسه وخيط الميزان، أو ساعته ومِدواره المجيد، أو مجموعة الحلقات النحاسية التي صنعها

له صانع المعادن في بغداد... لكنَّ صائدي السحرة، أولئك المتوحِّشين، حطَّموا كل شيء.

همس البارون: «أمطرت؟».

وقد بدأت السماء تتفل قطراتها، وما لبثت القطرات الغليظة أن تدافعت هابطة من الشريط الرمادي الممدود بين قمم الأشجار.

فزفر بالثازار: «اللعنة». واتضح له كعين الشمس عدم نفع الغائط البشري في كونه حبرًا. فقد كادت طلاسم عدة منها أن تمحى في أية لحظة. إما الآن، وإلا أبدًا.

رفع بالثازار يده فوق الخط الأحمر، ورسم بإصبعه إشارة الأمر، وتلا تعاويذه الثلاث التي ابتكرها: واحدة للتليين، وأخرى للفك، وثالثة للشقِّ. سهلة ومباشرة، فلا أحد هنا ليُبهره. ثلاث كلمات متواضعة لكل تعويذة، تُكرَّر كل واحدة منها ثلاث مرَّات، أنيقة في بساطتها البلورية. رسم الحروف بعين ذهنه، شعر بها تنبض بالقوة، وشعر بالحماسة تنفجر في صدره، ووخزًا في أطراف أصابعه. وحتَّى في مثل هذه الظروف، أحسَّ بالبهجة المُسكرَة للعمل بالسحر، إذ يُسخِّر فطنته وعزيمته ليثني قوانين الواقع ذاتها. أغمض عينيه بشدَّة إذ نطق الكلمة الأخيرة، وقطرات المطر باردة على وجهه، وضربات قلبه عالية في أذنيه، يهمس كل مقطع بتركيز مسعور.

سأله البارون: «هل نجح؟».

رفع بالثازار ذراعه، يحملق في تلك العلامة الصدئة على معصمه: «أظن ذلك». ثم شرع يبتسم، ولأول مرَّة منذ زمن: «أظن ذلك!». فتطاير ضحكه المبتهج مع الريح المندفعة إذ تسارع اندفاع العربة. هو بالثازار شام إيفام دراكسي، ليس فقط أحد أعظم ثلاثة باعثي أرواح في أوروبا، بل الرجل الذي كسر القيد البابوي، وخدع الكاردينالة بوك، وغادر بكل فخر...

لكن القيء اندفع من فمه، ورشَّ السطح، وبقَّع قميصه، ولامس كُمَّ البارون قبل أن يتمكن من الالتفاف وتوجيه الدفق إلى جانب العربة. واعتُصرت بطنه عقدة من العذاب، وعيناه جحظتا وهو يختنق، ويُرغي، ويُصفر، ويفرغ أحشاءه على الطريق المتسارع.

قال البارون ريكارد: «لا، على ما يبدو».

تهاوى بالثازار إلى المقعد بأنين، وورقة الطلاسم المُلطَّخة بالغائط مكرمشة في قبضته، والقيء يحرق وجهه من كل ناحية. يا أرباب ويا شياطين، أكان يخرج من عينيه أيضًا؟

صرخ: «لعنة اللعنات!».

استدار السائق في مقعده: «اهدأ يا من في الخل...». وانفجر رأس سهم من حلقه، ثم توقف على بعد بضع بوصات من أنف بالثازار، وخطوط الدم الغليظة تختطفها الريح وتذروها.

تمايل السائق في عربته المسرعة، يحدِّق بانحراف إلى رأس السهم الأحمر. تمخَّض دمه في لحيته، ثم انهارت ركبتاه. تدحرج على جانبه، وارتدَّ مرَّة واحدة في الطريق، ثم تلوَّى مترنِّحًا متكومًا، واضطر أحد الحرَّاس إلى سحب جواده لتجنُّبه.

لهث بالثازار: «إنهم يهاجموننا!».

أجاب البارون ريكارد: «هممم». وقد حافظ طيلة الوقت على تمدُّده المتهادي، كأنه في نزهة ريفية ممتعة. وأومأ نحو المقعد الفارغ: «لعلَّك تتولَّى اللجام؟». فالخيول الأربعة ما زالت تهرول جموحًا، والأحزمة والقيود تخفق بعنف، والفرسان من حولهم يدفعونها بهياج.

لهث بالثازار: «اللعنة!». وهو يتسلق فوق المقعد، فانزلق، وتعثر للحظة وساقاه مفترقتان، واهتز ظهر المقعد بين فخذيه ارتطامًا مؤلمًا. وانطلقت بضع سهام أخرى من الأشجار، مرَّ أحدها فوقه، وانغرز آخر متذبذبًا في جانب المقعد قبل أن ينساب فيه بلحظة.

لحسن الحظ، كان اللجام قد تعلق بذراع الفرامل، وبعد جهد بأطراف أصابعه المرتجفة، تمكَّن من الإمساك به. ولسوء الحظ، لم تكن لديه أدنى فكرة عمَّا يفعل بعد ذلك. صرخ: «ماذا أفعل؟».

زأر مصَّاص الدماء: «أنا مصَّاص دماء، لا سائس عربات!».

اندفعت الأشجار بجوارهم بسرعة مرعبة بحق، وتلبدت أعراف الخيول، وأسنان بالثازار اصطكت في رأسه. عضَّ لسانه عند مطبٍّ عنيف، واختلط طعم الدم بطعم القيء ولم يُحسِّن ذلك شيئًا.

أُصيب أحد خدَم الدوق مايكل، وسقط من جواده وتمرَّغ على الطريق، وسحقت عجلات العربة الثقيلة جسده قبل أن يقرِّر بالثازار حتَّى ألا يُحاول تفاديه.

صارت الدموع تنهمر من عينيه بسبب الريح، والطريق غشاوة متلألئة. أمامه رأى الدوق مايكل ممسكًا بلجام ابنة أخته، وهي تتشبث بسرجها. لمح بالثازار وجهها المذعور وهي تنظر خلفها. ونظر هو أيضًا، فرأى فرسانًا يطاردونهم. وكان في هيئاتهم شيء غريب. أهي خوذٌ ذات قرون؟

هبَّت العربة متخبطة، واضطر إلى صرف نظره عن الرعب من خلفه إلى الرعب الأقرب. رأى جدارًا بين الأشجار، وبوابةً تهتز معهم بجنون، على حافة منعطف يستحيل اجتيازه بسرعة كهذه.

صرخت بابتيست فوق صراخ العجلات: «أبطئها!».

صرخ بالثازار: «اللعنة، كيف؟!».

قال البارون ريكارد: «تمسَّك بشيء». ثم مدَّ يديه المُبَقَّعتين بالشيخوخة، وقبض على ذراع المكابح. وصرخت المعادن المعذبة إذ جرَّها، فتناثرت الشرر.

لمح بالثازار رجلًا في البوابة، فمه وعيناه مفتوحتان على وسعهما، قبل أن يندفع جانبًا، ثم اندفعت العربة إلى الساحة، والطين يتطاير إذ مالت على عجل واحد. تعثَّر أحد الخيول، والتوى ساقه، ثم سقط وسط فوضى من الأحزمة الممزقة والتراب الطائر. واندفع زميله إلى الأمام، يجر الفريق جانبًا، والعربة تمضي بلا توقف.

فتح بالثازار فمه: «يا إلهي». لم يكن يهتم بالرب كثيرًا، لكن لا كلمات أخرى تُناسب الموقف.

اندفع جدار نُزل نصف خشبي نحوهم، وانفصلت مؤخرته عن المقعد أخيرًا... وطار.

9

لا مكان في النزل

صاح يعقوب: «أغلقوا الأبواب!».

تساءل كم مرَّة صاح بذلك الأمر في القلاع المحاصَرة، والمدن المطوَّقة، والدفاعات اليائسة. لكن ذلك قاده إلى التساؤل: كم مرَّة انتهت تلك المرات على خير؟

لا أحد يريد أن يرى الشك في قائد. كانت أسنانه مطبقة دومًا، لكنه أحكم إطباقها أكثر. وجمع شتاته للقيام ببطولة، فرفع ساقه اليمنى فوق السرج، لكنها فعلها باندفاع، فتعلَّقت ساقه، واضطر إلى جرِّها بكلتا يديه. هبط على الأرض كما تسقط شجرة مقطوعة، دونما أيِّ مرونة في المفاصل، وكاد يهوى حين لامس حذاؤه الطين وهددت ركبته النابضة بالانهيار.

آه، ما أوجع الركوب هذه الأيام. لا يقلُّ عن ألم المشي.

ثم اعتدل مكفهر الوجه. وواصل عرجه تحت رذاذ المطر الهاطل. وهدد جسده بالانهيار، بما فيه من رضوض وتمزقات، وقد خاطوه كثيرًا وأعادوه مرارًا. وما دفعه إلى الاستمرار إلا عزيمته الصلبة على عدم السقوط. عزيمته، ونذوره.

صرخ: «تسلَّحوا!». بينما دفع حارسان الأبواب ليغلقوها على مفصلات تصرُّ. على الأقل، صوته لا يزال يعمل: «أو ادخلوا إلى الداخل!». وقف

صبي بفرشاة تمشيط متجمِّدًا، فأمسكه يعقوب من طوقه ودفعه مهرولًا نحو النزل: «اعتنوا بالجرحى!». عادة قديمة، أن يتولى القيادة: «اربطوا هذه الخيول!». أن يقهر الفوضى بأي أداة متاحة: «ومن يحمل قوسًا، إلى الأسوار!». لقد وُهِب ذلك الشيء في صوته الذي يُطاع، وهذه نعمة. فقط استمرارهم هو ما يُبقيه مستمرًّا.

شقَّت العربة في انقلابها أخدودًا متعرجًا في الطين، ثم ارتطمت بواجهة النزل على جنبها. لكن الأقفال صمدت، فشكرا للرب وشكرًا للقديس ستيفن. كانت أقفالًا محكمة. وقد حرص يعقوب أشد الحرص على ذلك. بقي حصان واحد يرفس بتراخٍ قرب الحطام، حوافره تخدش الأرض. ولم يُدرِك بعد أنه بلغ نهاية الطريق. أو ربما أبى أن يُقرَّ بذلك. حالتان ذهنيتان عرفهما يعقوب حقَّ المعرفة.

لقد كانت مهمته في صباه حين كان مرافقًا للفرسان، أن يمنح الخيول المصابة الرحمة، رحمة الرب، ضربة واحدة، بين العينين. تتعلم تمييز الخسائر المحسومة وتقطعها. كما يفصل المرء المراسي عن سفينة آيلة للغرق. تحصي ما تبقَّى من قوتك، وتنقذ ما يمكن إنقاذه.

سأل وهو يمسك صدرية بابتيست المطرزة: «أين البارون؟ وماذا عن الفتى الجديد؟ مدغدغ الجثث؟».

هزَّت رأسها بمرارة: «كان عليَّ أن أستقيل بعد برشلونة».

قطَّب يعقوب وهو ينظر نحو البوابة، يراقب الحراس يَدكُّون العارضة الطحلبية في الحلقات الصدئة. قطَّب وهو يتأمل الجدران المتسلِّقة عليها الأعشاب، والأسوار المتداعية، والبرج المائل، والإسطبلات المكسوَّة باللبلاب، والنزل ذاته. راح يُحصي ما في موقعهم من قوَّة، ويُدوِّن في قلبه كثرة مواطن الضعف.

- كلُّنا كان علينا أن نستقيل بعد برشلونة. هل رأيتِ من يلاحقنا؟ عيناكِ أصفى من عيني.

قالت وهي تحرك فكَّها: «رأيتهم».

- كم عدد الرجال؟

قالت، وقد فَقَدت قبعتها مع روح الدعابة على الطريق، وشَعرها المموج يتلألأ بالمطر: «ما يكفي. لكن لا أظنُّهم رجالًا...».

حاول قائد الحرس التحرر من عباءته، وقد انحلَّ الخيط الذهبي الذي يرسم دائرة المُخَلَّصين، فاشتَبَك بدرعه. تمتم وهو يعالج العقد بأصابع مرتجفة: «من يجرؤ على مهاجمتنا؟ من يجرؤ على مهاجمتنا؟». كان شابًّا، صغيرًا على هذا، يحمل من الشارب ما ينبت لفتى يظنُّ أنه يزيده عمرًا، وهو في الواقع يصغُره بكثير. لكن يعقوب حاول ألَّا يحكم على الناس من اختياراتهم السيئة. فقد ارتكب عمرًا من تلك الاختيارات.

قال وهو يستلُّ خنجره ويقصُّ الخيط كله بحدَّة واحدة: «سنكتشف قريبًا. الأقواس إلى الأسوار أيها القائد، حالًا». حملق الشاب فيه، فقبض يعقوب على صدر عباءته وجذبه نحوه: «لا أحد يريد أن يرى الشك».

قال الشاب: «حسنًا... الأقواس»، وراح يشير إلى رجاله نحو السلالم. دَفع إليهم المهام دفعًا حتَّى لا يروا الموت المتربِّص خلف الباب.

انحنى يعقوب ببطء. قبض حفنة من التراب. فركها بين كفَّيه الموجوعتين، وبين أصابعه المتألِّمة.

قالت الأميرة أليكسيا: «ما الذي تفعله؟».

لم تكن تبدو كأميرة أكثر من ذي قبل. شعرها المبلول قد انحلَّ والتصق بخدِّها الشاحب، وثيابها ملوَّثة بالطين، وإحدى يديها النحيلتين تعتصر الأخرى. لكن يعقوب تعلم منذ زمن بعيد أن المرء لا يُقاس من مظهره. يستطيع الناس أن يجدوا الفضيلة والعظمة بطرق غريبة وفي أوقات أغرب. أما هو، فلم يعد له نصيب منهما، مضيا مع الماضي. لكن ربما كان بوسعه تهيئة المكان الذي قد يجد فيه الآخرون ما فاته.

قال وهو يعتدل ببطء: «عادة قديمة. تعلَّمتها من صديق قديم». عدوٌّ قديم. تذكَّر وجه حان بن خازي وهو يفرك تراب الصحراء بين كفَّيه. تلك الابتسامة المستحيلة، والرجال من حوله يصيحون ويبكون. هدوء عين في قلب إعصار: اعرفي الأرض التي تقفين عليها، واجعليها أرضك».

أهدى الأميرة شيئًا يُشبه ابتسامة خازي، حتَّى لو وخزته الجراح القديمة تحت عينه. تلك التي أهداها له خازي: «شجاعة، يا صاحبة السمو».

همست: «شجاعة؟»، ثم ارتجفت عند هدير عظيم خارج الأسوار، لا يكاد يُشبه صوت بشر، بل أقرب إلى ثور هائج.

- أو، إن شئتِ، غضب.

قال الدوق مايكل وهو يستلُّ سيفه: «نصيحة طيِّبة». وكان من هيئة قبضته -رخوة ومرِنة كنجَّار يمسك مطرقته- يُدرك المرء أنها ليست المرَّة الأولى.

قال يعقوب وهو يطبطب على كتفه وهو يمضي نحو البوابة: «احمِ ابنة أختك».

اهتزَّت الأبواب تحت ضربة عظيمة من الخارج، وقفزت العارضة في حلقاتها. ذكَّره ذلك بحصار طروادة في الحملة الصليبية الثانية. ضربات الكبش التي تهزُّ الأرض، على الأبواب المباركة ثلاثًا. تطايرت الشظايا من العوارض، غلاظًا كصواري السفن. نيران الساحرات تومض بين الألواح الخشبية، والأسقف تهتزّ بأناشيد قتال الإلف من خلف الجدران، فيما الأسقف تتردَّد بأدعية الأسقف أوتو، الذي صار لاحقًا القديس أوتو، وهو ينادي أعظم الملائكة واحدًا تلو الآخر.

ذكَّره ذلك بواقعة مستنقعات راتفا. بخشونة التراب على مقبض سيفه. بمطر على الوجه، وبهواء بارد نقيٍّ يملأ رئتيه. ذكَّره ذلك بيوم اقتحام برج كورجانو. بذلك الدخان اللاذع الحارق لقشِّ السقوف. بصراخ الجرحى. بذُعر الهالكين. لكن المرء، إذا بلغ سنًّا بعينها، أضحى كل شيء يذكِّره بشيء. ارتجَّت الأبواب مرَّة أخرى.

قالت ساني، إذ مالت تمشي بجانبه: «ما عساي أفعل؟».

ضحك يعقوب، وهو يبتسم لها: «عيشي حتَّى ينتهي الأمر». ثم ابتسم للإلف، عجبًا كيف تتبدَّل الأمور: «دائمًا ما تسوء الأمور، أليس كذلك يا ساني؟».

قالت، وقد رفعت قلنسوتها وهمَّت بالشهيق العميق: «عادةً تأخذ وقتًا أطول من هذا».

ثم اختفت. ولمدة لحظة، أبصرَ في المطر موضع وقوفها، أو عدم وقوفها. ثم اختفى حتَّى ذلك الأثر. اشتد المطر، وهبَّت الريح تدور في الساحة، وعباءات الحراس تُرفرف أردية، وتجعل علامة الدبِّ المتدحرج ترقص متأرجحة في سلسلتها الوحيدة الصارَّة.

أزاح يعقوب الترسَ عن ظهره. تأوَّه من وخزة في كتفه وهو يُدخِل ذراعه اليسرى في الحمالات. صاح: «ثبات!». بنصف زئيرٍ ونصف زمجرة، ذلك الصوت الذي صقله في مئة ميدان حرب حتَّى غدا قاطعًا كحدِّ السيف: «ثبات!».

يمكنك مراكمة شكوكك القديمة، ويمكنك تلميع ندمك من بعد، لكن حين تدور المعركة، لا بُدَّ أن تكون الغاية خالصة. اقتل العدو. لا تمت. استلَّ سيفه. فتأوَّه من ألم قديم في أصابعه حين قبض على القبضة. عجبًا كيف تتبدَّل الأمور. ولكن، ما أكثر ما يبقى منها على حاله. جاء زئيرٌ آخر من وراء الأبواب. وضربة أخرى على الخشب العتيق.

صرخ: «استعدُّوا!».

العهودُ هي التي تُبقيه واقفًا حين يخونه الجسد، أو تتزعزع الشجاعة، أو تنطفئ العقيدة. لو احترق العالم وتذرى رماده في الريح، لو ضاع كل شيء، فعهده باقٍ لا يزول. ارتجَّت الأبوابُ مرَّة أخرى.

***

- أأصبتِ بأذًى يا أليكس؟

سمعت الكلمات، لكن لم تفهم لتلك الملعونات معنى. حدَّقت إلى الدوق مايكل، أو خالها، أو أيًّا من كان. قالت: «هاه؟». وارتجفت إذ نضح الطينُ على وجهها.

الساحة فوضى. الخيول تُجرُّ إلى الإسطبل الصغير، الذي لا يتسع لنصفها، الأعراف تتطاير، والحوافرُ تضرب الأرض، والجنود يصيحون ويتدافعون نحو الأسوار. رأت أحد الحراس، ولعلَّه أصغر منها، خُوذتُه ذات مِغلقٍ مكسور، لا تلبث أن تنزلق إلى عينيه فيرفعها، ثم تنزلق من جديد. والمطر يتقاطر بغزارة، يتناثر من مزراب مكسور. وحارس يُسحب من سرجه، ويداه تقبضان على ذراع سهمٍ مكسور غُرز في بطنه.

كان يزأر: «هل وضعي سيِّئ؟ هل وضعي سيِّئ؟».

أليكس ليست جرَّاحة، لكنها أيقنت أن سهمًا مغروزًا فيه أمرٌ غير جيِّد. السهام حادَّة، وجسدك ليس سوى لحم.

قبض خالها على كتفيها يهزُّها: «أأصبتِ بأذًى؟». وكان يحدِّق إلى سرجها، فرأت أن سهمًا مغروزًا فيه أيضًا. خشبٌ داكن، وطويل على غير العادة، وريشه مخطط بخطٍّ بديع.

قالت: «أوه». ولو كانت جالسةً عليه، لربَّما اخترق ساقها.

بطحوا الحارسَ على الأرض، ورفعوا درع الزرد عن صدره، ومعطفه المبطن تحته قد تشبَّع دمًا، وجلده الأبيض مغموسٌ في الدم، فمسح خادم خالها يوسابيوس الجرحَ بخِرقة، والدم يتدفَّق، وهو يمسح، ويتدفَّق، ويمسح، فيتدفَّق أكثر.

قالت: «أوه»، مرَّة أخرى، ووجدت نفسها تقبض على بطنها، في الموضع نفسه من الجرح. ركبتاها تصطك، وشَعرها التصق بوجهها، وشعرت بالغثيان. كلُّ غرائزها كانت تصرخ: «اهربي!». لكن إلى أين؟

صاح أحدهم: «كم عددهم؟».

وآخر: «أين السهام؟».

وثالث: «ربَّاه أنجِدنا!».

زأر يعقوب الثورني: «ثبات!». فارتجفت أليكس حين اهتزَّ الباب، وتراجعت خطوةً خائفةً إلى العدم، ثم استدارت فجأة إذ سقط شيءٌ خلفها.

سقط أحد الحراس من السور. أو أُلقي. ثم وثب شيءٌ فوقه. سقط برمحه أولًا، مسمِّرًا إيَّاه في الأرض من صدره. شيء. أو أحد. وقف أمام عيني أليكس اللامعتين، تاركًا رمحه مغروزًا في الجثة. لم يكن له أنف رجل، بل خطمٌ طويل، مكسو بفروٍ كستنائي، وأذنان، إحداهما قائمة والأخرى مرتخية بطرفٍ أسود.

حملق في أليكس بعينين عنبريَّتين. كعيني الثعالب التي تراها على مكبَّات النفايات ليلًا، تنظر إليها غاضبةً، كأنها تقول: «ما شأنكِ في مدينتنا، أيتها اللعينة؟».

سمعت الأخ دياز يهمس: «لتحفظنا المخلِّصة...».

تسمَّرت أليكس في مكانها، والشيء يسلُّ سيفًا مقوَّسًا من حزامٍ يغص بالأسلحة، ويكشف عن أنيابٍ صغيرةٍ حاقدة، ويُطلق صرخةً عالية من الغيظ وهو يضربها.

لكنَّ صليل الحديد دوَّى إذ اقتحم الدوق مايكل ما بينها وبين الضربة، صدَّ السيف بسيفه، ودفعه جانبًا حتَّى كاد طرفه أن يزل عن كتفها بقليل. ثم بحركةٍ من معصمه، تحوَّل من الصدِّ إلى الطعن، خطا خطوةً إلى الأمام، فاندفع نصله يخترق درع الثعلب الجلدية المرصَّعة، ثم سحبها سريعًا.

ليس من السهل قراءة تعبير وجهه، إذ غطاه الزغب البنِّي، لكنه أطلق صرخة، وخرَّ على ركبتيه. سقط سيفه لما أطبق على الجرح، والدم يتدفَّق من بين أصابعه ذات الفراء.

صاح الدوق مايكل، مشيرًا إلى اثنين من الحرس: «إلى النزل! أنتما! معنا!».

دفع أليكس من خلال بابٍ إلى غرفةٍ واطئة ذات عوارض مسننة، تفوح منها رائحة البصل والخذلان. مكانٌ بائس حتَّى بمعايير أليكس، والتي كانت قبل أيام من أدنى ما يكون في أوروبا. ولم يُجدِ أن العربة قد اقتحمت الجدار وثقبت فيه فجوةً عشوائية، وأسقطت جزءًا من السقف. انكمش رجلٌ بدينٌ خلف منضدة مغطَّاة بفتات الجص.

قال مرتعدًا: «ما الذي يجري؟».

تمتمت أليكس، شاردة: «رجل، وثعلب».

بصق خالها وقال: «تجارب يودوكسيا الملعونة». وأمسك صاحب النزل بمئزره القذر، وجذبه: «أين الباب الخلفي؟».

فأشار الرجل بإصبع مرتجفةٍ إلى ظلمةٍ بجوار الموقد، حيث جذوعٌ تتوهَّج في الموقد الأسود. تحرَّك يوسابيوس نحوها، يستلُّ فأسًا صغيرة. ثم دفع الدوق مايكل شيئًا في يد أليكس المرتخية. خنجر، تقاطعُه يشبه الأفعى، وعيناه ياقوتتان. قال: «خذي هذا». وقبض على أصابعها ليغلقها على المقبض: «وكوني على استعداد لاستعماله».

ثم قادها عبر الغرفة، وسيفه يتألَّق بحمرةٍ في يده الأخرى. اختبأ اثنان من الروَّاد تحت طاولة. وأمسكت خادمة ذات وحمة كبيرة بجرة بكلتا يديها، والتصقت بالحائط.

كان ثمَّة من يصرخ في الخارج، والحديد يصطك، وصيحاتٌ ونعرات كأنَّ زريبةً قد اشتعلت، وتحطُّمٌ يتردَّد صداه لشيءٍ ثقيلٍ كان يهوي على البوَّابات، والصغيرُ من الحارسين ينكمشُ عند كلِّ ضربة. التصقت به

الخادمة من خلفه، قبعتها مائلة، والدمعُ يسيل على خدَّيها، تعضُّ على الكيسِ الذي ضمَّ الأمشاط والزيوت ومساحيق الزينة، والتي غدت فجأةً أثرًا من عالمٍ اندثر.

ولم تكن أليكس وحدها، على ما يبدو، من انقلبت خططها إلى خراء.

بلغ يوسابيوس الباب الخلفي، يسند ظهره إلى المدخنة، ويده على المزلاج. فتحه بحذرٍ بالغ، فخط شريطٌ من الضوء جانب رأسه الأصلع وهو يتفقَّد الخارج. ثم أومأ إلى سيِّده.

لحس الدوق مايكل شفتَيه، وهمس: «الزمي قربي». وتلفَّت، بينما فتح يوسابيوس الباب أكثر. «واستعدِّي للفرار...».

وفجأةً اشتعل عامودان من نار، واندفع الباب من مفاصله. فضرب الهواء وجه أليكس، وتطاير شعرها على وجهها، وامتلأت الغرفة الخفيضة بضوءٍ جنوني. أما الدوق مايكل فطار كدميةٍ صغيرة، وسيفه ارتطم بالركن. عندها صرخت الخادمة، وأسقطت حقيبتها، فتبعثرت القوارير والمساحيق.

ثم اندفعت امرأةٌ عبر إطار الباب المتفحِّم. طويلة جدًّا، نحيلةٌ جدًّا، ترتدي رداءً مُرقَّشًا بالسهام ودوائر أثرية، وعيناها تتلألآن بانعكاسات النار المشتعلة من حولها في الغرفة، ولم يبدُ أن أحدًا قطُّ كان أشبه بالمشعوذات مثلها.

سألتها المشعوذة، وأليكس تتقهقر، وتتعثر بطرف فستانها، فتهوي على الأرض منبطحة: «لست أقطع حديثكم؟».

زمجر الحارس الضخم بشيءٍ ما وهو يخطو إلى الأمام، ثم اشتعل دفعةً واحدة في نارٍ مستعرة، والنيران تلتهم سترة الفروسية الموسومة بالدائرة، والتفَّ شَعره وتلوى وتطاير عنه كقش محترق.

انطلقت خطوط من لهب خارقةً العتمة. فجفلت الخادمة تصرخ وتضرب الأرض بذراعيها، وساقاها مشتعلتان. والتفت الحارس الأصغر

هاربًا. أشارت إليه الساحرة، فسقط، وزحف، ودرعه تتوهَّج توهُّج حدوة على سندان الحداد، ثم اشتعلت سترة الفروسية خاصته، فأخذ يتلوى ويعوي وينهش جسده بأظفاره، وبخارٌ كثيف يتصاعد من ظهره.

حبت أليكس على مؤخرتها، تزحف عبر ما تبقَّى من زجاجات الخادمة المكسورة، ليس بها حتَّى النفس لتصرخ، إذ خانتها أنفاسها من شدة روائح الشواء والحم الآدمي المحترق وروائح الورد من العطور المسكوبة. وفي قبضتها المبلَّلة بالعرق ظل الخنجر، لكنها لم تفكِّر لحظةً في استعماله. تشبَّثت به فقط لأنها نسيت كيف تفتح كفها.

ثم لمعت عينا الساحرة صوبها، وابتسمت: «إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟».

* * *

صلى الأخ دياز.

لم تكن تلك المرة الأولى، فالصلاة للراهب كالأحجار للبنَّاء، لا تستقيم الحرفة بغيرها. في الدير، كان يذهب إلى الكنيسة عند الفجر، وعند الزوال، وعند العشي، يشارك الرهبان صفوفهم، ويقود الناس أحيانًا في صلاة، وأقام معموديتين، وجنازة خفيفة الأثر. غير أنه ما اقتصر على الصلوات المجاهرة، بل أكثر من التضرع في خلوته، يسأل ربه أن يجعل له أثرًا يذكر، وأن يبعث الغيرة في قلوب إخوته، وأن تباهي به أمه. حسب أنه بارعٌ في ذلك، يهنِّئ نفسه لحفظه المتقن للمزامير. لكنَّه الآن، في لحظة الفزع هذه، تبيَّن له أنَّ لسانه قد نطق الكلمات، لكنَّ قلبه لم يصدقها.

وأمَّا الآن، فقلبه كله صدق.

لهج بالدعاء: «يا رب»، قابضًا كفَّيه ليجعل منهما قبضة واحدة مرتعشة، رافعًا عينيه إلى السماء التي تبصق عليه، وقال: «يا إلهي، يا أبتاه، يا نور العالم، أنزل علينا نار تطهيرك، ونجِّنا من الظلمات».

ضُربت أبواب النزل ضربة مروّعة، فطارت منها شظيَّة عظيمة، وطارت إلى الساحة حتَّى اصطدمت بالعربة المحطمة.

قال يعقوب الثورني: «ثبات!».

كيف لأحد أن يثبت في أثناء هجوم خلق ليسوا ببشر ولا بوحوش، بل شرٌّ مختلط من كلا الصنفين؟ ولا تزال جثة المسخ الذي قتله الدوق مايكل متمددة في بركة دم، لقد وقفت لا شكَّ على ساقين، واستعملت أسلحةً بشريةً قطعًا، لكن تلك العينين، ما تزالان جاحظتين نحو السماء، ولا ريب في أنهما عينان ثعلبيتان. يا نفس المخلِّصة، تلك الأذنان المغطَّيتان بالزغب!

جثا الأخ دياز على ركبتيه في الطين، قابضًا على الدائرة الخشبية المعلقة في عنقه، رمز المخلِّصة، الذي به يصل إلى فردوس السماوات. قال دياز: «أيتها الابنة المقدسة، يا ذبيحة البركة، برحمتك التي لا حد لها، احفظينا».

على السور، تسلَّق هيكل عظيم، قد تدرَّع بصفائح من حديد ذي مسامير، وفي يديه فأس عظيمة يهوي بها على حرسين من الحرس البابوي. حسبه دياز أوَّل الأمر يلبس خوذة لها قرنان، لكنَّه إذ دقَّق من خلال المطر، تبيَّن أن القرنين مغروزان في جمجمته. زمجر في وجه المطر، وبضربته التالية أرسل أحد الحرس يتهاوى صارخًا عن السور في شلَّال من الدماء.

إن كان البشر خُلقوا على صورة الرب، فما هذه إذًا إلا مسوخٌ تُفسد مقصده الطاهر فسادًا فاحشًا؟ قرأ الأخ دياز أخبارًا عن أمثال هؤلاء في مجلدات الدير التي تميل إلى العجائب، لكنها دومًا في أرضٍ بعيدة عن نور الكنيسة القويم، عند أطراف الخرائط حيث لا ترسم الأقلام إلا خُرافاتٍ ملتوية.

تخبط في طوقه حتَّى استخرج القارورة الفضِّية، دم القديسة بياتريكس المقدَّس، وقبض عليها وعلى الدائرة المُقدَّسة معًا. ما من

ربٍ أنه بحاجة إلى كل ذرة من العون الإلهي الذي يُتاح له. قال دياز: «أيتها القديسة بياتريكس المباركة، ارزقيني إيمانك الذي لا يُقهَر، وشجاعتك التي لا تُهاب. اغفري ضعفي، وكوني معي في ساعة بلائي».

صرخةٌ دوَّت. أحد الحراس، أصابه سَهمٌ، فسقط من على السور واقتحم سقف عريشٍ من القش، ثم ارتطم بالأرض يتأوَّه بخفوت بين أنقاضه. ثم قفز شيء ما من فوق المتراس إلى الممشى الذي كان يقف عليه، امرأة تمسك قوسًا بيدها، وآخر على ظهرها، وثلاث جعاب أو يزيد معلَّقة بجسدها، لكن ساقيها طويلتان مطويتان كرجلي أرنب.

لم تكن هذه قلعةً صليبية، مشيدةً بفنِّ الإيمان الأبيض، بل نُزُلًا مهملًا، جدرانه المتصدِّعة لا تكاد تعلو قامة رجل. فأغمض دياز عينيه وصلَّى بأشد مما صلَّى قطُّ، والدموع تنزُّ من تحت جفنيه المشتعلين.

قال دياز: «أعلم أنني وعاء لا يُرتجى، قد دنَّسني الهوى والفجور، لكن املئيني بنورك المبارك، ولا تجعليني أهاب، لا تجعلني...».

وعند الضربة الأخيرة، انقلعت إحدى دعامات الجدار في وابلٍ من الغبار، فطار العارض الخشبي المهشَّم إلى الوراء، وارتجَّت الأبواب المحطَّمة إلى الداخل، وانقطعت الدعوات على شفتي دياز.

وقف يعقوب الثورني عند بوَّابة المدخل المفتوح، رماديًّا، عنيدًا، كجذع شجرةٍ حناها الريح، وقد تقزم بجوار المسخ الذي انحنى ليعبر تحت القوس العالي.

وحشٌ شامخ، متسربلٌ بدرع من سلاسل صدئة، وفي قبضتيه المغطَّاتين بالفرو هراوةٌ عظيمة مرصَّعةٌ بالمسامير. مسخٌ ذو قوائم ماعز، ورأس ماعز، وقرني ماعز، متخمٌ بالسلاح. مدَّ عنقه، وعيناه الصفراوان المشقوقتان تتفجَّران من حدقتهما، ثم أطلق ثغاءً غاضبًا، صاعقًا، مزلزلًا للأرض.

10

سخط

دفع بالثازار نفسه إلى الأعلى بأنَّةٍ تثير الشفقة. أين هو؟ ظلمة، تتخللها ومضات لهب، ورائحة لاسعة من احتراق. أهذا هو الجحيم؟

آلمه الجانب الأيسر من جسده ألمًا فظيعًا. ونبض رأسه. تذكَّر شيئًا عن محاكمة. مهلًا، هل التقى البابا؟ رشقة شرر حين جرَّ البارون ريكارد مقبضًا... الرابط، القيء، العربة، الكمين! كله اندفع إلى ذهنه. وكان بالكاد قد بدأ يتمنَّى لو أن هذا هو الجحيم حقًّا، حين سطعت رؤيته بوميض متألق، ودفقة حرٍّ جعلته ينكمش.

انحنى على طاولة، فرأى جثَّة متفحمة خلفها، ترتدي مئزرًا، فتراجع متمايلًا وكاد يتعثَّر بالأميرة أليكسيا. كانت تزحف إلى الوراء عاجزة، ثيابها مهلهلة ومكسوَّة بالسخام، على أرض غرفة طعام منخفضة تناثر فيها أثاث محطَّم، وجثث محترقة، وقطع من السقف المنهار، وعدة حرائق. عيناها المذعورتان مشدودتان إلى امرأة طويلة، من أرديتها الغريبة وابتسامتها العارفة -ناهيك بأنها تخطو آمنةً عبر ستار من اللهب- استنتج بالثازار أنها مشعوذة نار ذات بأس ليس بالهين.

يبدو أن خطط الكاردينالة زيزكا وبوك لإعادة إمبراطورية الشرق إلى حضن الكنيسة الوثير على وشك أن تحترق... ماديًّا. وفي الأحوال

المعتادة، لكان ذلك أمرًا لا يعني بالثازار في شيء. لكنَّه، في الوقت الراهن، وجد نفسه مقيَّدًا قسرًا بتعويذة البابا.

وهكذا، حين رفعت المشعوذة يديها لتسحب نارًا من العدم، انطلق بالثازار في الاتجاه الخطأ تمامًا: فألقى بنفسه بينها وبين الأميرة أليكسيا. وبمحض حظٍّ عاثر، كان لا يزال يقبض على ورقة الطلاسم الملطَّخة بالغائط، فحين اندفعت النار نحوه، دفعها إلى الأمام كالدرع، والكتابة إلى وجهها، وهو يهمس بتعويذة حماية بين أسنانه المشدودة.

شعر أول الأمر بارتياح بالغ حين رأى اللهب يتراجع، يزأر حوله وكأنه قُبَّة زجاجية، مشعلًا الطاولة وبعض المقاعد، وقسمًا من السقف المحطَّم، وسترة أحد الحرس الموتى المطرَّزة بالدائرة البابوية. لكن، سواء أكان ذلك بسبب رداءة الورق، أو الطلاسم على الوجه الخلفي، أو تبلله قليلًا بالمطر، أو رسم الطلاسم بالغائط باستخدام ظفر، فإن ارتياحه لم يدم طويلًا. فبدأت الرقعة أولًا بالاصفرار، ثم اسودَّت، ثم تقلَّصت أطرافها، ثم اشتعلت.

صاح بصوت متهدِّج: «آه! اللعنة! آه!»، ولما خبت النيران، ألقى بالرقعة المحترقة، وهو ينفخ في أصابعه المحروقة، ويمصها بالتناوب، ويرمش بعينيه محاولًا طرد الشرر المنقوش في رؤيته. زحفت الأميرة إلى الخلف، تصفع لهبًا التهم طرف فستانها، وبالثازار يزدرد ريقه إذ تقدَّمت الساحرة، شفتها ملتوية، وعيناها ضيقتان.

سألت: «أأنت مشعوذ؟».

قال بالثازار، يزحف كخادم مفضوح أمام ملكٍ غاضب: «ساحر، لكنني أُجِلُّ الشعوذة أعظم الإجلال». لطالما اعتبره علمًا أدنى، مأوى للمتهوِّرين الذين يفضِّلون الحدس على العقل، لكنَّ الوقت لم يكن ملائمًا للمصارحة التامَّة: «أأحظى بشرف مخاطبة إحدى تلميذات الإمبراطورة يودوكسيا؟».

هزَّت المشعوذة رأسها بفخر: «أجل». والغرور آفةٌ معروفة في هذا الصنف. وبالثازار يمقته، لكنَّه لا يترفَّع عن استغلاله.

قال وهو يزبد: «أفهم أنها كانت من أعظم الممارسات!».

قالت المشعوذة، وهي تضيق عينيها: «أعظم عصرها. لقد رأيتُها تلقي البرق بعينيَّ هاتين مرة».

قال بالثازار وهو يلهث: «مهيب»، وظن في نفسه أنَّ ذلك مبالغة سخيفة: «اسمي...».

ثم قدَّم أبهى انحناءة استطاعها، وهو يتصبب عرقًا في بناء محترق، محاط بالجثث والنيران، وأطرافه لا تزال تغلي: «بالثازار شام إيفام دراكسي».

أمل أن احتقارها الغاضب قد ينحسر. وثبت أنَّه مفرط التفاؤل. بل ازداد. قالت: «سمعتُ بك».

قال، متردِّدًا بين الرهبة والزهو: «لعلها أشياء طيبة؟».

قالت: «أشياء». كانت نيران النزل حارَّة، لكن ما جعله ينكمش هو موجات الحرِّ المنبعثة منها، ووجهه ينحرف جانبًا، وعيناه تضيقان، والبصاق على شفتيه يجفُّ تبخُّرًا. ارتجف الهواء حولها، وأكمامها تسوَّد، وشعرها يرفرف بفعل الحرارة المتصاعدة. كانت ذات بأس، لا ريب. لكنَّ من يُسلِم نفسه للنار، يصير مثلها: متهورًا، مدمِّرًا، خاليًا من اللباقة.

زحفت الأميرة نحو الباب، وتقدَّمت المشعوذة نحوها، وبالثازار، بحركة عاجزة من كتفيه، لم يستطع إلا أن يقف بينهما مرَّة أخرى. تحوَّلت عينا المرأة المتقدتان نحوه.

قالت: «أتجرؤ على معارضتي؟».

لم يكن بالثازار بلا كبرياء، لكن لم يمنعه ذلك قطُّ من التذلُّل حين تكون حياته على المحك.

قال بالثازار: «أعتذر أشد الاعتذار إن بدا مني ما يُظن به الإساءة، شخصية أو مهنية. لا أريد اعتراضك قيد أنملة، ولا اعتراض أيٍّ من بنات دائرتك الجليلة. بل إنني لأطرب لفكرة رؤيتك تذرِّين تلك النطفة التافهة رمادًا، بالبرق أو بغيره، لكن...». وكاد يتعثَّر بجثَّة محترقة لأحد حرس قداسة البابا في ارتباكه، ثم نهض رافعًا كفَّيه مستسلمًا: «لقد فُرض عليَّ هذا الرباط البابوي الملعون!».

حدَّقت المشعوذة إلى اللطخة البنيَّة على معصمه وقالت: «هذا... رباط بابوي؟ يبدو بائسًا».

قال بالثازار: «لقد نطقتِ بما في نفسي! لكنه أشد فاعليةً مما يبدو!». وقد تفحمت ساقا الخادمة المحترقة، لكن نصفها العلوي ربَّما لا يزال له نفع: «سأكتشف سرَّه، وسأكسره...». ثم أطلق تجشؤ قبيح واضطر إلى ابتلاع قيء وقال: «... لكن، في الوقت الحاضر، أُرغ... أُرغَمُ على بذل كل ما تبقَّى لي من قوَّة لحماية بنت عرس».

رفعت المشعوذة يديها وقالت: «فلتَحترق إذًا».

قال بالثازار، متقزِّمًا أمام دفقة حرٍّ أخرى، رافعًا كفَّيه المرتجفتين أعلى وأعلى، متوسِّلًا الوقت بينما يمدُّ إرادته رويدًا رويدًا نحو جثَّتي الحارسين: «أيلزم أن تكون نارًا؟ لم تكن قطُّ من تفضيلاتي!».

وكان الوهج من حول يديها قد اشتدَّ. فرأى عظامها تتوهَّج كالمعدن المحمَّى تحت اللحم. سألت بسخرية وهي تخطو بين الجثث المتصاعدة دخانًا: «وهل لك تفضيل؟».

قال بالثازار، وقد بدأ يُحرِّك أصابعه خفية، ينسج التعاويذ المألوفة في ذهنه، يتحسَّس المفاصل، يشدُّ الأعصاب، ويُحرِّك السوائل: «نعم، ما دمتِ سألتِ... الجثث».

فاندفع الحارس الأكبر واقفًا، يصدر صوت غرغرة وضرطة عالية. وكان في ملامحه المحترقة دهشة عوجاء، لكنَّها، ولرضا بالثازار لم تُقارن بصدمة المشعوذة.

صرخت بصوت أجشَّ، وانطلقت النار من أصابعها، فأشتعل الحارس الضخم من جديد، لكنه إذ كان نصف ناضج ومات تمامًا، لم يُزعجه كثيرًا، بل تعثَّر بها كمحب ثمل.

قال بالثازار، وهو يُخرج غيظه المتراكم طوال الشهور الماضية: «أنا، أحترق؟ لأطفئنَّك كما تُطفأ شمعةٌ ضخمة!».

ورغم سوء الظروف، راح يوجِّه تلك الجثث وكأنه يقود رباعية وترية. فأقام الحارس الصغير وجعله يترنَّح نحو المشعوذة، يضرب ظهرها، وفي الوقت ذاته أشار إلى صاحب النزل، الذي احترقت عيناه، فراح يتحسَّس طريقه نحو براميل الجعة كأعمى في حفل تذوُّق خمر.

ولوَّح الحارس الأصغر بقبضته، يترنَّح على ساق متيبِّسة، فأخطأ الهدف، وضرب الحارس الأكبر، فانكسرت يده المشتعلة. لكن بقي ما يُنتفع به. صرخت المشعوذة حين عضَّها الحارس الأكبر في ذراعها، يصدر عنه ضرطة متقطِّعة، وهو أمر شائع في الموتى حديثًا، ما لم يُركِّز المرء كثيرًا على الصمامات المعنية، ومن يملك الصبر لذلك؟ اندفعت النار فاشتعلت العوارض، واهتزَّت المشعوذة تحت ثقل الحارس، ثم أحاط نصف الخادمة العلوي بكاحليها عناقًا محكمًا، فأطلقت عويلًا يائسًا وهي تُسقَط بقوة على الألواح المتفحمة.

اختلط الأمر على الحارس الصغير، وأخذ يدور في دوائر، وثيابه تحترق، لكن الحارس الكبير ظل ممسكًا، يُثبِّت المشعوذة كيفما حاولت الالتفاف، فيما تنهش الخادمة ساقيها نهشًا مسعورًا، والجلدُ المطهوُّ يتقشر عن كتفيها وهي تفعل.

قال بالثازار، رافعًا قبضته عاليًا: «أنا بالثازار شام إيفام دراكسي، يا أيتها الخادمة المتقدة».

فنهض صاحب النزل، يرفع برميلًا فوق رأسه المتفخِّم بقوة الموتى: «إن كان لأحد أن يقتل تلك الأميرة الحقيرة، فهو أنا!».

هوى صاحب النزل بالبرميل، فدقَّ جمجمة المشعوذة بحافَّته، انفجرت الألواح وتناثر الشراب ليطفئ لهيبها إلى الأبد بفحيحٍ مُرضٍ. وانضمَّت إلى روائح اللحم المطهوِّ رائحةٌ خميريةٌ لطيفة، ومعها -لأسباب لم يدركها بالثازار فورًا- عطرٌ فاخر.

أنزل يديه، فانهار الموتى الجدد ككومة تتصاعد منها الدخان، ما عدا الحارس الصغير، الذي ترنَّح بضع خطوات نحو الباب الخلفي، مشيرًا بإحدى يديه إلى ضوء النهار، ثم أطلق ضرطته الأخيرة، وتعثرت قدمه بالأخرى، ووقع على وجهه.

* * *

انحنى العملاق ذو رأس التيس تحت القوس، ليعلو برأسه وكتفيه وصدره على يعقوب. وراح يلوِّح بهراوةٍ هائلةٍ مزروعةٍ بالمسامير الصدئة بيدين بشريتين، ثم فتح فاهه، وأخرج لسانه، وأطلق صرخة نهيق تجمِّد الدماء.

لكن يعقوب قد واجه رُعبًا أشد من بهيمة نمت أكثر من اللازم، دون أن يطرف له جفن.

تخلَّص من غريزة التراجع، وتقدَّم إلى الأمام حين هوت الهراوة نحو رأسه، وفي اللحظة الأخيرة، مال بدرعه بحيث انزلقت الضربة عنه، لم تهشمه، بل زلت عنه برجَّة موجعة، والمسامير تمزِّق الخشب قبل أن تهوي في الوحل إلى جانبه. اختلَّ توازن المسخ ذا الحوافر، واهتزَّ نهيقه المنتصر ليغدو صرخةَ فزع.

واااك

ذاك صوت السيف حين يشقُّ اللحم. واااك ناعمة خاطفة. لا تكون عاليًا إن كانت ضربتك محكمة وطرف سيفك حادًّا. ولم يترك يعقوب سيفه يكل قط.

تحوَّل النهيق المذهول إلى صرخة عذاب، إذ غاص النصل في فخذ الوحش المغطَّى بالفرو، تحت حافة درعه الضيقة، فانحرف بجسده. فالماعز خُلقت لتسير على أربع، ولا تستقر على اثنتين، وبالأخص حين تقطع إحداهما إلى نصفين. ارتطم بقوس الباب، وحاول رفع هراوته مجددًا.

كان يعقوب أقوى كثيرًا فيما مضى. جراحٌ كثيرة لم تلتئم. معارك خيضت وخُسرت. لكن السيف لا يحتاج إلى القوَّة إن كان لك المهارة والعزم.

واااك

كان ليطيح برأس المسخ ذي القرنين بضربةٍ واحدة في شبابه. أما الآن، فقد شطر عنقه نصفين فقط، واستقرَّ النصل في عموده الفقري. فانهار تحت قوس الباب، والدم يتدفَّق من الجرح المفتوح. ثم قفز رجل من فوقه. رجل قصير مغطَّى بفروٍ مرقَّط أسود وأبيض ككلب صيد، وفي يديه هراوتان ثقيلتان.

حين يكون لك درع، تميل إلى التراجع. إلى الاختباء خلفه كأنه بوَّابة. لكن يعقوب ما أحبَّ التقهقر قط. فالعدوُّ الذي تدفع بدرعك في وجهه لا يستطيع الهجوم ولا الدفاع -يُضعف، يُهزم، يتعثَّر ويسقط. وعدوٌّ ساقط يعني عدوًّا ميتًا. والعدو الميت هو نوع يعقوب المفضَّل.

فجعل من درعه كبشًا، ودفعها في صدر الرجل المستكلب، فحشره في جانب البوابة. تلوَّى بهراوته حول الحافة، لكن دون سُمٍّ فيها، إذ ارتدَّت عبثًا عن كتف يعقوب. فارتفع يعقوب فوق الدرع، سيفه موجَّه

إلى أسفل، ينظر إلى المستكلب في وجهه المغطَّى بفرو أبيض ومرقَّط. فرو كلب، وعينان بشريتان.

حدُّ السيف لا يحتاج إلى قوَّة. ورأسه لا يكاد يحتاج إلى شيء. لا تُسمَّى طعنات، بل دَفعاتٍ حازمة. الأولى اخترقت وجنة الكلب الفروية، واحتكَّت بأسنانه. الثانية فجَّرت إحدى عينيه. والثالثة انزلقت في حلقه. فانبثق الدم الداكن من الثقوب، وحين تراجع يعقوب، هوى المستكلب ككيسٍ فارغ، وجهه في الوحل ومؤخرته في الهواء. وكان في سرواله فتحة لذيله الكلبي.

اندفع مسخٌ آخر بالفعل من البوَّابة، شعره الرمادي صوفيٌّ كصوف الغنم، وقرناه اللولبيان ملتفَّان من رأسه، إحدى عينيه بحدقة بشرية، والأخرى بفتحة غنم. الأسوأ من كل ذلك هي الفأس العظيمة التي لوَّح بها بكلتا يديه. تراجع يعقوب متمايلًا، ففاتته الشفرة بشعرة، وقطعت قطعة من الحجر من القوس.

رفع الكبش فأسه من جديد. كانت صفائح من حديد معقوف مربوطة إلى ذراعيه، لكن يديه عاريتان، سوى من بضع خصلات من الصوف. اختر واحدة من قطع الدروع، واجعلها خوذة، لكن القفازات دائمًا ما كانت في المرتبة الثانية لدى يعقوب. تقاطع سيفه مع عَصَا الفأس، فقطع إصبعين صوفيتين، وترك ثالثة تتدلَّى بقطعة لحم.

زأر الكبش غيظًا، واندفع فوق درع يعقوب، وقرناه يرتطمان بوجهه. فتراجع يعقوب مترنِّحًا، وسقط على ركبته يلهث. وصرخ الكبش البشري وهو يرفع فأسه عاليًا بيده السليمة...

ثاااد

لمح يعقوب وجه بابتيست المتجهِّم وهي تغرز خنجرًا في جانب عنق الكبش. فتدفَّق الدم الأحمر في صوفه الأبيض، وسقطت الفأس في التراب، فأخذ يتلمَّس خصره لسيف. لكن بابتيست ضربته بخنجرٍ آخر،

من أعلى جمجمته بين قرنيه قبل أن يفعلها. فتهاوى على جنبه، شاهدًا صامتًا على أعظم فنون القتال: صديقٌ خلف عدوِّك.

زمجر يعقوب حين جرَّته بابتيست، وارتجف حين اندفعت فرسٌ من جانبه، ترشُّ الطين. نصف الخيول لم تجد مكانًا في الإسطبل، فكوَّنت قطيعًا مذعورًا، يركض خارج البوَّابة، وألجمتها تتلاطم، تدوس الجثث المشوَّهة التي تركها يعقوب هناك. ومن خلفها، خلال المطر، لمح يعقوب أشباحًا. أشكالًا مشوَّهة، حيوانية مكسوَّة بالفرو، ذات قرون وحوافر، ومدجَّجة بالسلاح. ويتقدَّمهم رجل في درعٍ لامعة.

همست بابتيست من بين أسنانها: «من أين جاءت هذه الكائنات؟».

مسح يعقوب الدم من تحت أنفه النابض. وقال: «ربَّما من طروادة؟».

- أنفك مكسور.
- ليست أول مرَّة.
- نحن في ورطة.
- ليست أول مرَّة.
- كان ينبغي أن أستقيل بعد برشلونة!
- كان ينبغي لنا جميعًا أن نستقيل بعد برشلونة.

انهارت الأسوار، وقفزت المسوخ البشرية وتلوت وتسلقت إلى ساحة الفناء، لتضغط على ما تبقى من الحرس. وجلس قائدهم الفتي عند البئر، يلهث فيما يُطعن مرَّة بعد مرَّة برمح. ولم تكن الشوارب قد أفادته. الإسطبلات قد اشتعلت، بقع من لهب فوق قش، والخيول القليلة الباقية تثب وتصرخ في الداخل. ركع الأخ دياز، قابضًا على دائرته المقدسة، يحرِّك شفتيه بالدعاء.

قال يعقوب لاهثًا: «ها نحن في ورطة»، ونزع الدرع عن ذراعه وفرقع أصابعه المتألمة في وجه بابتيست. قال: «المفتاح».

حدَّقت إليه بعينين واسعتين بيضاوين، وشعرها أسود مدمى. قالت: «أأنت واثق؟».

قال: «المفتاح!». لا أحد يريد رؤية الشك. تختار وتعيش مع اختيارك. أو تموت معه.

قالت: «ليعنَّا الرب جميعًا...». وخلعت السلسلة من عنقها، والمفتاح الحديدي يتدلَّى منها. اختطفه يعقوب منها وركض نحو العربة. لا بسرعة كبيرة، إذ أن ركبته اليسرى بالكاد تتحرَّك، وورکه الأيمن لا يكاد يتحرك أصلًا، وكان من الصعب في هذه الأيام الجزم أي كاحليه أكثر خرابًا. لكنه ركض مع ذلك، ومرَّ بجانب حارسٍ وقد انغرز سهمٌ في ظهره، والطين ملطخ على جانب وجهه الملتوي، يزحف إلى اللا شيء.

تتعلَّم أن تميِّز القضايا الخاسرة. وتنقذ ما يمكن إنقاذه.

أدخل المفتاح في القفل، لكن أصابعه المعقوفة كانت زلقةً بالدم، فانزلق، وسقط في الطين.

قال متأوِّهًا: «تبًّا!». وانحنى ليلتقطه من السلسلة، يمدُّ يده، يمدُّها...

قال: «آه!». ثم انطرح على العربة، اجتاحه ألمٌ حارقٌ في جنبه، أسوأ حتَّى من المعتاد. وكان لديه حدسٌ جيِّد عمَّا سيراه حين ينظر إلى أسفل، لكن مع ذلك، كانت رؤية رأس السهم يبرز فوق وركه صدمة. التفت فرأى امرأةً راكعةً على الممشى. لها أذنان طويلتان شامختان كأذني الأرنب، إحداهما مرتخية، ويتدلَّى منهما عشرات الحلقات. كاد أن يضحك، لولا القوس الذي بدأت تسحب وتره من جديد. واحد من تلك الأقواس الملتفَّة القاسية التي يستعملونها في الصحراء. قال متأوِّهًا: «آه، تبًّا، آه!».

اخترق السهم الثاني رئته، من طريقة تقطع أنفاسه. يا رباه، أيُّ ألم.

وقد اختفت بابتيست برشاقة كما كانت ساني تفعل. كانت تقول دومًا: «لا تمد عنقك».

نصيحة جيدة. أما هو فعنقه دومًا ممدود. وحياته كلها سلسلة من المعارك الأخيرة، والقضايا الخاسرة، والنهايات المُرَّة.

لكنه ما زال يقبض على سيفه، وكان عليه أن يفي بقسمه. فجعل من ألمه حافزًا، وزمجر من بين أسنانه وهو يجمع ما تبقَّى له من قوَّة، والدم في كل نَفَس.

دخل الرجل ذو الدرع اللامعة عبر بوابة النزل المكسورة. طويل القامة، وسيم، محارب في أوج رجولته، سيف مسلول في كل يد، وأربعة خناجر على الأقل في حزامه، ولم يكن في مظهره ما يدلُّ على الحيوان إلا خوذته المذهَّبة المصوغة كفم أسد. زأر وهو يهوي على الحارس الزاحف بين كتفيه، ثم ثانية، ثم طعنه في ظهره للتأكيد، وترك أحد السيفين مغروزًا هناك.

قال، وهو يتجهَّم وهو ينظر إلى الفناء: «هذا كل شيء؟ فارسٌ مُسنٌّ، وراهبٌ فتي، وشرذمة من مأجوري البابا؟». وكان قائد الحرس قد مات بالفعل، لكن القادم الجديد ظلَّ يضربه بوحشية مع ذلك، شقَّ رأسه في وابل من الدم، ثم ركله فقلبه على جنبه. قال: «لا بد أن بوك بدأت تفقد عقلها اللعين».

قال رجلٌ بوجه ثور، وهو يشخر: «أأقتل الراهب؟». ولم تكن الكلمات تنسجم تمامًا في فمه الحيواني.

قال سيِّده، بانزعاجٍ ظاهر: «قتل الكهنة يجلب الحظ السيِّئ».

قال الثور، وهو يبصق غيظًا: «اللعنة!»، ثم ركل الأخ دياز بين كتفيه، فتهاوى الراهب، وبصمة حذاءٍ موحلة على ظهر ردائه.

المفتاح هو الفرصة الوحيدة، لكنه في الطين، على بعد خطوة أو اثنتين. قبض يعقوب على أسنانه المضرَّجة، وبأنَّة خافتة دفع نفسه بعيدًا عن العربة، متشبِّثًا بمقبض سيفه كأنَّه آخر درجة في سلَّم.

سأل الرجل ذو خوذة الأسد، نصف ابتسامته ملطَّخة بالدم: «أعلينا فعل هذا؟».

لهث يعقوب: «لقد أقسمت...»، أخذ نفسًا مبقبقًا آخر، وخطا خطوة مترنِّحة أخرى، وقال: «بعض النذور». ثم لوَّح بقبضته ما استطاع.

قال الرجل: «بحق الرب». ثم تحرَّك متجاوزًا سيف يعقوب، فانزلق النصل إلى زاوية العربة وارتدَّ. قال: «هذا أمر مخزٍ بحق!»، ثم طعن يعقوب في صدره.

قال يعقوب متأوِّهًا: «آووف...». لقد أصاب القلب قطعًا. لطالما طُعن، ومع ذلك لم يكن قط مستعدًّا لشعور المعدن يخترق جسده دون دعوة. ظل واقفًا يرتجف لحظة أخرى، ثم اندفع النصل خارجًا منه، فتهاوى على ركبتيه.

هدر نبضه في أذنيه. صوت يشبه البحر. في بارنو، حيث قالوا وداعهم الأخير. أمواج تتسرَّب عبر رملٍ أسود من المحارق. حاول النهوض مرَّة أخيرة. لديه عهوده، والعهود يجب أن تبقيه واقفًا حين يخونه اللحم، حين تخونه الشجاعة... حين يخونه الإيمان...

ثم خرَّ على وجهه.

***

زحفت أليكس من كابوس النزل إلى كابوس الساحة. الإسطبلات احترقت رغم المطر، والخيول في الداخل وثبت بجنون. صرخ أحد الحراس حين هجمت عليه امرأة لها ذيل كثيف كالسنجاب، تنهش أحشاءه وتخمشها وتُقطِّعها بأسنانها، وخطمها ملوَّثٌ بالدم. أما الباقون، فكانوا مطعونين، أو مذبوحين، أو محطَّمين. والخادمة ملقاةٌ على وجهها، وسهمٌ في مؤخر رأسها. وعلى الممشى، جلست امرأة لها

أذنان طويلتان كأذني أرنب، وسهمٌ مشدود في قوسها، وساقاها تتدليان بمرح عن الحافة. ولم تنتهِ بأحذية، بل بكفوف أرنب ناعمة صغيرة.

وقف رجلٌ ضخم في درعٍ لامعة قرب العربة. كان قد طعن يعقوب الثورني بسيفٍ مرصَّع. والآن نظر إلى أليكس كما ينظر كلب صيد حين يشمُّ رائحة فريسة.

قال: «آه! ما أكرمك لما انضممتِ إلينا». وتقدَّم نحوها، لا يكلف نفسه حتَّى عناء مسح نصل سيفه، والقطرات الداكنة تقطر من رأسه. قال: «أنا الدوق مارسيان. أصغر أبناء الإمبراطورة يودوكسيا».

ومن خلفه، انهار الفارس العجوز على وجهه في الوحل. نظرت أليكس في أعيُن الوحوش من حولها. تلك الأعيُن الحيوانية التي لا رحمة فيها، وأعيُن الرجل الذي يقودهم، والتي كانت أقل رحمة منها. لم تقل شيئًا. لم تكن متأكدة أن فمها لا يزال يعمل.

قال مارسيان، وهو يزحزح بمرفقه رجلًا ذا عينين مشقوقتين كعينَيْ قط، وأحزمةٍ متقاطعة مشحونة بالخناجر: «أعتذر عن هؤلاء... المخلوقات التي تخصُّ والدتي، رائحتهم بشعة بقدر ما هم بشعون، لكنَّهم متوحشون كما المتوقع، ومخلصون على نحو مدهش. ولا يمكنكِ أن تقدِّري ثمن الإخلاص حقًّا، حين يكون لكِ عائلة كعائلتنا».

قالت أليكس، تتعثَّر في الكلام: «نحن؟ لقد شبهت علي... بشخصٍ آخر».

وحاولت الابتسام، لكن ما خرج منها كان تكشيرة مرتجفة.

- أنا لا أحد. أنا لا شيء...

قال مارسيان، وهو يسحب شيئًا من بين الخنجرين المغروزين في حزامه: «البابا لا توافقك الرأي».

رفع لفافة ورق، وترَك ختمها المزخرف يثقلها فينحلُّ معها اللفُّ. لم تقدر أليكس على قراءتها، بالطبع، لكنها تعرف فحواها. سمعت الكاردينالة بوك وهي تمليها. مرسوم البابا الذي يُثبت من تكون. إحدى النسخ التي لم يكن من المفترض أن يعرف بها أحد حتَّى تبلغ طروادة.

وسمعت أليكس فعليًّا صوت البلع في حلقها وهي تزدرد ريقها.

قال مارسيان، وهو يرمق الورقة بازدراء، ثم يرميها على وجهها بازدراء أكبر: «هذا صحيح. أنتِ. الأميرة أليكسيا پايروجينيتوس الضائعة منذ زمن. هي أنت، ابنة خالتي المولودة في اللهب. هذه. الوريثة الوحيدة الشرعيَّة لعرش الأفعى في طروادة».

ثم لوى شفته وقال: «تبًّا لي».

مات الدوق مايكل. حرَّاس البابا ماتوا أيضًا. يعقوب الثورني، إن لم يكن قد مات، فهو في طريقه إلى ذلك. وقوس الأخ دياز ظهره في الطين، ويداه مشبوكتان، وتمايل بخفوت. هو ميت على الأرجح، وإن لم يدرك الأمر بعد. والحقُّ، أنه لم يكن ذا فائدة تُذكر حتَّى في أحسن أحواله.

قالت أليكس، وهي تدرك أنها لا تزال تقبض على الخنجر ذي المقبض الأفعواني، ثم رمت به وهي تتراجع، وراحت ترفع يديها: «أعرف أنها مزحة». تتوسَّل من أجل حياتها مجددًا. على الأقل، قد تمرَّنت كثيرًا على ذلك.

قالت: «لا أحد يرى فيها مزحة أكثر مني!».

وتعثَّرت بجثَّة، فعلقت إحدى جزمتَي الركوب المزركشتَين بالفرو بالأخرى، وسقطت بقوة على مؤخرتها.

فقهقه مارسيان ضاحكًا.

والمؤسف أنها ضحكت أيضًا. قهقهة صغيرة مذعورة. كانوا سيقتلونها، وهي تضحك معهم.

قالت وتزحف إلى الوراء في القذارة، وصوتها يعلو حتَّى صار نحيبًا ذليلًا: «لستُ أميرة! أنا لصَّة! أتيت لأهرب من دين. ثلاثة ديون! أنا نكرة. ما عساي أصنع بعرش؟».

وكانت تضحك وتبكي في وقتٍ واحد، وكعباها يندفعان في التراب الدامي.

- أبيع آثارًا مزيَّفة في المدينة المُقدَّسة! أخدع الحجاج، وأرسلهم ليُسرَقوا. سرقتُ مشطًا! انظُر!

ثم أخرجته من كُمِّها وأسقطته في الطين.

- لم أعرف ما أصنع به. لستُ خطرًا على أحد. ولا يجب أن يقلق مني أحد...

قال مارسيان: «إلا إن كان حاجًّا، أليس كذلك؟».

فانفجرت المخلوقات حوله في جلبة من النهيق، والزفير، والصرير، والهمهمة، كأنه ضحكٌ مختلط بوقت طعامٍ في الزريبة. تقدَّم ابن يودوكسيا الأصغر نحوها، سيفه الأحمر على كتفه، كما يريح الحفَّار معوله، ومراسي عقبيه المدرعتين تصطكُّ مع كل خطوة.

- المشكلة أنَّك تعرضين عليَّ قدرًا عظيمًا من البؤس الحقير، والجبن المُزرِي، لكنَّ ما لا أراه هو أيُّ سبب يمنعني من قتلك. من الواضح أنكِ يجب أن تموتي.

ارتطم ظهرها بجدار الحانة، ولا مكان آخر تزحف إليه. فنظر مارسيان إليها بازدراء، وجهه مرقَّط بالدم.

قال: «يمكنك الرحيل بكرامة على الأقل. أنتِ من العائلة المالكة، ألست كذلك؟».

ثم رمى مرسوم البابا في حجرها.

قالت أليكس: «أرجوك. لا...».

صرخ مارسيان، والبصاق يتطاير من فمه: «انهضي!».

ارتجفت ركبتاها حتَّى اضطُرَّت إلى تسلق الجدار خلفها لتنهض. لكن بطريقة ما، كلَّما ارتفعت ازدادت مفاصلها صلابة. وانتهى بها الأمر واقفةً بشموخ. بقدر ما تقدر عليه من طول على الأقل. ثم رفعت ذقنها، ونظرت في عينَي ابن خالتها الوسيم الرهيب.

قالت، وبصقت عليه: «تبًّا لك إذًا!».

- هاه...

تلاشت ابتسامته، وبقي ينظر إليها بتأمُّل.

قال: «أرى الآن... الشبه». ثم رفع سيفه.

قال الأخ دياز، وهو يندفع بينهما: «تمهَّل! لحظة فقط!».

أمسك مارسيان الراهب من مقدِّمة جبَّته، ورفع سيفه يداعب به تحت ذقنه. فابتلع الأخ دياز ريقه، وهو يرتجف حين لامس رأس السيف الأحمر تفاحة حنجرته. تبعت أليكس نظرة عينيه المذهولتين. وكانت لتقسم إنها رأت طبعة قدم تظهر من العدم في الطين اللزج.

قال مارسيان: «لأجل ماذا؟».

خطت ساني على الهواء الخاوي بجوار العربة، وانتشلت المفتاح من الطين، وأدارته برشاقة في القفل، ثم أخذت نفسًا عميقًا، واختفت.

انفتحت المزاليج الأربعة.

قال الأخ دياز: «لهذا».

ثم انقلب ظهر العربة ببطء إلى الأمام، ثم هبط مرتطمًا بالوحل الممتلئ بالحفر قرب جثَّة يعقوب. ولم يكن في الداخل إلا الظلمة.

أو... هل تحرَّك شيء هناك؟ ظلٌّ أعمق في العتمة.

قطَّب مارسيان حاجبيه نحوها وقال: «ما الذي في العربة؟».

خرجت زمجرةٌ منخفضة من الداخل. كصوت كلاب القتال التي أمضت أليكس صيفًا تراقب المراهنات عليها، لكن أعمق، وأضخم، وأرهب بكثير. تراجع رجل الثور خطوة، يعبث بفأسه.

قال الأخ دياز، هامسًا: «لم يخبرني أحد...».

انفجرت من الظلام عاصفة ريحٍ كريهة، وكتلة من الزمجرة والمخالب والشَعر المتطاير، من الأسنان والعضلات المشدودة. ووقعت على رجل الثور وسحقته في الطين، فاندفع الدم من خطمه في صرخةٍ مؤلمة. وشقَّته من حلقه حتَّى عانته، فانفتح كمعطفٍ قديم، أمعاؤه تنزلق خارجةً في عجينة حمراء وسوداء.

قالت أليكس، هامسة: «يا إلهي».

11

اللحم الطيِّب

صرخت الذئبة ثيجا من الغيظ والابتهاج، إذ خرجت من العربة المقيتة وعادت إلى عملها، الذي هو القتل، وهوايتها، وهي القتل أيضًا.

لا تدري لمَ لم تهتم، لمَ لهذا الخبيث رأس ثور، أَليس لكل الناس رؤوس مختلفة؟

انسلَّت من تحت فأسه، وانتزعته من قبضتيه، ثم هشَّمت أحد قرنيه به، وقذفته على فتاة أرنب عند الجدار، ففلقت جمجمتها نصفين. ثم نهشت أحشاء الثور بقبضتيها، تزأر وتنوح وريقها يسيل، تنشقُّ بحثًا عن اللحم الطيِّب، القطع الطرية، اللقم اللذيذة. رؤوس الناس قد تختلف، أمَّا دواخلهم فمتشابهة.

أطبقت فكَّيها على امرأة ذات رأس خنزير، فأخذت الرأس والذراع معًا، تعتصر وتعتصر.

ذراعها انكسرت أولًا، وارتخت كجورب مملوء بعصيدة، فصرخت صرخات الخنازير، وضربت بدرعها، وقرَّعتها بحافَّته، والذئبة ثيجا تزمجر من الغيظ، وقطع الذراع ما تزال عالقة بين أنيابها، تهزُّ رأسها لتحكم عضتها، تعضُّ وتلوي، وتعضُّ وتنتزع، وتعضُّ.

تحوَّلت صرخات خنازير إلى صراخ بشري، ثم طق، تفجَّرت الجمجمة، ومصَّت الذئبة اللحم منها، ثم أفلتته إذ وجدت فيه ملوحة

بشعة، اختنق وسعلت، ثم مزَّقت الخنزيرة الخبيثة بمخالبها الخلفية، وشرَّحتها تشريحًا خرج معه الذراع الآخر، ثم رمت ما تبقَّى منها على الثور الرجل، وقد نهض يئنُّ وأمعاؤه تتدلَّى، فتدحرجا معًا عبر الساحة، واللحم الرديء كله ممزوج ممزَّق.

صرخت: «أين اللحم الطيِّب؟».

لكن أسنانها ولسانها ما تعودا كلامَ الآدميين، ودغدغ مطر أنفها، فما استطاعت إلا العواء والزئير، ومع ذلك فهمها الأوغاد. قد ظنُّوا من قبل أنهم الوحوش، وأنهم مصدر الرعب، لكنهم الآن شهِدوا الوحش الحق، فتخبَّطوا وأعيُنهم تدور، وخرُّوا وتقهقروا يولولون هلعًا.

تذكَّرت الذئبة ثيجا خلال ضباب عقلها أنَّ كلَّ ما يمشي أو يزحف أو يطير دائمًا يرتعد منها.

وهكذا ينبغي أن يكون الأمر.

أمسكت بحصان من عجزه، ولم تمييز أهو رجل حصان أم حصان حصان، كلُّ ما علمته أنه لحم، فأنزلته أرضًا ومخالبها الخلفية تخمش وتمزِّق، فتناثرت أحشاؤه عبر الساحة، ترشُّ الجدار بشظايا لامعة. التهمت منه مضغة وهي تختنق وتغرغر، لكنها لم تجد فيه اللحم الطيِّب.

الجوع الرهيب أحرقها كجمر في حلقها، وكحديد حامي في دبرها، فراغ عظيم يخنقها ويحثُّها، يدفعها إلى الرقص والالتواء والصراخ كأنها ستنهش ذيلها.

هل لها ذيل أصلًا؟

دارت مرارًا تحاول أن تبصر، لكن ساقيها الخلفيتين اللعينتين كانتا بعيدتين عن منالها، فتعثرت وسقطت وتمرَّغت في الساحة، تبعثر الطين والدم في كل صوب.

أمسكت بأحد الهاربين، ورمته على الجدار، فانفلقت جمجمته، ثم رمته ثانية حتَّى تصدَّع الجدار، ثم رمته ثالثة ليتلوَّى كخرقة، فتساقطت الحجارة المهشَّمة عليه وما بقي منه شيء، بل لحم بأصابع في أطرافه.

شقَّتهم ومزَّقتهم وفتحتهم وكأن في كل واحد سرًّا خفيًّا، لكنهم لم يحووا إلا مخاضًا ساخنًا وخيبة، مهما بحثت فيهم عن كنز مخبوء.

عبثت بأحشاء خروف، وقد غطَّى صوفه فمها، وامتلأ أنفها بالوبر، فاضطربت وعطست تصرخ.

صاحت إلى السماء، ولو استطاعت الوصول إلى الشمس لمزَّقتها وأكلتها.

كرهت أكياس اللحم هذه، وكرهت الأشجار والجدران والسماء والمطر، وكرهت نفسها أشد من ذلك كلِّه، كائنة جائعة دنيئة لا تملك ذيلًا على الأرجح. أرادت أن تفتك بنفسها وتلتهمها من شدَّة نَهَمِها، نهَمٍ لا قاع له.

لكن، من هذا؟

رجل ذو درع لماعة، لماعة، وسيف لماع، لماع، وفي وجهه البهي شيء من الصلابة رغم الذعر.

وجه جميل حقًّا. آه، ما أجرأه! راودتها رغبة بعضِّه لتعرف هل اللحم الطيِّب فيه؟

تقدَّمت نحوه تزحف برشاقة، على رؤوس أصابعها، وفكُّها يتدلَّى ويلامس الطين، والمطر كالإبر الباردة على لسانها المتدلي، تخلِّف أثرًا متعرِّجًا من ريق ملطَّخ بالدماء.

صرخ: «موتي، أيتها العفريتة!».

فأجابت: «مت أنت أيها الوغد القذر!»، لكن كلامها ضاع في زئير مائع، فضربت سيفه وأسقطته، وحطَّمت عظام ذراعه رغم درعها

الحديدية. فتدحرج السيف مصلصلًا حتَّى ارتطم بالعربة، وأمسكت به من عنقه، وعضَّت رأسه.

الخوذة اللامعة كانت مزعجة، ما انكسرت سريعًا، وظلت أسنانها تحكُّها وتخدش وجهه ربَّما، وربَّما أنفه اقتُلِع. وقبل غرز فكَّيها تمامًا، جاءها ضارب من الخلف. فتدحرجت متألمة، والتفتت لترى رجلًا بعينين مشقوقتين كعيني قط، وقد ضربها بحربة، فأوجعها جنبها محترقًا، وهي التي تكره كل شيء، تكره القطط خصوصًا.

من ظنَّ نفسه؟

كان مذعورًا كما يخاف القطُّ حين انقضَّت عليه فانتزعت ضلعًا من صدره، ثم رمت به رأسًا على عقب إلى الإسطبل المشتعل، وانهدَّ السقف فوقه، ثم التهمه السقف المحترق، وفرَّ حصان من النيران يتلوَّى وذيله يشتعل.

نهض بعدها اللامع، وذلك جدير بالإعجاب إذ كان يبكي بذراع مهشَّمة تتدلَّى، وهي عبرة، في لحظة تكون سيِّد الساحة، وفي اللحظة التالية يكون وجهك شرائط حمراء وأنفك فارغًا ينضح دمًا.

وثبت عليه، وهذه المرَّة قبضت على رأسه بين فكيها، ليس بالأنياب القاطعة فقط، بل بالأضراس الساحقة، وهزَّته وهو يرفرف ويتخبَّط، ودرعه تصطك كأنَّه عربة باعة الأواني تهوي عن جرف، وظنَّت أنَّها رأت هذا المشهد من قبل.

غرغر واستغاث، وخمش وجهها بأصابعه، وجذب فكَّيها بأظفاره، لكن لو حاول إيقاف المدِّ بأصابعه لكان أوفر حظًّا.

نهشت وتقلَّبت، والحديد بدأ يخضع، ثم خضع دفعة واحدة، وسحقت جمجمته كأنَّها لُبُّ جوز، وتفجَّر العصير، فغرزت لسانها فيه، وشفطت الشظايا، ثم قذفت ببقاياه المتهشِّمة عاليًا خلف الجدار.

جفَّ الجوع الفظيع، وذبلت الحاجة الرهيبة، وبصقت فتات من الخوذة، تدور وتزأر.

لعلَّها ما زالت بحاجة إلى اللحم الطيِّب، أو ربَّما إلى غفوة في العربة، حيث الظلام والرائحة التي تشبهها وتؤنسها.

غفوة وسُبات.

لكن ما ذاك الصوت المزعج؟

تلفَّتت، والريق يسيل من بين شدقيها، فرأت فتاة جالسة بوجه متهدل خالٍ من الدموع، وقسًّا مرتجفًا يركع أمامها، وشمَّت رائحة بول وعطر، ما تدري إن كان من أحدهما، أم كليهما، أم أن أحدهما قد تبوَّل عطرًا.

كان يهذر بالصلاة كما يفعلون: «يا ربَّاه، يا مخلِّصة، يا قدِّيسة بياتريكس»، كأنَّ الرب يهتم بمثل هذا اللحم، كأنَّه يعنى بشيء سوى نفسه.

كشَّرت عن أنيابها، وأطلقت زئيرًا متحشرجًا، فالذئبة ڤيجا والرب لم يكونا على وفاق قطُّ، وقد وجدت الأمر...

غاية في...

الإزعاج.

* * *

ركع الأخ دياز، ولا يزال يحاول بجسده أن يَقي الأميرة أليكسيا الجاثية خلفه، وإنَّما عن غير قصد، فما كان يستطيع حراكًا لو أراد، إذ جمَّده الرعب، وذلك الشيء يزحف نحوهم، ممسوح المعالم عبر دموع عينيه، وزئيره يجعل الساحة بأسرها تنبض.

بدا تارة كذئب عظيم مريع، وتارة ككلب وحشي بحجم فرس، لكن خرَق من ملابس بشرية تسحب وراءه، وهو يتسلَّل منخفضًا إلى التراب، وساعداه الأماميان كأنهما ذراعان، وعضلات عظيمة تنقبض تحت الفراء

الخشن، ومخالب منحنية تنبثق من أصابع كأنها أصابع إنسان، وأيدٍ قابضة تغوص في الطين.

ورأى خطم ذئب يتشمم من خلال لبدة من شعر أسود متلبد بالدم. لمحة من عين. عين شيطان تتقد بشر حاقد. فم ضخم، شفتان سوداوان مكشوفتان في زمجرة هوجاء، أسنان بحجم سكاكين القصابين، يتصاعد منها بخار ملطخ بالدم.

همس بصوت مرتجف: «أبانا احفظنا...».

أخذت إحدى ركبتيه ترتجف، وسمع صوتها تخفق داخل رداء رهبنته.

- وإن كنا واقفين على أبواب الجحيم...

زمجرت الوحش بزئير عظيم، فنفثت ضبابًا من الدم في وجهه، فأغمض عينيه وتلوَّى بوجهه جانبًا وهو يئن من شدة المذلَّة.

- وإن كانت نفحات الموت علينا...

شعر بحرارته بالفعل على خده، وتحولت صلواته إلى همهمات من الهمس المذعور. لقد حضر الموت، ميته فظيعة، فأطبق على يد أليكس، وشعر بها تشد عليه بأصابع يائسة فيها قوة غريبة...

صاح صوت: «ڤيجا!».

فتح الأخ دياز إحدى عينيه جهد استطاعته.

كان يعقوب الثورني، على حد تعبير بابتيست، ميتًا بحق. وفي سترته شقٌّ دامٍ، خلفه طعن مميت من مارسيان، وفوق ذلك سهمان نافذان في جسده. ومع هذا كان واقفًا بانتصاب غير معقول، ووجهه يحمل سحنة معلم غاضب يوبِّخ تلميذًا ضالًّا.

صاح بصوت جهوري: «ڤيجا!».

ثم خطا أمام الوحش وقال: «هذا السلوك غير مقبول!».

تراجعت المسخة الرهيبة. ابتعدت عن يعقوب -والحمد للمخلِّصة- وابتعدت كذلك عن الأخ دياز. بدا أنها، بطريقة ما، أصبحت أقل شبهًا بالوحش، وأقرب إلى هيئة البشر، جاثية على قدمين بدلًا من زحفها على أربع. وخلف جدائل الشعر أبصر وجهًا أقل خطمية، وأقرب إلى الملامح البشرية.

ساد صمت غريب، لم يقطعه إلا نهيق الموت المتقطِّع من إحدى الجثث المذبوحة في الخلف.

ثم انحنت تلك الكائنة إلى الأمام، وفتحت شدقها، فجعلت الأخ دياز يتقوقع ذعرًا، رغم أن أنيابها صارت أقل بهيمية وأكثر شبهًا بأسنان البشر، ثم صرخت بزئير مكسور: «أنا عطشانة!».

عاد الصمت، لا يقطعه إلا رذاذ المطر ينقر من ميزاب مكسور، وأنين متقطع من الرجل ذي رأس الثور، وهو يجر نفسه نحو البوابة، تاركًا خلفه أثرًا لامعًا من الأحشاء المندلقة.

جثت المرأة، تتنفس بثقل، ويداها الملطختان بالدم متدليتان. ما عاد في الأمر شك أنها امرأة، وإن كانت فارعة الطول، عظيمة العضلات، عارية تمامًا، جلدها لا شعر عليه، بل مغطى بالطين والدماء.

قالت: «أنا عطشانة».

هل ارتجفت شفتها السفلى؟

- أنا عطشانة و... دخل الدم إلى أنفي.

سقطت على مؤخرتها وبدأت تبكي.

- أنا عطشانة. وجرحت يدي!

أزاحت بيدين داميتين خصلًا من الشعر الأسود لتكشف وجهًا مربعًا، عريض الجبين، ضخم الفك، مشوهًا بخطوط من وشوم بلغات عدة. الكلمة «احذر» محفورة بخط عريض على خدها. والكلمة «تحذير»

منقوشة بأحرف كبيرة على ساعديها، ورسائل صغيرة بألوان ولغات شتى حولها، وفيها، وبينها.

قالت وهي تمسح دموعها بظاهر معصمها الموشوم: «أنت وضعتني في العربة. أنا أكره العربة!».

قال يعقوب، وهو يضع قبضتيه على وركيه ويتأمل الساحة المدمرة: «أنا آسف. لكن أظن... السبب واضح».

قالت وهي تترنَّح إلى الأمام وتسند نفسها على يديها: «أكلت شيئًا فاسدًا».

ثم قذفت دفعة هائلة من دم وأحشاء نصف مهضومة عند قدمي يعقوب. فنزعت أليكس يدها من قبضة الأخ دياز المرتجفة، ورفعت إصبعًا تهتز، مشيرة نحوه: «وفيه... سهام...».

قال الأخ دياز بصوت يائس: «نعم».

جلست المرأة العظيمة، التي كانت منذ لحظات ذئبة عملاقة، على عجيزتها. قالت وهي تمسح فمها: «ذاك لحم فاسد. من أين أتيت به؟».

نظر يعقوب الثورني إلى الأجساد المفتوحة. قال: «هنا وهناك».

ثم انتحبت مرَّة أخرى، وقذفت قطعًا سوداء أخرى، تتناثر فوق الركام في بركة دموية آخذة في الاتساع. حرَّكت لسانها، وأخرجت من فمها شظايا معدنية معوجَّة.

قال الأخ دياز وهو يدير بصره كارهًا: «بحق القديسة بياتريكس المباركة... ما هي؟».

خرج من النزل شيخ وقور، بخطى واثقة كضيف شبع من الطعام، يحمل عصًا لكنه لا يتكئ عليها حقًّا. قال: «واضح جدًّا أنها مستذئبة».

وأضاف وهو يلوِّح بالعصا كأنَّه يشرح: «وليست من أولئك الألمان التافهين، الذين يرقصون ويتسلون في ضوء القمر».

كان منتصب القامة، نشيطًا، في عينيه بريق. قال: «هذه مستذئبة حقيقية، من سلالة النور والدم، من الشمال الحق. أرى أنها أحدثت فوضى أخرى».

ثم هزَّ كتفيه وقال: «ذلك ما تفعله ڤيجا. ولكن، في بعض الأحيان... قد تكون الفوضى ما نحتاج إليه».

لم يعرف الأخ دياز مَن يكون إلا من ثيابه، وربَّما شيء ما في عينيه. تمتم: «البارون ريكارد؟».

بدا مصَّاص الدماء، إن صح القول، مسرورًا قليلًا. قال: «هو بعينه».

أشارت أليكس إلى زاوية فمه وقالت: «هناك شيء... هنا».

قال وهو يخرج منديلًا، يلعق زاوية فمه ثم يمسح لطخة دموية: «آه. يا لي من أحمق».

قالت أليكس وعيناها متسعتان: «تبدو أصغر بعشرين عامًا».

- يا لها من مجاملة رائعة. ربما لستِ تلك البلهاء الباردة كما ظننت أول مرَّة. قد نصنع منك أميرة.

ثم نظر إلى الأخ دياز بنظرة فيها طرف خفي من التآمر وقال: «أدري أن الأمر كثير على الفهم يا أخي، لكن ثق بي، من العجيب ما قد يعتاده المرء».

قالت الإلف وقد ظهرت فجأة، متكئة على جدار النزل وذراعاها مطويتان: «بالنسبة إلى معبد الذرائع المقدسة... فليس في هذا ما يُدهش».

نظر الأخ دياز إلى المباني المحترقة، والمستذئبة المتقيئة، والفارس المثقوب بالسهام، والحراس القتلى، وأجساد أنصاف الماعز والخراف والكلاب المتشابكة عند بوابة النزل المهشّمة. قال بصوت مبحوح: «أهذا... يوم عادي؟».

رفع البارون ريكارد حاجبًا رماديًّا وقال: «ليس غير عادي».

12

إمبراطورة أو الموت

جلست أليكس على مقعد رطب، إمبراطورة فناءٍ مليء بجثثٍ طينيَّة.

أغلب النيران خمدت على الأقل. والمطر كفَّ عن الهطول تقريبًا. حرَّكت كتفيها تحت القميص الخشن الذي ترتديه. وقد بادلت ثيابها بثياب الفتاة التي تستقي من البئر، والتي بدا مظهرها في فستان أليكس على ما فيه من احتراق يسير، لكنه صار أفخر ما تملك، خيرًا من مظهر أليكس فيه في أي وقت مضى. غير أنَّ الثوب راح رونقه قليلًا، إذ إن جسدها كان مقلوبًا على وجهه بينما رأسها ملتفٌّ تمامًا إلى الوراء، يحدِّق إلى السماء بِحَيْرَةٍ.

ظنها يعقوب فكرة سديدة. حتَّى إذا أُرسل أحد آخر لاغتيالها، ظنَّ أنَّها ماتت. وتلك جل ما تتمناه الآن. أن يظنَّها الجميع ماتت. ما عرفت قطُّ آداب الأميرات. وها هي قد فقدت الثياب أيضًا. لم يبقَ لها إلا الأعداء.

شقت بابتيست قميص الفارس العجوز، فجثا متقوِّسًا، مائل الكتفين، وعود في فمه، متجهِّمًا وهي تنتزع منه السهام. ذاك الرجل أكثر ندبًا منه لحمًا. ثقوب نجمية، وخدوش متصالبة، وحروقٌ مبرقشة. راود أليكس شكٌّ في أن هذه طعنته الأولى، فضلًا عن كونها أول جراحه بالسهام. ثمَّة أثرٌ على ذراعه ظلت تنظر إليه، يدور حولها بأكملها. وراودها ظنَّ مجنون أنها قُطعت قَطعًا تامًّا ثم خيطت من جديد.

قال الأخ دياز: «أأنت منهم؟»، والطين لا يزال يغطيه، وكان لا يزال يقبض على دائرته المقدسة بقوة بيَّضَتْ مفاصله، كأنَّما يتمسَّك بحافة هاوية بيد واحدة: «من رعيتي؟».

أخرج يعقوب الثورني العود من بين أسنانه. قال: «سحرتني ساحرة و... تبًّا!». ثم انتزعت بابتيست إحدى السهام.

قالت وهي ترمي السهم بعيدًا: «عذرًا».

- سحرتني ساحرة، ولا أستطيع الموت. والرب يعلم أني جرَّبت... غاه!

ثم أرجع العود من جديد في فمه إذ شرعت بابتيست تقطِّع الجلد حول السهم الآخر.

لم يسل دم كثير. كأنَّما تُشَق دمية من شمع. كانت حكاية رجل سحرته ساحرة لئلا يموت، قصةً ستثير في نفس أليكس أسئلة كثيرة في يوم عادي. أما اليوم، فقد جلست تنظر إلى اللا شيء. وأحسَّت بشيء يُدفع في يدها.

- خذي.

تلك ساني. دفعت لأليكس الخنجر المنقوش بثعبان، ذاك الذي رمته: «قد تحتاجين إليه».

شعرت به غريبًا في كفها. كل شيء بدا غريبًا. كأنَّها في حلم. أو لعلَّها كانت تحلم طوال الوقت، وهذه هي اليقظة. مسحت دموعًا على كُمِّها. لم تشعر حقًّا أنَّها تبكي، لكنَّ الماء استمرَّ في الخروج من وجهها. ومن أنفها. ومن فمها. يتسرَّبُ منها كما يتسرّب المطر من سقف فقير.

- أتتألمين؟

هزَّت أليكس رأسها. جروح وكدمات. بعض خدوش على الذراعين حين زحفت على زجاج خادمتها الميتة المحطَّم. لا شيء يُقاس بما

أصاب الخادمة نفسها. لا شيء يُقاس بما أصاب أغلب الناجين. مسحت عينيها مرَّة أخرى. لطالما ظنَّت أنَّها صلبة، همست: «لا أستطيع التوقف عن البكاء».

قالت ساني: «ستعتادين الأمر».

تجوَّلت عينا أليكس على بقايا المخلوقات، والرجال، والأشياء التي بينهما، تلك الممزَّقة. وهبطت بضعة غربان بالفعل لتبدأ حصادها المبكِّر. تمتمت: «لست واثقة أن في ذلك عزاء».

واحدٌ فقط من الحرس نجا من المجزرة، ولعلَّه نجا لأنه اختبأ، وها هو الآن جالسٌ قُرب صبي الإسطبل، كلاهما يحدِّقان إلى المرأة -أو الذئبة- التي أغلب القتل من صنع يديها. اسمها ڤيجا. وقفت عند البئر، عارية كليًّا، لكنَّ كتفيها مشدودتان إلى الوراء، وقدماها ثابتتان، كأنها لا تأبه البتة، تهمهم بنغمةٍ لا لحن لها، تغسل الدم من كومة شعرها الأسود المتشابك. والماء الزهري ينحدر على ظهرها متعقد العضلات، وكان موشومًا بالذئاب، والتنانين، والأشجار، والشموس، والأقمار، والدوائر، وخطوط طلاسم متعرِّجة، فامتلأت كل فسحةٍ منها بالتحذيرات. وعلى عجيزتها كُتبت كلمة «خطر».

رفع الأخ دياز يده يحجب بها عينيه: «بحقِّ القديسة أجنس، أما من ثوب ترتديه؟».

كَشَّرتْ عن ابتسامةٍ عريضة، أظهرت أربعة أنياب لامعة، كأنَّها أنياب كلب: «إن كان إلهك خلق كلَّ شيء؟ أليس هو من صنع...». ثم لفت تعرض على الجميع جبهتها كاملة، بعضلاتها المرسومة كما الظهر تمامًا، «... كلُّ هذا؟».

صفق الراهب يديه على عينيه: «ألا حياء عندك؟»، وإن كانت أليكس تظن أنَّه ترك بين أصابعه فرجة ليرى منها.

قالت ڤيجا: «ما الخطب؟ أتخاف أن تنسى نذرك بـ...». ثم قطَّبت جبينها نحو السماء، تحكُّ بطنها الموشوم بخط شعرٍ أسود في وسطها: «ما اسمه؟».

تمتمت ساني وهي تنبش في أمتعة حصانٍ ميت: «العفَّة».

صاح الأخ دياز وأدار ظهره تمامًا: «يا إلهي لا! فقط... أرجوكِ، غطِّي نفسك، قبل أن أضطر إلى الابتهال إلى رباط قداستها!».

قالت وهي تسكب باقي الدلو على رأسها: «حسنًا، حسنًا، خذ نفسًا لعينًا». ثم نفخت رذاذ القطرات، وهزَّت نفسها كالكلب، ومشت لتشمَّ الجثث. مكتبة سُر مَن قرأ

همس الراهب، يحدِّق من خلف يده مذعورًا: «أهي... آمنة؟».

قهقه البارون ريكارد: «أبدًا. أما رأيت كل التحذيرات؟».

صرخ بالثازار وهو يخرج من النزل المدمر، يتعثر، يجرُّ الدوق مايكل، وكلاهما مغطًّى بالرماد والدم: «وجدتُ ناجيًا!».

أمسكت أليكس بيده، وسالت موجة جديدة من المخاط من وجهها. كانت تفكِّر فيه كهدفٍ في خدعة. وها هي الآن تستشعر فرحًا بائسًا لرؤيته حيًّا. أنقذ حياتها مرتين. وهو في صفِّها. ولا يمكنها أن تقول ذلك عن كثيرين. أو عن أي أحدٍ في الحقيقة.

قال وهو ينهار على المقعد بجوارها لاهثًا: «أليكس! الحمد للرب!».

تمتمت: «لقد هربت. أو زحفت...».

- أنتِ حيَّة. هذا كل ما يهم.

رفعت بابتيست حاجبها وقالت: «تنقذ رجالًا جرحى؟ ما حسبتُك من هذا النوع».

قال الساحر، وهو يحدِّق إلى العلامة البنية على معصمه: «بعيدٌ عن طبيعتي. لكن قداستها أمرتنا أن نكون طيبين».

سألها الأخ دياز، مرتابًا، بينما بابتيست تخرج نصل سكين صغير: «أتدربت على التمريض؟».

أجابت وهي تشقُّ سروال الدوق: «قضيتُ زمنًا مساعدةً لحلاقٍ في شركة مرتزقة. ولهذا فإني أحسن الحلاقة بالرغوة».

- وذلك... يؤهِّلكِ... لهذا؟

- كنَّا نجري الجراحات أيضًا، لكن المرتزقة يفضِّلون الشوارب على المعارك، فلم نُستدعَ لذلك كثيرًا. ومع هذا، إن ظننتَ أنَّك أكثر كفاءة... فتقدَّم.

شقَّت سروال الدوق. كانت ساقه السفلى موشَّحة بالسواد والبنفسجي، منثنية من تحت الركبة إلى جهة، ومن فوق الكاحل إلى الجهة المعاكسة.

قال الأخ دياز، وهو يحجب عينيه مرَّة أخرى: «سأكتفي بالصلوات...».

قالت أليكس بصوت مبحوح: «أظنُّها مكسورة».

قال البارون ريكارد: «لا نحتاج إلى حلاق ليخبرنا بذلك».

كان بالثازار مشغولًا بالتفاخر: «لقد هوجمت الأميرة من إحدى عضوات جماعة يودوكسيا الميتة، وهي مشعوذة نارية ذات بأس شديد، لكن، لحسن حظ أميرتنا، بل، ولحسن حظ مسعانا كلِّه، كان بالثازار شام إيفام دراكسي حاض... ث... هناك امرأة عارية موشومة غاية في الضخامة».

قال البارون: «مستذئبة».

قال بالثازار، مكفهرُّ الأنف: «ويلي! من أولئك الاسكندنافيين؟».

قال ريكارد: «أكثر المجزرة من صُنعها».

قال بالثازار، وهو يقلب جثة بحذائه، تحدِّق إلى السماء بعينين ثعلبيتين غير طبيعيتين: «أفٍّ! ما هذه الكائنات الهجينة؟».

قال الدوق من بين أسنانه، بينما بابتيست تلمس ساقه المعوجة بأطراف أصابعها: «تجارب يودوكسيا. رغبت في معرفة موضع الروح».

قال بالثازار، وهو يجلس قُبالة المخلوق، وعيناه تضيقان فضولًا يتأمله: «معضلة حيَّرت الفلاسفة قرونًا. فجمعت بين الإنسان والحيوان في محاولةٍ لحلِّها. بديع...». ومدَّ يده يشدُّ جفني المخلوق لينظر في إحدى عينيه المنتفختين عن كثب، وقال: «رأيتُ سحر الأجساد يُمارَس من قبل، لكن ما رأيتُ له مثيلًا بهذه الدقَّة...».

تمتم الدوق: «اتهم الناس يودوكسيا بكل شيء تقريبًا... لكنهم لم يتَّهموها يومًا بالركاكة...». وأطلق أنَّة حادة إذ قوَّمت بابتيست ساقه تحت الركبة. ضغطت أليكس على يده، فشدَّ على يدها. لم يكن بوسعها غير ذلك. لا شيء يُسرق، ولا أحد يُكذب عليه، ولم تكن الخسارة في الورق لتفيد، فذاك هو كل ما تُجيده.

نهض يعقوب، يتأوَّه وهو يلبس قميصه المتخضب بالدم من جديد، وقال: «علينا أن نتحرَّك».

هزَّ الأخ دياز رأسه متحمِّسًا: «وأوافقك الرأي تمامًا. نعود إلى المدينة المقدسة على الفور...».

اختنق الدوق مايكل بصيحته: «لا! كانوا يعلمون بمكاننا. ربَّما خاننا أحد في القصر السماوي».

- لا بُدَّ أن نرسل طلبًا للنجدة على الأقل...

قال يعقوب، وهو يرفع النسخة المضرَّجة من مرسوم البابوية: «لا ندري من نثق به». ثم قبض عليها حتَّى تَكَرمَشت بين يديه: «ما كان لأحد أن يعلم أن الأميرة على قيد الحياة، حتَّى تصل إلى طروادة».

تنفَّس البارون ريكارد بعمق، ورفع ذراعيه فوق رأسه، ثم قال: «في كل مرَّة. في كل مرة».

قال الدوق مايكل، يحشر الكلمات من بين أسنانه المشدودةِ: «قد يكون إخوة مارسيان علموا بأمر أليكس أيضًا. لم يبقَ لها موضع أمان سوى واحد». نظر إليها، وطال الصمت، وتناثر صوت قطرات من مزراب مُهَدَّم: تك، تك، تك.

قالت، بصوت خفيض جدًّا: «على عرش الأفعى؟».

زفر الأخ دياز زفرة يائسة: «لا يمكننا أن نوصل الأميرة إلى طروادة!».

قال الدوق، مشيرًا إلى الحارس الوحيد الذي نجا وصبي الإصطبل الذي نجا أيضًا: «بل يجب عليكم. هذان سيساعداننني على الرجوع إلى المدينة المقدسة. أمَّا أنتم، فعليكم المتابعة. آه، ربَّاه!». وانبعث صوت قبيح لطقطقة، إذ رَدَّت بابتيست قدمه إلى موضعها.

قال الأخ دياز، مشيرًا إلى جماعته: «نحن السبعة؟ مصَّاص دماء، وإلف، ومستذئبة... أما تلبسونها شيئًا بحقكم؟».

كانت ڤيجا تنزع الملابس عن حارس ميت، لكنها شُغلت بالتقاط قطرات المطر بلسانها.

- فارس لا يموت، ومشعوذ...

قال بالثازار: «ساحر».

- ... وراهب لم يشأ أصلًا أن يكون راهبًا، و...

ولوَّح بيديه في وجه بابتيست: «... مساعدة سابقًا لحلَّاق في فرقة مرتزقة!».

قالت، وهي تثبِّت عظمتي رمح مكسورتين على جانبي ساق الدوق مايكل باستخدام أحزمة الموتى: «من بين أمور أخرى».

قطَّب البارون ريكارد: «لم ترد قطُّ أن تكون راهبًا؟».

صاح الأخ دياز: «أأنتم مجانين كلكم؟».

ردت عليه أليكس الصرخة، ونهضت من المقعد ويداها مشدودتانِ: «لا أظن أن أحدنا خطَّط لحضور مجزرة لعينة!». ثم التفتت نحوهم جميعًا: «لكننا هنا!». وفجأة، التفت الجميع إليها: «يريدون موتي؟ فليذهبوا إلى الجحيم! أنا ذاهبة إلى طروادة!».

شحب لون الأخ دياز: «لكن، جلالتكِ...».

قالت وهي تقاطعه بحدَّة: «الأمر الملعون قد حُسم!».

هزَّت ساني كتفيها: «فليكن». وبدأت تجمع الأحصنة الباقية على قيد الحياة. ولحسن الحظ، انشقَّت الشمس عن الغيم في تلك اللحظة، وغمرت مسرح المجزرة بدفءٍ غير متوقَّع.

أدار البارون ريكارد وجهه المبتسم نحو الشمس، وكان أقل تجعُّدًا مما كان عليه قبل ساعة: «جوٌّ جميل لرحلة».

قالت ڤيجا: «تكثر من السباب، بالنسبة إلى أميرة. يعجبني ذلك». وأخيرًا لبست سروالًا، وعضلاتها تتلوَّى في ذراعيها الموشومتين بينما تغلق أزرار صدريَّة جلدية مرصَّعة تكاد تنفجر. ابتسمت نحو الأخ دياز، الذي كان أقصر منها بنصف رأس على الأقل: «انظر! محتشمة كراهبة».

أغمض عينيه وقال: «يا قدِّيسة بياتريكس الطاهرة...».

ابتلعت أليكس ريقها، وإذا بالغضب أو الشجاعة أو أيًّا ما كان ذلك الشعور يتلاشى سريعًا، فلم يبق لها سوى الأخطار، والأعداء، والفرسخ تلو الآخر، ويقينٌ يتنامى في نفسها أنَّها قد ارتكبت واحدة من أفدح حماقات حياتها. وقد ارتكبت منها ما يكفي.

في كل مرَّة. تتصرَّف كالعقل المدبِّر، والأنانيَّة المستغلَّة، والمخادعة الجسور، إلى أن يصنع أحدٌ من أجلها شيئًا صغيرًا. فتضطرُّ إلى أن تصير بطلتهم، ثم تنتهي بتلطيخ نفسها بالخزي.

شعرت بضعف في ركبتيها وهي تهبط إلى جوار خالها: «عُد. وتشافَ». وانتزعت ابتسامة، وبذلت جهدًا لتبدو واثقة: «أراك في طروادة».

قال الدوق مايكل، مبتسمًا وهو يلمس خدَّ أليكسيا بأطراف أنامله: «صديقتي العزيزة، السيِّدة سيفيرا، ستكون في انتظارك هناك. كنت لائتمنها على حياتي».

رباه، لقد راود أليكسيا رغبةٌ في وضع وجهها في راحته. ثم همس: «كنت أعلم أنَّ فيكِ ذلك الشيء».

لم يُفصح عمَّا في داخلها. ربما الخِداع. وربما القذارة. وربما الشك. لا بل الشك، قطعًا. لكنها، الحمقاء، لم تحتمل إلا أن تومئ بشدة. فإلى أن تجد مخرجًا تهرب إليه من قرارها، لم يبقَ أمامها سوى احتمالين: إمبراطورة... أو الموت.

وقد ندمت، بالطبع، كما في كل مرَّة.

لكن لا مفرَّ لها الآن.

* * *

الجزء الثاني

أفضل الوحوش

13

أقل الخيارات سوءًا

انهمر المطر.

وقد انهمر لساعات، حتَّى حوَّل الدرب الذي سلكوه تفاديًا للطرق الرئيسة إلى مستنقع أعوج، يتقاطر من الشجيرات التي تزاحمت على جانبيه، ويتسلل في مهلٍ إلى جلود رعيَّة معبد الذرائع المقدَّسة، يبلِّلهم حتى نخاعهم.

وقد اخترق قلنسوة الأخ دياز، وانساب إلى أسفل ظهره، وتجمَّع حول عورته، وتحالف في غير تقوى مع حركة السرج الرطب التي لا تنقطع، فاحتكَّ بهما.

لم يُذكر أن الاحتكاك كان من عذابات الشهداء، لكنَّه حقًّا كان ينبغي أن يُذكر.

قال الأخ دياز متذمِّرًا، وهو يرمق السماء الرمادية بامتعاض: «لست في أفضل أحوالي في المطر».

قالت الأميرة أليكسيا، راكبةً إلى جانبه، وقطرة دائمة على أرنبة أنفها، وكل ما فيها من الوقار لا يزيد عن جثة هرٍّ غريق: «كانت الشمس ساطعة قبل سويعة. كنتَ تتذمَّر وقتها أيضًا».

قال الأخ دياز، عابسًا: «لا أصلح في العراء أصلًا».

ردَّت وهي تقطب وجهها: «لا أظنُّ أن أحدًا يستمتع بالأمر».

نادَت ڤيجا من الأمام، وهي ترفع ذراعًا موشومة عاليًا: «أنا أستمتع به!». وكلما ابتلَّت أكثر، نزعت عن نفسها مزيدًا من الثياب، حتَّى صارت تركب حافية في صدرية من الجلد وقلنسوة لم تكلِّف نفسها أن ترفعها على رأسها. وكان ذاك اللباس البائس يلتصق بعضلات ظهرها التصاقًا مربكًا، أما مرحها في وجه الشدائد فقد كان باعثًا على الغيظ الشديد، لا سيَّما أنَّ الخطر الأعظم، في رأي الأخ دياز، لم يكن إلا هي نفسها.

عاش في رعب دائم من أن تتحوَّل ثانيةً إلى كابوسٍ ذو أنياب وتنهشه حيًّا، أو أن تترك التحوُّل كلَّه وتنقضَّ عليه على صورتها البشرية. وهي قادرةٌ على ذلك تمامًا.

بذل الأخ دياز جهدًا أخيرًا عبثيًّا ليعدِّل وضع عورته الموجوعة في السرج، فلم يُفلح.

قال متأفِّفًا: «كم بقي من الطريق إلى أنكونا؟».

وكان هو قائدهم بطبيعة الحال، بأمرٍ من البابا نفسها. لكن يعقوب الثورني هو من تولَّى القيادة فعلًا، جالسًا في صلابة، رجلٌ في معركة مميتة مع الطقس، لا رجعة فيها، ولا استسلام، ولا نصر.

قال يعقوب مُزمجرًا: «لسنا ذاهبين إلى أنكونا».

شعر الأخ دياز بأنَّ القلق الجادَّ قد قبض عليه، للمرة الخمسين على الأرجح منذ مغادرتهم النزل.

أوقف حصانه البائس -وليس ذلك إنجازًا عظيمًا، إذ لم يكونوا يسيرون إلا زحفًا.

قال وهو يحدِّق إليه: «أنكونا جزء واضح من خطَّة الكاردينالة زيزكا...».

استدار الفارس العجوز بفرسه لا برأسه، وقال بزمجرة: «الخطط يجب أن تنثني تبعًا للموقف».

قالت بابتيست، وهي تميل من سرجها وتلمس طرف قبعتها لتدفع سيلًا من الماء ينصبُّ من حافتها: «خططنا عادةً ما ترتخي ارتخاءً مريبًا بعد أميال قليلة من المدينة المقدسة. ثم بعد ذلك نبدأ الارتجال».

قال يعقوب، متأوِّهًا وهو يدسُّ قبضته في موضعٍ من جسده أصابته فيه سهام في السابق: «مارسيان عرف موضعنا. وغالب الظنِّ أنَّه ليس الوحيد الذي اطَّلع على خطَّتنا. نحتاج إلى ميناء آخر».

تنهَّد الأخ دياز، متهالكًا في سرجه المبتل أكثر من ذي قبل، وقال: «إن لم تكن أنكونا، فأين؟».

قال يعقوب: «مملكة نابولي مستبعدة، بديهيًّا».

ردَّ الأخ دياز موافقًا: «بديهيًّا».

قال يعقوب: «جنوى أو أي من موانئ الغرب...».

قال البارون ريكارد، وهو يتأمَّل: «جنوى لها سحرٌ خاص في الربيع».

قال يعقوب، متابعًا: «تعني أن نمرَّ بجوار صقلية. والجزيرة تغصُّ بالقراصنة».

ارتجفت بابتيست، وقالت: «قراصنة... تف».

لم يكن في نفس الأخ دياز وُدٌّ للقراصنة، لكن لا يبدو أنهم أسوأ حالًا من صحبته الحاضرة.

سأله، ساخرًا بمرارة: «ألَم تقضِ وقتًا في مهنتهم؟».

أجابت بابتيست وقد أخطأت نبرته: «ربما ثلاث رحلات؟ جاءت بسبب رمية سيئة في النرد. كنتُ أحمل في البداية أوهامًا رومانسية لن أكذب عليك، لكنها تبخَّرت سريعًا، أؤكِّد لك. ما لا يدركه المرء هو...». ورفعت كتفيها في حذلقة: «القراصنة أوغاد حقًّا».

رفعت الأميرة أليكسيا حاجبيها المبللين، وقالت: «احلفي؟».

قالت بابتيست: «هم حقًّا، حقًّا لصوص أوغاد في البحر، ليسوا مضحكين، ولا ساحرين، وطعامهم مروِّع. إن عرض عليك أحدهم أن تصيري قرصانة، فقولي له إنك مشغولة. تلك نصيحتي».

قالت أليكسيا: «على الأرجح سأكون مشغولة. بأن أكون إمبراطورة الشرق. أو، والأغلب، ميتة. هذان هما الخياران الوحيدان أمامي على المدى الطويل».

قالت بابتيست: «طبعًا، تقولين ذلك الآن، لكن بحسب خبرتي، وهي فعلًا...».

قال الأخ دياز، مقاطعًا: «واسعة؟».

أكملت بابتيست: «... الحياة تأخذ منعطفات غريبة. غريبة حقًّا. أعني...». ولوَّحت بيدها نحو صحبتهم الحالية، على ظهور الخيل في فسحة تقطر من كل جهة: «انظري من حولكِ».

- لِمَ توقفنا؟

انتفض الأخ دياز في ذعر، وقد استدار دفعةً واحدة ليجد ساني لاصقة عند مرفقه، وتلك العينان الضخمتان على نحوٍ غير طبيعي تحدِّقان إليه. ومهما تكن الحيلة السوداء التي تستعين بها لتسير مستغفلة الجميع، فقد بدا أن حصانها اكتسبها.

وراح يحملق في تلك الدابَّة بريبةٍ شديدة.

تمتمت أليكسيا: «نفكِّر في الطريق».

قال يعقوب، متابعًا بلهجة رجل أُرغم على شرح الأمر مرارًا: «لا يمكننا المخاطرة بالساحل التيراني. لذا، فلا بدَّ من الأدرياتي. مملكة نابولي مستبعدة، بديهيًّا...».

ردَّ الأخ دياز مجددًا: «بديهيًّا».

قال يعقوب: «وأرصفة الولايات البابوية مراقبة، والركَّاب مسجَّلون...».

قال بالثازار، جالسًا مهلهلا تحت قطعة قماش مبلَّلة مدها فوق رأسه: «الكنيسة تعشق الأوراق، أكثر حتَّى من ربها».

قال البارون ريكارد: «في تجربتي، الكنيسة ليست مغرمة بالرب أصلًا. تراها كما يرى المحامي القانونَ: شيئًا يجب التحايل عليه».

زجره الأخ دياز: «أنت مصَّاص دماء. بديهي أن تكره الكنيسة».

ردَّ البارون: «بل على العكس، أنا من المعجبين بمبادئ دينكم. كلُّ ما في الأمر أنني أرى من المؤسف أنَّ المُخَلَّصين، كقاعدة، لا يشبهون مخلِّصتهم كثيرًا».

قال الأخ دياز: «أيجب أن نتحمَّل آراء مصَّاص دماء في اللاهوت؟».

قالت بابتيست، ضاحكة: «أو في القانون؟ لقد قضيتُ شهرين أجادل قضاة نافار في قضية، فأحسبني وضعت قدمًا في تلك الحرفة».

قال البارون، وهو يضحك: «كما في كل مهنة أخرى».

سألت ڤيجا، ثم ضحكت وحدها: «كم عدد الأقدام التي يمكن أن تكون لامرأة؟».

قال يعقوب، مكرِّرًا بلهجة أكثر كآبة: «أرصفة الولايات البابوية مراقبة».

قالت بابتيست، وهي تعدُّ المدن على أصابعها: «ما يعني أن رافينا، وريميني، وبيسكارا، مستبعدة».

قال البارون ريكارد: «وبيسكارا بشعة على أيِّ حال. ما كنتُ لأُؤخذ حيًّا إليها».

قالت ڤيجا: «لكنك ميت أصلًا».

- لكني ما كنتُ لأُؤخذ.

قال يعقوب، متجهِّمًا: «نحتاج إلى ميناء مزدحم. موضع يمكننا التلاشي فيه ضمن الزحام».

قالت ساني، بشيءٍ من الحسرة: «ذاك ما أفعله أنا».

قالت ڤيجا، وهي تزيح كومة شعرها إلى جانب وتشدُّ قلنسوتها: «وأنا كذلك».

وكانت كتفاها الموشومتان بالطلاسم والتحذيرات لا تزالان ظاهرتين تمامًا، ومعهما أنيابها الذئبية في ابتسامتها.

قالت ساني: «تبدين كمستذئبة في قلنسوة».

قال يعقوب، وقد نطق الكلمة كأنَّها ضربة فأس على جذع القصَّاب: «إذًا... نحن ذاهبون إلى البندقيَّة».

قال الأخ دياز، وقد زاد اضطرابه: «البندقيَّة؟ أهذه هي خطَّتكم؟".

أعرض عنه يعقوب، وقال: «أيعرف أحدكم أحدًا في البندقية؟».

قالت بابتيست: «أنا أعرف ناسًا في كل مكان. لكن لا أثق بأنهم يحبُّونني...».

سأله بالثازار: «أيوجد أحد يحبُّك أصلًا؟».

قالت: «يوجد من لا يبالي بي على أحسن تقدير. ومع ذلك، فأنا الأكثر شعبيَّة بيننا جميعًا بفارقٍ بعيد».

قال البارون، وهو يطوف بنظره في الوجوه بازدراء: «ذاك أسوأ تعريفٍ لسقفٍ منخفض».

قالت ڤيجا، وهي تكشِّر في ضحكة: «نادِرًا ما يذكرني الناس بخير. لكنَّهم نادرًا ما ينسونني».

قال بالثازار: «تحدَّثوا عن أنفسكم أنتم. أنا من بين أفضل ثلاثة باعثي أموات في أوروبا، بل ربَّما اثنين. النجاح يجلب الحسد، والحسد يجلب الضغينة، لكن الناس لا خيار لهم إلا أن يحترموني».

قالت الأميرة أليكسيا: «دلُّني على شخصٍ واحد يحترمك».

وساد صمتٌ لا يُسمَع فيه إلا وقع المطر.

قال يعقوب، وقد أدار فرسه: «البندقية. سنجد هناك سفينةً تقلُّنا».

صاح الأخ دياز: «لكنَّ جمهوريَّة الصفاء على خصام حاد مع البابويَّة! لقد حُرِمت الدوجيريا من رحمة الكنيسة! مرَّتين!».

قال بالثازار: «كثير من الناس المرموقين قد نالهم الحرمان الكنسي».

قال الأخ دياز: «وهي معروفة بأنَّها سمَّمت زوجها!».

تمتمت بابتيست: «كثير من الناس المرموقين سمَّموا أزواجهم».

قال: «ذاك المكان مستنقعُ فجور!».

رفعت ڤيجا قلنسوتها عن رأسها، وحاجبها مرفوع، وقالت: «أحقًّا؟».

قال يعقوب: «لسنا ذاهبين للصلاة».

قال البارون ريكارد: «ولو كنَّا، أفلا يكون الدعاء بما فيه من إخلاصٍ هو العبرة، لا الموضع الذي يُرفع فيه؟ فإنَّ المزابل، عند المخلِّصة، كانت كاتدرائيَّات».

قال الأخ دياز: «البندقيَّة وكر عصابات! لا فرق بينها وبين صقليَّة!».

قالت ساني: «بل هم أسوأ. لكنَّهم أكثر تنظيمًا».

أغمض يعقوب عينيه، ودعك جسر أنفه المليء بالندوب، وقال: «ولذلك، فإنَّ آخر مكانٍ قد يخطر في بال أحد أن يبحث فيه عن الأميرة المدعومة من البابا... هو البندقيَّة». ثم كشر عن أنيابه، وأدار فرسه مغادرًا.

ولم يفكر الأخ دياز إلا في رائحة القشِّ المحترق، وفي وطأة حذاء رجل الثور على ظهره، وفي احتقار مارسيان القاتل، وفي طقطقة العظام بين فكي المستذئبة التي تركب إلى جانبه وتطلق النكات عن المطر. ما كان ليبغي أن يعيش أيًّا من ذلك مرَّة أخرى، وقد شعر بفقاعة

من الذعر المحتبس ترتفع في جوفه، لا تلبث أن تخرج إمَّا تقيُّؤًا، وإما صيحة استغاثة يائسة.

صرخ: «لن نذهب إلى البندقيَّة! أنا راعي معبد الذرائع المُقدَّسة، وإن كنتم تذكرون بنود العهد...».

قالت الأميرة أليكسيا، مقاطعةً كأنَّه لم ينطق بحرف: «ثمَّة ملتقى للحجَّاج، قرب سبوليتو. يمرُّ فيه المئات كلَّ يوم».

سألها بالثازار: «وما الذي ساقكِ إلى هناك؟ الحرص على خلاص روحك الأبديَّة؟».

قالت بابتيست، مشرقةً: «أخمن أنَّها مرَّت لتحتال على المُخَلَّصين».

قالت الأميرة، دون تأكيد التهمة، لكن دون نفيها أيضًا: «يتجمَّعون هناك، وينطلقون نحو البندقية في طريقهم إلى الأرض المُقدَّسة. يمكننا أن نبتاع قلانس، ونتسلَّل وسطهم».

صاح الأخ دياز: «لكن ذلك قد يستغرق أسابيع!».

قال يعقوب: «خيرٌ أن تصل إلى طروادة متأخرةً وهي حيَّة، من أن تصل سريعًا في أشلاء».

تمتمت أليكسيا: «ذاك لا جدال فيه».

قال الأخ دياز، مترددًا بين الوعظ والتوسُّل، فلم يُفلح في شيء منهما: «جلالتكِ... لقد اختارتني قداستها لسبب...».

قالت أليكسيا، بنظرة لاذعة على نحو غير متوقَّع: «الكاردينالة زيزكا هي من اختارك. لأنَّها تعلم أنَّك ستفعل ما تؤمر به. البندقيَّة هي الخيار الأقل سوءًا». ثم قرعت لسانها، وتقدَّمت في الدرب.

قال يعقوب، وهو يدير فرسه ليتبعها: «وأحيانًا، يكون الأقل سوءًا هو أفضل ما يمكن أن تأمله».

غنَّت ساني: «إلى الأرض المُقدَّسة»، وسارت خلف أليكسيا ويعقوب.

حدَّق الأخ دياز في أثرهم كئيبًا. كان معهم نصف دزينة من الوحوش، لكن الأميرة هي من قتلته.

- يبدو أن مولاتنا تميل إلى التسلُّط.

قالت بابتيست: «ذاك شرطٌ شبه لازمٍ في الملوك. لكن أليس حريًّا بك أن تفرح؟ فما أتقى من الحجِّ؟».

همس الأخ دياز: «يا مخلِّصتي الرحيمة...».

من ذاك الموضع، كان أهل الإيمان يخرجون ليزوروا قبور القدِّيسين، والمزارات المباركة، والأديرة الموقَّرة، والكاتدرائيات في أرجاء أوروبا.

يرجون أن يشفع فيهم الشهداء لدى القدير.

مرضى يُرجى شفاؤهم.

خطاة يُرجى تطهيرهم.

مذنِبون يُرجى غفرانهم.

من ذاك الموضع، كان الحجاج يرحلون في رفقةٍ مُقدَّسة، يجمعهم رجاءٌ أنَّهم عبر الألم المتواضع والتوبة الصادقة، يلمسون شيئًا من الألوهية.

من ذاك الموضع...

مدينة من خِيام، تغلي بعَوَجِ الزحام، وتفوح برائحة دخان الحطب، والبخور، والطعام العفن، وروثٍ قديم.

مدينة من قماش، تطفو فوق بحر من القذارة، مصابيح الفوانيس ونيران المعسكرات تتلألأ في الأفق الغسقي.

وما كان دربًا يسيرون فيه، بل نهرًا من الوحل المجروف، تعمه القمامة المدفونة نصفها.

صاح شيخٌ من مؤخرة عربة غارقة في الطين، صوته مكسور من كثرة الوعظ، ينتف شعره في حمى رسالته: «القيامة قادمة! قد تكون غدًا! قد تكون الليلة! توبوا إلى الرب الآن أيها الأنذال، قبل فوات الأوان!».

بلع الأخ دياز ريقه، وتجنَّب النظر إليه، وسرعان ما غطَّى صوته ضجيج السكارى، وضحك اليائسين، والموسيقى الخليعة، وصلواتٍ فاغرة، هنا بكاء، وهناك زئير غضب.

جثا رجل عند حافة الدرب، يحدِّق إليهم خاملًا وهم يمرُّون. ولم يدرك الأخ دياز ما يصنع إلا حين تجاوزوه، إذ كان ذاك يفرغ أمعاءه في العراء.

همس البارون ريكارد، وقد رفع حاجبيه وهو يشير إلى مجموعة من الشبان والشابَّات شبه العراة، واقفين بوضعٍ غريب أمام خيمة مزركشة بشرائط بالية: «كنتَ تقول شيئًا عن مستنقع الفجور؟».

ما وجد الأخ دياز ما يقوله. ها هو مستنقع الفجور حقًّا، لا في البندقيَّة الآثمة، بل على مسيرة أيام من المدينة المقدسة، يخدم شهوات الضعفاء ممَّن يُفترض بهم أن يسيروا إلى خلاص أرواحهم.

قالت بابتيست، متنهِّدة: «يبدو أن الحُجَّاج يفرغون خطاياهم قبل أن يبدؤوا الرحلة».

قال البارون ريكارد، وعلى وجهه مسحة من التسلية التي تلازمه في كل شيء: «كلَّما زادت ذنوبهم، زاد سرور الربِّ حين يغفر».

همست ڤيجا: «سؤالي... هل أستطيع أن أتذوَّق؟».

سألها: «أتعنين التوبة أم الخطيئة؟».

كشفت عن أنيابها، وقالت: «وكيف تنال واحدة دون الأخرى؟».

أوقفهم يعقوب بجانب كشكٍ يبيع أردية الحجَّاج. لم تكن أكثر من خيام برؤوسٍ مخرَّزة من خيشٍ خشن، لكنَّ الأخ دياز ظنَّ أنَّها ربَّما

تخفي أسوأ مظاهر رعيَّته الوحشيَّة. ذابت ساني في الفراغ على طريقتها المعتادة، على الأقل، لكنَّه بدأ يتساءل إن كان إلف سيكون محط انتباه في كرنفال المسوخ هذا.

قالت بابتيست، وهي تتدلَّى من على سرجها بخفَّة: «فلنبدأ العمل إذًا».

قال يعقوب: «ابحثي لنا عن جماعة نسافر معها. لا صغيرة جدًّا، ولا كبيرة جدًّا».

أومأت وقالت: «تمَّ».

أمسك بها وأدارها إليه، وقال: «واحرصي أن يكونوا من القادرين على السير. نريد أن نصل إلى البندقيَّة قبل عيد المخلِّصة».

أومأت مجددًا، وقالت: «تمَّ».

أمسك بها مرَّة أخرى، وقال: «ويغادرون قريبًا. هذا المكان...».

نظرت بابتيست من حولها، وقطَّبت أنفها، ثم قالت: «تمَّ».

ربَّت يعقوب عنق فرسه بلطف وهو يتفحَّص هذا المشهد من الخراب الأخلاقي، ثم قال: «إذًا، فلنَبعِ الخيول».

تمتم الأخ دياز: «سنمشي إلى البندقيَّة؟».

قال يعقوب، وهو يطلق أنَّةً من الألم إذ يرفع ساقه اليسرى عن السرج، وينظر إلى الوحل المتلألئ في ضوء المصابيح نظرة محاربٍ شيخٍ إلى عدوٍّ لا أمل في قهره: «إنَّه حجٌّ. والجميع يمشون».

14

مبارك، مبالغ فيها

كل خطوة عذاب مقيم بذاته. قد يظنُّ المرء، في مسيرٍ طويل، أنَّ الأشد إيلامًا هو الساقان.

ونعم، كلُّ الآلام المعتادة حاضرة: الأوجاع، اللدغات، النغزات. الورك اليمنى. الركبة اليسرى التي داسها فرسه في الصحراء. كلا الكاحلين، لا ريب. القدم التي هشَّمها صولجان الغول في تلك المرَّة. وإصبع القدم، بالطبع.

يا إلهي، تلك الإصبع.

لكن بعد روتين الصباح المعتاد من التأوُّه، والتحسُّس، والعجن، والتمطيط، وتنمي الموت، والدعاء طلبًا للموت، ثم ميل أو اثنين من العرج والألم، ثم إنَّ الآلام من الخصر إلى أسفل تهدأ إلى خفقٍ مزمنٍ يُحتمل. ثمَّ، كما حدث في برج الساحر ذاك الذي أحرقوه قرب فروتسواف، يبدأ الألم بالصعود. أسفل الظهر، ثم أعلاه، ثم المسافة بينهما. ذاك النشر المستمر تحت الأضلع، من ضربة فأس ذلك السويدي النذل. ثلاث أو أربع لدغات موزعة في الرقبة. تقلُّص غريب تحت الذراع اليمنى، وفي تلك البقعة بين الكتفين التي تشعره دائمًا بالاعوجاج مهما حرَّكها.

ذاك الألم في الرئة، من رمح الفارس الضاحك، ليس في الظهر ولا في الصدر تمامًا. لكنه لا يظهر إلا عند الشهيق... أو الزفير.

ثم هناك الجراح الأخيرة، من النزل، السهام والسيف، وما زالت تحتفظ بتلك الحدَّة المقيتة للجروح الجديدة. والجديدة دومًا أشد مما تستحق. إلى أن يعتاد عليها الجسد، وتصير مجرَّد حاشية في حياةٍ من العنف.

كلُّ خطوة مؤلمة، لكنَّ كلَّ خطوة كانت مؤلمة لعمرَين كاملين الآن. ويعقوب لا يزال يمضي فيهما. لا حاجة إلى أن يسرع الخطى، ولا يطولها، ولا يتخايل بها. كلُّ ما في الأمر أنَّها يجب أن تستمر.

لا توقف المسير.

هكذا قال له أحدهم في الانسحاب الطويل من ريازان. كان مرهقًا ومجروحًا حتَّى إنَّه لم يعُد يذكر من القائل، لكنه يذكر الرائحة، والشمس المتوهِّجة على الأفق الأسود، والظمأ، والذباب، قفرٌ جاف يمتدُّ بلا نهاية، ووجوه الرجال الذين تُركوا في الطريق، ورعبًا لا ينتهي، يطحن النفس كرحى، وفزعًا مفاجئًا، خاطفًا كبرقٍ.

حينها عرف النفس البشرية. رأى خيانةً عظيمة، وحماقةً فادحة، وطمعًا لا قرار له، وجبنًا لا قعر له. لكنه رأى أيضًا بطولاتٍ صغيرة مدهشة. كِسرةُ خبز شُورِكت. صوتٌ متقطع يرتفع بالغناء. رجل يحمل صاحبه على ظهره. وآخر يرفض أن يُحمَل. يدٌ على الكتف، وصوتٌ يقول: لا توقف المسير.

كل امرئ عرف حقيقته في ذاك المتسع من الوحل والعذاب. ويعقوب تعرَّف على حقيقته هو. ولم يُعجَب ذلك الوغد كثيرًا.

قال الأخ دياز، متملِّقًا، ولربَّما لامس بأنفه الأرض لو استطاع وهو يمشي: «سيادتك الموقَّرة...».

كانت الأسقف أبولونيا من أتشي، رئيسة ما يُسمَّى بـ «الفرقة المباركة»، تبتسم كمن لم يضطرَّ يومًا إلى الانسحاب اليائس. هي لاهوتيَّة مشهورة، يُقال إنَّها موعودة بالقداسة في المستقبل. ولم يكن يعقوب قد

رأى في حياته لاهوتيًّا يحلُّ مشكلة لم يكن هو نفسه من صنعها. وأمَّا القداسة، فقد عرف أربعة أشخاص طُوِّبوا بعد موتهم، وكان أحدهم وغدًا خالصًا في حياته، والآخر مجنونًا صرفًا.

سألها الأخ دياز، متزلِّفًا: «إلى ما نُعزي شرف زيارتكم؟».

أشاحت بيدها عن تزلُّفه وقالت: «ما دمتُ بعيدةً عن أسقفيتي، فلستُ سوى حاجَّة متواضعة بين الجمع».

وإنصافًا لها، فعدا دائرة الفضة التي ترمز إلى الإيمان، لم تصنع لنفسها هيبة، وارتدت خيشًا قذر الحاشية كغيرها.

قالت: «أُعرِّف بنفسي على كلِّ فردٍ في الفرقة. وأقول عن خبرة، إنَّها رحلة يحتاج المرء فيها إلى كلِّ صديق».

- هل حججت من قبل؟

- هذه ستكون الثالثة.

تمتم يعقوب: «لا تستطيعين الكفَّ عن الخطيئة؟».

قالت، بهدوء: «الخطأ طبيعة البشر. خطيئة... ثم السعي إلى الخلاص».

رنَّم الأخ دياز: «آمين لما قلت! آمين آمين، حقًّا!».

يتقن التزلُّف. لكن تلك حال الرهبان؛ إذا دفعت لرجلٍ أجوره ليسجد للرب ثلاث مرَّات في اليوم، فسرعان ما يبدأ بالسجود للجميع.

قالت الأسقف، وهي تتفرَّس في يعقوب بنظرةٍ قلقٍ خفي: «يبدو عليكَ الألم. أأخمن بأنَّه جرح حرب؟».

تمتم يعقوب: «بل خَمِّني أنها عدَّة جراح».

ولكم أبغض التعاطف، لأنه يعلم أنَّه لا يستحقُّه.

- ينبغي أن تزور مزار القدِّيس ستيفن حين نمرُّ به. فهو شفيع المحاربين.

قال يعقوب، بصوت خفيض: «الحماة على وجه الخصوص. لقد حملتُ صورته سنين طويلة. مجسَّمًا مثبَّتًا خلف ترسي».

- لكن لم تَعُد؟

تألَّم يعقوب -من ركبته، أو من الذكرى، أو من كليهما- وقال: «دفنتُها. مع صديق. رأيتُ أنَّه أحقُّ بها».

هزَّت الأسقف رأسها بتفكُّر وقالت: «ذاك حسن. فقد كان ستيفن محاربًا أشوس، لكنه، بعد رؤيا من المخلِّصة، اختار أن يدفن سيفه ويكرِّس موهبته للشفاء. ومعروف أن رفاته يخفف من ألم الجراح».

- أخشى أن علَّاتي لا تُشفى بهذا اليسر.

- جُرح الروح أشد من جُرح الجسد.

لم يكن يعقوب واثقًا بأنَّه يوافقها.

بُوريس دروبا، بالتأكيد، لم يكن ليوافق. فقد تلقَّى رمحًا في عورته في زحمة القتال عند أبواب نارڤا، واستغرقه الموت سبعة أشهر. ولم تكن شهورًا حسنة. لكنه شكَّ في أن هذا المثال سيعجب الأسقف. وإن تعلم شيئًا واحدًا في سنيِّه الطويلة على هذه الأرض، فهو أن الصمت غالبًا خير من الكلام. لا سيَّما حين يتعلَّق الأمر بالأعضاء. فأطلق تأوُّهًا منهكًا، ولم يُكمل.

وقد رفعت الأسقف حينها يدها تحجب بها عينيها، تنظر خلفهم إلى الطريق، ثم سألت: «أأستطيع أن أسأل عن رأيك في جمعنا المبارك؟».

لطالما طُلب من يعقوب تقدير عدد الرجال -أحيانًا وهم يندفعون نحوه بصيحة حرب مروِّعة- وقُدِّر هذا الجمع بنحو مئتي نفس.

في المقدِّمة، نصف دستة جنود وراهبة متأفِّفة، عربةُ منبرٍ متنقِّلٍ يجرُّه حصان، اختراعٌ قد يكون أدهش الأخ دياز أكثر من الأسقف نفسها. يتبعهم أثرياء الحُجَّاج، منهم اثنان أُرسلت صورهما محمولةً

على أكتاف الخدم؛ لتاجرة من أثانيا وزوجها الرابع. كانا يرغبان في خلاص روحيهما الأبديتين، على ما يُقال، لكنَّ حرصهما على شؤونهما الدنيويَّة كان أشدَّ، فابتاعا إذنًا يبعثان فيه صورتيهما بدلًا عنهما.

وقد قالت المخلِّصة إنَّه لا يُشترى طريق إلى الجنَّة، لكنَّ أكثر الناس ظنُّوا أنَّها مجرَّد ورقة تفاوض من جهتها.

وأمَّا سائر الجمع، فمزارعين، ونجَّارين، وصناع الحرف، وفيهم كثيرٌ ممن ابتُلوا بعاهة.

زوجان أعميان تقودهما طفلة.

امرأة خاوية الوجه، تتأوَّه على محفة.

جميعهم يتضرَّعون عند كلِّ مزار، يطلبون معجزة.

أما الفقراء ففي مؤخرة الركب، معهم عددٌ أقل من الدواب، وأحذيةٌ أردأ. وفيهم عددٌ من السجناء يؤدُّون كفَّارات فرضتها الكنيسة، بعضهم في قيود، وبعضهم عُلِّقت على صدره لافتاتٌ تعلن جرائمه.

وذيلٌ متمايل من المتطفِّلين جُرَّ وراء الركب: شحَّاذون ولصوص، قوَّادون وبغايا، تجَّار لكل صنوف الرذائل، ومن بينهم خيمةٌ تُنصب كلَّ ليلة، يتصاعد منها الضحك والغناء حتَّى الفجر.

وكان ثمَّة مُرابٍ لطيف النبرة، يدير محلَّ رهن على عربة، ويحرسه رجالٌ عابسو الوجوه.

فكرة تجارية مربحة، لم يشك يعقوب في ذلك. فمن بين من يسعى إلى الغفران، لا بُدَّ أن يكون فيهم عددٌ لا يُستهان به من أهل الذنوب المزمنة.

ما رأي يعقوب في الجمع المبارك؟

رآه نموذجًا مصغَّرًا من المجتمع: فيه الحقير والوجيه، والآمال العريضة والطموحات التافهة، والتنافس، والامتياز، والطمع، والاستغلال...

يتقدَّمه منبرٌ محمول، ويختمه ماخورٌ قابل للطيِّ.

قال، وهو يواصل سيره المتعسِّر: «أحسب أنَّ كلمة مبارك مبالغٌ فيها».

وهمس في نفسه: إن توقفتَ طويلًا، فلن تبدأ من جديد.

رمق الأخ دياز المتأخِّرين بنظرةٍ من تقوى ناقمة، وقال: «ثمَّة نفوس دنيئة في الركب... أولًا يستطيع حرَّاسكم دفعهم إلى المغادرة؟».

قالت الأسقف: «الفضيلة في مقاومة الإغواء، لا في غيابه. أوليست الأرواح الوضيعة والمُهانة في حاجة إلى رحمة الرب قدر حاجة المرفَّهين؟».

قال يعقوب، مغالبًا الأنين: «لكنَّهم يجدون تكلفةَ الرحمة أعلى بكثير».

ضحكت الأسقف وقالت: «مقاتل ومفكِّر؟ صفتان قلَّ أن تجتمعا. قل لي يا بُني، عن أيِّ ذنب تُكفِّر؟».

عند هذه النقطة عادةً ما كان يعقوب يندم على قسمه بالصدق. فكما كان قتلُه للكونت، أو زواجه من ساحرة، أو قبوله منصبَ جلاد البابا، قراراتٍ بدت وجيهة وقتها، كذلك عَهده على ألا يكذب.

قال، وهو يمدُّ الكلمة إلى أقصى ما يمكن: «حسنًا... حين يتعلَّق الأمر بالتكفير... يصعب أن يختار المرء ذنبًا واحدًا...».

قالت أليكسيا، وقد ألقت بذراعٍ وديَّة على كتفيه المعوجَّتين، ونظرت إلى وجه الأسقف بعينين بريئتين: «ياريك لا يحبُّ الحديث عن ماضيه. هو من أولئك الكتومين، الصامتين، يغوص في سوادٍ قديم. لعلَّه ينهار

يومًا، ويبوح بكلِّ شيء وهو يبكي، لكن لا أراهن على ذلك، أليس كذلك يا ياريك؟».

وقد أقسم يعقوب ألا يكذب. لكنه لم يُقسم شيئًا على ألا يكذب الآخرون نيابةً عنه. فأطلق تأوِّهًا منهكًا، ولم يضف شيئًا.

فتحت الأسقف فمها، لكن قبل أن تنبس، كانت أليكسيا قد ألقت بذراعها الأخرى حول كتفي الأخ دياز، وقالت: «الأخ لوپيز يحمل تكليفًا خاصًّا من قداستها البابا!».

قال الراهب، وقد اتَّسعت عيناه: «فعلًا؟».

أشارت أليكسيا إلى باقي الرفقة، وقالت: «ليرافق هؤلاء الخطاة المحكومين في حجِّهم، ويقودهم إلى نعمة المخلِّصة».

قال، وهو يتأمَّلهم بنفور: «آه، نعم. تلك المهمَّة».

أشارت أليكسيا بإبهامها نحو بالثازار: «هذا باسيل من مسِّينا، تاجرٌ صقليٌّ. أعظم خطاياه -حسبما أرى- رأيه في نفسه. وإن عقد صفقة مع قراصنة أيضًا».

قال بالثازار، رافعًا حاجبًا: «في مهنتي، يُضطرُّ المرء أحيانًا إلى صحبة لا يُشتهى قربها».

قال البارون، وهو يمدُّ يده إلى الأسقف: «اسمي ريكارد».

قالت أليكسيا، وهي تضيق عينيها: «لديه... مشكلة مع الشراب؟».

كشف ريكارد عن أنيابه الحادّة، وقال: «تستطيعين قول ذلك».

رفعت الأسقف حاجبيها، وأشارت إلى قدمي ڤيجا الحافيتين، إحداهما موشومة بالأحرف على الأصابع، والأخرى مكتوب عليها: احذر، وقالت: «أن تمشي حافية في درب الخلاص... إنَّها تقوى جليلة».

قالت ڤيجا، وهي تحرِّك أصابع قدميها وتبتسم ابتسامةً تكاد تكون فاتنة لولا ما رآه يعقوب منها: «أحبُّ شعور الطين بين أصابعي». ثم ارتجفت وضحكت معًا.

قالت أليكسيا: «ڤيجا كانت فايكنج».

تمتم بالثازار، باستهزاء: «ذاك ظاهر».

- وثنيَّة.

تمتم الأخ دياز، بندم: «ذاك ظاهر».

أكملت أليكسيا: «محاربةً ذات هيبة، شاركت في غارات على الإنجليز...».

قالت الأسقف: «ومن ذا يلومها على ذلك؟».

أكملت أليكسيا: «... لكن الأخ لوپيز هداها إلى نور المخلِّصة!».

قال البارون، دافعًا عينيه إلى السماء: «الحمد للرب».

قالت الأسقف، وقد نظرت إلى أليكسيا: «وأنتِ يا ابنتي؟ كثيرة الكلام، أليس عندك قول عن نفسكِ؟».

طأطأت أليكسيا رأسها بأسى وقالت: «أخجل أن أقول يا سيادتك، إنني كنت سارقة».

قالت الأسقف: «لقد كانت القدِّيسة كاترينا سارقةً هي الأخرى، قبل أن تنبذ الدنيا كلَّها. باعترافك، فقد خطوتِ أول خطوة في سبيل الخلاص. لعلَّك، أنتِ أيضًا، تسخِّرين مواهبكِ العظيمة لما هو أسمى».

رفرفت أليكسيا بأهدابها تَقوى، وقالت: «ومَن لا يرجو ذلك؟».

قالت الأسقف: «لطالما رأيتُ الرجاء أولى الفضائل الاثنتي عشرة».

قال الأخ دياز، وهو يومئ برأسه: «وهو الأصل الذي تتفرَّع منه جميعها».

وضعت الأسقف يدها على كتفه، وقالت: «أن تهدي أرواحًا كهذه إلى النعمة... ذاك عمل الرب بعينه أيُّها الأخ لوپيز».

قال: «أبذل جهدي يا سيادتك». ثم رفع رأسه إلى السماء، وأضاف: «لكنَّه لا يُيسِّره كثيرًا».

قالت: «وما قيمة الأجر إن كان نيلُه يسيرًا؟ لا بُدَّ أن الظهيرة اقتربت. فلنتوقَّف لصلاة نصف اليوم».

ثم سارت بالأخ دياز نحو مقدِّمة الركب، وقالت: «ظننتُ أنك قد تودُّ أن تقرأ على الجند المباركين مقطعًا! عن يونس والتنين، ربما؟».

- أحد أحب المقاطع إليَّ!

تابعتهما ڤيجا بنظرة متفكِّرة، تحكُّ حلقها المشدود بأطراف أظفارها، ثم قالت: «أحبُّ لقب وصيفة الدرع».

قال البارون، ضاحكًا بسخرية: «وصيفة؟ بل كلبةُ الفأس بالأحرى».

كشرت ڤيجا عن أنيابها وقالت: «أعجبتني كلبة الفأس أكثر».

قالت أليكسيا، وهي تتابع الأخ دياز: «يبدو أنَّه مولَع بالأسقف».

قالت ڤيجا: «لا أظنُّها ستضاجعه».

ضغط بالثازار على جسر أنفه وقال: «ليس كلُّ شيء عن المضاجعة».

قالت ڤيجا، وهي تشفط مخاطًا ثم تبصقه في الوحل: «طبعًا لا. فقط ثلاثة أرباعه».

قالت أليكسيا: «آمل ألَّا ينتهي ذلك بالبكاء».

ضغط يعقوب على كتفه المتألم بإبهامه، ثم تابع عرجته.

وقال: «كلُّ شيء ينتهي بالبكاء».

15

إلى الأرض المُقدَّسة

الجميع خائفون طوال الوقت. تلك هي الحقيقة التي يجب أن تهمس بها لنفسك.

قد يخافون من أشياء تختلف عمَّا تخشاه أنت. أشياء لا تُحرِّك فيك ساكنًا: كالمرتفعات، أو الفشل، أو أن ترغب في التبوُّل ثم لا تستطيع. لكنَّ لكلِّ امرئٍ موضعَ خوفٍ ما. وإن لم يكن، فمن النافع أن تظنَّ كذلك. الشجعان ماهرون في التظاهر، والتظاهر ضربٌ من الكذب، والكذب فنٌّ، وكانت أليكس من الألمع. اسأل من شئت.

لذا، فقد اتجهت مباشرةً إلى المكان الذي كرهت الجلوس فيه. زجَّت بساقها بين ڤيجا وبابتيست، ووضعت مؤخرتها على ذاك الشريط الضيِّق من الجذع المضاء بالنار، ثم حشرت كتفيها بينهما.

أملت أن يفسحن لها مكانًا، لكن الجذع لم يكن أطول من أن يسعهنَّ ثلاثًا.

بابتيست لم تكن تستطيع أن تزحف دون أن تسقط، وأما ڤيجا فلم تبرح مكانها قطُّ، كأنَّما حاولت أليكس أن تزيح شجرة. شجرة ساخنة، رطبة، مغطَّاة بالتحذيرات، تفوح منها رائحة بولٍ ترابيٍّ.

فهكذا إذًا، تقودك الشجاعة إلى حشرك كسدادة بين أكثر نساء أوروبا خبرةً، وبين مستذئبة اسكندنافية أصيلة.

رمقت بابتيست أليكسيا من أعلاها، بحاجبٍ أسودٍ مرفوع، كراعٍ يحدِّق إلى نعجة يفكِّر في بيع لحمها، وقالت: «شرِّفينا يا صاحبة السموِّ».

قالت أليكس، وهي تقلب حسائها وتغرف ملعقةً في فمها، مضطرةً إلى أن تتظاهر بالراحة كما تتظاهر بالشجاعة: «فعلتُ».

ثم اضطُرَّت إلى أن تنخفض بسرعة، إذ لوَّحت ڤيجا بذراعها المخدرة في الهواء. فنجَت من الضربة، لكنَّها كادت تسقط من الجذع من شدَّة الرائحة الكريهة المنبعث من إبطها المشعر.

قالت ڤيجا، وهي تتلفَّت نحو النيران الأخرى: «إلى أين في الجحيم يمضون جميعًا؟». وإلى مجاميع الحجَّاج الأخرى، ومخاوفهم التي تملأ الجوِّ.

قال الأخ دياز، وقد استقرَّ على قطعةٍ من عشبٍ رطبة، لكن رحبة، بين بابتيست والبارون ريكارد دون أن يحاول التظاهر بالشجاعة أصلًا: «أغلبهم إلى قبرص. إلى كاتدرائية القديسة جوستينا المتفائلة. ينشدون صعود الأربعمئة وأربع عشرة درجة إلى رأس الحصن. هناك، يلمسون الأجراس العظمى، وقد صِيغت من دروع جنود الحملة الصليبية الأولى. ويُقال إنَّه في يومٍ صافٍ تمامًا، يمكن من هناك رؤية الأرض المقدسة».

قالت ڤيجا، وقد اقتربت بابتسامتها المليئة بالأنياب من أنف أليكس: «هل ستأكلين هذا؟».

لعلَّها الرائحة، أو الجسد الموشوم المكتنز بهذا القرب، أو الأنياب، أو صورة رأس مارسيان الممزَّق بتلك الأسنان... لكن لم تستطع أليكس أن تمنع نفسها من التفكير: لعلَّ الأبطال المزيَّفين يبدون جيدين، لكنَّ الجبناء الصادقين يعيشون أطول.

الجميع خائف.

تساءلت: ممَّ تخاف مستذئبة؟ ثم قررت أنها لا تريد أن تعرف. وضمَّت وعاءها إلى صدرها.

قالت بصوتٍ خافت: «سآكله».

قالت ڤيجا، وقد برزت شفتها السفلى، وعليها خط من الطلاسم يمتدُّ إلى شقِّ ذقنها المندمل، وراحت تلعق وعاءها بلسان طويلٍ صادم: «إن كانوا يريدون الذهاب إلى الأرض المقدسة...». ثم أدارته ولعقت من جديد، ثم رمت به في الشجيرات: «... فلِم لا يذهبون إلى الأرض المقدسة؟».

قال الأخ دياز، وقد رفع عينيه غاضبًا من طبقه: «حسنًا... ثمَّة مسألة صغيرة، وهي أنَّه طوال معظم القرن الماضي، ولشدَّة ما أغاظ ذلك كل ذي رأي قويم في أوروبا، الأرض المقدسة ابتُليت بالإلف».

تمتمت ڤيجا: «آه»، وكأنَّما جرَّبت هذا الوباء من قبل، ولا رأي لها فيه.

قال البارون ريكارد، بصوت خفيض: «لا أحد يزعم أنَّ ڤيجا أولاستوتر سليمة التفكير. ولا حتَّى منحرفة التفكير. بل لا تكاد تكون شخصًا أصلًا».

صاح الأخ دياز: «نحن نتكلَّم عن أعظم كارثة في الأزمنة الأخيرة!».

قالت بابتيست: «وفي ظلِّ منافسةٍ شديدة. أنا شاركت في عدد من الكوارث التي قد تُضاهيها».

أطلق يعقوب تأوُّهًا، موافقةً مترددة. فلوَّحت ڤيجا بيدها، وكادت أن تطعن وجه أليكس بملعقتها، وقالت: «الأرض المقدسة، الأرض المدحرجة، كلُّها رمل في النهاية، أليس كذلك؟ وأنا وثنيَّة».

قهقه البارون وقال: «وصفك بالوثنيَّة إهانة للوثنيين. أنت لا تؤمنين بشيءٍ سوى عورتك».

زأرت ڤيجا، ولفظت مع الريح لعابًا في النار جعل أليكسيا ترتجف، وقالت: «عورتي عقيدة راسخة!».

قالت بابتيست، هامسة: «ولا أحد ينكر وجودها».

تمتم البارون: «كلُّ من يملك أنفًا عاملًا يعترف بها، والكلاب تشمُّها من نصف ميل».

رفعت ڤيجا حاجبيها نحو الأخ دياز وقالت: «عورتي قدمت للعالم من الخير أكثر ممَّا فعل أيُّ قدِّيس أعرفه! قل كلمة، وأريك فيه آية».

ابتسم الراهب ابتسامةً متوترة، وألقى نظرةً إلى بعض الحجاج الذين يعبسون عند النار المجاورة، وقال: «من فضلكم، فلنقلِّل من ذكر العورات، معجزةً كانت أم لا. المهم أن الإلف لا يجيدون السباحة...».

قال يعقوب: «بل يجيدونها».

قالت ڤيجا: «يجيدونها بحق. رأيت ساني تسبح، وكان مشهدًا من العجائب. حين تسبح، تصطفُّ وراءها الأسماك تنتظر الدرس. هل ستأكل هذا؟».

ثم نهضت تتطلَّع إلى وعاء بالثازار، فاهتزَّ الجذع كلُّه، واضطرَّت أليكس إلى التمسُّك ببابتيست كي لا تسقط.

هزَّ بالثازار رأسه، متقزِّزًا، وقال: «صفٌّ من الأسماك، أقسم بالرب».

ثم رمى لها وعاءه، فاضطرَّت إلى أن تلتقطه في الهواء.

قبض الأخ دياز على صدغيه بكلتا يديه وقال: «لقد ابتعدنا كثيرًا عن الموضوع!».

قال البارون ريكارد: «ستعتاد ذلك مع هذه الصحبة. الموضوع سيغدو ذكرى بعيدة، حتَّى تشكَّ إن كان موجودًا يومًا، أو كان سرابًا لمحته عينك من حلم».

قالت ڤيجا، وهي تطأ النار بقدمها الحافية بلا اكتراث، ثم جلست من جديد على الجذع وجعلته يتأرجح: «أكان هنالك مغزى أصلًا؟».

قال الأخ دياز بحدَّة: «المغزى أنَّه أحيانًا، يمكن رؤية الأرض المقدسة من برج القديسة جوستين المتفائلة. وهو أقرب ما يمكن بلوغه منذ أن استولى الإلف على حلب».

قال يعقوب، بصوتٍ خفيض كزئير: «بل أفسدوها. الكنيسة تزعم أن الإلف أنجاس».

قال الراهب: «العقيدة الرسميَّة تقول إنَّ الإلف لا أنجاس ولا أطهار. بل لا أرواح لهم. إنَّهم بهائم، كالعفاريت أو الغيلان».

قال البارون ريكارد: «كنا نملك غولًا، ذات مرَّة».

قالت بابتيست، وقد تقلص وجهها اشمئزازًا: «يا إلهي، نعم. يا له من وغد».

سألت أليكس: «ما الذي جرى له؟».

قالت بابتيست: «قتلته ڤيجا».

قالت ڤيجا، وهي تهوي بملعقتها في الهواء، وترشُّ مقدِّمة ثوب بالثازار بالحساء: «وغد!».

قالت بابتيست، وهي تبتسم: «كان عندنا عفريتة أيضًا. تذكرون؟».

قال البارون، وعيناه تبرقان بضوء النار: «آيرِس. كانت مرحة بحق».

قالت ڤيجا، وهي تبتسم بأوسع ما تملك: «نكتةٌ تمشي على قدمين!».

سأل بالثازار، وهو ينفض بقايا الحساء عن صدره: «ما الذي حدث لها؟».

تنهدت بابتيست وقالت: «ڤيجا قتلتها».

قالت ڤيجا، ودمعتان غليظتان تهطلان على خديها: «أفتقدها». ثم شمَّت بأنفها، ودلقت ملعقةً أخرى في فمها.

قالت أليكس، متردِّدة: «وهل الإلف... كلُّهم سيِّئون حقًّا؟ أعني، لقد قابلتُ كثيرًا من الناس، وكثيرٌ منهم كانوا مروِّعين».

قالت ڤيجا، وهي تهزُّ رأسها تأييدًا: «آه».

قالت أليكس: «لا أقول إنَّ الأغلب...». ثم فكَّرت: «لكنَّ الأغلب، ربَّما. أنا لم أقابل سوى إلف واحدة...».

أطلق الأخ دياز صوتًا عالِيًا وهو يبلع ريقه، مشيرًا برأسه إلى النيران المجاورة، فانحنت أليكس إلى الأمام وهمست: «لم أقابل سوى إلف واحدة، وبصدق، تبدو لي لطيفة جدًّا».

همهمت ڤيجا بالموافقة مرَّة أخرى.

قالت أليكس، وهي تتلفَّت حولها: «لا أقول إنَّها ألطف من فينا... لكن تفهموننني». ثم سكتت.

سأل البارون، وقد نظر إلى يعقوب: «فما رأيك؟ هل الإلف بهذا السوء حقًّا؟».

طالت نظرة الفارس العجوز إلى النار، حتَّى ظنَّ الجالسون أنَّه لن يجيب.

ثم قال: «لقد قاتلت في الحملة الصليبية الثانية».

قال الأخ دياز، ساخرًا: «لا بدَّ أنَّ ذلك قبل مئة وخمسين عامًا!».

قال يعقوب: «بل أكثر قليلًا. بعد رفع الحصار عن طروادة، استرددنا عكَّا. ولم تكن تبدو كمدينة نُهبت. لا شيء مكسور، لا شيء محروق. أنظف ممَّا كانت عليه قبل مجيء الإلف».

ثم سكت هنيهة، ونار الجذع ترسم ظلالًا قاسية في تجاويف وجهه المشوَّه، وقال: «لكن ما كان فيها بشر. قادنا ويليام الأحمر إلى الكاتدرائية. أتذكَّر أنِّي رفعت بصري، فإذا غابةٌ من السلاسل، معلَّقٌ بها مئات الجثث. حوَّلوا المكان إلى مجزر. وأعنيها بمعناها الحرفي. لم يكن هنالك دم. ولا قسوة. بل بنظافة، وهدوء، و... إتقان. لا كراهية في الأمر. لا أكثر ممَّا يحمله الجزار للبقر».

تنفَّس يعقوب ببطء وقال: «سمعنا أنَّ الإلف أرسلوا بعض أهل المدينة شرقًا. للتناسل ربَّما. أو للتسمين. هدايا، أو عبيد، من يعلم. لكن لم يعُد أحد. والبقيَّة... أكلوهم».

قال الأخ دياز، وهمس كأنَّما يهمس لقلبه، راسما دائرة الإيمان على صدره: «المخلِّصة تحمينا».

قال البارون، محدِّقًا إلى السماء: «مع أنَّهم هياكل عظمية تمشي، إلا أنَّ شهيَّتهم لا تُصدَّق».

رفع يعقوب حاجبيه المشوَّهين وقال: «بل ذلك واجبٌ دينيٌّ عندهم. أكلنا. رسالة مُقدَّسة. رسالة طاهرة. وأن يفنوا البشر».

ساد الصمت.

قالت بابتيست، بعد لحظة: «فأحسب أنَّ ساني من الأفضل بينهم».

وضعت أليكس وعاءها جانبًا وقالت: «سُدت شهيَّتي».

قالت ڤيجا، وهي تخطف الوعاء وتغرف ما تبقَّى فيه: «سحرا!». ثم تابعت وهي تلوك فمها: «فهم يذهبون إلى مالطا...».

- قبرص.

- ... وسيدخلون تلك الكنيسة...

- كاتدرائية.

- ... وسيتسلَّقون برج القديس جستن...

- برج جوستين.

ثم كشفت عن أسنانها الحادَّة وقالت: «وسيمسحون بأيديهم على أجراسه، ثم ماذا؟».

قال الأخ دياز، متلعثمًا، وصوته يهمد قليلًا: «ثم... يعودون».

قطَّبت ڤيجا جبينها عبر النار وقالت: «هاه؟».

- يعودون. مغفورة ذنوبهم.

ساد صمتٌ آخر، وهم يفكِّرون في ذلك.

حدَّق البارون إلى النار، وقد بدا عليه التمنِّي وقال: «ليت توبة مصَّاصي الدماء بهذه السهولة».

الجميع خائفون دائمًا.

وتساءلت أليكس: ممَّ يخاف مصَّاص الدماء؟

ثم قررت أنَّها لا تريد أن تعرف.

16

ما الذي يمكن الاستغناء عنه

لا يدري بالثازار لِمَ يكلف نفسه عناء التماس الطريق بين البِرَك. قد ابتل خفَّاه، وكلُّ خُطوةٍ يخطوها تصدر عنها رطوبة مخنوقة. وثوبه المصنوع من الخيش الكريه قد تلطَّخ بالقذر إلى خصره. ثوب الحاج، ككثيرٍ مما تصنعه الكنيسة، لا نفع له، ولا زينة فيه، وزيادةً على ذلك ما فيه من المذلَّة، إذ يجعله يظهر كأنَّه من سائر الناس، وذاك ظنٌّ ما انفكَّ يجاهد لتغييره منذ الطفولة. وإذا ذكر حجرته المملوءة بالحلل العجيبة، وبالنجوم الخماسية المنسوجة بخيوط المعادن النفيسة -آه، والمئزر ذاك المرصَّع بالمرايا الصغيرة لطرد القوى الشيطانية- خامره حزنٌ يدعوه إلى البكاء. ومنذ أن أُدين بجرائم الإبداع، والتفكير الحرِّ، وزيادة جملة علم البشر، لم يزل يجد في نفسه ميلًا إلى البكاء لا يكاد يفارقه.

ولم يكن ليُلتفت إلى بكائه، في كلِّ حال.

أولًا: لأنَّ المسالك المتعرِّجة التي تسلقها ما يُسمَّى بالجمع المبارك كانت عامرةً بالهوات الخادعة، تستلزم يقظةً تامَّة.

وثانيًا: لأنَّ رفاقه المكرَهين من معبد الذرائع المُقدَّسة ليسوا إلا زمرةً من الأنانيين الكارهين للناس، لا يكترث أحدهم براحة غيره.

وثالثًا: لأنَّ أمطارًا خفيفة متَّصلة منذ أيَّام، هطلت فوق مسير الحُجَّاج الكئيب، ومحت كلَّ دمعة قبل أن تُرى، وأحالت الأرض الزلقة تحت أقدامهم إلى صمغ من الطين.

لم يكن مولَعًا بالمشي قطُّ. كان، إن اضطرَّ إلى مغادرة بيته، يفضل كُرسيًّا محمولًا. ولم يكن الدعاء من اهتماماته. هو يؤمن بالرب، لا شكَّ، ولكنَّه -باعتباره ساحرًا- لم يكن على وفاق معه.

ويؤمن بالمعز أيضًا، ولكنَّه لا يرغب بالتعامل معها.

فالحجُّ، إذًا، ليس إلا كدحًا. بل إنَّه، إذا ما أحصى الغناء والتصفيق، والطين، والندوب، والتفاخر المتعجرف، والنفاق الطافح، والمواعظ التي لا تنتهي، والخلائط المقيتة من الأناشيد والأناشيد الحربيَّة، والمرق المشترك الذي يُغرف من مرجلٍ لكلِّ خلق الرب، والرفقة المقلقة، المسيئة، والمقزِّزة أحيانًا، ثم الطين، الطين دومًا -إذا أحصى كلَّ ذلك- وجد أنَّ الأمر أقرب إلى حج في دروب الجحيم، لا إلى ديار السماء.

يا للمهانة! أن يجد بالثازار شام إيفام دراكسي، منارة مجتمع باعثي الموتى، نفسه محشورًا في هذا السرب من البلهاء، في هذا السير الشقي من لا مكان إلى لا مكان، في هذا المسير البائس نحو عذاب الجسد، وخيبة الروح، وفقر العقل. تناها إلى سمعه قرعُ جرسٍ حزينٍ من الأمام، ونغمتُه مكتومة تحت المطر. لعله نذير نواحٍ على آماله وأحلامه التي قُبرت.

قال يعقوب الثورني عابسًا: «فلنعجل المسير».

وقد التصق شعره الأشيب المتفرِّق برأس كالمعول، نُقشت فيه آثار الجراح، مثابرًا على أن يستخرج من كل خطوة أوجع ما فيها، ليقهرها قهر من تمرَّس بالألم.

قال بالثازار، لكن فقط حين ابتعد الفارسُ عنه ما يكفي: «عجِّل به أنت، أيُّها الأبله الذي لا يموت».

قال البارون ريكارد، وهو يميل عليه حتَّى أحسَّ بأنفاسه الباردة في هواء الجبل: «لعلك أحببت لو تخفض صوتك أكثر من ذلك. إنَّ الإلف تمشي بيننا على الأرجح. وقد قُصَّت إحدى أذنيها، ولكنها لا تفوِّت شيئًا».

قال بالثازار، وهو يحدِّق بريبةٍ إلى ما حوله: «نصيحةٌ سديدة».

بدا مصَّاص الدماء مع كل يوم، أصغر سنًّا بدرجةٍ يسيرة، وأشد رضًا عن نفسه، حتَّى غدا الآن ذا هيئة أرستقراطيَّة أقوى بدنًا، وحسن المنظر، في أوائل عقده السابع، وقد انكمشت ترهلات جلده المتدلِّية من ذي قبل، فانشدَّ الجلد حول فكٍّ نبيل، وبدأت الشعيرات السوداء تلوح في فضَّة لحيته.

- لقد أسرفتَ في شهواتك المعهودة لا ريب.

ابتسم البارون ابتسامة أسف وليست أسف الابن الفاسد إذا ضُبط مع الخادمة وقال: «أهكذا بدا لك؟».

قال بالثازار: «رأيت وخزاتٍ على أعناق بعض القوم، والناس في العادة لا يصيرون أصغر سنًّا بمرور الأيام».

قال ريكارد، وهو يخفض صوته إلى همسةٍ حريريَّة: «حسنًا، أنا مصَّاص دماء. وشرب الدماء من خصائص جنسي كما تعلم. لكنِّي أحرص، هذه الأيَّام، أن أكون حريصًا في طعامي».

وانفرجت شفتاه عن طرف نابٍ بالكاد يُرى، وأضاف: «لا آخذ إلا ما يمكن الاستغناء عنه».

قال بالثازار: «ذلك هو التبرير المعهود لكلِّ لص، وتاجر عبيد، ومحتال، ومستبد عبر التاريخ».

قال ريكارد، وهو يرنو نحو صفِّ الحُجَّاج الذين يكدحون صعودًا في الدرب المُنحدر تحتهم: «وهم، قُدوة العصور. لم أكن أتوقَّع من سيِّد في مهنتك أن يعترض على قليلٍ من... الاستغلال الانتقائي للماشية».

قال بالثازار: «ما دمتُ لا أرى أثر الأنياب في عنقي، فلم أعترض؟».

قال البارون، وهو يهزُّ كتفيه برهافة: «آه، إنِّي لا أقتات من امرئٍ عُرِّفت إليه رسميًّا دون إذنه الصريح. وكأني ألتهم حيوانًا أليفًا. بمجرَّد أن أعرف اسمك... سيبدو الأمر وقحًا».

قالت بابتيست، من فوق جدار متهدِّم، وإحدى ساقيها تتدلَّى متأرجحة: «ما زلت حيًّا إذًا؟».

رفع بصره فَرآها فوقه، قد شدَّت ثوب الحُجَّاج العفن بحزام صيدٍ عتيقٍ منحرف، وانتعلت حذاءً بركبتيه مشبَّكًا بنحاس، وعلَّقت في عنقها دوائر مُقدَّسة من معادن شتَّى، وارتدت على رأسها قبعة صنعتها من شريحة قماشٍ مشمَّع. كان المفترض أن تبدو مضحكة، ولكن ويا للحسرة، ظهرت كما لو أنَّها قطة ساحرة، فراءها لامع. لم تكن تبدو وكأنَّها تبذل جهدًا، ومع ذلك تسبق الجميع، وتصل إلى حيث تُريد، وتلك الابتسامة الساخرة لا تفارق محيَّاها، كأنَّها تذكير حيٌّ بكلِّ خيباته الأخيرة.

قال وهو يتذمَّر: «لعلَّك تأملين أني انزلقتُ إلى حتفي؟».

قالت، وهي تمدُّ إصبعًا خلف رأسها فتُقوِّم قُبَّعتها وتسوق شلَّالًا من الماء من حافَّتها على صدر ردائه: «الفتاة لا تُلام إن حَلِمت».

صرَّ بالثازار على أسنانه وهو يتحسَّس الكلمات في فمه، يبحث عمَّا يردُّ به. تبجُّحها الوقح، وتباهيها الذي لا يعرف حدًّا، وعنادها في التغنِّي بخبرتها التي لا تُضاهى... إذا ما انحلَّ عنه هذا الرباط اللعين، لعلَّمها من التجربة ما لا يُنسى. ستلقى عقابه الذي لا رأفة فيه! تأديبًا صارمًا! تأنيبًا حقيقيًّا، وهي منطرحةٌ عاجزة عند ركبته. وستلتفت إليه، من فوق كتفها، وما تزال على تلك الابتسامة الساخرة على الأغلب، وتتلظَّى شوقًا إلى مزيد، فيتلاطمان ويعضُّ أحدهما الآخر، ويخمشان كقطط

الساحرات حين تهتاج، ثم تهمس باسمه، تنطقه صحيحًا، ونفسها الحار يلهب أذنه، ثم...

تمتم وهو ينتفض: «مهلًا... ماذا؟».

حدَّقت إليه بشكٍّ: «ما الذي تعنيه بماذا؟».

صاح بصوتٍ عالٍ وقد استولى عليه الارتباك: «بل ما الذي تعنينه أنتِ بماذا؟».

ثم أسرع يصعد الدرب نحو القمَّة الزائفة التالية، قبل أن تجد بابتيست فرصةً للردِّ، راجيًا أن لا يلحظ أحدٌ تصلُّب خطاه، أو احمرار وجنتيه المفاجئ.

سيصمت. أجل. لن يبتلع الطُّعم. فليس هذا انسحابًا، بل ظفرٌ بالكرامة! ومهما اشتدَّ الاستفزاز، فإنَّ بالثازار شام إيفام دراكسي لا يعرف غير الطريق العالي! وإن قلَّما ساقه ذلك الطريق إلى موضعٍ يرغبه أحد.

تنهَّد: «مزارٌ لعينٌ آخر؟».

هذا، وقد بُني في النقطة الأشد ارتفاعًا في الممرِّ الجبليِّ، كان برجًا قصيرًا للناقوس بجوار مغارة، لعلَّها كانت معبدًا قديمًا لأربابٍ سبقوا التعاليم المنقولة عن المخلِّصة. ولك أن تقول ما شئت عن أتباع المنقذ، ولكنَّهم ملوك التطفُّل على ديار غيرهم والتظاهر بأنَّهم أصحابها. الكذب عندهم خطيئة، إلا إن كان مبالغًا فيه، مكرَّرًا بوقاحة، فعندئذٍ يُعدُّ نصًّا مقدَّسًا.

قال البارون، بصوتٍ رائق يقطر سخرية: «مزارٌ لعينٌ آخر، كنت سأدعو الرب أن يرحمنا، ولكنِّي أخشى أنَّه لا يُصغي كثيرًا لمناجاة مصَّاصي الدماء».

قال بالثازار: «وأخشى أنَّه أصم كذلك عن أصوات باعثي الموتى».

- وأخشى أنَّه أصم عن الجميع. هل ستنتظر دورك لمعاينة الآثار المُقدَّسة؟

ضحكا معًا.

فالعالم، كما هو بيِّنٌ بلا حاجةٍ إلى القول، لا يُقسم إلا إلى أعداء، ومن يمكن الاستفادة منهم. ورغم أنَّ البارون قد يكون أخطر الوحوش في هذه الرفقة المشؤومة، إلا أنَّ بالثازار تعلَّم من مسيرته الطويلة في فنون السحر أنَّ أفظع المخلوقات أنفعها حليفًا.

قال، وهو يتنهَّد بملل: «إذا ما رأى الرائي زجاجةً واحدة من الغبار المقدَّس، نادِرًا ما يؤسر برؤية غيرها».

قال البارون، وهو يرمقه بنظرةٍ ثاقبة: «ومع ذلك، أراك لم تفارق الجمع المبارك. هل أفهم من ذلك أنَّك تخلَّيت عن محاولة فكِّ قيد قداسة البابا الصغيرة؟».

رمقه بالثازار من علو وقال: «أتخلَّى؟ التخلي ليس من شأني».

ودسَّ يده في كُمِّه الممزَّق، يخفي تلك الخطوط القرمزيَّة اللعينة التي تؤذي عينيه.

- لكنِّي أُقرُّ، على مضض... أنِّي ربَّما أسأت تقدير قوَّة قيد قداستها الرضيعة.

قال البارون، وهو يضع يده على صدره بخشوعٍ متصنَّع: «التواضع من الخصال الاثنتي عشرة.

فلعلَّ حجَّنا قد بدأ يُثمر في روحك الخالدة».

قال بالثازار، وهو يتحرَّى ألا يسمعه أحد، وإن قلَّ أن يصغي إليه أحد مؤخرًا: «سأتغلَّب على هذا السحر، صدِّقني. أحتاج فقط إلى الأدوات المناسبة. كتبٍ ملائمة، وخرائط، وعناصر، وملابس مخصوصة، ودائرة سحريَّة، وما إلى ذلك. وربَّما... عصا».

قال البارون، وهو يلقي نظرة ذات معنى على العِصِي، والرموز المُقدَّسة، وأثواب الخرَق التي تملأ الجمع: «أثواب، وعصي، وخواتم سحر، حسنًا، أنت الحكيم هنا...».

قال بالثازار، بحدَّة: «ساحر».

قال البارون، متجاهلًا: «... ولكن، لا يسع المرء إلا أن يتساءل: هل ثمَّة فرقٌ فعليٌّ بين السحر والدين كما يزعم أهلوهما؟».

قال بالثازار، وهو يقطب: «الفرق هو أنَّ السحر يعمل».

قال البارون، وهو يتقدَّم نحو المغارة وقد بدأت الطوابير تتناقص: «ومع ذلك، ها نحن أمام أحد ألمع باعثي الموتى في أوروبا، ملزَمٌ بحج بفعل تعويذةٍ من البابا. لعلِّي أُلقي نظرةً على تلك الآثار، في آخر المطاف...».

17

وجبة دسمة

وضعت أليكس الفانوس على جذع شجرة، ونشرت قطعة القماش إلى جانبه، ودَفَعَت قطع الجبن والخبز حتَّى بدت منظَّمة.

مثيرٌ للشفقة، حقًّا. ليس ثمَّ إلا الجبن والخبز، لكنها مُتمرِّسةٌ في أن تجعل من الوجبة الفقيرة وجبة دسمة. قالت قداستها إنَّ عليهم أن يكونوا لطفاء، وقد بدا هذا من اللطف. ومن الأشياء التي تتمنَّى لو أنَّ أحدًا فعلها من أجلها، لو أنَّها تُركت وحدها في الغابة، ومن الأشياء التي لم يفعلها أحدٌ قطُّ من أجلها.

- بوو.

قفزت أليكس. مع أنَّها توقعتها. وربما لأنها توقعتها.

تمتمت: «في كل مرَّة ملعونة»، ووضعت يدًا على قلبها الخافق.

تقدَّمت ساني نحو الجذع، وأقول تقدمت كتعبيرٍ مُبالغ فيه. فقطة منتعلةُ خُفًا من صوف كانت ستُحدث جلبةً مقارنةً بها.

سألت أليكس: «كيف تفعلين ذلك؟».

- أُصدر صوتًا مفاجئًا في أذنك.

- لا أعني البوو، بل الاختفاء.

- أحبس أنفاسي... وأفعلها.

جلست ساني القرفصاء إلى جوار الجذع، ودفعت قلنسوتها إلى الخلف، ونظرت إلى الطعام: «وليمة».

- إنه خبز وجبن.

رسمت ساني دائرةً بأصابعها الطويلة في الهواء فوقه ونظرت له: «لكن انظري كيف رُتب».

- فقط... رتبتها.

نظرت ساني إليها، وجاء أليكس ذلك الرفيف العصبي المعتاد حين تحدِّق إليها الإلف مباشرة. قالت: «يعجبني كيف رتبتها». ثم تناولت الجبن وقضمت منه بأسنانها الأمامية.

الإلف في نوافذ الزجاج الملوَّن دومًا لهم أنياب مرعبة، وكثيرًا ما تكون مغروزة في جسد قدِّيس أو غيره، لكن أسنان ساني لم تبدو كأنها ستنهش لحم بني آدم من عظامه، بل ربما كانت بين سنيها الأماميين فجوة ذات طابعٍ طفوليٍّ.

سألت أليكس: «ما رأيك فيه؟».

- حامض.

- أهذا سيِّئ؟

- في أشياء كثيرة، نعم. لكن في الجبن، فهو ضروريٌّ.

راحت أليكس تراقبها وهي تأكل. ثمَّة شيءٌ جذَّاب في حركتها، كم هي أنيقةٌ وسريعة.

ربما من الوقاحة التحديق، لكن آداب أليكس لم تكن يومًا الأفضل، ولعلَّ ساني اعتادت نظرات الناس. ألَم تؤدِّ دورَ البطولة في عرضٍ للعجائب؟

قالت أليكس حين بدأ الصمت يأخذ ثقله: «لم يعجب بالثازار، رأى أنه دون منزلته على ما أظن. فهو يرى أغلب الأمور دون منزلته».

من المؤكَّد أنه يرى أليكس دون منزلته. فهو ينظر إليها وكأنها قذارة. لكنها قذارةً فعلًا، اسأل أيًّا كان.

قالت ساني: «سيصبح أقل انتقاءً».

- لا أظنُّ.

- إذًا سيزداد جوعًا.

- أظنُّه يُدبِّر أمرًا ما.

- الجميع يُدبِّر شيئًا ما.

- إنه يعلِّمني تاريخ طروادة.

نظرت ساني إلى أعلى. مرَّة أخرى، ذلك الرفيف.

- كيف حدث هذا؟

- سألتُ عن المكان، فعرضت بابتيست أن تحكي لي، فقال بالثازار إنه لا يحتمل سماع القصة وهي تُروى بذلك السوء. يقول إنه يعرف كل شيء عن إمبراطورية الشرق. يقول إنه يعرف كل شيء عن كل شيء. يتحدث اثنتي عشرة لغةً. هكذا يقول.

- هذا حسن.

- حقًّا؟

- يمكنكِ أن تتعلمي اثنتي عشرة طريقةً لتقولي له اذهب إلى الجحيم.

قهقهت أليكس، ثم لم تستطع أن تميِّز من وجه ساني ما إذا كانت نكتة، فخفتت ضحكتها.

- يرى يعقوب أنه ينبغي أن أعرف عن طروادة. على الأقل قليلًا. إن كنتُ سأ...

- تجلسين على عرش الأفعى؟

- هممم.

كان ذلك في أعلى قائمةٍ آخذةٍ بالنموِّ من الأمور التي لا ترغب أليكس بالتفكير فيها. مع رائحة اللحم المشوي في النُّزُل، وطريقة تدفُّق الدم من الجرح من بطن الحارس، والصوت الذي أطلقه مارسيان حين انطبقت فكَّا الذئب على رأسه...

هبَّت الريح باردة، فضمَّت أليكس ذراعيها إلى جسدها. افتقدت الدوق مايكل. بالكاد تعرفه، وكان أفضل صديق لها. جعلها تشعر كأنها قد لا تكون قذارة. أو لعلَّها لن تكون كذلك دومًا، وذلك خاطر لطيف في النفس، وإن يكن وهمًا.

قالت ساني: «لعلَّكِ تودين العودة إلى الآخرين؟».

وقفت أليكس تمسح عينيها، متظاهرةً بأن شيئًا دخلهما: «أنا أزعجكِ».

قطعت ساني قطعة خبزٍ وناولتها: «لا. ظننتُ أنني أزعجكِ. ابقي».

تناولت أليكس الخبز وجلست من جديد على الجذع: «شكرًا. كلُّ ما تفعله ڤيجا والبارون هو الشجار».

- هذا ما يفعلانه.

- وبابتيست وبالثازار يتباريان في المباهاة، فيما يعبس يعقوب في الظلمة.

- يعقوب رجلٌ طيِّب.

- حقًّا؟

- عرفتُ رجالًا أشد سوءًا، فلعلِّي أسوأ من يحكم. لكني أتوقَّع أن يعقوب قد يموت من أجلكِ. لو استطاع.

لم يُشعر هذا أليكس بأيِّ تحسُّن، قالت: «آمل ألا يضطرَّ أحدٌ إلى الموت في هذه الرحلة»، ثم همست: «خصوصًا أنا».

- الأمل لا يضرُّ.

- لكنه لا يُفيد، أليس كذلك؟

رفعت ساني حاجبيها البيضاوين وقضمت مزيدًا من الجبن بأسنانها الأمامية ذات الفجوة العجيبة والعادية في الوقت ذاته.

قالت أليكس: «المعسكر شبه خالٍ على أيِّ حال، ذهب الجميع إلى صلاة المساء في أحد الأديرة. يقولون إنه أقدس مكان في رومانيا. لديهم قائمةٌ بكل المعجزات التي حدثت هناك معلَّقةٌ على لوحٍ كبيرٍ عند الباب».

- هل فيها ما يُغري؟

هزَّت أليكس كتفيها: «لا أستطيع القول. لا أقرأ. لكني أحسن العد، وفيها الكثير. لديهم قدم القديس برثولماوس هناك، على ما يبدو. القدم التي دخل بها المدينة المُقدَّسة أوَّل مرَّة. أُعلِن هرطوقيًّا كما يبدو، لكنه عاد إلى رحمة المخلِّصة. لذا فثمَّة أملٌ للجميع. على ما يبدو».

- حتَّى الإلف؟

- حسنًا... لا، غالبًا ليس لهم. يقول الأخ دياز إن الإلف بلا أرواح، لذا... الكنيسة حقًّا... لا تُحبُّ الإلف، وهذا من تجربتي.

قالت ساني: «ومن تجربتي، لا تريدين رؤيتها؟».

هزَّت أليكس كتفيها ثانية: «ماذا؟ القدم؟ قدم الرجل الميت كغيرها، هذا ظني. ويجب أن تدفعي».

- فقط لتريها؟

- وبمالٍ أكثر تلمسين صندوقها، وبأكثر من ذلك تشربين من نبعٍ مقدَّس تفجَّر من الأرض حيث لمستها القدم.

قطبت ساني جبينها الأملس قليلًا: «تدفعين لتشربي ماءً لمسته قدمُ رجلٍ ميت؟».

- ويمنحونكِ شارةً لتلبسيها.

- ولماذا؟

هزَّت أليكس كتفيها مرَّة أخرى: «لتقولي للناس إنكِ أتقى من باقي الأوغاد، على ما أظن. الصقِ اسم قدِّيس على الشيء، وسيشتريه الحجَّاج. تجارةٌ مربحةٌ جدًّا إن وُجد السبيل إليها. احصلي على رفات جيد يُصادق عليها المفتشون البابويون، وسيرمون المال عليكِ».

- أتُعجبكِ تلك الفكرة؟

هزَّت أليكس كتفيها مرَّة أخرى: «ثمة ما هو أسوأ ليُرمى عليكِ».

سكن الصوت. وأطلقت بومة صوتها. وبدأ لغطُ المعسكر في ظلمة الليل. هبت الريحُ وحركت الأوراق.

سألت أليكس: «ألَا تشعرين... بالوحدة؟ هنا؟ وحدكِ؟».

نظرت ساني إلى السماء. في شقٍّ في الغيم يُظهر النجوم: «ولمَ أفعل؟».

- أنا لا أحبُّ الناس كثيرًا، وهم قطعًا لا يحبُّونني كثيرًا، لكن... أحتاج إليهم بطريقةٍ ما.

- ومن سأفتقد أنا؟

تأملت أليكس رفاقهم في الرحلة؛ الكاهن المتأنق، والساحر المتعجرف، ومصَّاص الدماء المدقق، والفارس الكالح، والمرأة الموشومة التي قد تُصبح في أية لحظة مجزرة تمشي على قدمين. وما إن بلغت منتصف القائمة، حتَّى كان كتفاها قد التصقا بأذنيها من شدة التردد: «أنا؟».

- لكنَّكِ هنا.

انكمشت أليكس في ثوب الحجيج الذي ترتديه. لم يكن دافئًا ولا مريحًا، لكنها اعتادت الانكماش في أسوأ منه.

قالت: «يسرُّني أننا تحدثنا».

18

طاهرة غير طاهرة

قالت ڤيجا وهي تخطو نحو النهر: «من هذا الطريق».

صاحت أليكس بصوت مبحوح وهي تسرع لتلحق بها: «حسنًا». كان عليها أن تخطو ثلاث خطوات لتقابل خطوتين من ڤيجا، لأنها ضئيلة الجسم واهنة الهيئة، ولأنها كذلك تمشي وكأنها تعتذر عن كل خطوة تخطوها.

ڤيجا لا تعتذر. قطُّ. لم تعتذر قط، حتَّى قبل العضَّة. هي تحب المشي. أن تشعر بضغط الطين على أخمص قدميها كأنها مصافحة. قال يعقوب شيئًا عن التخفي، وظنت أنه اسم شخص متسلل، لكنها لم تسمع به من قبل. التخفي مناسب لساني، تلك التي خُلقت كأنها سلك طويل، ويناسب بابتيست التي تستطيع أن تتسلل من ثقب المفتاح وهي تبتسم، يناسب حتَّى أليكس التي لا تشبه أحدًا، حتَّى لا يكاد المرء يراها وهي واقفة أمامه.

لكن ذلك لن ينجح مع ڤيجا. لم تُصنع الأقنعة بمقاسها. فدفعت بقلنسوتها إلى الخلف، ونفضت شعرها، واعتدلت في وقفتها حتَّى بلغت تمام طولها. إن أراد وغد أن يجعلها تنكمش فليحاول أن يرغمها، فلينظر كيف تكون العاقبة.

حدَّق الناس، بطبيعة الحال. يقولون على الأرجح: «تلك امرأة ضخمة». وهم محقُّون. وماذا في ذلك؟ لماذا تخجل؟ هكذا كانت تقول

أمها دومًا. إن لم تعجب الناس، فهذه مشكلتهم. لا تذق نفسك العذاب لأجلهم. دعيهم يذهبون إلى الجحيم، كانت أمها تقول دائمًا. ثمة من يتمنى لكِ العذاب، فلا تعاونيه عليه. لم يستطيعوا قط أن يكسِروا أمَّ ڤيجا، وأقسم بلحية أودين أنهم حاولوا. ولم تكسِر ڤيجا عينيها لأحد، قط. ولن تكسرهما.

قالت: «إلى الجحيم بهم».

سألت أليكس: «من؟».

قالت ڤيجا وقد نسيت أنها معها: «الكل. إلى الجحيم بهم. تلك هي... ما الكلمة؟».

- فلسفتك؟

قالت ڤيجا: «شعاري»، ثم قطَّبت جبينها. أحسَّت بالعطش. فنقرت بإصبعها على عظم صدرها. بدا العطش شيئًا حيًّا تحت الجلد، ينهش ويلحُّ.

- أريد أن أشرب.

قالت أليكس وهي تسرع من جديد: «لقد شربتِ تَوًّا. شربتِ كل الماء الذي معنا».

قالت ڤيجا: «ذاك كان قبلًا». لا تفكر ڤيجا في الماضي كثيرًا. الماضي مثل قشور الجوز. إذا قشرتها فما حاجتك إليها؟ ارمِها وتابع المسير. لِمَ تخزِّنها؟ ذاكرتها ضعيفة، واستجلاء أي ذكرى أبعد من أسبوع يرهقها كأنها تُفلح في أرض قاحلة. يا له من ملل. ما كانت لتطيقه. لم تملك صبرًا قط، حتَّى قبل العضَّة.

لماذا تعذِّب نفسها؟ كانت أمها تقول لها. ربما قالت ذلك وهي تبتسم وتجدل شعر ڤيجا. ذكراها جعلت ڤيجا تبتسم. جعلتها ترفع أصابعها إلى شعرها، تحاول تذكر كيف كان الإحساس. الشدُّ في فروة رأسها.

الإحساس بالعناية. صياح النوارس في الرصيف، ورائحة السمك. ألم تكن قد قالت إنها لا تفكر في الماضي؟ ها هي الآن تغوص فيه من جديد. ربما هي تتذكَّر على الدوام ثم تنسى أنها تذكَّرت. قطَّبت جبينها ثانية. لقد اختلط عليها الأمر.

قالت أليكس: «هل أنتِ بخير؟».

- ولماذا لا أكون؟

- ولِمَ توقفنا؟

تابعت ڤيجا السير. فهي تحبُّ المشي: «آه. أجل، عمَّ كنت أتكلم؟».

- ما كنتِ تقولين شيئًا.

- آه. أجل. هل كنتُ أفكر بشيء؟

- كيف لي أن أعلم؟

- آه. أجل. أليس الطقس حار؟

- ليس كثيرًا.

ومسحت ڤيجا العرق من النقرة عند أسفل عنقها: «أه» كان يتجمَّع دومًا هناك، لسببٍ ما.

- أنا عطشى.

- سبق وقلتِ ذلك.

- حقًّا؟ ينبغي أن نجلب ماء.

- هذا... ما نفعله أصلًا.

- آه! إذًا النهر. حسنٌ، ممتاز. ينبغي أن نأخذ دلوًا.

رفعت أليكس حاجبيها، ودارت بعينيها إلى أسفل، فتتبعتها ڤيجا ببصرها.

كان الدلو في يدها: «آه».

- يعقوب أعطانا إياه.

- بلى، فعل. يعقوب رجل عملي جدًّا.

وقد حرص على أن يعرِّي جميع الجثث في النُّزُل من النقود والخواتم وما إلى ذلك، ليتمكَّنوا من شراء الطعام والأغطية وسائر الحاجات الآن. ليس كأن ڤيجا تحتاج إلى أغطية. فهي ساخنة الطبع. ساخنة كأنها بوتقة بروكَّر وإيتري. لم يُخلق طقسٌ يجعلها تشعر بالبرد. ولعلها تترك تلك الغنيمة وتنساه وتمضي. أحسن يعقوب فيما فعل. هو بارع في التفاصيل. أما ڤيجا، فهي أسوأ الخلق في ذلك. لطالما كانت كذلك، حتَّى قبل العضة.

هكذا كانت أمها تقول: «أنتِ فاشلة في التفاصيل يا ڤيجا».

قالت: «جيد. المال يُسهِّل الأمور. لا يمكنك شراء شيء من دونه. من دونه تُدان ثم تغرق».

قالت أليكس: «صدقيني، أعلم. تركت خلفي بعض الديون، في الواقع».

قالت ڤيجا: «أحتاج إلى التبوُّل».

ثم رفعت رداءها الغبي، خطت خطوةً خارج الطريق، وجثت فوق العشب.

رمشت أليكس وقالت: «أنت ستـ...».

وقد بدأت ڤيجا بالفعل تسحب بنطالها إلى أسفل.

- بالطبع ستفعلين.

وقف حاجَّان يسيران صوب النهر، يتطلَّعان إليها.

صاحت ڤيجا: «صباح الخير!»، لكنهما أسرعا الخُطى.

- ما الذي علق في مؤخراتهم؟

قالت أليكس وهي تحكُّ مؤخر رأسها: «لا أعلم. لعلَّك أنتِ...».

- و... ها نحن ذا. ها! لا تقفي أسفل منِّي، ستُجرفين بطوفانٍ عارم! كما حين قتل بنو بور العملاق يمير! كأنَّه نهرٌ هادر هنا.

قالت أليكس وهي تحدِّق إلى الأفق: «نعم. إنه نبعٌ حقيقي. كل ذاك الشرب خرج أخيرًا».

قالت ڤيجا: «كنت أعلم أنه سيفعل!».

ثم نفضت قطراتها الأخيرة، وهزَّت مؤخرتها، ورفعت بنطالها، وانطلقت، تاركة أليكس تقفز خلفها محاولة اللحاق. فما جدوى البقاء؟

قالت أليكس: «نسيتِ الدلو!».

قالت ڤيجا: «لكن انظري، هو في يدك».

ثم صفعتها على ظهرها صفعة كادت تطرحها أرضًا، واضطُرَّت إلى أن تمسك كتفيها لتنتشلها وتقيمها من جديد. أوصتها البابا أن تعتني بالأميرة أليكسيًّا، ولكم أحبت ڤيجا البابا. يا لها من مضحكة! كانا يتحدثان عن هذا وذاك. وغالبًا ما تكون ڤيجا في قفص حينها، لكنها في قفص معظم الوقت، واضطرت إلى قبول أن لذلك أسبابًا وجيهة.

ڤيجا والبابا تفهمان بعضهما. كلاهما يفتقد أمَّه، لعلَّ هذا هو السبب.

قالت قداستها: «اعتني بالأميرة أليكسيًّا»، فقررت ڤيجا أن تُحبَّها.

كان هالفدان يقول: «إنِ اضطررتَ إلى رعايةِ أحدٍ، فما الفائدةُ من كراهيتِه؟ هذا يجعلُ كلَّ شيءٍ عذابًا لا طائلَ منه. والحياةُ عذابٌ كافٍ». قبل أن تقتله.

وكان أولاف يقول: «لا تنظري إلى الأمام»، قبل أن تقتله أيضًا. أو لعلَّها قتلته أوَّلًا؟ فاتها ترتيبُ الأحداث. ولعلَّ الأفضلَ ألَّا تنظرَ كثيرًا إلى الوراء أيضًا. خاصَّةً إن كانت ذاكرتُك مثلَ ذاكرةِ ڤيجا، ضعيفةً، متخمةً بالقذارة.

النَّفَسُ التالي، والخطوةُ التالية، والوجبةُ التالية، والمضاجعةُ التالية. خُذْ ما تستطيع من اللحظات، ثم دعْها تمضي. لا تَكنِزْ قشورَ الجوز. سِرْ خفيفًا، خفيفًا كالريح. اكشطْ عنك طينَ الضغائنِ والنَّدم. كُنْ نقيًّا.

قالت أليكس: «ڤيجا؟».

وأدركت ڤيجا أنَّها توقَّفت من جديد، واقفةً هناك، تُحدِّق إلى التراب.

- هاه؟

قالت أليكس وهي تتلفَّت حولها: «لا ينبغي أن... نجذبَ الانتباه».

قالت ڤيجا: «لا يدَ لي في كوني امرأةً آسرةً».

قالت أليكس: «قال يعقوب...».

قالت ڤيجا وهي تمضي: «يعقوب لا بأسَ به. يمكنكِ الوثوقُ به. كلُّ العهودِ وما إلى ذلك. هو كالصخر. لا لينَ فيه، لكنَّه رجلٌ يفي بما يقولُ إنَّه سيفعل. ماضٍ دمويٌّ وما شابه، طبعًا، لكنَّنا لسنا هنا من أجل فضائلِنا. إلَّا ذاك الأخ... نسيتُ اسمَه».

- دياز.

قالت ڤيجا: «أهكذا يُدعى؟ الرهبانُ يُحبُّون الفضيلة. أو يُحبُّون التظاهرَ بالفضيلة. أو يُحبُّون أن يتظاهرَ الناسُ بأنَّهم فاضلون».

ثم توقَّفت لتزمجرَ الكلمات: «لكن إلى الجحيمِ بذلك الحثالةِ ريكارد! له رائحةٌ قذرةٌ بحقٍّ! هل تشمِّينها؟ تلك الرائحةُ الملعونة! ميتةٌ وخطأٌ ودمٌ عفن!».

ثم أدركت أنَّها تقف فوق أليكس، تبصقُ في وجهها، فتراجعت خطوةً، وحاولت الابتسام، وكان عسيرًا مع ذاك النبضِ المتورِّم، وتلك الحكَّةِ الخشنةِ تحتَ عظمِ صدرها.

قالت: «لكن، كما تعلمين، لكِ أن تكرهي زميلَكِ في السفينة، ومع ذلك تجدفانِ معًا في ذات الاتجاه».

ثم أخذت الدلو من يدِ أليكس المرتخية، ومضت من جديد نحو النهر.

فكَّرت، هكذا كان إيريك يقول. هل قتلته؟ أم كان من أولئك الذين أفلتوا؟ صعبُ التذكُّر. كلُّ ذلك في ضباب، لمحاتٌ وهمساتٌ وفتاتُ

صور. خُذْ نفسًا، وافتحْ كفَّك، ودعِ الأخطاءَ تتساقط كقشورِ الجوز و... ها أنتَ، طاهر.

قالت ڤيجا وهي تُلقي بذراعِها حول كتفي أليكس وتضحك: «ثم انظري إليَّ، كم من شخصٍ قتلتُ؟ أعدادًا كثيرة. تخيَّليهم مكدَّسينَ في تلٍّ، في جبلٍ، سيحجبُ الشمس».

ثم ضحكت ثانيةً، لكنها سمعت ضحكتها تتشقَّق، كأنَّها على وشك أن تنقلبَ صراخًا في أيَّة لحظة.

خافت أنَّ الذئبة قد استيقظت. أحسَّت بخُطاها الرقيقةِ تقرع فوق أضلاعها، ذهابًا وإيابًا، تتسلَّل وتزمجر، وتئنُّ كي يُطلقَ سراحُها.

قالت: «ما فائدةُ العدِّ، بعد وقتٍ من الزمن؟ حين يغمرُ الدمُ رأسَك، ما الفرق؟».

ثم شعرت بالدموع تُدغدغ عينيها، فمسحتهما، ثم ضحكت من جديد، وضحكتها هذه المرَّة أبرع. عليكِ أن تضحكي وتدعي الأمورَ تمضي. كقشورِ جوز. تظاهري بأنَّك طاهرة.

وها هي ضفةُ النهر، والأشجارُ تحت الشمس على الضفة الأخرى، والضوءُ يتلألأ على الماء، والذبابُ الصغير يطفو في بردِ الصباحِ المشمس، فأخذت ڤيجا نفسًا طويلًا، حادًّا من أنفها، وزفرته ببطء، فلم يكن الحالُ سيئًا جدًّا.

وإلى أسفل مجرى النهر، تجمعت حلقةٌ من النساء في الضحل، جميعُهُنَّ يُواجهنَ الخارجَ بثيابٍ مبللةٍ، وواحدةٌ أو اثنتان تغتسلانِ في الوسط، مستتراتٍ عن النظر.

نطحت ڤيجا أليكس بكوعها وقالت: «انظري إلى هؤلاء، بربِّكِ».

ثم صاحت بهنَّ: «أليس الربُّ من خلقَ عوراتِكن؟ هو يعلمُ ما تحت تلك الثيابِ، ولنا نحن أن نخمِّن!».

ثم ألقت الدلو، وبدأت تخلعُ رداءها.

قالت: «سأريهنَّ كيف يغتسلن».

قالت أليكس وهي تُحدِّق إلى يدي ڤيجا: «لكن سيراكِ الجميع، كما تعلمين...».

أدارت ڤيجا يديها، فرأت العلاماتِ على ظهريهما.

قالت: «آه. التحذيرات».

من الصعب أن تشعرَ بالطهارة، حين يُنقش إثمُك في لحمك. تحذيراتٌ للعالم عنك، إلى الأبد. قُيِّدت، وأخرجوا الذئبَ منها بالحديدِ المحمَّى. أحسَّت به يخمش ويعضُّ داخل قفصِ أضلاعها، دائمَ التهيُّج، دائمَ الوخز. أغمضت عينيها بإحكام، وحاولت أن تتنفَّس. لقد انقضى. لقد وهي طُهِّرت. لا حاجةَ إلى الأسف. حرَّكت يديها قليلًا، ووضعتهما حيث لا ترى ما كُتب على ظهريهما.

قالت أليكس: «أأنتِ بخير؟».

- بخير. بخير. أنا طاهرة.

- أنتِ ماذا؟

- مثل قشورِ الجوز.

- ماذا؟

وزمجرت ڤيجا، تبصقُ مع الكلمات: «قشورِ الجوز، بحقِّ الجحيم! أما تسمعين؟!».

ثم أبصرت كفَّيها وقد ارتفعتا كأنَّهما ستختطفانِ أليكس وتمزِّقانِ لحمَها. والشعرُ على ظهرِ يديها الموشومتين، والأوتارُ بارزةٌ، ورؤوسُ المخالبِ تندفع من تحت أظفارها. فأخفتهما خلفَ ظهرِها، إذ كانت أليكس شاحبةً، ومن ذا يلومُها؟

قالت ڤيجا: «آسفة. آسفةٌ جدًّا لأنني صرخت. يا لِقلَّةِ أدبي».

ثم ابتسمت نوعًا ما، وبكت في آنٍ واحد.

قالت: «أمِّي كانت لتشعرَ بخيبةٍ عظيمة».

ثم مسَّت خدَّ أليكس بيدِها، ولم تكن سوى يدِ بشرٍ عاديَّة، أظفارُها مقضومةٌ قليلًا، وإن غضضت البصر عن النقوشِ والوشوم، كانت غاية في الرقة.

مسحت ڤيجا على شعرِ أليكس، وسحبت ورقةً من بين خصلاتِها. وقد بدت أليكس مذعورةً في أثناء ذلك، لكن لا بأس، إذ بدا أنَّ واحدةً منهما على الأقلِّ قد شعرت بتحسُّن.

قالت ڤيجا: «تعجبينني يا أليكس».

قالت أليكس: «لماذا؟».

بدا سؤالُها غريبًا، وفيه شيءٌ من الحزن، ولكن من يدري لِمَ يتفوَّه الناسُ بما يتفوَّهون؟

قالت ڤيجا: «لا أدري. لعلَّكِ تُكثرين السباب؟ على أيَّة حالٍ، إليكِ الأمر».

وحاولت أن تبتسم، لكنَّه كان صعبًا.

قالت: «قد يأتي يومٌ أقول لكِ فيه اهربي منِّي».

ثم أخذت نَفَسًا، لكنها شعرت أنَّ الذئبة انتفخت في صدرِها فلم تدعْ حيِّزًا للنَّفَس.

- وإن قلتُ اهربي، فعليكِ أن تهربي. أفهمتِ؟ لا تُجادلي. لا تتلكَّئي. لأنَّ رباطَ البابا يُقيِّدني... لا الذئبة. اهربي، وربَّما عليكِ أن تصعدي شجرةً؟ أو تركبي حصانًا وتفِرِّي بعيدًا. أو تقفزي في بئرٍ.

- في بئرٍ؟

- نعم. فكرةٌ جيِّدة.

ثم أخذت نفسًا آخر، وقد مُلئ صدرُها كاملًا. أي أنَّ الذئبة تقلَّصت، ذبلت، وتلاشت.

قالت: «فيوه».

حكَّت عنقها، وربَّتت على عظمِ صدرها، وحرَّكت كتفيها.

- حسنًا، حسنًا.

ثم أخذت نفسًا آخر.

قالت: «أنا طاهرة».

غير بعيد من الضفة، بدل رجل عجلة عربته، جاثيًا على ركبة واحدة إلى جانبها، وهو رافع قلنسوة الحاجِّ، وشَعره داكن من العرق، وأكمامه مطويَّة إلى الأعلى، والعضلات تتلوى في ساعديه وهو يعالج المحور. ما كان أحد ليصفه بالوسامة، لكن أحدًا لم يصف ڤيجا بالوسامة قطُّ، ولم يكن الأمر وسامة أصلًا.

وماذا كان إذًا؟ بل هو الاختلاف دومًا، وليس ما تتوقَّعه. شيءٌ في هيئة جلوسه المريحة هناك، في نظرته إلى العجلة التي يجب أن تُغيَّر، كأنها العالم بأسره. شيءٌ في ذلك السكون، في تلك الأناة، جعل ڤيجا تشعر بالدغدغة.

فدفعت لسانها إلى أسنانها، وأصدرت زمجرة من حلقها، وأخذت تفكِّر في المضي إليه.

فكَّرت كيف ستتحوَّل الدغدغة إلى حكة، والحكة ستحتاج إلى حك.

ليس الزمان ولا المكان، هذا ما كان يعقوب ليقوله. لكنه مخطئ. الزمان هو الآن، والمكان هو هنا. يجب أن يكونا كذلك. انتزع ما تقدر عليه من العالم حين يُعرض عليك، فإننا جميعًا لحم، وغبار، مكتوبون على الرمل، نمحى في ومضة. لا يمكنك أن تدَّخره للغد، فلن تتفتَّح آمالك فجأة في الغد، بل سيكون الغد مثل اليوم تمامًا.

ليس الزمان ولا المكان.

خطت ڤيجا خطوة نحو الرجل الذي يبدل العجلة، وأحسَّت بيدٍ تقبض على معصمها.

قالت أليكس: «ڤيجا؟».

قالت ڤيجا وهي تدير رأسها: «هاه؟».

ثم نظرت حولها، وقد نسيت أن أليكس هناك. استغرقها الأمر لحظةً لتتذكَّر من هي.

قالت: «أوه. أجل. الأميرة. من كان ليظن؟».

قالت أليكس، وقد نفخت خديها: «لست أنا بحقِّ الجحيم، إلى أين أنت ذاهبة؟».

قالت ڤيجا: «لا مكان».

ثم هزَّت نفسها، وأزاحت الدغدغة عنها.

قالت: «ليس الزمان ولا المكان، أليس كذلك؟ آه! النهر».

كانت تحب السباحة! لطالما أحببتها، حتَّى قبل العضة.

ماء في شعرك وما إلى ذلك. فمضت تهبط إلى ضفة النهر، واقتحمته بملابسها، وأحسَّت بقبلة الماء الباردة الرائعة، فشربت منه، ثم بصقته نافورة صغيرة، وضحكت، ورشَّت الماء، وضحكت مرَّة أخرى.

قالت أليكس من على الضفة: «الدلو!».

قالت ڤيجا: «الدلو؟».

ورأته يطفو مبتعدًا على التيار. لا بُدَّ أن أحدهم أفلتَه. يا للإهمال. ثم وقفت في النهر، والماء يتدفَّق من ثيابها المشبعة. وكانت في حيرة من أمرها من جديد.

- ما الذي كنت أقوله؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

19

المزيد عن تلك الزلابية

إلى أمّي العزيزة،

ما زلت أذكر تلك الأمسيات الطويلة التي قضيناها معًا نتحدَّث عن حجك إلى كاتدرائية القديسة جوستين المتفائلة، إذ تركتني حينها لستة أشهر في رعاية وصيفتك وسائس خيلك. فتخيَّلي مدى سروري، بعد سنوات، إذ وجدت نفسي أعيد خطاك، برفقة شخصيةٍ ليست أقل شأنًا من تلك اللاهوتيَّة الفذَّة، والمحسنة المشهورة، سيادة الأسقف أبولونيا من آتشي!

أعترف أنَّ عظماء القوم الذين قابلتهم مؤخرًا لم يكونوا كلهم على قدر سمعتهم، غير أنني واثقٌ بأنكِ ستُعجبين بسيادتها. فهي في نظري النموذج الأمثل لخادمة الربِّ، لا تكتفي بالوعظ البليغ، بل تطبِّق بثبات كلَّ الفضائل الاثنتي عشرة، بل واسمحي لي بالقول، أكثر من ذلك بكثير. لقد طلبت منِّي، في عدَّة مناسبات، أن أُشارك في عظاتها الإصلاحية الثلاث اليومية، والتي تُلقيها من منبرٍ متنقِّل، ابتكار مذهل بحق، يا له من وقت أعيشه!

أصلّي للمخلِّصة ولقديستنا بياتريكس ليمنحاني القوَّة لأقتدي بمثالها، وأظنني سأحتاج إلى تلك القوَّة في الأيام القادمة، إذ إنَّنا قد بلغنا البندقية الآن و...

توقَّف الأخ دياز، وقلمه معلَّق فوق الورقة، وحدَّق نحو المدينة. كان النهر قد انبسط على السهل، وانقسم إلى مئة قناة، يتهادى ببطء بين ألف جزيرة، كلُّها مكلَّلة بأسقف حمراء، موصولة بجسور من حجرٍ مهيب وخشبٍ مضطرب. استطاع أن يميز تفرعات الأرصفة المعوجَّة في الموانئ المزدحمة، وغابة الصواري المتمايلة فوق السفن الراسية، وقمم الكنائس الدقيقة، والبرج الأبيض لكنيسة القديس مايكل.

وحين تسري الريح المالحة، كان يسمع صوت المدينة. دمدمة بعيدة للتجارة والصناعة تعلو فوق صراخ النوارس الغاضبة. تمخر القوارب البحيرة الفسيحة. وتترك نقاط صغيرة في البعد خطوطًا بيضاء فوق الماء الأزرق، تحت السماء الزرقاء.

تساءل عن الركَّاب، إلى أي مرافئ هم ماضون؟ ليسوا أميرات في طريقهن إلى طروادة برفقة، لكنهم وحوش، هذا مؤكد. زفر تنهيدةً ملؤها التحمُّل. داخلٌ من الأنف، خارجٌ من الفم. كما علَّمته أمُّه.

قالت الأميرة أليكسيًّا، واقفة فوق التل، يداها على خصرها، وشعرها ذو اللون الباهت يرفرف حول قلنسوة الحجيج في النسيم: «تلك إذًا البندقية؟».

- إلَّا إذا كنَّا قد ضللنا الطريق تمامًا.

وتفكَّر في أنه بالفعل قد ضل الطريق تمامًا.

- جميلة.

- على نحوٍ مفاجئ، بالنظر إلى سمعتها السيئة.

- أظن أن الأمور ليست دومًا كما تبدو.

- بدأتُ أدرك ذلك.

- إلى من تكتب الرسالة؟

تردَّد الأخ دياز في الكذب، لكنه لم يكن يومًا بارعًا فيه، حتَّى في أيام شبابه الطائش، حين اضطر إليه كثيرًا.

- إلى أمِّي. أعترف أنني لم أذكر كلَّ التفاصيل.

- أشكُّ في أن أحدًا سيصدقك. لا أحد أعرفه قد يصدق ما جرى.

ثم هدرت بضحكة خالية من كلِّ ملوكيَّة.

- الأميرة أليكسيًّا.

- ينبغي لك أن تكتبي وتُخبريهم.

- لا أحد يريد أن يسمع عنِّي. حتَّى لو أنهم يعرفون القراءة. حتَّى لو أني أعرف الكتابة.

- ألم تتعلَّمي؟

- ومن كان ليعلِّمني؟

- أنا أستطيع.

وتبادلا النظرات، كلٌّ منهما مندهش من عرضه.

- أنا... كنت أمين مكتبة، في النهاية، ومن يُفترض بها -لو حالفها الحظ- أن تصير إمبراطورة طروادة، ينبغي لها على الأرجح أن تعرف الحروف؟

فعبست في وجهه بريبة معتادة.

- أنا هنا، وأنتِ هنا.

ثم ألقى نظرة نحو الطريق، حيث بدأت الشموع التي تعلو منبر الوعظ المحمول تتمايل في الأفق.

- لدينا بعض الوقت قبل أن تلحق بنا الجماعة المباركة. لمَ لا نُحسن استغلاله.

وبحذر فأر يقترب من فخٍّ، جلست أليكس على الصخرة إلى جانبه. فسحب ورقة من حقيبته، ومدَّ لها القلم.

- أمسكيه برفق، دعيه يستند إلى إصبعك الوسطى، هكذا. ممتاز. اغمسيها في الحبر، ليس عميقًا، بالضبط. ارسِمي خطًّا مائلًا، نعم، ثم آخر، حتَّى يتلاقيا، كقمة جبل. لا بأس، الكل يبقع في البداية. الآن خطٌّ ثالث يصل بين الاثنين، في منتصف الطريق، بشكل أفقي، نعم، وهكذا... لقد صنعت أول حرف من اسمك، أليكس.

نظرت إليه، ثم إلى الورقة، ثم قهقهت ضحكة صغيرة فيها أنوثة طفولية.

- هكذا بسهولة؟

- ليست سحرًا.

- لكنها تبدو سحرًا.

فأعادت غمس القلم في الحبر، وشرعت تحاول من جديد، ولسانها ملتصق بأسنانها من شدة التركيز، فابتسم الأخ دياز. بدت صغيرة جدًّا فجأة، وتحتاج إلى التوجيه، فشعر بسعادة غريبة لأنه قادر على منحه. وتساءل متى كانت آخر مرَّة شعر فيها بأنه نافع؟ تساءل هل سبق أن شعر بذلك أصلًا؟

- ألم تستطيعي أن تُبقِي ساقيكِ مطبقتين ليومٍ واحد؟

ولا مجال للخطأ في تمييز أغلظ صوت بين الخلق. ذاك يعقوب الثورني يعرج مع ڤيجا وبالثزار، ثلاثي غريب من الحجاج بحق.

قالت ڤيجا، بكلِّ فخر: «لم أستطع. حين يراودني الهوى، تنفتحان. عندي رغبات، وأرفض أن أستحي منها».

تحرَّك الأخ دياز في مجلسه بقلق. فليرحمه الرب، فله شهواتٌ أيضًا.

شهواتٌ كان يظنُّ أنه دفنها في جوِّ الدير الكئيب، لكنها لم تكن إلا مخنوقة، وها هي تبدأ في الاستيقاظ، أشد حِدَّة بعد سباتها الطويل. والبارحة، حلم بشيءٍ قويٍّ موشوم، واستيقظ بتأجج رهيب.

قال بالثازار: «العار لا يؤثِّر في عمودٍ من خشب، البندقية؟».

فمدَّت أليكس القلم للأخ دياز وقالت: «أجل البندقية، ما الذي حدث؟».

رفع بالثازار الصليب المقدَّس الذي يعلِّقه الأخ دياز في عنقه، وأدخل إصبعين في دائرته، بإيماءةٍ أبلغ من أيِّ كلام.

- مستذئبتنا كانت... تفعل ما تفعله المستذئبة.

قال الأخ دياز، وهو ينتزع الصليب من قبضته، غاضبًا، قطعًا ليس غيورًا ولا مُثارًا: «مرة أخرى؟!».

فأخذ يعقوب يفرك جسر أنفه الأعوج بتعب وقال: «هذا الشخص الذي...».

قالت ڤيجا وهي تومئ برأسها إلى الطريق خلفها: «أناس من مؤخرة الركب. أكثر متعة من هؤلاء الحمقى في المقدِّمة».

قالت بابتيست، وهي تقترب تمشي الهوينى: «البندقية؟».

وقد رفعت كُمَّي رداء الحجِّ إلى الأعلى، لتُظهر مجموعة أساور متدلِّية. وشكك الأخ دياز أنها كسبتها بالمقامرة، لكنه ما كان ليُفاجأ لو أن السرقة أو القتل قد لعبا دورًا أيضًا.

- البندقية.

رفعت أليكس الورقة في زهو: «كتبت حرف».

- وهو بديع. ماذا فعلت ڤيجا؟

- ما تفعله ڤيجا.

سألت بابتيست بصوت فيه إعجاب: «مرة أخرى؟».

وأشار يعقوب بكفِّه نحو ڤيجا، وقد انحلَّ ثوب الحج عن صدرها وعاتقها، كاشفًا عن تعاويذ منقوشة على عظام الترقوة وما دونها من الصدر: «هؤلاء الناس رأوا... كل هذا؟».

زمَّت ڤيجا شفتيها وقالت لم يكن الظلام قد حلَّ، وكل هذا يترك أثرًا عليهم».

هو لاريب يترك أثرًا في عضو الأخ دياز، فاضطر إلى أن يحوِّل كيسه إلى حجره ويتلفَّت يمنة ويسرة لئلا يُلحَظ ما تحرك. بيدَ أنَّ الأذن لا تصرف كما يُصرف البصر.

- دعوني أقصُّ عليكم القصة.

بصوت فيه حدة قال: «وهل هو لائق أن تسمع أليكس هذه القصة؟». وكان في الحقيقة خائف على روحه هو من هذه القصة.

وضعت بابتيست يديها في هيئة التقوى وقالت: «وكيف يختار المرء حياة الفضيلة إن لم يطَّلع على ما سواها؟».

لوَّحت أليكس بيدها وقالت: «نشأت في الشوارع. لن يصدمني هذا».

طقطقت ڤيجا مفاصل أصابعها الموشومة وقالت: «لا تعوِّلي على ذلك، تبًّا. أول من وقعت عليه عيناي ذاك الطويل، لكن شيئًا في نفسي رغب بالقصير...».

- صباح الخير، يا أخ لوپيز!

- سماحتكم!

قفز الأخ دياز شاكرًا ربَّه على المقاطعة، وإن خشيَ أن تبقى الصور في ذهنه طوال يومه.

أشرق وجه الأسقف أبولُّونيا بتلك الابتسامة المتواضعة، تلك التي عقد الأخ دياز النية أن يتدرَّب عليها متى رُزق مرآة، وقالت: «دعك من

الألقاب. إنَّها لا تليق بكاتدرائية آتشي، فكيف بهذا البرِّ، حيث كلنا إخوة في الإيمان، نجاهد لننجو بأرواحنا».

ضحك ضحكة قلقة وهو يزجُّ بأدوات الكتابة إلى داخل الكيس ويجذب الأسقف بعيدًا عن القصَّة الماجنة التي استرسلت ڤيجا فيها، وقال: «كلام رفيع، كعادتك دائمًا».

- مثلما هو رأيي فيك يا بني.

ومضت نحو المنبر المحمول، وكان الحرس منهمكين بفكِّه حتَّى ترعى الخيل قرب الطريق.

- كنت آمل أن تعينني على قيادة جماعتنا المباركة في صلاة الظهيرة. خطر ببالي وعظ المخلِّصة عن الفضائل الاثنتي عشرة.

- وإني لأتمنى ذلك اليوم وكل يوم، لكني، مع كل أسى، مضطر أنا ورفقتي إلى ترك الجماعة المباركة في هذا الموضع.

ليرتدَّ عن سبيل الخلاص، وينزلق مع الشياطين في دروب لا يُعلم غورها من الفجور.

قال: «ثمة أمر جلل، بل مهم، يدعونا للمغادرة».

قالت: «ما طرقنا بابًا إلا ووجدنا الواجب واقفًا خلفه. تمضون ومباركتي معكم».

ثم أردفت والأسى في تقاطيعها: «جميعكم، إلا واحدًا».

سأل: «ماذا تقصدين؟».

قالت: «لا بدَّ للأميرة أليكسيا پايروجينيتوس أن ترافقني».

أحسَّ الأخ دياز بأن الدم انسحب من وجهه، ونظر نحو أليكس، التي اختارت تلك اللحظة البائسة لتطلق ضحكة حادَّة رفيعة. ولحسن الحظ، فإن ما كان قد تأجج قد خمد.

قال: «أنا... لكن... هي... أميرة؟».

تنهدت الأسقف وقالت: «بربك؟».

وانتبه الأخ دياز إلى أن حرَّاسها الستة المسلحين قد أحاطوا بهم من كل صوب، أو قل إنهم كانوا يغلقون الدائرة.

- سماحتكم...

- أسقف أبولُّونيا فحسب، رجاءً.

مدَّ الأخ دياز يده مستعطفًا وهو يتراجع نحو أصحابه، تلك اليد ذاتها التي أخفقت تمامًا في كبح المذبحة التي وقعت في الحانة، وقال: «أتوسَّل إليك، باسم المخلِّصة، ألا يكون في الأمر عنف».

قالت الأسقف في لطف: «وهذا ما أعرضه عليك بالضبط، يا أخ لوپيز... أو لعلي أقول دياز».

همس: «يا إلهي».

وكان بدأ يظن أنه ليس أحسن الناس فراسة.

قطَّب يعقوب جبينه وقال: «ما الذي يحدث؟».

- الأسقف أبولُّونيا... ترغب أن تبقى أليكس معها.

ثم ساد سكون مطبق.

اعتدلت ڤيجا، وقد ضاقت عيناها. شحبت أليكس، واتسعت حدقتاها. وأما يعقوب، فقلَّ من كان ليلاحظ عليه تبدُّلًا، لكنَّ الأخ دياز، وقد صحبه في أسوأ أسابيع عمره، لمح تلك الفروق الطفيفة في تقطيبة جبينه التي تنبئ بسخط عظيم.

- وهذا لن يحدث.

ورفع طرف ردائه كاشفًا عن مقبض سيف دامٍ متآكل.

قالت الأسقف: «أخشى أني أصرُّ».

أنزل رجالها الرماح، ووضعوا أيديهم بقفازاتها على مقابض السيوف، وأشاروا بقوسٍ مشدود شرير، وكل الأقواس شريرة إذا وُجِّهت نحوك.

رفع الأخ دياز كفَّه الأخرى وقال: «أرجوكم...».

كأنَّ راحتيه الخاليتين من الحديد تستطيعان منع الآخرين من ملئهما به.

- من معي خطيرون جدًّا.

قالت الأسقف: «لي صحبة خطيرة بدوري». وكان نفر من أهل مؤخِّرة القافلة قد اقتربوا من الجهة الأخرى، رثِّي الهيئة، منحنين، بخلاف هيئة حرس الأسقف المهيبة.

بينهم مرابٍ، وثلاثة من القوَّادين، ورجل أجرب ذو دُمَّلة عظيمة في وجهه، يكسب قوت يومه بتقطيع الحطب للموقدات عند المساء. وفي الطليعة اثنان من صعاليك المرابي، أحدهما طويل القامة، والآخر قصير للغاية.

قالت ڤيجا مبتسمة: «أوه، أتريدان المزيد؟».

قالت بابتيست: «أحسبهم جاءوا لصنف آخر من التدافع والتمرُّغ».

قالت الأسقف: «ينبغي أن تعلموا أنَّ مكافأة عظيمة قد وُعِدت بها. من قِبَل الدوق قسطنطين الطروادي».

همست أليكس، مختبئة خلف ذراع ڤيجا: «واحد من أبناء خالتي اللعينين».

حدَّق الأخ دياز إلى الأسقف: «مال؟ أين إيمانك؟». امرأة ظنها، حتَّى لحظات خلت، مرشحة للقداسة في المستقبل.

أومأت برأسها نحو المجرمين المنتشرين حولهم وقالت: «قد لا يصحب الذهب المرء إلى الجنة، لكنه يصنع فرقًا عظيمًا في حياة هؤلاء الرجال ما داموا على الأرض. أما أنا، فدوافعي أرقى من هذا بكثير. فقد

وعدني الدوق قسطنطين بآثار من أعظم الآثار شأنًا، محفوظة الآن في كاتدرائية الزيارة الملائكية في طروادة. شظية من العجلة التي ماتت عليها المخلِّصة. قطعة من ردائها. خصلة من شعرها».

وضعت يدها على الدائرة المُقدَّسة التي تتدلَّى على صدرها، ورفعت بصرها نحو السماء في تقوى يغشاها زهو، وقالت: «آثار تجلب المجد لكنيستنا الحبيبة».

قال الأخ دياز هامسًا: «ولا ننسى من تكون حارستها. تلك قد ترفعك إلى كرسي الكرادلة، وربما... أعلى من ذلك؟».

ولم تترفَّع الأسقف حتَّى عن التظاهر بالخجل.

قالت: «أن نردَّ كنيستنا الفاسدة إلى الصواب يستحقُّ أيَّ تضحية».

ثم رمقت أليكس بازدراء وقالت: «وهل تظنُّ حقًّا أنك ستضع هذه المسخ النحيف على عرش المشرق؟».

صاحت أليكس: «مسخ؟».

قالت: «سلِّموني إياها الآن، ولكم أن تمضوا إلى بيوتكم».

وقف الأخ دياز وفمه فاغر. أن يعود إلى بيته... ذاك ما كان يحلم به منذ مغادرته المدينة المُقدَّسة. وربَّما لأنَّه اشتهى العرض بشدَّة، فقد اشتعل غضبه لما سمع.

قال وهو يهمس: «وظننت أني رأيت فيك المثال الذي ينبغي أن يكون عليه القسُّ. كتبت أمتدحك في رسالة... إلى أمي! يا لك من دجَّالة! ويا لك من منافقة بقرش! بدلًا من أن تخطبي من على منبرك المتنقِّل في مقدِّمة جماعتنا المقدسة، كان أولى بك أن تسيري في ذيلها مع بقية البغايا!».

قالت ڤيجا وهي تخنق ضحكة ساخرة: «مؤلم».

قال الأخ دياز: «لقد أُوكل إلينا عهد مقدَّس من قِبَل قداستها...».

رفعت الأسقف أبولُونيا شفتها بازدراء وقالت: «قداستها؟ دسَّت الكاردينالة بوك طفلة في عرش القديس شمعون! لقد جعلتم من كنيستنا المُقدَّسة أضحوكة، ومن القصر السماوي مزبلة يخجل منها الحيوان. خنزير صغير كبابا خيرٌ من ذلك».

صاح الأخ دياز: «كيف تتجرَّئين، قد تكون البابا!...».

قالت بابتيست: «بلا خبرة؟».

أكمل دياز: «لكنها أم الكنيسة!».

وما أغرب هذه العبارة على طفلة في العاشرة، لكنها لم تزد إلا أن ألهبت ناره المقدسة.

صاح: «لا تروقك؟ يا لك من متعجرفة! يا لك من سفيهة! يا لك من أنانية تلبس رداء الكبرياء! أسقف، كاردينالة، أو حتَّى ملكة العرب اللعينة، لا يحقُّ لك أن تختاري بابا. ذاك شأن الرب!».

وأشار بإصبعه نحو السماء.

تمتمت ڤيجا: «أحسب أن الأخ دياز قد وجد ما بين ساقيه من شجاعة».

قالت الأسقف أبولُونيا بتهكُّم: «المشكلة مع الرب يا بني، أنه كثيرًا ما يحتاج إلى دفعة صغيرة نحو الطريق القويم».

ثم استدارت نحو الطريق وصاحت: «أيها الإخوة والأخوات!».

وقد انشغل الأخ دياز بخطابه عن أن يلاحظ وصول علية القوم من أعضاء القافلة، وقد أخذوا يتجمهرون ليشهدوا ما أثار كل هذا الصياح.

صاحت بصوت صافٍ كجرس الصلاة: «بيننا وحوش! زنادقة وكفرة، مرتدُّون ومعاندون!».

وإصبعها أمامها تشير إليهم. ويبدو أن الأخ دياز لم يكن الوحيد القادر على إثارة غضبٍ تقيٍّ. بل الحق أنه ليس الأفضل في ذلك.

قالت بابتيست بصوت خفيض وهي تدسُّ يدًا في ردائها والأخرى خلف ظهرها: «ليست مخطئة تمامًا».

وضع أحد حملة الصور لوحته أرضًا وأخرج عصًا غليظة ذات عقدة بارزة في رأسها.

قال الأخ دياز: «نحن... أناس خيرون جدًّا!».

لكنه، وقد رمق وجوه رفاقه المجروحة والموشومة، وتلك التي تشبه القوارض، بدأ إيمانه يتسرَّب كالماء المقدَّس من نافورة متصدِّعة.

قال: «أفضل الناس...».

وكان جمعٌ آخر من القافلة يتدفَّق نحوهم، حتَّى غدت الهيئة هيئة غوغاء، يتزاحمون ويهمهمون.

ولمح الأخ دياز عجوزًا قد تحدَّث معها صباحًا عن الأحذية تلتقط حجرًا من الأرض.

تمتم يعقوب: «ورطة».

وقد التف جمع معبد الذرائع المُقدَّسة، وجعلوا الأميرة أليكسيا في القلب. الصق بالثازار وبابتيست كتفاهما، وذلك -نظرًا لما بينهما من بغضاء- لا ينبئ بخير.

صاحت الأسقف: «هؤلاء مجرمون وهاربون من العدالة!».

وتقدَّمت الجموع.

- على كل حاجٍّ أن يقودهم إلى عدالة أمِّنا الكنيسة!

قال بالثازار وهو يشهر شيئًا من تحت ردائه: «خطوة أخرى، وأحوِّلكم إلى رماد!».

ارتعد الأخ دياز وتراجع، ثم أدرك أنه اقترب من حرَّاس الأسقف، فعدل وجهته، وإذا به على وشك الاصطدام بذراعي ڤيجا، فراح يتزحلق

حولها كالأبله. وقد استل بالثازار ما بدا كيدٍ مقطوعة، جلدها مُبقَّع وأظفارها سوداء.

سألت ڤيجا بفضول لا أكثر: «من أين أتيت بهذا؟».

ردَّ بالثازار: «من ساحرة لم تعد بحاجة إليها».

ولوَّح بها تجاه الحُجَّاج كما يلوِّح بمشعل للذئاب، فتحرَّكت اليد في رعشة رهيبة، وأصابعها تتلوَّى.

قال الأخ دياز وأليكس في آنٍ معًا: «آع!».

تراجعا متلاصقين، وانبعث من أطراف الأصابع المحروقة نفخة نار ملأ الجو برائحة الكبريت.

همست امرأة من الحجاج: «يا مخلصتنا الطيبة!». ورسمت دائرة مُقدَّسة فوق قلبها، وقالت: «إنه مشعوذ!».

فتعالت الهمسات واللعنات والصيحات.

وصاح بالثازار: «ساحر، تبًّا!».

وقد بدأت ڤيجا تهدر من قعر حلقها، فيما راح الحجاج الفقراء يلتحقون بالجموع، أوَّلًا فضولًا، ثم غضبًا، وقد انتشر السخط من الأسقف كداءٍ معدٍ.

زمجرت: «انظروا! أترغبون في دليل آخر على انحطاط كنيستنا المُقدَّسة؟ الكاردينالة بوك ضاجعت الوحوش!».

صرخت ڤيجا: «تريدون الوحوش؟». ومزَّقت رداءها وألقته جانبًا، وانحنت بجسدها المرتجف، قبضتاها مشدودتان، وعضلات ذراعيها الموشومة تنتفخ.

- سأريكم الوحوش.

- خذوا الفتاة حيَّة، لكن... آخ!

شُدَّ رأس الأسقف من شعرها، وانبثقت ساني من العدم، وغرزت نصلًا منحنًى في عنقها. ساد سكون لاهث، يدقُّ فيه نبض الأخ دياز كطبول النذير، والهواء ثقيل يتوعد بالعنف.

سأل يعقوب بصوت خافت: «ما خطتك يا ساني؟».

أجابته همسًا: «لم أصل إليها بعد».

صرخ أحدهم: «إلف! إلف لعينة!».

صاح قائد حرس الأسقف: «ألقي السكين!».

وكان يلوِّح بقوسه في رعونة تُبدي خطرًا أكثر من نفع.

تنقلت عينا بابتيست بين البلطجية المتقدمين، وقد انسلت يدها من الرداء تكشف بريق الحديد.

صرخ أحد الحجاج مشيرًا إلى ساني: «اقتلها!».

شهقت الأسقف وقالت: «انتظروا!». وكان نصل ساني يضغط على رقبتها.

أمسك صانع أحذية طيِّب أتى يرجو شفاءً من البواسير دائرة مُقدَّسة على عصًا، عازمًا أن يجعلها هراوة.

همست أليكس وهي تتشبَّث بكمِّ الأخ دياز: «يا إلهي».

قال دياز وهو يقبض على كُمِّها: «يا إلهي».

وكان القوَّادون، والحرس، والحجَّاج يزحفون إلى الأمام. فأخرج يعقوب بوصة من نصل سيفه.

همست ڤيجا وأسنانها تتكشَّف عن أنياب نابتة، واللعاب يتقاطر من فمها: «من فيكم عنده اللحم الطيِّب...».

وأغلق الأخ دياز عينيه، وأدار وجهه عن المشهد...

صاح صوت: «انتباه، من فضلكم أيها الجمع!».

فتح عينيه والتفت، وقد ماتت الصلوات على شفتيه، وسقط فمه مفتوحًا كالأحمق.

وكان على المنبر المحمول رجل، يداه على منصَّة الخطابة، في أواخر الخمسين من عمره، وسيم الطلعة، مشرق الطلة، له هيبة لا توصف، ووقار لا يُقاوم، فما كان لأحد أن يصرف عينه عنه لحظة.

قال ووضع يده على صدره في تواضع: «اسمي البارون ريكارد، كنت معكم منذ التقينا قرب سبوليتو».

شهق أحد القوَّادين، وسقط فأس من يده المرتخية، وأشار بهاجس نحو المنبر: «أعرفه!».

قال ريكارد، وصوته يفيض بالسكينة والتعاطف: «ما وُلدت نبيلًا، بل جاءتني الرتبة مع زواجي من زوجتي لوكريشا. امرأة... يصعب ردُّها».

سألت أليكس همسًا: «ما الذي يفعله؟».

صاح دياز: «صه!».

فما كان ليضيع نفسًا من هذا البيان، فقد علم أن هذه أقدس الكلمات التي سمعها أبدًا. التفت الحجَّاج جميعًا، يصغون بإجلال لم يحظَ به وعظ الأسقف يومًا.

قال البارون: «حين جاءت بي إلى كروسنو، كنت ساذجًا... لا فرق بيني وبين بهلول وسيم. لعلِّي أجحف حق نفسي، بل بهلول وسيم جدًّا. أظنها كانت أواخر الربيع، أو أوائل الصيف...».

قطَّب حاجبيه، وخدش عنقه، ثم قال: «لا! منتصف الربيع، أذكر أن الأشجار بدأت تورق...».

قال الأخ دياز يهمس: «يا إلهي».

وانكشفت له الحقيقة كوميض إلهام. إن كانت الأشجار تورق... فلا بد أنه الربيع الأوسط!

وتأثرت الأسقف مثله، فتمتمت: «الأشجار... تورق».

وسالت دموعها على خديها، وأبعدت ساني النصل عن عنقها، وتراجعت، ولم يشعر أحد بها، فقد أسرهم الخطاب. وسقطت إحدى اللوحات من يد مرتجفة، وغاصت في مستنقع صغير.

تابع البارون: «رغم كثرة الأشجار دائمة الخضرة في تلك النواحي من بولندا، المعروفة أحيانًا بحديقة أوروبا الشرقيَّة. ولعلَّكم تضعون أسلحتكم ريثما أتابع؟».

فما كادت الجملة تُستكمل حتَّى انطلقت صلصلة الحديد على الأرض، إذ ألقى الحرس، والبلطجية، والحجَّاج سيوفهم ورماحهم وفؤوسهم وسكاكينهم. وكان أحد القوَّادين يقفز على قدم واحدة وهو يحاول انتزاع خنجره من حذائه. وجثا الناس على رُكبهم، إذ استمرَّ البارون في بيانه المهيب.

قال: «كان قصر لوكريشا كومةً آيلة، إن صدَّقتموني. توارثته أسرتها. وتلك الجدران المتهالكة، وذاك الطلاء البائس، والسقف المحتاج إلى ترميم... وكان نوعٌ خاصٌّ من القرميد لا بُدَّ أن يُجلب من بعيد. ثم وقعت خصومة بشأن ثريًّا جديدة، وأهل البلدة عنيدو الذوق...».

شد أحدهم كتف الأخ دياز وهمس بصوت أجش: «لنذهب».

لكنه أفلت نفسه، فقد علم الآن كيف يكون الشعور حين تنطق المخلِّصة. لقد مسَّ البارون ريكارد سرَّ الوجود. والكلُّ علم ذلك. فقد أخرجت امرأة من جروسيتو، تاجرة فحم، أنينًا شبيهًا بالنشوة في كلِّ نفس.

قال: «كان أحبَّ الطعام إلى قلبي يخنة فاصولياء ونقانق يصنعها أبي بشحم الإوز، ثم أُغرمت بزلابية زوجتي، المملوءة بلحم الخنزير، تُطهى بقليل من الزيت... مع البصل... تلك الأيام!».

شخصت عينا البارون إلى الأفق البعيد، مثبتتين فيما يتجاوز المبتذل واليومي، معلَّقتين على وحيٍ إلهيٍّ يصوغ منه كلماتٍ أرضيَّة بطريقة ما. وابتسم ابتسامةً حزينة مزَّقت قلب الأخ دياز وجعلته يلهث.

قال: «حين كنت أمضغ الأشياء».

همس المُرابي، وقد شبك يديه: «يا للسماء الرحيمة، إنه الحق».

وقد بال أحد القوَّادين على نفسه، وهو واقف لا يحرِّك ساكنًا، فيما لطخة داكنة أخذت تمتدُّ على مقدِّمة سرواله: «أنه الحق، هو الحقيقة الوحيدة».

وقد فهم الأخ دياز. وأيُّ شيءٍ يهمُّ بعد الآن؟ ما جدوى الدنيا إلا أن يُنصت لكلمة البارون القادمة؟

قال البارون: «فيا أيها الجمع الكريم، إن كانت آذانكم مُصغية كلها...».

وجال ببصره ليتأكَّد، وقد كانت كلُّ الأعيُن عليه، تعبد في هيبة.

قال: «وأظنها مصغية... فإني أبلغكم الخلاصة». شاب، وابيضَّ رأسه، وامتدَّت تجاعيده، لكنَّ هاتين العينين... هاتين العينين تنظران في قعر نفس الأخ دياز. وساد صمت تام. حتَّى الطير والحشرات توقَّفت عن الحركة.

قال: «تمضون إلى قبرص، وتنسون هذا الخطاب، وتنسونني، وتنسون الإلف، وكلُّ شبهة سحر، وتنسون أني أو أحدًا من أصحابي، أو أيَّ شخصٍ يشتبه به أنه أميرة، حتَّى إن كانت قوارضيَّة المظهر، قد مشى مع جماعتكم المباركة. نعم؟».

وكانت الموجة. ومعها أومأ كلُّ من كان قبل قليل غوغاء دامية، أومأوا جميعًا.

- قالت تاجرة الفحم، وجفناها يرفَّان: «نعم. نعم. نعم...».

قال البارون: «أرجو لكم سعادة الطريق، وليجد كلٌّ منكم ضالَّته».

ثم التفت، ثم عاد فقال: «إلا أنتِ، يا أسقف أبولُّونيا».

سألت: «أنا؟». ودموعها لا تزال تنهمر.

قال: «ستشعرين بحكَّةٍ مزعجة لا تبلُغينها، طوال طريقك إلى قبرص وعودتك».

قالت وهي تجثو في الوحل، وراحتاها إلى السماء: «سأشعر! ربَّاه، سأشعر!».

قال: «شكرًا لكم جميعًا».

ثم هبط عن المنبر بثقل شيخ، ومفاصله المرتعشة تتشبَّث بعصاه. وهكذا تركوا الجماعة المباركة خلفهم. بعضهم لا يزال يحدِّق إلى المنبر الخالي، وبعضهم شارد النظرة، وآخرون يهيمون بلا وجهة. وترك الأخ دياز نفسه يُقاد، يتعثَّر على السفح الطويل نحو البندقية، تحت ظلِّ الأشجار المُرقَّط، وروحه ما تزال تسبح في سماوات خطاب البارون.

سألت أليكس: «ما كان هذا؟».

قالت بابتيست بشفاهٍ مطبقة وسكين في يدها، تنظر خلفها: «إغواء. سيتلاشى في ساعة أو ساعتين».

قالت ڤيجا وهي تركل العشب: «كان ينبغي أن أقتلهم، تبًّا».

قال بالثازار، وهو يرمي اليد المقطوعة في الشجيرات ويمسح كفَّه بردائه: «ليس كلُّ شيءٍ يُقتل أو يُضاجع. وتلك اليد بدأت تفسد».

ثم خلع رداءه وتركه على غصن.

أمَّا الأخ دياز، فلم يكن عنده وقت لهذه التوافه.

قال وهو ينهج: «أبلغ خطبة سمعتها قط».

وكان قد أمسك بكُمِّ البارون بتوسُّل.

قال: «أيمكنك أن تحدثني أكثر أيها البارون ريكارد عن تلك الزلابية؟».

قال الشيخ المتعب وهو يزيح يد دياز بلطف: «ربَّما لاحقًا. أشعر بإرهاق شديد».

20

لا ابتسامات في الدير

كان بابًا عظيمًا، جديرًا بقلعة، وبعد كثير من الخشخشة خلفه، حيث أُزيلت الأقفال وسُحبت المزاليج، دُفع صائحًا حتَّى انفتح، وأطلَّ من ورائه بوَّاب لا يبتسم.

أومأ مارانجون دون ابتسامة، ذاك الأخرس الذي خاطبته بابتيست أول الأمر، ثم ساق جماعة معبد الذرائع المُقدَّسة إلى قاعةٍ صغيرة فيها بلطجيَّان، لا يبتسمان، يرمقانهم واحدًا واحدًا بنظرات الغلظة.

جميعهم... إلا ساني.

لم يُلقيا لها بالًا، لأنها كانت غير مرئية. أو بالأحرى، لم تكن غير مرئية حقًّا. فهي ترى يديها. وترى ظلَّها. لكن لا أحد سواها رآهما. ولم تدر كيف أو لمَ. ولا تدري كيف تشرح كيفيته.

فهي تحبس أنفاسها... وتفعلها.

وقد اعتادت ساني ذلك، حتَّى استطاعت حبس أنفاسها زمنًا طويلًا جدًّا، حتَّى وهي تركض، أو تسبح، أو تتدلَّى من سقف ساحر، كما حدث مرَّة. لكنها لا تستطيع أن تحبس نفسها إلى الأبد، ولهذا فكرها مشغول دومًا من أين ستلتقط أنفاسها التالية، وأين تنظر الأعيُن، وأين الضياء وأين الظلمة. فغدت حياتها رقصة تتنقَّل فيها من زاوية، إلى خزانة، إلى

شجيرة، إلى ظل، إلى تحت سرير، إلى وراء ظهر أحدهم، إلى ما بين ساقيه.

وليس بالمعنى الحسن غالبًا.

وكان الناس يسمعونها، كما اكتشفت يقينًا حين تبعت إحدى الساحرات وسقطت من سطح إلى بسطات القدور والمقالي، لهذا مشت حافية في الخلف، وربطت حذاءيها معًا بشريطيهما وجعلتهما حول عنقها، تفتِّش عن مكامن الخطر، وتتأكَّد أن أحدًا لا يصطدم بها، ولا يغلق بابًا في وجهها، ولا يضرب أسنانها بمقبض جرافة، كما صنع بها أحد البستانيين. غضبت قليلًا، لكنها لم تلُم الرجل.

فما ذنبه إن لم يراها؟

وساني تحاول ألا تلوم أحدًا إن استطاعت، كما تقول الأم وِلتن: «لمَ تلوم الشموع؟ والعيب في النور».

وساني تميل إلى الأم وِلتن، رغم أنها متكبِّرة وإنجليزية، وتلك عيوب في نظر كثير من الناس. ربما أحبتها لأن الآخرين لم يفعلوا، فأشعرتها بالتميُّز. وإن كانت تلك المحبَّة غير متبادلة، إذ أن الأم وِلتن تنظر إلى ساني كما ينظر المرء إلى أرض مرحاض قذر. ثم ماتت حين انهار الجسر، فجاؤوا بالأم فيرارا التي تنظر إلى ساني كما يُنظر إلى مصرف مكشوف.

وهذا درس: دائمًا يمكن أن يسوء الأمر أكثر.

قاد الممر الصغير إلى ردهة، يقف عند نهايتها بلطجيَّان آخران لا يبتسمان. ومن هم هنا لا يبتسمون كثيرا. وساني نفسها لا تبتسم كثيرًا. لا لأن نفسها لا ترغب بذلك، بل لأن فمها لا ينثني لتلك الهيئة. بل لا يليق بوجهها، والناس يكرهون الأمر حين تجرَّب. يتصوَّرون أنها تخطِّط لأمر مريب. ثم إنّها، في أغلب الأوقات، لا تُرى أصلًا.

فصار التبسُّم ضربًا من العبث.

أليكس لا تبتسم أيضًا. تمشي مطأطئة الرأس كأنها تريد الاختفاء هي الأخرى.

وساني تميل إلى أليكس، فقد أطعمتها في الطريق، وذلك أمر نادر، وحرصت أن تكون لطيفة معها، وذلك أمر أندر. ودت ساني لو تسألها أأنت بخير؟ لكن لا سبيل، ولعلَّ الأمر سينقلب عليها سوءًا. قضت ساعات تتمرَّن أمام المرآة، لكن وجهها المُسنَّن لا ينعطف كما تفعل وجوه الآخرين.

فإذا أرادت أن تكون جادة، بدا وجهها متهكما، وإذا أرادت أن تبدو كريمة، ظهرت متكبِّرة، وإذا حاولت أن تكون ودودة، بدت إلف قذرة.

«كانوا يصيحون بها في السيرك: «إلف قذرة!»، وقد جعلوها أهزوجةً يُردِّدها الجمع، ولم تظنَّها طريفة. لكن الجميع ينفجر ضحكًا. فلعلَّ النكتة في مستويات لا تدركها؟ ولم يكن شيء مما تقوله يُضحك، بل يفزع أو يُغضب. وقد وقفت مرَّة على خشبة السيرك وقالت نكتة، فأغضبت الجميع.

قال لها مدير العرض: «أنت هنا ليكرهوك، لا لتروي النكات».

ومع ذلك، فقد لاقت تلك النكتة قبولًا أفضل من يوم حاولت أن تغني.

قالوا: «الشرير لا يغني، الأفضل أن تسكتي».

وكان هذا شعار مدير العرض دائمًا: «أغلقي فمك اللعين».

ولذلك، هي تسكت غالبًا، وتفعل أشياء صغيرة تسرُّ بها القوم. أشياء لا يكادون يلحظونها، كأن تُسوِّي رباط حذاء يعقوب كي لا ينحني، أو تطوي ثياب ڤيجا وهي تضاجع، أو تغطِّي أليكس حين تتقلب في نومها وتركُل غطائها فترتجف بردًا. وذلك جعل ساني تحس بأنها نافعة، وكأنَّ لها عائلة.

وذلك شعور جميل.

فيعقوب الجدُّ الغاضب، وريكارد العم الغامض، وبابتيست الأمُّ المثقلة، وبالثازار الأخ الأكبر المغرور، والأخ دياز الأخ الأصغر قليل الثقة، وأليكس الطفلة الجميلة التي يحبُّها الجميع لأنها لم تمكث بينهم كفاية لتخيِّب ظنَّ أحد.

أما ڤيجا فهي قريبة بعيدة غريبة الأطوار، تضاجع الجميع حين لا تتحوَّل إلى ذئبة عملاقة، وقد انهار المقياس عند هذا الحد، إذ كم من العائلات من فيها إلف لا تُرى.

بل قل لا واحدة.

حين داروا حول الزاوية، بقيت ساني خلفهم، وأسندت ظهرها إلى الحائط، تنفَّست نفسين عميقين، ثم حبست النفس، وقفزت بعدهم إلى الرواق المظلَّل بالأعمدة. وقد بُني الرواق حول حديقة خُيِّل إليها أنها كانت موجودة ذات يوم، لكنَّ الطوفانات المتتابعة حوَّلتها إلى مستنقع راكد. وذلك، في تقديرها، حال كثير من البقاع في البندقية. وقف تمثال متآكل ينتصب وسط الحوض، وقد غمر الماء ساقيه، ورفع ذراعه المبتورة كأنه يستغيث الرب. لكن تلك الوسيلة، في خبرة ساني، لا تعمل. لا مع الرب، ولا مع سواه. إن أردت نجاة، فعليك أن تتأهَّب لإنقاذ نفسك. وربَّما يثني عليك الربُّ بعد ذلك.

سأل الأخ دياز: «أكان هذا ديرًا؟».

أجاب مارانجون، الذي قلَّ كلامه كندرة ابتسامته: «نعم».

- وأين الرهبان؟

- في الجنة لعلَّهم؟ ألست الخبير؟

سار يعقوب مدلكًا ساقه. فقد أنهكته أسابيع المسير مع الحُجَّاج. وساني ودَّت لو تساعده، لكنها لا تملك وسيلة، وهو يبغض فكرة المساعدة أصلًا. لأسبابٍ تخصُّه، كان يعمد إلى جعل حياته أصعب ما

يكون. وما كانت تفهم الناس أصلًا. فعالمهم أشبه بصفعة تتكرَّر على الوجه كلَّما اقتربت.

وقف بلطجيٌّ آخر لا يبتسم إلى جوار بابٍ ثقيل آخر. وساني، التي كانت لتندفع أولًا أو تتسلَّل بين الآخرين، رأتهم متزاحمين جدًّا، فانتظرت حتَّى اجتازوا وبدأ الباب يُغلق، ثم نقرت شحمة أذن الحارس نقرة خفيفة، فلمَّا استدار مذعورًا اندفعت تحت ذراعه، وانعطفت حول الباب، ودلفت قبل أن يُغلق. حركة بالغة الرشاقة، ولو أنها هي من امتدحت نفسها.

خسارة أن أحدًا لم يرها.

وقد بُنيت الغرفة العالية وراء الباب في الأصل ككنيسة، فيها شرفةٌ تتوسَّط الجدران، وسقوف تعلوها العناكب القديمة، تتراقص خيوطها في تيارات الهواء. وفي الجدران زجاج ملوَّن يعرض قدِّيسين يُقتلون على نحو مبدع: القديس شمعون على عرشه المحموم، والقديس جميما تحت صخرة، والقديس سيدريك وقد غُرزت فيه المسامير، واقشعرت ساني كلما تذكَّرت ذلك.

ذاك ليس بموضعٍ صالح للمسامير.

ولم تفهم رغبة الناجين في مشاهدة أبطالهم يُسحَقون ويُغرقون ويُدقَّون ويُضربون. لعلهم حسبوا أن ما نزل بسيدريك من مسامير يكفي ليعفيهم من مثلها. وتظنُّهم واهمين.

فالمسامير أكثر مما يُحصى.

بُنيت ككنيسة، لكنهم جعلوا منها مطبخًا منذ زمن، وفي أحد أطرافها فرن يتَّسع لجثَّة. وإلى جانبه رجل يعجن العجين فوق حجر المذبح، فتتناثر ذرات الطحين في أعمدة النور الملوَّن. في حركته من الصرامة ما جعل ساني تظن أن الفرن قد عرف في تاريخه أكثر من جثَّة. وقفت بجانبه فتاة صغيرة في مئزر يُشبه مئزره، وعلى وجهها عبوسٌ يُباهي به بالثازار.

هتفت بابتيست وهي تخطو في المكان وذراعاها ممدودتان كأنها تحتضن البيت كله: «فريجو!».

لها نبرة في الحديث تجعل الناس يميلون إليها. بدت دائمًا أشبه بالسحر في عين ساني، أكثر من الاحتفاء. لكن سحر بابتيست لم يُجدِ نفعًا هذه المرة. وكانت نظرات فريجو باردةً جدًّا.

قال وهو يزفر كأنما يصف عفنًا لا ينتهي: «بابتيست».

ثم رمق عجينه ثانية، وعاد للعمل. قال: «علمت أنك ستعودين. كالثعلبة عند صناديق القمامة».

قالت بابتيست وهي تهز كتفيها: «قيل فيَّ ما هو أسوأ».

قال فريجو: «ابقي قريبة، وستُقال أشياء أسوأ».

قالت الطفلة وهي تضع قبضتيها المليئتين بالطحين على خاصرتيها: «أهذه هي اللعينة بابتيست؟».

تمنَّت ساني أن تعرف كيف استطاعت أن تقطب وجهها بذلك الشكل، كأن لا عظم فيه.

قالت الطفلة من جديد: «أأنتِ اللعينة بابتيست؟».

قال فريجو وهو يومئ إليها: «حفيدتي. أذكى من عرفت في الفراسة. أعلِّمها مهنة العائلة».

سألت بابتيست: «خبَّازة أم زعيمة عصابة؟».

قالت الطفلة ساخرة: «ولِم لا أكون الاثنين؟ سمعت أنك كذَّابة ولصَّة».

قالت بابتيست دون أن تتغيَّر ابتسامتها: «وهاتان هوايتاي فحسب».

دارت ساني على أطراف الغرفة في خفَّة، تمشي حافية، والحجر الأملس البارد يلسع قدميها. وكانت حذرة، تمشي في ظل الجدار، إذ قلَّ من قد يراها هناك، أما أعمدة الضوء الملوَّن، فربما رأى الناس غبارًا يطفو خلفها. قد لا يرونها، لكنَّهم أحيانًا يلحظون غيابها.

سأل فريجو وهو لا يزال يعجن عجينه: «ما الذي جئتِ لأجله يا بابتيست؟».

- وهل لا بُدَّ أن أطلب شيئًا؟

- نعم. فليس لك صبر على ذلك.

ثمة باب في أقصى الجدار، مفتوح شِبرًا، فاقتربت ساني على رؤوس أصابعها، ورأت رجلًا ملتصقًا به، أذنه عليه، وفي قبضته سكين، ووراءه اثنان آخران، وسكاكين بأيديهم، ولا عجب، فالمكان مشبع بالسكاكين.

تسلَّقت جانب نافذة فيها جيوب تصلح لقبض الأصابع، فأشرفت من الرواق العلوي، وفي الجانب الآخر رجلان مطأطئان، مع أقواس. ثم هبطت، بلا صوت، ولا ضجيج، وتقلَّصت خلف الحائط، وتسلَّلت من وراء حفيدة فريجو العابسة، واتَّجهت نحو نافذة مكسورة. رأت في الرواق الخارجي ثلاثة رجال، عند الباب الذي دخلوا منه. فإن ساءت الأمور، ستسوء سريعًا. وهذا حال معبد الذرائع المُقدَّسة. كل شيء يسوء سريعًا. وكانت بابتيست قد بلغت الغاية.

قالت: «نطلب ممرًّا. إلى طروادة. أنا ورفقتي».

قال فريجو وهو يلقي نظرة متفحِّصة على الجمع، عدا ساني بطبيعة الحال: «ليست لك رفقة يا بابتيست. بل بشرٌ تنتفعين بهم».

وتسلَّلت ساني حول ڤيجا، واضطرت إلى أن تنزاح بعنف، فهذه المرأة لا تهدأ أنفاسها، ثم ضغطت نفسها إلى ظهر يعقوب. يعقوب نافع جدًّا حين يكون بالجوار، فهو عريض، طويل، لا يضطرب، حتَّى حين يشعر بإلف مضغوطة على ظهره تتنفَّس.

همست: «ثلاثة في اليسار، وثلاثة عند الباب، وقوسان في الأعلى».

تنحنح يعقوب في رفق، يعلمها أنه سمع.

والتفاهم بينهما ليبعث في ساني ابتسامة، لو كانت تجيد الابتسام. ثم حبست نفسها مجددًا، وتسلَّلت حوله.

قال فريجو وهو يشير إليهم بإصبع كلها طحين، واحدًا تلو الآخر: «هؤلاء إذًا هم؟ صغار البابا؟ ولا أحتاج إلى فطنة لأميز المستذئبة».

سألت الطفلة ساخرة: «أهكذا تبدو المستذئبة اللعينة؟».

وكان بين الغطاء والشعر، لا يُرى من وجه ڤيجا إلا ابتسامة أنيابها، وقليل من وجنتها الموشومة.

قالت: «هكذا تبدو هذه المستذئبة».

قال فريجو: «وهذا هو مصَّاص الدماء».

سألت الطفلة ساخرة: «أهكذا يبدو مصَّاص الدماء اللعين؟».

رفع البارون ريكارد عصاه بكسل، وسلَّم: «تشرفت يا عزيزتي».

قال فريجو وهو يحكُّ عنقه، فيترك طحينًا على ذقنه: «وهذا يعني أن هذا الرجل يعقوب الثورني. وأنا من المعجبين بك، إن أردت الصدق».

أجاب يعقوب، وهو ساكن كالصنم وذراعاه متقاطعتان، بتأففٍ متعب: «أما أنا فلا».

التفاخر من تلك الأمور البشرية التي لم تفهمها ساني قط، فتركتهم وشأنهم، واقتربت من الفرن تسعى إلى دفئه الرائع المتلألئ. وقد سبقتها قطة عجوز، فلمَّا رأت ساني، هزت طرف ذيلها. القطط تراها كما هي، واضحة كالنهار. أما الكلاب، فنعمة الرب تنزل عليها، فلا تراها البتة. ولم تكن تدري لِم.

هي لا تفهم كيف يعمل أي شيء، وأقل من ذلك، نفسها.

نهضت القطة تحاول الاحتكاك بساقها. وودت ساني أن تمسح على ظهرها، فالقطط لطيفة الملمس، وذيولها حين تمرُّ بين أصابع اليد لينة

تدغدغ. لكن الوقت ما كان مواتيًا، فحرَّكتها بطرف قدمها، وأشارت إليها صامتة بالاعتذار.

سأل فريجو، وهو يضيِّق عينيه نحو أليكس: «ومن هذه؟».

عبست أليكس وردّت: «لا أحد».

- كل امرئ أحد.

- أما أنا فلست بأحد.

سأل فريجو وهو يحدق إلى بالثازار: «وأنت؟ أراك شخصًا ذا شأن».

رفع الساحر رأسه بتلك الحركة المتعالية التي تجمع بين الاحتقار والإهانة، وقال: «أنا بالثازار شام إيفام دراكسي».

علَّقت الطفلة وهي تخرج سكينًا من مئزرها وتبدأ بشقِّ أخاديد في العجين: «يبدو لي أحمقَ لعينًا».

سمعت ساني مرَّة أن الأرغفة لا تنتفخ إلا بأخاديدها، وأنها لا تختمر كما ينبغي دون أن تُشقَّ. فلعلَّ الناس مثلها. لا يُحسِنون الانطلاق إلا إن قُطِّعوا قليلًا.

قالت بابتيست وهي تطوي ذراعيها وتبتسم لبالثازار: «حقًّا، إنها خبيرة حاذقة في طباع الناس. إنه عضو جديد. دجال».

همس بالثازار، وهو يحدق إليها بحنق: «أقسم إنها تفعل هذا نكاية بي».

ضيَّق فريجو عينيه أكثر وسأل: «هل هو ماهر؟».

- واحد من بين ثلاثة من أقوى باعثي موتى في أوروبا. وربما الثاني، حسب رأيك في...

قاطعته بابتيست: «ما الذي تطلبه، يا فريجو؟».

وأخرج فريجو أحد الأرغفة من العجين، ودفعه على المِغرفة برشاقة معصمه، وسار نحو الفرن.

قال: «هل من الضروري أن أطلب شيئًا؟».

قالت: «بالطبع. فليس لك صبر على ذلك».

قال فريجو: «صدقتِ، ضربة موفقة».

وتلألأ لهيب النار على وجهه حين اقترب، حتَّى إن ساني كان يمكنها أن تمد يدها وتلمس بشرته المخرَّمة.

قال: «ثمة شيء أريده. في بيت».

وكان ذلك غامضًا على نحو مقلق.

سألت بابتيست: «ورجالك لا يقدرون على دخوله؟».

أجاب وهو يستدير، متكئًا على المغرفة: «لقد دخلوا، لكنهم لم يخرجوا».

قالت الطفلة وهي تدور السكين في أصابعها وتبتسم ابتسامة لا تقلُّ لؤمًا عن ابتسامة ڤيجا: «لا أحد يخرج من ذاك المكان. الناس يقولون إنه ملعون».

قال فريجو وهو يرفع الرغيف الثاني: «كان ملكًا لمُوهم. رحل عن البندقية منذ زمن، لكنَّ البيت... لا يزال محميًّا».

سأل بالثازار: «محميٌّ؟ كيف؟».

أدخل فريجو الرغيف في الفرن وهزَّ كتفيه وقال: «أنت الدجال».

وانفرجت شفة بالثازار في ازدراء، لكن يعقوب سبقه بالكلام.

سأل: «ما الذي نبحث عنه؟».

أجاب فريجو: «صندوق أبيض، حجمه هكذا، عليه نجمة في الغطاء».

- وماذا فيه؟

- ذاك شأني.

قال يعقوب: «أحب أن أعلم ما أنا مقدم عليه».

قال فريجو: «نعم، لكن فيَّ شكًّا أنك ستُقدم على أية حال. قلت لك ما أقدر عليه. وإن لم تعجبك الشروط...».

أتمَّت حفيدته: «... فأنت تعرف أين الباب، اللعنة!».

ورفعت بابتيست حاجبيها وهي تنظر إلى يعقوب، ورفع البارون ريكارد رأسه وتنهد.

وتقدَّمت ساني قليلًا نحو دفء الفرن.

قال بالثازار وهو يتمتم بحنق: «أن يُفضي الأمر بنا إلى هذا. نُرسل في مهمات عند خبَّاز وزعيم عصابة».

قال فريجو في لطف: «وهذان هواياتي فقط».

- سأحتاج إلى عُدَّة.

- مارانجون يأتيك بكل شيء.

- عُدَّة شديدة التخصُّص.

- مارانجون يأتيك بكل شيء.

قال يعقوب، وتقدَّم خطوة واحدة نحو حجر المذبح ثم وقف: «إن جلبنا لك الصندوق، رتَّبتَ لنا الممر إلى طروادة».

أجاب فريجو وهو يومئ نحو الفرن: «تم. انتظروا قليلًا، وخذوا معكم رغيفًا طازجًا».

- نفضل أن نبدأ الآن.

قال فريجو: «كما تشاؤون».

ورفع رغيفًا آخر.

وأشار مارانجون نحو الباب، فاستدار الجمع إما ليتبعه وإما ليراقبه. فانتهزت ساني الفرصة لتأخذ نفسًا سريعًا، ثم تركت دفء الفرن على مضض. وكانت حفيدة فريجو قد وضعت سكينها قرب زاوية المذبح المغبر. وبدا أنها على وشك أن تسقط وتجرح أحدًا، فدفعتها ساني بلطف إلى موضع آمن وهي تهمُّ بالخروج.

21

كل بيتٍ جزيرة

قلبُ البندقيةِ مكانٌ نصفُ غارقٍ، كلُّ بناءٍ فيها جزيرةٌ قائمةٌ بنفسِها، وكلُّ شارعٍ قناةٌ منفصلة، يعجُّ بالناس، ويغصُّ بالمراكب. مراكبُ صارت منازل، ومراكبُ صارت دكاكين، ومراكبُ تمدَّد فيها العشَّاق، ومراكبُ اشتدَّ فيها الخصام، ومركبٌ جُعِل كنيسةً، من مقدِّمتها خطبت راهبةٌ متجهِّمة، حمراءُ الوجهِ وداعيةٌ إلى التوبة. الماءُ يحيط بالبنيان، والماءُ ينساب في داخله. أناسٌ يسبحون داخلين أبوابَ دورهم، وأناسٌ يصطادون من شرفاتهم. والرائحةُ رائحةُ شطآنٍ وأنهارٍ آسنةٍ، والنوارسُ فوق الرؤوس لا تكفُّ عن التناقر، ترشُّ كلَّ شيءٍ بوابلٍ لا ينقطع من فضلاتها.

قال بالثازار: «فرصةٌ ممتازةٌ للدرس».

تراخت أليكس في مقدِّمة القارب وتأوَّهت: «كنتُ أظنُّني أتعلم تاريخَ طروادة، لا البندقية».

قلَّب الساحرُ عينيه، فعلٌ اعتاده كلما نطقت، وقال: «كلُّ شيءٍ متصلٌ بكلِّ شيءٍ يا صبية. طروادةُ والبندقيةُ، وجميعُ دولِ البحرِ الأبيض ومدنه، كلُّها أغصانٌ نبتت من أصلٍ واحد، وهو؟».

قالت متأففة: «إمبراطوريةُ قرطاجٍ».

- فلِمَ تظنين أن شعوبَ جنوبي أوروبا وشمالي إفريقية يتكلمون لسانًا واحدًا، أصلُه من البونيقيا القديمة؟

تمتم البارونُ ريكارد وهو يراقب بتكاسل ثلاثةَ فتيانٍ يدفعون طوفًا: «لأن القرطاجيين أحرقوا كلَّ من لم يفعل».

قال بالثازار: «وقد لا يستطيب الناسُ إحراق الآخرين، غير أنه طريقٌ لا يُنكَر نفعُه في إحكام النظام. لمَّا غزت جيوشُ قرطاج جنوبيْ إيطاليا، شيَّدوا المعابدَ العظام التي تقوم عليها المدينةُ المقدسة اليوم. وحين فتحوا شمالها، سدَّت مهندساتُهم الساحراتُ نهرَيْ بو وپياڤي، وجفَّفوا البحيرة، وشيدوا هذه المدينة العظيمة على الأرض الخصبة التي تحتها».

قال مارانجون من منصَّة المؤخرة، وهو يقذف العصا بين يديه والماءُ يقطر منها كالمطر: «أعظم مدينةٍ في العالم».

قال بالثازار: «أهلُ كراكوف وأطلنطس وديجون وغيرهم لهم دعاوى، كعادة أهل المدن الكبرى، لكن لكِ أن تدَّعي لها الأسبقية، لا سيما في عهدها الزاهي. بنى القرطاجيون قصورًا عظيمة، وأسواقًا تغصُّ بالخلق، ومعابدَ عالية، ومشاريعَ عامةً تفوق ما نحلم به في هذه الأيام التافهة. وإذ امتدَّ سلطانهم في البحرِ المتوسط حتَّى بلغ طروادة، كانت هذه عاصمتهم في الشمال».

سألت أليكس، راغبةً في صرف الأسئلة عنها: «فما الذي طرأ؟».

قال: «خرج عليهم عدوٌّ من الشرق لم تلقَ قرطاجةُ له نظيرًا من قبل، عدوٌّ يوازيها في العناد، ويساويها في السحر. أتدرون من هم؟».

ظهرت ساني بغتةً في المؤخرة، جالسةً خلف مارانجون، بعيدةً عن عينِ بالثازار، فتحت عينيها بشدة، وأشارت إلى نفسها بكلتا يديها، ثم أخذت نفسًا، وغابت.

قالت أليكس مترددة: «الإلف؟».

نظر بالثازار ممتعضًا قليلًا: «حسنٌ أن شيئًا ما قد استقرَّ في ذهنك. طردُ الإلفِ استنزف كلَّ قوى قرطاج العظمى، فاغتنم خصومُهم من بني الإنسان الفرصة. أعظمُ إمبراطوريةٍ عرفها الناس، انهارت من شدَّة ما دخلها من خلاف، وما أحاط بها من عدوٍّ، فسقطت بثقلها. وبقي غربُها قرنًا أو قرنين، ثم انحلَّ. وانتخبت البندقية لها دوجًا، وتمسَّكت بشظايا من الأرض. بقاعٌ من الساحل الدلماسي، راغوزا...».

همهمت بابتيست: «راغوزا بهيَّة».

قال البارون ريكارد: «ما من أحدٍ إلا ويحبُّ راغوزا».

قال بالثازار: «في بعضِ جزائرِ إيجة، فيما كانت عبادةُ المخلِّصة تنهض وتشدُّ أزر قبائل أوروبا المتناحرة في رباط واحد. وفيما جاش الإلف من المشرق مرَّة أخرى، فانحدروا إلى الأرض المُقدَّسة، وتبعتهم الحملاتُ الصليبيةُ تلتهب فخرًا وتخبو ذلًّا. وفيما عمَّت القارَّةَ حربٌ وطاعونٌ ومجاعة، وتبادل أصحابُ المناصب العظيمة التيجانَ والعمائمَ فيما بينهم، بقي هنا بعضُ أثرِ أمجادٍ ضائعة».

وعاد صوتُ الضرب إذ رمى مارانجون بالسارية إلى أعلى، يعتليها كفًّا فوق كفٍّ، وعاد وقعُ القطرات الغليظة وهي تتناثر من الخشب.

قالت أليكس ببطء: «فما الذي جرى؟».

استند بالثازار إلى الوراء متباهيًا: «قد يكون ذلك منذ خمسين عامًا...».

قال مارانجون: «اثنتان وخمسون، في الثالث عشر من شهر الرحمة».

قال بالثازار: «هاجت العواصف في الربيع، واستمر المطر حتَّى الصيف، أكثرَ مما يذكر أحد. والسدُّ العظيم في نهرِ بو، وقد تجاوز الألف عام...».

قال يعقوب مغتاظًا: «انفجر».

كشف بالثازار عن أسنانه: «ويلي، لا تعطونني فرصةً لأتمَّ جملتي. فاضت البحيرة من جديد. ونجت الأحياءُ الفقيرةُ المرتفعة، وأمَّا الأحياءُ الرائعةُ، القريبةُ من الماء...».

قال يعقوب: «صارت أردأ الأحياء».

قالت بابتيست: «غرقوا حتَّى الأعناق».

قال البارون ريكارد وهو يمرر يده في الماء، باسمًا: «جلُّ منجزات القدماء... أفسدتها الأمطار».

قال بالثازار وهو يشير إلى أثرٍ قديمٍ للماء على جدار قريب: «أحيانًا في الأعوام الجافة، ينحسر الماء، ويظهر فسيفساءُ الساحة العظيمة، ويستعيد الناسُ طوابقهم الأرضية. وفي أكثر الأعوام بللًا، يصبح كلُّ بيتٍ جزيرة».

قال الأخ دياز: «أذكر أن كاتدرائية القديس مايكل تُغمرها المياه أغلبَ الوقت. وقد استُبدلت المقاعدُ بمراكب صغيرة».

سألت أليكس: «ألا يستطيعون إصلاح السدِّ؟».

قال بالثازار: «بسهولةٍ، إن أخرجنا معماريي إفريقيا القدماء من قبورهم. عدا ذلك فانسِ الأمر. الإلفُ هدموا برجَ الحسابِ في أنطاكية، والإنجليز أحرقوا مكتبةَ كاليه، ومهندساتُ قرطاج الساحرات، وقد خاطرن بكل شيءٍ لقلب الدفة لصالحهن، فتحن بابًا إلى الجحيم وأفنين مدينتهن».

هزَّت ڤيجا رأسها بحزن وقالت: «ما رأيتُ بابًا إلى الجحيم آل إلى خير. فتتساءل ما بالهم لا يكفون عن فتحها؟».

قال بالثازار: «بقايا الإمبراطورية متفرقةٌ في البحرِ المتوسط. عمودُ طروادة الشهيرُ أبرزُها، والعلمُ المدَّخرُ في أثينيتها المأثورة. لكن، في

المجمل، فقد طار علمُ ذلك العصرِ كأنه لم يكن». ثم استند مزهوًّا وقال: «والذين في سدَّة الحكم يرضون بالغرق في الجهل».

قال يعقوب، وقد أمسك بعمودٍ مغطى بالطحلب: «ما ضاع هو الإرادة، لا الحكمة». ثم جرَّ نفسه إلى رصيفٍ متهالك، متأففًا.

تأمَّلت بابتيست معبدًا مهدَّمًا في الجهة المقابلة، وقد غمر الماءُ أعمدته حتَّى نصفها، وقالت: «كسبوا معارك كثيرة، وشيَّدوا أمورًا عظيمة كثيرة، ولذا ينسى الناس».

قالت أليكس: «ينسون ماذا؟».

قال: «أيَّ قومٍ بغيضين كانوا. كم عبدًا قتيلًا غاصت أجسادُهم في أساسات هذه المدينة؟».

قال بالثازار وهو يهز كتفيه: «كثير. لكن لن تبني صرحًا عظيمًا دون بعض الجثث».

ولو اختارت أليكس مكانًا لتسرقه، وليس ذاك ممَّا لم تفعله من قبل، لما اختارت دار الساحر المُوهِم، ولا حتَّى عاشر اختيار. فبجوار القصورِ المتهدمة، كان بيتُ المُوهِم أقربَ إلى مخزن، مكعبَ الشكل، يعلوه نباتٌ يابسٌ متدلٍّ، لا نضارة فيه ولا زخرف، نوافذه ضيقة، وسلالمه تصعد من الماء إلى رواقٍ ذي أعمدةٍ في الطابق الأول.

نظرت أليكس إلى الدار من شرفةٍ تعلو الطريق الغارق، وقد أسندت مرفقيها إلى الحاجزِ المتآكل، وأسندت ذقنها إلى قبضتيها، وتمتمت: «لا يبدو ساحرًا».

قال بالثازار، وقد أخرج حزمة عدسات ملوَّنة معلَّقة في حلقة كمجموعة مفاتيح، يتناوب النظر من خلالها: «ليس للعين المجردة». ثم أضاف وهو ينظر عبر عدسة أخرى: «ولا سيما عين جاهل مجردة».

قال يعقوب عابسًا، عاقد الذراعين وهو يحدِّق إلى أسفل: «لا أحد يقترب منه». لا قوارب في الطرقات المغمورة حول المبنى، ولا ناس في النوافذ المغلقة التي تواجهها، ولا طائر فوق سطوحها.

قال مارانجون وهو يزفر: «يقول الناس إنَّه ملعون».

قال بالثازار، وقد استدار إليهم: «وصدقوا، وإن بخسوا حقه في قول ملعون». ولا تزال إحدى العدسات على عينه، فجعلت عينه تبدو شديدة الصغر، برتقالية اللون. وقال: «الهالة غير مألوفة، لا سيما عند الزاوية الشمالية الشرقية، وإن كان ذلك متوقَّعًا بحكم اتجاه الريح». ثم قلَّب في عدساته ورفع أخرى لعينه: «ثمَّة ثلاث تعاويذ على الأقل، مستقلة وقوية، منسوجة في البناء، وآثار كيان مربوط كذلك».

قال يعقوب بتأفف: «كيان؟ لا أحب الكلمة».

قال بالثازار بصوته الرتيب: «إذًا فإني، كالعادة، أختار لها أدق الألفاظ».

نظرت بابتيست إلى أليكس، وتبادلتا حركة أعين كأنهما يسخران معًا.

قال بالثازار، وهو ينتقل إلى مزج العدسات: «ثمَّة شيء في الجدران... أسلاك نحاسية؟ رصاص في الجص؟ من هذا الموضع لا يمكن الرؤية إلى الداخل البتة».

رمق يعقوب البناء بطرف عينه، كأن تحريك الرأس كلِّه جهد لا طاقة له به، وقال: «لكنك قادر على تدبره؟».

قال بالثازار وهو يستدير: «مرتين قبل الفطور». فهبط عن الشرفة، ونفخت أليكس وجنتيها مرَّة أخرى، ثم تبعته.

كان مسكنهم في الطابق الأعلى من بنيان عظيم رطب، ولربما من صنع القرطاجيين، غير أنه لم ينل عناية تذكر منذ زمن. لا زاوية فيه

قائمة، ولا باب يوافق إطارًا، وأرضياته المائلة تئنُّ تحت كل قدم كأن حمولةً واحدة زائدة تسقطه في البحيرة. إلا أنَّ سعة المكان لا تُنكر؛ فالغرفة الكبرى تتَّسع لسوق سمكٍ بأسره، ولو أردتَ لاصطدت السمك من الطريق الغارق أسفلها.

قال بالثازار وهو ينظر في الغرفة المتداعية بأنفٍ متقبِّض: «أظنه يكفي لأن يُعدَّ مسرحًا للطقوس المرجوَّة، لكن لا يسعني أن أنجز كلَّ شيء وحدي».

قال يعقوب وهو يزفر زفرة خشنة: «لا تخبرني... لا بُدَّ أن يدخل أحدهم إلى الداخل؟».

- أنت أذكى مما تبدو عليه.

قالت بابتيست، من طرف فمها: «ليس كثيرًا».

قال يعقوب وهو يزمجر: «لا تتذاكي كثيرًا، فأنت ستأتين معي».

وضعت يديها على خاصرتها، وتمتمت ناظرة إلى السقف: «كان عليَّ أن أستقيل بعد برشلونة».

قال بالثازار، وقد أمسك بمارانجون من ياقة ثوبه: «ثمَّة أشياء كثيرة أحتاج إليها، وأولها الدقة والانضباط. قل لي إنك تملك دفترًا؟ حسن. أرجو أنك تكتب سريعًا، فإني لا أطيق التلكؤ. أحتاج إلى طقمٍ كاملٍ من دوائر السحر، من البرونز لا النحاس، فنحن لسنا بدائيين، وعدسات أفضل، وملحًا، وشموعًا من أرفع صنف...».

قال يعقوب وهو يحدِّق إلى أليكس كأنما هي صندوق ثقيل لا يدري كيف يحركه: "أنت والأخ دياز ستبقيان هنا، والبارون ريكارد سيبقى معكم».

رمقت أليكس البارون، فإذا هو مستلقٍ على أريكة ممزقة، يداه على عينيه كأنما هو سيدة مغمى عليها، وقالت: «لا تقل لي إنه يعضُّ».

قال وهو لم يحرِّك يده: «لا أعضُّكِ، على الأقل. فلي معاييري».

قال يعقوب: «لكن عليك أن تكوني مستعدة، إن حدث مكروه».

تمتمت أليكس: «ويبدو أنه يحدث دومًا...».

- أمعك سكين؟

أخرجته مترددة، له مقبض على هيئة أفعى، وفي موضع عينيها جوهرتان حمراوان. مكتبة سُر مَن قرأ

نظر يعقوب إليه نظرة إعجابٍ لم تعهدها أليكس، وقال: «يصلح لأميرة».

قالت: «أعطانيه الدوق مايكل في النزل». ولم تكن قد أحسنت استخدامه، بل رمته، حين كانت تزحف في الطين تستعطف من أجل حياتها.

- أتعرفين كيف تستعملينه؟

تجهمت وقالت: «إن كرهت أحدًا، غرزته في الوغد».

مدَّ يعقوب إصبعه إلى النصل وقال: «من هذه الجهة. أفعلتِ ذلك من قبل؟».

قالت وهي تبلع ريقها: «خضت بعض المعارك، وخسرت معظمها».

- وما خضته ليس بقليل، وفزت ببعضها، فخذي عني ما قد ينفعك. القتال قمار. وأنت صغيرة، ضعيفة، عديمة الخبرة. احتمالك في هزيمة رجل قوي في قتال عادل يكاد يساوي الصفر».
- إن كنت تنوي تشجيعي، فعليك أن تتدرَّب على الأمر.
- اجعلي القتال أخبث ما يكون. الخداع والمباغتة سلاحك. ومعهما قسوة القلب. أريني كيف تمسكينه.

وقد شهدت معارك سكاكين كثيرة في الأحياء القذرة، فعرَفت أساليب أولئك الشجعان المأجورين. فأمسكتها بإحكام، وأحاطت السِّنَّ

بإصبعها، وثنَت ركبتيها، ومدَّت النصل أمامها، ولوَّحت به قليلًا، تكشِّر بأسنانها وتُصدر فحيحًا أرادت به أن يكون نفَس أفعى، لكنه لم يَرقَ إليه.

لم يبدُ على يعقوب أيُّ فزع، بل قال: «شديد...».

قالت مقاطعة: «لا تقل كابن عرس».

قال: «... الشراسة، لكن أظنُّ أن الأصلح لكِ...». ثم أمسك بمعصمها، وأنزل يدها، وأدار الخنجر حتَّى صار النصل بمحاذاة باطن ساعدها، وقال: «أول مرَّة يعلمون فيها أنك تملكين خنجرًا يجب أن تكون وهي في أمعائهم. ثم انخفضي قليلًا، وارتجفي. أتقدرين على البكاء؟».

ولم يكن عسيرًا، فالدموع تباغتها منذ حين.

- حسن. توسَّلي لأجل حياتك التافهة.

- ليست أول مرَّة. ولا عاشرها.

- استثمري ما معكِ. أضعفيهم، وقرِّبيهم، ثم اغرزي الخنجر بكل الغضب الذي تملكين. وكلنا نملك شيئًا منه.

- أظنني أستطيع أن أستخرج قليلًا منه.

لوَّح بكفِّه نحو جسده، تلويحة قصَّاب يُري بها القطوع في الذبيحة: «حسن. البطن، أعلى الفخذ، والحلق، كلها تصلح. ولا تكتفي بضربة. ستُدهشين مما يستطيع الرجل أن يتحمله ويواصل القتال به».

- رأيت مؤخرًا أشياء ما كنت لأصدِّقها.

قال: «واصلي الطعن حتَّى تتيقني أنهم ماتوا». ثم ربَّت كتفها تربيتة ثقيلة، واستدار: «أخ دياز! أسبق لك أن لوَّحت بفأس؟».

أما بالثازار، فكان لا يزال يتلو قائمته: «... موازين للعقاقير، حقيقية لا مزيَّفة، طقم ملاعق كيميائية، أداة تقطير جيدة ومُسخِّن زيت، ونبات

ظلّ الليل، طازجًا طبعًا، لا ذاك اليابس التافه، وهل تعرف توائم ماتوا مؤخرًا؟».

ساد الصمت، ونظر إليه الجميع.

- حسنًا، إن كنتَ في الداخل، وأنا في الخارج، فسنحتاج إلى وسيلةٍ للتواصل. أم أنك تنوي... أن تصرخ عبر الشارع؟

قال مارانجون وهو يخمش عنقه المليء بالشعيرات: «آل ڤيزنتين. أخ وأخت. مات هو قبل شهرين. وماتت هي الأسبوع الفائت. أظنُّهما توأمًا».

قال بالثازار، وقد تلألأ صوته فرحًا: «رائع. أضفهما إلى القائمة أيضًا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

22

سحر الطلة

إن الفرق بين الساحر الحق والمشعوذ الزائف -مما لا يحتاج إلى بيان- إنما هو في عُدَّته.

فدوائر الشعوذة قد رُسمت بالفرجار والبيكار، وثُبِّتت على الأرضية المعوجَّة بمسامير من فضَّة سُكبت في منتصف الليل -وهذه لفتة لم يكن بالثازار يتوقع أن يوفرها له رجل عصابات. وقد أُشعلت شموع من مرٍّ إريتريٍّ أصيل عند الزوايا السبع، وكان بالثازار في منتصف كتابته للآيات السماوية من حولها بالخط البونيقي واليوناني العتيق، وهو رجل لا يرضى إلا بالأرفع من كل شيء.

أما سروره بانخراطه في عملٍ سحريٍّ جاد، بعد طول حبسٍ في ابتذال المهام، فقد كان عظيمًا. فعمل بالإزميل والمطرقة، ينقش الرموز، ويتفحَّص كل تفصيل. فقد أحبَّ الطلاسم، إذ لا تخونه، ولا تردُّ عليه، ولا تهمس تعليقًا لاذعًا يرمي إلى تجريده من آخر خرقة من كرامته التي بقيت.

ولئن لم يكن هذا مختبره الخاص، فقد رأى، بالنظر إلى ما أُتيح له من وقت، وما أحاطه من ظروف، وما زامنه من رفقة بائسة، أنه أحرزه نتائج عجيبة. وكانت الشهور القليلة الماضية أشد ما مرَّ به، غير أنَّه قد ظفر أخيرًا بكل ما يلزم.

كل ما يلزم لدخول دار الساحر المُوهِم.

وكل ما يلزم لنقض رباط البابا.

ولمَّا خطرت بباله تلك الأخيرة، اضطُر إلى كبح تجشؤٍ مرٍّ، فقد وجد أنَّ ما يُسكن غليان جوفه هو صرف ذهنه عن الفرار والانتقام، وتركيزه على ما هو حاضر. وهو تمكين هذه الجماعة المتنافرة من اقتحام دارٍ مسحورة، لسرقة شيءٍ غير محدد، لتسليمه إلى أحد كبار المجرمين المتحصنين في ديرٍ مسروق، في سبيل نيل عبور إلى طروادة، حيث يُرجى تنصيب يتيمةٍ مشردة، عليها لطخات السخام والشارع على عرشٍ مفقود. فأيُّ رسالةٍ مقدسةٍ هذه؟

رمق الدمية المختارة، فإذا بالأميرة المزعومة، أليكسيا پايروجينيتوس، منكبة على ورقة مهترئة، تشخط الحروف عليها ببطء، وشفتها السفلى منطبقة تحت العليا بتركيز، وبقعة حبر على خدِّها المرشوش بالنمش. راقب الأخ دياز هذا المشهد، مبتسمًا كأبٍ يتعجَّب من حبو طفله، ويظنُّه قد اخترع المشي. فلا عجب أن الرجل لم يشكَّ في حقيقة ما يسعى إليه بالثازار، فهو مثال الغفلة. وأتباعه ليسوا بأفضل حالًا منه، وأيُّ صدمة تنتظرهم حين...

وهذه المرة، استفرغ عصارة مرَّة، وضرب صدره بكفِّه.

رفع البارون ريكارد بصره عن كتابه، ونظر نظرته الساخرة المألوفة، كأنما يضحك من نكتةٍ لا يعلم بها سواه، وربما هو وحده في القوم من له باع في خفايا السحر تجعله يكتشف حقيقة مقاصد بالثازار. لكنه لم يُظهر شيئًا. يراهن على الجانبين بلا شك آملا أن ينسخ طريقة بالثازار حين ينجح أخيرًا في كسر هذا القيد الملعون.

تقيأ بالثازار شيئًا مريرًا، واضطر مرَّة أخرى إلى أن يصرف ذهنه عن حديث الحرية. الأميرة أليكسيا على العرش، طروادة تعود إلى حضن الكنيسة، الإلف يُطردون شرَّ طردة نحو المشرق، قداسة البابا تصفِّق بكفَّيها فرحًا، إلى آخره، إلى آخره...

قالت أليكس بغضب، وهي تكوِّر الورقة بقبضتها الملطخة بالحبر وتلقي بها: «أنا سيئة في هذا!».

قال الأخ دياز وهو يعبر الغرفة ليأخذ الورقة المكرمشة ويبدأ في فردها: «هراء، يا صاحبة السمو. لقد أحرزتِ تقدمًا باهرًا».

قهقه البارون قهقهةً قصيرة وقال: «نحو ماذا؟ إن كانت ستملك إمبراطورية، فلا حاجة بها إلى أن تتعلم الكتابة، بل أن تتعلم الوجود. أليست حفيدة واحدة من أعظم إمبراطورات التاريخ؟ أظهري شيئًا من العزَّة يا فتاة!».

قالت أليكس وهي تعبس: «فيمَ أفتخر؟».

قال البارون ريكارد وهو يلقي بالكتاب جانبًا ويجلس منتصبًا: «ابحثي عن شيءٍ تفتخرين به، أو اختلقيه! لشخص عاش على الكذب، عجبي أنك لا تحسنينه».

- لم تكن معيشةً طيبة.

- فكاهية! خفة الظل بداية حسنة، ولا تُعلَّم بسهولة. غير أنه يجب أن يكون لك مهابة أيضًا. بعض الطول والهيبة.

نظرت أليكسيا إلى نفسها وقالت: «أنا قصيرة كالغائط».

- لا يلزمك الطول. زوجتي لوكريشا أقصر منك، لكنها، والقديس يشهد، كانت تعلو كل مجلسٍ تدخله! انهضي، سأريك. انهضي، انهضي!

نهضت أليكس، وقد بدا عليها القلق، وبدأ البارون يدور حولها، ثم ينخسها بإصبعه كأنما يعيد ترتيبها.

قال وهو يشير هنا وهناك: «هنا... وهناك... إلى فوق... لا، بربك، لا! لا يكفي أن ترفعي صدرك إلى السماء، لا تملكين هناك شيئًا ترفعينه صدقيني. الرأس هو الذي يعلو، والعنق يستطيل -وعنقك رشيق، ترين؟ أنت بجعة، لا نورس، ولا بطة، فلا تصدري نقيقًا!». ثم لمس أسفل فكِّها

ودفعه إلى الأعلى: «تخيَّلي أن تاجك هو من يرفعك. رأسك خفيف، لا يملؤه خبث، ولا شكوك وظنون، بل رجاء وأمانٍ طيبة». وأخذ خصلةً من شعرها بين إصبعيه وجذبها إلى أعلى، وقال: «هكذا، هكذا، هكذا».

- آخ، آخ، آخ!

- هذا أقل من الألم الذي يعتصرني حين أراك تدخلين غرفة كأنك جرذٌ خائف. والكتفان يعودان إلى الوراء -ارحمني يا قديسنا ستيفن، لا، لا! لستِ تكسرين جوزة بين لوحيك! بل تنزلقان تحتًا، هناك هيئة! لا تخفين شيئًا، بل تخيلي أنك تعرضين ملابسك، تبيعينها لمشترٍ فطن! نعم، أفضل، قوية ولينة.

قالت أليكس، متشككة: «قوية ولينة؟».

- نعم، تمامًا! والآن، حوضك مائل -لا، ويلي، لا إلى الخلف- أردافك إلى الداخل، قدر ما تستطيعين، خصرك إلى الأعلى، قدر ما تستطيعين، البطن مشدود. تظاهري، على الأقل، بأن لك عمودًا فقريًا. لستِ كرشًا نيئًا، بل نُحِتَ من رخام! ثم نمشي. لا، نمشي. لا، منتصبة، كإنسان لا كدابة حقل، تخيَّلي ذلك. لا، لا تطحنين الأرض بكعبيك كما تفعل ڤيجا أولاستوتر، ولا تتبخترين مثل بابتيست، بل على رؤوس قدميك! تلامسين الأرض كلمسة عاشق، خفيفة. نعم! الإبهام الكبيرة يتبع الآخر في خطٍ مستقيم من هنا إلى حيث ترغبين. امتلكي المكان! هذه أرضك! نعم! ها هي! صاحبة السمو الأميرة أليكسيا پايروجينيتوس قد حضرت أخيرًا!

توقَّف بالثازار عن عمله والتفت ينظر. والحق أن الفتاة بدت وكأنها تمر بتحوُّلٍ عظيم.

سأل، مذهولًا: «ما هذا السحر؟».

غنَّى البارون ريكارد وهو يلوِّح بأصابعه: «سحر الطلة! كيف تشعرين؟».

قالت أليكس بصوتٍ مجروش، وهي تتقافز في الغرفة كالمعذبة: «كالعذاب».

قال مبتهجًا: «جميل! هذا يعني أنه يعمل».

قالت: «أيمكنني التوقف؟».

- عند أول لحظة تكفين فيها عن كونك أميرة.

قالت مترددة: «آه...».

- أنتِ أميرة في كل وقت؟ فلا بد أن تتصرَّفي كأميرة في كل وقت. تأكلين، وتنامين، وتتبرزين بكامل المهابة الإمبراطورية. حتَّى تصير عادة. حتَّى لا يشمَّ الناس عند اقترابك سوى عطر الملك، بدلًا من...». وهنا تقلص أنفه، وقال: «رائحتك المعهودة، القادمة من الحضيض».

- لا يمكن لهذا أن يكون طبيعيًّا.

- لأنك، وأنتِ فرس سباق أصيلة، قد حُبستِ في كيسٍ طيلة سبعة عشر عامًا. علينا أن نجعله طبيعيًّا، وعلينا أن نلتفت إلى هذا الخراب الرثِّ القابع فوق عنقك. وصفع وجنتيها صفعًا خفيفًا أحدث صوت صفعات.

ثم قال: «والآن! نبتسم. لا، نبتسم. ليس كتكشيرة جمجمة، لسنا نحسب عدد الأسنان. أقل من الفم، أكثر من العين. ليس استخفافًا يا عزيزتي، ولا استهزاءً، بل نهاية سعيدة لمأساة. صادقة، عاطفية. كل شيء آل إلى ما كنت ترجين. من معك هو بالضبط من رغبتِ في رؤيته!». راح يتقافز مبتسمًا كأن الأحبة أحاطوا به، وتقافزت أليكس معه، تبتسم وتسايره في خطواته: «العالم صندوق حلوى، وقد طُلب منك أن تختاري قطعة. آه، أيُّها تختارين؟ كلها شهية! نعم! حسن! واستخدمي الرموش. صاحبة السمو، ما أبهى كبرياءها وما أقرب مداها. صاحبة السمو، ما

أرقَّ تواضعها، ما أطيب شمائلها، قد جمعت فضائلها الاثنتي عشرة كلها! اسحريهم! أبهريهم! اسلبي قلوبهم!».

قالت أليكس، وقد وضعت يدًا على صدرها، وارتسم على وجهها اهتمام ساكن: «يا أخ دياز، كم يسعدني أنك رافقتني إلى طروادة. وأنا ممتنة كل الامتنان لتعليمك إياي فن الخط». حتَّى بالثازار بدا مذهولًا كالرَّاهب، إذ تغيَّرت نبرتها هي الأخرى، أعلى، أصفى، أنقى.

قال البارون، يصفِّق وقد تلألأت عيناه: «رائع! كدت أصدقكِ بنفسي! لو كنت أنا سريع الفهم مثلك، لما...».

ثم فُتح باب الشقة بصوتٍ صاخب، واندفع يعقوب الثورني إلى الداخل وهو يجر شيئًا ملفوفًا في كيس خيش. وأمسك مارانجون بالطرف الآخر، يلمع جبينه عرقًا. وكان الطرف السفلي، ولا شك، إذ إن بالثازار خبير لا تخفى عليه هيئة جثمان مكفَّن.

قالت أليكس، مغرِّدة، ضامَّة يديها ورافعة رموشها: «يا يعقوب الثورني! يا بطل الدبِّ المتدحرج، الذي أدين له بحياتي. ما أسعدني بعودتك!».

رمى يعقوب الجثمان واعتدل، وهو يعجن ظهره بيده، وقال: «ماذا؟».

ثم اقتحمت ڤيجا المكان، تجرُّ جسدًا آخر ملفوفًا، وبابتيست تمسك بالطرف السفلي، غير راضية البتة.

قالت الأميرة، وهي تتقافز نحو ڤيجا: «ويا ڤيجا أولاستوتر! ما أبهى صدريتك. أهي جديدة؟ أهي حرير؟».

قالت ڤيجا وهي تنظر إلى صدريتها الملطخة، ثم إلى أليكس، مشدوهة: «تبًّا، لا. أأنتِ سكرانة؟ أهي سكرانة؟».

قال البارون، وهو ينكمش على أريكته البالية، يحدق إلى كتابه بلا مبالاة: «ما كنت لأُدهش».

ثم بدأت عزيمة الأميرة أليكسيا تفتر، غير أن بالثازار ركع مسرعًا إلى جوار أحد اللفائف، وبدأ في كشفها، وقال: «آل ڤيزنتين، على ما أظن؟».

ثم نزع الخيش عن الوجه، فوجده نبيل الملامح، بأنف بارز.

قالت أليكس، وقد ابتعدت واضعة يدها على فمها: «يا ويلي، كم تفوح منه الرائحة».

لم يُعرها بالثازار بالًا، فباعث الأرواح لا يُزعجه أثر التحلل اليسير. وقد بدت البشرة بلونٍ أخضر مزرقٍّ، وظهرت عليها عروق العفن الأولى، لكن الجسد في مجمله متماسك.

قال بالثازار، وهو ينتقل إلى أخت القتيل ويكشفها، فإذا بها تحمل ثؤلولًا ضخمًا على خدها، إلا أنها في حالٍ أفضل من شقيقها: «رائع! أحسنت يا مارانجون، لقد تفوقت على نفسك».

أما مارانجون فلم يحرِّك ساكنًا، كأنما امتدح أحدهم مهارته في شراء كيس برقوق. ولو سئم الإجرام المنظم، لكان معينًا يعتمد عليه باعث الأرواح. أما بابتيست، فكانت أقل تصبُّرًا، وقد اكتفت قرفًا من كل هذا، وكان في ذلك متعة خفية لبالثازار.

قالت، وهي تتراجع: «مهما تنوي فعله هنا، فأعفني منه».

قال بالثازار، وهو مشغول يتحسَّس رقبة التوأم الذكر بإبهاميه، باحثًا عن الفقرات: «لا بأس عندي أن أبعدك عن كل شؤوني القادمة. أتعاونني يا يعقوب؟ لي ظنٌّ أن مثل هذه الأعناق لم تَغِب عنك من قبل».

قطب الفارس العجوز أكثر من عادته، وقال: «تريد أن تقطَع رؤوسهم؟».

قال بالثازار: «أم تراك ستسحب جثةً كاملة في دارٍ ملعونة؟».

ساد الصمت.

قالت ڤيجا وهي تفرك موضعًا بين فخذيها، شاردة: «كنت راغبة في نَزوة... لكن هذا عكر مزاجي».

23

رؤوس ناطقة

حكَّ الخشب الحجر، وراح يعقوب يراقب بابتيست وهي تقفز بخفة إلى الدرج، في نفسه حسد مرير. مال القارِب ميلة شديدة حين وضعت ڤيجا قدمها العارية الضخمة على الحافة، ثم اهتزت بعنف إذ قفزت إلى اليابسة، تاركة مارانجون يصارع العصا ليُبقي القارب ثابتًا.

ضغط يعقوب أسنانه ببعضها، وهو يترنح قائمًا، تئنُّ مفاصله المعتادة ألمًا في سعيه إلى التوازن. لا أحد يرغب في أن يرى شكوكك. دفع بقدمه إلى الأمام جرأةً، لكن ما إن بلغت الدرجة حتَّى لسعه ألم قاسٍ في فخذه، فتنهد متوجعًا، وضاعت عزيمته، وانتهى به الحال عالقًا، قدم على الدرج، وأخرى في القارب، فيما الاثنان يفترقان رويدًا رويدًا، وذراعاه تدوران في الهواء محاولًا ألا يسقط، وقد احتدم الألم بين فخذيه مع كل لحظة.

قال وهو يئن: «آه... تبًّا... تبًّا لهذا...».

أمسكت ساني بذراعه، واتكأت بجسدها إلى الوراء، أسنانها تصطك، وتجرُّه بكل ما أوتيت من قوَّة، حتَّى استطاعت أن تسحبه إلى الدرج. فانحنى لاهثًا، يتحسَّس خاصرته بحذر ليتأكد أن شيئًا لم يُكسر. ولا تزال ساني تمسك بذراعه بكلتا يديها، فانتزعها منها.

قال وهو يتمتم: «شكرًا». كأنما الشكر الخافت ينفي حاجته إلى المساعدة.

قالت ساني: «تقولها كأنك لم تحتج إلى المساعدة».

قال، وهو يزفر بحدَّة: «ما كنت أحتاج إليها»، ثم أضاف بصوت أخفت: «كنت سأتمزَّق فحسب».

حدق مارانجون إلى ساني وقال: «من أين جاءت؟».

قالت: «كنت في سيرك قبل هذا».

قال مارانجون: «أحب السيرك». وقد كانت تلك الدهشة الهادئة أكبر انفعال رآه يعقوب عليه في طول معرفته به. ثم سأل: «ولِمَ تركته؟».

قالت: «الأمر لا يبدو ممتعًا في داخله».

هزَّ مارانجون رأسه ببطء: «وأي شيء ممتع من الداخل؟».

ولم يبد بيت المُوهِم ممتعًا من الخارج كذلك، إذ صعد يعقوب يعرج فوق الدرج، واجهته الكئيبة مكسوة بنباتٍ ميت، ونوافذه الضيقة مغلقة بإحكام.

وقفت بابتيست في القمة، يداها على خصرها، وقالت وهي تشير إلى الباب: «أظنني وجدت أول العقبات». إذ لم يكن ثمَّة باب. ثمة درج، وشرفة، وسقيفة صغيرة، وكل ما يدل على وجود مدخل. لكن لا باب. فمرَّر يعقوب يديه على الحجر حيث ينبغي أن يكون، فوجده رطبًا كما كل شيء في البندقية، لكنه صلب جدًّا.

قالت ساني: «هذا يسير على ما يرام».

قالت ڤيجا: «ليس أسوأ من المعتاد».

قالت بابتيست: «لم ندخل بعد، وها نحن نحتاج إلى المشعوذ».

قال يعقوب، متألمًا وهو يصحِّحها: «ساحر، لا مشعوذ. اللعين جعلني أكرر كلامه. الأفضل أن نخرج الرأس».

ولم يُبدِ أحد منهم سرورًا بالفكرة. أنزلت ڤيجا الكيس عن كتفها بتثاقل، وجعل الأربعة يحدِّقون إليه. قالت، وهي تعبس: «لست من سيلمس اللعين».

قالت بابتيست: «لو أن لامرأةٍ أن ترتاح مع الجثث، لكانت أنتِ».

قالت ڤيجا: «ليس الأمر في الأشلاء الميتة، بل في احتمال عودتها إلى الحياة. لا شك عندي أنك خبيرةٌ بهذه الأمور؟».

قالت بابتيست، وهي ترتجف: «لست من سيلمس اللعين». ثم أضافت، مشيرة إلى يعقوب: «أنت جثة تمشي يا يعقوب. افعلها أنت».

وكان يعقوب يضغط بأصابعه على فخذه الذي لا يزال يتألَّم، وقال: «ما يُقلقني ليس الجثث ولا السحر، بل الانحناء».

تمتمت ساني، ثم قرفصت عند الكيس، وأمسكت الرأس من أذنيه. شعره كتلة رمادية مشعثة، وعلى عنقه رقعة جلدية مخيطة، وفي جبهته دائرة من الطلاسم المموجة، وفي وسطها مسمار فضي.

قالت: «بالثازار؟ أأنت هنا؟».

قال الرأس: «طبعًا، فأين بحق الجحيم سأكون؟».

قالت بابتيست، وقد تراجعت خطوة: «اغغ». تحرك الفم، لكن الوجه ساكن كأنه قناع من رخام. وهو منظر بالكاد يُحتمل كما قد يتوقع المرء عند الحديث مع رأسٍ مقطوع.

تأملت ساني وقالت: «ليس صوته، لكن المرء يشعر أنه هو».

رفعت ڤيجا نظرها إلى الشرفة حيث ينتظر الآخرون، وقالت: «أشم النذل من ميلٍ بعيد».

قال الرأس: «سمعتك».

قالت ڤيجا: «حسنًا، لم يذهب قولي هدرًا».

قالت ساني: «إنه يسيل».

وفي زاوية الفم بالفعل خيط من سائل غليظ. فأمسكت ساني الرأس بيد، وأخرجت من الأخرى منديلًا، وبدأت تمسح وجهه كما تفعل بحنان مع قريبٍ مسنٍّ فقد وعيه.

سألت بابتيست، وكأنها وجدت الأمر أغرب ما يكون: «لِمَ تملكين منديلًا؟».

قالت ساني: «لأمسح الأشياء. ولِمَ أملكه لغير ذلك؟».

قالت بابتيست، مشيرة إلى حرف (S) المطرَّز بعناية في ركنه: «أهو مطرَّز؟».

رفعت ساني أنفها وقالت: «المنديل الذي لا يحمل رمزًا، يكون خرقة فحسب».

قال الرأس، وهو يسيل أكثر: «ما هذا؟ منديل؟ الكل يتكلم دفعةً واحدة! أأنتُم داخل الدار؟».

قال يعقوب وهو يحاول فكَّ إحدى ساقيه: «ليس... بالضبط».

- إما أن تكونوا داخلها وإما أنكم...

- لا سبيل لباب.

***

قال الرأس، وقد استند إلى رزمة كتب أمام بالثازار: «لا ثبيل لباب».

وكان من العسير الجزم هل عانى هذا الرأس من اللثغة منذ ولادته، أم استجدَّت عليه بعد موته، لكنها، والحق يقال، ليست مما شغل بال الأخ دياز.

قال دياز، وقد شهق: «يا مخلِّصتنا، أنقذينا...». أظلم فنون الظلام تُمارَس أمام عينيه غير المصدقتين. أشد قيود الكنيسة صرامة، لم يتهاونوا بها فحسب، بل مزقوها شرَّ مُمزِّق، ثم نثروا شظاياها وطحنوها بالأقدام في القذارة مسرورين. وقد جعل ذلك هفوات الصبي تبدو كأنها

هزل عابث. ولعلَّ الأمر كما قالت الكاردينالة زيزكا: «ينبغي أحيانًا أن يُستَخدَم سلاح العدوِّ عليه»، ولكن إن كان القويم ينحدر إلى الدرك ذاته، فما الفرق إذًا بينه وبين الفاجر؟ أين الحدُّ؟ أيوجد حدٌّ أصلًا؟ فالأخ دياز لا يرغب في العيش في عالمٍ بلا حدود، ومع ذلك، ومن غير جناية اقترفها، وجد نفسه الآن يتأمَّل فيما إن كانت ذلك الرأس المقطوع يلثغ منذ ولادته. وربما لم تكن هناك حدود أصلًا. وربما فكرة الحدود محض خرافة مطمئنة، راق له تصديقها.

قالت أليكس، وهي بمثل تقزُّزه: «اغغ، أهو يسيل؟».

تمتم بالثازار: «ليس أكثر مما توقعت». وهذه من التفاصيل التي لن يذكرها الأخ دياز في رسائله إلى أمه مطلقًا. والحقيقة أن رسائله تهمل كل شيء تقريبًا، ولعلها نعمة للجميع أنه لم يجد سبيلًا لإرسالها بعد. قال الساحر نافد الصبر: «ألدى أحدكم خرقة؟».

قال الرأس: «معي منديل».

ثم أضاف: «معها، والمنديل الملعونٌ ومطرَّز».

صاح به بالثازار: «لستُ أعنيكم! كيف أمسح رأسي بمنديلك، وأنت لست هنا؟!». ثم تأوَّه بضيق وقال: «إلى متى أظلُّ أحتمل هذه المخلوقات البائسة؟».

قال الأخ دياز، وهو يفرك صدغيه المبللين بالعرق: «أطرحُ على نفسي السؤال ذاته منذ زمن».

قال بالثازار، وهو يرفع كُمَّيه ويرفع يديه وكأنه يستعد لعزفٍ على قيثارةٍ خفية: «من الواضح أن أحدًا منا ليس في الصحبة التي اختارها. وقد بدؤوا من الآن يحتاجون إلى الساحر».

قال البارون ريكارد، وهو متمدِّد على أريكته المهترئة: «كنتُ أظنُّك ستُسرُّ، إنها فرصة ذهبية لتُظهر مهاراتك السحرية الجبَّارة».

قال بالثازار، مع أنَّ وجهه ازداد خُيلاء عند ذكر كلمة الجبَّارة: «بربك. تبديدُ وَهمٍ سخيفٍ واحد لا يُعدُّ امتحانًا لقوتي».

قالت أليكس، وهي تشير إلى ما يغمر الطاولة والأرض من الأدوات السحرية: «ومع ذلك، تحتاج إلى محتويات دكَّانَي خردة كي تُنجزه».

قال بالثازار، صارخًا: «ومن يعلم العقبات السحرية التي قد يواجهها رفاقنا التعساء؟ ما يفصل الساحر الحقيقي عن الساحرات، والمشعوذين، وجنِّيات الحقول، وتلك الزُّمرة المُتغطرسة من بائعي الخرافات...». وهنا بصق الكلمة نحو الأخ دياز: «... الكهنة، هو الإعداد التام لأي احتمال».

سادت لحظة صمت. ثم سألت أليكس: «إذا كان لزامًا عليك أن تملك خرقة؟».

ارتدَّ البارون إلى الوراء ضاحكًا، وحرَّك بالثازار فمه بمرارة، ثم قال: «تسلَّوا كما شئتم».

ثم مدَّ يديه من جديد، كقائد أوركسترا على وشك أن يستخرج لحنًا عظيمًا من جوقة خفية، وقال: «بعضنا لديه عمل».

* * *

قالت ڤيجا: «كنتُ آمل في ألعاب نارية».

ومثل أكثر الأمور، ليس السحر كما يتمنى المرء. فالأحجار لم تنزلق، ولا تلاشت كالدخان. بل ظهر الباب فجأة. بابٌ مسمر مغطًّى بدهانٍ متقشر، له حلقة مقبض نحاسي باهت.

قالت بابتيست وهي تفرك راحتيها جاثيةً عند القفل: «دوري الآن». ثم حرَّكت أصابعها، وأخرجت مجموعة من مفاتيح الأقفال، وبدأت تعبث بها. وكانت تحمل ما لا يقل عن اثنتي عشرة قطعة، أسلاك ذات سنون وتعاريج، دقيقة إلى حد جعل أيدي ڤيجا تؤلمها لمجرَّد النظر.

سألت ساني، وهي تعيد الرأس إلى الكيس: «أأنتِ متأكدة من قدرتك على فتحه؟».

أصدرت بابتيست صوت تأفُّف ضيق. كانت ماهرة في الأصوات، تسرد قصةً بزفرة وحركة حاجب. وقالت: «فتحتُ أقفالًا أصعب من هذا. هل ذكرتُ لكم قصة خزنة تاجر النبيذ في راڤِنَّا؟».

قال يعقوب، وهو لا يزال يقبض على موضعه المؤلم: «مرتين على الأقل».

تابعت بابتيست، وهي تُدخل قطعة أخرى في القفل: «وقصة ابتزازي لأسقف كالابريا؟».

قالت ساني: «إحدى روائعك».

خرج صوت خافت من داخل الكيس: «هل فُتح الباب؟ أأنتم في الدار؟ هلا يُجيبني أحد؟».

قالت بابتيست وهي تُطيل اللفظ حتَّى احتاج السامع إلى صبرٍ ليستمع له: «الصبر... هذه المسألة تحتاج... أصابع ماهرة... وصبر...».

وهما أمران لم تعرفهما ڤيجا قط، حتَّى قبل العضة. فأمسكت بحلقة الباب وجذبتها بقوة. فدارت، وفتح الباب صادحًا، وبابتيست متجمِّدة، أربعة مفاتيح في يدها، واثنان بين أسنانها.

قالت ساني: «لم يكن لمعبد الذرائع المقدسة مزايا كثيرة، لكني أفخر بكوني في فريقٍ نخبوي. فيه الرجل الذي لا يعرف كيف يهبط من القارب، والمرأة التي تعجز عن فتح بابٍ مفتوح».

قالت ڤيجا وهي تمرِّر يدها في شعرها وتلوِّح به نحو الخلف، متبخترةً داخلةً: «أجل، قد تحتاج أحيانًا إلى الأصابع الماهرة والصبر... وأحيانًا لا تنفع إلا الحماقة اللطيفة».

وكما أغلب الأمور، كان أول منظر إلى داخل بيت الساحر المُوهِم مخيِّبًا. رواق مظلم، أرضيته من بلاطٍ أسود وأبيض كرقعة الشطرنج. وقد حاول أولاف أن يعلِّمها الشطرنج مرَّة، لكنَّها لم تفهم. خيول صغيرة وأساقفة وقلاع وملكات، أشياء لم تُحبَّها وهي كبيرة، فكيف وهي مصغَّرة؟ مجرد التفكير في تنقلات تلك القطع المتعبة يجعلها ترغب في قذف الأوغاد في نار.

نزلت خيوط عنكبوت من لوحة مغبرة، تظهر فيها امرأةٌ متغطرسة تمسك بابن عرس. ووقف درعان صدئان بانحناءة غير متناسقة.

قالت، وهي تنظر حولها وانسلت ساني إلى جوارها: «هذا هو؟ كنتُ أرجو...».

قالت الإلف، وهي تمرر إصبعها على الجدار ثم تنفخ غبارًا عن طرفها: «أقلُّ غبارًا؟».

قالت ڤيجا: «أرجو سحرًا أكثر. لعل الداخل أكثر سحرًا؟». ومضت تمشي، لكن يعقوب أمسك بذراعها.

قال، ساحبًا سيفه ومحدِّقًا إلى الرواق: «علينا السير بحذر. نحن نعلم أن المكان خطر».

قالت ڤيجا، وهي تنقر رأس السيف بظفرها: «لكنه ليس بيت مبارز، أليس كذلك؟ أتراك ستقاتل وهمًا؟ الأغلب أنك ستزيد الطين بلة».

قالت ساني، وهي تسير في الممر بخفة على رؤوس أصابعها: «السيوف دائمًا تزيد الطين بلَّة. تلك هي غايتها».

قالت ڤيجا، وهي تنتزع ذراعها من قبضته، وتربِّت على خده قبل أن يبتعد: «وما فائدة الخلود إن لم تعش قليلًا؟».

قال يعقوب وهو يعيد سيفه إلى غمده: «انطلقي إذًا. وما يهمني حين نسقط جميعًا في حفرةٍ كلها رماح، فأنا لا أموت».

قالت ڤيجا، ثم قطعت كلامها: «لكنك قد تُحشر في قاع الحفرة لعقد كامل، وبرمح في مؤخِّرتك...».

توقفت ساني، وأمالت رأسها.

فسألتها: «أتسمعين شيئًا؟».

قالت الإلف: «ذبابًا».

دخلوا غرفة طعام فسيحة، سقفها عالٍ، وتحيط بها شرفة من أعلى، تتدلى منها ثريَّا فيها اثنتا عشرة شمعة. وكان ثمة طاولة طويلة مضاءة بشعاع ضوء كأنها مسرح، يحفها ستة عشر كرسيًّا، أحدها مقلوب، كأن أحدًا قد وثب فجأة. الطعام موضوع، ولم يُؤكل. الصحون مملوءة تزاحم بعضها على السطح، وشوكة التقطيع لا تزال مغروزة في قطعة لحمٍ مغلَّفة بالعفن. والذباب يمشي على المائدة الفاسدة، ويطنُّ ويخترق الهواء المتخم بالعفن الناضج، حتَّى صار طنينه مؤلمًا في أذني ساني بعد صمت الرواق الذي يشبه القبر.

كشرت ڤيجا عن أنيابها المدببة وقالت: «لحمٌ فاسد».

كان في الركن جثمانان، يحوم الذباب فوق وجهيهما المتبقِّعين.

قالت ساني: «ثمَّة أموات».

قال يعقوب، وهو ينفخ في وجنتيه ذوات الندب: «ثمَّة أموات أينما نذهب».

قالت بابتيست، وهي تعقد أنفها ضيقًا من زهورٍ ذابلةٍ موضوعة في منتصف المائدة: «وإن لم نجدهم حين نصل، فلا شكَّ في أننا نخلفهم حين نغادر. أترى هؤلاء من رجال فريجو؟».

قرفصت ساني إلى جوار الجثتين. بدا كأنهما ماتا في أحضان بعضهما، وذلك ما قد يدفئ القلب، لولا أنهما يقبضان على سكينين في يديهما، فكان العكس. يبرد القلب؟

- طعن أحدهما الآخر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قالت ڤيجا: «هذا حسن».

سألها يعقوب: «أهو كذلك؟».

- لن يطعنانا على الأقل.

رفعت بابتيست حاجبًا وقالت: «سمعت أن بعض الناس يستطيعون قضاء يومٍ كامل دون أن يطعنوا أحدًا».

هزَّت ڤيجا كتفيها وقالت: «بعض الناس، ربما. ما معنى هذه؟». وأشارت إلى رموزٍ مبعثرة على الجدران كُتبت بعَجَلة بلطخات طلاء: «تبدو سحرية».

رفعت ساني الكيس وقالت: «أنسأل الخبير؟».

لم يُظهِر أحد حماسة للفكرة.

قال يعقوب: «دعونا نُؤخر ذلك حتَّى نضطر إليه».

قالت بابتيست وهي تنظر إلى الأبواب الأربعة في الجدران الأربعة، كل منها يؤدي إلى رواق مكسوٍّ بالخشب يمتدُّ في العتمة: «أيُّ طريق؟».

سألها يعقوب: «ألستِ مرشدة؟».

- بل كنت قبطانة. شهرًا أو شهرين. على سفن هانزية غالبًا. وأعرف دلتا الراين ككفِّ يدي.

قالت ساني، وهي تنظر حول قاعة الطعام: «لا أظن أن هذه دلتا الراين».

قالت بابتيست، وهي تنزع قبعتها وتحكُّ مؤخرة رأسها: «أذكرها أكثر ابتلالًا. وقد علِقت مرَّة بسفينتي على ضفة رمليَّة. قصة طريفة، كانت الحمولة جزئيًّا من خنازير حيَّة...».

قالت ڤيجا: «ويبدو أنك كنت نافعة»، ثم اتجهت إلى أقرب رواق: «ما رأيكم بهذا؟».

تقدَّم يعقوب ووقف في طريقها وقال: «علينا أن نكون حذرين، تفهمون؟». وأشار إلى الجثتين: «من الواضح أن المكان خطر».

- إذًا فكلما أسرعنا بالخروج، كان أفضل.

تردد يعقوب، ففتح فمه نصف فتحة، لكنه لم يجد جوابًا.

تجاوزته ڤيجا، وقالت: «أترى؟ بعضنا قادة، وأكثرنا أتباع».

قالت ساني، وهم يسيرون نحو الضوء بين الدروع العتيقة وتحت نظرات اللوحات الرديئة: «أتسمعون ذلك؟».

حاول يعقوب أن يصغي، لكن كل ما بلغه هو صفعات قدمي ڤيجا العاريتين على البلاط المربَّع.

قال: «سمعي ليس كما كان...». ولا بصره، ولا ذاكرته، ولا مفاصله، ولا مثانته. وللحق، أذناه أفضل ما بقي فيه من حواس: «ماذا تسمعين؟».

لكنَّه سمعها بنفسه حينها.

قالت بابتيست، وقد دخلوا قاعة طعام فخمة، تتدلى منها ثريَّا فيها اثنتا عشرة شمعة: «ذباب». والطاولة الطويلة تغص بطعامٍ عفن، وكرسيٌّ من الكراسي الستة عشر ملقى على الأرض.

قالت ڤيجا: «كم قاعة طعام يحتاج إليها ساحر مُوهِم؟».

قالت ساني، وهي تقرفص مجددًا عند الجثتين: «إنها الغرفة ذاتها»

قالت ڤيجا: «هممم. كيف لم أرها؟».

قالت ساني، وهي ترفُّ برموشها: «بعضنا قادة. أكثرنا أتباع».

قالت ڤيجا، وهي تنظر إلى الثريَّا بحسرة: «استحققتُها. انحنيتُ واستعطفت لأجلها. ليست أسوأ مما أستحق».

قالت بابتيست: «وما الذي يمكن أن يكون أسوأ مما تستحقين؟».

قالت ڤيجا، وهي تنظر في أحد الأروقة، ثم تقارنه بنظيره المقابل: «سِرنا في خطٍّ مستقيم... وعدنا إلى حيث بدأنا».

قال يعقوب، وهو يضغط مجددًا على موضعه المؤلم: «أعود إلى مكاني ذاته منذ عقود». والألم يزداد مع الزمن.

قالت ڤيجا: «كيف نمضي أعمق؟».

قالت ساني، وهي تنظر إلى الجثتين: «وكيف نخرج أصلًا؟».

وتأمَّل الجميع المسألة.

قالت بابتيست: «وكأنني أضع عنقي تحت نصل».

قال يعقوب: «هاتوا الرأس».

وكان لا يبدو في غير موضعه، جالسًا على عنقه وسط الطعام العفن.

قال الرأس: «أظنكم تحتاجون إليَّ من جديد».

فرك يعقوب جسر أنفه. وشك كثيرًا في أنه سيفتقد بالثازار شام إيفام دراكسي إذا ما انتهى، كما انتهى كل ساحر وساحرة ومشعوذ ومشعوذة في معبد الذرائع المقدسة في السنوات الماضية.

قال: «وجدنا قاعة طعام ممتلئة بطعام عفن، وكل مخرج منها يعيدنا إلى هنا».

قال الرأس بصوت ظنه يعقوب صوت الأخ دياز: «كيف تمضون أعمق؟».

ثم بصوتٍ آخر يشبه أليكس: «وكيف يخرجون؟».

وتأمَّل الجميع المسألة مرَّة أخرى.

سأل الرأس: «أثمَّة كتابة؟».

قالت ڤيجا وهي تحدِّق إلى الرموز المرسومة بغير إتقان.

قال الرأس، وذبابة تحطُّ على السائل المتخثِّر عند فمه: «أيُّ طلاسم؟».

قالت ڤيجا: «لا أعرف القراءة».

قال الرأس: «يا للدهشة! ومن يعرف؟».

قال يعقوب: «أنا أستطيع».

قال الرأس: «تقدَّم!».

- لكن ليس الطلاسم.

سأل الرأس: «أيعرف أحدكم قراءة الطلاسم؟». بنبرة غيظ على الرغم من رتابة صوته الفوَّار، وقد طافت ثلاثُ أو أربعُ ذُباباتٍ حول فمه تطنُّ وتدور.

قالت بابتيست: «أعرف بعضها».

سأل الرأس: «ثم؟».

تأمَّلت بابتيست الطلاسم، شفاهها منطبقة من التركيز، ثم قالت: «لكن ليس هذه».

قال الرأس متأففًا: «اللعنة...».

* * *

وفي ركن آخر، كان بالثازار قد شد نفسًا طويلًا من بين أسنانه المشدودة: «اللعنة».

فإن طالت مشاركته في هذه الرحلة الكئيبة، ولم يُقتل على يد أحد رفاقه المقيتين، أو على يد أحد أعدائهم المتكاثرين على الدوام، فلا شكَّ أنه سيموت من التقرفه من جهلهم الصارخ.

وكان الرأس يقول: «أتتطيع وثنها لك... الأولى فيها خطان وبينهما لولب، تشبه شيئًا كـ... عضو».

قال الرأس بصوت آخر: «كل شيء يشبه العضو عندك».

صاح بالثازار: «كفى! أنتم -وأعي أني أمدُّ هذا اللفظ إلى أقصى ما يمكن من المهانة- يمكنكم الآن أن ترتاحوا، أو تتمازحوا، أو تقتلوا بعضكم، فلن يُقدِّر أحدٌ الفنَّ الذي يتطلبه الأمر، لكن بالثازار شام إيفام دراكسي سيتكفَّل بالأمر وحده!».

سألته أليكس، وقد ارتابت بفطنة المحتالة المعتادة: «أتعرف ما الذي يجري هناك؟».

قال: «أستطيع شرح الأمر لكِ، لكني أخشى أن يُفوِّت رأسك تفاصيله».

وضعت يديها على خصرها، وزادت عنادها على قبح خلقها، وقالت: «جرِّبني».

زمَّ بالثازار أسنانه وقال: «شخصٌ يملك خبرتك السحرية العظيمة يا صاحبة السمو، لا بُدَّ أنه استنتج أن الذباب هو جوهر المسألة. فالذباب يملك ستَّ أرجل وجناحين، والمجموع ثمانية، وهو عدد المحطات في مفتاح جايسلر الصغير، وهو أساس يفضِّله سحرة الوهم لشدَّته في التأثير على الذكرى والحواس».

قال البارون بتكاسل، ملوِّحًا بيده: «من البديهيات».

تابع بالثازار: «نحن نواجه طلسمًا دفاعيًّا معتمدة على الحشرات، تتضمن طيًّا محدودًا في الفضاء، يغذِّيه التحلل العضوي. إنها بارعة في ذاتها، لكنها صبيانية في التنفيذ، ومغرورة أيضًا...».

قال البارون: «وذلك ما لا يُغتفر».

قال بالثازار: «الحل الواضح، إذًا، هو تدمير الحشرات، ومعها السحر. حسنًا».

رفع بالثازار كُمَّي ردائه المطرَّزين الذي جلبه له مارانجون، لتبقى ذراعاه حرَّتين لاستدعاء جوهر الخلق.

وقال، بنبرة معلِّم يتهيَّأ لبدء عرضه: «إن لم يكن عند الجمهور أسئلة، فلعلَّهم يأذنون لي بالمباشرة».

وبغير انتظار للأميرة ابنة عرس، شرع في تشكيل الحركات، ينسج بيديه طقوسًا لطالما خطَّط لها منذ أن وطؤوا البندقية.

طقسٌ لا شأن له أبدًا بهذا البيت السخيف، وكلُّ غايته أن ينقض الرباط البابوي الملعون. وكان مما يأسف له أنه لن يُتيح لأحد أن يعرف دقائقه، لأنه طقس يفتخر به كثيرًا. وحين ينجو، فلن يُؤذن لأحد أن يذكر هذا الفصل، إلا ومعه وعدٌ بموتٍ مروِّع.

وحين يتحرر...

تجشَّأ من جديد، ومرارة في حلقه.

سأله البارون: «مغص في المعدة؟».

قال بالثازار، وهو يقطِّب: «من رائحة هذه الشموع».

شرع يرسم بحركةٍ تجميع، ودوائر الساحر اضطربت عند مواضع تثبيتها وشرعت ترتجف بالوهج. أحسَّ بالوخز في رؤوس أنامله، وبالرجف في أخمص قدميه حين نطق بالكلمات الأولى، وهي تعويذة من سبع حركات، من صنعة يديه.

وعلى الرغم مما أخذ يتصاعد في أحشائه من علل الهضم، لم يملك إلا أن يكتم ابتسامةً تكاد تُفلت. لقد عاد ساحرًا مرَّة أخرى. استرجع قواه غير منقوصة، وقريبًا سينال كلُّ من تجرَّأ عليه جزاءه.

24

في دوائر

سلكوا هذه المرَّة الممرَّ إلى اليمين، أو لعلَّه الذي إلى اليسار، اختلط الأمر على ڤيجا، وما الفرق؟ كل ممرٍّ يفضي إلى الغرفة نفسها، الطعام العفن نفسه، الذباب نفسه. يعقوب وبابتيست يتنازعان كالعادة، وساني تنفعل، ترجو أن توقف شجار أمِّها وأبيها، كالعادة. وڤيجا، وإن كانت تستطيب المنازعات كما تستطيبها سائر الذئاب، بل وتُقدِم عليها دون تفكير، لكن بين الفينة والأخرى كانت تَستولي عليها الكآبة والخمول، والآن إحدى تلك اللحظات الباهتة الرمادية.

تنهَّدت قائلة: «وما الفائدة من كل هذا». وخرَّت على أحد الكراسي جلوسًا، قبالة أمِّها التي انشغلت بالخياطة. لطالما كانت أمُّها ماهرة كبروكر[1] في الإبرة، تتكسب من إصلاح ثياب القرويين لقاء عملات معدودات. لم ترفع الأمُّ بصرها، على عادتها. منظَّمة، صبورة، لا تعمل إلا عملًا واحدًا في كل حين، لا تشبه ڤيجا أبدًا، والتي تندفع في كل صوب.

سألتها الأم: «أين كنتِ؟».

التفكير في الجواب آلمها، وهبَّ نسيم مالح من الرواق المعتم، فلامس جبينها المتعرِّق، وكم كان هذا لطيفًا.

(1) في الأسطورة، بروكَّر هو قزم حدَّاد شهير، شقيق القزم سندري، وقد اشتهرا بصناعة أعظم الكنوز في عالم الآلهة، مثل مطرقة ثور. «المترجمة».

قالت: «هنا وهناك. اختلطت عليَّ الأمور».

قالت أُمُّها: «دائمًا تختلط عليكِ الأمور. دائمًا تندفعين في كل صوب؟».

- حتَّى قبل العَضة. الحياة... تنهال عليَّ، كأنَّني أمسكت عشَّ دبابير بيديَّ، تفجِّر فجأة. صدمة، ورعب، وألم. وربَّما ورمت يدي قليلًا؟

- نصيحتي ألَّا تلتقطي أعشاش الدبابير.

- لم أكن يومًا أحسن الاستماع للنصائح.

رفعت الأمُّ عينيها إلى ابنتها وقالت: «حتَّى قبل العَضة».

قالت: «أجل». ثمَّ ارتمت إلى الأمام، مسندة ذراعيها إلى درابزين الرصيف المتداعي، وأسندت رأسها إلى ذراعيها، تراقب الموج يصفق أعمدة الرصيف المتقشِّرة المثقلة بالعوالق.

- أظنُّني سأدع الآخرين يتولُّون الأمر الآن.

قالت أُمُّها، وأصابعها منشغلة بشَعر ڤيجا، تشدُّه وتجدله: «الآخرون؟ يتولُّون ماذا؟».

راقبت ڤيجا طائر نورس منتفخ الأوداج يتبختر على الرصيف، يلتمس بعينَيه الحادتين فتاتًا خلَّفه الصيادون.

- لست متأكدة.

كان الذباب كثيرًا.

سألت ڤيجا، وهي تُحكم تشبيك أصابعها لتصنع درجة: «جاهزة؟».

أجابت ساني، وقد وضعت قدمها الحافية على يدَي ڤيجا الموشومتين حيث بدت نحيلة شاحبة، كأنها رسم طفل: «أعتقد».

عدَّت الذئبة وهي تهزُّ رأسها مع كل رقم: «واحد، اثنان، ثلاثة».

قفزت ساني حين رفعتها ڤيجا، فحلَّقت كأن لا وزن لها. والحقُّ أنها لم تزن أكثر من لا شيء بكثير. لمست الدرابزين لمسة خفيفة في مرورها، وهبطت في قرفصة فوق الرواق دون أن تُحدِث أدنى صوت.

سمعت يعقوب يقول من أسفل: «كم يعجبني ذلك».

- الرفع أم القفز؟

- بصدق؟ كلاهما.

قالت ڤيجا: «أيٌّ منهما لا بُدَّ أنه يبدو ضربًا من السحر لرجل لا يستطيع مغادرة قاربٍ دون عون».

- لن تدعيها تمرُّ، أليس كذلك؟

قال بابتيست: «لرجل في مثل سنِّك، أدهشني أنَّك لم تنسها أصلًا».

في الرواق العلوي أربعة أبواب، فتسلَّلت ساني إلى أقربها، وأسندت ظهرها إلى الجدار، وتسللت بعينها خلف الزاوية، لا تُري من جسدها إلا أقلَّه. هذه عادتها.

فكلَّما رأى الناس منها أكثر، قلَّ حبُّهم لها.

ممرٌّ آخر. بلاط ملوَّن، وجدران مغبرة مكسوة بالألواح، وبدلات درع مائلة. كم عدد الممرات التي ساروا فيها؟ خُيِّل إليها أنها بالعشرات.

قال بابتيست: «عليكما الالتحاق بالسيرك، أنتما الاثنان».

قال يعقوب: «ساني جرَّبت ذلك من قبل. ولم ينجح».

نادَت ساني: «لعلِّي سأفلح لو كنت بهلوانًا، لا مخلوقة غريبة». وانتظرت، فلم يأتِها سوى الصمت. قلَّما ضحك الناس على نكاتها. كانوا يقولون: «إن طريقة سردها هي المشكلة، غيِّري أسلوبك اللعين». لكنها ودَّت ولو أقل ضحكة. فعادت إلى الدرابزين، ونظرت إلى أسفل. غرفة خالية.

همست: «يعقوب؟». وفي صوتها زحف عصبيٌّ غريب.

قالت: «ڤيجا؟». وغاصت كلماتها في صمت غريب، حتَّى كأن أذنيها دغدغهما الخواء.

قالت: «بابتيست؟». حتَّى الذباب رحل.

* * *

تمتم يعقوب، وهو يخرج من الرواق من جديد ويعرج: «غريب».

كم مرة؟ الغرفة نفسها؟ البلاط الملوَّن نفسه. المائدة نفسها، محمَّلة بطعام فاسد يحوم عليه الذباب، وكرسيٌّ مقلوب. الثريَّا ذاتها، تحمل اثنتي عشرة شمعة. لكن المائدة الآن في السقف المُبلَّط، والثريَّا تنبثق من الأرضية الخشبية.

لو لم تر شيئًا غريبًا في بيت مُوهِم، لعجبت، لكنَّ هذا، فيما يظنُّ، ليس حقيقيًّا. خزَّ بإصبعه حبَّات زجاج في الثريَّا تشير إلى الأعلى، فرنَّت رنينًا خافتًا وهي تترنَّح، كما يرقص القصب في قاع نهر.

قال يعقوب هامسًا: «المكان مقلوب».

قال زيمون: «أو نحن كذلك؟». وكأنَّ الأمر يحدث كل حين. زيمون بارتوس، بجسده الضخم كما الحياة نفسها، وهي ضخامة عظيمة، يحمل درع النسرين والمِعراج المقدَّس الذي أذنت به البابا أنجيليكا أن يُضاف إلى شارتهم، فصارت جماعة الحديد جماعة الذهب. ما أعظم فخرهم، يوم إذ خرجوا مرتدين الدائرة، والأناشيد على شفاههم، عازمين أن يُصلحوا شأن الدنيا. لكن خالجَه شعور مريب بأنَّه يعلم عاقبة ذلك الأمر.

سأل: «أين ساني؟».

- من؟

- وتلك... ذات الأنياب.

عبس زيمون: «ذات ماذا؟». وعبس سائر فرسان الهيكل. فالطاعةُ تتكسر سريعًا. والبنيان الذي يقوم عليه كل شيء قد يتهاوى، وحينها يجيء الخراب والموت وفشل الغاية المُقدَّسة. وكان على القائد الأعلى أن يبدو أكثر من كونه رجل. أصلب. أقوى. وقبل كل شيء: أكثر يقينًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فمن يقينك يُستمد يقينهم، والجماعة الموحدة على غاية عادلة لا يمكن أن تُهزم.

ولا أحد يحبُّ أن يرى الشك.

قال: «لا عليك». وربما حلم بهم. فكثيرًا ما يغلق عينيه، فيرى الماضي. حكَّ يعقوب صدغيه النابضَين. والعرق الدهني لا ينفك يتجمَّع عليهما.

- حسبتكم قد متم منذ زمن.

قال زيمون: «أنا حيٌّ بقدرك يا قائد».

- إلى هذه الدرجة، هه؟

قالت إلزبيتا، وهي تدور ببطء تحدِّق إلى الرواق المقلوب، وفي الأبواب المقلوبة التي تتفرَّع عنه، وكلُّها سواء: «الاختيارات كثيرة».

لم يستطع يعقوب النظر في عينيها. وتيقن أنَّها ماتت. يذكر أنه خنقها بيديه. ما من خيار آخر. فالشكُّ كالوباء في المدينة، لا يُطفأ إلا بالنار. لكنها ها هنا، بشفَتها السفلى الغليظة، وضفيرتها الملفوفة حول رأسها، والتي لطالما أزعجته رغم أنه لم يعرف السبب.

ملأ طنين الذباب الأرجاء. آلم أسنانه. آلم ركبتيه.

سألت إلزبيتا: «أيُّ الأبواب هو الحقيقي؟».

تمتم يعقوب، مغمض العينين: «ما من باب حقيقي. كلُّها تؤدِّي إلى الجحيم».

إلى جحيمٍ كسروا ظهورهم ليبنوه بأيديهم.

قال الرأس: «ما من باب حقيقي. كلُّها تؤدِّي إلى الجحيم».

- لا يبدو ذاك مبشِّرًا.

* * *

أخذ الأخ دياز يشعر بقلق متزايد. فربَّما كانت بوصلته الأخلاقيَّة تدور على غير هدى في الآونة الأخيرة، لكنه على قدر من اليقين أن الجحيم لا يزال في الاتجاه الخاطئ. «أترى ذلك مبشِّرًا؟».

قالت أليكس: «لا» وهي ترمق بالثازار بنظرة نارية.

حرَّك الساحر يديه في الهواء من جديد، كأنَّه يحاول أن ينتزع من الفراغ فريق خيلٍ غير مرئي، وهذه المرَّة هبَّت نسمة مجيبة عبر الغرفة، جعلت لهيب الشموع يتراقص، وصفحات الكتب الثقيلة ترفرف. اعتدل البارون ريكارد في مجلسه قليلًا، ولم يبدُ عليه الملل المعتاد.

بدأ الإعياء على بالثازار في الحقيقة، يداه وشفاهه لا تكفّان عن الحركة، وطبقة من العرق أخذت تظهر على جلده الذي اكتسب مسحة خضراء خفيفة. أخذ الرأس المقطوع يهذي ويتسرَّب منه شيء على الدوام تقريبًا، ولم يعد من الممكن معرفة من الذي ينطق الآن في فمه الميت.

قالت أليكس، وقد خفتت الريح: «لا يعجبني هذا».

قال الأخ دياز: «ومَن يعجبه؟».

- أنا لا أثق به.

- ولا أحد يثق به!

قال بالثازار، شاقًّا إحدى عينيه بالكاد، يهزأ بابتسامة مشدودة لا تبعث على الاطمئنان: «لا تخافوا... سينتهي كل هذا عمَّا قريب». ثم تأوَّه وهو يبتلع تجشؤًا، وجذب الهواء بغضب من جديد.

اجتاحت الغرفة ريح غير طبيعيَّة، أقوى هذه المرَّة، جعلت ورق الجدران الممزَّق يخفق، وأثارت دوَّامات الغبار، وصدمت الحلقات المعدنية بعضها ببعض وارتجَّت في مواضع تثبيتها. وللمرَّة الثلاثين، منذ جلس على ذاك المقعد خارج مكتب الكاردينالة زيزكا، ساور الأخ

دياز شعورٌ أن الأمور تنحرف على نحوٍ مريع، دون أن يكون له أدنى قدرة على صدِّها. وللمرَّة المئة، منذ جلس على ذاك المقعد، ضغط على القارورة المعلَّقة بسلسلة تحت عباءته، وأغمض عينيه: «أيتها القديسة بياتريكس المباركة، أخرجيني سالمًا من محنتي، وأدخليني في نعمة مخلِّصتنا...».

قال الرأس: «لا، لا، سأكون طيبة».

لسببٍ ما، بدا ذلك للأخ دياز أقل تفاؤلًا من أي وقت مضى.

* * *

- لا، لا! سأكون طيبة!

لكن الجميع يعلمون أنها لن تكون. لم تعطِ أدنى إشارة أنها تعرف كيف تكون كذلك. جُرِّوها عبر ساحة القرية، وشدت سلسلة إلى كل رسغ وكل كعب، ونهشتها حلقات الحديد، وعبس رجلان على كل طرف، يشدَّانها حتَّى شعرت بأن مفاصلها ستنفصل.

راقب الناس، وهم يطلُّون مذعورين من خلف الأبواب، أو يلعنونها وهي تُسحب، أو يقفون بوجوه جامدة وأذرع مكتوفة لا مبالين، كأنهم دروع فارغة موضوعة على رف. أصدقاء وجيران صاروا هيئة محلفين كئيبة، ولم ينبس أحد بكلمة دفاع عنها. ولم تلمهم.

- آه، كتفي! آه، ركبتي!

لكنهم لم يهتموا بمدى ألمها. بل إن الألم مطلبهم. جرُّوها في الوحل والروث وبرك الماء البارد، وسروالها الممزَّق ينزلق حتَّى نصف أردافها، ثم تصعد في الهواء، ثم تتخبَّط على قدم واحدة، ثم ترتطم بركن عربة، تبكي وتتفل وتختنق بشعرها الذي دخل فمها.

سحبوها نحو ذلك المربَّع المظلم الذي هو مدخل البيت الطويل، فأمسكت بإحدى دعاماته، تعلَّقت بها، واحتضنتها كأنَّها آخر صديقٍ لها في العالم كلِّه. وكانت كذلك.

قالت: «لا، لا! أنا آمنة! أنا طاهرة!». لكن الجميع يعلمون أنها ليست كذلك. شدَّ الرجال بكلِّ ما أوتوا، السلاسل تشتدُّ، وصرخت حين بدأت امرأة تضربها بالمكنسة، ضربة بعد ضربة على ظهرها. وأخيرًا، اقتلعوها، ذراعاها ممزَّقتان تنزفان، فارتطم وجهها بجانب المنزل، ودُفعت إلى الظلام، حيث رائحة الأعشاب والدخان.

قالت سادي، وهي تنشر أدوات الحبر: «أنت لست آمنة، ولست طاهرة. بل أنت نقيضهما».

- أنا آسفة!

قالت: «وأنا كذلك. لكن الأسف لا يعيد أحدًا من الموتى». ثم لفُّوا السلاسل حول أوتاد في الأرض المليئة بالقشِّ، وسُحب وجهًا إلى أسفل فوق الصخرة المتَّسخة حيث تُقدَّم القرابين.

تأوَّهت ڤيجا: «الذئب هو من فعلها. لا حيلة لي حيلة». وهي تتلوَّى وتقاوم، لكنها علقت بإحكام كذبابٍ غاص في شمع شمعة.

رفعت سادي وجه ڤيجا، وأمسكته بكلتا يديها، أكثر حزنًا من أن تكون غاضبة، ومسحت دموع ڤيجا بإبهاميها.

قالت: «لهذا يجب أن نوشمك. يجب أن يعرف الناس ما أنت عليه». التقطت إبرة العظم، وأومأت، وبدؤوا يقطعون عنها ثيابها المتسخة.

قالت: «هذا هو الشيء الشريف الوحيد الذي يمكننا فعله. وأنت تعلمين ما نحن عليه هنا. نحن دائمًا نحاول أن نفعل الشيء الشريف».

توسَّلت ڤيجا هامسة: «لا يمكنكم. لا يمكنكم».

قالت سادي: «بل يجب».

طقطق، طقطق، طقطق، إذ بدأت سادي تثقب العلامات في جسدها، وبكت ڤيجا. ليس من الألم. بل لأنها عرفت أنه لا عودة بعد هذا.

* * *

قال الرأس هامسًا: «لا يمكنكم، لا يمكنكم».

ولم يفهم بالثازار، ولا يهتم إلى من تنتمي هذه الكلمات. فلطالما عدَّ الوهم علمًا أدنى، تعريفًا صريحًا للخداع، ميدانًا لباعة الأوهام الرخيصة لا لسحرةٍ يحترمون أنفسهم. وقد ترسخ هذا الرأي في نفسه حين خدعته «كوڤورين ذات الأعيُن التسع» في اجتماع لأصدقاء الأسرار، وجعلته يقبِّل إوزَّة أمام الحاضرين أجمعين، إهانة لم تُنسَ ولم تُغفَر، لا من بالثازار، ولا، فيما يتخيَّل، من الإوزَّة نفسها.

وربَّما كان ذاك الأحمق الذي لا يُقتل، وتلك الإلف الخفية، وتلك الذئبة التي لا تُطاق، وأخطر غريبة متغطرسة في أوروبا، جميعهم يتخبَّطون الآن في دوائر داخل متاهة متخيَّلة نسجتها أسوأ كوابيسهم المبتذلة. ولهم أن يبقوا هناك إلى الأبد، ولا يهتم بالثازار. إذ أنه هو نفسه يعيش كوابيسه منذ أشهر، ولا يشغله إلا الخلاص منها، شكرًا جزيلًا.

وعليه أن يجري طقسَين مُجهدين في آنٍ واحد: طقسًا صَغِيرًا ليكبح آثار الرباط المقيت، وآخر أكبر لكسره، مع الحفاظ على مظهر أنه يبدِّد خدعة دفاعيَّة بدائية من إعداد ساحر فاشل. غير أنَّ ذلك الخطَّ الأحمر على معصمه أثبت أنه أعند مما ظنَّه، رغم أنَّ محاولة فاشلة تطوِّق ظهره بالفعل. وكلَّما ضغط بقوَّة، اشتدَّ قبض الرباط، وزاد الغثيان في جوفه، واضطر إلى بذل جهد أعظم لكبحه. تصبَّب عرقًا تحت ردائه المُستعار، وبدأ يتساءل كم تتحمَّل هذه الدوائر السحريَّة قبل أن تنخلع من الأرض، أو تنثني من فرط الحرارة، أو تذوب بكلِّ بساطة.

قد تكون عواقب الفشل المفاجئ كارثية على بالثازار، وعلى كلٍّ من في الغرفة، وربما على الحيِّ بأسره. تذكَّر ضحكه غير المصدَّق حين علم أن سَرزِلا السمرقنديَّة فجَّرت نفسها وهي تحاول تحويل القصدير إلى فضَّة، إذ لم يجرؤ أحد على محاولة تحويل الرصاص إلى ذهب بعد تلك الفضيحة مع السحالي، وانفجر معها شارعان ونصف من الشوارع الميسورة نسبيًّا وسوق للأقمشة.

وقد تساءل بصوت مرتفع: «أيُّ شيطان ذاك الذي يدفع المرء إلى مجازفة كهذه؟». مخاطبًا طيوره بالطبع، إذ كان يعيش وحيدًا. وها هو الآن، يخوض مقامرة أخطر. لكن لا مجال للتراجع. هذه فرصته، لا ليفوز بحريَّته فحسب، بل ليخلِّد اسمه كواحد من كبار أرباب السحر في هذا العصر! سيُري أولئك المنافقين المتظاهرين بالتقوى: بوك وزيزكا، وتلك العاهرة المتغطرسة بابتيست، وكوڤورين ذات الأعيُن التسع، وكل حاسد وقح تجرأ على التقليل من شأنه! ثم غلب غثيانه الصاعد كما غلب سائر العقبات، والمظالم، والنكبات. سيُري الدنيا بأسرها! التاريخ لا يصنعه المتحفِّظون!

زمَّ شفتيه ورسم الدائرة من جديد، وهو يمتص الهواء في منخريه المشتعلين، ويمتصُّ القوَّة إلى دوائر الاستحضار التي أخذت ترنُّ وتغنِّي وتشتعل شيئًا فشيئًا كما الحديد في الحدادة، حتَّى أخذت تتوهَّج بخفوت.

* * *

قال يعقوب همسًا: «هذا خطأ. لا ينبغي أن نكون هنا!».

واندفع خارج غرفة الطعام ذات الذباب الطنَّان الذي لا ينقطع. بأقرب ما يكون إلى الركض على أية حال، ممسكًا وركه الأيمن، وساقه اليسرى مشدودة تقريبًا. تمايل عائدًا عبر الرواق المظلم المبلَّط بجماجم سوداء وبيضاء، المغطَّى بألواح من دروع مفلطحة، وعشرات من بدلات الدروع

التالفة واقفة في وضع الانتباه المشوَّه. انحنى تحت المصراع المكسور، مرَّ من البوَّابات المحطَّمة، وخرج إلى ساحة المعركة.

كانوا مقطوعين. كانوا مطوَّقين. سمع الطبول والأبواق وأناشيد المعركة النائحة. أنين «مخلِّصتنا» يخرج من ألف فم. كان الإلف في كل مكان. أشباح في الغابة، ظلال عند طرف عينك، يتبدَّدون كالدخان حين تحاول الإمساك بهم. سهامهم السوداء تنطلق من الأشجار، همسات مسمومة. أن تضلَّ الطريق هو الموت، أن تخفض حذرك هو الموت، أن تدير ظهرك هو الموت.

صاح يعقوب: «إلى الأمام!». رافعًا سيفه، أو بقدر ما يسمح له ألم كتفه. فالشجاعة معدية. إن أظهرها رجل، انتشرت. والخوف كذلك. التراجع يصير انهيارًا. لذا جعَل نفسه مرَّة أخرى رأس الحربة، إلى غمار المعمعة، والمطر يهطل بغزارة، يتسرَّب عبر درعه ليبلل مبطنته، فيجعلها كالرصاص البارد.

لم يعُد متأكدًا من يقاتلون. أكانوا الإلف؟ أم الليتوانيين؟ أم الصقليين؟ أم القشتاليين؟ أم البِكتيين، أم الأيرلنديين، أم الساحرات من ذلك البرج الذي حرقوه، أم الرهبان من تلك الكنيسة التي حرقوها؟ قرن وأكثر من الأعداء، امتزجوا كالطلاء في لوحة مجنون.

كان يزاحم ويضرب مرفقًا بمرفق، لا يكاد يعلم أكان من حوله أحياء أم موتى، كلٌّ منهم كفلِّينة في طوفان. رجال يئنُّون ويصرخون ويعضُّون ويضربون ويُلكمون ويهوون إلى الطين ليُداسوا.

ذاق طعم الدم. ذاق طعم الموت.

زأر: «اقتلوا الأوغاد! اقتلوهم جميعًا!». وهو يكافح ليحرِّر ذراعه المسلَّحة.

كانت الحفلة على أشدَّها حين خرجت ساني من الرواق ودلفت في دخول مهيب.

غنَّت: «تا-دا!»، لكن لم ينتبه أحد، ويا للأسف، فقد قضت ساعات تتزيَّن، وكانت تلمع لأجل المناسبة. والجميع حشد فرِح محشور في غرفة الطعام ذات السقف العالي تحت الثريَّا. وعلى الشرفة العليا أيضًا. كلُّهم يتشابكون ويتفرَّقون ويدورون في دوائر، وهناك فرقة تعزف في مكانٍ ما.

أحبت ساني الفرق الموسيقية. بدت دومًا كأنها سحر، كيف يجعلون قطعة خشب تغنِّي هكذا. ليتها ترقص، لكنها ترقص بطريقة مريعة. وقد تمرَّنت على رقصة ذات مرَّة، لكن حين أرتها لمدير العرض، بدا كأنه يمصُّ ليمونة وقال: «ظننت أنكم جميعًا تتمتَّعون برشاقة عجيبة».

متى دُعيت إلى حفلة آخر مرَّة؟ لم تُدع قط طبعًا. الجميع يمقتونها. لكنها لطالما رغبت في حضور واحدة. واحدة لا تتنصَّت فيها، ولا تسرق فيها شيئًا، ولا تحاول أن تسمِّم أحدًا.

الحفلات. مدهشة. الناس يرقصون ويضحكون ويتغزَّلون، ويقولون شيئًا ويعنون آخر. يتلاعبون بالابتسامات والأعيُن واليدين تتحرَّك. كأنها مباراة شطرنج اجتماعية على ذلك البلاط الأسود والأبيض. تحب ساني الناس، إنهم عجيبون.

ليتها واحدة منهم.

قبضت بيدها على الدعوة بشدَّة. وشعرت بحماس كبير حين وصلت إليها. «إلى عزيزتنا ساني، ندعوك بكلِّ حفاوة...»، إلخ، أو شيء من هذا القبيل. لكنها لم تتذكَّر أنها فتحت الظرف حين فكَّرت بالأمر. هل هي ثملة؟ كانت قد شربت مرَّة واحدة من قبل. كأسًا من النبيذ، وكان طعمه كالأقدام، فداخت سريعًا، ثم تقيَّأت وفقدت كرامتها، واضطرَّت ثيجا إلى أن تضعها في الفراش.

من هي ڤيجا، على أية حال؟ حكَّت رأسها. أمرٌ غريب.

ألقت عباءتها إلى البوَّاب، لكنه لم ينتبه فسقطت على الأرض وداسها أحدهم على الفور.

قالت: «لقد حضرت»، لكن البوَّاب تجاهلها، الأحمق الوقح، مشغول بأخذ معطف من امرأة ازدحمت خلفها، الوقحة الحقيرة. لاحظت ساني أنها ترتدي قناعًا. ثم لاحظت أن الجميع يرتدون أقنعة. الجميع إلا هي.

حدَّقت إلى الدعوة بذعر. «ندعوك بكل حفاوة إلى حفلة مقنَّعة...»، إلخ. لا! إن كان ثمَّة من يحتاج إلى قناع، فهي. وجهها مريع. منظره يجعل الناس يتقيَّؤون. وضعت يديها على وجهها، ووجدت نفسها تحمرُّ خجلًا حتَّى كادت تتألَّم، وهو أمر غريب، لأنها لم تحمرَّ خجلًا من قبل، لكنها رأت ذلك واعتبرته رائعًا، وحاولت لمدَّة ساعات أمام المرآة دون جدوى.

قالت: «عذرًا»، وهي تنزلق عبر الزحام، لكن لم يفسح لها أحد: «المعذرة!». لكن الجميع تصرَّف كأنها غير موجودة، واصطدم بها أحدهم، وداس على قدمها آخر، ثم، وهي تلهث، أطلق أحدهم نكتة، ولوَّح بمرفقه فأصابها في فمها.

زمجرت: «هلَّا انتبهت، يا ابن الـ...؟». لكنَّه واصل، وانفجر الجميع ضحكًا عند النكتة. جلست امرأة ذات كتفين عريضين، وشعر أسود هائج، وكتابة على خدِّها، على أحد المقاعد الستة عشر حول طاولة الطعام، تتحدَّث بحماس إلى أحدهم، رغم أنها وحدها.

نظرت إلى الدعوة مرَّة أخرى، فإذا بها فاتورة قديمة من السيرك، مهترئة، مطبوعة على ورق رديء؛ «انظر لتُذهل إلى الإلف الأسيرة الوحيدة في أوروبا!». ثالث عرض بعد التمثال الحيِّ وذلك الرجل ذي الثؤلول الضخم على وجهه. ولم يكن ذلك حقيقيًّا. كونها الوحيدة. أما الثؤلول... فذاك حقيقي. لكن لا جمهور للشيء المألوف، هكذا كان يقول

مدير العرض دومًا. ليته هنا، رغم أنه يكرهها. فحتَّى أن تُبغَض، كان شيئًا.

فهو دليل على أنَّك تركت أثرًا.

كلُّ شيء شديد السطوع، شديد الصخب. واستطاعت أن تسمع الذباب. هل هي ثملة؟ لم تشعر بالغثيان، لكنَّ كرامتها بالتأكيد ضاعت. لا أنَّ ذلك يعني شيئًا. ما جدوى الكرامة إذا لم يلاحظك أحد؟ ما جدوى أي شيء؟

إذا لم يلاحظك أحد، فهل أنت موجود أصلًا؟

عزفت الفرقة تلك النغمة بالبوق الناعق التي كانوا يعزفونها في السيرك حين تدخل لتُصفع ويضحكوا عليها. لم تكن تحبُّ تلك المعزوفة كثيرًا. وهناك حلقة من المحتفلين المقنَّعين يشيرون ويضحكون، ورجل واقف في المركز، منحنيًا. رجل رمادي، عليه ندوب، وعيناه قَلقتان، يبدو مألوفًا جدًّا، لكن ساني لم تستطع تمييزه.

قال: «هذا خطأ. لا ينبغي أن نكون هنا».

قالت ساني: «مرحبًا؟». وهي تصفِّق بأصابعها أمام وجهه: «هل أعرفك؟».

لكنه لم يعرفها. لم يرها أصلًا. قبضت على الفاتورة بقبضة مرتجفة. غضبت، ولم يلاحظها أحد. وخافت، ولم يلاحظها أحد. واكتأبت، ولم يلاحظها أحد، ولن يهتم أحد حتَّى لو لاحظ.

وجدت زاوية، وحشرت نفسها فيها. ثم انزلقت إلى الأرض، وجذبت ركبتيها إلى صدرها.

كانت تستطيع أن تجعل نفسها غير مرئية. تلك هي ميزتها.

لكن، هل يمكنها أن تجعل نفسها مرئية؟

هنا تكمن المشكلة.

25

لا شيء سوى الحقيقة

هبَّت الريح في أرجاء الغرفة، فخَطفَت لهيب الشموع، وذَرَّت الغبار في رسومٍ عجيبة. دوَّت الدوائر النحاسية، والدخان يتصاعد منها. وجعلت ثرثرة الرأس المقطوع أليكس تظنُّ أن أصحابها في الدار قد أضاعوا عقولهم، هذا لو كان لهم عقول أصلا. فما الذي جعل بالثازار يبتسم؟

قالت أليكس: «شيء في غير مكانه».

أشار الأخ دياز إلى الرأس النازف، وإلى الدوائر المرتجَّة، وإلى الساحر الهاذي: «كلُّ شيء في غير مكانه! مرَّت أسابيع منذ أن استقامت الأمور...».

قالت أليكس: «إنه يحاول كسر الرباط».

قال دياز: «أأصبحتِ خبيرة في السحر كما في اللباقة؟».

قالت أليكس، وقد اشتدَّ صوتها: «أعرف الكذَّاب إذا رأيته. سمعته يتحدَّث عن ذلك في الطريق». وأومأت إلى البارون: «معه».

قال البارون، وقد أسدل أصابعه المرتخية على صدره بهيئة من هُضم حقُّه: «معي؟».

سأل دياز، وقد بان عليه التأثر: «أحقٌّ ما تقول؟».

تنهد البارون ريكارد: «الناس يبوحون لي بما يخفونه دونما خوف من أن أحكم عليهم. أنا مصَّاص دماء. أترك الحكم الأخلاقي لأولئك...». ولوَّح متكاسلًا نحو الراهب: «الذين لهم في العقل نصيب أقل، وفي الرياء نصيب أكثر».

اتسعت ابتسامة بالثازار، وغدت حركاته أشد حدة. وخطفت الريح أوراقًا من على الموائد، وضربت شعر أليكس في وجهها، وتمايلت أطراف ورق الجدران الممزَّق فوق الجص المتفسِّخ.

صرخ دياز: «لماذا لم تقولي من قبل؟».

لحست أليكس شفتيها. لأنها كانت ترجُو أن تكون على بعد أميال حينها، زاحفة في جوف الليل لتبدأ حياة جديدة لن تفسدها كما أفسدت القديمة، حيث المستذئبون ومصَّاصو الدماء والسحرة لا يعدُّون سوى ذكريات قبيحة توهم نفسها بنسيانها. ثم هاجم مارسيان ووحوشه، واتضح أن بقية أبناء يودوكسيا يعرفون عنها على الأرجح، وشرعت تظنُّ أن أرجح حظوظها هي أن تبقى مع الآخرين. يعقوب، وڤيجا، وساني، قل فيهم ما تشاء، وإن كنت ستقول كثيرًا، لكنهم بيَّنوا أنهم في صفِّها. لقد مضى زمن طويل منذ كان أحد في صفِّها سواها. صفُّها صحراء لعينة.

صرخت أليكس، وقد اضطُرَّت إلى أن تعلو على الضجيج: «قل له أن يتوقَّف!».

بدا على دياز مسحة من يأس، وهو من طينة أولئك الذين يتركون السفينة تغرق عوضًا عن أن يأمروا بتفريغها. ولعلَّك تقول إنَّه اختيار رديء للقيادة. لكن أليكس أيضًا كانت اختيارًا رديئًا للأميرة.

قبضت على قبضة من ثوبه. قالت: «قداستها جعلتك مسؤولًا! تلك كانت كلمات الرباط! أؤمره أن يتوقَّف!».

قال، وهو يزمُّ فكه: «آه، أيتها القدِّيسة بياتريكس الحنون...». ثم استدار نحو الدائرة: «بالثازار شام إيفام دراكسي!».

فتح الساحر إحدى عينيه ليحدِّق إليهم، دون أن يتوقف عن ترديده المتصل.

قال دياز: «آمرك أن...».

خطف بالثازار الهواء بيد واحدة فانقطعت كلمات الراهب بخَرْخَرة غريبة. انحنى وهو يقبض على عنقه. وحدَّق إلى أليكس، وعيناه تكاد تبرزان.

قال البارون ريكارد، بهدوء: «أوقف الساحر تنفُّسه».

أمسكت أليكس بالأخ دياز وهو ينهار على ركبتيه، والعروق تتفجَّر من صدغيه.

صرخت في وجه بالثازار: «دعه يذهب!»، لكنه، عدا محاضراته المتعالية عن تاريخ قرطاجة القديمة، تجاهلها طوال أسابيع. وكان ليكون عجبًا عظيمًا لو أنه قرر الإصغاء الآن. وقف، وشفاهه ملتوية، بين تكشيرة ألم وابتسامة انتصار، وثيابه ممزقة برياح لا يُعرف لها مصدر.

صرخت أليكس في وجه البارون ريكارد، ورفعت يدًا تقي بها وجهها من الرمال اللافحة: «ساعدني!».

قال ريكارد، دون أن يحرِّك ساكنًا: «أيفترض بك أن تنالي عرشًا، وتعجزين عن كبح ساحر واحد؟».

توهَّجت الدوائر، وأُحرقت الألواح الخشبية. ظلَّ الرأس المقطوع يصرخ بعبث. وركع دياز، ووجهه يشحب إلى الأرجواني.

صرخت أليكس: «ما الذي يفترض بي أن أفعله؟».

* * *

نادى إيريك، هادئًا عند الدفَّة، والغليون مثبت بين أسنانه الصفراء: «جذف... جذف...»، وكان ينادي بإيقاع، يقطِّع الزمن إلى لحظات، وصوته يهدِّئ نبض قلبها الصاخب إلى إيقاع بطيء. قال: «جذف...».

يا للآلهة، مجرَّد رائحة البحر، وفرقعة الشراع، ورذاذ البرد على جلدها. نسيت كم أحبُّ هذا. النسيان موهبة عندها. قد يكون النسيان نعمة. وقد يكون لعنة أيضًا. من قال لها ذلك؟ فارس عبوس الوجه كانت تعرفه. لكن أين قابلته؟ وقد كفَّت عن التماس الأنماط في الأشياء. تركتها تمرُّ من فوقها الآن، كما المدُّ بعد الغروب.

قال هالفدان، وهو يقطِّب جبينه نحوها: «جدفي إذًا. الحياة مؤلمة بما يكفي دون أن تعترضي طريق نفسك».

قالت: «أجل. سأجذف. طبعًا». كانت دومًا تؤدِّي ما عليها. طوَّقت المجداف المصقول بالدهر بكفَّيها المتيبِّستين، وجمعت كل بأسها عليه.

خفت الضوء، وتكدرت السماء بألوان العاصفة. كان عليهم أن يجدفوا نحو الشاطئ، لكنها لم تتذكر أين هو الشاطئ. لم تتذكر إن كان ثمَّة شاطئ أصلًا. هل كانوا دائمًا هنا؟ في البحر القلق، وفوق الأعماق الواسعة المجهولة؟

قال أولاف، إلى جوارها: «لا تنظري بعيدًا جدًّا»، فضحكت ڤيجا، لكنها حين التفتت كان جانب وجهه الآخر مخدوشًا بمخالب، وعينه حفرة دامعة حمراء.

همست: «ماذا حدث؟».

قال: «أنتِ حدثتي». وضمت كفَّاه شيئًا رخويًّا من أحشائه.

قال إيريك: «تستطيعين أن تكرهي زميلك في السفينة، وتجدفان مع ذلك على إيقاع واحد».

هزَّت ڤيجا رأسها بقوَّة، تقاوم خوفها وتشدُّ على أملها: «صحيح، هذا صحيح. هذا ما أقوله دائمًا».

قال أولاف، وشفاهه الزرقاء تنفث دخان الكلام: «لكنَّكِ جَدفتِ بنا إلى حافة العالم الملعون».

ربما نجا منها ثم تجمَّد في الثلج؟ لطالما علمت أن الذين يفلتون منها لا يذهبون بعيدًا.

قالت ڤيجا، وهي تبكي: «لم أكن أنا، كان الذئب».

تزحلقت خارجة من الزبد إلى الشاطئ، ورذاذ الملح والدموع على وجهها. شاطئ مظلم تحت سماء مظلمة، وأمواج غاضبة تنهش الرمل الأسود. ثمَّة مسارٌ يخترق الساحل، تتخلله الأشواك، بين حجرين عظيمين منتصبين كأنما نصبتهما يدُ عملاق، وقد نُقشت عليهما تحذيرات. التحذيرات نفسها التي على وجهها، وعلى ذراعيها، وعلى ظهرها.

همست: «أنا أعرف هذا المكان».

قال هالفدان، وهو يتقدَّم نحو الحجارة: «بالطبع». وحلقه جرح أحمر يقطر، وإذا تكلَّم تفجَّرت فقاعات دموية من أنفه.

قالت: «لا أريد أن أذهب».

قال: «لكنك ذهبتِ».

حاولت الركض لكن قدميها أخذتاها إلى الاتجاه الآخر، نحو الطريق. نحو الذئب.

قالوا: «ادخلي وابقي في الداخل». وطعنوها من خلال قضبان القفص، والحديد يتوهَّج، ورائحة الاحتراق تتصاعد، فتدحرجت نحو الزاوية، تحاول ألَّا ترى الدم على ذراعيها، وألَّا تشعر به تحت أظفارها، وألَّا تتذوقه وهو متقشِّر على شفتيها. حفرت في الخرَق النتنة، تحاول أن تخفي نفسها، أن تختبئ من نفسها.

همست، وهي منكمشة: «أنا شريرة. أنا خطيئة». وكأنها كانت تتقلص حتَّى تختفي في ذاتها فلا تؤذي أحد: «أنا نجسة. ماما، أرجوك. أحبُّك».

قالت أمها، وهي تشدُّ شعرها لتضفره: «وأنا أحبُّك». وشكرت ڤيجا الآلهة أنها عادت إلى بيتها. وإن كان غريبًا أن عندهم مائدة طعام

عظيمة، لم تر كيف وسعتها الدار الصغيرة أصلًا. قالت: «أنا أحبُّك، وسأكون معك دومًا». ثم أنهت الضفيرة، وربَّتت عليها، وتنهدت: «لكن انظري ما جنيت. محبَّتك ذهب في بئر. محبَّتك حكمٌ بالموت. الذئب عذر، وليست عذرًا جيِّدًا حتَّى. كنت وحشًا قبل العضة».

قالت: «لا تقولي ذلك. أنتِ لم تقولي ذلك قط».

- لكنَّك تعلمين أنني فكرت فيه دومًا.

فآلمها ذلك. عضَّت شفتها، وأشاحت بوجهها، والدموع الضائعة تدغدغ خدَّيها. قبضت كفَّيها، وعبست في وجه البلاد المظلمة خلف القارب المحطَّم، وجذوعه المنحوتة بالريح أشبه بعظام هيكل تنين. تربص الذئب، خارج ضلوع الحطام، وداخل ضلوع صدرها. رأت بريق عينيه في السواد الذي يجاوز نور المشاعل. في غضبها الزاحف، المتَّقد. في جوعها الرهيب، الذي لا يُروى.

صرخت فيه: «أيها الذئب الوغد! أيها اللصُّ الحقير! لقد سرقت حياتي!».

الذئاب لا تُجيد الكلام. لا تملك سوى العواء والجوع. تمشي بخطى ناعمة على قوائمها، تتعقَّبها، تصبر عليها، تتحين الفرصة. تنتظر أن تمنحها تلك الهبة الرهيبة، تلك اللعنة العجيبة، العضَّة التي تكون نهايتها وبدايتها.

جثت بين جثث رفاقها المهشَّمة. قالت: «لن تجعلني عبدةً لك». ثم نهضت، ويداها مشدودتان إلى قبضتين. قالت: «سأجعلُك تخرس! أُقسِم بذلك!».

وتوهَّج الغضب فيها حارًّا عنيفًا لا يُقاوم، فاندفعت إلى الظلام. هبطت الشمس. غروب دامٍ فوق وادٍ من طين محترق، وجذوع مكسَّرة. أعمدة من دخان داكن ترتفع إلى سماواتٍ مجروحة. ونُثار الرماد يهطل كأنَّه ثلج.

* * *

قال يعقوب، وهو يعرج في مشيته: «انظر إلى هذا الخراب».

انحدر الطريق إلى غابة. لكن ليست من أشجار. بل من رماح مسنونة مغروزة في الأرض، أطرافها إلى أعلى. ومن أقفاص معلَّقة، وأرفف مسمَّرة، وسلاسل مدلَّاة. ومن عجلات عظيمة، كالعجلة التي ضحت عليها المخلِّصة حياتها من أجل البشر.

ومن بعيد، سُمِع نقر. نق، نق، نق.

وعلى بعض تلك الرماح، جثث مطروقة. عُرضت كتحذيرات. كانت أولًا للألف الذين جاؤوا ليجلبوا الرعب للبشر، فوجدوا الرعب. أعداء الرب، جاؤوا ليعلِّموا دروس الدم، ولم يظنُّوا أن تلميذًا متشوِّقًا ينتظرهم.

لكن للرب أعداء كثر، وليسوا كلُّهم من الألف. ومع تقدُّم يعقوب، رأى رجالًا بين المطعونين. ثم نساء. ثم أطفالًا. المزيد منهم، فالمزيد. هنا انتهى بهم الطريق المقدَّس. الخاتمة لقضيتهم العادلة. العالم الأفضل الذي خرجوا ليبنوه. غابة من الأموات.

اقترب الطرق. طَرق، طَرق، طَرق.

تنفَّس يعقوب كان يُثقله الدخان. والطريق صار بحرًا من طين مشقوق، يعجُّ بالجثث، وبأشلاء الجثث، حتَّى لم يعد له أن يتحرَّك دون أن يدوس قدمًا، أو يدًا، أو وجهًا. وتمنَّى لو أنَّ هذا أقسى ما رأى. أو أقسى ما فعل. بصيص نور خلال الغبش، وظلال الرماح الممدودة نحوه، ونار تتَّقد في فسحة تحفُّ بها الأجساد المصلوبة، أجساد ملتوية، ومعذَّبة، وأخرى في دروع رتبة الحديد ورتبة الذهب. رتبته. فإن أعداء الرب في كلِّ مكان. وهم كلُّ أحد.

ازداد صوت المطرقة، وكلُّ ضربة منها وجعٌ في صدغيه.

هَبَّت ريح، ناشفة لافحة، وانتزعت الثياب الممزّقة عن الرجال الموتى، والشعور المقطوعة عن النساء الميتات، وجعلت اللهب يميل، فانكشف عن شخص مدرَّع، جاثم عند رمح، يدقُّ أوتادًا عند قاعدته ليثبِّته.

ضربة أخيرة، ثم وقف وظهره ليعقوب.

ارتدى العباءة البيضاء الكبرى الموشَّاة بالنسرين، ودائرة الإيمان التي ترجَّتهم قداستها لإضافتها، وقطعًا من المرايا المباركة لردِّ السحر الأسود على فاعليه الملعونين، لكن الحاشية مضرَّجة بالحمرة. حتَّى الركبة، كأنها غُمِسَت في الدم. وقد غُمست.

قال يعقوب: «توقعت أني سأجدك هنا».

قال القائد، وهو يستدير: «وأين عساني أكون؟».

وتبادلا النظر، عبر ذلك المدفن، مسلخ الذبائح، ملتقى الدروس. وقد نسي يعقوب ما كان عليه. في خيره وفي شرِّه. كم كان وسيمًا ومعتدًّا. كم كان قويًّا ومستقيمًا. اليقين يشعُّ منه كمشعل. رجل يتبعه الرجال إلى الجحيم. وقد قادهم إليه فعلًا.

قال مارشال دانتسيج، وهو يعبر الفسحة ببطء، وصليل درعه المذهَّبة يهمس في كل خطوة: «كنت في انتظارِك». كان يتحرَّك بيسر، بسلطان، بلا ألم. قال: «من عساه يعرف مشقَّة الحصول على المساعدة أكثر منك؟». ورفع ذراعيه نحو فرسان المعبد المصلوبين حول الفسحة: «قلَّة من الناس لهم الرؤية، والشجاعة، والإرادة لمتابعة ما يعلمون أنه...». وأغلق عينيه، كأنَّه يبحث عن الكلمة: «حق... حتَّى منتهاه. حتَّى هنا». ثم فتح عينيه المتوهِّجتين بالإيمان. قال: «لكنَّك تعرف. كلانا يعرف».

همس يعقوب: «ما الذي فعلتَه؟».

قال: «ما الذي فعلناه؟ لقد اقتلعنا القذارة. أحرقنا العفن. لا يمكنك أن تصنع عالمًا أفضل وأنت جالس تبكي عليه أيها العجوز. لا بُدَّ أن تُلوِّث يديك».

قال يعقوب: «بالدم تعني».

قال بطل الإمبراطور بتهكم: «لا تمثِّل البراءة أمامي. لا شيء له قيمة حقيقية يخلو من الدم. لا تجرؤ أن تزعم أنَّ بيننا هاوية. بضع سنين، وبضع حروب، وبضع جثث...».

قال يعقوب: «ولعنة».

قال: «لعنة؟ أنت لا تموت! يا لها من نعمة. يا لها من فرصة. ماذا حلَّ بأحلامك؟».

قال يعقوب، وهو يزمجر: «صارت هذا الكابوس. ولا بُدَّ أن ينتهي».

قال الآخر: «فعل الخير لا ينتهي. كنت رجلًا عظيمًا، له غاية عظيمة. الآن أنت شجرة ملتوية في خدمة فتاة صغيرة. يخنقك الذنب. قيدك الندم. لا أحد يرغب في رؤية الشكوك يا يعقوب الثورني».

قال: «عهودي تقيني».

شَخَص بعينيه وقال: «مجرد كلمات. مجرد نَفَس». ثم نقَر بأصابعه: «ونقرة إصبع تتخلص منها».

زمجر يعقوب، وقد انكسر صوته: «سأُكفِّر عن خطاياي. لقد أقسمت. وسأحيا على الفضائل الاثنتي عشرة».

قال جلاد قداستها بصوت ساخر: «اثنتا عشرة هزيمة صاغها الجبناء، ليبيعوا العظام للحمقى». ووضع يده على مقبض نصل الجلاد، ورأى الجمجمة الفضِّية تذكرة بأن الموت في انتظارنا جميعًا.

- المخلِّصة لم توقف الألف بالفضائل. أوقفتهم بالسيف.

ببطء، لفَّ يعقوب أصابعه حول قبضة سيفه، وسحبه ببطء من غمده: «إذًا سأوقفك بالسيف».

ورَنَّ الحديد إذ انسحب النصل من غمده، يتلألأ بألوان النار. علم أن الأمر سيؤول إلى هذا. وكلُّ شيء يؤول إلى هذا. وقد فرح أنه آل إلى هذا. كما كان دومًا.

قال القائد الأعلى، وابتسامة تلوح على فمه: «أخيرًا. ها هو الرجل الذي أعرفه».

* * *

دار رأس بالثازار، وسال لعابه، وضببت رؤيته. سواء من مقاومة الرباط، أو من كبح القوى التي استحضرها، أو من شدِّ خناق الأخ دياز، أو من جنون الرأس المقطوع الذي يهذر بهذيان الحمقى المتخبطين في الصندوق السحري، تعذر عليه، بل لم يجد ضرورة، أن يفرِّق بين الأسباب.

كلُّ ما يهمُّ أن يتمالك أعصابه، وأحشاءه، وعتاده المرتجل لبضع لحظات إضافية.

انكفأت الأميرة أليكسيا فوق الأخ دياز المنطوي خارج حلقات الاستحضار، ذراعٌ مرفوعة تحمي بها وجهها من زوبعة الغبار والشظايا الدائرة في الغرفة. ومن خلال هدير الريح، وصريف الحطام، وغناء الدوائر عالي النبرة المتوهِّجة بلون الجمر إذ هدَّد احتباس الطاقة أن يقتلع البراغي من الأرض، سمعها تصرخ: «أطلِقوا سراحه!».

صرخ بالثازار، وهو يرسم إشارة الأمر على معصمه: «أرفض!»، وجمع في تلك اللحظة كلَّ سنوات دراسته، وكلَّ حِقده المتراكم، وكلَّ سلطته التي نالها بشقِّ النفس.

واندلع وهج من نار بيضاء مائلة إلى الزرقة، وألم حارق، ورائحة لحم محترق، وصار الشريط الأحمر على معصمه فقاعة متفحِّمة.

صرخ: «لقد تحرَّرت منكم!»، وقد تدافع الحطام عليه من طقسه المزدوج، وسكرة النصر تطغى على الخفقان الموجع في معصمه: «لقد تحرَّرت، أيتها...».

وتقيَّأ. اندفع القيء من فمه، وأنفه، وربما من أذنيه، وتطاير على الحائط، وتطاير يغلي ويهمس فوق الحلقات المتوهِّجة، تاركًا أثرًا

متَّصلًا من البقع واللطخات حتَّى أصابع قدميه. هوى على ركبتيه، والنَفَس يُسحب منه في أزيز معذب. ثم سمع خُطى. ورفع بصره من خلال عينيه الدامعتين، فإذا بالأميرة أليكسيا قد دخلت الدائرة معه.

همس: «أنا...».

لكنه لم يُكمل، إذ لطمت قبضة يدها الصغيرة أنفه، فارتدَّ يتخبَّط في قيئه، ثم تقيَّأ من جديد على نفسه. ومن خلف تأوُّهاته وسُعاله، سمع ضحك البارون ريكارد.

قال مصَّاص الدماء، وهو يغرغر: «أخيرًا! ها هي الهيبة الملكية يا صاحبة السموِّ!».

زمجرت الأميرة أليكسيا، وهي تقف فوق بالثازار، ويداها الصغيرتان، القاسيتان على نحو مفاجئ، مشدودتان إلى قبضتين: «ساعدهم بحقِّ الجحيم!».

قال الأخ دياز، وهو يلهث، وقد جاهد حتَّى جلس على ركبتيه ووجهه متورِّد أرجواني: «آمرك... أن تساعدهم».

بكى بالثازار: «سأفعل! أطيع! أخضع! أنا عبدكم المتواضع إلى الأبد!». وشعر بمعدته -ويا للدهشة أن شيئًا بقي فيها- تنتفض من جديد، وخيط طويل من الصفراء المرَّة يتدلَّى من شفتيه، وهو يكنس الطاولة من الحطام، دافعًا الرأس الذي لا يزال يهذر ليسقط ويتدحرج عبر الأرض المغبَّرة، ثم يقلِّب بيأس صفحات كتاب «أوهام كريب» بإصبعين مغطاتين بالقيء، ويئن من لسعات الحروق في معصمه، ومن انقباض أمعائه، ومن، وهو الأقسى، كِبريائه المجروحة.

وبدأ يشكُّ في أنَّه قد تبوَّل على نفسه.

* * *

في لحظة، كانت ڤيجا تصارع الذئب. وفي اللحظة التالية، تخنق رجلًا أشيبَ الوجه، أنفه دامٍ.

قالت، وهي تهدر: «انتظر... أنا أعرفك». وقد خرجت كلماتها متلعثمة، كأن في فمها أسنان أكثر من أن تسمح لها بالكلام.

لهث بصوت مبحوح: «ككك».

قالت، وقد أرخت يديها بصعوبة، فزفر النفس: «أنت يا ڤيجا...». ثم شرع في السعال.

فربَّتت على ظهره، لكن ألمًا وخز كتفها، فنظرت ورأت ذراعها مشوبة بالدم. كان يحمل سيفًا، وكان السيف داميًا أيضًا.

قالت: «طعنتني بسيفك!».

قال يعقوب، وهو يعبث بطوقه الملتوي: «ظننتك أنا».

- هُه. وأنا ظننتك أنا.

قالت ساني، وهي تمزِّق قطعة من ثوب أحد الموتى وتبدأ بلفِّ كتف ڤيجا: «على الأقل تكرهان أنفسكما أكثر مما تكرهان بعضكما».

قالت ڤيجا: «وذاك حجر الأساس لأي صداقة». لا تحبُّ التضميد، بل تفضِّل النزف حتَّى التوقف، لكن إن كانت الضمادة تسعد ساني، فلا بأس: «لمَ تكترث بالاختناق؟ لا يمكنك الموت».

قال يعقوب، وقد خفت صوته حتَّى كاد لا يُسمع: «التنفس من الأشياء القلائل التي لا تزال تسعدني».

قالت بابتيست، وهي منحنية في الزاوية، يداها على ركبتيها: «سأتقاعد بعد هذا. انتهيت. اكتفيت».

قال يعقوب، وهو يلهث: «تقولين هذا كلَّ مرة». ثم نظر إلى ڤيجا، وفي عينيه شيء شاحب، أكثر من العادة. وسألها: «ما الذي رأيتِه؟».

لحست ڤيجا شفتيها: «أمي، التي خذلتها. ورفاقي في السفينة، الذين قتلتهم. قالوا إنَّ الناس يجب أن يُحذَّروا مني...». وشعرت بعقدة في حلقها، يصعب ابتلاعها: «تركت الذئب يسيطر عليَّ. أظنُّ أنه بدءًا من اليوم، يجب أن أضع له كمَّامة. ما الذي رأيتَه أنت؟».

قطَّب يعقوب جبينه أكثر من العادة، وقال همسًا: «الحقُّ وحده».

لكن ڤيجا لم تكن تصغي. بين الطعام الفاسد على الطاولة، كان ثمَّة شيء لم تلحظه من قبل. صندوق أبيض، يواجه كرسيًّا سقط على جنبه. كأن أحدهم فُجع حين فتحه.

قالت، وهي تبتسم وتتقدَّم نحوه: «انظر إلى هذا»، وجعلت ساني تنقنق خلفها، تحاول ربط الضمادة. وفرشت الأرض بسجَّاد هشٍّ من ذباب ميت، يلتصق بباطن قدمي ڤيجا العاريتين مع كل خطوة.

كان على غطاء الصندوق نجمة مطعَّمة. ووزنه خفيف في يدها حين رفعته. كأنه فارغ. هزَّته بقوَّة، لكن لم يصدر عنه رنين.

صرخ يعقوب، ثم سعل بشدَّة: «حاذري!».

قالت ڤيجا، فيما بابتيست تربِّت على ظهره بدلًا عنها: «كُفَّ عن التذمُّر! دائمًا تتحسن الأمور في النهاية، أليس كذلك؟».

قال، وهو يحدِّق إليها، ويتصلَّب وجهه: «لا. لا تفعل. هل نسيتِ ما رأيناه للتو؟».

بدت ڤيجا حائرة، وسألت: «ما الذي رأيناه؟».

قال، وقد نظر إليها مبهورًا: «يا إلهي... يا لها من موهبة».

26

عناءٌ زائد

قال فريجو، ووهج الفرن يضيء وجهه وهو يدفع رغيفًا آخر بالمِجراف: «آمل ألَّا يكون قد سبَّب لكم عناءً كبيرًا».

قالت بابتيست: «بربك. ما دمتَ تنال ما تريد فلا تبالي بشيء».

هزَّ فريجو كتفيه: «ومن يفعل؟ ما دام يحصل على مراده؟ كنتُ أتحلَّى بالأدب. وهذا هو الأدب، ألَّا تعترف تمامًا بالحقائق المزعجة التي كلانا يعلم أننا نعلمها».

زمجر يعقوب، وهو يمدُّ إليه الصندوق: «لستُ في مزاج للرقص».

مسح فريجو إحدى يديه المليئة بالطحين بمئزره وتناول الصندوق. غير أن يعقوب لم يفلته.

قال يعقوب: «لا أخفيك، في نفسي ريبة من أن تخوننا».

ردَّ فريجو، محدقًا إليه بثبات: «وهذه ريبة معقولة تمامًا».

قال يعقوب: «ما الضمان الذي تقدِّمه لنا؟».

قال فريجو: «لا شيء سوى سمعتي التي لا تشوبها شائبة».

قالت بابتيست: «يعني لا ضمان».

رمق حفيدته بنظرة، ثم تنهد وقد بدا عليه إرهاق: «لماذا يصرُّ الناس على الجدل، والجميع يعلم أنه لا خيار لديهم؟».

قالت الفتاة: «لأنَّهم يتمنُّون لو أن لديهم خيارًا».

ابتسم فريجو: «أوه، ما أذكاها. حادَّة الذكاء كأمِّها. قاربكم ينتظركم. سلِّموا الصندوق وخذوا القارب. أو تمسَّكوا بالصندوق وابحثوا عن طريق آخر إلى طروادة. أنتم أحرار».

أطلق يعقوب صوتًا ممتعضًا وترك الصندوق.

قال فريجو، وهو يبتسم: «رائع». ثم وزنه بيده، وهزَّه بلطف، ثم نظر إلى يعقوب. «كيف أفتحه؟».

قال يعقوب، وهو يتجه نحو الباب: «لا فكرة لدي».

قالت بابتيست، وهي تتبختر خلفه: «ما دمتُ أنال ما أريد، فلا أبالي بشيء. إلى اللقاء يا فريجو».

صاح فريجو خلفهم: «لا تتعجَّلوا الرجوع!». ثم أُغلق الباب، وحلَّ الصمت. وكان من الهدوء ما يجعل ساني تشعر بالحاجة إلى حبس أنفاسها، لولا أنها كانت محبوسة أصلًا.

وضع فريجو الصندوق جانبًا، وقال: «بوسعك الخروج الآن»، ثم عاد يعجن عجينته.

رمشت ساني، متسائلة فيما إن كان يعنيها.

توقف عن العجن، وقال: «نعم، أنت. يمكنك الخروج».

ترددت ساني في التظاهر بالجهل، لكن الفضول أخذها، وما إن يستحوذ الفضول عليها، لا تفلت من قبضته. فتجاوزت الحاجز، وهبطت برفق على قدميها، وزفرت.

تراجعت حفيدة فريجو خطوة في ذهول. قالت: «تبًّا للجحيم! إنها إلف!».

قال فريجو، دون أن يبدو عليه العجب: «لا شك في ذلك. إلف بخطواتٍ خفيفة».

سألت ساني: «كيف عرفت أني هنا؟».

قال: «لأن المعرفة تجارتي الحقيقية. أمَّا الفتيات والعصابات والمقامرات، فليست سوى وسائل للوصول إلى المعرفة. فالمعرفة هي العملة الوحيدة التي تُجدي. ما اسمك؟».

- ساني.

سألت الفتاة، وقد تجاوزت صدمتها: «هل لكِ أذنان ألفيتان؟ أريني أذنيك الإلفيتين».

قالت ساني: «انقلعي عني أيتها القذرة الصغيرة».

طوت الفتاة ذراعيها غاضبة. وضحك فريجو ضحكة ساخرة وقال: «أشعر أن هذه الرحلة إلى طروادة لن تنتهي بخير».

جلست ساني على الأرض، ثم أخذت حذاءيها المربوطين حول عنقها، وفكَّت رباطيهما.

قالت: «اعتدت على ذلك».

قال فريجو: «إن سئمتِ شعور الخيبة يومًا، فأنت تعلمين أين تجدينني. سيبقى لدي عمل دائمًا لمن له مواهبك».

سألت، وهي ترتدي الحذاء الأول: «أي نوع من العمل؟».

- كلُّ الأنواع.

ارتدت الآخر ونهضت واقفة. ونادرًا ما كانت تكترث بربط الأربطة أصلًا.

- قد أكون راضية حيث أنا.

أمعن النظر فيها لحظةً صامتة بعينيه البطيئتين الحذرتين، وقال: «لا، لستِ كذلك. أظنُّك وحيدة جدًّا. أتعلمين كيف عرفت؟».

ابتلعت ساني ريقها حتَّى كاد صوت اللعاب يُسمع في حلقها، ثم همست: «كيف؟».

ظلَّ ينظر إليها، وللحظة خُيِّل إليها أنه رآها حقًّا، لا كما تبدو، بل كما هي.

قال: «لأنه لا أحد سعيد حقًّا حيث هو يا ساني». وتنهد، وعاد إلى عجينته: «والجميع وحيد».

27

الطمع

خطَّت أليكس الحرف الأخير، منسَّقًا مهذَّبًا، ثم رفعت نظرها نحو الأخ دياز بشيء من التردُّد.

قالت: «طروادة؟».

قال، وهو يبتسم: «لا ريب».

حين التقت الرجل أول مرَّة، حسبته متعجرفًا أجوف، لا تساوي موافقته مقدار كيس ورق مملوء بالبول. ولم يغيِّر الزمن كثيرًا من رأيها في جزء «الأجوف المتعجرف»، لكن استحسانه بدأ يبعث فيها شعورًا غريبًا بالفخر. وهو شعور لم تعتده. بل لا تتذكر متى آخر مرَّة أحسَّت به. وقد وجدت، على غير ما توقَّعت، أنها تحبُّ هذا الشعور.

قالت، وهي تُمرِّر إصبعها فوق الحروف: «إمبراطورة طروادة». لطَّخت واحدًا منها، لكن يديها ما عادت تخلو من الحبر: «أستطيع أن أكتبها، على الأقل».

قال يعقوب، واقفًا ويداه المعروقتان تستندان إلى سور مؤخرة السفينة، يعبس للريح، وللأفق، ولأي سفينة أخرى: «همف».

قالت أليكس، وقد وضعت الورقة جانبًا واتكأت بجواره: «ما زلت قلقًا؟».

زمَّ شفتيه نحوها وقال: «وظيفتي أن أقلق».

قالت وهي تضربه بمرفقها ضربة خفيفة: «يا لحسن حظك. وظيفتك وهوايتك واحدة!». ولم يبدُ أنها أو هو استمتعا بها، فما زالت مفاصلها تؤلمها من لكمها بالثازار في وجهه. وذلك شيء آخر يشعرها بفخر إذا ما فكرت به.

سألت: «أي بلاد تلك؟».

أشار يعقوب إلى اليمين، حيث شبح شاطئ بعيد تحت سماء رمادية كالحديد. قال: «تلك... مملكة نابولي».

تمتمت أليكس: «يكفينا هذا القول».

ثم أشار إلى اليسار، حيث الساحل الصخري الوعر: «وهذه... طروادة، حتَّى انسحب الطرواديون، ثم بلغاريا، حتَّى أُجبر البلغاريون على التراجع، ثم تبعت البندقية، حتَّى فقدت البندقية الاهتمام، ثم صارت إمارة صربيا، حتَّى حلَّ بها الطاعون الطويل».

- والآن؟

- شظايا أرض لا قانون فيها ولا قائد، اجتاحتها الحرب، ونهشها الوباء، وتقاسمها اللصوص.

قالت: «ومن منَّا لم ينهبه لص أو اثنين؟ لقد عبرنا البحر أربعة أيام دون أدنى إزعاج». وقد استدارت لتريح مرفقيها على السور، وتدع النسيم الملحي يعبث بشعرها، والطيور البحرية تدور خلفهم في الهواء، ومُشكلات البر توشك أن تُنسى، كل شيء أفضل في البحر.

قال يعقوب، وقد ضاق نظره: «حين تغيب علامات الخطر، يكون الحذر ألزم ما يكون».

قالت: «لكن... ليس حقًّا، أليس كذلك؟ هذه من تلك العبارات التي تُقال فتبدو حكيمة، لكنها لا تعني شيئًا حين تفكِّرُ فيها».

عقد جبينه، وما عساه أن يفعل غيرها.

قالت أليكس، وتراجعت عن فكرة دفع كتفه مجددًا: «بربك، لم أر أحدًا يُقتل منذ أسابيع. لديَّ شعور أننا سنبلغ طروادة فعلًا». ولم تُرد أن تقولها جهرًا، فمالت وهمست من جانب فمها: «دعك من كَتابِتِها، بدأت أظن أن بإمكاني أن أكون إمبراطورة فعلًا».

وطبعًا، سمعها البارون ريكارد. البارون ريكارد يسمع كل شيء.

قال، وهو يبتسم نحو مقبض عصاه: «بإمكان أي أحد أن يكون إمبراطورة، إن وُلد من الأبوين المناسبين وامتلك التاج، المسألةُ إن كنت تجيدين ذلك أم لا».

وبدا مصَّاص الدماء أصغر من ذي قبل في الأيام الأخيرة، ولم يعد يحمل عصاه إلَّا ليتبختر وهو يبتسم لها.

قالت أليكس: «أعرفُ القراءة والكتابة»، وهي تبتعد عن السور متبخترة نحو السارية الرئيسية، تقدِّمُ عنقها إلى الأمام كما علَّمها البارون، كأنما تسوِّق لعنقها على أنه عيِّنة مثالية: «أعرف كيف أمشي. أعرف كيف أخفي خنجرًا. أعرف تاريخ قرطاجة القديمة والبندقية وطروادة. وكنت أعرف أصلًا كيف أكشف الكذَّاب. فماذا تحتاج إمبراطورة الشرق أكثر؟».

همست ڤيجا: «تعرفين الأساسيات».

وقد اتكأت على ظهرها في صدر السفينة، تسندها يداها من خلفها، وكتفاها الموشومتين المحروقتين بالشمس منطويتين حول أذنيها الموشومتين والمحروقتين كذلك، وعيناها شاخصتين إلى بحَّارين منشغلين في الحبال فوقها.

قالت: «انظر إليهم كيف يتسلقون. تُرى، هل يقدرون أن يصعدوا عليَّ بمثل تلك الخفَّة؟».

قال البارون ريكارد، وهو يزفر: «إنهم طاقم، لا قائمة طعام».

قالت ڤيجا، متذمرة: «ومن يتحدث؟ نصف هؤلاء الفتيان مملوؤون بثقوب أنيابك. لم أفهم قط كيف تُقنع الناس بقبول العَضِّ».

قال: «أصغي. أفهم. أتعاطف. أتصرف، باختصار، بذوق حسن وأدب رفيع. ولهذا ينجذب إليَّ الناس، لا ينفرون كما يفعلون منكِ».

- ستُدهش.

- بل سأُرعب. يُذهلني كم من الرجال يختارون طواعية مضاجعة مستذئبة.

- أغلب الرجال يضاجعون أي شيء، وأنا لا أبدأ الحديث بكوني مستذئبة أصلًا.

سألتها أليكس: «وبماذا تبدئين؟». زحلقت ڤيجا قدمًا على ظهر السفينة حتَّى انفرجت ساقاها، كاشفةً عن موضعٍ في بنطالها.

قالت: «ذاك».

همهم الأخ دياز: «القديسة بياتريكس الطاهرة...».

غير أنَّ أليكس لَحَظَتْ أنه قد رفع بصره عن رسالته لينظر، ولم يعد يغض بصره.

تأملت ڤيجا، كأنها نسيت أن ساقيها ما تزالان مفتوحتين أو لم تكترث، وقالت: «إن كان ثمة سرٌّ... فهو ألَّا تستحي من السؤال، وألا تتهيب الجواب، وألا تُهدر الدمع على الرفض، وأن تتشبث بكلتا اليدين بأي دفءٍ يُنتزع من عتمة الوجود الباردة».

هزَّت أليكس رأسها ببطء. قالت: «فقط ذاك، أليس كذلك؟».

* * *

اضطجع بالثازار في الظلمة، يصغي إلى صرير خشب السفينة، ويغمره الغثيان غَمْرًا.

ولم يدر أغثيانه ذاك من محاولته كسر الرباط، أم من اشمئزازه من فشله المهين، أم من داء البحر وحده. وكيف له أن يميز؟ وأي نفعٍ في التمييز؟ مقت السفن. مقت القيود. مقت الكرادلة الدهاة، والباباوات الأطفال، والفرسان الكالحين، ومصَّاصي الدماء المتغطرسين، والمستذئبين المفرطين في شهوتهم. مقت قبضات الأميرات. مقت كل شيء.

سمع صرير الباب يُفتح، فتلوَّى على مضض ليلقي نظرة.

وقفت بابتيست في المدخل، تنظر إليه كما ينظر المرء إلى مرحاضٍ انسدَّ. أن يُعامَل هكذا، هو بالثازار شام إيفام دراكسي، ذاك الذي يسمي نفسه أحيانًا «رُعب دمياط»؟ وقد غدا عمره كله انحدارًا مؤلمًا لا ينتهي.

قال: «آه. أنتِ».

رفعت حاجبيها وقالت: «ما أجمل الترحيب الدافئ».

قال وقد أعاد وجهه إلى الحائط واحتضن وسادته: «لعلَّ ثمة أناسًا كنتُ لأكره رؤيتهم أكثر، لكن لا يخطر اسمٌ على بالي الآن».

ومع ذلك، لم يطلب منها الانصراف، إذ تردَّد بين رغبته في الاستغراق وحده في كآبته الرطبة، وبين رغبته في التنمُّر منها بشدة.

- أظنك هنا لتشمتِي بمصيبتي.

قالت وهي تخطو إلى المقصورة: «بل لأبدِّل لك الضماد». وسمع طقطقة الباب يُغلق: «لكن ربَّما سأُقحم شيئًا من التشفِّي الخفيف في أثناء ذلك».

قال وهو يمد ذراعه المصابة نحوها: «فافعلي أقبح ما لديك. في الأمرين».

أنَّ السرير حين جلست. وأحسَّها تنزع دبرس الضماد، وارتجف حين شرعت في لفه.

قال متأوِّهًا دون حماسة: «آه. أهذا ما آل إليه أمري؟ أن تعلج جرح يدي قرصانة سابقة؟».

- عملتُ أيضًا جزَّارة، إن كان في ذلك عزاء.

قال وهو يحدِّق إلى السقف الخشبي: «أكاد أراهم يتضاحكون عليَّ. هناك. على ظهر السفينة».

- لعلك تدهش إن علمتَ... أن ليس كل شيء... يدور حولك.

- لست حتَّى جديرًا بالذكر، وكأن فشلي الذريع في كسر الرباط لم يكن إذلالًا كافيًا!

- أدهشتني.

ما استطاع إلا أن يلتفت خلفه وقال: «حقًّا؟».

- ما أذكر أن مشعوذ عندنا تمادى إلى حدِّ حرق نفسه ثم تلقَّى لكمة من فتاة في السابعة عشرة من عمرها.

وما وجد في نفسه قوة ليصحِّح لها أنه ساحر، بل ما عاد يدري بعد فشله ذاك أهو أهلٌ للقب أصلًا؟

وأدار وجهه إلى الحائط ثانية، وسلَّم نفسه لمعاملتها إياه كأنما هو قطعة لحم. ولم يكن ليقرِّ بذلك قطُّ، لكن في معاملتها الجادة ما كان يُطمئِن، ورعاية أحدهم له.

قالت بابتيست، بعد حين: «كان يمكن أن يكون أسوأ. كان عندنا مشعوذ... ما اسمه؟ فهذه وظيفتي منذ زمن. لكنه قطع يده ليتحرر منها. الجليد كانت صنعته...».

- سحر الجليد.

- ... فجمَّد يده ثم هشَّمها بطوبة.

كان الأحرى ببالثازار أن يُفزع، لكنَّ ما سمعه اندمج بسلاسة في الضجيج العالي للرعب المستمر الذي بات يعيشه مؤخرًا. وبعد لحظة، غلبه الفضول، فقال وهو يلتفت لينظر إليها: «وهل نفعه ذلك؟».

قالت: «كلا. أنتم معشر السحرة اعتدتم طوي العالم لإرادتكم حتَّى غفلتم عن قيمة... ترك الأمور تمضي كما هي. التسليم لشيءٍ أكبر منكم. ها قد انتهيت».

رفع ذراعه إلى الضوء اليسير، وحرَّك أصابعه.

- شكرًا.

قالت وهي تميل برأسها واضعةً إصبعًا خلف أذنها: «العفو؟ ما سمعتك جيدًا مع رعد تذمُّرِ الشفقة الذي يطنُّ في الأرجاء».

قال: «ضمادٌ جيد. بل متقن. استفدت من عملك مع الجزار».

- ثناء عظيم حقًّا.

- لم يكن سهلًا عليَّ يومًا... الإقرار بمهارة الآخرين.

وعلى ما في الموقف من بؤس، فقد ارتسمت على شفتي بالثازار ابتسامة خفيفة.

- لم أعتد ذلك.

وما من شكٍّ أن لبابتيست عيوبًا بيِّنةً في شخصيتها. ولكن من منا كامل؟ ومن له أن ينكر أن فيه هو الآخر عيوبًا طفيفةً يخفيها. ولا جدوى من أن يُنكر أنها كانت... فاتنة على نحوٍ ما. تلك الثقة الجامحة. ذاك الزهو الرصين. تلك الندبة على شفتها التي بدا له في أول الأمر أنها قبيحة، ثمَّ غدت، بعد التأمُّل، تزيدها مسحةً من خطر، وتضفي عليها هالة ساحرة من... شيء لا يُسمَّى إلا خبرة.

بعض الناس يأسرونك فورًا. وآخرون لا يُفهمون إلا مع الزمن وطول المعاشرة. كأنهم جبنٌ معتَّق. والأغلب ممن يُكتسب استلطافه بالعشرة هو ما يطيب أكثر في النهاية...

قالت وهي تضيق عينيها بشكٍّ: «ما بك؟».

فتح فاه ليجيب.

وهنا، ومع فرقعةٍ مزمجرة للخشب، وانفجار سحابةٍ من الشظايا اللاسعة، انغرز رمحٌ ضخم، عريضٌ كالمجرفة، من السقف إلى قمرتها.

***

كانت سفينة حرب.

بل حتَّى رجلٌ غافل عن شؤون الحرب والبحر مثل الأخ دياز ما كان ليخطئ ذلك.

قادس حربي عظيمة على الطراز الطروادي، طويل فتاك سريع كالسهم، يتلألأ طِرازُها الذهبي على الدرابزين والألواح، تزدان بسطرين من المجاديف السريعة، وتزهو كل واحدة من أشرعتها المثلثة الثلاثة بمنارةٍ مُطرَّزة بخيوط الذهب، وأمامها صِدام ضخم من البرونز، نُحت على هيئة رأس صقر، يشقُّ الموج مثيرًا سُحبًا من الرذاذ الباهر.

لربَّما كان منظرًا بهيًّا... لو لم يكن ذاك الصدام مُوجَّهًا صوبهم.

قال الأخ دياز: «يا أيتها القديسة بياتريكس الطاهرة...». وهو يحدِّق إلى سهم الباليستا الذي طار في قوسٍ أنيق عبر بضع مئات من الخطوات فوق الماء بين السفينتين ليستقرَّ في ظهر السفينة قريبًا من موضع جلوسه بإنشات، حيث كان يكتب رسالته الجديدة غير المرسَلة إلى أمِّه.

ربَّتت ڤيجا على كتفه وقالت: «لا تقلق، لقد كان مجرد طلقة تحذير»، فترنَّح.

- ماذا لو أصابتني؟

- لعلَّها... تصبح... طلقة فحسب؟

صرخ القبطان: «لن نفلح في الفرار! لسنا سفينة حرب! لا بُدَّ أن نستسلم!».

قال يعقوب من بين أسنانه: «لا نستطيع الاستسلام».

قال البارون ريكارد، وهو يريهم الخط على معصمه بأسى: «الرباط البابوي».

- وقد أخذتُ نُذورًا.

رددت أليكس: «يا إلهي»، وهي تشدُّ رأسها بين كفيها البيض، ومن بين أصابعهما كانت خصل الشعر تنبثق كالعشب، وقد انتقلت من زهوٍ مبهج بتحسن كتابتها إلى فزعٍ طاغٍ في طرفة عين.

قال البارون ريكارد وهو يربِّت كتف القبطان بمواساة: «أرى أنَّ عليك أن تأخذ رجالَك وتترك السفينة. وأظنُّ، وأكاد أجزم، أن الأمور ستزداد... سوءًا».

قال القبطان وهو يلوِّح بذراعه نحو البحر من كل جهة: «نترك السفينة؟ وإلى أين؟».

قال ريكارد: «لطالما أحببتُ جنوب فرنسا في مثل هذا الوقت من السنة. لديك شيء هنا». وهو يمدُّ منديلًا ليمسح عنق القبطان حيث أحد ثقوبه هناك ينزف خيطًا من الدم: «... ها قد غدا أفضل بكثير».

قال بالثازار وهو يصعد مترنِّحًا الدرج من السطح إلى المؤخرة، وبابتيست من خلفه تشير بإصبع ثائرة إلى سهم الباليستا الضخم المغروز في الأخشاب: «ما الذي يحدث؟ ذاك الشيء كاد يقتلني!».

قال البارون: «يا للأسف. نأمل أن تكون رميتهم التالية أدق».

وأشار بالثازار وراء السهم إلى القادس العملاق.

- من هؤلاء بحقِّ الجحيم؟

قال ريكارد: «لم يقدِّموا أنفسهم بعد».

قال يعقوب: «كانوا يختبئون في الخور».

صرخت بابتيست: «ينتظروننا؟».

- حسنًا، لم يصدموا سوانا. أتظنين أن فريجو خاننا؟

قالت: «سأُفاجَأُ إن لم يفعل».

قال الأخ دياز وهو يشكو: «قلت إنك تعرف أناسًا في البندقية!».

- لم أقل قطُّ إنهم أهل ثقة!

وما زال القادس يندفع إليهم، ولشدة ضخامته لعله سيواصل الاندفاع حتَّى لو كفَّ بحَّارته عن التجديف. بل إنهم، على ما بدا، راحوا يجدفون أشد من ذي قبل.

صرخت أليكس: «نحن محاصرون! تمامًا كما حدث في النزل!».

قالت ڤيجا: «لا، لا. النزل كان على اليابسة. حيث يمكنك الهرب منه. والنزل لا يغرق».

حدَّقت أليكس إليها وقالت: «فهو أسوأ من النزل؟».

قالت ڤيجا وهي تبتسم وقد لطمتهم موجة فرشَّت أجسادهم بالماء: «أوه، إنه أسوأ بكثير».

عثر يعقوب على ترس، وراح يشدُّ أشرطته حول ساعده: «سوف نقاتل طريقنا للخروج».

وهمهم الأخ دياز: «القديسة بياتريكس الطاهرة، القديسة بياتريكس الطاهرة، القديسة بياتريكس الطاهرة»، كأنما الخلاص كامنٌ في إيجاد النغمة الدقيقة للعبارة.

صاح يعقوب بالقبطان: «أحضِر بعض التبن! بلِّله وأشعِل نارًا على السطح!».

قالت أليكس: «نار؟ في سفينة؟».

قالت بابتيست: «ما نريده هو الدخان».

قال يعقوب وهو يحدِّق إلى القادس الذي يزداد اقترابًا: «ما نريده هو الفوضى. حين يفوقونك عددًا وقوَّة، تكون الفوضى فرصتك المثلى».

صفر سهم عظيم آخر على بُعد أربعين خطوة، ومع ذلك انحنى الأخ دياز فزعًا. لعلَّها طلقة تحذير ثانية. وتساءل إن كان بمقدوره أن يشعر بتحذيرٍ أشد مما شعر به الآن.

صرخ القبطان: «انعطفوا! انعطفوا!». وألقى بثقله على الدفَّة إلى جانب الموجِّه، فمالت السفينة وهي تنحرف نحو الساحل. تعلَّق الأخ دياز بالصاري لئلا يسقط، ورأى إحدى أقلامه تتدحرج مبتعدة عبر السطح المائل.

سمع طبل القادس العظيم يدقُّ بإيقاعه وهو ينقضُّ عليهم، ويرى المجاديف تنغمس بنظام، والزخارف الذهبية تلمع في الشمس، والصدام العظيم يزداد قربًا. تضاءلت فسحة الماء بين السفينتين بحتميَّة مُفزعة، وكلما اقتربت، ازدادت حجمًا، تهيمن على سفينتهم اللعبة، وأشرعتها المثلثة العظيمة تحجب الشمس.

تمتم وهو يتشبَّث بقارورته المباركة: «القديسة بياتريكس الطاهرة...».

اصطدم الصدَّام بسفينتهم عند خطِّ الماء، وصرخت الأخشاب المعذَّبة حين اخترق الهيكل وجرفهم جانبًا كسمكة طُعنت برمح. اختلَّ السطح، ومال، وارتفع ستار عظيم من الرذاذ على الجانب الآخر. وسقط بحَّار من الحبال يصرخ، وارتطم بدرابزين السفينة بضربة قاسية، ثم ارتطم على البحر.

تشبَّث الأخ دياز بالصاري بكلتا يديه، وأغمض عينيه، وأخذ في الدعاء.

- أوهووي... يا من هناك!

رفع يعقوب رأسه.

وقف رجل على منصة مثلَّثة في مقدمة القادس، يلوِّح بتهور كأنما يحاول لفت انتباه صديق في ساحة عامة. وجهه مستدير ليِّن، كثير حلي لامعة، منها قرط ألماسي يتدلَّى، وله شعر ذهبي أجعدُ كالعرف يتماوج.

قال: «أعتذر كل الاعتذار عن مسألة الاصطدام، لكنني أجد التفاوض يسهل بعد إبداء نوايا قوية، أليس كذلك؟».

ووضع يده المتراخية على صدر سترته القرمزية المثقلة بالأوسمة الذهبية.

- أنا الدوق قسطنطين، إلخ إلخ، ولا حاجة إلى الركوع.

فزعت أليكس: «لا تقل لي... أنت أحد أبناء يودوكسيا».

قال: «الثالث، في الواقع، وإن كنت أحبُّ أن أعدُّ نفسي وريثها الوحيد. ولا بُدَّ أنك ابنة خالتي، الأميرة الشهيرة...». وأخرج شيئًا من سترته وراح يفرده: «ما كان اسمك...».

لفافة بختم ثقيل. شدَّ يعقوب على أسنانه. نسخة من مرسوم البابوية، ذاك الذي لم يكن يُفترض بأحدٍ أن يطَّلع عليه قبل وصولهم إلى طروادة.

قرأ قسطنطين: «الأميرة الشهيرة أليكسيا پايروجينيتوس، موثَّقة من عرَّافَين مزدوجَين من جوقة السَّماء!». ثم تطلَّع إليها من علٍ، مقطِّبًا أنفه: «فأرة صغيرة، أليست كذلك؟».

قالت وهي تصكُّ أسنانها: «أنا أعمل على تحسين هيئتي!».

- حقًّا؟ أظن أنه يمكنك التوقُّف الآن.

ورمى اللفافة من فوق كتفه.

- أشكُّ في حاجتك إليها في المكان الذي ستذهبين إليه. لكن لا بُدَّ لي من القول إنَّه لأمر رائع أن تجلبها إليَّ هكذا. فكن مهذَّبًا، وسلِّمها، وإلَّا اضطررت إلى أخذها.

قال يعقوب: «أخوك مرسيان جرَّب ذات الشيء».

قال قسطنطين وهو يتلوَّى كأنما ذاق شيئًا حامضًا: «آه، آسفٌ لذلك. الفتى كان دائمًا سريع الغضب. لطالما قلتُ في نفسي، كم هو مقيس أن يكون المرء غضبانا على الدوام. لكنَّنا من أبوين مختلفين. أبوه وغد

بحق. أبي أيضًا، إن أردتَ الحقيقة. كان لأمِّنا ذوق فضيع في الرجال، فقد تزوجت تجاربها الغامضة أكثر من زواجها بأيٍّ منهم، لكن هذا...»، ولوَّح بيده: «حقًّا ابتعدنا عن الموضوع. بالمناسبة، أين مرسيان الآن؟».

قال يعقوب: «أوه، تعلم. بعضٌ منه هنا، وبعضٌ هناك».

قال قسطنطين: «مات؟».

زمجرت ڤيجا: «أشد ما يكون من ميتة».

وتحوَّل ذهول الدوق، رويدًا رويدًا، إلى ابتسامة مشرقة. قال: «فهذا عملٌ آخر وفَّرتموه عليَّ! أنتم، رغم عداوتكم، مُعينون على نحوٍ عجيب!».

تمتمت أليكس: «كنتُ طوال حياتي أتوق إلى عائلة، والآن وقد حظيتُ بها، تبيَّن أنهم كومة من الروث».

همس البارون ريكارد: «أشعر بك».

وأشار قسطنطين بإصبعه السمينة، التي تكلِّلها خاتم ضخم نحو يعقوب إشارةً مبهمة، وقال: «ومن هيئتك المكللة بالندوب، و... مزاجك عمومًا، أظنُّك قد شهدت بعضًا من أهوال الساحات؟».

وكانت إيماءته تلك، بكُمة الدانتيل المتراقص، أقرب إلى الإشارة إلى كعكة مفضَّلة منها إلى رسم خطط عسكرية.

قال يعقوب وهو يزفر: «بعض المناوشات».

قال قسطنطين: «فأنا واثق أن فيك من الفطنة القتالية ما يكفي لتدرك أن موقفك لا يُحسد عليه».

تحمَّل يعقوب ألَّا يتشنَّج حين أحسَّ بساني تلتصق على ظهره لحظةً بأنفاسها، ثم جاءه همسها: «خمسة رماة على المنصة معه، وربما عشرة على الصواري». واختفت.

قال يعقوب وهو يزمجر نحو قسطنطين: «ليست هذه أول مرَّة لي».

قال قسطنطين: «فلنجعلها لا تكون الأخيرة. واضحٌ لكل ذي بصر أن هذه معركة خاسرة تمامًا».

قال يعقوب: «أدري أن المعارك الخاسرة تضرني، لكنني لا أتوب عنها».

قالت ڤيجا: «هي المعارك الوحيدة التي تقبلنا».

قال قسطنطين وهو يرتعش فرحًا: «أوه، إنكم من أولئك الأبطال الكالحين!». ثم صاح وهو يضرب أحد رماته على الكتف ويرفع صوته نحو الحبال: «إنهم من أولئك الأبطال الكالحين!».

لكن جنوده لم يردُّوا.

راح يعقوب يحرِّك أصابعه المتألمة. كره القتال في البحر. لا تراب يفركه بين كفيه. لا أرض صلبة يثبت فيها قدميه. كل شيء متقلِّب فوق ماء لا يهدأ.

ذكَّره ذلك بعبورهم الدانوب قبل الفجر على تلك القوارب الصغيرة، والسهام تتساقط فوقهم. هل وصل نصفهم إلى الضفة الأخرى؟ أو أن تلك المناوشة كانت على الشاطئ، يندفعون خلال الرذاذ، والأجساد تطفو مع المدِّ. أو تلك المعركة قبالة شواطئ مالطا. رائحة الدخان. رفرفة الأشرعة. رجال يرمون أنفسهم من الهياكل المحترقة. لم يكن يدري إن كان لذلك الامتداد من الماء اسم. لكنك لا تحتاج إلى اسم المكان لتموت فيه.

سمع أليكس تتمتم: «كم عددهم في سفينة كتلك؟».

قال يعقوب: «ما يكفي».

كل الأمور كانت في مصلحة قسطنطين: العلوُّ، العدد، السلاح، وأن سفينته ليست مثقوبة ولا يتسرَّب إليها الماء. لكنك لا تختار دائمًا أرض المعركة. أحيانًا تأتيك، ويجب أن تستقبلها بما أنت عليه.

وعلى الأقل، التبن في السطح اشتعل الآن، والدخان اللاذع تصاعد ليغشى السفينتين بسُحب رمادية.

همست بابتيست: «هل أنت واثق من هذا؟».

- إن وجدتِ فكرة أفضل فأنا خير منصت.

إن الطاقم كان في فوضى، لعلَّنا نمنحهم أكثر مما يستحقون. بعضهم راح يتسلَّح بخطاطيف القوارب والفؤوس، لكن أغلبهم قفزوا في الماء، يفضِّلون حظهم مع البحر الأدرياتيكي. وهم ربما أقل استعدادًا للمعارك الخاسرة من يعقوب. وما كان لذلك فرق عنده. عشرة على واحد. مئة على واحد. ألف على واحد. سيقاتل حتَّى الموت وما بعده، كما يفعل دومًا. وعليه أن يتذكر قسمه.

تنفَّس بعمق، وكتم سعلة، واستلَّ سيفه ببطء. وقال: «على الأقل لا يوجد رجال ماعز لعينون هذه المرة».

قالت بابتيست وهي تربت على ذراعه: «كلا، لكن... أمم...».

ولم يحب يعقوب أن يدير رأسه، لكن هذه المرة رأى أن لا بد. رأى الأخ دياز، وعيناه مفتوحتان على آخرهما. ورأى الأميرة أليكسيا، وأسنانها بارزة. ورأى القبطان، يبتعد عن الدفَّة ويداه متدلِّيتان.

جميعهم ينظرون إلى جهة واحدة. إلى مؤخرة السفينة.

شخصٌ ما يتسلَّق السياج الخلفي. امرأة ترتدي بزَّة فارهة كتلك التي يرتديها قسطنطين، إلا أنها مشبعة بماء البحر، والشرائط المبتلَّة تتدلَّى منها، وعلى رأسها خوذة ما، أو لا، بل ذاك رأسها، فضيٌّ كالحرشفة، يتخذ هيئة رأس سمكة، ينتهي بنقطة غريبة.

حدَّقت إلى يعقوب بعينين مائيَّتين واسعتين، وراحت خياشيم عنقها ترتجف وتتسع، ثم صرخت صرخة حادَّة، كاشفة عن صفَّين من الأسنان الحادَّة كالأوتاد.

تنهد يعقوب وقال: «تبًّا، عظيم».

28

النار على الماء

مرَّت أسابيع مشحونة على أليكس، إذ أعلنوها وريثةً لعرش طروادة، والتقت البابا، وتعرضت لهجوم من رجال خنازير وساحرة تتوهَّج نارًا، وشهدت غوغاءً يهدؤون بخطبةٍ عن الزلابية، ورأت رأسًا مقطوعًا يتكلم. ولتظنها بعد هذا تعودت على المفاجآت، لكنها تُؤخَذ على حين غرَّة في كل مرَّة.

امرأة، لها ذراعان وساقان. غير أن جلدها لماع ذو قشور، وعيناها الصفراوان متباعدتان تباعدًا يُثير الريبة، وأنفها مفلطح، وفمها المائل إلى الهبوط يُعطيها مسحةً سمكية. ثم تلك الخياشيم، تنفرج مع كل نَفَس، فتُبدِي ما في داخل حلقها من ورديٍّ متموِّج. وقد كان أمرًا هزليًّا، لولا أن السيف ذا الأشواك الذي تلوِّح به، لم يكن يُضحِك.

قالت أليكس تتأوَّه: «يا إلهي».

وجاءت الأصوات من خلال غمامة الدخان المتكاثفة، صليل حديد، وصرخات ألم، وخوف، وغضب، كما في النُّزُل... غير أن الأمر فوق البحر! وكل شيء فوق البحر أدهى وأمرُّ!

قال صوت خلفها: «هل تُحسنين السباحة؟».

دارت أليكس على عقبيها، فرأت ساني جاثمة على الدرابزين، يدها قابضة على شبكة الحبال التي تصعد إلى الصاري، كأنها قد وُلدت في حبال سفينة تُغيَّر عليها نساء أسماك.

بلعت أليكس ريقها وقالت: «لستُ بارعة».

قالت ساني: «لستِ بارعة أم لا تُجيدينها البتَّة؟».

- لا أُجيدها البتَّة!

لِمَ لم تتعلَّم السباحة في البندقية بدلًا من تعلُّم المشي والكتابة والكلام عن قرطاجة؟ وما نفع معرفة التاريخ القديم إن كنتِ تختنقين بماء البحر؟

تراجع أمامها يعقوب ودرعه مرفوعة، وإلى جانبها تراجعت ڤيجا، والأخ دياز ينكمش وراءها، ومن خلفها تراجع بالثازار وبابتيست، وترنحت هيئات مريبة خلال ضباب الدخان وراء الهلال المتقلِّص، وضفائر مبتلَّة تتلألأ على أردية غارقة. ولن يسعدها شيء أكثر من أن تنسحب هي الأخرى، لكن لا مكان تنسحب إليه؟

قالت بصوت مرتعش: «إلى أين نذهب؟».

رفعت ساني بصرها إلى فوق.

وبكلِّ نفور، مالت أليكس برأسها إلى الوراء أيضًا، متتبِّعة شبكة الحبال المعوجَّة التي تتلاشى صعودًا في كابوس مترنِّح من أشرعة ترفرف، وكوابل نسجها الغبار كخيوط العنكبوت، وصوارٍ تئن وتئز. خارت ركبُها لمجرد النظر.

همست: «أتمزحين؟».

قالت ساني، وهي تمدُّ يدها الفارغة: «ليس لي حسٌّ فكاهي».

لبثت أليكس هنيهة أطول، تُخرج صوتًا يشبه مواءً يائسًا وهي تراقب مخلوقات البحر تدنو. بدا أحدهم وكأنَّ قطعة من المرجان تنمو من رأسه. أهناك عين على طرفها؟ كانت تحدِّق إليها بلا ريب!

زجرها يعقوب من فوق كتفه: «اصعدي!».

قالت: «يا إلهي»، وأمسكت بيد ساني، وتمايلت فوق الحافة، ثمَّ بعد نظرة واحدة إلى البحر المائج تحتها، انقلبت حول شبكة الحبال وبدأت في التسلق.

إلى أعلى درجات الشِباك، وأيُّ شيء أليق بجرذ مثلها من هذا؟

***

اندفع رجل السمك إلى الأمام، شفتاه العريضتان ترتجفان، ويصدر عنه صوت غريب كالتغرغر. بدا في أذن الأخ دياز شبيهًا بقول «ساعدوني»، لكن هذا الشعور كان متناقضًا تمامًا مع الفأس العظيم الذي رفعه عاليًا. أو لعلَّه كان خطَّافًا مثبتًا على رمح؟ وما أهمية شكل الحديد إذا ما انغرز في جمجمته؟

تمايل الأخ دياز جهة، فمرَّت الشفرة تصفر من جانبه، وشطرت شظايا من الحاجز الخشبي عن يمينه، ثم ارتدَّ جهة أخرى حين هوَت في الحاجز عن يساره. ارتطم بالصاري، ثم ارتدَّ منه متهالكًا، وزلَّت قدمه على سطح السفينة المائل، فانفرج كيسه وتساقطت منه رسائل لم تُرسل بعد. ضرب الحاجز الخلفي ساقيه، فمدَّ يده إليه بيأس، ولم ينل غير أن اقتلع ظفرًا من إصبعه قبل أن يهوي. ثم تهيَّأ للصراخ وهو يهوي صوب البحر، ولم يكد يبلغ غير زفرةٍ مذعورة حتَّى ارتطم بجنبه في الخشب. ثم جلس، قابضًا على رأسه النابض بالألم، يحدِّق خلال الدخان. لا بُدَّ أنَّه هوى من مؤخرة السفينة ولم يسقط غير أقدام معدودة إلى السطح. وكان على وشك أن يعدَّ ذلك ضربًا من الحظِّ، حين قفز رجل

السمك كالسلمون، وهبط أمامه والخطاف مرفوع عاليًا. دفع بنفسه إلى الوراء، عقباه تركلان الخشب، يصارع لينجو ويقوم في آنٍ معًا، ولا يفلح في شيءٍ من ذلك، فرفع ذراعًا يائسة ليدفع الضربة المحتومة...

زمجرت ڤيجا: «ذلك الراهب لي، أيها الوغد!».

وارتطمت ركبتاها برجل السمك، وسحقته في السطح كتلةً منتهية، لا بُدَّ أنَّها أمسكت بعدَّة النجارين، ففي كل يد قبضت على فأس ثقيل، ثم هوَت بهما دفعة واحدة فكان الوقع مزدوجًا، وتناثرت الدماء على خطمه.

تخبط الأخ دياز واقفًا، يسعل ويُغمض عينيه ويعود للسعال. أيرى خيالات تظهر في العتمة؟ اثنان يتصارعان على الأرض، وآخران يتنازعان على رمح، ولمع بريق معدني...

صرخ: «يسار!».

ارتمت ڤيجا أرضًا، ورمح ثقيل يحلق فوق رأسها، ورأسه الشائك كاد يخدش أنف دياز. وانقضَّ جندي نحوه، بخوذة مذهَّبة تلمع، ودروع للساقين، وأنياب بارزة. فانقضَّت عليه ڤيجا بسرعة لا تليق بجسدها الضخم، وقنصت ساقه برأس فأس، ورفعته عن الأرض وهو يصرخ، ثم هوَت به على السطح ضربةً شقَّت الخشب برأسه.

صرخ الأخ دياز: «يمين!».

تلفتت ڤيجا جهة أخرى، لوحت الفأس في قوس ليحطِّم خوذته وقذفته ليدور كالطاحونة أمام الأخ دياز، ويقتطع قطعة من الحاجز، ويهوِي جسدًا متهالكًا في البحر من خلفه.

قالت وهي تلقي مقبض الفأس المكسور من فوق كتفها: «خردة إيطالية».

صرخ الأخ دياز: «رامٍ!».

دارت ڤيجا وأطلقت فأسها في حركة واحدة، فتطاير بطنين مرتجف، ثم انغرز في جبهة الرامي على المنصَّة بصوت حاد. فأطلق السهم عاليًا إلى السماء وهو يهوِي إلى الوراء.

صاحت، وهي تمسك بثوب الأخ دياز وتنتفض فرحًا: «رأيت تلك الرمية؟».

ولم يستطع أن يقول غير: «ييك»، وكان من ورائها ينهض من الدخان شيء هو الأبشع ممَّا رآه في عمره. جسد رجل، بزَّته الأنيقة ملطَّخة حول طوقها المطرَّز بسائل قذر، إذ إنَّ موضع الرأس فيه كُلل بكتلة رخوة من الجلي، عينان برتقاليتان بحجم صحون التبرعات، وكتلة من المجسَّات تتدلَّى من المقدمة.

هل يرى من جلده الشفاف؟ أذلك عقله يعوم كجوزة في هلام؟ ولمَّا انقضَّ على ڤيجا انفرجت المجسَّات ليظهر صفوف من الممصَّات البنفسجية، ثمَّ برز من موضع التقائها منقار أسود، فُتح وصاح صرخة مروِّعة تصم الآذان، لكنها بُترت في دويٍّ هائل حين مالت ڤيجا جانبًا ولكمته في بطنه، فانطوى نصفان وارتفع حذاؤه المصقول عن الأرض. ترنَّح خطوتين، يقذف القيح الأسود من منقاره، فأمسكته حينها ڤيجا من معصمه ومجموعة من مجسَّاته الموشومة، ثمَّ دفعته فجأة إلى أعلى وغرزته مقلوبًا في الصاري ليسقط كتلة متمزقة من الهلام، فوثبت عليه، عضلاتها منتفخة من عنقها الموشوم، وغرزت أسنانها في حلقه حيث يلتقي الإنسان مخلوقَ البحر، تعض وتلتف، حتَّى انتزعت منه قطعة، ثم مسحت فمها الملطَّخ بالسواد بساعدها، وبصقت لقمة من لحم مطَّاطي.

قالت وهي تكشِّر: «أغغ، أكره طعام البحر».

***

لا تروق السفن بالثازار، لا أسطحها، ولا مقصوراتها، ولا موائدها. أماكن ضيقة، قذرة، منتنة، يحشر فيها أسوأ ما أنجبتهم المجتمعات، سكارى يلهجون بلغو لا يُفهم من مصطلحات البحر ما يُقال فيه أو يُعاد. ولا يزيد حبا لمقصوراته، لا سيَّما هذه، إذ إنَّ مقدِّمة السفينة الحربية قد اخترقت أحشائها، وأخذ الماء يدخل من الشقوق في الهيكل المهشَّم ينابيع فوَّارة. بدا له أن النزول إلى ما تحت السطح فكرة حسنة، حين كان السطح نفسه ميدان قتال ملفَّح بالدخان، غير أنَّ بالثازار بدأ يتساءل هل هذه فكرة جيدة إذا كانت السفينة غارقة على كل حال.

تمتم: «لا يبدو الأمر مبشِّرًا...».

وهي عبارة يطلقها على كلِّ لحظة من شهوره الأخيرة.

القلب مغمور حتَّى الركبة بماء البحر، والفيض يتزايد ليطفو فيه الحطام، والبراميل المفكوكة، وجثمان فتى ملاح بائس، لا بُدَّ أنَّه نزل هنا يلتمس السلامة. تمنَّى بالثازار أن يكون لهم أوفر حظٍّ، وإن لم يكن ليجازف بحياته على ذلك.

فهمست بابتيست: «من هنا! لعلَّنا نستطيع الخروج من الفجوة!».

وخاضت في الماء صوب خيوط الضوء المتسرِّبة من حول مقدِّمة السفينة المحطَّمة، تدفع بالبضائع الطافية بيد، وتشدُّ خنجرًا بالأخرى.

سب بالثازار في نفسه: «اللعنة».

أن ترمي نفسك في البحر ليست خُطَّة، بل هو ما تُجبر عليه حين تفشل سائر الخطط فشلًا ذريعًا، لكنه تبعها، يسبُّ ويخوض في الماء المتجمِّد، لا لشيء إلا لفراغ رأسه من البدائل، ونفوره الشديد من أن يُترك وحده. بابتيست حادَّة الطبع، لكنها أقل إيذاءً من الكيانات المتحجِّرة بالمحار، ذوي الأجساد المهجنة بين الإنسان والبحر، التي غزت السفينة. لا شكَّ أنَّ تجارب الإمبراطورة يودوكسيا لسحر الجسد مدهشة من وجهة نظر نظرية -وكان بالثازار يتوق شغفًا إلى رؤية ما قد تفتحه من آفاق

سحر الموتى في خلط الأجناس- لكنه ليس في مزاج يتقبَّل معاشرة النماذج الحيَّة منها من كثب. فلا طرافة في حديثهم، ورائحتهم نتنة.

قالت بابتيست، وهي تضع يدها على رأس المقدِّمة المنحوتة على هيئة صقر: «هنا. أعنِّي في...».

فانسلَّ من الظلال خلفها رجل طويل، فارع القامة، ثيابه المبتلة تلتصق بجسده، ووضع إصبعًا على جبهتها.

تراجع بالثازار مذهولًا، فوقع في شبكة بضائع مرتخية، أما بابتيست فوقفت جامدة، والماء يرغي حول خصرها. قال الرجل، وقد رفع حاجبًا أنيقًا: «بالثازار شام إيفام دراكسي، أليس كذلك؟».

سأل بالثازار، ولم يستطع أن يمنع نفسه: «أتعرفني؟».

قهقه الرجل ضاحكًا، ضحكة خبيثة مشؤومة تثير القشعريرة: «لا... ولكن اسمك ذُكر...».

استدارت بابتيست ببطء، شعرها المبلول ملتصق بوجهها العابس، ترمق بالثازار بنظرة أشد عداوة من المعتاد.

قال الرجل: «في قائم...».

وكانت إبرة مغروزة في جبينها، متدلٍّ منها شريط قماش ملطَّخ بالدم، مطرَّز برمز واحد: «لأشخاص طُلب مني قتلهم».

وعند لفظه «طُلب مني قتلهم»، كانت بابتيست قد لفظتها في اللحظة نفسها.

همس بالثازار: «تبًّا...». وتقهقر على مضض في الاتجاه الذي أتى منه بالسرعة نفسها، واصطدم ببرميل عائم كاد أن يسقطه في الماء البارد.

كان الرجل مُتلاعبًا، ساحرًا يتلاعب بالعقول، فنٌّ كان بالثازار يزدريه أشد الازدراء، لا لأنَّ ممارسيه يسلبون إرادة الناس ويتسلَّلون

إلى أجسادهم كما تتسلل البكر إلى فستان جديد فحسب، بل لأنَّهم دومًا يعتقدون أنَّ رؤيتهم بعالم العقول تجعلهم أذكى من سواهم. أما بالثازار شام إيفام دراكسي، فالذكاء حرفته!

رغم أنه، في تلك اللحظة، لم يحسَّ بنباهة تُذكَر، وبابتيست تخوض نحوه وفي قبضتيها خنجران، وفي عينيها نية القتل، وعلى جبينها ختم السيطرة.

قال بالثازار، يحاول يائسًا كسب الوقت وهو يتلفَّت في مخزن يغمره الماء، لا يمكن أن يكون موضعًا أتعس لمبارزة سحرية: «هل لي أن أفترض أنَّني أحظى بشرف مخاطبة أحد أفراد محفل الإمبراطورة يودوكسيا؟».

ردَّ الاثنان معًا، بابتيست والساحر: «لك ذلك».

تهدَّج صوت بالثازار: «خسارة فادحة للمجتمع السحري!».

فالنصر مفتاحه التهيُّؤ، ومنذ أسابيع وجد نفسه غير مهيأ على الدوام، ويجبر على الارتجال بلا انقطاع، ويتعلَّق بكل ما ترميه به الصدف من خردة.

- فهمت أنَّها من أبرز الساحرات في جيلها. وقيل لي إنَّها كانت ترمي بالبرق!
- رأيتُه بعينيَّ.

ولم يصدِّقه بالثازار، لا هذه المرة ولا السابقة.

تمتم: «يا ليتني شهدت ذلك».

قالت بابتيست: «غير مرجَّح»، ثم تابعت مع الساحر في انسجام عجيب: «فالإمبراطورة يودوكسيا ميتة، وأنتَ ستتبعها قريبًا».

ابتسم، وابتسمت بابتيست، ابتسامة ما كان لها أن تلائم وجهها قط.

***

تسلق الحبال أصعب مما يُظنُّ. كأنَّك تتسلق سلَّمًا من الهلام. ولم يعنِ الأمر أنَّ السفينة قد مالت حين اخترقها رأس المجداف، فصارت أسطحها منحدرات، وصواريها تميل نحو السفينة المذهَّبة في انحدار يدوِّخ الرأس.

همست أليكس وهي تصعد: «يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي».

التوسُّل بتدخُّل إلهي بدا في تلك اللحظة أملًا واهيًا. فالرب له عباد يعمرون كنائسه، ويملؤون صناديق عطاياه، ويحفظون فضائل قدِّيسيه الاثنتي عشرة، ومع هذا قلَّما يتدخَّل في شأنهم كما رأت. فما بالك بكائن تافه منبوذ مثلها؟ لكنها ظلَّت تكرِّرها على كل حال: «يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي»، يد فوق يد، قدم فوق قدم، وذراعاها تشتعلان، ساقاها تشتعلان، رئتاها تشتعلان، تصعد، وتعلو.

قالت ساني، وهي تجثم على السارية فوقها، أول صاري يتدلَّى منه الشراع السفلي: «هنا».

أمسكت بمعصم أليكس وجذبت بكل ما أوتيت من وزن، ولم تكن تزن أكثر من كيس جزر، لكن أليكس امتثلت لها مع ذلك. ثم تسلَّقت حتَّى بلغت الموضع، وقفت متمايلة على عود ضخم يئنُّ مع الريح، ممسكةً بالصاري كأنَّه أعزُّ ما تملك.

قالت ساني: «لا تنظري إلى الأسفل».

قالت أليكس: «ماذا؟». ونظرت فورًا طبعًا.

اشتعل القش في وسط السطح، والدخان يتصاعد من سفينتهم، والريح تنفثه جانبًا نحو السفينة العدوَّة. رأت رجالًا بين المقاعد، جنودًا في دروع براقة، يصعدون نحو المقدِّمة، يقفزون داخل الضباب على السطح المائل.

كان قسطنطين هناك، على منصَّته، يلوِّح لهم بالتقدم. أترى، هل نظر إليها وابتسم؟ يا مخلِّصتنا، لك أن ترى تلك الأسنان اللعينة من فرسخ!

زفرت أليكس: «ذاك الوغد»، لكنها تحوَّلت إلى صرخة حادة حين اهتز الصاري ومال أكثر.

- أتغرق السفينة؟

قالت ساني وهي تطلُّ على مقدِّمة السفينة المعادية وقد اخترقت الهيكل: «حسنًا، ثمَّة ثُقب كبير بها... وهو تحت مستوى الماء، فـ...».

غمغمت أليكس، مغمضة العينين تحاول ألَّا تصغي إلى ضجيج الذبح أدناها، ولا تستنشق الدخان الذي يثقل صدرها، ولا تفكِّر في السقوط الطويل: «ونحن نتسلق صاري... سفينة تغرق».

قالت ساني: «أفضل موضع تكوني فيه في سفينة تغرق».

- كيف استنتجت ذلك؟

- سيكون آخر ما يغرق؟

هزَّت ساني كتفيها النحيلتين حتَّى لامستا أذنيها: «هل أساعد؟».

همست أليكس: «يا إلهي».

لم تكونا وحديهما على الحبال. بل كان هناك من يتبعهم صعودًا، يتحرَّكون بسرعة. أحدهم بلغ منتصف المسافة إلى السارية، وكان واضحًا، حتَّى وسط الدخان، أنَّه ليس من البشر.

ارتدى سترة عسكرية، لكنها مشدودة ومشقَّقة عند المفاصل، تحيط بجسم بيضاوي عظمي، لا رقبة له ولا رأس يُذكَر. وله مخالب. واحدة صغيرة، وأخرى ضخمة. مخالب تصلح جيدًا لتسلق الحبال أو لنهشيم رؤوس الأميرات المحتملات.

تنفَّست أليكس: «رجال السرطان».

قالت ساني: «ثمة واحد أقرب إلى كركند، للإنصاف».

صرخت أليكس: «حسنًا، من الطيِّب أن تعرف بدقَّة أي نوع من القشريات ستقتلك! إلى أين نذهب؟».

نظرت ساني إلى أعلى من جديد، إلى شبكة حبال أضعف، تمرُّ من فوق شراع آخر، وتتجه نحو المنصَّة العليا المتشقِّقة في رأس الصاري الرئيس، سوداء في وجه السماء الزرقاء، عالية جدًّا فوقهم.

همست أليكس: «يا إلهي».

***

ارتطمت شفرة يعقوب بأضلع المرأة السمكة، بصوت جزار يذبح على لوح التقطيع. فهوَت على ركبتيها، وسيفها المعقوف يرتطم على السطح، والدم يفور بين أصابعها المكفوفة ليصبغ زيَّها المبلل بأحمر أشد قتامة. تأرجح يعقوب، وتشبَّث بالحاجز لئلا يسقط، وكل نفس يخرج منه كان نزاعًا.

غرغرت قائلة: «بلوفَذر بلفَذر»، والدم يتفجَّر من خيشومها، ويجري من طرف فمها.

قال يعقوب: «ماذا؟».

لم يدرِ أهي تتكلَّم بلسان آخر، أم أن فمها المائي لا يسعفها للنطق، أم أنَّ أذنيه سُدتا بدقَّات نبضه.

سقطت قلادة من ياقة المرأة السمكة، زهرة صغيرة من المينا تتدلَّى من سلسلة فضية، من تلك الهدايا التي يهديها العاشق إلى محبوبه. وتساءل يعقوب: هل أُهديت إليها قبل أن تتحوَّل إلى سمكة، أم بعدها؟

قالت وهي تتغرغر: «بلوث»، وتهدلت على جنبها، رأسها المدبب يرتطم بخشب السطح.

ود يعقوب لو ينضم إليها هناك. كتفه كانت نارًا مستعرة، ويده بالكاد تسند الترس. وتناثرت جثث الكائنات السمكية حوله. والقلعة الخلفية كلها زلقة بالدم، ورائحتها كمحل سمك كريه في زقاق السوق.

لا يعلم مصير الآخرين. إذ حجب الدخان بصره، وهو ما أراده، وخنق أنفاسه، وهو ما لم يرد. لكن متى ما أطلقت الفوضى لتتدحرج، لا تدري أين ستقف. وذلك المراد منها.

قال: «يا إلهي...». رأى ومضة حركة، ولم يكد يقدر أن يرفع ترسه حين ارتطم شيء بالأرض.

قفز الدوق قسطنطين من قادسه، وهبط جاثيًا على سطح مؤخرة السفينة.

قال، وهو ينتصب ببطء، ابن يودوكسيا الثالث: «بلغني قول... إن كنت تريد شيئًا أن يُنجز بحق...». ونفخ نفخةً وهو ينفض وصمةً خفية من بزَّته القرمزية المطرَّزة بالأوسمة، يفركها بين إصبع وإبهام: «فعليك أن تكون مستعدًّا... لأن تنجزه بنفسك؟».

جال يعقوب بلسانه على باطن فمه المالح المتخثِّر، أسنانه دامية من الترس الذي اصطدم بوجهه، وبصق في البحر. لم تبلغ البصقة غايتها، وارتطمت بالحاجز إلى جانبه. فزمجر: «هممم».

قال قسطنطين: «أقرُّ أنَّ مخلوقات أمِّي ليست أكفأ الجنود». وكان يخطو بين الجثث، بين رجال السمك وبحَّارة موتى. وهو ضخم، وقماشه القرمزي مشدود على أزرار مصقولة، ولَفحة من الشحم الوردي حول طوقه المذهَّب، ومع ذلك، يخطو بخفَّة راقصة، يعلو على رؤوس أصابعه كسيِّد رقص: «للإنصاف، كانت تجربتها نظرية، وكانت مولعة بالروح، أتعلم؟ أين هي. كيف يُطلق سراحها. وماذا يحدث حين تفعل...».

توقَّف عند ذلك الكائن الذي ينبت من رأسه مرجان، ممدَّدًا في بركة دم: «لم تكن تنوي تجنيدهم للقتال. بل هي فكرة مارسيان». خفض

صوته، وعبس عبوسًا مفتعَلًا، ولوَّح بقبضة واهنةً: «أعيدوا توظيف الأوغاد! محاربون شرسون أنصافُ وحوش! أنشئوا فيلقًا لا يُقهَر! استعيدوا الأرض المُقدَّسة، وأروا الإلف الرعبَ الحق!».

تنهد وهو يجثو إلى جوار ذلك المسخ المشوَّه: «أراد أخي تحويل كلِّ شيء إلى سلاح. مذ كنا صبيانًا. كان يصنع فيلقًا لا يُقهر حتَّى من البازلاء في صحنه، أقسم بذلك».

ثم بتنهيدة فيها كآبة، عدَّل بزَّة الرجل المرجاني، والتي كان عند كتفها فتحة مطرَّزة تبرز منها عقدة مرجان: «حاولتُ أن أهبهم شيئًا من العزَّة، شيء من الذوق».

وربَّت على الأزرار المصقولة التي تشبه تمامًا ما على سترته هو: «ما كان القرطاجيون يسمُّونه شرف الفيلق!».

شهق يعقوب شهقة طويلة، وزفرها زفرة طويلة. لقد أضاع العدَّ من كثرة ما اضطر إلى سماع خُطب المجانين على مرِّ السنين. لكن إن منحته فرصةً لالتقاط أنفاسه، فليكن. قال: «هممم».

قال قسطنطين، وهو ينهض ويحدِّق إلى الأجساد: «أحسب أنَّ الأمر مشروع قيد التطوير». ثم أقرَّ، وهو يشير بخاتمه الثقيل إلى الأجساد الهامدة يعدها: «لكن لا أنكر أنَّ ما فعلته هنا مثير للإعجاب... هل هؤلاء... سبعة؟ لا، ثمانية! ظلمتك، فثمَّ اثنان هناك أيضًا».

وكان واحد منهما قد طرحه قائد الدفة قبل أن يُقتَل، والآخر على يد ڤيجا، لكن لم يرَ يعقوب داعيًا لتصحيح الحساب. اثنان زائدًا أو ناقصًا لن يغيِّرا كثيرًا في فاتورة القتل التي راكمها عبر السنين. قال: «هممم».

استلَّ قسطنطين سيفه: «إذًا...»، بجواهره التي تلتمع على قبضته المذهَّبة، والصلب يلمع ببريق المرآة: «مبارزة حتَّى الموت؟».

رفع ذراعيه، والسيف يتدلَّى مترنِّحًا من إحدى يديه الممتلئتين: «على سطح سفينة مائلة، محترقة، غارقة في آنٍ معًا؟ أعني، فيها شيء من المبالغة، لكن لا يمكنك أن تنكر ما فيها من دراما».

الدراما لم تعد تترك في يعقوب أثرًا يُذكر. قد شهد حرائق وغرقًا بما يكفي، وعبارة «حتَّى الموت» فقدت جاذبيتها. قال: «هممم».

قال قسطنطين، مستاءً: «كنت آمل شيئا من التهكُّم ونحن نخوضها».

قال يعقوب وهو يلوِّح للجثث المبعثرة: «بعد أن خضتُ من هذه المبارزات ما خضت، تُعاد النُّكت نفسها مرارًا».

- يا له من برهان على كآبة العالم الذي نحيا به، أن تنفد النُّكت قبل أن ينفد الأعداء.

ثم رفع قسطنطين بطرف يده الحرَّة طرفَيْ بنطاله الضيِّق، وانثنى على ركبتيه في وضع الاستعداد، وسيفه موجَّه باستقامة تامَّة: «عليَّ أن أحذِّرك... أخشى أن هذه ستؤول إلى نهاية لا يُحمد عقباها».

دفع يعقوب نفسه بعيدًا عن الحاجز: «حسنًا، إن أنت أمهلت الأمور بما يكفي...». ثم أخذ نفسًا آخر، وزفره: «كل شيء لن يُحمد عقباه».

***

كثيرًا ما يتسرع الناس في إطلاق الأحكام على ساني. يبصقون عليها، أو يصفونها بعدوة الرب، أو يحاولون قطع أذنيها، وذلك ليس مسليًا البتَّة. ولهذا تبذل جهدها لتكون مؤدبة، وألا تحكم على أحد من مظهره.

لكن لا يمكن أن يُقال عن هذا الرجل السلطعون إنَّه وسيم.

من الخصر إلى أسفل بدا شبه طبيعي، بل إنه يرتدي سروالًا، وحزامًا بإبزيم من نحاس. لكن الأمور بدأت تنحرف عند الأضلاع. له سترة أنيقة تشبه ما كان يرتديه مدير السيرك، لكنها تمزَّقت كلها من أطراف جسده

الصدفي الخشنة، والذي يبدو أنه مغطًّى بكتل من المحار أيضًا. ذراعه الطويلة أكثر من اللازم فيها بضع أصابع وإبهام مدبَّبة ضخمة. أما الذراع الأخرى فمخلب مسنَّن هائل، ورغم ذلك استخدمه بخفة مدهشة في تسلق الحبال. ورأسه كتلة بلا عنق، وأجزاء فمه المشعرة ترتجف، وإحدى عينيه تشبه عين الإنسان، لكن الأخرى بارزة. المشهد كله كان بالغ البشاعة.

وخاصة أن ساني لم تكن تفصلها عنه غير بضع بوصات، متشبثة غير مرئية على الجهة الأخرى من الحبال. آه. وله أرجل صغيرة مكسوَّة بالشعر تبرز من بطنه. لم ترد ساني استخدام كلمة «الجزء السفلي» في وصف شيء يقبع قبالة وجهها تمامًا، لكن ما عساه يُقال غير ذلك؟ كلها تتحرك وتتلوى، حتَّى اضطرت إلى أن تغلق عينيها وفمها بإحكام وهو يتسلَّق بجوارها.

يا ترى؟ هل تقاطر عليها شيء؟ أتراها الآن ملوثة بعصارة السلطعون؟ عصارة السلطعون لا تقل قبحًا عن تلك الأجزاء السفلية. حتَّى وهي تحبس أنفاسها، تسرب إلى أنفها رائحة نتنة من رائحته، مزيج من عفن بحري وسوق سمك في ليلة قائظة. وطأ يدها وهو يعبر بقدمه العارية الضخمة، تتدلى منها خيوط من طحلب رطب، وتنسدل من إحدى أصابعه الثلاث الصلبة، واضطرت ساني إلى أن تعض على شفتها. لكنه لم يلحظها وهي تدور إلى جهته من الحبال. لم يلحظها وهي تتسلَّق خلفه. لم يلحظها حين انتزعت الخنجر من خلف حزامه. وكان كل انتباهه مصبوبًا على أليكس، التي لم تعد بعيدة إطلاقًا، تهمس لنفسها: «يا إلهي»، مرارًا وتكرارًا.

توقفت ساني.

فالمخلِّصة في الأغلب، لم تكن مولعة بالقتل، وقد سمعت الوعَّاظ يصفون القتل وكأنَّه أعظم الشرور، لكن حين قرأت النصوص المقدسة بنفسها، وجدت أنَّ الإله لا يمرُّ بصفحة واحدة دون أن يسحق أحدًا

سحقًا. ثمَّ إنَّ القتلى ربما كانوا مأساة، لكن موت الإلف طرفة. ولا طريق أقصر إلى الفردوس من جبل من جماجم الأقزام. يمكنك أن تكون ألعن الأوغاد، لكن انطلق في حملة صليبية واملأ العربة بجثث ذوي آذان مدببة، فتخرج بطلًا، نضرًا كزهر الربيع.

نظرت أليكس إلى الوراء، عيناها متسعتان جامحتان خلف شعرها الملتصق، لا يفصلها عن المخلب الأكبر سوى خطوة أو خطوتين.

وفي نهاية المطاف، بدا لساني أن الصواب أو الخطأ ليسا أكثر من مسألة ما يمكنك الإفلات به. فلمَّا رفع السلطعون رجله يبحث عن موطئ جديد، طعنته ساني في مؤخرته. فعوى صيحة مدوِّية، لكنها كانت قد تدلَّت إلى الجهة الأخرى من الحبال، وتجاوزته صعودًا، تدوس ما يشبه رأسه وكأنه درجة.

تسلقت إلى جوار أليكس، التي بدا عليها فزع شديد، وهو أمر مفهوم بالنظر إلى أنهنَّ كنَّ معلقات على حبال مهتزَّة، في سفينة تغرق، تعجُّ بمخلوقات بحرية قاتلة. ليس كلُّ أحد يتعامل مع مثل هذه المواقف برباطة جأش.

زفرت ساني حتَّى تراها أليكس، فأطلقت شهقة.

قالت: «أنتِ هنا!».

كادت ساني أن تسألها: «وأين كنتِ تظنينني؟». لكنها قالت: «نعم».

- ثمة رجل سلطعون يطاردني!

قالت ساني: «أعرف. طعنته في مؤخرته».

- هل رحل؟

أطلت ساني إلى أسفل. طعن المرء في مؤخرته كفيل بجعل بشري يعيد التفكير، لكن السلطعونات ربما لا تخضع لهذا المنطق، فقد واصل الصعود أسرع من ذي قبل، وتساقط منه سائل أكثر ممَّا مضى.

قالت ساني: «لا، لا يزال قادمًا»، وكان لا بُدَّ أن تُقِرَّ له بشيء من الإعجاب، في الحقيقة: «لا تنظري إلى الأسفل».

لكن أليكس استدارت ونظرت على الفور.

«يا إلهي!». ناحت، وقد أطبقت عليها نوبة ذعر، وتشابكت أطرافها، وهذا ما جعل ساني تنصحها ألا تنظر.

لكن لم لا يصغي إليها أحد قط؟

وأعطى هذا رجل السلطعون وقتًا ليقترب أكثر، فبدأت أليكس تركل بقدمها، تهتزُّ الحبال وتتأرجح، وفي ميل حاد أيضًا، إذ مالت السفينة أكثر فأكثر. ومدَّ السلطعون مخلبه صوب أليكس، أجزاء فمه مفتوحة تصفِّر وتزفر، ومدت ساني يدها نحو أول شيء وجدته، جسم معدني ثقيل موصول بالصاري. فمالت بجسدها أمام أليكس وهي تركل ثانية، وألقت به في وجه السلطعون، أو حيث يُفترض أن يكون وجه من له وجه، وأصابه في عينه البارزة. فأطلق صرخة يائسة، وفقد توازنه، وهوى من الحبال.

سقط على الشراع، يتخبط، وتمزَّق القماش بصوت فظيع إذ تعلَّق مخلبه به، فبطأ سقوطه قليلًا.

ثم ارتطم بالسارية السفلى، وتدحرج. وتدحرج الشيء الذي رمته ساني معه.

حينها فقط أدركت أنَّه فانوس سفينة. من تلك التي تُضاء ليلًا كي تعلم السفن الأخرى بموقعها. النوع المملوء بزيت الحوت العطري شديد الاشتعال. راقبته وهو يهوي نحو النار المشتعلة على السطح المبتلِّ بالدخان، ثم عضَّت على شفتها.

قالت: «اللعنة».

29

فعلتِها الآن

دار رأس الأخ دياز على دويٍّ عظيم، فرأى ما بقي من صَدَفةٍ مهشَّمة وقد هوت من علوٍّ شاهق إلى كومة تبن تتَّقد جمرًا، والمخلب المتقشِّر بالقواقع ما زال ينتفض.

شهق: «يا إلهي...». إذ هوى شيء آخر، ورنَّت القناني وهي تتحطم.

نكص إذ تدفَّق الزيت المشتعل، ناثرًا على سطح السفينة بِركًا نارية، وتقهقر راجعًا وهو يصفع بقعة ملتهبة على ما بين ساقيه من لباسه الرهباني، فتعثَّر بڤيجا.

شهق: «نار!».

زمجرت وهي تلوِّح بيد فارغة نحوه: «سلاح!».

- ماذا؟

صفَّقت بأصابعها إذ شرعت أشباح تتشكَّل وراءها مطموسة بالسُّخام، تتراقص عليها النيران. وكان المشهد كلُّه يزداد شبَهًا بالجحيم في كل لمحة. فزأرت: «سلاح!».

أخذ الأخ دياز ينقِّب بين الحطام في السطح المائل، فاختطف فأسًا سقطت من يد ملاحٍ قُتِل، ودفع بها إلى يد ڤيجا. فرمتها على جندي اندفع من الدخان، وأصابت كتفه وأدارته كالدوَّامة.

- سلاح!

تلمَّس الأخ دياز سيفًا سقط، ورماه، فاقتنصته من الهواء وطوَّقته على رأس رجل، فتمايل بضع خطوات ثم خرَّ في النار التي تصعد بسرعة إلى الحبال المجاورة.

- سلاح!

فقذف لها الأخ دياز ترسًا مرميًّا، فهوت به على يد رجل حتَّى طار صولجانه، وحطَّمت ركبته بحافته، ثم هشَّمت أسنانه به إذ سقط، وألقت ما تبقَّى من حُطامه بعيدًا.

- سلاح!

تأوه الأخ دياز وهو يجرُّ فأسًا عظيمة ذات نصلٍ مدبَّب من الخلف، فوضع قبضتها في يد ڤيجا، وفي تلك اللحظة برز رجل مدرَّع من الدخان.

دفعَت ڤيجا الأخ دياز بعنفٍ حتَّى جلسَ من فوره، فانقضَّ سيفٌ لامعٌ وقطع سطح السفينة في الموضع الذي كان واقفًا فيه. تدحرجت ڤيجا مبتعدة، ثم نهضت بخفة الأفعى، وضربت جنب الجندي فأوشك أن ينهار، ثم ضربت ساقه فتعثَّر، ثم انحنت تحت ضربة سيفٍ هوجاء، ثم انتصبت، وأدارت الفأس حتَّى صار رأسها إلى الخلف، وغرزت الطرف المسنَّن في قمة خوذته برنَّة معدنية.

تنفَّس الأخ دياز وهو يزحف مبتعدًا، إذ ارتطم الرجل بالأرض بجانبه، والدم يتفجَّر من خوذته المحطَّمة في بركة تتَّسع، وقال: «لتحفظنا المخلِّصة!».

زمجرت ڤيجا وهي تصفِّق بأصابعها ثانية: «سلاح! سلاح!».

***

سحبت أليكس جسدها إلى الأعلى، والحبل المهترئ يخدش ذراعيها، والخشب العتيق يغرز في صدرها، واللعاب يتطاير من فمها وهي تئن من بين أسنان مطبقة، ثم انقلبت على ظهرها تلهث طلبًا للهواء.

سماء زرقاء فوقها، وسُحب تتحرك، وراية بالية صغيرة ترفرف عند قمة الصاري.

جاء صوت ساني: «أليكس!».

همست: «سأبقى هنا. هذا المكان مناسب».

قالت ساني: «ليس مناسبًا». أمسكت بمرفق أليكس ورفعتها حتَّى جلست: «ليس مناسبًا البتة».

هذا إذا هو عارض الصاري. من تلك الأشياء التي سمعتَ بها، وتبدو مثيرة لاهتمامٍ غامض، لكنك لا تريد البتة أن تزورها. مثل إنجلترا.

ثبت لوحان خشبيان مهترئان بأعلى الصاري، وكومة من الحبال. ذلك كلُّ شيء. يا إلهي، كم كانت الريح عاتية. تنتزع شعر أليكس، وتشُدُّ ثيابها، وتبرِّد العرق على وجهها. سمعت صرير الصاري. وشعرت بتمايله. وقد مال ميلًا عظيمًا. فشبكت ذراعًا حوله وتشبثت، وبطنها يتقلَّب.

قالت ساني: «علينا أن نتحرَّك».

قالت أليكس: «نتحرَّك؟». ولولا خوفها لضَحِكت: «إلى أين؟». لم يكن ثمة صعودٌ بعد. لا يوجد «فوق». إلا إن نبت لهما جناحان. وهي فكرة لما فكرت بها لن تكون أغرب ما جرى تلك الظهيرة.

أشارت ساني برأسها إلى الجانب: «عبرَ عارضة الشراع العليا. ثمَّ إلى القادس».

قالتها ببساطة تامة. كأنها ترشدك إلى نُزل: أكمل الشارع وثاني منعطف يمينًا.

قالت أليكس وهي تحدِّق إلى العارضة التي يتدلَّى منها الشراع الأعلى: «عبرَ عارضة الشراع؟». كانت دعامةً ضيِّقةً تتشابك فيها الحبال، تمتدُّ إلى فراغٍ لا شيء فيه، على بُعد عشر خطوات تقريبًا. وفي تلك اللحظة، بدت كأنها عشرة أميال.

قالت بصوت خافت تحوَّل إلى نقيق: «ثم... إلى القادس؟». ومع ميلان سفينتهم، صار الطرف الأقصى للعارضة قريبًا من الدعامة المائلة التي تمسك بالشراع الأمامي الكبير في السفينة الأخرى. كم المسافة بالضبط؟ يصعب القول. لكن الفراغ بين الاثنين لا يمكن إنكاره.

فراغٌ شاسع، وعالٍ جدًّا، جدًّا.

تمتمت أليكس: «أنتِ مجنونة بحق».

هزَّت ساني كتفيها: «وربما أكون أقلَّنا جنونًا». بدت هادئة تمامًا، جاثمة هناك، وشعرها الأبيض يتلاعب به الهواء. كأنها جاثمة قرب نار معسكر: «إن كان لديكِ رأيٌ أفضل، فأنا... كلي آذان صاغية».

حدَّقت إليها أليكس لحظة، ثم بصقت ما بين أسنانها المطبقة وقالت: «أكانت تلك نكتة؟».

بدت على ساني البهجة: «نعم! كلي آذان. أنا إلف. لنا آذان كبيرة وأجساد نحيلة، فـ...».

صرخت أليكس: «فهمتُ اللعنة!».

قالت ساني، وقد خاب أملها قليلًا: «ظننتها نكتة مضحكة. الناس غريبو الأطوار. أتريدين الذهاب أولًا أم ثانيًا؟».

صرخت أليكس: «لا هذه ولا تلك!». بكت مجددًا، والمخاط يسيل من أحد منخريها، لكنها لم تجرؤ على فكِّ يديها المتألمتين عن الصاري لتَمسحه: «اللعنة، لا هذه ولا تلك».

رفعت ساني حاجبيها الشاحبين وهي تُطل إلى الأسفل: «إذًا... رجال السرطان؟».

* * *

اندفعت بابتيست، وتقهقر بالثازار، فمرَّ نصلٌ قرب أذنه.

لو كان ذلك الساحر نصف ما على بابتيست من براعة في قتال السكاكين، لكان بالثازار قد قُطِّع مثل قطعة لحم ليوم السبت. ولحسن الحظ، لم يكن، وكانت بابتيست، بعنادها المعروف، تبذل جهدًا ظاهرًا في مقاومة سيطرته، فجاءت ضربات سكاكينه في آنٍ واحد جامدة وهوجاء. جامدة، وهوجاء، لكنها قاتلة مع ذلك. شهق بالثازار وهو ينجو من طعنة أخرى، فانغرز السكين في صندوق خشبي بجانبه. تركته بابتيست مغروزًا في الخشب المحطَّم، وسحبت آخر فورًا. بدا لبالثازار أن من غير المرجَّح أن تنفد خناجرها قبل أن ينجح واحد منها في الاستقرار في موضع حيوي من جسده. والحقُّ أنه لم يرَ في جسده جزءًا زائدًا على الحاجة.

اضطرَّ، كما حدث له كثيرًا مؤخرًا، إلى تراجعٍ مهين، يمسك بأي شيء يطفو ويرميه عليها -شظايا خشب، لفافة حبل مبتل، رأس ملفوف- في أمل واهٍ أن يزعزع تلك الإبرة الملعونة. أزاحت بابتيست تلك القذائف ببرود، ما عدا الملفوفة، فقطعتها نصفين بضربة دقيقة، برهانًا على حِدَّة سلاحها، وهو ما لم يُفد ثقة بالثازار في شيء.

زمجرت بابتيست ومحركها بصوت واحد: «فلننتهِ من هذا». ثم اندفعت، ومر نصلٌ قرب يد بالثازار وخلف لسعةً واضحة في أصابعه. ارتطم ظهره بالجدار المنحني للمخزن، وبينما رفعت بابتيست خنجرين ليغرزهما فيه، لم يجد بدًّا من الهجوم إلى الأمام، فصفعت راحتاها المبتلَّتان معصميه.

تشابكا، وعينا بالثازار متسعتان وهو يحاول التركيز على طرفي السكينين المتمايلين في وقت واحد. صرخ حين خدشت واحدة كتفه، وزعق حين وخزته الأخرى عنقه، ثم تأوَّه إذ جرَّته بابتيست في دائرةٍ مترنحة، وقذفه نحو مقدِّمة السفينة، فاصطدم رأسه بغطائها المعدني. كانت طويلة نحيلة، وقوتها صاعقة. كأنما يصارع مرجَانًا ضخمًا. أن يكون بالثازار شام إيفام دراكسي في صراعٍ على زوج من الخناجر، وهو غارق حتَّى خصره في ماء مالح داخل سفينة تغرق، مع فتاةٍ ممسوسة متعددة المهارات، ويخسر -لهو أمر لا يُحتمل. طالما استبطن ازدراءً للجسد، بطبيعة الحال، لكنَّه، وقد ألهب المجهود صدره، واهتزت عضلاته كلها، أخذ يتساءل إن كان من الحكمة لو أنَّه مارس الرياضة من حين لآخر عبر السنين. جذبت بابتيست ظهره إلى الوراء، والخنجران موجهان إلى وجهه، وكلتا قبضتيه تطبقان على معصميها الزلقين، وبقعة من ضوء النهار تكشف جانبًا من وجهها الثابت على نحوٍ غريب.

بدأ الماء يلامس كتفيه، ثم عنقه، ثم أذنيه، إذ راح يُدفَع نحو الأسفل بوتيرةٍ مرعبة لا فرار منها. أدار وجهه جانبًا، محاولًا أن يُباعد ما استطاع ما بين جلده وطرفي الخنجرين المتلألئين... فرأى جثة الفتى المساعد تطفو على سطح الماء.

أطبق فكيه، ومدَّ إرادته نحو الجثة، وجعل يمرُّ سريعًا على الكلمات في ذهنه، محركًا السوائل للحياة. ولم يكن الأمر سهلًا مع جثة غريق، لا سيما لساحرٍ يغرق أيضًا، فالماء في كل مكان، ويغمر السفينة أكثر فأكثر، لكنَّه أبى أن يهلك على هذا النحو المهين!

انتفض فتى القمرة وعلى وجهه نظرة من الذهول العميق. خرجت عيناه من الضغط، وإحداها انبثقت وتدلَّت تتأرجح أمام وجهه الشاحب. دار حول نفسه، وذراعاه تتخبطان، وارتطم ببابتيست، ومدَّ يديه

اليابستين نحو الإبرة، فأمسك أذنها وحاول نزعها عوضًا عن ذلك، ولم يفلح إلا في ليِّ رأسها قليلًا، والإبرة والرمز بعدُ في موضعهما.

لم يتغيَّر تعبير وجهها وهي تنتزع ذراعًا من قبضتَيْ بالثازار، وتطعن جثة الصبي في عينه الباقية طعنةً نظيفة. فارتدَّ إلى الوراء، يعتصر الخواء بأصابعه المتيبسة، وفي ذهنه شيءٌ باهت من الإرادة.

قالت بابتيست وهي تضغط بركبتها على صدر بالثازار وتغرقه في الماء، وتدفع بخنجرها المتبقي نحوه: «هُدوء الآن».

خنجر طويل، نحيل، يلمع طرفه في شعاع الشمس. مدَّ بالثازار يده الحرَّة نحوه، فابتلع جرعة من ماء البحر وهو يغمر وجهه، فأخطأه تمامًا، وبمحض المصادفة أكثر من كونه قصدًا، التقط الإبرة من جبين بابتيست.

فهوَت كدميةٍ سُحبت عصاها، فتلقَّفها وهو يخرج يتخبط طلبًا للهواء، لا يكاد يرى من الشعر المبتلِّ الملتصق على وجهه.

لهث قائلًا: «بابتيست؟». ولسببٍ ما، تمنَّى لو أنَّه يعرف اسمها الأوَّل. إذ إن نزع الإبرة دون استعدادٍ كان خطرًا. لا سبيل لمَعرفة كم من الوقت ستحتاج إليه لتعود. أو حتَّى إن كانت ستعود: «هل أنتِ...».

وآنذاك شعر بوخزٍ حاد في وسط جبهته، حيث بدأت الآن قطرة دمٍ صغيرة تتشكَّل على جبينها.

* * *

تصادمت السيوف، واندفع يعقوب بدرعه فأخطأ، وارتطم بالحاجز فاخترق الألم ركبته، فرأى لمعة سيف قسطنطين يهوي عليه، وبالكاد رفع سيفه ليصدَّه، فتفلَّتت الضربة وشرخت الحاجز بخشبٍ متناثر، ثم لوَّح يعقوب بهجمةٍ مضطربة لم تصب سوى الدخان. وكان ابن طروادة

الثالث من نسل يودوكسيا قد انساب راقصًا بعيدًا. ليست بداية موفقة. لكن يعقوب خاض كثيرًا من المبارزات. عمرًا منها.

تذكَّر أوَّل مرَّة قاتل فيها هاينريش غروس، على ذلك الجسر فوق الراين. ما ظنَّ أحدٌ أنَّه سيفوز. لكنه فاز. وإن آلت الأمور لاحقًا إلى نهايةٍ سيئة على الجميع. إذ لا يُمكن دومًا أن تحكم على النتيجة من أول الخطوات. تحصَّن، مدركًا نقائصه، مستخرجًا كل ميزة أمكنه اقتناصها، ملازمًا الركن الأعلى من السطح المائل، موفرًا قوَّته، درعه مرفوعة وركبتاه مثنيتان. أوجعه ذلك، لكنه وجع لا يقارن بوجع طعنه.

قال قسطنطين متذمرًا: «تلك الدرع لا تليق بالفرسان. أترغب في رميها جانبًا؟».

رمقه يعقوب من فوق حافته: «لو رغبت في مبارزة نزيهة لما أرسلت رجال البحر أولًا». ثم داس برِجله أحد رؤوسهم، والدم ينفجر من الجرح الغائر فيه.

ابتسم قسطنطين وقال: «نقطة وجيهة». ثم انقض، وكان يعقوب مستعدًّا، لكنَّه انعطف فجأة، ولم يكن مستعدًّا لذلك، بالكاد رفع درعه، فتطاير الشرر من حافتها، وتعثَّر إلى الوراء. وبحلول الوقت الذي ردَّ فيه الهجوم، تراجع قسطنطين إلى مسافة آمنة، وانحنى بوصةً واحدة وهو يبتسم، فزلت ضربة يعقوب عن هدفها.

قال متمتمًا: «جهدٌ شجاع، لكنه خاسر». وانقض ثانية، فتراجع يعقوب، يتصدَّى لطعناته الخاطفة بدرعه، والدخان يمزِّق رئتيه مع كل نفس. انتشرت النار، والحبال مشتعلة في الأعالي، وربما إحدى الأشرعة كذلك، والرماد يتساقط. ولم يبد قسطنطين قلقًا. فابتسم طيلة الوقت، وسيفه في قبضته الرخوة كأنَّه على وشك السقوط، لكنه ينهض دائمًا بخفة فرشاة رسَّام.

سيفٌ متكلِّف سخيف، لكنه، من دون شك، ممتاز. كما أنَّ صاحبه، متكلِّفٌ سخيف، ومن دون شك، مبارزٌ فذ. اتسعت ابتسامة الدوق كأنَّه قرأ أفكار يعقوب.

قال: «لم أحب المبارزة قط، ومع ذلك، وعلى قلَّة اجتهادي، لطالما كنتُ ممتازًا. أساتذتي لم يكفُّوا عن الدهشة. مارسيان اجتهد ضعفي وكان بنصف كفاءتي. ولطالما أغضبه ذلك أكثر من سواه. خالي يقول إن موهبتي هبة من الرب. وما وجدتُ قط من يضاهيني».

زمجر يعقوب: «ربما أفاجئك»، وكان يشكُّ في ذلك أشد شك.

قال قسطنطين: «آمل ذلك قليلًا». ثم طاف حوله، يتلمَّس مكامن ضعفه العديدة: «أكره القصص ذات النهاية المتوقعة».

ثم هجم مجددًا، بسرعة، بسرعة فائقة، فصدَّه يعقوب، وطعن، ظانًّا أنَّه وجد المركز، لكنَّ قسطنطين تحرَّك، وجرح ذراعه. فأجبر يعقوب كاحله على الثبات، واستدار، وانخفض خلف درعه مجددًا، يتصدَّى لسيلٍ من طعنات انتزعت شظايا الخشب. وشعر بحرارة الدم داخل كمِّه، والنبض المتصاعد من الجرح.

راقبه قسطنطين، وسيفه ساكن، مستعد تمامًا، ولا دليل على تعبه سوى تورُّد خفيف في خدَّيه الممتلئين.

خاض يعقوب كثيرًا من المبارزات. عمرًا منها.

مبارزات كافية ليعرف الآن أنه لن يظفر بهذه.

* * *

قالت ڤيجا، وهي تمدُّ يدها إلى الأخ دياز: «هاك».

شعر برطوبة تنسلُّ على صدر ردائه: «أأنا... حيٌّ؟». وراح يحكُّها بيأس باحثًا عن موضع الطعنة القاتلة، ثم أدرك أن دَواة الحبر قد تحطَّمت في كيسه، فغمره السواد من الخصر إلى الأسفل.

قالت ڤيجا وهي تجذبه من بين الجثث: «حتَّى الآن».

رأيا معًا أن اليد التي أمسكت به ضُرجت بالدم.

قالت: «أوه» ثم مسحتها بارتباك على مقدِّمة سترتها الجلدية، لكنها كانت ملوَّثة بالدم كذلك.

- آه. بعض الفوضى...

من كان يظن، قبل أشهر قليلة، حين كان منهمكًا في مراجعة حسابات الدير، أن «ملطَّخة بالدم» ستصير عبارة يرددها كما يردِّد صيغ الدعاء؟

رمش محدقًا إلى الجثث. ذلك الذي طوي السيف حول رأسه، وذلك الذي انصبت أمعاؤه على سطح السفينة، وذلك الضخم الذي تحطَّمت مقدِّمة خوذته.

شهق وقال: «أنقذتِني».

قالت ڤيجا، وهي تضيق عينيها وتتفرَّس في الدخان: «لا نستبق الأمور. أين ذهبت أميرتنا...».

ارتجفت فجأة، وأطلقت زمجرة خفيضة.

قالت: «آه، ڤديا لوكي».

وأدرك الأخ دياز أنَّ سهمًا مغروزًا في لحم كتفها الموشومة، ورأسه الدامي مصوَّب إليه.

قال مستنكرًا: «أصبتِ!».

قالت وهي ترتد نحوه: «أترى؟».

وثمة أشباح أمامها وسط الدخان. أشارت برأسها إلى الدرج المؤدي إلى القلعة الأمامية وقالت: «من هناك. اذهب».

ارتدَّت هي إلى الخلف، وارتدَّ هو خلفها. وصارت له عادة. ثم تسلَّلا زحفًا على السطح المائل نحو المقدِّمة. ذراعها اليمنى متدلِّية مرتخية، والدم يتقطر من أصابعها، يلطِّخ الخشب.

همس: «كم عددهم؟».

قالت: «ما يكفي»، ثم رفعت يدها وقبضت على نصال السهم، وكسرت زعانفه بتأوُّه.

قالت: «انزعه».

لحس شفتيه. من كان يظن، قبل أشهر قليلة، حين كانت أصعب مهامه إعادة ترتيب رف عالٍ في المكتبة، أن يُطلب منه أن يقتلع سهمًا من مستذئبة؟

قال وهو يمسك كتفها بيد مرتعشة: «يا مخلِّصتنا... يا نور العالم...».

ثم قبض باليد الأخرى على السهم تحت رأسه.

قال: «نجِّينا من...».

قالت ڤيجا وهي تزأر: «السهام»، إذ اقتلع السهم، وانحلَّت زفرة هادرة من أعماق حلقها.

حاول أن يضغط على الجرح، لكن الدم فاض بين أصابعه، يتسرب من بين أنامله الملطَّخة بالحبر، ويجري على رسغيه داخل ردائه.

- إنه ينزف!

قالت: «أترى؟». بدا صوتها غريبًا.

يا قدِّيسة بياتريكس، أكانت أنيابها أكثر بروزًا من المعتاد؟

همست: «أنا بخير. أنا طاهرة».

عبارة غريبة ممَّن يكسوها الدم.

- لقد... كمَّمتُ الذئبة.

ثم تعثَّرت، وسقطت على ركبة واحدة.

قال الأخ دياز، وهو ينحني بجانبها نصف محتمٍ بها، يجسُّ كتفها الملطخة بالدم: «فليحمنا الرب...».

هبت ريح وبددت الدخان للحظة، فأبصر جنودًا يعبرون السطح، وآخرين يهبطون من السفينة الكبيرة. لم يكن يدري أين الباقون، أو إن كانوا أحياء.

قال: «أظن...».

ولم يكد يصدق أنه سيقولها، ثم هوى سهم بجانبه يهتز في الخشب، فصرخ بها دفعة واحدة: «قد نحتاج إلى الذئبة!».

ارتعشت عين ڤيجا نحوه.

قالت: «الذئبة خائنة. شيطانة. إذا انفلتت...».

- لكن أيمكنك قتالهم جميعًا؟

وأشار إلى الأشكال التي تنهض من الضباب، ثم ارتجف إذ انغرز سهم آخر على الجهة الأخرى.

- بذراع واحدة؟

قالت: «طبعًا أستطيع»، لكنها كانت تتمايل.

- أيمكنك الانتصار؟

- آه...

ثم سقطت على يديها، والدم ينفذ من سترتها، ويسيل على ذراعها الموشومة في خيوط.

- أحيانًا...

ما كان له مهرب من حكم الكاردينالة زيزكا.

- الشيطان هو ما تحتاج إليه.

ثقلت أنفاس ڤيجا، وارتعشت أجفانها.

- إذًا... الأحسن أن تختبئ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مع الدم والدخان والوشوم، كان من الصعب الجزم، لكن بدا له أن شعرًا داكنًا بدأ ينبت من كتفيها.

همس الأخ دياز: «يا قدِّيسة بياتريكس».

ماذا فعل؟

بدأ يتراجع، وخلع بقايا كيسه المبلَّل بالحبر، وقذفه في البحر، لكن السطح ضاق عليه بكل معنى، زحفًا نحو المثلث الخشبي الذي يضيق حتَّى يصل إلى مقدمة السفينة. فتسلَّق عليه، وانكمش في أقصى المقدمة، محاولًا ألا يفكر في السقوط إلى البحر عن جانبيه. ثم رمق خلفه، فرأى الأشكال تقترب من ڤيجا، وأسلحتهم مصوَّبة.

انتفض رأسها جانبًا، وانتفخت كتفها. ثم دوَّت طقطقة مريعة، إذ انثنى ظهرها إلى هيئة مستحيلة.

همس الأخ دياز: «يا قدِّيسة بياتريكس»، ثم أزاح عينيه عن ذاك التحوُّل الفاحش، وتسلَّل أسفل المقدِّمة، خارج بصرها.

تشبَّث بالتمثال الخشبي البالي، وضغط وجهه على الطلاء المتقشر فوق صدرها الخشبي.

وتمنَّى، كما تمنى مرارًا، لو كان مع أمِّه.

* * *

- ويا له من شعور، أن يعود المرء!

أخرجت الذئبة-ڤيجا لسانها، فتمدّد ثقيلًا على الألواح الخشبية المالحة، حيث يختلط الدخان والدم وهمس العنف في أنفها.

تخبَّطت أسئلة كثيرة في ذهنها. ما الذي كانت تفعله؟ لمَ تؤلمها ساقها الأمامية؟ لمَ هي على متن سفينة؟ ولمَ السطح مائل؟ لكن عقل الذئبة-ڤيجا لم يكن كبيرًا. بالكاد يسع سؤالًا واحدًا، والذي طفا وطمس البقية هو دائمًا ذاته: «أين اللحم الطيِّب؟».

ثم آخر: «من أولئك الأوغاد الأشباح الذين يصوِّبون إليها أعواد أسنان؟».

انحسر الدخان على سطح السفينة كستار خجول، حتَّى لا يبصر أحدهم الآخر جيدًا.

لم يميزوا هيئتها، وهي تضغط جسدها على السطح، ومخالبها تحفر الخشب، تتلوَّى ذهابًا وإيابًا، وكتفاها منخفضتان وردفاها مرفوعان، يتواثبان بانتظار مرتجف. ثم خطفت نسمةٌ لعوب الدخان، فانكشف المشهد فجأة. ثلاثة رجال برماح، وخوذهم مزيَّنة بالذهب، ولحم على حواجبهم. ابتهجت لرؤيتهم، وابتسمت لهم بابتسامة ترحيب هائلة، عريضة، مشبعة باللعاب. لكنهم لم يشاركوا سعادتها.

قال أحدهم: «يا إلهي».

كثيرًا ما يقول الناس ذلك حين يرون الذئبة-قيجا، وهو أمر محيِّر، فهي تشك أن شبهًا يجمعها بالإله. ثم انقضَّت عليه، ومزَّقته بمخالبها، وهزَّته حتَّى انسدل جوفه في سيلٍ أحمر. طعنها الثاني برمحه، فقفزت فوقه، ثم لمَّا طعن مجددًا، انسلَّت تحته، لكن بعد عدَّة طعنات، ملَّت من الوجود حيث لا يكون الرمح، فانتزعته من يده، وشقَّت صدره بأنيابها، وشمَّت ولحست، لكنه لم يرضها.

أما الثالث، فقد رمى رمحه وفرَّ، لكنه لم يبلغ خطوة قبل أن تهجم عليه الذئبة، سريعة كالندم، قبضت على عنقه، وهزَّته بعنف حتَّى طار رأسه وارتدَّ على السطح.

بدأت تشمُّ أطراف رقبته حين طرأت لها فكرة: «ألم يكن لها راهب؟ راهبها الخاص؟».

استدارت، فلم تره. فجال في خاطرها أنهم قتلوه. حينها غلت بها نار من غضبٍ مرتعش، إذ إن كان ثمة من يحقُّ له القتل، فهي لا سواها. شدَّ الغضب رأسها إلى الوراء، ولوى عمودها كأنه مفتاح، وأطلق منها

عواءً ممزَّقًا من جوفها لينثر سحابة عظيمة من الدم عبر فكِّها المزمجر. والآن، لم يبق في عقلها شيء سوى «الانتقام»، وقد فاض بها. فزمجرت وانزلقت على السطح المبتل، ومزَّقت جنديين في طريقها، تركتهما مشقوقين يصيحان، ثم تقلَّصت، ووثبت، أوَّلًا إلى المقدِّمة، ثم إلى المنصَّة العليا، ثم زحفت إلى ظهر السفينة الأخرى. السفينة الكبيرة، الخبيثة، ذات الرائحة السمكية. هل تحيا السفن؟ هل تحلم؟ هل تخبِّئ اللحم؟ ستعرف. ستمزِّقها. ستنهشها حتَّى تعثر على اللحم الطيِّب. أينما كان يختبئ.

30

يكفيه التعادل

بالثازار شام إيفام دراكسي لم يكن ممَّن يُؤخذ على حين غِرَّة تمامًا. فقد أبصر الإبرة، وعرف الرمز، وأدرك المنهج من ساعته. وما إن شعر بوخزها، ومعه تسللت البرودة الذهنية من عقل المشعوذ، حتَّى شرع يُحرِّك شفتيه بالمقطع الأول من سفر يَحزئيل، وهي تعويذة جامعة نافعة في عامَّة الأحوال. رسم الرموز في ذهنه، مرتَّبةً في شكل السداسي، وأوقدها بسخطه كلِّه. صنع منها حصنًا لا يُخرق، ثم -وقد أعرض عن ذلك العواء المستوحش المتردِّد في المخزن الغارق من أعلاه- جمع عزيمته في نقطة واحدة، وراح يحفر في وسط السداسي ثقبًا.

فالإبرة والرمز لم تكونا كصِدام المجداف، ضربةً تسير في وجهٍ واحد، بل هما ثغرةٌ يمكن أن يُشنَّ منها الهجوم، كما يمكن أن يخرج منها الحذرون للدفاع. كانتا سبيلًا بين ذهنين، وعبر هذا السبيل مدَّ بالثازار يده، عازمًا أن يقلب كفَّة هذا المتطفِّل الوقح الذي تسلَّل إلى الجسد... فإذا به يُوقَف.

تحريك عينيه الفعليَّتين كاد يُهلكه، لكنَّه أرغمهما على الالتفاف صعودًا. فإذا بالمشعوذ يتمتم بتعاويذه هو الآخر، عيناه تضيقان تركيزًا، إصبعه وإبهامه مغروزتان في الإبرة، وقد توقَّف في اللحظة نفسها التي اخترقت فيها جلده، كما تجمَّد بالثازار.

أن يُستَعبد من أُمٍّ الكنيسة إهانةٌ كبرى، فكيف إن غدا دُمية بيد مشعوذ ملاهي؟ تلك إهانة لا تُحتمل. فزاد بالثازار جهده، وأزاح عن نفسه كل شاغل، تجاهل اندفاع الماء حول رأس المجداف، تجاهل البرد وقد بلغ سرَّته، تجاهل ألم الطعن في جبهته، ورمى إرادته في الإبرة، والرمز، ثم إلى عقل المشعوذ.

بدأت الكفَّة تميل إليه، أحسَّ من خلال وخزٍ ضبابيٍّ أنَّ أصابع الرجل على الإبرة ترتجف كأنَّها أصابعه هو. قليلًا فقط... لمحة أخرى...

شيءٌ اختلَّ. لم يعد يُحسن نُطق التعاويذ. تلاشت صورة التعويذة في ذهنه... أما زال يتنفَّس؟ لا! فبينما شُغل بالثازار بمحاولة السيطرة على عقل ذاك المشعوذ الزلق، التفَّ الخبيث عليه، وانتزع منه التحكم بعضلة الحجاب الحاجز!

بدأ بصره يبهت، والتعاويذ تتعثَّر. تسلَّلت برودة المُتلاعب إلى فكره، كما يتسلَّل الصقيع في دم رجلٍ عالق فوق الجليد. شعر بالإبرة تدور، وساقاه تُرغمانه على الانحناء، ظهره ينزلق على رأس المجداف، وركبته تصطدم بالأرض، والماء البارد قد بلغ منكبيه.

كابد ليرفع يديه. ليحرِّك أصابعه ولو بشبر. لكنَّه لا يزال يعانق بابتيست، ذراعيه تطوقان جسدها الغارق.

ثم أبصر وجه تلميذ يودوكسيا الضبابي في الأعلى يرتجف، ويرتسم على فمه ابتسامة دقيقة.

قال وقد أدرك بالثازار أنه تكلم بفمه هو لا بفم المشعوذ: «محاولة شجاعة، لكنَّها خاسرة لا محالة. والآن، وقد عرفنا مَن يملك من، آن الأوان أن تستسلم وتدع البحر يدخل رئتيك، ليتـرررغ...».

ارتفعت ذراع بابتيست من الماء، وغرزت نصلًا في حلق الساحر. أخذ الجليد ينفلت من عقل بالثازار، فيما قبضت بابتيست الأخرى على

حافة رداء المشعوذ المبلول. تناثر الدم الأسود من فمه، وجرى على نصل الخنجر، وهو يخبط بأصابعه المرتبكة يحاول نزعه.

همست: «تطعنني في جبهتي؟»، وهي تتفلَّت من ذراعي بالثازار المتخشبتين. دارت عينا المشعوذ إلى الأعلى، وبابتيست تستل خنجرًا آخر ترفعه عاليًا، نصله المتلألئ يقطر ندى. قالت: «دعني أردُّ الجميل».

صدر صوت فرقعة عن النصل، كحطبٍ يُشقُّ، حين غرزت النصل بين عينيه. وما ذاك بموضع سهل، لكن بالثازار أقرَّ لنفسه أنَّه، من حيث العدالة الشعريَّة، لا يُضاهى.

سقط تلميذ يودوكسيا في الماء، وشعر بالثازار أنَّ جسده انعتق دفعةً واحدة. شهق، وسعل، وشهق أخرى. ثم اقتلع الإبرة من جبينه، وكاد يهوِي وساقاه كالهلام. فأمسكته بابتيست من تحت ذراعيه، ورفعته إلى المجداف. وأسند كلٌّ منهما ظهره إلى الآخر لحظة، يتنفَّسان بثقل.

قالت بأسنان مشدودة: «السحر... قد يكون أسمى صور انتصار الإنسان على الطبيعة... لكن في بعض الأحيان، لا بُدَّ من طعن الوغد».

قال بالثازار لاهثًا: «لأوَّل مرَّة... نحن على وفاق. بل قد يُقال إنَّنا نشكِّل معًا... ثنائيًّا فعَّالًا...».

لكن بابتيست لم تكن تصغي. فقد أفلتته، وعيناها تحدِّقان نحو المدخل. وقد غرق تحت الماء الهادر، والماء بلغ صدرها، ولا يزال يرتفع.

قال بالثازار: «آه».

قال قسطنطين: «هل تحتاج إلى لحظة؟».

مشكلة يعقوب أنَّ اللحظات كانت عنده أكثر من اللازم، لا أقلَّ. جرَّب كل حيلة طرأت له: أن يُعثر الدوق بالجثث، أن يُزلقه في دمائها، أن يُلهيه بالكلام، ثم بالصمت، أن يستعمل ميلان السطح، والحاجز، والصاري،

والدخان، والشمس، وسهم النشاب العالق بالأرضية. ولا واحدة منها نجحت. لا واحدة منها قاربت النجاح.

تمتم يقول: «خير أن ننهي الأمر، فالسفينة تغرق».

قال قسطنطين وهو يلقي نظرة على الرماد المتساقط حولهما، كأنَّه ثلج غير موسميٍّ يفسد نزهة الظهيرة: «وتحترق أيضًا. ماذا جرى لتلك الشقيَّة أليكسيا؟ أظنُّني رأيتُها بين الحبال في مكانٍ ما فوق؟».

استغلَّ يعقوب اللحظة لينقضَّ، فردَّها قسطنطين باحتقار: «كان الأجدر بك تسليمها. لكان الأمر أسهل على الجميع».

تنهَّد يعقوب: «لا شك، غير أنِّي أجدني دومًا أسلك الطريق الأصعب».

ابتسم الدوق: «وأنا نقيضك تمامًا».

اندفع عليه، فأجبر يعقوب على التراجع، يئنُّ إذ تَحمَّل الوزن على وركه المعتلَّة، وركبته المُنهكة، وكعبيه المتألمين. صدَّ الضربة الأولى بالغريزة، والثانية بالترس، حافَّة السيف تحكُّ الحافَّة، وقسطنطين قد تجاوز المدى راجعًا إلى موقفه القتالي، وكأن الهجمة لم تقع.

لم يمسَّ يعقوب ذلك اللعين ولو بأطراف أنامله. فهو أسرعُ منه، وأمهر، وأشد فتوة. وقد صدق فيما زعم، بل لعلَّه كان متواضعًا فيما قال. أمَّا يعقوب، فقد خُدش وسال دمه من عشرات الطعنات والسلخات والقَطعات. شعر بلزوجة الدم على مقبض سيفه، يسيل على خده، ويملأ حذاءه حتَّى يصر عند كل خطوة. وصار تنفُّسه عسيرًا، فضلًا عن القتال. وما بقي له من القوة ما يمثل به أنه بخير.

قال قسطنطين: «أتودُّ إخباري باسمك قبل النهاية؟».

قال يعقوب: «أيهمك؟».

قال الدوق: «ليس كثيرًا، لكنَّ هذا هو المتَّبع في المبارزات، أليس كذلك؟». ناوشه، فتراجع يعقوب، رافعًا ترسه: «وظننتُ أنَّك قد تثمِّن

سؤالي. أن ترى في هذا شيئًا من المعنى». ناوشه ثانية، فوقع يعقوب في الفخِّ مرَّة أخرى. «لا أن تكون... ظهيرةَ ثلاثاء، وحسب؟». خاض يعقوب مبارزاتٍ كثيرة، بل عُمرًا منها، حتَّى غدا خبيرًا بأن يعرف متى يُهزَم، وقد علم في نفسه الآن أنه مهزوم. لكنه أقنع نفسه بأنه لا يلزمه النصر، بل يكفيه أن يؤخره. حسب أنه قد سمع عواء ڤيجا، وما دامت قد عوت، فكل شيء ممكن. وكان على ثقةٍ بساني. فإن ساعدها الحظ، فقد أنجت أليكس بالفعل.

* * *

همست أليكس: «يا إلهي».

ظنت نفسها شجاعةً في المرتفعات، لكن هذا لم يكن تسلُّلًا على سقف. شعرت بالهواء ينفتح تحتها فاغرًا، بفراغٍ يهوي، والريح تُلهب القماش وتجلجل ثيابها ويئن الصاري وهو يميل أكثر. حدَّقت إلى الخشب أمامها، في الحبال أعلاه التي أمسكت بها، وتلك التي تحتها تمشي قدماها عليها. تقدَّمت بمشقَّة حتَّى لامست موضعًا لا ممسك فيه.

سمعت صوت ساني يقول: «أحسنت! وصلتِ إلى الطرف». جثت الإلف على بعد خُطى على العارضة المائلة التي تحمل شراع مقدَّم المجداف: «لا تنظري إلى الأسفل».

فنظرت أليكس فورًا. ورأت تحتها هُوَّة تهوي إلى ممرٍّ من الماء الزبِد بين السفينتين. والصاري يضمر حتَّى يبلغ السطح البعيد. أناسٌ هناك، بعضهم يتحرك وبعضهم لا ريب أنه لا يتحرك، و... هل كانت الأشرعة تحترق؟ والحبال أيضًا تصير شِراكًا من لهب، والدخان يتفجَّر سُحبًا رمادية.

شهقت تقول: «يا إلهي»، ثم جاءها من تحت عواء يمزِّق المَسامع: «أذاك صوت ڤيجا؟».

قالت ساني: «لا بأس بذلك. قفي على السارية».

قالت أليكس: «على ماذا؟».

قالت ساني: «الخشب الذي يحمل الشراع يُسمَّى السارية، وطرف السارية يُسمَّى...».

صرخت أليكس والريح تنزع ريقها من بين أسنانها المكشوفة: «أهذا وقت دروسٍ في مسميات البحر؟».

قالت ساني: «طيب، نؤجِّلها لاحقًا».

- ماذا؟

- إن عشتِ.

- ماذا؟

قالت ساني وقد مدَّت يدها: «قفي واقفزي! سألتقطك!».

صرخت أليكس: «كيف تلتقطينني وأنتِ لا تَزِنين شيئًا؟».

قالت ساني وهي تسحب يدها: «حسنًا، لن ألتقطك».

صرخت أليكس: «لن تلتقطيني؟».

قالت ساني: «قرِّري أمرك إذًا!».

وقد بلغ ذو المخالب رأس الصاري، وأخذ يزحف نحوها على السارية. تأوَّهت أليكس: «يا إلهي»، وراحت ببطءٍ وثبات، تقبض بيديها وتزحف بقدميها على السارية. قالت في نفسها إنه شبيهٌ بسقف، إن لم تنظر إلى الأسفل، ولا إلى الخلف، ولا إلى أيِّ مكان. قرَّبت قدميها من أصابعها المرتجفة. وأن الخشب تحتها وتمايل، لا سطح فيه ولا استقامة. والدخان جعلها تبكي، أو ذاك رعبها الخالص.

صرخت ساني: «اقفزي فحسب!».

انتشرت النيران. فرفعت يدًا عن الخشب، ترتجف. أرادت أن تلتفت، لكنها ألزمت نفسها أن تحدِّق إلى الأمام، نحو يد ساني، نحو العارضة المائلة. قالت في نفسها: هناك النجاة.

رددت: «يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي»، ثم رفعت يدها الأخرى. ألزمت نفسها أن تفعل. اعتدلت، بسطت ذراعيها. وقفت. متوازنة.

على طرف السارية. السارية، أو أيًّا يكن اسمها. عالية، عالية فوق البحر. انثنت رُكبتيها، هدأت نفسها، وعيناها على وجهتها، على النجاة، على الحريَّة.

صرخت: «تبًّاااااااا!»، وغدت صرختها عواءً كعواء ڤيجا، وانتزعت الريحُ عنها الثوب والشعر والصوت. تخبطت أطرافها وكأنَّ لها أن تسبح في الهواء، وقدرتُها على ذلك مثل قدرتها على السباحة في الماء.

ثم لطمتها العارضة، وصدمتها...

- آااخ...

خرج نَفَسُها شهقةً ممزقة، ضُربت في خصرها، ثم في صدرها، ثم في وجهها، فغرق فمها بالدم، وغاص رأسها في ضوءٍ أعمى.

أمسكت يد بقميصها: «أليكس!». تأفَّفت بضيق، ولوَّحت لتبعدهم، رغبت أن تظل نائمة. لكنَّها كانت تنزلق، تنزلق من السرير، وكلُّ شيء مائل. جفناها يخفقان، وكل شيء يلمع، و...

شهقت نفسًا طويلًا. ولمحت لمحة من ظهر السفينة المتأرجح، المقاعد الصغيرة والمجاديف الصغيرة، بعيدًا بالأسفل. ولمحة من البحر المائج تحته. وتصاعد الدخان من سفينتهم المشتعلة.

همست تقول: «يا إلهي»، وجهها مخدَّرٌ، ساقاها ملتفَّتان حول السارية كأنَّها تعانقها، وذراعاها يضمانها كأنها ستتزوَّجها. وإحقاقًا للحق، كان من عشاقها من هو أقل حنانًا.

قالت: «يا إلهي». فمها كله وجعٌ نابض. أرادت أن تتفقد أسنانها، لكن لسانها كان مخدرًا. ويداها المجروحتان كلها شظايا، وذراعاها مَسلوختان حتَّى اللحم، وصدرها المتألم مزرقٌّ كأنها تصارعت بالأيدي مع بُسترو، تئنُّ وتشهق بأسنانٍ مالحةٍ مطبقة، وعينين مغمضتين. لكنها سمعت شيئًا. خلف الريح العابثة، والقماش المرفرف، ونبض قلبها المتسارع. ارتطامًا، وزئيرًا، وصراخًا مروِّعًا.

قالت ساني: «لا تنظري إلى الأسفل».

* * *

خطت الذئبة ڤيجا بين مقاعد سفينة السمك الكريهة، حيث يجلس الملاحون. لكنهم لم يكونوا جالسين بعد الآن، بل يصرخون وينحبون ويتزاحمون هربًا منها. تذكَّرت أن كلَّ ما يمشي أو يزحف أو يطير يهابها. وهذا هو الأصل في الأمور. لكن ذكرى أخرى طافت معها: أن كانت تجلس على مقعدها وتشدُّ المجداف، مبتسمةً وهم يركبون طريق الحوت، تغنِّي مع الطاقم في درب المغامرة. والذئبة ڤيجا لا تغنِّي، فحُلمُ من هذا؟

جلست على رُكبتيها، مذهولة. ما الذي كانت تصنعه؟

آه! الانتقام واللحم الطيِّب! فانقضَّت بين الملاحين الهاربين، تمزِّق وتنهش وتبعثر الدم والقطع. كانوا كثر، وهمها الأبدي أنها لا تقدر على قتل الجميع مهما بذلت. أكثرهم فرَّ، تسلَّقوا المقاعد واندفعوا على أطراف السفينة وألقوا بأنفسهم في البحر. والبحرُ مرٌّ منتقم، لكنه لا يبلغ مرارة ولا انتقام ولا فِراء الذئبة ڤيجا.

هي كثيرة الفِراء. توقَّفت تتأمَّل الكُتَل المتلبِّدة على ظهر أطرافها السفلية. أو العليا؟ يا له من وبرٍ خشنٍ دافئ، كوسادةٍ لزجةٍ محبوبة. حاولت أن تعانق نفسها فالتوت، وتهاوت تتخبَّط بين المقاعد.

صرخت: «أريد عناقًا!». فجاءها رجلٌ يصرخ، يزأر، مكسوٌّ بالحديد، يتأرجح سيفه، فكان الجواب على العناق لا. انسابت من تحته وفوقه، فلم يضرب إلا المقاعد. سمعته يزأر عليها من جوف رأسه الحديدي، شمَّت عطره الشهي يتصاعد من بدنه الحديدي. وعلى رأسه ريشٍ أرجوانية، فوثبت تعضُّه، غير أنَّ الريش اندفع إلى منخريها، فتقهقرت لتعطس واهتزَّت مترنحة.

طفق يطاردها وسيفه مرفوعٌ، فوثبت عليه لتطحنه على الصاري طحنًا زلزل السفينة. غلافه الحديدي مليء بالنتوء، فضربته بمخلبٍ ثم آخر، فجعلته يرنُّ كناقوس، دقَّته، وخزقته، وخمشَت الصاري بمخالبها لتخلف آثارًا لا تُمحى.

مزَّقته، ومزَّقت الصاري وراءه، نارًا ونُثارًا، دمًا ونُثارًا، حتَّى تدلَّت ذراعه قطعة لحم يندفع منها الدم دفَّاقًا. سقطَ ينزف، فتوجَّهت إلى الصاري، تدكُّه، تنحت الخشب بأظفارها حفرًا عميقة، وفجأةً عبر الضباب طافت بها ذكرى من ماضٍ بعيد: قطع، قطع، طرقت الفأس، نفسٌ يتصاعد في البرد، بُعثت إلى الغابة لتقتلع صاريًا جديدًا، ابتسمت حين سقط في الثلج، وربَّت أولاف على كتفها وقال: لا أحد يطرحه أرضًا مثلكِ.

غلت الغضبة في صدرها، وقالت: سأسقط هذه الشجرة أيضًا يا لعين، فأمسكت بها بمخالبها الأمامية، ونهشتها بالمخالب الخلفية، وأطبقت فكَّيها عليها تمزِّق وتفترس وتعضُّ بأسنانها وتنشب.

صرخ أحدهم: «ڤيجا!»، فإذا هو الراهب! لم يكن حُلُمًا، بل كان حقًّا، يتصبَّب عرقًا، وقد لوَّثه الرماد، لكنه واقف. انتصب لها وصاح، عروق عنقه منتفخة: «ڤيجا! هذا السلوك لا يُقبل!».

تجمَّدت الذئبة ڤيجا، وأسنانها مغروزة في الصاري، تحدِّق إليه بعينين تطرفان. قلَّ من يجرؤ على الوقوف في وجهها، فاحتارت كيف

تشعر. ثم سحبت أنيابها، ولُعابها الدامي يرشُّ على السطح نُثارًا. ثم ضيَّقت عينيها. ثم دمدمت دمدمة خفيضة جميلة من غور حلقها، وتقدَّمت إليه زاحفة، إذ خطر لها...

أن تلك... وقاحة.

***

تمتم الراهب دياز: «ذئبة طيبة...». وهو يتراجع، وفمه قد جفَّ جفافًا مُهلِكًا.

يا خالق الأكوان، ما أكبر هذه الكذبة! ما هذه بذئبة طيبة، بل شيطانة ذئاب قاتلة، أسوأ من خُلِق من الذئاب، تتسلَّل وتسيل، شعثاء بشوك، متحرِّكة كالبلاء، بأسنان أكثر من التمساح، وعضلات تفوق الثور.

تبين له أنه قد ارتكب خطأين فادحين: الأول حين قال لڤيجا: أطلقي الذئبة. والثاني حين شد انتباهها.

رمقها وقد خلَّفت دمارًا في صفوف البحَّارة، ثم انتقلت لتدمير الصاري، حين لمح شخصًا يتشبث بالعارضة العليا، ثم عرف أنها الأميرة أليكسيا. لا يدري كيف بلغت ذلك الموضع، لكنها ستسقط عنه لا محالة، سقطةً قد تكون قاتلة. فاندفع من تلقاء نفسه. ربَّما توهَّم في أعماق نفسه أن الذئبة تعود فتتحوَّل إلى ڤيجا كما فعلت في الحانة، حين صاح يعقوب الثورني بالكلمات ذاتها. لكنَّه أدرك أن حال السفينة هذه لا أمل فيها.

- ذئبة طيبة...

لم يجرؤ على النظر إلى عينيها الناريتين المتَّقدتين كقعر الجحيم، ولم يجرؤ أن يحيد عنهما أيضًا. أحسَّ أن وحده النظر إليهما هو الذي يؤخِّر وحشها عن تمزيقه إربًا. تطايرت قطعٌ من الحبال المحترقة أو

الأشرعة المحمومة مع الريح، تنثر النار في المقاعد الخالية والمجاديف المتروكة، وعلى جثث الملاحين الذين لم يسعدهم الحظ.

تمتم: «على هونك...»، لا يدري أيسكِّن بها قلبه أم الوحش الذي أمامه. هز زئيرها السطح، وقدميه ترتعشان، ومثانته تضطرب، وجزمته تنزلق فوق الدماء المسكوبة، تُغاص في الأحشاء المراقة، وهو يتراجع على ظهر المجداف.

تلطَّف: «رويدًا...». فزمجر فمها زمجرة أشرَّ، ورش سائل الدم الممزوج باللعاب على الألواح...

كراك! اهتز الصاري المنهار، فاستدارت الذئبة بسرعة لا يدركها طرف، والتفَّ دياز، يعدو نحو مؤخرة السفينة بين المقاعد الأخيرة، ورفرف رداءه الحبري بجنون.

سمع زئيرًا غاضبًا من خلفه، وخربشة المخالب على الخشب. فصعد مسرعًا على ظهر السفينة المنحدر نحو المؤخرة، وجسده يرتعد من هول توقع أنيابٍ وحشيَّة.

قفز!

وللحظةٍ، شعر بالحرية، والريح تصفِّق حول سرَّته. ثم اندفع البحر المُزبِد صاعدًا للقائه.

* * *

همست أليكس: «يا إلهي»، والعارضة قد اهتزَّت هزَّة عنيفة. تشبَّثت بها بساقيها المسلوختين المتألِّمتين، ويديها المجروحتين الملتهبتين. صوتٌ طنين، ثم طنين، ارتعاشٌ يسري في الخشب، ثم اهتزاز.

قالت: «يا إلهي». الصاري بأسره مال. مال إلى الفراغ، الشراع تحتها كذيل ثوب زفافٍ طويل.

قالت: «يا إلهي». أغمضت عينيها بإحكام، وأسنانها تطقطق من شدة الانقباض، تتضرع أن يرتدَّ الصاري ويستوي.

كراك. رجفةٌ أخرى، وواصل الصاري الميل، مزيدًا من الطنين، مزيدًا من الشقوق، ويميل أكثر، وأسرع. كجذعٍ قُطع فهوى. أَنَّت أنَّة عجز. لاصقت جسدها بالخشب القاسي، احتضنته بجسدها كله، لم يبقَ إلا أن تغرز فيه أسنانها. لا يمكنك اتقاء السقوط بالتعلُّق بشيء يسقط، لكنَّه كلُّ ما تملك. أخذت تتأرجح بسرعة، معدتها تدور، وآخر ألياف الصاري تتكسَّر تحتها، فسقطت أسرع، ورفرف القماش، وتلاطمت الحبال وهي تهوي أسرع نحو البحر الغاضب، والريح تلفح شعرها، وتجلد دموعها، وتدفعها من فوق... ففتحت فمها لتصرخ.

يُقال إن الحياة تمرُّ أمام عينيك في تلك اللحظة. لم تمرَّ حياة أليكس أمامها. وربما كان ذاك خيرًا. فمرة واحدة في تلك الحياة كافية.

اصطدم بها الماء كما تصدم العربة المسرعة، وغمرتها فقاعات باردة، وفجأة... لا شيء يهمُّ.

لا داعي للحركة. لا داعي للتنفس. ولا داعي للكذب.

تركت البحر يبتلعها، يسحبها إلى الصمت.

* * *

ضرب يعقوب بسيفه فأخطأ مجدَّدًا، وأخطأ أكثر من المرة التي سبقتها. ظل قسطنطين شبحًا بدينًا يبتسم في سخرية، يتهكَّم من خلف ضباب الدخان.

كانت السفينة تنهار، وأخشابها تئن، ويعقوب يعلم جيدًا كيف يكون هذا الشعور. اندفع ثانية، لكنه منهك الآن، كل نَفَسٍ منه زفيرٌ مرٌّ حارق. تذوَّق النار. تذوَّق الدم. أمور اعتادها. فهو خبير في النار والدم.

انزلقت قدمه فوق السطح الدامي، وانثنى كاحله، فتهاوى على ركبته، وضربه ألمٌ حادٌّ في فخذه، ما زال موضع الوجع فيه من يوم نزل من القارب في البندقية. فدار قسطنطين حوله بالفعل. حاول أن يلتفت، أن يرفع ترسه، لكنه تأخر.

قد تأخر في كل شيء طولُ حياته الممتدة. تأخر في التعليم، تأخر في أن يقسم اليمين.

شعر بوخز رأس السيف بين كتفيه، ثم مزقت طعنة الألم الساحقة صدره. أراد أن يصرخ، لكن النفس لم يطاوعه، فما أخرج إلا زفرةً معذِّبة، ثم كحة نصفها قيء، ثم زفرةٌ أخرى أشد اختناقًا.

علم ما سيراها حين ينظر. لا مفاجآت. لكن وطأتها لن تقل لمجرد معرفته بها. تبقع قميصه، ومن تلك البقعة انتشرت لطخة قاتمة. ثم ظهرت ومضةُ الفولاذ. ثم تمزق القماش وأطلَّ رأس نصل قسطنطين، فولاذٌ نقيٌّ مغموس بدم يعقوب.

طعنة في الظهر. ويُقال في النهاية: كلُّ امرئٍ ينال ما يستحقه.

انزلق سيفه من بين أصابعه المرتخية، وارتطم بالسطح. ثم سمع وقع خطواتٍ خفيفة، وقسطنطين يدور حوله متبخترًا. قال وهو يطلُّ ثانية: «إذًا، لا مفاجآت في اللحظة الأخيرة؟». رفع كمِّه المطرز، وشمَّه في امتعاض: «كل شيء سيفوح بالدخان الآن. قد أنذرتك أن العاقبة ستكون شنيعة».

لهث يعقوب دمًا، وسعل دمًا، وتفل دمًا. حرك شفتيه: «وأنا...»، لكن التنفس صعب مع فولاذ في الرئة.

اقترب قسطنطين، وانحنى نحوه: «ماذا قلت؟».

- أنذرتُ...

رفع قسطنطين إصبعًا مزدانة بخاتم إلى مؤخر أذنه، وأماله: «عفوًا؟».

- إيَّاك...

قال قسطنطين: «ارفَع صوتك يا صاحبي، لا أسمع سوى فقاعاتك، و...».

أحكم يعقوب ذراعيه خلفه وجذبه إلى عناقٍ محكم. فشهق قسطنطين إذ شعر بنصل سيفه يخدش صدره، تشبَّث بكتفي يعقوب، وعيناه تبرقان بالذهول.

همس يعقوب: «أن كلَّ شيءٍ يسوء في الختام».

خاض يعقوب من المبارزات ما يكفي ليعلم متى يُهزَم. لكن من لا يموت، يكفيه التعادل. فأسقط نفسه إلى الخلف. أمرٌ يسير. فكل ما فعله قبل ذلك كان الصمود على ركبته. وثقل الجسدين فعل الباقي.

ارتطمت قبضة سيف قسطنطين المذهَّبة بالسطح. وانزلق النصل خلال يعقوب حتَّى اصطدمت القبضة بظهره. فأطلق الدوق صرخةً حادة إذ غُرزت الطعنة في صدره، واخترقت طرف عموده الفقري، ثم مزَّقت لحم الساعد الأيمن ليعقوب إذ عبرته. ليست خاتمةٍ شريفة لمبارزة، ربما، لكن يعقوب لم يُقسم على الشرف. كان أعقل من ذلك. وحدَّق الدوق قسطنطين إلى وجه يعقوب، عيناه جاحظتان، عروقه نافرة، وخدَّاه ورديَّان مرتعشان، ثم نفخ شهقةً دامية وسكن.

فبقي يعقوب، مرَّة أخرى، حيث يجد الناس أنفسهم في آخر الأمر. وحيدًا، بين يدي صنيعه. تمدَّد مطعونًا. وقبضة السيف محشورة في ظهره. نصله يشقُّه كله. وثقل قسطنطين فوقه. راح يتحسس بذراعه الطليقة، لكن أنفاسه تختنق، دع عنك أن يحرر نفسه. فالألم فظيع، لا يوصف.

ثم هوت أشلاء من شراعٍ محترق فوقه. وبدأ الماء يلامس السطح إذ غرقت السفينة، وحل ماء البحر البارد محل دفء الدم الحار. وقد دخل في مآزقَ من قبل. وشارك في كوارثَ مشهورة. لكن هذه بلغت الذروة. هذه شجَرة تينٍ ناضجة.

ضحك ضحكةً عاجزة. وهمس: «هذه ورطة».

ثم تدفَّق البحر عبر مؤخرة السفينة، وجرفه.

الجزء الثالث

دروب عُليا، ودروب سُفلى

مكتبة 31
t.me/soramnqraa

رفقة غريبة

زحف الأخ دياز من البحر الأدرياتيكي القاسي المالح على يديه المجروحتين وركبتيه المسلوختين، كأن سمكة قرش قذفته كراهية، وقد امتلأ قلبه ندامةً وتوبةً، كأنه القديس برونو وقد أُعيد إلى اليابسة.

تزحلق فوق الشاطئ المتدرج كأنما يصعد جبلًا، والسحب تلطم وجهه، والموج يصكُّ جنبيه، ومجرى حلقه ينهشه الملح بلا رحمة. جثا مرتعدًا على أربع، وركز البصر في ذاك الشريط المطاطي من الأعشاب البحرية حيث يبلغ الماء مداه، يتقيأ ويبصق، والموج يشفط بين الحصى نهمًا. ارتدَّ على ركبتيه، لا يستره سوى قنينة القديسة بياتريكس وسرواله الصوفي اللاصق بجسده، وقد ترهل من البلل حتَّى صار كَأنه صبي في سراويل رجل. منهكًا، موجوعًا، مشدوهًا لا يكاد يصدق، أخذ رأسه الثقيل يتهادى على عنق رخوي، يتأمل ما حوله في صمت.

وما رآه لم يكن مبشِّرًا.

إلى جانبيه امتدت رقع رمادية من الشاطئ، يعلوها ضباب، يقضمها البحر الرمادي، وتتناثر عليها نتوءات من صخر رمادي، وتنشقُّ فيها برك متماوجة من الريح، تنعكس فيها السماوات الرمادية المضطربة. وأمام ناظريه، ارتفع الحصى ثم انفرج عن كثبان شوهاء، تعلوها عشبة

تلهبها الريح، وقليل من شجر مقصوف، كله منحني إلى جهة واحدة، كأنهم موكب من رهبان شيوخ يتذللون أمام كارديناله.

أحسّ بوخز بارد على كتفيه. لقد بدأ المطر. يهطل.

صرخ الأخ دياز قائلًا: «حقًّا؟».

ولم يرد عليه إلا نعيق النوارس اللاهية في علياء الريح. استجمع أنفاسًا متقطعة، نهنهات إن صدق مع نفسه، ثم تأوَّه ونهض أولًا على قدم، ثم على الأخرى. وقف يتمايل، يضم ذراعيه إلى صدره، ثم التفت مترنِّحًا نحو البحر.

وقد تساءل في نفسه: يا إلهي، كم سبح حتَّى وصل؟

كان القادس لا يزال يشتعل قرب الأفق، عمود من دخان يخترق السماء البيضاء ثم ينفرج مثل لطخة مائية. استدار نحو الشاطئ وقطَّب جبينه. هل تلك نقطة شاحبة بين الصخور؟

بدأ يترنَّح متقدِّمًا، متألِّمًا إذ وخز الحصى باطن قدميه، يضيِّق عينيه ضد الريح...

كانت قدمًا. قدمٌ عارية، موشومة بخطٍّ من الرموز.

قال الأخ دياز: «ڤيجا!»، وانطلق راكضًا مترنِّحًا.

ولو علَّمته المواقف شيئًا، فهو أن أفضل اتجاه للفرار من مستذئبة هو دومًا بعيدًا عنها.

لكنَّه وجد نفسه يركض نحوها، يبعثر الحصى مع كل خطوة. ربما، في تلك اللحظة، بدا له أي شيءٍ خيرًا من أن يُترك وحده على ذلك الساحل الملعون.

كانت ملقاة على وجهها في مستنقعٍ صخري، إحدى قدميها على حجرٍ منقَّطٍ بالمحار، وقطعة قماشٍ ممزَّقة معلَّقة بكعبها، وشَعرها يطفو حولها كسحابةٍ سوداء.

قال الأخ دياز: «ڤيجا!»، وخاض البركة بجانبها، وقبض على كتفها الموشوم يريد أن يقلبها.

- يا إلهي!

كم كانت ثقيلة. كيف طفت أصلًا؟ لم يستطع حتَّى أن يرفع وجهها عن الماء في بادئ الأمر.

اضطر إلى تثبيت قدميه، ومرَّر ذراعه تحت إبطها وعنقها، وصدره ملتصقٌ بظهرها، والجلد الزلق يصفق كالخنازير في وحل، لا يبدو إنقاذًا، بل مصارعةٌ بلا غالب.

قال وهو يلهث: «يا... قديسة...»، ثم تأوَّه وهو يشدُّها: «بياتريكس... غاه!».

وأخيرًا قلبها، وارتدَّ على الصخور، نصفه مغمور بثقلها، ونصفه الآخر مغطًّى بشعرها المبلل بالمِلح.

- ڤيجا!

تزحزح نصفه من تحتها، والعوالق تنهش ظهره العاري.

- أفيقي!

انحنى يُبعد الشَّعر عن وجهها، ورأسها مائل وفمها مفتوح.

قال: «ڤيجا!»، وقد علت نبرته وهو يصفع خدها الموشوم.

- لا تموتي!

قالت: «أه»، ففوجئ بارتياحٍ جارف إذ ارتعشت، تأوَّهت، ورفعت يدًا مجروحة لتدفعه عنها.

قالت: «أه»، وعبس وجهها بالبكاء، واهتز جسدها بالارتجاف: «أه!»، ثم انفجرت بالبكاء، كتفاها يهتزان نحيبًا، ودموعها الثقيلة تشق الرمل الملتصق بوجهها. لم يكن الخوف والعار والاشمئزاز غائبين عن قلب الأخ دياز في تلك اللحظة. وكان كاذبًا لو قال إنه لم يفكِّر في الهرب

مذعورًا. لكنه لبث حيث هو، يربِّت على كتف ڤيجا بارتباك. قبل ساعة فحسب، كان قد انتزع سهمًا من ذلك الموضع، ومع ذلك، لم يَبقَ إلا أثر صغير على شكل نجمة. فأخذ يُصدر أصوات تهدئة مرتجلة، كرجل لم يحمل طفلًا قط، وها هو يُمسكه.

أليس أوَّل واجبات الكاهن أن يعين المحتاج؟ أوليست رحمة المخلِّصة ومغفرتها بلا حد؟ أفلا ينبغي لأتباعها أن يسعوا ليكونوا مثلها؟ أوليس الملعونون والمنبوذون أحقَّ الناس بالرحمة؟ بل أحقُّ من الجميع؟ لكنه، في غياهب طموحه وخيبته، غفل عن ذلك. كأنه ناسكٌ قديم من ديره، لا يرى في الدنيا إلا الصفحة التي يزخرفها. وقد أدرك الآن، في هذا المأزق القاتم، أن في مواساة الغير، سلوى لنفسه. وهي، أيضًا، مصدر الدفء الوحيد في مدى عشرة فراسخ.

قالت ڤيجا، بعد لحظة وهي تئنُّ: «عطشانة»، ثم نفخت فُقاعةً من المخاط.

قال الأخ دياز، مستلقيًا على صخرةٍ في المطر المتزايد، في لباسه الداخلي المشبع بالماء، والمستذئبة العارية تنتحب في حضنه: «تعرفين كيف تسير الأمور. الرب يحب أن يختبرنا».

* * *

قال متلطِّفًا، وهو يحدِّق إلى السماء بعينين نصف مغمضتين: «علينا أن نتابع المسير على طول الساحل». وبدا الضوء يخفت.

- الأرجح أن الآخرين تبعثروا على هذه الشواطئ.

وأجبر نفسه ألَّا يُضيف: «من نجا منهم، على الأقل»، وألا يزيد بعد ذلك: «إن نجا أحد أصلًا».

قالت ڤيجا بصوت مبحوح، وهي تعبث بأزرار قميصها المبتل: «اذهب أنت. دعني». وكل زرٍّ كان أصعب من سابقه: «ستكون أفضل...

بدوني». ثم استسلمت، وارتخت يداها في حجرها بلا حيلة، واهتزَّت شَفَتها، وعادت إلى البكاء. قالت: «أنا عطشانة جدًّا!».

تنهد الأخ دياز بتعب، وترك سرواله ليفرك صدغيه، فما كان من السروال إلا أن انزلق عن وركيه، واضطر إلى شده مجددًا. وقد نزعت الثياب عن جثتي مجدفين غارقين لفظهما البحر على الشاطئ، بينما اجتهد الأخ دياز في ألَّا ينظر إلى وجهيهما، وألَّا يسأل نفسه إن كان لهما أهل في انتظارهما. لقد سببت له شفقته الجديدة على رفاقه ما يكفي من المتاعب، فما بالك لو امتدت إلى أعدائه؟ أما بنطال المجذف الأصغر فكان واسعًا عليه، يرفرف بثوبه المبتل ومع ذلك يحكه. وقميص المجدف الأكبر ضيِّق على ڤيجا، والخامة الرخيصة تشدُّ على صدرها حتَّى تكاد تتمزق.

تمتم قائلًا: «يا رباه، ما هذا الثنائي؟».

رفعت نظرها إليه.

قال مسرعًا: «من الناس! أنتِ وأنا». وجعل نظره مثبتًا إلى الكثبان، لا إلى قميصها المشدود. قال: «هذا الثنائي الذي كنت أعنيه. علينا حقًّا أن نتابع السير على طول الساحل...».

قالت: «اذهب. قبل أن أقتلك أنت أيضًا»، وغمسَت أصابعها في المستنقع الصخري بأسى: «أنا لستُ آمنة». ثم رفعتها إلى فمها وامتصَّتها بمرارة. وقالت: «أنا لستُ طاهرة». وأمالت رأسها إلى الوراء، وأغمضت عينيها، والدموع تنحدر على وجنتيها، ثم عوت نحو السماء المتفجِّرة بالمطر. قالت: «كلُّه مالح!».

قال الأخ دياز من بين أسنانه: «نعم، إنه البحر. لماذا عليَّ أن أشرح كيف يعمل الشاطئ لواحدة من الفايكنج؟ اسكندنافيا كلها شواطئ!».

ضغط على جسر أنفه. فقدان أعصابه لن يفيد. بل الشيء الوحيد الذي قد يحققه هو أن تفقد ڤيجا أعصابها، وذلك لن يكون مفيدًا البتة.

لا بُدَّ أن يكون أحدهم هادئًا، قويًّا، واثقًا. لا بُدَّ أن يقود أحدهم. وإن دلَّ هذا كله على شيء، فهو على أن أصلحهم للقيادة... هو نفسه.

قال: «اسمعيني»، وجثا بجانبها، مدَّ يده، وتردد، ثم ربَّت على ذراعها بارتباك. يا إلهي، كم كانت صلبة، كأنما يربِّت على شجرة دافئة. قال: «ما كنتُ لأتركِكِ ولو أردت. قداسة البابا جعلتكِ مسؤوليتي، وأنا مدين لكِ، والحق أني تائه تمامًا، وهذا البنطال لا يصلح، وبدونك سأُقتل بعد عشر خطوات من الرمل على الأرجح». فشهقت شهقةً عظيمة، ورمشت بعينين دامعتين.

أكمل: «أعترف أنكِ مصدر إحراج على مائدة عشاء، وبعيدة عن المعونة في رحلة حج، لكن أمامنا معارك لا شك فيها، ولا أحد ينكر أنه... في القتال...»، نفخ وجنتيه تنهيدًا، وقال: «أنتِ رائعة».

شهقت ثيجا أخيرًا شهقةً متأملة، وحين مسحت وجهها، بدا عليها شيءٌ من الزهو. قالت: «رائعة كلمة طيِّبة».

قال الأخ دياز، وابتسم ابتسامة صغيرة: «هي كذلك». شعر بشعور بالكاد يذكره من حياته قبل النذر. هل كان... فخورًا بنفسه؟ شدَّ على كتفها قليلًا. قال: «هل رأيتِ أحدًا من الآخرين يخرج من السفن؟».

تقطَّب وجهها، كأن التفكير مؤلم. قالت: «أذكر دمًا... أذكر المجذفين يركضون... والمزيد من الدم...».

قال الأخ دياز، يلعق شفتيه: «ذلك يتوافق... مع ما أذكره...».

قالت وهي تحدِّق إليه: «انتظر. هل وقفتَ في وجه الذئب؟».

- أمم... فعلها يعقوب في النزل...

- يعقوب لا يموت. أما أنت، فتموت.

قال الأخ دياز، وهو يبعد يده عن كتفها برفق: «أنا واعٍ تمامًا بهذه الحقيقة».

تأملته ڤيجا بعينين ضيقتين. قالت: «أنت أشجع مما ظننت».

وحان دوره ليبدو مزهوًّا قليلًا. قال: «آه، حسنًا...».

- أو أغبى بكثير.

- آه، حسنًا...

قالت: «لا تُجرِّب الذئب يا أخ دياز. أبدًا. لا يمكنك الوثوق به. لا يمكنك المساومة معه». ثم وضعت يدها على كتفه بدفعة كادت أن تُسقطه على ظهره. قالت: «سأُبقي ذاك الوغد مكممًا من الآن. لكنك يجب أن تكفَّ عن التذمُّر!»، ثم دفعت نفسها واقفة، وقد سحبته معها حتَّى كاد يهوي على وجهه. قالت: «علينا أن نتابع السير على طول الساحل. الآخرون...»، وضعت قدمًا عارية على صخرة وحدَّقت نحو الجنوب، وقد كان فكُّها مشدودًا. قالت: «من المحتمل أنهم مبعثرون على هذه الشواطئ».

قال الأخ دياز بصوت منخفض، فيه شيء من الامتعاض: «الحمد للرب أنك هنا، أتظنين أنهم ما زالوا أحياء؟».

قالت ڤيجا: «أليكس حية على الأقل»، ورفعت معصمها، وكان الشريط البني بالكاد ظاهرًا بين الندوب والوشوم. قالت: «رباط البابا بندكتا. لا يزال يشدُّني».

قال الأخ دياز: «بشرى طيبة!»، ووثب واقفًا.

قالت: «أعلم! الحمد للرب أني هنا. أعني... قد تكون على وشك الموت».

وشعر الأخ دياز بذلك الغرق المعتاد الذي يعقب كل راحة. قال: «نعم».

- ربما تنزف من عشرة جراح، أو محترقة حرقًا بشعًا، أو في قبضة... لا أعلم... عفاريت؟

قال الأخ دياز وقد اشتدَّ فزعه: «عفاريت؟».

قالت: «إن شئت فقل. لكنها حيَّة!»، ثم مضت بخطًى ثابتة نحو الكثبان: «حتَّى الآن».

32

ليست المرة الأولى

استفاقت أليكس على صفعة في وجهها. ومؤسف أنها لم تكن المرة الأولى.

حاولت أن تهمهم بـ «أه»، لكن بدلًا من ذلك لفظت فمًا مملوءًا بماءٍ مالح، ثم تدحرجت على جنبها تتأوه، وتقيأت دفقة أخرى. ظلَّت ممددة على وجهها، تقبض على حفنتين من الرمل، وتكتفي بالتنفس برهةً. حتَّى رئتاها كانتا تؤلمانها.

قالت أخيرًا: «أه».

ولم يبدُ أن الجهد يستحقُّ ما خرج.

- إذًا فأنتِ على قيد الحياة.

تمكنت أليكس من رفع رأسها بالكاد لترى بعض ما حولها. رمل يمتدُّ نحو شاطئ صخري. خفق وجهها ألمًا، وكل جزء منه بدا كأنه تضاعف حجمًا. إلا لسانها، فقد بدا ثلاث مرات أكبر من حجمه المعتاد.

قالت بصوت مبحوح: «أين نـــ... نحن؟».

ظهرت ساني أمامها، والريح يعبث بشَعرها الأبيض حول وجهها: «على الشاطئ».

تدحرجت أليكس ببطء وألم حتَّى استلقت على ظهرها: «أي شاطئ؟».

قالت ساني: «أقرب واحد. لم يكن في وسعي أن أكون انتقائية، بالنظر إلى الظروف». ثم تمعَّنت لحظة: «ولستُ غالبًا ممَّن يُتاح لهم الاختيار».

قالت أليكس بأنف مخنف: «الظُّرو...ف؟».

قالت ساني: «تعرفين، السفينة تغرق، وأنت تغرقين، والجميع يغرق».

قالت أليكس: «انتظري...». ثم جلست ببطء وألم، مستندة على مرفقيها. كان هناك أخدودان يمتدان من أسفل قدميها إلى داخل الرمل، ثم يختفيان حيث بلغ أعلى الموج: «كيف وصلتُ إلى هنا؟».

قالت ساني وهي تهزُّ كتفيها: «أنا سبَّاحة ماهرة».

جلست أليكس ببطء وألم. ذراعاها مليئتان بالخدوش. وإحدى ساقي سروالها المبتل ممزقة حتَّى الركبة. وأحست بصدرها كأنَّه تلقَّى صدمة من كبَّاش حربي. لكنها بدأت تظنُّ أنها لم تمت.

قالت: «الجميع يقول إن الإلفيين أشرار».

- سمعتُ من يقول ذلك.

- لكنَّ كلَّ من التقيتُهم كانوا رائعـــ...ين.

- هل التقيت الكثيرَ؟

استدارت أليكس ببطء وألم على يديها وركبتيها، ثم توقفت تلهث. قالت: «أنت فقط».

قالت ساني: «أوه. هذا... جميل». وعبست، كأنها تثق بالإطراء أقل مما تثق بالإهانة.

حاولت أليكس أن تستنشق بأنفها فلم تستمتع بالتجربة. قالت: «أظنُّ أن أنفي مكسور».

ومؤسف أنها لم تكن أول مرَّة. قرفصت ساني أمامها، وضعت رؤوس أصابعها برقة على وجنتيها، بالكاد شعرت أليكس بها، ثم ضغطت بإبهاميها على أنفها. وكان التحديق إلى عيني ساني الكبيرتين الهادئتين الحذرتين، يبعث في أليكس بعض السكينة. قليلًا. وليس كثيرًا.

- مجرد رضَّة.

قالت أليكس متذمرة: «اصطدم بالصاري».

قالت ساني: «أتريدين كسره؟ يمكنني أن أبحث عن حجر».

قالت أليكس: «لا تُتعبي نفسك. لقد فعلتِ ما فيه الكفاية». وتأوهت وهي تحاول أن تطوي ساقًا تحتها: «قد يقرِّرون إحباطي...». ثم تأوهت وهي تنهض: «لكنني لن أُحبط -آه!»، وأمسكت بذراع ساني إذ كادت زوبعة أن تطرحها أرضًا. ولم يزد منظر الرمل الذي عصَفه الريح، والكثبان المحمولة وراءه، والتلال المشجَّرة بعدَها، من علوٍّ يسير، في جماله شيئًا، بل ربما انتقصه. قالت: «وماذا الآن؟».

قالت ساني وهي تشير إلى ركام الحطام المتناثر عند حدِّ الموج: «نأخذ ما نقدر على استعماله».

قالت أليكس وهي تزفر: «نسرق إذًا؟ حسنًا، هذا ما أجيده».

استغرقها بعض الوقت في فكِّ حبل معقود بخشبة مكسورة، وسحب قطعة من القماش المحروق، لكن تحتها كان صندوق مطعَّم بالزينة، ما جعل راحتي اللصة القديمة تحكَّان شوقًا. وكان القفل أضعف بكثير من النقوش عليه، فما احتاجت إلا إلى ضربات معدودة بمجداف حتَّى فُتح. سحبت أليكس أول ما وجدت فيه، ورفعته. سترة حمراء مزرَّرة بكتافيتين، وزركشة براقة، وأزرار مذهَّبة على هيئة وجوه الجريفون.

نظرت إليها ساني بريبة. قالت: «تفوح من هذه السترة رائحة عسكريٍّ نذل».

قالت أليكس: «لا بدَّ أنها من ملابس قسطنطين. فقد كانت تفوح منه نفس الرائحة». وبدأت تفك الأزرار: «تظنين أنه نجا؟».

قالت ساني: «كان يقاتل يعقوب حتَّى الموت. فحدسي يقول لا». وهزَّت كتفيها: «يعقوب هو آخر شخص يجب أن تقاتله حتَّى الموت». توقفت لحظة: «لأنه لا يموت».

قالت أليكس وهي تُدخل ذراعًا في الكمِّ: «خبرٌ سار».

قالت ساني بعد تفكير: «لكنَّه قد يكون عالقًا في الحطام بقاع البحر الأدرياتيكي. أو مسحوقًا لشرائح. أو مشويًّا كشرائح الخنزير». ثم أضافت: «أو كل ذلك معًا».

قالت أليكس وهي تدخل الذراع الأخرى: «هذا أقل سرورًا».

هزَّت ساني كتفيها مرَّة أخرى: «تعلَّمت ألا أقلق بشأن ما لا أقدر على تغييره».

قالت أليكس وهي تغلق الأزرار: «لم أُجِد ذلك يومًا. كلَّما قلَّ ما أقدر تغييره، ازددت قلقًا».

قالت ساني: «ألستِ قلقة من كل شيء دائمًا؟».

قالت أليكس: «أكاد أتبول من الرعب. كيف أبدو؟».

رفعت ساني حاجبًا. قالت: «كأنك إمبراطورة طروادة».

قالت أليكس، وهي تتخذ هيئة الجنرالات في اللوحات: «يشبه كثيرًا ما أرتديه عادةً، في أزقَّة المدينة المقدسة». كانت السترة واسعة جدًّا، لكنها اجتهدت لتبدو فيها بجلال، بجعة لا بطة، كما علَّمها البارون ريكارد.

قالت ساني: «لا بدَّ أن نكهة العسكريِّ النذل بدت باهرة وسط المتسوِّلين».

قالت أليكس وهي ترفع ذقنها نحو السماء: «أنا باهرة أينما حللت».

قالت ساني، بصوت خافت: «وأنا أتلاشى أينما حللت. كهمسة في إعصار».

قالت أليكس: «لكنَّك تركتِ في نفسي أثرًا».

قالت ساني وهي تعبس: «صه».

قالت أليكس: «أعني فقط...».

قالت ساني: «صه! أحدهم قادم».

شعرت أليكس بذلك الانقباض المألوف في جوفها حين أمسكت ساني بمعصمها وركضتا نحو الكثبان. ذاك الامتزاج من رعب «يا ربَّاه لا»، ويأس «ليس مرَّة أخرى»، وسخط «لماذا أنا؟». نفس ما شعرت به حين خرج القادس من مكمنه وتقدَّم إليهم، منذ كم شهر؟

ذلك الصباح. لقد كان ذلك الصباح.

كابدت أليكس الصعود في كثيب رملي، تنزلق إلى الخلف بقدر ما تتقدَّم، والسترة الضخمة ترفرف حولها، وألقت بنفسها أخيرًا فوق القمَّة على بطنها، تبصق الرمل.

تحرَّكت ظلال داكنة على الشاطئ الشاحب. اضطرب بصرها أكثر من قدرته على إحصائهم. ثم رأت الآثار التي خلَّفتها قدماها. خطٌّ من الحُفر يقود مباشرة إلى أعلى الكثيب، كأن إصبعًا عملاقةً يشير إلى مخبئها.

انزلقت أسفل القمَّة، وألصقت نفسها بالرمل، مغمضة العينين. تمتمت بالدعاء: «ربما يكونون طيبين؟ ربما يجلبون، لا أدري... فطائرًا؟». وكادت تقول بعدها: «آمين».

قالت ساني، وهي تحدق من خلال الحشائش فوق القمة وتمتمت: «لا تراهنِي بحياتك عليه. أعدُّ ثمانية. مسلحين. لا أرى فطائر، لكنَّ أحدهم يحمل شيئًا... كأنه مفتاح لولبي».

قالت أليكس: «ربما يشرب كثيرًا من الخمر؟».

قالت ساني: «ذلك الشيء كبير جدًّا ليكون لسدادة النبيذ».

قالت أليكس بصوت يرتعش: «فما هو إذًا؟».

قالت ساني: «أكاد أشعر... أنني لا أريد أن أعرف». وانخفضت قليلًا، وضعت يدًا على كتف أليكس: «إنهم ينظرون إلى الصندوق».

همست أليكس: «ربما هذا ما يبحثون عنه، ربما هم أيضًا من فصيلة العسكريِّ النذل».

وكان صوتٌ ضعيف يأتيهم مع الريح: «بماذا يتكلمون؟».

قالت ساني: «يقولون إن الدانماركي في طريقه. ويبدون قلقين بشأنه».

قالت أليكس: «من هو الدانماركي؟ يا ربَّاه. من يُقلق رجلًا يحمل مفتاحًا لولبيًّا عملاقًا؟».

ولم ترَ ساني حاجة إلى الرد. قالت وهي تحدق بعينيها: «إنهم يتركون الشيء على الشاطئ. ويبحثون عن شيء آخر».

ابتلعت أليكس ريقها. لم ترغب في قولها، لكن لا مهرب منها. قالت: «أنا؟».

همست ساني، وهي تنزلق على بطنها إلى الجهة الأخرى من الكثيب: «يبدو أنَّ من الأفضل أن نتحرَّك».

قالت أليكس، وهي تنزلق خلفها: «يا رباه. هل رأوا الآثار؟».

قالت ساني: «يبدون مهتمين بها». ثم أمسكت بأليكس من تحت ذراعها، وسحبتها: «أظنُّنا يجب أن نركض الآن!».

فركضت أليكس.

ومؤسف أنها ليست المرة الأولى.

33

ميَّال إلى الاضطراب

- اركُل، تبًّا لك!

قال بالثازار بأسنان تصطكُّ، والغضب يتقاطر من نبرته: «وماذا تظنينني كنت أفعل في كل تلك الساعات المرهقة؟ أتدلى هنا مرتخيًا؟».

ضيَّقت بابتيست عينيها حين لطمت موجة جانب رأسها ولطَّخت وجهها بالشعر المبتلِّ، فنفخت زفيرًا مدويًا لتزيحه. ثم قالت: «الكلمة التي أختارها هي... رخو. الآن اركل!».

أصدر بالثازار صوتًا مشبعًا بالامتعاض، وضاعف جهده ليركل نحو الشاطئ. مع أن وصف ذلك المكان بالشاطئ كان ترفًا لغويًّا. فقد كان ركامًا من الصخور المسننة تطوِّق مدخلًا هائجًا حيث تتضخم الأمواج وتُضرب بالحجارة فتثير رذاذًا كأبراج، وتدفعهما عائدة إلى موت مائي كلما تقدَّمت طوافتهما خطوة. بل حتَّى وصفها بطوافة فيه كرم؛ إذ لم تتألف إلا من ثلاثة مجاديف ضخمة من بقايا القادس، مربوطة بحزام بالثازار من طرف، وحزام بابتيست من الطرف الآخر.

- قلتُ اركل!

زأر قائلًا: «أنا أركل!»، وتلقى فورًا رشفة من ماء مالح أغرقته في السعال. وقد استنشق من الماء أكثر مما تنفَّس من الهواء منذ دخلا هذا الخليج الملعون. وكان من المفارقة المأساوية أن يصارعا الأدرياتيكي

البارد ساعات، ليغرقا على بُعد ذراع من اليابسة. فقربهما جهدٌ أخير يائس من الصخر بما يكفي لأن تتشبث بابتيست بعقدة ناتئة، وتجر نفسها على الصخور.

همست وهي تكشِّر في تقلُّص عضلي كأنَّما قبض الموت على وجهها، وتشدُّ قبضتها على الطوافة مجاهدة ألَّا تفلت: «للخارج!».

قال وهو يُكابد: «أتظنين... أنني أحاول... أن أبقى؟».

لطمه موج فاندفع نحو الحجارة، وتمسَّك بأطراف أصابعه وهو ينسحب مع اندفاع الماء. الصخور كانت زلقة بعشب البحر، مكسوَّة بمحار قاطع كالسكاكين، فراح يمشي عليها بقدميه الحافيتين مشيًا غير متزن، ينزلق ويصارع بحثًا عن ثبات.

- آه... ربَّاه... لا... نعم!

علِقت إصبعه الكبرى بمحارٍ عنيد، وبجهد مرتجف دفع نفسه إلى الأعلى، ثم انقلب مستلقيًا على ظهره كسمكة أُلقيت على اليابسة، مرتعشًا ومرتجفًا، مضروب الجسد ومدمى من شدة ما لاقى. ولم ينجح في كبح دموع التعب إلا بمجهود خارق.

جلس يصرخ: «شكرًا جزيلًا على المساعدة!».

قالت بابتيست وهي تسحب الطوافة إلى الصخور: «بدا أنك تمسك بزمام الأمر».

قال: «كم يُدفئ قلبي أن أراك تفضلين إنقاذ مجاديفك -دون زورق أصلًا لتجدفي به- على أن تساعدي الرجل الذي أنقذ حياتك قبل لحظات!».

قالت وهي تحل الحزام وتخلعه بصفعة: «حسنًا، أنا أحب هذا الحزام. وأما مسألة إنقاذ الأرواح، فأظنني أنقذت حياتك مرتين. والامتنان لا يكلِّف شيئًا كما تعلم».

قال بالثازار بأنفاس مكتومة: «امتنان؟». كانت مبتلَّة حافية، نعم، لكنها على الأقل خرجت من الماء بملابس تغطيها من العنق إلى الكعبين. أما بالثازار فقد خلع سرواله ليحرِّك رجليه بحرية، والريح الآن تذكِّره بندمه مع كل هبَّة: «ما ظننت أنني سأشعر ببرودة أكثر مما شعرت بها في البحر. والآن اكتشفت خطئي!».

قالت بابتيست وهي تحدِّق إليه بعينين حادتين، وتعصر حفنة من شعرها الذي انتفش على الفور: «لا أظنها الأولى، وأنت الذي اخترت الاختباء في مقصورة سفينة تغرق. على راحتك، ارجع إلى البحر».

قال بالثازار وهو يلوِّح نحو الداخل المقفر، والبحر البارد، والسماء التي تبصق مطرًا، ولا طاقة له بالكلام، لكن شيئًا لن يسكته: «امتنان؟ لأن السفينة تحطمت -في مكانٍ لا أعلمه- على سواحل دلماسية قاحلة؟».

قالت بابتيست وفي لهجتها ما يقول إنه حي فقط بإرادتها: «أنت حيٌّ، ألست كذلك؟».

قال: «تقولين امتنان! وهل يجد المرء رجلًا أكثر صبرًا مني...».

فوضعت يديها على خصرها، وانحنت إلى الوراء لتصرخ نحو السماء: «ها!».

قال وهو يلوِّح بعنف: «لكن من العدل أن أُنبِّهك، حتَّى صبري له حدٌّ. عندي حزام»، ثم مزَّقه وهو يلوِّح به في وجهها: «لكن لا سروال! فما عساي أفعل بحزام دون...».

صرخت بابتيست: «اربط به فكَّك اللعين!». ثم وضعت يدها على رأسها: «أنا أكثر النساء تساهلًا في أوروبا...».

فرفع بالثازار يديه إلى خاصرته، وانحنى إلى الوراء ليصرخ في السماء: «ها!».

قالت: «تحالفت مع ساحرات، وتماشيت مع قراصنة، وتعاونت مع غيلان»، وشرعت تعدُّ على أصابعها: «كرادلة بلا روح، نبلاء أوغاد، وحتَّى ذلك الشبح اللعين الذي كان يسكن مجاري جنوة...».

- يؤسفني أنني فوَّتت تلك المغامرة.

قالت: «لم ألتقِ ساحرًا واحدًا أعجبني، ومع ذلك وجدتُ دومًا وسيلة للعمل معهم، لكن أقسم بربي، أنتَ... ماذا؟». وسكتت وهي تنظر إليه بريبة.

كان قد بدأ يبتسم: «لم يسعني إلا أن ألاحظ أنكِ ضممتني إلى السحرة».

غطَّت وجهها بيديها وقالت: «كان يجب أن أعتزل بعد برشلونة».

- لقد بدأتِ تلينين لي! لم تكن سوى مسألة وقت قبل أن تبدئي في معاملتي بما يليق بأحد أعظم العقول السحرية في أوروبا!

نظرت بابتيست إلى الأرض وقالت: «يا مُخلِّصتنا، ليتك غرقت».

قال بالثازار: «قبل أن تمضي فترة، ستكونين تفاخرين بأنكِ كنتِ، ولو لوقت قصير، زميلةً وصديقةً لي».

رفعت بابتيست بصرها نحو السماء وقالت: «يا مُخلِّصتنا، ليتني غرقت».

قال بالثازار: «وبعد قليل سن-أوغ»، وانحنى فجأة من غثيان، والريق يتدفَّق إلى فمه: «أشعر بشيء من الـ-أوغ».

قالت بابتيست وهي تنظر إلى الأرض: «إنه الرباط. لا بُدَّ أن الأميرة أليكسيا نجت».

انحنى بالثازار مجددًا بتقلص آخر أشدَّ، ودوار في رأسه، واللعاب يملأ فمه. قال: «الأنباء السارَّة تتراكم فوق بعضها».

قالت بابتيست: «علينا إيجادها».

قال بالثازار: «وكيف، بربك، تقترحين أن نفعل؟ أي ناجين قد يكونون مبعثرين على امتداد خمسين ميلًا من الساحل! أوغ». ثم انحنى مرَّة أخرى، والريق يسيل ورأسه يدور: «سنحتاج إلى معجزة لنعثر عليها».

اقتربت بابتيست وانحنت حتَّى صرخت في أذنه: «ليت معي أحد أعظم العقول السحرية اللعينة في أوروبا!».

قال بالثازار وهو يقاوم البرد والغثيان واليأس: «العرافة ليست أعظم مواهبي...». وبذل جهده ليذكر ما كانت عليه أعظم مواهبه، ليستخلص من حُجُب بؤسه، وبرغم الظرف القاسي، والمهمة المستحيلة، وغياب الموارد والمعونة... أو حتَّى سروال، أن يتشبث بفكرة. قال: «لكن... ربما... أستطيع أن أبتكر طقسًا... إن تيسَّر لي ملتقى مناسبٌ للقوى...».

- ملتقى ماذا؟

- بلغة العامة، دائرة حجريَّة.

قالت بابتيست وقد ارتسم الاشمئزاز في وجهها: «العرافون؟ أولئك الأوغاد يأخذون أنفسهم على محمل الجد كثيرًا».

قال: «لست من محبِّي حياة الطحالب، صدقيني، لكن الحاجة تفرض نفسها». أخذ نفسًا، وانتصب، وارتجف وهو يبتلع جرعة من الملوحة والمرارة. ومع أنه كان يخطِّط لتنصيب الأميرة أليكسيا على عرش طروادة، فقد أخذ الرباط يخفُّ قبضته المقيتة عن أحشائه. قال: «ثمَّة دائرة قديمة قرب نيكشيج، إن لم تخنِّي الذاكرة».

قالت بابتيست بوجه مشدود: «حسنٌ إذًا». وأومأت برأسها: «نتَّجه شرقًا. نأخذ مواضعنا. نلتمس الزاد». ثم لمَّحت إليه من طرف عينها: «ونجد لك سروالًا».

قال بالثازار: «أخيرًا، تأخذين احتياجاتي بالحسبان».

- لا أطيق التحديق أكثر إلى تلك العيدان التوأم التي تجرؤ على تسميتها ساقين.

- لقد قيل لي إنَّ لي سيقانًا مصقولة الشكل.

- لا بد أنك تعرف جماعةً من الكذَّابين الوقحين.

قال: «بل إنني في صحبة أكثرهم وقاحةً الآن على الأغلب». وألقى بالحزام على كتفه، متأملًا الغابة الممتدّةَ أمامه. وقال: «علينا أن نكون حذرين. فالبلاد في هذه الأنحاء ميَّالة إلى الاضطراب».

قالت بابتيست وهي تمضي تصعد الشاطئ: «قد آن أوان أن يحالفنا الحظ. ربما أتينا في لحظة سلام».

* * *

قال بالثازار: «تبًّا».

كان الوادي مسرح مذبحة.

جثث من رجال وخيل متناثرة على المنحدرات، متراكمة حول جدول يتلوَّى بين الوحل في القاع. قدَّر بالثازار المئات منها، بنظرة واحدة، وهو -في عدِّ الموتى- ذو خبرة يُعتدُّ بها. وقد اجتاح الحريق قرية مجاورة، لم يبقَ منها سوى حزم من العوارض المتفحمة، وبعض مداخن مائلة. وقد تجمَّع سرب حقيقي من الطير الجارح في السماء، ومعه نفر غير قليل من الصنف البشري على الأرض، يتهيؤون لنهش هذه الغنيمة المباغتة.

رمق بابتيست بجانبه، وقد كانت هي الأخرى تتفحَّص مشهد المعركة الكبرى. قال: «لحظة سلام قلتِ؟».

قالت: «قلتُ إننا نستحق بعض الحظ، ولم أقل إننا سنحصل عليه». ومضت تهبط منحدر التلِّ، وقد جف شعرها وتحوَّل إلى غمامة منفوشة لا تملك زمامها، تتطاير حول وجهها.

قال بالثازار وهو يسرع ليلحق بها: «الواضح أن حربًا دائرة».

قالت: «وما الذي أوحى إليك بذلك؟».

قال وهو يزفر: «من تظنينهم يقاتلون؟».

- الصرب؟

قال بزفرة أشدَّ: «ما دمنا في صربيا، فهو ظنٌّ في محلِّه. لكن، أيُّهم، وضدَّ من؟».

توقَّفت بابتيست، وأمالت رأسها نحو جثَّة. قالت: «من تقاتل؟». ثم أنزلت أذنها. فلم تجب الجثَّة. فقالت وهي تمضي: «لم يخبرني شيئًا».

قال بالثازار متأففًا: «هل وُجِدتِ في الدنيا لتعذِّبيني؟».

قالت: «مجرد هواية». وضربت الطريق جانبًا، تمضي بين الجثث المبعثرة في العشب المداس: «ابحث لك عن ثياب، وحذاء، وأي شيء يصلح».

- من الأموات؟

قالت وهي تقلب جثة كما يُقلب برميل فارغ: «لا أظنُّهم سيشتكون». وبدأت تنبش جيوبها بأصابع خبيرة: «أنت آخر من كنتُ أظنه يتنصَّل من الجثث».

قال: «اهتمامي بالموتى لأجل أسرار الخلق، لا لأجل حفنة من فتات!». لكنها كانت تتظاهر بعدم السمع. فتنهد، وأدخل يديه تحت جثة تناسبه في القياس، ثم دحرجها بحذر. كان ضابطًا شابًّا، مبتلًّا بندى الصباح، وسيمًا لولا شقُّ الفأس في جمجمته. قرفص بالثازار، وبدأ يفك رباط حذائه.

قال يتذمَّر: «تبًّا...»، إذ كانت العقد محكمة جدًّا، وهو ما لا يُستغرب. فلو اندفع إلى معركة، لتمنَّى هو أيضًا أن يربط حذاءه بإحكام، وهو أحمق لو اندفع في واحدة. قال: «تبًّا...»، وكانت أصابعه خَدِرة للغاية،

وهو ما لا يُستغرب أيضًا، بعد أن قضى ظهيرةً يتلقَّى الصفعات من البحر، وما تبقَّى من ملابسه لا يزال مشبعًا بماء مالح بارد. قال: «تبًّا...».

قالت بابتيست: «ها؟».

وقفت فوقه، ويداها على خصرها. وقد حصلت على حذاء فارس لامع، بنصال نحاسية، ومعطف عسكري مبالغ فيه، لم تلوثه الدماء إلا بقليل من فتحة قرب الصدر، وتحتها تبرز مقابض أربعة خناجر مغروزة في وشاح أرجواني. أمَّا شعرها المتمرِّد، فقد كبحت جماحه في قبَّعة جلدية للصيَّادين، يعلوها ريش متدلٍّ، عدا خصلة رطبة أو اثنتين تركتهما عمدًا على الأغلب.

رفع بالثازار نظره مندهشًا. ومهما أراد أن يجادل، لم يكن يمكنه إنكار أنها تبدو فاتنة مرَّة أخرى. قال: «كيف بحق الجحيم حصلتِ على هذا كلِّه؟ لم أخلع حذاءه بعد!».

قالت وهي تميِّل وشاحها على خاصرتها كأنها قرصان: «قضيت وقتًا نباشة قبور».

قال في نفسه: «لا عجب إذًا»، مستشعرا غاية السخف في هيئته آنذاك إذا قُورِن، يحاول حل عُقَد الحذاء الآخر بحدَّة، ثم يلعن إذ التوى ظفره عن موضعه.

قالت بابتيست وهي تطوي كُمَّها المطرَّز: «خلال بعض الأزمات المحليَّة في بروسيا. الأمر أقرب إلى الفن منه للعلم. أنت فقط...»، وضيَّقت عينيها، وحرَّكت أطراف أصابعها معًا: «تتحسس الغنيمة الطيِّبة». ثم مرَّرت خاتم ختم رجالي ضخم في إصبعها الوسطى. قالت: «ما رأيك؟».

قال: «أظنك على وشك ختم بعض الرسائل المهمَّة».

قالت: «وليس للمرة الأولى. كنت أذيب الشمع لدوق آكيتان».

قال بين أسنانه وهو يشدُّ على العقد: «تُدهشينني».

قالت وهي تنحني على جثة مقلوبة الوجه: «كان يوقِّع المئات دفعةً واحدة. أكثرها هراء إداري. وبعض رسائل حب. كنا نستهلك كثيرًا من الشمع». ثم أمسكت بساقي السروال: «وبعد يوم كهذا، تصير أصابعك لزجة، لا شكَّ في ذلك».

قال: «أمر معتاد عندك، لا ريب».

قالت بابتيست وهي تنتزع السروال بجذبة واحدة ماهرة: «لم ألبث طويلًا في ذلك. كان الدوق كثير اللمس».

قال بالثازار: «الدوقات كذلك غالبًا مما سمعت... آه!»، إذ انحلت العقدة أخيرًا، وتمكَّن من انتزاع الحذاء الثاني من قدم صاحبه الميت.

ألقت بابتيست بالسروال إليه. قالت: «هذا قد يناسبك».

اضطر إلى الجلوس على العشب الغارق ليلبسه، وكان باردًا مبلولًا عند الفخذ، ثم شرع يشدُّ الحذاء: «تبًّا... سحقًا... هذه الأشياء ضيِّقة جدًّا!»، ثم رمى أحدها غضبًا، فتدحرج في العشب حتَّى استقر عند قدمي أحد الناهبين، رجل مظهره بغيض يملأ وجهه الثآليل. نظر الرجل إلى الحذاء، ثم إلى بالثازار، بنظرة مشحونة.

فردَّ بالثازار النظرة بأقلِّ ود، وهو يخطو حافيًا إلى جثة أخرى، وقرفص بجانبها. قال: «أنا رجل يحبُّ الزوَّار المفاجئين، لكن سرقة الموتى -كقضاء الحاجة- الأفضل أن تكون بلا جمهور».

قال الرجل وقد أمال بصره في حيرة ثؤلولية الطبع: «هذا كلُّه لنا».

قال بالثازار وهو يُلقي ببصره في الوادي: «عظيم، أقتلتموهم جميعًا؟».

قال الجامع الثؤلولي وقد عقد ذراعيه، وازداد حنقًا كل لحظة: «لا، ولكن... نحن من وجدناهم».

قال بالثازار: «هذا ميدان معركة، لا يُحجز كما تُحجز مناجم الذهب. نحن لا نخضع لقانون التعدين هنا. بابتيست، هل تشرحين له؟».

قال الرجل المليء بالثآليل: «هل هو معكِ؟».

فأظهرت بابتيست وجهًا من البراءة المذهلة، وما كان يسيرًا على امرأة ترتدي أناقة الموتى. وقالت: «ما رأيته من قبل قط».

زمَّ بالثازار شفتيه وقال: «أشكر لك دعمك الذي لا يلين».

تجمع نصف دزينة من ناهبي الجثث، وبعضهم يلوِّح بأسلحة التقطها من القتلى. وأشارت امرأةٌ تلفُّ رأسها بخرقة إلى بالثازار بسيف قصير، وقالت: «من يظن هذا الوغد نفسه؟».

قال الرجل الثؤلولي، وشفتاه تتراقصان بثآليلهما: «آه. من تظن نفسك يا وغد؟».

قطَّب بالثازار جبينه. لعلَّ عودة السروال إليه أعادت بعض ثقته القديمة. أو لعلَّ سخرية بابتيست قد أكلت ما تبقَّى من صبره. أو لعلَّه بلغ حدًّا من الإذلال لم يعُد يحتمل معه ازدراء هذه الحثالة. انتفخ صدره بفقاعة غضب بارد، وفي العشب حول قدميه بدأت الجثث ترتجف.

قال وهو ينهض ببطء: «من أظن... نفسي؟».

وتقلَّص الناهبون رعبًا متوقعًا، فيما نحو عشرين جثة اهتزَّت ونهضت مترنِّحةً معه، ما عدا جنديًّا مسكينًا فقد ساقه، فظلَّ يتعثر. وسقط السيف من يد المرأة، إذ التفت إليها الضابط الشاب، والسائل يتصاعد من أنفه، ورئتاه تتشنجان كمنفاخ مثقوب، وخيطٌ من دماغه يتدلَّى من فجوة جمجمته.

قال: «اسمي بالثازار شام إيفام دراكسي». ونطق كل مقطع بدقة مهلكة: «وعليك أن تعلمي أنني أقف على حافة قاتلة، وقد بلغت نهايات صبري. والآن...»، وخطى نحو الرجل الثؤلولي حتَّى كادت أصابع قدميهما تتلامس. وبنظرة سريعة، بدا أن قياس القدمين متقارب. قال: «أظن أنك ترتدي حذائي».

34

عَضَّة راهب

قالت ڤيجا، وهي تمشي في الرمل المتموِّج بخطى واثقة: «من هنا». وكانت تطرب لما تلامس الحشائش الرملية والرمال المُعشبة أصابع قدميها. لا تفرح أبدًا كما تفرح عند الماء. الشواطئ، والخلجان، والمرافئ، والأرصفة. ذلك الشريط المموج من الأرض حيث يلتقي اليابس والمالح، فيتلاقيان ويصطرعان ويتعانقان، ويطحن أحدهما صاحبه حتَّى يُنشئا أشكالًا لم تكن، كعاشقين في خصومة لا تنقضي، ولا يُرتجى لها خلاص.

وما خطر هذا النمط من اللذة في بالها حتَّى سرت في جسدها رعشة.

وهمَّت أن تذكِّر نفسها بشيء أغضبها، ثم رأت أنَّه لا جدوى في التنقير في مكبِّ ذاكرتها السيئة، فلا تجني من ذلك إلا أن تعبس مجددًا. كلَّما راحت بعقلها إلى ماضٍ مؤلم، لم تخرج إلا بصفقة خاسرة. كمَن يغوص في مزبلة ليصطاد لؤلؤًا! فدَعَت الأمر يمضي.

تمتمت: «كقشور الجوز».

قال دياز: «قشور الجوز؟».

فابتسمت ڤيجا بطرف فمها وقالت: «تمامًا!». كانت خطواته طويلة إذا استخدم كلَّ ساقيه، ولم يُثقِل نفسه بصلواته، وشكوكه، وقديسيه، وما شاء من ثقل. قالت: «من كان يظنُّ، يوم التقينا في تلك الحانة، أن نبلغ هذا التفاهم؟».

فنَفَخ دياز وجنتيه وقال: «الحياة كلها عجائب».

قالت: «تبدو مختلفًا. وقد خرجت من كيس الرهبان».

- يسمَّى هابيت.

- فهو إذًا عادةٌ سيِّئة[1].

- ها!

- عادةٌ سيِّئة، لأنه كما ترى...

- نعم، قد رأيت.

- لكنك لا تضحك.

فقال بتنهيدة متعبة: «ما من نكتة عن الرهبنة إلا وقد سمعتها ألف مرَّة. فالرهبان في الأديرة أهل فراغ، ويؤلفون منها كثيرًا».

قالت ڤيجا: «مهما تسمِّه، فأنت مختلف من دونه. أكثر...». وكانت تبحث عن لفظ يُناسب، غير أنَّها شُغلت عمَّا أرادت إذ لفتها ما تراه من قميصه المبتل، يتعلَّق بجنبه ثم ينفصل، مع كل خُطوة يخطوها. كانت ترى هيكل أضلاعه من خلاله، ثم يغيب، ثم يظهر، ثم يغيب، كأنَّه يومئ بطرفه. أضلاعٌ حسنة، تلك، تغيب وتعود...

ثم انتبهت فإذا به يراقبها.

- أكثر ماذا؟

- تمامًا! كأنهم ألبسوكم تلك الأكياس لتبدو شنيعين.

- أحسب أن ذلك هو عين القصد. لقد مرَّ زمن طويل... لم ألبس فيه غير الكيس. وما أردتُ يومًا أن أكون راهبًا.

---

(1) يسمى رداء الراهب habit، وينطق هابيت. ويطابق لفظ (هابيت)، habit، أي عادة، وڤيجا قصدت التلاعب اللفظي بوصفه عادة سيِّئة. واسم رداء الرهبان في العربية هو مِسحٌ للمفرد أو مِسوحٌ للجمع. «المترجمة».

- من كان يظن، يوم التقينا في تلك الحانة، أن نجد بيننا هذا القدر من التشابه. وأنا كذلك، لم أرد قطُّ أن أكون مستذئبة.

- وكيف جرى ذلك؟

قالت: «كما يجري عادةً. عضَّني مستذئب». ثم فتحت زريها العلويين، وكانا قد بدآ يُفتِّحان بأنفسهما، فأزاحت قميصها لتُريه كتفها، وما فيها من آثار العضَّة. رأى حلقة من الندوب المرقطة، تطوِّقها دوائر من الطلاسم.

- ما زال يؤلمني أحيانًا. إذا اكتمل البدر.

قال الأخ دياز وهو يلقي بنظره ملتفتًا: «أهو حقيقة إذًا؟».

وقد تكون مجرد ظنونها، غير أنَّها لَتجزم أن عينيه مالَتا عن موضع العَضَّة شيئًا يسيرًا.

قال: «ما يُروى عن المستذئبين والقمر؟».

وقفت ڤيجا، وأغمضت جفنيها. مجرَّد الكلمة. البببببببدر. رأته من خلف جفنها مستديرًا مُتخمًا، مُعلَّقًا في سَواد الليل، يرسل ضوءًا فضيًّا رطبًا ساحرًا، كأنَّه ثمرٌ ناضج في السماء يوشك أن ينفجر بأحلى عصير. فأطلقت صوتًا ليس عواءً، بل أنَّةً شَجِيَّة بينهما، وارتجف بدنها من رأسها حتَّى أطراف أصابع قدميها.

همست: «أجل، هو حقيقي».

قال دياز وقد سَعَل: «حسنًا».

قالت وهي تعاود السير وتغلق أزرارها: «وأنت؟».

- هو عندي... قمرٌ فقط.

- لا، أعني، كيف صرت راهبًا؟

- كالعادة. عضَّني راهب.

حدَّقت إليه جانبًا وقالت: «حقًّا؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لا. ليس حقًّا.

فقالت: «آه! آه ها! من كان يظن، حين التقينا في تلك الحانة، أنك ستكون من الظرفاء!». وضربته ملاعبةً على عضده، ويبدو أنَّه لم يستمتع بها. وما كانت قطُّ لتستوعب أنَّ لكم الناس ليس دائمًا من الصواب. ذكرت نفسها بذلك، ثم نسيت من فورها، فضربته ثانية.

قال، وهو يفرك ذراعه: «نذرت النذور. اخترت ذلك».

- أبصرتَ النور إذًا؟

ركل دياز الرمل المُعشِب وقال: «شيء من هذا القبيل».

قالت ڤيجا: «أودُّ لو أبصر النور. حاول الناس أن يُروني إياه، لكنك لا تستطيع أن تُبصره إذا لم يُكتب لك. وأظلُّ أفكِّر، إن أفقتَ ذات صباح وأبصرت النور، فمن ذا الذي يزعم أنك لن تُفيق في الغد على نورٍ آخر؟».

قال الأخ دياز، وعلى وجهه عبوسٌ مشوب بالحيرة: «حسنًا... الشيء إمَّا أن يكون حقًّا وإما لا، أليس كذلك؟ ولا يتوقَّف الأمر كلُّه على من تسأل... أليس كذلك؟».

قالت: «بعض الشيء. أعني، حتَّى المخلَّصون في الغرب والمخلَّصون في الشرق بينهم انفلاق، أو شيء من هذا القبيل».

- انشقاق.

- كما قلت. وما هو أصلًا؟

- شِقاقٌ عظيم وخلاف بين جناحي الكنيسة! حول الطبيعة الثلاثيَّة للإله، والألفاظ الدقيقة لصيغة الإيمان، وهل يُؤخذ بالدائرة أو بالعجلة رمزًا مقدَّسًا، وهل ينبغي أن يكون القساوسة نساءً على مثال المخلِّصة، أم رجالًا على مثال أبيها، وبالطبع، خلافات مرَّة خاصَّة بشأن تحديد تاريخ عيد الفصح...

وكان صوته قد بدأ يضطرب، وكأنَّ الحيرة طالته، وهو راهب.

- لا حاجة إلى الغوص في التفاصيل...

- هذه من رحمة الرب. لكنَّ البابا طرد رئيس الأساقفة من رحمة الكنيسة، ثمَّ طرده رئيس الأساقفة... أو لعلَّها بالعكس...

- أيًّا يكن. أمامك صوتان للإله على الأرض يصيحان بعضهما فوق بعض.

ثم رفعت إصبعين، وأتبعت ذلك بعدٍّ متواصل: «ثم عندك أتباع الدروس الخمسة، وعندك المشكِّكون أيضًا. ثم طوائف لهذا القدِّيس أو ذاك، وملائكتك أو ملائكتي، وأجناس شتى من عبدة الأوثان، والعرافين، والشامانات، وعبدة الأرواح، وعبدة الشياطين، قبل أن نبلغ الإلفيين وما يعبدونه من كائنات مظلمة جائعة كثيرة الوجوه».

وكانت قد فرغت من أصابعها فعادت تعدُّها بالعكس، ثم رفعت يديها استسلامًا.

قالت: «كلُّهم يوقنون أنَّ الحقَّ معهم، لكنَّ لكل منهم حقًّا مختلفًا، أليس كذلك؟ على أي حال، أنا معروفة بكوني حمقاء حمقًا فادحًا، فماذا عساي أن أعرف؟ إن كنتَ قد رأيت النور، فهنيئًا لك، فالعالم موحش الظلمة بما فيه الكفاية من غير...».

قال الأخ دياز، صارخًا: «لم أصبح راهبًا لأني رأيت النور!».

وكان قوله تنبيهًا في أوانه، إذ إن ڤيجا نسيت أصل الحديث برمَّته.

- لقد ارتكبتُ... خطأ.

- أصبحتَ راهبًا عن طريق الخطأ؟ كنتُ سأُسائل عن تلك الخِيشة قبل أن...

- لا! ارتكبتُ خطأ، فاضطررت إلى أن أصير راهبًا.

شعرت ڤيجا بوخزٍ يسير من الاهتمام.

- هل قتلتَ أحدًا أيها الأخ دياز؟

- لا!

- لن أحكم عليك. أنا نفسي قتلتُ عددًا من الناس.

- رأيتُك تقتُلين أكثر من ثلاثين بأمِّ عيني! ولم أقتل أحدًا!

- إذًا فماذا سرقت؟ هل كانت شمعدانات؟ أم فطيرة؟ أم... مهلًا، سأصل إليها...

- أستسردين كلَّ شيء في الوجود؟

قالت ڤيجا وهي تهز كتفيها: «لدينا متَّسع من الوقت».

أغلق الأخ دياز عينيه: «لم أسرق شيئًا».

- هل كان لحم الخنزير المقدد؟

وقد جعل ذكر الفطيرة فكرها ينصرف إلى الطعام.

- لا.

قالت، وفيها رجاء: «جبن؟ بزاليا؟».

فقال الأخ دياز، وهو ينبح الكلمة: «حملت فتاة!».

ثم تنفَّس زفرة طويلة، وقال بصوت ألين: «هاك الحقيقة الشنيعة. ولمَ أُخفيها في هذا القَفر؟».

ورفع رأسه وصاح نحو السماء: «حملت فتاة!». لكن الريح خطفت صوته، فلم يُسمَع له صدى.

قال، وعلى وجهه كآبة: «الفتاة الخطأ. أشدُّهن خطأ ممن تُتاح».

قالت ڤيجا، بصوت خافت: «أتخفي يا أخ دياز ماضيًا شهوانيًّا؟».

قال ناظرا إليها مباشرة: «كلا. بل أُحدِّثك عنه صراحة. كنت طائشًا في فتوتي، فحملت الفتاة الخطأ. قالت أمي إنَّ نذور الرهبنة هي السبيل الوحيد للخلاص. للستر. لئلا تُفضَح العائلة».

قالت ڤيجا، وهي تعبث بأُذنها التي لا تزال فيها رطوبة: «أوه، خاب ظنِّي قليلًا».

قال دياز، وقد زمَّ شفتيه: «من كان يظن، حين التقينا في تلك الحانة، أنك وأمي بينكما هذا القدر من التشابه».

- ليس بك، بل بآثامك.

ثم حركت رأسها يمنة ويسرة لكن الرطوبة لم تتحرك من أذنها: «فأنا على ما أنا عليه، قد سمعتُ وشهدتُ، بل واقترفتُ، ما يفوق ذلك من الفواحش الشيطانية».

ثم كفَّت عن التحريك وأخذت تضرب أُذنها بكعب يدها وقالت: «أن تضاجع فتاة خطأ؟ ما كنتُ لأدرجه في سجلِّ الأسرار المخزية. بل لا أضعه حتَّى قريبًا منه. آه!».

انفجرت الفُقاعة في أذنها، وسال ماء دافئ بلذاذة. قالت: «هاه! خرجت! عمَّ كنَّا نتحدَّث؟».

قال دياز، بصوت خافت: «الفتاة الخطأ».

- صحيح. ينبغي أن تنفض الذكرى عنك. وتزيحها.

ومسحت أُذنها ونفضت ما فيها من ماء.

قال هو، مغتنمًا قولها: «كقشور الجوز؟».

قالت، وهي تضربه ثانيةً: «تمامًا! إذا أكلت اللُبَّ، فلا تُبقي على القشور، أتبقى تحفظها وتجرُّها في أكياس على شكل تلَّة؟ ولا تنام على كومة منها كالمجنون؟».

وكانت تفاصيل القصة قد بدأت تذوب، وما بقي في ذهن ڤيجا إلا خلاصة واحدة: أن شهوة الأخ دياز قابلة للتأجج.

قالت فجأة، وقد أشارت إلى بعض القُمامة المتناثرة على الشاطئ: «أوه، أنظر! لا بُدَّ أنها انجرفت من الحطام».

قال دياز، يعدو نحوها: «ربما جرف البحر الآخرين أيضًا!».

وكان صندوق عظيم يرقد على الرمل، تحيطه آثار أقدام، وقد كُسر قفله ودُفع غطاؤه.

قال وهو يتطلَّع إليه: «ثياب».

سحبت ڤيجا سترةً زاهية اللون، تنسجها خيوط لماعة، وقالت: «ثياب لغدٍ متأنق».

ثم شمَّتها، وشمَّت حول الصندوق، وانحنت تشمُّ آثار الأقدام أيضًا. قالت: «أليكس مرَّت من هنا».

قال دياز: «أتعرفين رائحتها؟».

- أعرف رائحة كل أحد.

- لكل أحد رائحة؟

- أوه، بلى.

نظر دياز إلى نفسه وقال: «وأنا؟».

قالت: «أوه، بلى. وساني كانت هنا أيضًا».

- ما رائحة ساني؟

- تعرف، شيء من الملوحة. تلك الرائحة المالحة التي تفوح من الإلفيين. ولم يكونا وحدهما.

ثم هَوَت على يديها وركبتيها، وأنزلت أنفها إلى الأرض، وأخرجت لسانها لتتذوَّق الأثر.

- رجال... نفرٌ من الرجال... نفرٌ من الرجال قلَّما عرفوا الاغتسال.

- ما الذي كانوا يبتغونه؟ أكانوا يطاردون الأميرة أليكسيا؟

قالت ڤيجا، وهي تعقد حاجبيها: «أنا مستذئبة، لا عرَّافة».

- صحيح. عذرًا.

قالت: «كان معنا عرَّاف من قبل، لكن ليس لوقت طويل. وما تعلَّمته منه... أنَّ الجهل في الغالب أهون. مضوا من هذا الاتجاه». ثم خطت بضع خطوات على أربع، وجلست على عَقِبيها تشمُّ الريح. وقالت: «ربما توخوا الحذر. أو أنهم يُطاردون». ثم زحفت فوق كثيب، وشمَّت الحشائش المنتوفة التي اقتُلعَت من أرضها حيث الرائحة أقوى. قالت: «انتظروا هاهنا... ثم مضوا هناك». وأشارت إلى الأشجار، ثم تجمدت، وقد ضاق بصرها.

- ما الأمر؟

- رائحة أخرى.

ثم زحفت تشم حول الحُفرة، تُزاحم رائحة البحر، ورائحة الإلف، ورهبة الأميرة، ورائحة الأخ دياز المُشتِّتة... وإذا بها...

انفرجت شَفَتاها، ومنخراها قد انفتحا، وأحسَّت الذئبة تفيق من سباتها، تخطُّ ببراثنها صدرها من الداخل، تريد الانطلاق، فخرج صوتها من حلقها همسًا غليظًا، وخرخرة تحذير.

قال دياز، يهمس وقد ارتسم عليه الذعر: «ما الذي شممته؟».

رفعت ڤيجا رأسها، وزمجرت بالكلمة، وقد صارت تغرغر بغلظة تحت ضغط اللعاب الغاضب: «مستذئب».

35

مجموعة الأعداء الحالية

قرفصت ساني في الأدغال المبتلَّة، في الظلمة المتجمِّعة نحو المغيب، تراقب مجموعة أعدائها الحالية. أربعة رجال، وامرأة، ومستذئب.

كانت تقضي من وقتها أكثر ممَّا تحبُّ وهي تحبس أنفاسها، وتنسلُّ، وتتوغَّل، وتتزلق عبر نباتاتٍ مبتلَّة. وكذلك في المناطق الطينيَّة الزلقة، وعليات بخيوط عنكبوت، وخنادق، وسراديب سفلية، ومجاري. وكانت تؤثر الجلوس في غرفة جافَّة في العلن، على كرسي وثير، تتنفس بيسر، ويُؤخذ برأيها بكلِّ جدٍّ، مثل الكاردينالة زيزكا.

لكن يعقوب على حق. لن يجعلوا من عدوِّ الربِّ كاردينالًا، وكان حريًّا بها أن تقبل بذلك. فمن ذا الذي يختار موضعه أصلًا؟ ليس لك سوى أن تُحشر في الموضع الذي يضعك به هذا العالم، بحسب حظِّك وما تحسنه. ساني جاسوسة بالفطرة، لكنها صاحبة أسوء حظ على الإطلاق.

فلبثت منحنيَّة كما العادة، في الظلال كما العادة، ونفسها محبوسٌ في الأغلب، وكتفاها مقبوضتان في الغالب من البرد، تتطلع من خلال الخُصَلِ المبتلَّة نحو النار.

جلس الرجال الأربعة والمرأة على جانب منها، يتبادلون الحديث قليلًا، ويتناولون قارورة، ويُشرفون على قدرٍ يتصاعد منه البخار، ويشحذون ترسانة من الأسلحة.

أما المستذئب فيجلس على الجانب الآخر، وليس معه سوى سكين صغير، يبرق ضوء النار على نصله وهو ينحت عصا. ليس فيه ما هو شرِّير، لكنَّه أضفى عليه من الوحشة ما يضفيه وضع الجماجم فوق بعضها. فلعلَّك، متى ما علمت أنَّ أحدهم قد يتحوَّل في طرفة عين إلى وحشٍ مزمجرٍ كالثور، عدت ترى كلَّ ما يفعله شريرًا!.

تنهدت ساني، من قرارة جوفها.

الصداقة عندها تُبنى في سنين، أما الأعداء فينهضون لها كما ينبت الفطر بعد المطر. تطلُّ من نافذتك في الصباح، فإذا بالعشرات منهم. وليس كأنها ملكت نافذة من قبل طبعًا. فهم أكثر الوقت يحبسونها في سرداب. ولما تذكرت الفطر، جذبت حفنة أخرى من «هموم الراهبة» المبعثرة بين الجذور، وأضافتها إلى قبضتها. هذه الكمية لا تقتل آكلها، لكنَّها تشغله تمامًا بإسهال عن ملاحقة أيِّ إمبراطورة مزعومة. أو أيِّ إلفٍ خفيٍّ، أو شيء من ذاك القبيل.

فكرت في أنسب طريقة لتُدسَّها في الحساء، إذ طرق سمعها وقعُ حوافر، فحبست أنفاسها وغاصت أعمق بين الجذور. وإذا بالرجال الأربعة والمرأة يمسكون بأسلحتهم، لكن لما رأوا الفرسان يخرجون من بين الأشجار إلى النور، أطلقوا تلك الابتسامات التي لا تكون إلا لمن تنتظر قدومه.

أعداءٌ آخرون، إذًا.

هزَّت ساني رأسها برفق. وعلى الجهد الذي تبذله ليحبها الناس، كان عجيبا كم أن أعداءها يتزايدون. عدَّت ثمانية فرسان، يتقدَّمهم رجل برداء ذهبي عظيم مرفوع فوق كتفيه ومُنسدل على عجز فرس حرب متوتِّرة. وقد علِمت ساني في السيرك أنَّ المرء يُعرف من تعامله مع دابَّته. والطريقة التي لوى بها هذا المغطَّى بالرداء اللِّجام جعلتها تراه أحمقَ تمامًا، ولم يكن رفاقه أفضل منه. ففيهم رجل طويل ناحل، بشعرٍ متدلٍّ، ينظر إلى كلِّ شيء نظرة من يوشك أن يأكله، وامرأتان شامختان

متشابهتان، حليقَتا الرأس، في ملامحهما حدَّة المطارق، ولهما مسحة سحرٍ واضحة. وبذلك صار عدد الأعداء أربعة عشر، أقوياء، عازمين، ومستعدِّين. ولم يكن بقاؤها في الأدغال المبتلَّة قطُّ أكثر إغراءً من الآن. لكنها إن لم تفعل شيئًا، قبضوا على أليكس غدًا، أو بعد غد. فجذبت نَفَسًا حتَّى أقصى تجاويف صدرها، وأطبقت أصابعها على «هموم الراهبة»، واندفعت إلى الأمام.

قال الرجل ذو المثقاب، وهو ينهض بابتسامة البائع: «الدوق ساباس!».

قال ذو الرداء، وصوته ناعم كالدبس: «وأين الآخرون؟».

هو ساباس إذًا.

يبالغ أبناء خالة أليكس في التأنق، لا ريب. وساني تفضل شيئًا من المبالغة في ثيابها، لكنَّ عمل الجواسيس يقتضي التخفِّي.

قال ذو المثقاب: «جيني الواعدة وأتباعها على الساحل، وزمرة أنجيلو مضوا في الجهة الأخرى». وكأن الاحتمالات لم تكن بالسوء الكافي من قبل.

قال: «وقد أرسلنا في طلبهم...».

ثم توقَّف لحظة، يلحس شفتيه، وينظر إلى المستذئب.

قال: «الدانماركي شمَّ رائحتها».

قال الدانماركي، ولم يرفع بصره عن نحتِه: «ليست وحدها».

وكان صوته كتصادم جبال الجليد مع زمرة من الدببة الغاضبة، حتَّى اقشعر عنق ساني.

قالت إحداهما، وهي تضيق عينيها ويلتمع فيهما ضوء اللهب: «ومن معها؟».

قال: «من الرائحة... إلف».

فللمستذئبين أنوفٌ بالغة الحدَّة.

وكانت ڤيجا تشمُّ ساني حتَّى في الظلمة. وتقول إنَّ لساني رائحة ملح إلفية، وساني تجد في ذلك ظلمًا، إذ إن رائحتها ككومة تبنٍّ مبتلٍّ. فتأكَّدت ساني أن تقف دائمًا في الجهة المعاكسة للريح وهي تزحف خلال العشب نحو النار.

قال الرجل النحيل، بازدراء: «إلف؟ هنا؟».

رفع الدانماركي بصره عن السكين، وارتسم ضوء النار على وشوم التحذير المنقوشة على وجهه العكر.

قال، وقد أضاف إلى صوته خنَّة لعاب: «أعرف رائحة الإلف. تلك الرائحة الإلفية المالحة».

تمتمت ساني، وقد همَّت أن تشمَّ إبطيها لتكذِّبه: «تبًّا...».

جلس ساباس عند النار، وراحت عباءته الذهبية تنسدل حوله، وقال: «لا أظنُّ أنِّي أعجز عن تدبُّر فتاة صغيرة، وإلفًا مالحًا».

قالت ساني، هامسة: «سنرى...».

وكان المرتزقة يتسابقون في الضحك المتفاخر، فشهقت ساني نفسًا جديدًا، أطول، وحبسته، ثم اندفعت نحو الخيل. نزع فتى صغير سروجها وراح يربطها، لكن الخيل أحسَّت بقدومها، فاضطربت، وصهل حصان ساباس الكبير، وعضَّ الفرس بجانبه. ربَّت الفتى عليهم، وأسكتهم برفق، فأشفقت عليه ساني قليلًا. فلا ريب أن هناك من يُلقى عليه الملام دائمًا، وقد حُمِّلت هي أكثر مما استحقت في زمانها. لكنها لم تشفق عليه كما كانت لتشفق على نفسها لو داهمها ذاك الجواد الحربي. فمالت إلى الأمام وأخذت مقبض خنجره، ثم نكزت أذنه فاستدار فجأة مجتذبًا الغمد معه، وتركها ممسكة بالنصل المجرَّد. انسلَّت من تحت ذراعه وهو يلتفت فاركًا أذنه، ثم انكبَّ على ركبتيه ومعه حبل ليقيد الخيول.

أدى عمله بعناية بالغة، شدَّ العقد بإحكام، وتفقَّد كل واحدة منها بدقَّة. غير أنَّ عيبه أنَّ ساني تتبعه من ورائه، أضلاعها توجعها من طول

حبس نفسها، فتقطع كل رباط بخنجره حال فراغه منه. ثم نهض، وصفَّق بكفَّيه مسرورًا بما أنجز. حينها انسلَّت ساني إلى جوار الفحل، فجعلته يرقص، وعينه تدور نحوها.

قال الفتى وقد رأى غمده خاليًا: «ما الـ...؟». ثم أبصر أن رباط أقرب فرس قد قُطع. ثم رأى أنَّها كلها قد قُطعت. ولو أنَّ الخيول كلها سُرقت، لكان أفضل حالًا، لكنها الآن مضطربة، تتدافع، بلا سروج، والأنذال عند النار بدؤوا ينتبهون. أحيانًا لا بُدَّ من تلقي خططك ثم تنساب مع الريح.

فلما بدأ الفتى يتقدَّم نحو الخيول، عبست ساني تعبيرًا عن اعتذار، ومدَّت قدمها فاعترضت ساقه ليتهاوى في العشب. ثم عبست اعتذارًا أشدَّ، وضربت مؤخرة جواد ساباس بكل ما استطاعت. فنهض الجواد وانطلق كالرصاصة، وأربطته المقطوعة تخفق. وكأن بقيَّة الخيول لا تزال مربوطة به، فقد اندفعت كلها معه وسط صهيل وتزاحم.

زمجر ساباس: «أيها الأحمق!»، ثم وثب واقفًا، واضطرَّت ساني إلى أن تدور حوله دورةً كاملة كي لا يصدمها.

ودت لو غرزت سكينًا في خاصرته وهو يمرُّ، لكنها لا تفضل الطعن حين تستطيع تجنبه. فإنَّ من تجاربها، كل من أكثر الطعن، سُرعان ما انتهى به الحال مطعونًا.

قال الرجل النحيل مشيرًا إلى الباقين: «أمسكوا الخيل!».

صرخ الفتى: «ليس ذنبي! لقد سُرق خنجري!».

- إنها هنا.

فإذا بالدانماركي ينقضُّ على ساني كأنَّه مبنى بأسره، وتناثرت رُقاقات الخشب من نَحتِه على صدره. قال: «الإلف. أشمُّ رائحتها».

وشمَّتها ساني أيضًا. حتَّى وهي تحبس نَفَسها، فاحت منه رائحة كومة قشٍّ أعفن من رائحة ڤيجا. أمال رأسه، وخطا خطوة مفاجئة،

فاضطرَّت إلى الانحناء تحت ذراعه تدور حوله من الخلف. وحينها كادت رئتاها تنفجر، فاستنشقت نفسًا خاطفًا، مستغلة ستر جسده، إذ كان الآخرون منشغلين بمطاردة الخيل، ثم أخذت تدور حوله في قوس، تظلُّ من خلفه وهو يدور.

قال، وقد رأته يشمّ الهواء يبحث عن رائحتها: «أين أنتِ يا مشاغبة؟ هلمَّ، يا لُوكي الصغيرة!».

قالت إحدى الساحرتين، وقد قبضت على بلَّورة تتدلَّى من عنقها، وأغمضت عينيها، وشرعت تهمهم: «لقد اختبأت، ولكني سأجدها...».

فقاطعها صراخٌ إذ دفعتها ساني من ظهرها دفعةً جعلتها تهوي على وجهها في النار. عانق المستذئب الهواء بكلتا ذراعيه الضخمتين حيث كانت ساني، لكنها ارتمت سلفًا، وانسلَّت بين قدميه الثابتتين، وتخطَّت ألسنة النار، ناشرة حفنةً من «هموم الراهبات» في القدر في أثناء مرورها، وقفزت فوق الساحرة التي تتقلب على الأرض تحاول نزع الجمر المشتعل عن ثيابها الفضفاضة.

حقًّا، من يرتدي عباءة في مطاردة فليتحمَّل ما يناله.

صرخت توأمها: «أختي!»، وعيناها تتقلَّبان في جنون، ثم بسطت راحتَيها، عاقِدَةً كعبي كفيها معًا. فانبعثت ريح من حيث لا يُعلم، ومرَّت كموجة في العشب، فدارت السيقان في دوَّامة. ولحسن الحظ، كانت ساني جالسة على الحافة القصوى للنفخة، فلم تنل منها سوى جرٍّ طفيف من كمِّها، وتفجير في أذنيها، وكادت تُنتزع من موضعها.

لم تنتظر مزيدًا من المحفزات، وولت مسرعة نحو الأشجار بأقصى ما أوتيت من خفة. لكنها سمعت وقع الأقدام المسرعة خلفها، فلم تلتفت، وحبست أنفاسها رغم خفقان قلبها ورنين أذنيها، ثم انزلقت على جنبها إلى الأدغال حيث بدأت. وكان الدانماركي يطاردها، واثبًا على أربع في الأرض المكشوفة، أقرب إلى الوحش منه إلى الآدمي. فتشهقت نفسًا

عجلًا، ثم تسلَّلت إلى الأشجار. وسمعته يقتحم الأدغال خلفها، وزمجرته المتدفقة بالكاد تُعد صوتًا.

قال: «أين أنتِ أيتها الماجنة المالحة؟».

وربما رأى البارون ريكارد في ذلك خرقًا للذوق، لكن ساني آثرت ألا تُعرِّف بنفسها. بل مضت تنسج طريقها بين الأشجار في دوائر تتسع، وصيحات ساباس ومرتزقته تذوي بعيدًا، تجرُّ المستذئب في رقصة لولبيَّة في الغابة المظلمة حتَّى ما عاد يدري أي أثر يتبع. تنفَّست قليلًا وهي ملتصقة بالجانب المعتم من جذع شجرة، ثم تلاشت عن الأنظار، وانسلَّت مبتعدة، وتركته هناك يعضُّ ويزمجر ويشمُّ ظلال السواد.

وقد أوشكت الشمس أن تنحدر كلها، وما كان الظلُّ قليل.

قالت ساني: «أليكس!»، وقبضت على مرفقها.

قالت أليكس مبتسمة: «عدتِ»، وتلك البسمة هدَّأت شيئًا من فزع ساني. لَطيفٌ أن تملك بسمةً جذابة. ثم قالت: «هذه ساني، التي كنت أحدثكم عنها».

جثم رجل وامرأة على مقعد عربتهما، مدهوشين من ظهور ساني المباغت. أو مدهوشين من طرف وجهها الذي بدا لهم. فانحنت ساني، وشدَّت قمة قلنسوتها إلى الأسفل.

قالت ساني بصوت أجش: «علينا أن نغادر»، وهي تجرُّ أليكس بعيدًا عن العربة، بعيدًا عن ضوء المشاعل.

فصاحت أليكس من فوق كتفها: «علينا أن نغادر! نرجو أن تعثروا على ولدكم!». ثم همست لساني: «هل أنتِ غاضبة مني؟».

قالت ساني: «نعم». كانت غاضبة لأنها عرَّضت نفسها للخطر. وربما غاضبة من نفسها لأنها أتاحَت لها فرصة التعرض للخطر. غضبًا يفوق

ما يحق لها أو يليق بها. ثم قالت: «كان يجب أن تبقي مختبئة. كما أمرتك».

قالت أليكس: «لا يستطيع جميعنا الاختفاء. وأردت أن أستطلع عن أي شيء. أردت أن أكون نافعة».

فكَّرت ساني أن تقول: «تلك سابقة»، لكنها لم تطق أن تفعل، إذ بدت أليكس منكسرة، فقالت بدلًا من ذلك: «وهل كنتِ نافعة؟»، وأفلتت ذراع أليكس، ثم أحسَّت ببعض الذنب، فربَّتت على سترتها المتَّسخة حيث كدَّرتها.

قالت أليكس: «ثمَّة حرب دائرة. بين كونت نيكسيك وكونتيسة...». عبس وجهها: «لا. نسيت اسمها».

قالت ساني: «يتقاتلان على ماذا؟».

- أمور عليا القوم على ما أظن. ليسوا مثلنا، أليس كذلك؟

- تقولين هذا وأنتِ إمبراطورة طروادة المرتقبة.

قالت أليكس: «وسأظل أعيب طبقة الحُكم حتَّى تهوي مؤخرتي على العرش».

قهقهت ساني. لم يكن بوسعها أن تظل غاضبة من أليكس: «وهل من شيء آخر؟».

قالت أليكس مشيرة نحو التلال المعتمة: «طروادة من ذلك الاتجاه. حصلت على بعض الخبز». وأخرجت كِسرة يابسة، فأصدر بطن ساني صوتًا مسموعًا من فرط الجوع، ولم تدرك قدر جوعها حتَّى تلك اللحظة. قالت: «شكرًا»، متذمِّرة.

قالت أليكس وهي تشير برأسها إلى العربة التي أخذت تتوارى في الظلام: «اشكريهما، على ما أظن. لم يكن لديهما الكثير».

أغمضت ساني عينيها وهي تمزِّق قطعة صغيرة. كانت قاسيةً. وكانت يابسة. وكانت لذيذة. مضغتها ببطء، وابتلعتها ببطء.

قالت أليكس: «هل وجدتِهم؟ الذين يطاردوننا؟».

قالت ساني: «نعم».

- كم عددهم؟

- قليل.

وفكَّرت في ذكر الأسلحة كلها، والرجل الهزيل ذي العينين الصلبتين، والتوأمين الساحرتين، والدانماركي، لكن يعقوب يقول أحيانًا: لا أحد يريد سماع الحقيقة كلها، فاكتفت بالأخبار السارَّة: «أبطأتُ حركتهم قليلًا».

- وكيف فعلتِ ذلك؟

- بعثرتُ خيولهم. سمَّمتُ طعامهم.

رمشت أليكس: «ذكِّريني ألا أزعجك».

قالت ساني: «لن أسمَّك إن أزعجتني».

- أرحتني.

قالت ساني: «سأدعك فحسب، وأترك القدر يفعل فعله».

قالت أليكس: «آه».

قالت ساني: «ابن خالتك ساباس هناك».

رفعت أليكس بصرها: «كيف كان؟».

قالت ساني: «بدا طيبًا جدًّا، في الحقيقة، لا يشبه إخوته البتة».

- حقًّا؟

- كلا، غير صحيح. كان سيئًا بقدرهم، وربما أسوأ. كان له عباءة من أحمق ما يكون.

خدشت أليكس جانبي رأسها بأظفارها: «تمضي حياتك تحلم بأنك مميَّز. أن لك عائلةً في مكانٍ ما. ثم يعثرون عليك، ويتبيَّن أنك فعلًا مميَّز. مميَّز حتَّى إنهم يريدون قتلك ليسرقوا إرثك».

قالت ساني: «لا يزال خالك موجودًا».

قالت أليكس: «الدوق مايكل؟ إن عاد حيًّا إلى المدينة المقدسة، ولم يقتله أبناء خالتي بعد».

قالت ساني، ماضية في التماس الأخبار الحسنة: «إن أبحر من أنكونا كما كنا نُفترض أن نفعل، فلعلَّه في طروادة الآن، يتهيَّأ لاستقبالك، مع تلك الصاحبة التي ترافقه، السيدة فلانة».

قالت أليكس: «سيفيرا. ربما. أظن. آمل». وبدت أقل اقتناعًا.

قالت ساني، ناظرةً نحو العربة، ولم يبق منها سوى مشعلين يلمعان في الظلام: «كيف تفعلينها؟ تكسَبين الأصدقاء؟».

قالت أليكس: «تبدئين بالكلام، وترين إلى أين يصل الكلام. تسردين عليهم قصة يحبُّون سماعها».

قالت ساني: «لا أحد يرغب بسماع قصتي».

هزت أليكس كتفيها: «فاسردي لهم غيرها».

- لا أجيد الكذب.

- فاحذفي منها الأجزاء السيئة، حتَّى لا يبقى إلا الجزء الجيد.

قالت ساني: «إن حذفت الجزء السيئ، فلن يبقى إلا الصمت». ثم صاحت بومة من جهة الغابة، نداءً واهنًا موحشًا، وأكملت: «ما استطعت قط أن أصاحب أحدًا».

وساد الصمت إذ واصلتَا السير في الظلمة المتكاثفة. شعرت ساني بنظرة من أليكس إليها، ثم انصرافها.

قالت أليكس: «لكِ صاحب الآن».

36

دعوتُنا السماويَّة

استفاق يعقوب على طعنة من الألم ومذاق دم قديم.

فقال في نفسه: «إذًا... ما زلت حيًّا».

وكل مرَّة يدرك ذلك، تكون عليه مسحة من الخيبة. فالألم ومذاق الدم هما رفيقا صباحه المعتادين بالطبع، غير أنَّ فراشه ما كان ليهتزَّ هكذا، ولمَّا حاول أن يتحرَّك ثم أنَّ واستسلم، تضاعف الألم، وكل نفضة كأنها رمح في صدره. ويعقوب خبير بشعور الرمح في الصدر.

ثم تنبّه إلى صوتٍ، قعقعة طحنٍ فيها صرير، كعجلات لم يُدهن محورها منذ دهر، ثم رائحة نتن لحمٍ فاسد ومذبح قديم، ثم صلابة، كأن ألواحًا خشبية تنهك لوحي كتفيه. فتجلَّى له كل شيء. لقد وُضِع في عربة الجِيف. ثانيةً.

كيف انتهى إلى هنا؟

طفا على سطح ذاكرته طيفُ كمين نُصب لفرقته في طريقها إلى كركَسون، وصيحة من مؤخرة الرتل... لا، لا، ذاك من سنين. تذكَّر أيَّام الشفاء الطويلة، يعرج في أروقة الدير، ثم المجلس، ومجلس الكهنة العابسين، حين قال لهم أن يذهبوا إلى الجحيم. هل سقط يقاتل ذاك الغول عند حدود بروتانية؟ أول ما يُقال للجندي: لا تقاتل غولًا.

تذكَّر نفسه بين الأجساد، وأصابعه المخضَّبة تمتد نحو تمثال صغير للقديس ستيفن، وقد تحطَّمت من درعه المكسورة... لكن ذاك أبعد عهدًا. وقد تبدى وجه القديس ستيفن، من متفهِّمٍ إلى متَّهم، خلال تلك الشتاءات الثلاثة الصعبة، فطرح التمثال الصغير في قبر خازي معه.

وقال لنفسه: الموتى أولى بحمايتها منِّي، وأراد أن يقول: الموتى أحقُّ بها، لأنَّهم يستحقُّونها أكثر. وكان ذلك قبل نذره بالصدق.

وفوق ضوضاء العربة، أدرك صوتًا رخيمًا ينساب: «... لكل أمَّة محاسنها، وكنتُ مولعًا ببولندا دائمًا، لكن الريف ما راقني يومًا. ذَبُلتُ في عزلتي كزهرة أوركيد في الظلمة».

قال يعقوب، بصوت اختنق في صدره فلم يكد يسمعه هو نفسه: «أين أنا؟».

فاسترسل الصوت: «... وقد رأت لوكريشا ذلك، كانت رغم فجورها امرأة نافذة البصيرة، فوافقت على ترك المزرعة. بدأنا رحلتنا بين مدن البحر المتوسط العظيمة! لا نمكث طويلًا في مكان، لأسباب بيِّنة، إذ كانت زوجتي تُسرع إلى استنفاد الترحيب. تمتصُّه حتَّى آخر قطرة...».

توقفت العربة بتوقف أخير مرتج، وتأوه يعقوب، فتطاير من بين أسنانه المضمومة بصاقٌ مخضب بالدم.

- آه! لقد استيقظ!

وطلعت إلى ناظريه سحنة البارون ريكارد، بدا أصغر من ذي قبل، وفي شاربه وحاجبيه وشعره الداكن المتدلِّي حول وجهه لمعة فضة، ابتسم كاشفًا عن أنيابه المصقولة بعناية.

وظهرت سحنة أخرى، مذهولة على خلاف سحنة البارون من زهو. رجل مجدور الوجه، يعتمر قلنسوة قبيحة، وقال: «خصيتا القديس برنارد!»، ورسم دائرة فوق صدره: «إنه حي!».

قال البارون ريكارد: «لقد أخبرتك».

- ظننتك مجنونًا!

- أنا مجنون تمامًا، لكنني نادرًا ما أكون مخطئًا.

فتمتم السائق وهو ينكفئ: «الكونت سيرغب في رؤية هذا».

قال ريكارد، خافتًا: «إنها لمعجزة. كيف تشعر؟».

قال يعقوب بصوت أجش، ولسانه يدور في فمه يلتمس ريقًا يائسًا خائبًا كأكثر مساعيه: «كما العادة...».

- بهذا السوء؟

وأحس يعقوب بأيدٍ تمسك رسغيه، فزمجر بين فوج من الأوجاع والوخز والطعن إذ رُفع إلى وضع الجلوس، وأغمض عينيه في ضوء النهار.

دخلت العربة مستشفى ميدانيًّا من خيام متدلية بجوار بستان شجر. واشترك يعقوب فيه مع خمسة آخرين موتى، لكنهم مع ذلك يبدون أفضل حال مما هو عليه. بالقرب، سقى كاهن صفًّا من الجرحى، وأخرى تهمس بهدوء بأدعية الاحتضار، تبل إصبعها لتقلب صفحات كتاب صلاة. وحده الذباب بدا راضيًا بالترتيبات. ومن خلفه سمع خدش معاول حفاري القبور، لكنه لم يطق أن يدير رأسه لينظر. فكل قبر يشابه أخاه، إلا قبرك. قال، مترددًا، إذ كان الجواب العام معلومًا والتفاصيل قلَّما تبشِّر: «ما الذي حدث؟».

أسند البارون ريكارد ظهره إلى العربة بجانبه، وهو يبتسم للمشهد كأنه في سوق قرية، وقال: «كان قتالًا».

همس يعقوب يتحسس صدره حيث الألم يشتد: «في الماء؟».

قال ريكارد: «صحيح، أحسنت. وأنا لم أشارك فيه».

- ليتني لم أفعل.

- العنف نادرًا ما يحل شيئًا.

- لا أستطيع مخالفتك. هل خضت مبارزة؟

فتح ريكارد ذراعيه مشيرًا إلى مشهد وقال: «على مؤخرة السفينة المشتعلة! أنت دومًا تختار أكثر المواضع درامية لمعاركك حتَّى الموت. إنك خسارة على خشبة المسرح!».

- من قاتلت؟

- واحد من أبناء خالة الأميرة أليكسيا. كثير الحلي. قسطنطين أظنه؟

قال يعقوب: «قسطنطين»، ثم أغمض عينيه. عادت إليه ذكرى مهمتهم الأخيرة، أو فشلهم الأخير. اللهب. الرماد المتطاير. السيف المتلألئ.

- كان ماهرًا بالسيف. لا شك أنه ليفوز في نزالٍ نزيه.

رفع البارون حاجبيه وقال: «لكن من ذا الذي يرغب في نزال نزيه؟».

- خصيتا القديس برنارد!

دوَّى الصوت فجأة، وكانت نبرة رجل اعتاد أن يعلو صوته على الآخرين صياحًا فلا يُعارضه أحد، إذ اندفع المتكلم يتخبط بين صفوف الجرحى في درع لامعة، وقد أسند قبضةً ضخمة على قبضة سيف ضخم كأنما صيغ لحكايات الملاحم.

قالت كاهنة، تلهث وراءه، ترفع طرف جبَّتها المطرَّزة عن الطين: «يا سيادتكم، بربك»، بنبرة امرأة اعتادت التأنيب ولم ترَ له جدوى قطُّ.

قال الرجل الضخم، مبتسمًا وهو يقف أمام العربة ويبسُط راحتيه الغليظتين نحو من فيها: «أعتذر، لكن... إنه حيٌّ!».

قال البارون ريكارد: «قلت لكم».

قالت الكاهنة: «لكن، إن أردت الصراحة... حسبناك كاذبًا».

قال ريكارد: «أمهر الكذَّابين لا يكذبون في كل شيء. فمَن يصدِّقهم إذًا؟».

قال يعقوب، وهو يبتلع مزيدًا من الدم: «عفوًا، لكني ما زلت...».

فقاطعه الرجل الضخم، ضاربًا كفَّه بصدره بفخر: «اعذرني! أنا الكونت رادوساف!». وكأنَّ ذاته شرفٌ بحد ذاته.

ثم تابع: «من نيكسيك وبوديمليا، وهذه الأمُّ ڤينتشينزا، نائبة الأسقف إيزابيلا في مدينة راغوزا».

وكانت ألقابًا أثقل من أن يستوعبها من هو في حال يعقوب. رفع أصابعه يتحسس مؤخر رأسه، حيث كان الشعر لزجًا بالدم، لعله دمه، أو دم رُفقائه في العربة، وتأوه.

- تشرفت.

قال الكونت رادوساف، نافضًا اليد من التواضع: «لا، بل الشرف لنا. فأنت في نهاية المطاف، يعقوب الشهير الثورني!».

تأوه يعقوب تأوُّهًا أشدَّ. فعهده بالصدق لا يترك له سبيلًا واسعًا للمراوغة. قال، مقرًّا، وإن بقلب نادم: «أنا هو». وكان يتوب من تلك الحقيقة كل يومٍ وليلة.

هزَّ الكونت إصبعه الغليظة وقال: «أخبرنا صاحبك البارون ريكارد عنك!».

قال يعقوب، وقد عبس وجهه بمزيد من التألم: «وهل أخبركم أمور طيبة؟».

قال الكونت: «ما يُطرب في المآدب قلَّما يُجدي في الحروب».

قال يعقوب: «ولا تقل لي...». وألقى نظرة إلى الجرحى، وقد خامره الشعور المألوف أن الأمر أسوأ مما ظن: «إنكم في قتال».

قال الكونت: «بلى! وأنت فارس مشهور، وبطل، وقائد مقسَم لخدمة البابا!».

دنا البارون ريكارد وهمس في أذن يعقوب، ونفَسه بارد كزفير الشتاء: «اضطررت إلى أن أرفع قدرك بالكلام».

- هل لك قرابة بيعقوب الشهير الثورني، الذي فك الحصار عن كرك في الحملة الصليبية الثالثة؟

تنحنح يعقوب وهو يتفكر كيف يجيب من غير كذب. غير أن البارون سبقه، وربت على كتفه وقال: «أظن أن بينهما دمًا مشتركًا!».

قال الكونت، رافعًا قبضته فرحًا: «كنت أعلم! جدي كان في الحصن آنذاك ولم يملَّ قط من رواية القصة! قال إنها أعظم حملة هجوم رآها في حياته! الإلفيين فرُّوا! أي أسلاف أولي مجد، أليس كذلك؟».

قال البارون: «سلسلة من الخبرة العسكرية، وهي بين يديك».

رفعت الأم ڤينتشينزا بصرها إلى السماء وقالت: «لقد أنزلت المخلِّصة إلى أيدي الأخيار الأدوات التي يحتاجون إليها لخلاصهم».

قال يعقوب من بين أسنانه المطبقة: «تلك عادتها».

قال الكونت: «وقد حدثنا صاحبك عن مهمتك المقدسة». ثم رسم دائرة على صدره بسبابته وقال: «وقد فهمنا أنك تبحث عن أميرة».

ربَّت يعقوب جيوبه بتعب وقال: «يبدو أني فقدت واحدة مذ خرجت من المدينة المقدسة».

قالت الأم ڤينتشينزا: «وطبيعي أن نقف صفًّا واحدًا مع رسول قداسة البابا، ونقدم له كل ما نستطيع من العون».

قال يعقوب: «ولكن ليس مجانًا؟».

فرشت الكاهنة كفيها وقالت: «للأسف، لنا مهام مقدسة نحن أيضًا علينا أداؤها».

قال الكونت رادوساف، مزمجرًا: «لإخضاع يوفانكا، الكونتيسة المتمردة من بيك!».

وأضافت الأم ڤينتشينزا: «ولإحباط طموحات أنصارها من كنيسة الشرق. أولئك الملاعين لابسو العجلات! أما آن لصلف رئيس أساقفة داردانيا أن ينتهي؟».

هزَّ البارون ريكارد رأسه بأسى وقال: «متى يكف أولئك القساوسة اللعناء عن التدخل في السياسة؟».

قال يعقوب، وهو يجر نفسه من العربة: «فخلاصة القول...». كادت ركبتاه تنهاران حين حملتاه، لكنه ثبت واقفًا: «أنتم في حرب حدود...». ثم استقام بألم، وقبض عجيزته بألم، ومدَّ كتفيه بألم، ووقف مستقيمًا قدر ما استطاع: «مع نبيلة مجاورة... أحد الفريقين تدعمه كنيسة الغرب، والآخر كنيسة الشرق».

تلك من الحروب القبيحة التي ينوب فيها المتقاتلان عن الكنائس الشقيقة المتخاصمة منذ ثلاثة قرون. بل تلك تحديدًا الحرب التي جاءت بعثتهم إلى طروادة لوضع حدٍّ لها.

قال الكونت، نافخًا ومزمجرًا، وضاربًا جانب عربة الجثث حتَّى تمايلت على محاورها: «لقد نفذت إلى لبِّ القضية على الفور!». وكان من أولئك الذين لا يقولون شيئًا في هدوء، ولا يفعلون أمرًا في لطف: «فلعلنا نعين بعضنا؟».

قال يعقوب، متمتمًا: «نرجو ذلك».

- أعني، إن أعنتني على إذلال الكونتيسة العاصية في ساحة القتال، أعنتك على تتبُّع أميرتك الهاربة! ما رأيك؟

رأيه أن كارثة ستقع. بل لعلها وقعت فعلًا. قال يعقوب: «بصراحة، في هذه الأيام، أجتنب ميادين القتال».

ابتسم البارون ريكارد وقال: «ولكن بقليل من النجاح».

قالت الأم ڤينتشينزا: «ومهما حاولنا الفرار من ندائنا السماوي، فإن القديسين يهدوننا إليه».

وكان الكاهن ذو كتاب الأدعية قد فرغ من جثة، وبدأ يترنَّم على أخرى. تنهد يعقوب تنهيدة ثقيلة، وقطَّب جبينه من طعنة الألم حيث نفذ فيه نصل قسطنطين.

قال متمتمًا: «رائع».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الشياطين

مكتبة
t.me/soramnqraa

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR



للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان الأصلي: THE DEVILS

● العنوان العربي: الشياطين

● حقوق النشر:
Copyright © Joe Abercrombie 2025

● الطبعة الأولى: يناير 2026م

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

● تأليف: جو آبركرومبي

● ترجمة: نوره العنزي

● تحرير: أحمد حسين

● تدقيق لغوي: محمد عبد العال

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● رقم الإيداع: 31275/2025م

● الترقيم الدولي: 978-977-992-602-5

مكتبة
t.me/soramnqraa

Joe Abercrombie

جو أبركرومبي

مكتبة
t.me/soramnqraa

الشياطين

رواية

ترجمة: نوره العنزي

عصير الكتب

37

السبيل الخطأ

شقَّت أليكس طريقها صعودًا في ذلك المرتقى الذي لا ينتهي. قدماها مكدومتان، عضلاتها تؤلمها، وجوعها يدور بها. أعادت لها رائحة احتراق ذاكرتها عن ذلك الشهر الذي قضته في الغابة تصنع الفحم، ولم تخرج منه بشيء سوى أصابع سوداء وسعال لعين. وكانت لتحسب نفسها في منتهى الحظ إن خرجت من هذه بما يعادل تلك الغنيمة. لقد ظنَّت أن إعلان البابا لها إمبراطورة ضائعة الميراث للشرق سيحملها على الرُّقي في المقام، ولكن، كما بدا، فإن عدد أعدائها ازداد وحسب.

سمعت خُطى سريعة، فاستدارت وقلبها يرتجف، لكن لم تكن إلا ساني تقبل مهرولة. فتنفَّست الصعداء. صديقتها المقرَّبة كانت من الإلف. وهذا حالها الآن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قالت أليكس: «هل لا يزالون خلفنا؟».

قالت ساني: «أقرب من أي وقت مضى».

فمات الزفير في صدرها، ومعه راحتها: «تبًّا».

- نسجتُ لهم أثرًا كاذبًا. ولم يُخدعوا به.

- أمعهم كلاب أو شيء؟

نظرت ساني خلفها، ولسانها يضغط على تلك الفُرجة الصغيرة بين ثنايا أسنانها الأمامية. وقد لاحظت أليكس أن ساني تفعل ذلك حين يكون ثمة ما لا تريد قوله. قالت: «أو شيء. وهم ليسوا وحدهم».

- ليسوا؟

- معهم فرق أخرى، تبحث عنا.

ابتلعت أليكس ريقها. لم تكن تستطيع وصف كم كانت تُقدِّر تلك الـ«نا». وهي تعلم أن من الممكن أن تكون: «تبحث عنكِ». همست: «ماذا نفعل؟».

قالت ساني: «نواصل السير». ومضت تركض أمامها. لم يبد عليها علامات التعب قط. كأنها خيط من سلك يتدلى عليه شعر أبيض منفوش.

وقفت عند القمة، وقفزت إلى جدار بجانب الطريق لتُبصر أكثر، جسد نحيل تخطِّط سواد آخر خيوط المغيب. تسلقت أليكس إلى جانبها، تلهث، ثم توقفت فجأة...

همست: «اللعنة».

في الوادي أمامهما بلدة تحترق. وثمة كنيسة ربَّما، يرتفع برجها المقبَّب كإصبع سوداء في وجه اللهب، ونهر يشقُّ البنيان، يتلألأ بانعكاس النار. ومصابيح دقيقة ترقص حولها في الأرض. ظنَّتها أليكس مشاعل على الطرقات. كان النهب قائمًا أمام أعينهم.

قالت ساني: «ليست الحرب حربًا حقيقية حتَّى يُشعل فيها الحريق». ومنذ أن رمتهم الأمواج، كانت ساني دائمًا تعرف ماذا تفعل بعد، لكنها الآن تنظر في ظلمة البلاد بشكٍّ. قالت: «لا يمكننا العودة من حيث أتينا، ولا أحب الشمال. لعل الجنوب...».

قالت أليكس: «ثمة خيار آخر». ولما قالتها تمنت لو لم تفعل، لكن ساني نظرت إليها الآن، حاجبها الشاحب مرفوع. أومأت أليكس نحو البلدة. وساد بينهما صمت مريب.

قالت ساني: «تلك البلدة تشتعل».

- أعلم.

- تلك البلدة تُنهب.

قالت أليكس: «أعلم! ولكننا مطاردتان، وهم يقتربون، وليسوا وحدهم، وربما هناك... يمكننا...». وبينما نظرت إلى احتراق البلدة، تسرَّب منها اليقين، وانتهى كلامها كسؤال باهت: «أن نفلت؟».

ضيَّقت ساني عينيها، وتصلبت وجنتاها، ولم تقل شيئًا.

- لا أرى سبيلًا غيره. وأنتِ؟

فسارت ساني من جديد، بخطوها الخفيف السريع، تنحدر في الطريق نحو اللهيب. وقالت: «لا».

قالت أليكس، واقفة لحظة أطول، ثم هرولت خلفها: «تبًّا، كنتُ أرجو أن يكون عندك غيره».

قالت ساني: «بإمكانك انتظار ذاك الذي معه المثقاب، إن شئتِ».

كان الصعود شاقًّا، لكنه يحمل رجاء ما خلف القمة. أمَّا النزول، فأليكس أبصرت وجهتها بوضوح، وندمت مسبقًا على أنها فتحت فمها.

قالت: «هذه فكرة سيئة! هذه كمَن يقفز عن جانب الجسر كي لا يسقط من الآخر!».

قالت ساني، ملتفتة تردُّ: «نفدَت أفكارنا الجيدة في البندقية. وربما قبل ذلك. لكن إن كان عندك فكرة أفضل فأنا...». واستدارت ببطء تنظر إلى أليكس بعينين واسعتين لامعتين خاليتين من الضحك: «كلِّي آذان».

قالت أليكس، قابضة على شعرها بكلتا يديها: «يا إلهي».

- كلِّي آذان، لأني من الإلف.

- يا إلهي.

وصل المسار إلى طريق، وبدأتا تمران بأناس قادمين في الاتجاه المعاكس. أناس بؤساء، خائفون، متَّسخون. امرأة تبكي، وطفل بعينين ميتتين. رجل يصيح في السماء، يحمل صرَّة لعلها طفل.

قالت عجوز تدفع عربة يدوية بثلاثة كراسي، بعجلة واحدة تصرُّ في الظلام: «أنتم تمضون في الاتجاه الخطأ».

همست أليكس لساني: «أظنها محقَّة».

قالت ساني، هامسة لأليكس: «تقول بابتيست إن الأرباح لا تُجنى باتِّباع الجمع».

قالت أليكس، ممسكة بكتفها: «سامحيني إن لم أسمع نصيحتها من قاع الأدرياتيكي. المكان فوضى في الداخل!».

قالت ساني واضعة أصابعها على أصابع أليكس، وتفصلها برفق: «الفوضى تخدمنا، الفوضى أفضل فرصتنا». ثم رفعت قلنسوتها، وخفضت رأسها أكثر، وسارت ويدها محشورة في إبطيها. قالت: «الفوضى فرصتنا الوحيدة».

كان هناك نُزل في أطراف البلدة، وقوس من العوارض الخشبية فوق الطريق عنده. المكان مضاء، صاخب، وعازف كمان يزعق، وسمعت أليكس ضحكًا. وهناك جنود عند النار عند البوابة، يتحدثون، ويشربون، ويدفِّئون أيديهم، ويكدِّسون أغراضًا على عربة. ثم رأت أليكس ما كان معلَّقًا من ذلك القوس: أجساد معلَّقة من الأرجل، وأذرع تتدلى. واحد معلق من ساق واحدة، والأخرى ملتوية بشكل غريب. وآخر لعله راهب، فقد سقط رداؤه على وجهه، وكشف عن لباسه الداخلي القذر.

قالت أليكس، هامسة: «هذه فكرة مروِّعة. فكرة رهيبة».

قالت ساني: «ومع ذلك، فهي أفضل ما لدينا». ثم جذبت أليكس عن الطريق، إلى فجوة في السياج، والأغصان تخدشها، إلى بستان مهمل، يعبران عشبًا عاليًا، والموسيقى المجنونة من النزل تتلاشى في الليل.

همست ساني رافعة يدها: «انتظري». فتوقفت أليكس. لم تعلم ما الذي سمعته، ولا ما تنتظره. ثم قالت: «هيا».

وتسللتا، عبر أطراف البلدة، بين أكواخ من قش، وسياجات مهترئة، وأكوام من الأغراض المسروقة من البيوت، أثاث مكسور، ثياب مداسة. وفي الظلام أصوات: صياح، ضرب، خُطى، زئير نار بعيد. ولو كان يوم آخر، لظنَّتها أليكس أجواء عيد، وليمة وروح احتفال. فمسحت العرق البارد من جبهتها، ولسانها بدا ثقيلًا في فمها.

قالت: «إلى أين نتجه؟».

همست ساني: «نحو النهر. قد نجد قوارب».

قالت أليكس: «فنبحر بعيدًا؟».

قالت ساني: «نجرب». ثم نظرت إلى الوراء بعبوس: «قد يفقدوا أثرنا على الماء».

تمتمت أليكس: «يبدو أن كل شيء قائم على ربما اللعينة».

توقفت ساني عند زاوية منهارة، وأطلَّت على درب مملوء بالحفر الراكدة، تحيط به الشجيرات. قالت: «سأختفي».

بلعت أليكس ريقها: «لا ألومك قط».

قالت ساني: «قد تريننني من حين لآخر، لكنني سأكون معكِ، مهما حدث». مدت يدها، وتوقفت لحظة، ثم أمسكت يد أليكس برفق شديد.

- ثقي بي.

همست أليكس: «أثق بكِ». وندمت على ذلك فورًا، فإن اللحظة التي تثق فيها بأحدهم هي اللحظة التي يبصق فيها على وجهك. لكن ساني اختفت، وهمست أليكس في الظلمة. شعرت بنفسها تُسحب، تسرع في الدرب منحنية، تحاول أن تندمج مع الحشائش. مرَّت بجزء مكسور من سياج، ورأت جنودًا مجتمعين أمام بيت، ونور المشاعل يلمع على الخوذ والأسلحة.

صرخ القائد: «افتح هذا الباب اللعين! وإلا كسرناه!».

رمى أحد الرجال مشعله على سقف كوخ. وهلل الآخرون مع اتساع اللهب. وبدأ آخر يضرب الباب بفأس نصله يلمع في وهج القش المحترق، وأليكس ترتجف مع كل ضربة، وهي تنسلُّ بصمت، تلصق نفسها بأعمق الظلال، تتوسل ألا يروها، وقطع القش المشتعل تتطاير عبر الطريق. الإمبراطورة الموعودة لطروادة، وكل طموحها أن يُمسك بغيرها.

صدر صوت بجانبها، فتقلصت، وانزلقت على مؤخرتها في الوحل، ولم يكن إلا حصانًا ضخمًا من عربات النقل، يدفع بوَّابة برأسه.

قالت أليكس، لاهثة: «حصان لعين».

قالت ساني، وهي ترفع أليكس وتسحبها معها: «خائف مثلكِ تمامًا».

تقدَّمت إلى الزاوية، تراقب طريقًا مرصوفًا بالحجارة، وعلى الجانب الآخر بيوت، باب أحدها معلق مخلوع. تسللت أليكس خلفها متشبثة بها، وكأنها تتشبث بالحياة. وكان جفاف فمها شديدًا حتَّى خشيت أن يسمع أحدهم حركة لسانها.

قالت: «هل ترين...».

قالت ساني: «هُس». ثم اختفت من جديد، ووزنها الطفيف يدفع أليكس إلى الخلف في الظلال.

دويٌّ، ثم وميض ضوء، واندفع جنود عبر فم الزقاق. يحمل اثنان منهم مشاعل مشتعلة لهبها يهمس في الظلام.

حبست أليكس نفسها، وحاولت أن تتضاءل إلى لا شيء. كانت على بُعد رمح منهم. لو أنهم أداروا رؤوسهم لرأوها. لكنهم لم يفعلوا. اندفعوا ليلًا. فتنفَّست أليكس مجددًا، نفسًا متقطعًا قليلًا.

همست ساني: «انتظري هنا».

قالت أليكس: «ماذا؟». لكنها اختفت مجددًا.

تقدَّمت أليكس نحو الزاوية وأطلت منها. وجدت أثاثًا محطَّمًا متناثرًا على الرصف، وملاءات ممزقة في شجرة، ترفرف مع النسيم. تساءلت ماذا لو قررت ساني الفرار، وخلَّفتها في هذا الجنون. لم تكن لتلومها. بل لعلها تفعل الشيء نفسه لو أنها مكانها. ما كان أي شخص عاقل ليصنع غير ذلك وهو مُثقل بحملٍ مثلها...

- هُس.

شعرت أليكس باندفاع راحة حين رأت ساني، لمحة سريعة في مدخل تشير بإصبعها. فاندفعت أليكس عبر الشارع، تسلَّقت بجانب البيوت ودخلت الظلال. سمعت أصواتًا خلفها تزداد وضوحًا، فانزوت إلى الباب، شفطت بطنها، وأدارت وجهها جانبًا. ثم خفتت الأصوات. فتنفَّست مجددًا، للحظة فقط.

- هُس.

رأت لمحة من ساني ملتصقة بقاعدة تمثال، قديس ما رافعا ذراعيه في بركة عديمة الجدوى فوق المدينة المدمَّرة. أخذت أليكس نفسًا، ثم اختارت طريقًا عبر الركام، واندفعت نحوه. رأت جنودًا أبعد، اثنين منهم يضربان بابًا بفؤوس، وآخرون يشاهدون بضجر.

توقعت صيحة، أو بالأحرى أن يستقر سهم في مؤخرتها، لكنها وصلت، تسللت إلى ظلمة بجانب ساني، ترقُب بحذر من طرف قاعدة التمثال نحو الجنود. فتحوا الباب الآن، وأخرجوا أحدًا من البيت.

همست أليكس: «أريد العودة إلى بيتي. أريد العودة إلى صفع الدائنين لوجهي».

قالت ساني: «تلك السفينة أبحرت. والآن إما إمبراطورة طروادة أو لا شيء. ذاك المكان يبدو جيدًا». وأشارت إلى بوابة خشبية في جدار عالٍ، مفتوحة قليلًا، على بُعد خمسين خطوة تقريبًا.

همت أليكس: «يبدو جميلًا. عدا كل أولئك الجنود اللعينين في الطريق».

- ثقي بي.

قالت أليكس، عاضَّة على أسنانها: «أثق بكِ». لكنها اختفت مجددًا. ما أفظعها من وسيلة لتجنُّب حديث محرج، وذاك البائس الآن جاثٍ على الأرض، والجنود يركلونه ركلًا.

زأر أحدهم: «ماذا تملك لنا؟ ماذا تملك؟».

وضربات الأرجل تتابعت، وأليكس ترتجف مع كل واحدة، لمحة يسيرة لما ينتظرها حين يُمسكون بها. عندما يُمسكون بها.

قال صوت: «أنا هنا، أيها الحمقى!».

فاستدار الجنود جميعًا فاغرين أفواههم. وإذا بساني واقفة على سقف البيت، قدماها متباعدتان، وذراعاها ممدودتان لتبدو كأكبر نجمة ممكنة. لم تكن أليكس تدري كيف وصلت إلى هناك أصلًا. لكنها لم تُصدم إلا نصف صدمة الجنود.

قال أحدهم: «ما هذا بحق اللعنة؟»، وبينما نظر الجميع إلى ساني، جمعت أليكس شتات شجاعتها وتسللت من خلف قاعدة التمثال، ولسانها مضغوط بين أسنانها، تمشي بخفة خلفهم.

قالت ساني: «انظروا، أنا إلف!». ثم دفعت قلنسوتها إلى الخلف ولوَّحت بذراعيها: «أنا إلف لعينة!».

- تحسَّس أحد الجنود قوسه، لكن حين رفعه، اختفت ساني.

قال غاضبًا: «أين ذهبت؟»، ورأس السهم يتأرجح في الهواء.

مرَّت أليكس بقربه، كأن المسافة لا تكاد تكون شيئًا، كل نبضة من قلبها كأنها دهر. كادت تنفجر رغبة في الركض، لكن لا بد أن تكون حذرة، صامتة.

قال صوت: «من هنا!». واستدار الجنود من جديد، بعيدًا عن أليكس، نحو ساني التي صارت فوق السقف التالي، ذراعاها ممدودتان، وأصابعها الطويلة تتراقص، ولسانها خارج فمها.

تسللت أليكس بمحاذاة الجدار دون أن تلتفت، دفعت البوابة بأطراف أصابعها، وتسللت خلالها إلى ساحة صغيرة مظلَّلة خلف بيت، ووجدتها مملوءة بالخردة بأكوام كتب مبعثرة، وفراش ممزق طارت ريشاته.

خرجت أنفاسها في تنهيدة صامتة كانت تحبسها. ثم رأت ساني تهبط من الجدار أمامها، تضغط نفسها إلى جانب بوابة أخرى، ساكنة هادئة كأنك لا تراها حتَّى وأنت تراها. فاقتربت أليكس، تكتم سعالًا حين أثقل الدخان حلقها.

همست: «ينبغي لكل أحد أن يملك صديقًا غير مرئي».

قالت ساني: «وبماذا ستكونين مميزة حينها؟».

قالت أليكس: «روحي المرحة؟».

تجعد أنف ساني وقالت: «سمعت أظرف من ذلك. هل أنت مستعدة للمزيد؟».

تمتمت أليكس: «يا إلهي». لكن ساني اختفت بالفعل. وبعد لحظة كانت عند مدخل في الجهة الأخرى من الشارع، تشير إليها. فلحست أليكس شفتيها اليابستين، وأسرعت نحوها، وأصوات الجنود تخفت خلفها وهي تنزلق إلى المدخل، تضغط نفسها إلى الخشب.

تمتمت ساني، وهي تطل في الشارع: «من ذاك الاتجاه. ولا يقبضوا عليك». ثم اختفت من جديد.

سمعت أليكس شيئًا في الجهة الأخرى من الباب، فزمَّت حاجبيها...

اندفع الباب إلى الداخل، وتعثَّرَت فوق العتبة، وكادت تقع في أحضان جندي ماتت ضحكته في شفتيه. لمحت لحية حمراء، ووجهًا مذهولًا، ثم

بدأت تضرب. كان عنده من الفطنة ما يكفي ليدير رأسه، فاصطدمت مفاصل يدها بقوة بجانب خوذته. تأوهت من بين أسنانها، والألم يشق ذراعها، وارتدت إلى الشارع، تمسك يدها النابضة.

لحق بها ذو اللحية، وشتيمته تنقلب إلى صرخة حين تعثر بلا شيء وسقط على وجهه. اندفع خلفه جندي آخر، أسنانه العفنة بارزة. فشهقت أليكس قليلًا إذ رفع فأسًا... فانتُزع من يده، وغطت خوذته عينيه. أصدرت أليكس صوتًا متحشرجًا من الدهشة، وتقدَّمت لتركله بين فخذيه. فصرخ بالألم، وانطوى على نفسه، وكانت قد اندفعت في الشارع كسنجاب يصعد مدخنة ساخنة.

ركضت وخطواتها تصفق على الجدران، لا تعرف إلى أين تتجه. ثم دارت عند زاوية، ورأت جنودًا، فتوقفت فجأة، وانزلقت قدماها من تحتها. زحفت على مؤخرتها نحو جدار منخفض تتنفس بصخب، وتسلقته لا تدري إن كانت قد رُصِدت أم لا، تشقُّ طريقها بين أشواك تخدشها وتُمزِّقها.

أحست بالحرارة كصفعة على الوجه. والكنيسة تحترق، وتفحمت عوارضها خطوط سوداء في وسط اللهب. ثم مقبرة. وشواهد قبور قديمة متساقطة، الأسماء ضاعت بين الطحالب. استبدَّ بها رعب حين ظهر لها ظل، لكنه لم يكن إلا ملاكًا حجريًّا على قبر رجل ثري.

موضع مريح للموت على الأقل. ولو أتت في التوقيت الصحيح، لأعفت حفاري القبور من العناء، وهوت مباشرة في القبر.

تراقص ضوء مشاعل، وامتدت ظلال الشواهد عبر العشب المبلول، فالتصقت بجذع شجرة. هل يتبعها أحد؟ لم تستطع أن تجزم. تنقلت من شاهد إلى آخر، لا تكاد تعرف أي جانب تتوارى فيه. تحطم زجاج في مكان ما. وأحدهم صاح. ثم آخر ضحك. وكان رأسها يلتفت إلى كل صوت وكأنه عُلِّق بخيط. وقلبها يدق في جمجمتها، يكاد يؤلمها كأن

أذنيها ستنفجران. يا إلهي، يدها تؤلمها. أهي مكسورة؟ كل نفس يأتي معه أنين يائس.

لمست يدها السليمة شيئًا ليِّنًا. هيئة منكمشة. جثة. فجذبت أصابعها، فإذا بها لزجة بالدم، تلمع سوادًا في ضوء اللهب. اشتعلت شجرة وانفجرت عُصارتها، وأوراق المحترقة تتساقط في فناء الكنيسة. وصرخت خنازير في مكان ما. أهي خنازير أم بشر؟

ثم انهار سقف الكنيسة بصوتٍ مدوٍّ، والنار تتفجَّر من النوافذ، والشرر يتطاير في الليل. شمت أليكس دخانًا، وبدأت تسعل، تترنح منحنية، وكل نفس تستنشقه يجلب سعالًا جديدًا، فسعلت حتَّى تقيأت، واستنشقت القيء، وارتطمت بجدار فناء الكنيسة، تبصق وتبكي، ودموعها تغشى بصرها حتَّى اضطرت إلى أن تتحسس طريقها، تتخبط نحو البوابة وإلى الشارع.

تدافع الناس نحوها. رجال ونساء وأطفال. لا تعرف عددهم. إذ أنهم صاروا بضوء المشاعل كتلة واحدة من النحيب والصراخ والدفع. التقطت أليكس خوفهم، والتي كانت بالفعل على حافة الهلع، وركضت معهم لا تدري إلى أين. دفعها أحدهم إلى جدار، فاصطدم رأسها، وكادت تسقط، ودفعت أحدهم بعيدًا. ثم أمسك شيء بمرفقها، وسُحبت جانبًا. فكوَّرت قبضتها لتضرب، ثم شهقت من ألمٍ مفاجئ في مفاصل يدها، ثم رأت ساني.

قالت ساني: «لا تنظري خلفك». ففعلت أليكس ذلك فورًا.

ومن خلال الزحام المتناثر رأت مجموعة من الأشكال، ساكنة، صارمة، متقنة الخطى. رجل طويل يقودهم. طويل جدًّا وبلحية كثَّة وفراء كثٍّ على كتفيه. عيناه غائرتان تحت حاجبين كثَّين، لكنها رأت على وجهه علامات.

كتابات موشومة.

تحذيرات موشومة.

قالت أليكس، متوجسة: «معهم مستذئب؟».

وكان من الواضح أن ساني تعلم. قالت: «من هنا».

دُفعت أليكس إلى داخل بناء، وأُغلق الباب خلفها، وأُزلق المزلاج. كان المكان حدادة، فلمع سندان بخفوت، ورف من الأدوات مقلوب. ورقدت جثة على جنبها. فاقتربت أليكس بحذر. أدركت أنه جندي. وعيناه مفتوحتان، تحدقان إلى اللا شيء، والدم في كل مكان، ومطرقة بجانب رأسه.

قالت ساني، تدفع خوذته الساقطة بقدمها: «ضُرب ضربة قاضية».

قالت أليكس: «أظن ذلك». وتسللت خلفها إلى باب آخر من الخلف. أو لعله من الأمام. من يدري ما هو الأمام بعد الآن؟

فُتح الباب على ساحة البلدة التي يتوسطها نافورة. لا بُدَّ أنها كانت جميلة في أيام السوق. لكنها ليست كذلك في ليلة نهب. الجنود في كل مكان. وعشرات من الأوغاد، ينقِّبون في البيوت واحدًا واحدًا، دقيقين كأنهم جراد في حقل قمح. بعضهم يطرق باب بيت عتيق. بعضهم يسحب أغراضًا من دار فاخرة، ربما كانت دار البلدية. بعضهم يحمل الغنائم إلى عربات مكدَّسة بالستائر والشمعدانات وهياكل الأسرَّة وكل ما يمكن حمله دون حاجة إلى البكرة والرافعة.

تمتمت أليكس: «تسرق كيس نقود فتُدعى لصًّا، أما تسرق بلدة بأكملها فتُدعى بطلًا».

جُمع الأثاث المحطم وعوارض الأكشاك المنهارة وأُشعل، ليضيء مشهد السرقة المنظمة بتوهج مجنون، ويحوِّل الواجهات المهيبة إلى وجوه جحيمية، ويصنع من النوافذ أعينًا شاخصة، ومن الأبواب أفواهًا تصرخ.

همست: «كيف بحق الجحيم نعبر هناك؟».

قالت ساني: «جنود كثر». ولسانها بين أسنانها: «ربما نلتف، نحاول أن نُطوِّق...».

همست أليكس: «نعود؟ لا. المستذئبون مزعجون كفاية وهم معنا». وظنَّت أنها رأت بريق ماء في زقاق على الجانب الآخر من الساحة قريب جدًّا: «نعود؟ لا».

قالت ساني: «لا يمكنك أن تصيري غير مرئية».

أخذت أليكس نفسًا وزفرته. قالت: «سيكفينا أقرب شيء إلى ذلك».

ومشت نحو جثة الجندي، فقلبته، وفتحت مشبك عباءته. تأوَّهت وهي تديره ثانية وهي تتألم من يدها، ثم جذبت العباءة ولفَّتها حول كتفيها.

قالت: «أن أبدو كأنني من المكان».

قالت ساني: «العباءة مغطاة بالدم». وكان ذلك صحيحًا، فكتف العباءة قد تقشَّرت بالدم وجفَّت.

هزَّت أليكس كتفيها وقالت: «الجميع هنا عليه على الأقل قليل من الدم».

لاحظت مقبض خنجر يبرز من حزام الجندي الميت، فانحنت وسحبته. شيء مستعمل بشدة وقبيح، لا يشبه جمال مقبض الأفعى في الخنجر الذي أهداها إياه الدوق مايكل، والذي يغرق الآن على الأرجح في قاع الأدرياتيكي. لكن أليكس تميل إلى لأشياء القبيحة المستعملة كثيرًا. ربما لأنها تشبهها.

قالت ساني: «هذه فكرة سيئة».

أدخلت أليكس الخنجر في حزامها، وسرَّحت شعرها إلى الوراء. وبالرغم من اتساخه، بقي على حاله تقريبًا. قالت: «إن كان لديكِ فكرة أفضل...». ثم انتشلت الخوذة وثبتتها على رأسها. «أنا كلِّي آذان».

وشدَّت العباءة حتَّى غطَّت أكبر قدر ممكن من جسدها دون أن يبدو أنها تخفي شيئًا، ودفعت الباب قبل أن تهاجمها أفكار التراجع، ومشت في الساحة بخطًى متراخية.

حاولت أن تمشي كما يمشي الرجال، خبب ثقيل، ليس بسرعة ولا ببطء، يد في الحزام والأخرى تتأرجح بلا مبالاة، وكأنها تملك حق الوجود في المكان ما تشاء.

لف بعض الجنود سجادة. ونظر أحدهم نحوها، فأومأت إليه إيماءة عارضة، ثم شمَّت بلا اكتراث، ثم أدارت رأسها وبصقت. ربما كان ذلك كثيرًا، لكنها رأت أنه قد صرف نظره منشغلًا بما قد يغتنمه. مرَّت بجانب النار وعيناها على ذلك الزقاق أمامها. ذلك الوميض المائي في آخره. كل ما عليها فعله هو الوصول إليه. جاء بعدها جنديان من الجهة الأخرى بخطًى مدوِّية، واهتزَّ كل عضل في جسدها يطالبها بالهرب. لكنها أجبرت نفسها على البطء، أجبرت نفسها على ألَّا تنظر، وسمعت خطواتهم تمر خلفها.

ما دامت تؤدي الدور، ما دامت لا ترتجف، فكل شيء سيكون بخير، هذا ما كانت ترددده لنفسها. فقط الوصول. فقط الوصول. ولم يعد فم الزقاق إلا على بعد عشرين خطوة. من المذهل كم يمكن للمرء أن ينجو، إن تصرَّف كأنه من المكان...

جاء صوت: «هاي!».

صرخت كل ذرة فيها بالفرار، لكنها أجبرت نفسها على التوقف. أجبرت نفسها على أخذ نفس. أجبرت نفسها على الالتفاف. قالت، وهي تتصنَّع الخشونة في صوتها: «ماذا؟»، تدعو أن تبدو كصبيٍّ يحاول أن يبدو كرجل، لا كفتاة تحاول التمثيل.

وقف رجل ضخم قرب عربة وحصانه يتململ بقلق، وكان يحدِّق إليها. قال: «من في الجحيم أنتِ؟».

قالت: «أليكس»، كأن هذا الاسم معروف للجميع، وكأن عليه أن يخجل لأنه لا يعرفه.

ضيق عينيه وهو يقترب. قال: «ماذا تفعل؟».

قالت: «أُرسلت لأبحث عن قارب»، وذلك كان صحيحًا بما يكفي. وبدأت تدير ظهرها.

قال: «لا». وأوقفها بإصبعه الممدودة. طعنها في منتصف صدرها، ولحسن الحظ، فلم يلاحظ شيئًا غير مألوف. عبس ناظرًا إلى أسفل، وعبست أليكس ناظرة إلى أعلى، تتساءل هل الأفضل أن تضربه، أم تهرب أم تسحب الخنجر وتطعنه أم تصرخ: «هجوم من إلف».

ثم انحنى وأمسك بمقبض صندوق كبير على الأرض بجانبه. قال: «ساعدني في حمل هذا اللعين من الجهة الأخرى».

شعرت أن الأمر استغرق دهرًا. الانحناء. الإمساك بالمقبض الآخر. الوقوف، التأوه من الثقل. وفي كل لحظة تساءلت كم جنديًّا حولها. متى سيكتشفون أنها لا تنتمي إلى المكان. متى سيرون الدم، وينزعون عنها الخوذة، ويبدؤون في إيذائها.

ثم أنزل الرجل الضخم طرف الصندوق على العربة، ودفعت أليكس الطرف الآخر حتَّى دخل بالكامل. توقفت لحظة، منحنية تلتقط أنفاسها، وهناك رأت ساني، منحنية خلف إحدى العجلات. أشارت بصمت إلى الطريق الذي جاءتا منه. فتابعت أليكس اتجاه إصبعها، واعتدلت، وفمها يجف أكثر من ذي قبل.

لقد كانوا يطاردونها لأيام، لكنها لم ترهم بهذا القرب من قبل. ستة رجال ربما، يرتدون السواد، والمستذئب في المقدِّمة. أطول منهم بنصف رأس، والكتابات تغطِّي وجهه، وأسنانه تلمع في ابتسامته، وعيناه تتلألآن في ضوء النار. كظمت أليكس رغبة مجنونة في الفرار،

ومسحت حلقها، ثم صرخت بصوت واضح، ليسمعها كل الجنود: «من هؤلاء الأوغاد؟».

نظر الرجل الذي تساعده. قال: «أجل. من هؤلاء الأوغاد؟».

قال أحد الجنود: «هل ذاك مثقاب ملعون؟».

قالت أليكس، وهي أدرى الناس: «يبدو أنهم لصوص». فقد قضت سنوات في تلك المهنة.

قال الجندي الضخم، وهو يقفز من العربة التي ملأها بالغنائم: «إن كان ثمة شيء أكرهه... فهو اللصوص. هاي!».

وأمسك رمحه، وتقدم نحوهم: «من أنتم أيها الأوغاد؟».

وقد التفت أغلب رفاقه. وبعضهم بدأ يقترب.

والذين وضعوا أسلحتهم لأجل عملهم الحقيقي، النهب الجماعي، بدؤوا يرفعونها من جديد، ويصطفون في نصف دائرة غاضبة حول القادمين.

فبدأت أليكس تتسلل حول العربة. من الأفضل ألَّا تتسرع. ثم رفع المستذئب رأسه وعوى عواءً عظيمًا. فثار الحصان، وركل رعبًا، وجعل العربة تتقدم فجأة رغم المكابح. فبدأ الجنود بالصراخ، ثم بالجري، وفعلت أليكس الشيء نفسه، ولكن في الاتجاه الآخر.

سمعت خلفها تحطمًا، وزئيرًا نابضًا تعرفه جيدًا، لكنها ثبتت نظرها على الماء أمامها. رصيف، وأرصفة تحميل، وقوارب ترسو. بعضها كبير بأشرعة مطويَّة. وأخرى صغيرة خلفها. ثم قارب تجديف في النهاية يتمايل على الماء. فانحنت إلى عمود الترسية، وبدأت تفكُّ العقد.

همست في الظلام: «ساني؟ أنتِ هنا؟ ساني!».

قالت ساني: «أسبقك بخطوة». وقد جلست بالفعل عند المقدِّمة، وقلنسوتها مرفوعة، وفكها مشدود.

قالت أليكس: «كان ينبغي أن أعلم».

تسلقت إلى الداخل، وأمسكت المجاديف، وبدأت تجدِّف في صمت ما استطاعت. وقد عملت في التهريب مرَّة، لذا كانت تعرف بالكاد كيف تمنع القارب من الغرق. ثم بدأت الصرخات والصياح والتحطم يخفت.

والمجاديف تصفع الماء بلطف: سلاب، سلاب، سلاب.

تلاشى مركز المدينة وراءهم. ومرُّوا بمخزن مظلم، ثم كوخين، أحدهما نصف غارق في النهر، ثم ظلال الغابة على الجانبين. وخفت وهج الكنيسة المحترقة من الغرب، وبدأت تبزغ أنوار الفجر من الشرق.

قالت أليكس، وقد بدأت تضحك: «لقد فعلناها!». وربما كانت تبكي قليلًا في الوقت ذاته.

عبثت بالمجاديف، لكنها لم تبال، كانت راضية بأن تترك التيار يأخذها كيفما شاء. قالت: «أنتِ من فعلها بحق. أنا كنت فقط حمل عليك». ونظرت فوق كتفها.

تمتمت ساني: «فعلناها». لكن، بقدر ما استطاعت أليكس أن ترى في الظلال، لم تكن ساني سعيدة، بل متمددة أكثر من جلوس، منكمشة، تعانق نفسها.

قالت أليكس، وقد انطفأت نشوة النصر سريعًا: «أأنتِ بخير؟».

قالت ساني، ووجهها يتلوى بالألم: «ربما... ربما قليلًا...».

ثم عضَّت على أسنانها، وأطلقت أنَّة ضعيفة. وقالت: «ركلني ذاك الحصان».

38

نكبات

قال بالثازار: «فلتلعن الآلهة هذه الأحذية!»، وهو يقفز على قدم واحدة لينزع الأخرى ويهزها ليتخلص من ذرة حصى لا تُرى، لكن أذاها لا يُطاق: «ما هي بأحذية، بل أدوات تعذيب!».

قالت بابتيست، وهي تمضغ عود عشب بين أسنانها، ورأسها يتمايل وهي تتكلم: «هكذا يتكلم من لم يُعذَّبَ قطُّ».

- وأنتِ عُذبتِ؟

- أجل.

في العادة، إذا أفصحت عن جانبٍ من خبرتها الواسعة، رافق ذلك رواية مفصَّلة على الأقل. لكن في هذه المرة لم يكن هناك سوى الصمت، واضطر بالثازار، لما أثار فيه من ضيق بالغ غير متوقع، إلى أن يتخيَّل الظروف بنفسه.

قال: «ذاك...». شنيع. أنا آسفٌ شديدُ الأسف. تمايلت الكلمات على شفتَيه، لكنه في اللحظة الأخيرة امتنع عن النطق بها. أليست هي سجَّانه؟ عدوه اللدود؟ أولم يُقسم أن ينتقم منها شرَّ انتقام على ما اقترفت؟ وها هو يشتت نفسه بالعطف عليها! وذلك يدل، لا شك، على سعة صدره وعظمة تعاطفه، لكن انجذابه إلى نيتين متناقضتين لم يزده إلا غيظًا.

قال: «ليلعن الرب هذا القميص الملعون!». وحكَّ أحد إبطيه بعنف، ثم الآخر: «إن كان هناك ما هو أسوأ من قمل المرء، فهو وراثة قمل الموتى!».

قالت بابتيست، وهي تمضغ عود عشبها بنبرة تلميح: «لا يمكنك دائمًا اختيار رفقاءَ السفر».

قال بحدة: «لا شك أن بعضنا يزدهر في القذارة، أما أنا فلست من يُخلق للنوم بين الشجيرات، ولا لقضاء الحاجة في الحفر، ولا للعيش على السناجب!».

- لا تحب السنجاب؟ كان عليك أن تخبرني.

- أخبرتك ألف مرة!

- فقط ألف؟ شعرت كأنها أكثر. ومع ذلك أكلته.

عض بالثازار على أسنانه. أسنان قد يكون فيها بقايا من سنجاب. فقد أكله على كل حال، وكان لزاما عليه أن يمدح البراعة التي اصطادت بها ذلك الكائن الهزيل اليابس.

وقد كان من الشائق أن يراقبها وهي تفعلها: ساكنة تمامًا، مركَّزة تمامًا، صبورة صبرًا مهيبًا، تعضُّ بشفَتها المشقوقة بلطف بالغ، ورذاذ المطر يترك ندًى متلألئًا في خصلات شعرها المحيط بوجهها...

أفاق نفسه. فمعرفته أن لولاها لكان على الأرجح جاع، أو تجمَّد، أو وقع فريسة للصوص في هذا الركن الممزَّق بالحرب من أوروبا، لم تزد غيظه إلا احتدامًا. فتذمَّر: «ينبغي أن نبلغ الحجارة الآن».

- لا تتردد في رسم طريقك، ولنرى من يصل أولًا.

- كان علينا أن نسلك اليسار عند ذاك المفترق!

- ممهد أكثر مما ينبغي. وعلى الأرجح سيأخذنا مباشرة إلى كمين. في حال لم تلاحظ، هناك حرب دائرة.

- القرى المدمَّرة العديدة، وحقول الكروم المحروقة، والمزارع المحترقة، ناهيك بساحة المعركة الواسعة التي سرقنا منها ملابسي الموبوءة بالقمل كافيةٌ لتعلمني بذلك. لو أخذنا اليسار الأخير لكنا هناك بالفعل!

أزاحت بابتيست عود العشب من بين أسنانها لتتكلم بحرية أكبر: «كف عن التشبُّث بفكرة وجود طريق واحد صحيح. ستُضيع نصف وقتك هلعًا لأنك لست عليه، والنصف الآخر في الرجوع لتبحث عنه. أتعرف مشكلتك؟».

قال: «إنني مستعبَد بهذا الرباط الملعون...». وتجشَّأ تجشُّؤًا حارِقًا، وخدش بغضب البقعة الحارقة على معصمه: «... وصارت حياتي سلسلة من الانحرافات المهينة عن درب لا رغبة لي فيه؟».

قالت: «لن يؤلمك أي من ذلك بهذا القدر لو لم تكن بهذا العناد. أنت تطلب أن ينحني كل شيء لإرادتك وتعلن الحرب على كل ما لا يفعل». تنفَّست من أنفها نفسًا عميقًا، وزفرته برضا.

- عليك أن تكون كالماء. تتشَكَّلُ حيثما تكون، واستثمر ما يطفو أمامك.

ابتسمت له، فلمعت سِنها الذهبية، ولحظةً واحدة تساءل بالثازار إن كانت الابتسامة التي ظنها دومًا سخرية يمكن ببساطة أن تُفهم على أنها دعوة لعوب. وهل تقصده فيها منذ البداية، في الكيفية التي يتلقَّاها بها؟

ورغم قمله، وجوعه، وكراهيته المُتفهمة تمامًا لهذا الرباط، لم يستطع منع نفسه من التبسم ردًّا. أتراه لمح لمحة مشتهاة من عالم يمكنه فيه... أن يرى الجانب المضيء؟ عالم لا ينبغي فيه لكل نكسة أن تكون كارثة، ولا لكل تعريض عابر أن يكون ثأرًا مريرًا؟ عالم يستطيع فيه أن يُلقي بالغرور، والتدقيق الزائد، والاعتداد الخانق، إلى الريح، ويخوض مغامرات جامحة؟ عالم يجتمع فيه رجل مثله وامرأة مثل...

ضيقت عينيها: «ماذا؟».

ففتح فمه ليُجيب.

فصاح صوت: «قف مكانك!».

قفزوا من بين الشجيرات، وانسلُّوا من الأشجار يُطبِقون من كل الجهات. جنود تعابيرهم لا تعرف المساومة، أقواسهم مشدودة، ورماحهم مُسَدَّدة. ربما لاحظهم بالثازار، لو أنه لم يحلم بأن يكون إنسانًا مختلفًا تمامًا. وربما لاحظتهم بابتيست، لو لم تشجِّع مسعاه البائس. لكن الوقت تأخر على كليهما.

نظرت إلى الجنود، ويبدو أنها رأت أن لا القتال ولا الفرار يقدِّمان فرصة معقولة للنجاة، فارتسمت على وجهها ابتسامة رابحة، ورفعت يديها ببطء.

أما بالثازار فأسند يديه على خاصرتيه، وحدَّق إلى السماء، وانتزع الكلمات من بين أسنانه المشدودَةِ.

- اللعنة!

***

- أيها الرقيب...

ألصق بالثازار وجهه بالقضبان. وكان يفعل ذلك منذ حين. ولعله سينتهي بنقش دائم لتلك القضبان على وجهه. هذا إن خرج من القفص أصلًا.

- أيها الرقيب؟

تذبذب صوته بين نبرة رجاء مُلحٍّ وطلب نافد الصبر، وانتهى بنغمة لم يقصدها، فيها شيء من التودُّد.

- أتسمح لي بلحظة من وقتك؟

نظر إليه السجَّان المتغافل: «واحدة آخرة؟».

- هذا ليس سوى سوء فهم. كنَّا نمرُّ فحسب، في طريقنا إلى الحجارة الواقفة قرب نيكسيك...

- أنتم درويد[1]؟

- درويد؟ لا. درويد؟ ها! أترانا نبدو كدرويد؟

هزَّ الرجل كتفيه: «أن تكون درويدًا ليس أمرًا يُرى في الظاهر، بل أمرٌ يخص العقلَ والمعتقد».

قال بالثازار: «همم...». وذلك أعمق مما توقَّع بالثازار: «لك وجهة نظر، لكن...».

- تمامًا كأن تكون جاسوسًا.

قال بالثازار: «جواسيس؟ لا. جواسيس؟ نحن؟». وأطلق ضحكة فيها شيء من الحدَّة: «أترانا نبدو كجواسيس؟».

قال الرقيب: «ألا تبدو جاسوسًا، هو بالضبط ما يبدو عليه الجاسوس».

وقد لاحظ موطن الضعف في حجته، ذلك الذي أدركه بالثازار نفسه لحظة نطقه.

قالت بابتيست: «في الواقع، كنتُ جاسوسةً فيما مضى».

استدار بالثازار يُحدِّقُ إليها. وقد تمددت على المقعد في مؤخرة الزنزانة، ركبتها مرفوعة، وقبعتها على وجهها.

احتج: «حقًّا؟ الآن؟».

قالت: «في أثناء فوضى الخلافة في ساكسونيا قبل بضع سنوات، لكن تلك الحياة لم تناسبني». دفعت قبعتها إلى الخلف لتُقَطِّبَ جبينها نحو السقف المتخم بشباك العنكبوت.

---

(1) فئة دينية-روحية تقليدية من الكهنة القدماء في الشعوب الكلتية (Celtic)، خصوصًا في بريطانيا وأيرلندا وفرنسا، ارتبطوا بالحكمة، والتنجيم، والطبيعة، وعبادة الأشجار، وكانوا طبقة ذات سلطة دينية وقضائية. «المترجمة».

- أعني، الحفاظ على هوية واحدة محترمة صعب بما يكفي.

تبادل بالثازار والسجَّان النظرات في لحظة صمت، ثم هزَّ الرجل كتفيه.

- ليست مخطئة.

وربما من حُسن الحظ، انفتح باب الزنزانة في تلك اللحظة، ونزلت امرأة من الدرج بخطى جارفة. ضئيلة جدًّا، حسنة الهندام، ترتدي ثوبًا ياقوتيًّا أزرق مُزدانًا عليه كتَّافات، وصفيحة صدرية ذهبية زخرفية، وجدائل شعرها الذهبي ملفوفة في شبكة مرصعة باللؤلؤ. أشبه ما تكون بجنرالة تحضر زفاف عدوِّها اللدود.

صاح السجَّان، واقفًا من كرسيه بانتباه صارم: «الكونتيسة يوفانكا!». بينما اتخذ بالثازار أوسع ابتسامة تزلُّف على وجهه. فها هي، نوع علية القوم الذين يبرع في صحبتهم!

تقدَّمت الكونتيسة تنظر إلى القفص كما ينظر المُترف في الطعام إلى إصبع مقطوعة في حَلْوَى بودنج. قالت: «وماذا لدينا هنا؟».

قال رجل طويل بحق، نحيل، خالٍ من كل دعابة: «جواسيس، على ما أظن». وقد رافق الكونتيسة، وزاد طوله ونحافته وجديَّته بروزَ قلنسوتِه التي كادت تلامس سقف السرداب، ومع العجلة الفضية ذات الخمسة أذرع التي يرتديها، دلَّ مظهره على كونه كاهنًا كبيرًا من كنيسة الشرق.

قال بالثازار: «جواسيس؟ لا، لا». وقد بدا أنَّه ملعون بتكرار الحوار ذاته مرارًا مع نتائج تتناقص في كل مرة: «مجرد عابري سبيل عاديين، في طريقنا إلى الحجارة الواقفة قرب نيكسيك...».

قالت الكونتيسة: «لا تبدو درويد».

قال بالثازار: «درويد؟ لا، لا، لا». وتلاشت ضحكته الوحيدة ببطء: «رغم أنَّه... قد يُقال...». يا للهول، ماذا يقول؟ «... إنَّ كون المرء درويدًا

ليس مسألة مظهر خارجي، بل مسألة عقل ومعتقد...». بدا أن أسابيع الجوع والإرهاق والمهانة ومجالسة الوحوش جعلته عاجزًا عن الكلام المتماسك: «... مع أنني أدرك الآن أنَّ هذا... خارج عن الموضوع...».

همست بابتيست متنهدة بأثقل تنهيدة: «فلترحمنا المخلِّصة».

هتف بالثازار، آملًا أن يختم بقوة: «أنا أبعد ما أكون عن كوني درويدًا!».

قال الكاهن، وقد ضيَّق عينيه بطريقة ذكَّرت بالثازار أكثر مما ينبغي بهيئةِ المحلفين في محاكمته: «فلماذا الحجارة إذًا؟ أأنت ساحر؟».

قال بالثازار: «ساحر؟». وعضَّ طرف لسانه. فقد ظلَّ يُساء تصنيفه عمدًا طوال شهور. وأخيرًا، حين خُوطب بما يلائم مواهبه، وجب عليه إنكارها: «ها! لا. ساحر؟ أي شيء سوى ذلك. اسمي بالثازار شام إيفام دراكسي، سا...شخص... متواضع، وأشعر أنَّ ما حدث ليس سوى سوء فهم...».

قالت الكونتيسة، وقد شكَّلت شفاهها المطلية دائرة من الدهشة: «إذًا لقد دُعيتَ لدخول مقاطعتي؟ أشكُّ في أنَّني سأنسى توقيع تصاريح مرور لاسم طويل كهذا».

تنحنح بالثازار. قال: «ربما، أعترف أنني لم أُدعَ بالضبط...».

- ليس بالضبط؟ أم لم تُدعَ إطلاقًا؟

- لم أُدعَ...

- فمن صاحب سوء الفهم إذًا؟

وكان هذا، كأغلب الأمور منذ نصف عام على إدانته، لا يسير كما يأمل بالثازار. قال: «أخشى... أننا بدأنا بخطوة غير موفقة...».

قالت: «أخشى أنك لم تدرك على أي قدم تقف؟».

قال: «محتمل جدًّا، محتمل جدًّا!». يا إلهي، أكان يتنقَّل من قدم إلى أخرى؟ وقد أصبحت ضحكته محرجة فعلًا: «أنا هنا فقط بسبب ظروف لا مفر منها، تتعلق بهجوم في عرض البحر، والذي هو نتيجة تغير مسار غير متوقعة إلى البندقية، وحادث مؤسف في منزل ساحر مُوهِم، فن يناسب المحتالين الرخيصين أكثر من السحرة الحقيقيين...».

- مع أنك لست منهم؟

- أنا؟ لا. ساحر؟ ها! في الواقع، من المفترض أن نبلغ منتصف طريق العودة إلى طروادة...

قال الكاهن، وجبينه ينكمش بطريقة ذكَّرت بالثازار باضطرابِ القاضي في محاكمته: «طروادة؟ وما شأنك بطروادة؟».

قال بالثازار: «حسنًا... آه... هممم»، وفرك صدغيه، وقد بدا أن العرق قد اجتمع هناك: «أيمكننا ربما... نبدأ من جديد؟».

فقالت بابتيست، وقد اقتربت منه لتخلِّصه من بؤسه، وفي ذلك رحمة: «إذًا، فهكذا تبدو الكونتيسة في هذه الأيام؟». حدَّقت من طرف أنفها، واضطرت إلى رفع كلتا يديها، إذ إنهما موثقتان، لتدفع حافة قبعتها إلى الأعلى بإصبعها: «إنهم فعلًا يضعون التاج على أي نَتَن قديم».

وما شعر به بالثازار من راحة عابرة عند مقاطعتها تلاشى في طوفان من الذهول البارد، حتَّى إن شهقة نَفَسه أصدرت صريرًا سُمِع في فتحات أنفه. حدَّقت الكونتيسة هي الأخرى، أولًا في بابتيست، ثم في بالثازار، واتسع منخرُها غضبًا. نفخت: «افتح هذا الباب حالًا». فرنَّ المفتاح في القفل، وخرجت بابتيست تتبختر، بينما بالثازار يزحف مبتعدًا عنها قدر ما أتاح له ضيق الزنزانة، يتساءل هل يمكن أن يزعم أنَّه لم يلتقِها قط.

تقدَّمت الكونتيسة جوڤانكا، حتَّى تلامست رؤوس أصابع حذائها المصقول، بأطراف حذاء بابتيست الوسخة. ثم قالت الكونتيسة، وهي

تحدّق إليها من أسفل إلى أعلى، وبالكاد بلغ رأسها الأشقر ذقن بابتيست: «أنتِ طويلةٌ إلى هذا الحد، قد أضطر إلى تقصيرك».

قالت بابتيست: «إذًا افعليها سريعًا، قبل أن أطأكِ عن غير قصد».

وساد الصمت هنيهةً، حتَّى خُيِّل إلى بالثازار أنه نجا من الإحراق في المدينة المُقدَّسة على جريمةٍ ارتكبها يقينًا، ليُشنق في ريف صربيا على جريمةٍ لم تخطر له على بال. ثم انفجرت المرأتان بالضحك. جذبت الكونتيسة وجه بابتيست وقبَّلتها على خديها: «بابتيست، أيتها النذلة الباهرة». ثم أمسكت بالقيود بيدٍ، وأشارت بالأخرى إلى العريف: «انزع هذه الأساور في الحال يا عريف. تلبسينها ببراعة، لكنَّها لا تلائم هيئتك البتة. ما الذي تفعلينه هنا بحق السماء؟».

قالت بابتيست: «حكاية طويلة حزينة».

رفعت الكونتيسة حاجبًا واحدًا وقالت: «وهل أتعرفين أي حكاية قصيرة؟».

تمتم بالثازار، وهو يزحف راجعًا إلى الضوء: «مهلًا... ماذا؟».

قالت الكونتيسة لكاهنها: «هذه بابتيست، وهذا الأب إجنيشوس، السنكيلوس للبطرك أليبوس من داردانيا، من أشد أنصار قضيتي وفاءً».

فقال الكاهن: «ولكل قضيةٍ عادلة»، ولم يشك بالثازار، فإن العدل دومًا يُعرَّف حسب هوى القائل.

قالت بابتيست: «كنَّا وصيفتين لملكة صقلية».

قال بالثازار يتمتم: «ملكة صقلية؟».

قالت الكونتيسة: «ألم تَقصَّ عليك حكايتها مع هاڤاراتزا؟».

وكل قولٍ يزيد في ارتباك بالثازار: «الرسَّام؟».

قالت الكونتيسة: «كل ذلك قبل أن أكون كونتيسة. ثم الحادثة بالعربة، ثم الحريق، ثم ركل حصان ابن خالتي دراجان، ثم انسحب أخي الأكبر

بعد تلك الحكاية مع الراهبات، وأما الأصغر فشرع يبول أزرقَ فاختلَّ عقله تمامًا، وفجأة صار القوم يحنون رؤوسهم لي وينادونني: يا صاحبة السموِّ، فما عساي أن أفعل؟».

قالت بابتيست: «يبدو أنك وُفِّقتِ في حمل العبء. والحُليُّ تليق بك».

قالت الكونتيسة: «الحليُّ تليق بالجميع»، ثم رمقت بالثازار بحاجبٍ مرتفع وقالت: «وما هذا الذي جئت به؟ على ما أذكر كنتِ تحبِّين الرجال الفقراء الرياضيين، والأغنياء مهما كانت صفاتهم. وهذا يبدو... مثقفًا، ومنطويًا».

رغب بالثازار في الاعتراض، لكنه شكَّ في أن بإمكانه إنكار الأمر، وفي كل حال هو لا يعترض على من بيده مفتاح قيده.

قالت بابتيست، متبسِّمة وكأن الفكرة ذاتها مهزلة: «هو زميل، لا عشيق».

قال بالثازار: «ليس عشيقًا، أبدًا»، وهو يتكلف التبسُّم مثلها، غير أن في صدره شعورًا غريبًا بالحزن.

كان القبو تحت دارٍ امتلأت بجنودٍ في زيٍّ أزرق، يتسابقون في إلقاء التحية إذ مرَّت الكونتيسة جوڤانكا.

تطل الدار على ساحة مزرعة يذبح فيها القصَّابون قطيع غنم، تقابلها حظيرة يكدس فيها الجنود المؤن. وتبيَّن أن المزرعة في زاوية معسكرٍ عظيم ممتدٍ على حقول كثيرة، يضجُّ بجنودٍ يحيُّون، وخيلٍ قلقة، ونيرانٍ مشتعلة، وعرباتٍ متوقفة، وحدائد مصهورة، وغير ذلك.

قالت بابتيست، وهي تدسُّ شعرها تحت القبعة وتعدِّل الريشة المترنِّحة: «لست جندية إلا أحيانًا، لكن يبدو لي أنك في حرب».

قالت الكونتيسة، وهي تقرص خدَّ طبَّال صغير مُتَّسخًا وهي تمرُّ: «ليس اختياري، فإني أمقت موسيقى المسير، لكنَّني استُفزَّت استفزازًا فاحشًا، وأنتِ تعرفينني، لا أسكت عن تحدٍّ».

قال بالثازار، وهو يتأمَّل آلة حصارٍ عظيمة يعمل النجارون على تسوية عوارضها: «والردُّ سيكون قاطعًا».

قالت الكونتيسة وقد بصقت: «ذلك العفن رادوساف! ما أملَّه، ما أشنعه، ما أضرَّه بالصالح العام، بل يا له من شرج تيس مقيت، أليس كذلك يا إجنيشوس؟"».

قال الكاهن وهو ينحني: «أود أن أستنكر اللفظ، لكنِّي أقرُّ بالمضمون على كرهٍ مني».

قالت: «جبارٌ على من دونه، متذللٌ لمن فوقه، مغرورٌ صلدٌ مشاكسٌ لمن يوازيه... آه، آه!». ومثَّلت بأصابعها التقيؤ.

- مطالبه، خصوماته، بستاني، حقلي، قريتي، أقسم إنه لو وهبته الدنيا لطلب فوقها. وها هو الآن في حرب معي! أو أنا في حربٍ معه، أو كلا منا فيحارب مع الآخر. وغدٌ سافل! ذاك الرجل لا يفهم كلمة (لا)، ولا يعرف المزاح، لكنَّه فهم كلمتي (متغطرس تافه)، لأن رسالتي الأخيرة لم تُحسَّن مزاجه.

حدَّقت إلى بالثازار كأنَّها تنتظر منه كلامًا. فتنحنح وقال: «سفيهٌ ثقيل، لا يستحق حتَّى ازدراء سيدةٍ من مقامكِ الرفيع. أرجو لكِ نصرًا ساحقًا».

قالت: «هَهْ»، وتأمَّلته لحظة، ثم مضت قُدُمًا.

- صاحبك الدراكسي لم يُحسن ظهوره الأول، لكنَّني بدأتُ أميل إليه. أنتم تقصدون الأحجار القائمة؟

قال بالثازار، وهو يبتلع قيئ آخر: «بلى... والوقت مهم».

قالت: «أنتم قريبون جدًّا، أستطيع أن أدلّكم على الطريق»، ثم تابعت السير بين الخيام صوب صفٍّ من حصون مدبَّبة على أطراف المعسكر، وقالت: «لكن ربما تلقَون شيئًا من... الصعوبات في بلوغها».

قال بالثازار، وهو يخطو عبر الوحل ليقف بجانبها: «صدقيني، لقد تجاوزنا من العوائق ما لا يُستهان به. وأظن أنَّه لا شيء... يعوقنا... عن...».

قالت بابتيست: «آه».

انحدرت الأرض إلى وادٍ ضحل، مبقَّعٍ بالسبخ، مبعثرٍ فيه غنمٌ، أو ما قد يكون معزًا -أهناك فرق؟- وعلى السفح المقابل صفٌّ آخر من الحِصن القائم، ومن خلفها خيام ترفرف فوقها رايات، ودخان النيران يتسلَّل إلى السماء، وحديدٌ يلمع في غروب الشمس.

معسكر جيش الكونت رادوساف، على ما افترض بالثازار.

وفي الأرض المتنازع عليها بين الجانبين، حلقةٌ مزدوجة من أحجارٍ قائمة، صغار في الأطراف وكبار في الداخل، وقد سقط بعضها خلال القرون كأنها أسنانٌ من فمٍ قد فُقدت.

في مرمى السهام من كلا الجيشين، في موضعٍ يُتوقَّع له أن يكون ساحة حرب إذا جاء الغد.

فرك بالثازار أنفه، وتنهد تنهيدة طويلة.

ثم تمتم: «اللعنة... لهذا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

39

المُكنَّى بحمامة سلام

قال الكونت رادوساف وهو يضيق نظره نحو خطوط العدو منحدرةً في الوادي: «ها هي ذي، قاب قوسين أو أدنى»، ثم عضَّ كفه المكسوَّة بالقفاز، وغمغم: «لعلَّ مع الصباح ستدور رحى الحرب». فتسابق فرسانه في الزمجرة الغليظة والتشخيص الرجولي، فيما أومأت الأمُّ ڤينتشينزا وثلاثةٌ من الرهبان الذين يُعينونها على حمل التُّحف المُقدَّسة برؤوسهم بعنفوانٍ.

دنا البارون ريكارد من يعقوب وهمس: «لا أظن الحرب تناسبنا».

قال يعقوب: «أصبت». فإنَّ رضى رجلٍ مثل الكونت رادوساف خيطٌ واهٍ تعلَّق عليه الرجاء، حتَّى في أحسن الأحوال. فإن جرى قتال، فلعله ينهزم، أو يُقتل، أو تُستنزف قوَّته حتَّى يتوقَّف القتال بغير غلبة، فيبقى عاجزًا عن نفع أحد. وحتَّى لو نال نصرًا ساحقًا، فثمَّة أسرى، وشروط صلح، وموسم فخرٍ وازدهاء. وقد رأى يعقوب ذلك مئة مرَّة. النوايا الحسنة تُدفن في مقبرة الهزيمة، غير أنَّها كذلك تغوص في مستنقع النصر. وفي الحرب، يُحتمل أن تكون آمالهم في العثور على الأميرة أليكسيا أولى الضحايا. فقال: «السِّلم أصلحُ من كل وجه».

ابتسم البارون وقال: «آه، ها هو يعقوب الثُّورني، المُكنى بحمامة السلام، يسعى مرَّة أخرى لوأد الخصومة».

وكانت الأمُّ ڤينتشينزا ترى رأيًا آخر. فقالت مرتفعة الصوت إلى السماء: «النصرُ محقَّق! طهارةُ قضيتكم قدَّستها البطرَك إيزابيلا بنفسها. وإنَّكم لفي صلاتها، في كاتدرائية راجوزا، عند الفجر، والظهر، والغروب». رسم رهبانها دوائر على صدورهم، وتحسسوا آثارهم المقدسة، وهمسوا بأسماء قدِّيسين متعاطفين.

أخذ يعقوب نَفَسًا عميقًا وتقدَّم: «عزاؤنا أن نعلم أنَّ كلَّ جنديٍّ سيموت غدًا، إنما يموت بإجازة من الكنيسة، ويبلغ أبواب الجنَّة مغفورًا له».

قطَّب الكونت رادوساف وهو ينظر إليه وقال: «أتتوقَّع وقوع قتلى؟".

رمق يعقوب الوادي. إلى منحدرات العشب المبتلَّة الممتدَّة، والتيوس المتفرِّقة، والضباب الراكد في القرار، والحجارة الناتئة من خلاله. ولمَّا رأى أنَّ الأعيُن قد انصبَّت عليه، والصمت طال حتَّى يثقل كلامه بالوقار، قال: «عرفت رجالًا عظامًا يا سُموكم. أباطرة وملوك. قاتلتُ عن بعضهم، وضدَّ بعضهم. رجالًا وجَّهوا دَفَّة التاريخ. رجالًا مثلكم». فتظاهر الكونت أنَّه لم يتأثَّر، غير أنَّ تظاهره مفضوح. فالذين وُلِدوا في رغد السلم ونعيم الرفاه، دائمًا ما يشتهون إعجاب أهل البأس. ويعقوب يعتمد على ذلك: «المشكلة فيمن يُحبُّهم الناس كثيرًا... أو يهابونهم كثيرًا... أن لا أحد يقول لهم الحقائق المرة».

نظر الكونت إلى جماعته من المتملِّقين العسكريين: «وأنت تقولها؟».

- أقسمت على الصدق. لا خيار لي إلا الصراحة.

- تكلَّمْ بالصدق إذًا. إنِّي آمرك بذلك!

قال: «الحربُ مقامرةٌ دائمًا». وتنفَّس يعقوب طويلًا، وزفره ببطء. وقد يكون الزمن قد أخذ من قوَّته وبلادة حواسِّه، لكنَّ زفرته ازدادت وقارًا: «لكنَّ على حالكم هذه... لا أُحسن الظنَّ بفرصكم».

اسودَّ وجه الأمِّ ڤينتشينزا، وهمهم الضبَّاط وتلعثموا، لكن الكونت رفع يده ليُسكتهم: «لِمَ؟».

- كنتُ في مشفى ميدانكم. وسمعت جنودكم يتحدَّثون بلا حذر. إنهم يُجلُّونكم ويؤمنون بقضيتكم، لكنَّ الحملة طالت، والمؤن نضبت. وصفوفهم قد مُلئت بالجراح والمرض. والحقُّ، إنهم يرغبون في الرجوع إلى ديارهم.
- رجال الكونتيسة يوفانكا ليسوا بأفضل حال!

نظر يعقوب نحو خيام رادوساف المضروبة بغير نظام، ثم عبر الوادي نحو ما يقابلها: «في عيني، معسكرها يبدو منظَّمًا جدًّا. وهو دليلٌ على قوَّة العزم ووفرة الزاد».

وهمس الفرسان الفتيان بكلمة «جبن»، وهي اللفظة التي يستخدمها أمثالهم لوصف التعقُّل، لكن بعض الشيوخ بدأوا يتمتمون بالامتعاض.

قالت الأمُّ ڤينتشينزا متأفِّفة: «أيها الكونت رادوساف، إنك لابنٌ تقيٌّ للكنيسة، ومحاربٌ لا يخشى في سبيل البابا أحدًا. والكونتيسة يوفانكا استعانت بأهل الانشقاق والمروق! فلا يجوز لمذاهبها الشرقية الزائغة أن تُترك!».

قال البارون ريكارد وهو يتمتم: «عجبًا لعالم نُكِس؛ الكاهن يدعو للحرب، والفارس يطلب السِّلم».

وأشارت الأمُّ نحو أحد رهبانها، يحمل شيئًا كالفانوس المذهَّب على رمح، لكنَّه يحوي دماغًا يابسًا بدلًا من السراج: «آثار القدِّيسَين باسيل وجريجوريا قائمة بين صفوفكم بفخر! فكيف تتوقع الهزيمة مع هذه المعونة الإلهيَّة؟».

قال يعقوب: «فيما شهدت من الحروب...». وداخل نفسه قال إنَّ بابتيست لن تغضب لو استعرتُ هذا المَخرج: «... وقد شهدت كثيرًا... فإنَّ القدِّيسين يقفون مع الكثرة، والسلاح، والموضع».

رمقته ڤينتشينزا بغضب: «قد تكون لك خبرة، يعقوب الثُّورني، لكنَّ الشيخوخة قد سحبت ماءك...».

قال ريكارد: «هل زرتِ بولندا، يا أمَّ ڤينتشينزا؟».

- لا أرى العلاقة...

قال: «ثمَّة نوعٌ من الزلابية يُقدَّم هناك». وثبَّت نظره في عينيها، ولم يَحد: «بديع في سهولته، ومع ذلك، سهل في إبداعه».

تدلَّى فكُّ الكاهنة وقالت: «زلابيـــ...؟!».

قال: «طهارة إيمانك تُذكِّرني بكنيسة في ضيعة زوجتي. بابُها تحفُّه زهرة الياسمين. أما شممتِ عبير الياسمين؟». وجذبها برفق ليُبعدها.

قال يعقوب وهو يضع يده على كتف الكونت كمُلاطف، ويرسم بالأخرى معالم الأرض وخطوط الهجوم المحتملة: «أعلم أنَّ رجلًا ذا خبرة مثلكم قد أبصر هذا من فوره، لكنَّ معسكر الكونتيسة أعلى من موضعنا. والسفح من جانبها أشد انحدارًا، وذلك الجدول وتلك الصخور سيُشتِّتون الهجوم».

قال أحدهم ساخرًا: «ميزةٌ صغيرة».

قال الكونت رادوساف وهو يُطلق تنهيدة ثقيلة من صدره: «المعارك تُحسم على الميزات الصغيرة».

قال يعقوب وهو يلعق إصبعه ويرفعها: «وقد رأيتُ ذلك. الريح ضدَّنا. وسهامهم ستصل أبعد».

فقال أحد الضبَّاط بنفاد صبر: «الريح قد تتغيَّر!».

استدار إليه يعقوب وقال: «الريح قد تتغيَّر؟ أهذا خُطَّتُك؟». وجَّه يعقوب نظره إلى الرجل، فإن كانت السنين صيَّرت زفرته سلاحًا قاتلًا، فإنها جعلت نظراته أفتك منها.

قال الكونت: «لكنك معي!».

فلم يتمالك يعقوب من الابتسام. حين ساور الإمبراطور أودو الشكُّ في قتال الفلمنكيين، أقنعه يعقوب بالهجوم. وقال له يومها، والنار في صدره: «أنا معك. أنا معك».

قال: «في شبابي، كنتُ أؤمن أنَّ رجلًا واحدًا قد يغيِّر كفَّة التاريخ. والزمان علَّمني أنَّ من يفعلها، قد يُميلها إلى الخسران كما إلى النصر».

استدار الكونت نحو الوادي، وهو يفرك فكَّه بقلق وقال: «الرجال منهكون. معسكرها منظَّم. والأرض ليست في صفنا، ولا الطقس...».

قال أحد الشيوخ من القادة: «وخيلهم أكثر...».

فضرب الكونت على فخذه المدرَّعة وقال: «يا إلهي، كم أودُّ أن أهزمها!».

وقد صرف يعقوب سنين في دفع رجال السِلم إلى الحرب. فكان جزاؤه أن يُقنع المغترين بالحرب أن يرجعوا عنها. فاقترب حتَّى لا يسمع أحد، وقال: «لكن، هل فكَّرت كيف يكون الأمر... إن هزمتك هي؟». فطرف الكونت بعينيه، ثم قطَّب وجهه نحو الوادي من جديد. قال له: «سقوط الهيبة. المساس باسمك الذي لا يُطعن فيه. أتريد إذلالها؟». وهزَّ يعقوب كتفيه: «افعلها في مجلس المفاوضة، حيث فطنتك تمنحك الأفضلية».

رفع الكونت ذقنه، وفكَّه يعمل: «أحسب أنَّ كل حرب، في النهاية، تُحسم هناك».

قال يعقوب: «قضيت عمري في الحرب«-بل أكثر من عمر- «ولا أقول إلا هذا: في تسع مرات من كل عشر، يكون في السِّلم ما يُغني عن الحرب».

قال الكونت: «لكنَّك ما زلت تحمل سيفًا».

فابتسم يعقوب ابتسامة مُتعبة، ووضع يده على قبضته وقال: «إذا شاخ الرجل، فلا بدَّ له من عُكَّاز».

40

الثغرة

همس الأخ دياز وهو يتلفَّت من خلف الركن نحو الساحة: «ما الذي جرى هنا؟».

رأيا الجثث مذ تسلَّلا إلى البلدة المنكوبة. بعضها متكوِّر دامٍ في الطريق، وبعضها متفحِّم في الأبنية المحترقة، وبعضها معلَّق في الأقواس، أو من النوافذ، أو على لوحات المتاجر. غير أنَّ الساحة أمامهما مليئة بها. جثثٌ ممثل بها حتَّى اضطر الأخ دياز إلى أن يُميل رأسه ويفكِّر مليًّا ليدرك أنَّها كان يومًا لآدميين. ثم مسح العرق البارد عن وجهه، فعاد ينزُّ على الفور: «تكاد تُشبه...».

قالت ڤيجا، وهي تخطو فوق الرخام الملطَّخ: «عملي؟».

قال وهو يُرغِم ساقيه المرتجفتين على جهدٍ جديد: «لكن دون أيِّ قدرٍ من الكبح...»، وزحف خلفها.

إنها قاتلة بالطبع، ولا يعلم إلا الرب ما صنعت من مجازر، ومع ذلك، مذ انطلقا من الساحل واتَّبعا أليكس في الأرض، لم يبق له من يحافظ على حياته غيرها: تجرُّه، تشتم الأثر، تجد له قوته، تصفعه ليصحو، تجرُّه مرَّة أخرى، دليله الذي لا يكلُّ، وحاميه الذي لا يخاف، ومعذِّبه الذي لا يلين.

شَمَّت الجوَّ الممتلئ برائحة الاحتراق والموت المُبكِّر: «مرُّوا من هنا».

قال وهو يحدِّق إلى بقايا الجنود المطحونة حتَّى تعذَّر عليه عدَّهم: «لِمَ عبروا البلدة رأسًا؟ خاصةً وهي تُنهب؟».

- ليخلِّصوا أنفسهم من الأوغاد الذين يتعقَّبونهم.

رمش الأخ دياز بدهشة، فذلك حلَّ اللغز بإيجازٍ عجيب.

يعلم أنَّها حيوان، متقلبة كغُراب، جلفة كدب، ساهية كالسَّردين. ومع ذلك، صحِبتها طيِّبة، وتُومِض منها بين حينٍ وآخر ومضةُ فطنةٍ شاذَّة تُثبِت أنَّها ليست غبيَّة. لا يظنُّها تُفلِح في مجلسٍ من مجالس رئيس الرهبان، لكنَّه يشكُّ في نجاح الرئيس نفسُه في مطاردةٍ عبر ساحة قتالٍ بحثًا عن أميرة وإلف هاربة.

الرفاق، طيبهم وخبيثهم، رهائن ظروفهم.

همس: «أتظنِّين أنَّهم نجحوا؟».

قالت: «ساني هاربة رشيقة، فآملُ ذلك». ودفعت بأطراف قدميها أحشاء منثورة: «إلى أن تدوسهم أقدامي». ثم ارتسم على وجهها تلك الابتسامة العريضة التي لم تزل تبعث على القشعريرة: «اضحك ما استطعت، فالدهر سيركلك بين فخذيك عمَّا قريب».

استنشقت عربةٍ مقلوبة، وقد انكسرت إحدى عجلاتها فبقيت الأخرى في الهواء، ثم زحفت نحو زقاقٍ ملؤه القمامة: «كانوا هنا... وتوجَّهوا إلى هنا».

رأى النهر في البعيد، فلحق بها إلى مرسى متداعٍ، وقلبه يضرب صدره. ثم جثَت عند حافة الرصيف، ونظرت إلى مجرى الماء: «الأثر يتوقَّف هنا».

- فرُّوا في قارب؟

قالت: «معقول. فتعقبهم أصعب في الماء...». ثم رفعت رأسها فجأة، ونهضت تحدِّق عائدةً إلى الزقاق: «هناك قادم».

هل سمع صياحٍ في الساحة؟ التصق أكثر بڤيجا: «لا أظنُّ المقبل علينا يحمل الود».

انبجس الوتر على ظهر كفِّها الموشوم إذ قبضت يديها: «وأنا أُجيد العداء».

- وهذا ما أخشاه.

قالت وهي تهدر: «أعني أنِّي سأقتلهم».

- وهذا ما أخشاه!

كان باب المخزن عبر الشارع مواربًا، فقبض الأخ دياز على مرفق ڤيجا وجذَبها نحوه. ولم تتحرَّك. قيدَ أنملة. فهمس وهو يجذبها من مرفقها بكلتا يديه: «لا أريد أن أموت وأنت تفعلينها. ولا أريدك أن تموتي». أترى شعاع المشاعل يتلألأ في الساحة الآن؟ «لا ميتة، هو العدد الأمثل!». ثم مال إلى الوراء بكل ثقله، كأنَّه رجلٌ يقود فريقًا في شدِّ الحبل على حدِّ الرهان: «لا تجبريني على استعمال الرباط...».

قالت: «يا خِصيتا أودين»، استدارت ڤيجا فجأةً حتَّى اضطر إلى أن يتشبَّث بمرفقها وإلا خرَّ على وجهه في الطريق. ثم ركلت الباب المفتوح، ودفعته معها إلى داخل المخزن، وأوصدته خلفهما مصارعةً إيَّاه، وأسندته إلى الإطار المخلوع بكتفها، وصوت الخشب المُعذَّب يئنُّ.

غمرت الظلمة المكان، وفاحت منه رائحة رطوبة، وأكياسٌ ممزَّقة، وبراميل فارغةٌ لمحتها عينه عبر شقوق النوافذ المسدودة. سُمعت خشخشة إذ دفعت شيئًا عبر القبضتين لتُقفل الباب، ثم أسندت كتفها إليه.

وما هي إلا لحظة حتَّى سُمِع صوت في الخارج. خطواتٌ عجلى. أصواتٌ مرفوعة. وجمهورٌ يهرع. فانكمش وهو يرى المشاعل تمرُّ، وخيط الضوء الراقص ينساب على وجه ڤيجا، وهي تراقب من شقٍّ في الباب. رأى وجنتها الغليظة، والجُرح الغائر تحت عينها المتلألئة،

والكتابة على وجهها: «احذر». وهي نصيحةٌ علم أن عليه أن يحسب لها حسابًا.

تلاشت الأصوات إلى أصداءٍ خافتة، ثم غابت، وأخرج الأخ دياز زفيرًا كان يكتمه، ثم انزلق إلى الجدار حتَّى التقت أردافه الأرضَ وقد خارت ركبتاه. ولما زال الخطر، اندفع التعب إليه كالبحر إلى زورقٍ مثقوب، يجذبه إلى القاع. ما شعر بمثل هذا الإعياء مذ هرول عبر القصر السماوي، متأخِّرًا عن موعده مع قداستها. بل غدا من العجيب أن يفكِّر في ذلك الرجل القديم، صاحب الطموحات المُدلَّلة. منصبٌ مريحٌ في بيروقراطيَّة الكنيسة. مُربٍّ لأبناء أرستقراطية فاسدة. يتضاحك على نكات الأسقف. أما الآن، فلم تَعد آماله تتعدَّى النجاة من الفصل المُرعب المقبل. والذي، لا شكَّ، وشيكٌ قدومه.

قالت ڤيجا وهي تزمجر: «أنت على حق».

قال: «أأنتِ واثقة؟». وأغمض عينيه يحاول تهدئة أنفاسه، ودقَّ قلبه يهدأ شيئًا فشيئًا: «لا يبدو لي أن تلك عادتي».

قالت: «من يطلب القتال، يجده دائمًا. لا أتعظ أبدًا!». ثم سُمِع في الظلمة دويٌّ جعلَه يرتجف، إذ لكمت موضعًا لحمًا من جسدها: «ولو أنني أود أن أُحمِّل الذئبة الذنب، لكن الحقيقة أنِّي كنت حمقاء قبل أن أُعض».

قال دياز وهو يتمتم: «لستِ حمقاء، إنَّما... ترين الأمور على طريقتك».

قالت وهي تستدير عن الباب، ثم تهوي إلى الأرض مسندة ظهرها إلى الجدار: «جيد أنَّك هنا. ولا تدعني أُخرِج ما في جوفي على نفسي». وقد بدأت عيناه تعتادان الظلمة، فأبصر ظلَّها، ركبتاها مرفوعتان، وساعداها مستندتان عليهما، وكفَّاها تتدليان.

قالت: «أحتاج إلى من يُسكِّن الذئب. شخص أعقل».

ألقى دياز برأسه إلى الخلف مستندًا إلى الحائط. قال: «تعنين أجبن».

قالت: «الجبناء يفرُّون. أما أنت، فأنت خائف. لكنك باقٍ». ورأى بريق عينيها في العتمة وهي تتأمَّله: «لقد تغيَّرت».

- لعلَّي عدت، لا تغيَّرت... عدت إلى ما كنت عليه من قبل...

- ضاجعت المرأة الخطأ؟

ولسببٍ ما، كانت الظلمة تسهِّل البوح. استطاع النطق بما لم يكن ليقوله في اعتراف. وقل ما شئتِ عنها، لكن ڤيجا لا تحكم عليك. وخطاياه، تبدو حقيرة عند خطاياها: «كان في ذلك الرجل ما يُحبُّ. يفعل ما يشاء، لا يعبأ بالعواقب. مثلك تمامًا».

رفعت ڤيجا يديها وهزَّت أصابعها: «وجلب عليَّ من البلايا ما أنى غنية عنه».

قال: «لكنَّك استمتعتِ في الطريق، أليس كذلك؟ أما أنا، فقد دفنت نفسي في ديرٍ عقدًا من الزمان، واتبعت كلَّ أمرٍ ونهي». ثم هزَّ كتفيه: «وها أنا في نفس الموضع الذي أنتِ فيه».

هي محتقرة، لا ريب. وثنيَّة جلفاء، وُلدت في ظلمات الجهل، دون أن تبلغها أنوار المخلِّصة. لا تعرف بعض الفضائل الاثنتي عشرة. لكن، بعضها الآخر -كالجرأة، والصدق، والوفاء، والسخاء- فلربما هي أحقُّ أن تُدرِّسها لرهبانٍ كُثر عرفهم هو. محتقرة، نعم، لكنَّها، رغم كونه عبئًا ثقيلًا، لم تزدره قط.

تمتمت تقول: «أحسبهم مضوا». وقد سكن الخارج، فنهضت: «علينا أن نتحرَّك...».

قال الأخ دياز وهو يمدُّ ساقيه الموجوعتين: «لا أظنني أقوى حتَّى على الوقوف. نحن في مأمنٍ هنا».

- نوعًا ما.

- وسقفٌ فوق رؤوسنا.

- نوعًا ما.

- ولا خير في التخبط في الظلام.

- هممم...

وجلست بجانبه، فتساءل إن كانت تجلس أقرب من قبل، وأدرك في لحظةٍ أن ألفاظه لم تكن موفَّقة. سمع أنفاسها، نَفَسًا بعد نفسٍ، وفي نهايتها زمجرةٌ خفيفة.

هي همجيَّة، هذا ما لا يمكن إنكاره. موشومة بالتحذيرات لمن لا يعرف. وقد رآها في أوَّل مرَّة تتبدَّى له في صورتها البشريَّة، عاريةً، مضرَّجةً بالدم، تتقيَّأ بقايا أناسٍ غير مهضومة. ولم يدر أيكون أكثر أمانًا في الحراك أم في السكون. غير أنَّ الأمان ما عاد أول مطالبه.

قالت ڤيجا بصوتٍ مفكِّر: «الرهبان... لهم قواعد، أليس كذلك؟».

- كأنَّ القواعد كلُّ ما لديهم أحيانًا.

- لكن بشأن مضاجعة النساء؟

ابتلع ريقه وقال: «ثمَّة... نذرٌ بهذا».

قالت: «لكن صدِّقني، زر أيَّ بيتٍ هوى في مدى يومٍ من أيِّ ديرٍ شئت، وستجد فيه من الرهبان أكثر من العاهرات».

- سأُقرُّ بخبرتك في ذلك.

ثم ساد صمتٌ ثقيل. ثم قالت ڤيجا، بصوتٍ خفيض بدأ يصعد شيئًا فشيئًا: «وأحسب أنَّ الأمر... يتضاعف... إن كانت المضاجعة مع حيوان؟».

ازداد ريقه غلظًا: «ذاك مما يُستهجن بلا شك».

- لكن مرَّة أخرى...

- كلُّ رجلِ دينٍ يحاسب نفسه أمام ضميره.

قالت: «لكن... تروَّ قليلًا...». وكان الهواء معبَّقًا برائحتها، في ذاك الحيِّز الضيِّق، تلك الرائحة التي كانت من قبل منتنة، غدت الآن على النقيض: «ما القول... في مضاجعة... ما لا هو أنثى... ولا هو حيوان...». واقترب صوتها، وشعر بذلك: «بل شيءٌ... بين ذلك؟».

هي وحش، وقد رأى بعينه كيف تصير رُعبًا دنِسًا، تنغمس في مجزرةٍ عمياء. مخلوقًا ملعونًا، طاردته الكنيسة، وحكمت عليه، وسجنته، حفاظًا على البشريَّة. لكن، ما أصعب التركيز في ذلك. ما أصعب التركيز في شيءٍ غير ذاك الفراغ الحارِّ المرتجف بينهما، المملوء بحرارتها، وبرائحتها الحلوة الحامضة.

وذاك الدم المتدفِّق سريعًا في جسده.

همست ڤيجا: «أنا لست من العقلاء، أعلم...». ثم سمع طقطقة، حين وضعت قبضتها على الأرض بجانبه: «لكن، أترى أنِّي قد وجدتُ...». ثم طقطقة أخرى، بقبضتها الثانية على الجانب الآخر: «ثغرةً؟».

يا إلهي، إنها تهمُّ أن تدنو منه.

همس: «ڤيجا... أرجوك»، وأغمض عينيه إغماضةً لا نفع منها: «حتَّى لو لم يكن ثمَّة... نهيٌ صريح عن... مضاجعة الذئاب... فذلك سيكون... إثمًا. إثمًا جليًّا، فاحشًا، محظورًا. في كلِّ وجه».

قال: «لا». لا بد أن يكون صخرة. كالقِدِّيس يوستاثيوس، إذ عُرِض عليه متاعُ الدنيا، صرف وجهه نحو الربِّ. قال: «لا». فهي قاتلة، وحش، همجيَّة، مسخ.

مدَّ يده في الفراغ الضيِّق بين شفتيهما، ومسَّ بإصبعه شفتيها، ودفعها بلينٍ بعيدًا. قال: «الجواب لا بُدَّ أن يكون، لا».

سمع زفرتها، وشعر بحرارة نَفَسها على أطراف أصابعه. قالت: «حسنًا». وشَعر بشعرها يلامس عنقه وهي ترجِع على عقبيها: «لن يُجبِرك أحد يا أخ دياز. لكن... إن بدَّلت رأيك... فالثغرةُ جاهزةٌ دومًا...».

قال وهو يزأر: «تبا!». ثم قبض على مؤخر رأسها وجذبها نحوه. أخطأ في الظلمة، إذ فقد المهارة، فبدأ بأن قبَّل أنفها، ثم ما لبث أن بلغ فمها. لمس أنيابها المسنونة، وهي تُقبِّله، تزأر عليه، وتعضُّه عضًّا.

وشعر بقارورة دم القدِّيسة بياتريكس تضرب صدره، كأنَّها تستنجد للمرة الأخيرة. فصفعها غاضبًا وألقاها خلفه. كان فاحشًا للغاية، مقزِّزًا حتَّى القاع، محرَّمًا كلَّ التحريم. كانت وحشًا. ولم يستطع كبح نفسه.

قال وهو يزأر، وأصابعه تنغرز في شعرها، تجذبها إليه: «اللعنة... على ذلك».

41

ما لا سبيل لتغييره

ركل الباب بركلةٍ واحدة، وانفتح مُرتجفًا على أزيز مفاصله. لم تستطع ساني كتم أنَّةٍ شقاء، إذ جعلت أليكس تسحب ذراعها فوق كتفيها وترفعها نصف رفع، فتقدَّمتا تتمايلان عبر العتبة المبلَّلة كما يتهادى وحشٌ جريحٌ بأربع قوائم، في تمثيلٍ مفرطٍ وهو يزحف إلى جُحره ليموت.

قالت أليكس، وهي تطيل النظر من حولها: «قلتُ لكِ، لا أحد هنا».

همست ساني وهي تلهث: «عجبًا... كم هو جميل؟».

مكانٌ خَرِبٌ، إسطبل أو مسلخ أو حظيرة كما تقول الرائحة، مهجور منذ أمدٍ بعيد. الجدار الخلفي من حجارة، هيكلٌ متداعٍ لبناءٍ أقدم، وما بقي فمؤلَّف من ألواحٍ مفلطحة مشوَّهة. ارتجفت خيوطٌ قديمة من نسج عنكبوت في التيَّار البارد، والمطر يتساقط من ثقوبٍ في السقف.

قالت أليكس، وهي تترنّح نحو الزاوية الأقل بللًا، وشرعت تُنزل ساني إلى التبن القذر: «قضيتُ ليالِيَ في أماكن أسوأ».

قالت ساني من بين أسنانها المطبقة: «رويدك».

قالت أليكس، وهي ترتجف من فرط الجهد: «وهذا ما أفعله».

قالت ساني: «قلتُ رويدك!».

فقالت أليكس، وهي تزمجر: «هذا ما أفعله!»، ثم اختلَّ توازنها وسقطتا معًا.

لبثت ساني لحظةً على التبن الخشن، في الظلمة العفنة، تحاول التنفُّس ببطء، أنفها يقطِّب مترقِّبةً الألم، لكنَّها بعد قليل شعرت بتحسُّن. كانت أليكس فوقها، على يديها وركبتيها. ورائحتها خليطٌ من العرق، والخوف، ودخان المدينة المحترقة، تلك التي لم يعرفا اسمها، ولن يعرفاه على الأرجح.

همست ساني: «لا ينبغي... أن نبقى طويلًا». كلماتها ثقيلة تُستلُّ من صدرها: «سيظنُّون... أننا على النهر».

جلست أليكس على ركبتيها. قالت: «إلا إن قتلوا جميعًا في تلك المدينة».

- أتظنِّين أن حظَّنا بتلك الروعة؟

- بالنظر إلى ما سبق، لا. كيف أضلاعك؟

همست ساني: «بخير... ما لم أتنفَّس».

- أفحصها؟

- ولِم؟ أتملكين أعيُنًا شافية؟

رفَّت أليكس بأهدابها وقالت: «ربما قليلًا».

رفعت ساني قميصها ببطء. فقد اعتادت أن تكون فرجةً للناس، ولكن ظلَّ الأمر غريبًا، أن تزحف أليكس نحوها، وتلمس أضلاعها برفقٍ شديد، ترتجف أسًى بإصبع واحدة، رقيقةٍ ولامستها كنسمة، حتَّى ارتعشت ساني. قلَّ من لمسها، وأقلَّ منهم من لمسها بلين.

تمتمت: «هاه؟».

قالت أليكس: «من رحمة الرب أنها ليست أضلعي. أنلفُّها بشيء؟».

- وكيف يفيد ذلك؟

- لا أستطيع الامتناع عن فعل شيء.

قالت ساني: «اللا شيء أيسرُ ما يُفعل». ثم اتَّكأت على التبن، وسوَّت قميصها، وسكنت تمامًا: «امضِ وحدك. دعيني هنا. سأكون بخير».

قهقهت أليكس وقالت: «تبًّا لك. لا طعام معنا ولا ماء، ونحن مطاردتان، وأنت لا تشتكين عادة، فإن قلتِ (آه) فأنت تعنينها».

- لن أكون بخير. ومع ذلك دعيني. عليكِ أن تصلي إلى طروادة.

- لا أبالي بطروادة. لم أرَها قط.

- يُقال إنها جميلة. عليكِ أن تذهبي.

- سُخريةٌ رائعة. كم مرَّة أنقذتِ حياتي؟

تأوَّهت ساني قليلًا وهي تتحرَّك: «بضع مرات».

قالت أليكس: «كثيرة. وأنتِ لا تتبجحين، وذلك أسوأ من عدم التبجح».

- الوقار الحزين خِلقةٌ فطرية فيَّ.

- وأنا لا أستحقُّ أن أجرِّبه؟ وهو يبدو عليكِ رائعًا؟

- كيف تنوين أن تُخرجينا من هذا؟

فنهضت أليكس، تفرك فكَّها، ولم تنبس.

كادت ساني تأمل في وجود خطة. ولكن، لما علمت أن لا خطة عندها، لم تستغرب.

- كنتُ أعلم. عليكِ أن تمضي.

- المزرعة التي مررنا بها... بها إسطبل. لعلَّ فيها فرسًا.

- لن تعودي. قد يُقبض عليكِ.

- طلبتِ خطة، فها هي خطتي.

- ما أردتُ خطة رديئة. لا تستطيعين سرقة فرس.

- أنتِ هزيلة، لكن لا أقدر على حملكِ بعيدًا.

- سنُضيف إلى مطاردينا فلَّاحًا غاضبًا؟

- بين اثني عشر قاتلًا مأجورًا وذئب، لا أظنُّ الفلَّاح سيُغيِّر شيئًا.

- لن أسمح لك.

- وكيف ستمنعينني؟

قالت ساني، وهي تكشف عن أسنانها محاولةً النهوض: «سأفكِّر... في شيء».

وضعت أليكس يدها على كتفها. لم تدفعها، لكنها منعتها من النهوض: «ثقي بي».

نظرت إليها ساني وقالت: «أنا أثق بكِ».

فمالت أليكس وربتت على رأسها.

حدَّقت ساني إليها، ووجهها كلُّه يرتجف نشوة. فتحت أليكس عينيها وحدَّقت إليها، والمسافة بينهما بضع أصابع في ظلمةٍ راكدة. لا صوت سوى صرير الباب تحت هبوب الريح. ورأتها تبلع ريقها، وعنقها يرتجف.

قالت ساني، بصوتٍ مبحوح: «أوه».

وثبَت أليكس إلى الوراء، ثم قامت، وشغلت نفسها بتنظيف ركبتيها من التبن، كأنَّ أهم شيء في الدنيا هو الركب النظيفة.

قالت وهي تستدير نحو الباب: «أبقي هنا. لن أتأخَّر».

قالت ساني: «لا أستطيع التحرك». ثم تساءلت أترى يستحقُّ الأمر أن تتحرَّك بحثًا عن وضعٍ أريح؟ ثم قرَّرت أن الألم لا يستحقُّ. لم تفزع. فالفزع لا يجدي نفعًا. بل إنَّها، في الحقيقة تثق بأليكس. تثق بأنَّها ستحاول مساعدتها.

أما نجاحها، فتلك مسألةٌ أخرى.

* * *

حلمت ساني بقبلةٍ في غابةٍ عميقة، بلذةٍ دافئة، وغناءٍ، وضحكٍ، وأوراقٍ صفراء تهوي على بساط الطحلب الرقيق، وأعمدة ضوء زمردي تنفذ عبر أعالي الأغصان، وأرض الغابة بعيدةٌ إلى حدٍّ يُشعِركِ أنَّكِ ملكةٌ في مملكةٍ تحت الماء.

ثم فكَّرت، على حافَّة اليقظة: «غابة؟ ما أحمق هذا الحُلم لإلف! وكم هو مبتذل!»، وإذا بصوت خبطٍ وجر يقتحم سكونها، كصوت فُرسانٍ قادمين، فوثبت جالسةً، وإذا بألمٍ مروِّعٍ يخطفها كأنَّها رُكلت مجددًا، فسقطت تتأوَّه.

وتسللت خيوطٌ من ضوءٍ رمادي من شقوق الألواح، ترسم خطوطًا على التبن، وبلمحةٍ من النهار، بدا المكان أوسَخ ممَّا في ظلمة البارحة. حلَّ الصباح وهكذا، تسلَّلت أليكس في الليل وتركتها. وهذا ما أمرتها ساني به، لكنَّها رجت في سرِّها ألا تفعل. يا لها من حمقاء، ولا عجب. إذا أخبرك أحدٌ أنه كذَّاب، فصدِّقه.

ارتجف الباب وانفتح. فحاولت ساني حبس أنفاسها، لكنَّ الألم في جنبها طغى، فما استطاعت إلا أن تنكمش، تجمع أضلاعها بيديها كأنَّما خشيت أن تنفرط، لا مفرَّ من أن تظلَّ ملقاة هناك وتتحمَّل ما يأتي. وليس ذلك أول مرَّة، للأسف.

قالت أليكس: «إلى الداخل، أيها اللعين الكبير. إلى الداخل». ورأت ساني فرسًا أشعث مبرقشًا بالسواد والبياض يُقاد إلى المخزن، وأليكس تجرُّه من لجامه. فإذا بها لم تُترَك، وغمرها شعورٌ دافق بالطمأنينة والعجب ممتزجَين.

- جلبتِ فرسًا.

نظرت أليكس حولها، وهي ما تزال تجرُّ الدابَّة المتردِّدة: «يبدو أنَّك دُهشتِ».

- قليلًا.

- ألم أقل لكِ إنني كنتُ سارقة؟

- ظننتُك تغيَّرتِ.

قالت أليكس، وهي تدخل الفرس أخيرًا، وترمق رأسه بفخر: «بلى. والآن صرتُ سارقة خيل». ثم ربَّتت على عنقه، فأخفض رأسه وأطلق شخيرًا خافتًا: «سيكون معنا أكثر سعادة».

قالت ساني: «ولِمَ يكون معنا أسعد؟ نحن خرابٌ مقيم».

قالت أليكس: «ذاك هو السرُّ. نحتاج إليه. مع ذلك الفلَّاح هو يشدُّ المحراث وحسب، ومعنا يكون بطلًا». ثم لَفَّت لجامه حول خشبة، ومشت نحو ساني.

- هذا ما أُقنع به نفسي.

همست ساني: «سمعتُ أكاذيبَ أسوأ...»، ثم تحوَّل قولها إلى زفيرٍ متهدِّج، إذ حاولت الجلوس.

فأمسكت بها أليكس من تحت إبطيها، كأنَّه عناقٌ خفيٌّ، ورفعتها حتَّى سَنَدتها إلى الجدار المتآكل: «أتستطيعين الوقوف؟».

قالت ساني وهي تحاول جر نفس لا عميق ولا خفيف: «لا بأس... ما دمتِ تمسِكينني».

نظرت أليكس في عينيها، لا تبتسم، ولا تعبس. وقالت: «ما دمتِ تحتاجين»، ثم بدأت تعينها على الوصول إلى الفرس.

قال صوتٌ من الباب: «أليس هذا جميلًا؟».

وقف رجلان في المدخل، أحدهما ضخمٌ كجذع، والآخر أقصر لكن لا يقلُّ عنه وزنًا، أصلع حتَّى في حاجبيه.

قالت أليكس: «تبًّا».

أما ساني، فشعرت بالتعب أكثر من الخوف، وتساءلت أترى يجدر بها أن تتمدَّد ثانية. حاولت أن تكون طيِّبة، ولكنَّ العالم لا يضيِّع فرصةً ليُفرغ عليها سوءَه.

قال الأصلع وهو يتفحَّصها: «أهذا الكائن إنسيٌّ؟».

قال الضخم: «إنها إلف».

قالت امرأةٌ بأنفٍ معقوف مكسور، وهي تدخل الحظيرة خلفهما وتُشِير بإصبع غليظة نحو أليكس: «يعني أنَّها ابنة الخالة. سيسر ساباس».

فإذا بهم ثلاثة لاثنتان، وخمس أضعافهم وزنًا، وثلاثين ضعفًا في السلاح، إذ إنَّهم بدوا وكأنَّهم شدَّوا الرحال لحربٍ مع بورجونيا. فتراجعت ساني، قابضةً على جنبها، وتراجعت أليكس أيضًا، وقد وضعت نفسها بينها وبين أولئك القتلة الثلاثة، الذين بدؤوا يتقدَّمون ببطء، كأنهم يرقصون رقصةً بلا لحنٍ ولا نهايةٍ سوى الهلاك.

قال الضخم: «أين أنفك السحريُّ يا ترى؟ لا أطيق صبرًا لرؤية وجه الدانماركيِّ حين نخبره أننا سبقناه إليها».

قالت المرأة: «أخبره وحدك. يقشعرُّ جلدي لذاك الدانماركيِّ».

قال الأصلع، متأمِّلًا: «أيُّهم تكرهين أكثر؟ الدانماركي؟ التوأمان؟ أم آخذ الرجال؟».

قالت المرأة: «أكرههم كلَّهم، سواءً بسواء. ولن ينفد مني البُغض».

حاولت ساني أن تأخذ نَفَسًا وتحبسه، لكنَّ ألمًا كالطعنة كاد يُغشى بصرها، فأفلتت زفيرًا شاقًّا. لطالما تاقت أن يراها أحد، وها هي الآن تتمنَّى أن تختفي فلا تقدر. خبأت أليكس يدها خلف ظهر ساني، تحت سترتها الحمراء القذرة، واستلت الخنجر من حزامها.

قالت المرأة: «احذروا. أظنُّ معها نصلًا».

قال الأصلع: «وماذا في ذلك؟ معي عدَّة نصال». ثم سحب خنجرًا من خاصرته، ضعف نصل أليكس طولًا، وصُقل سنينا حتَّى صار كالهلال.

قال الضخم: «ساباس لا يريدها ممزَّقة».

قال الأصلع: «ماذا لو قطعنا منها القليل؟».

قال الضخم: «قد يتغاضى عن ذلك».

خطت ساني خطوةً إلى الوراء، فاصطدم كتفاها بالجدار. لم يبقَ مهرب. وإذا بشخصٍ آخر يتسلَّل من الباب. أضحت كفَّتهم أرجح... أو هكذا بدا... لكن شعاعًا من الضوء مرَّ على وجه القادم الجديد، فأبان عن شعرٍ أسود منكوش، وخدٍّ شاحب، ثم كتابةٍ وشمٍ ممتدَّة. فكادت ساني تبتسم.

الذئاب نقمةٌ حقيقية. حتَّى يكونوا هم تمامًا ما تحتاج إليه.

قال الضخم وهو يضع يديه على خاصرته: «ما رأيكِ أن ترمي بالسكِّين؟ لقد نفد صبري. أتعبتُما أنفاسنا بهذه المطاردة».

قال الأصلع ولم يدر أن الأمور ستصير مروعة الآن: «ما جرى في المدينة كان مروِّعًا. ذاك الدانماركي استذأب حتَّى جُنَّ. كدتُ أُرشق بسهم. لمن كانت فكرة الفوضى؟».

أشارت ساني إلى أليكس وقالت: «هي». كلُّ ما يلزم الآن هو صرف انتباههم بضع لحظات أخرى. وإذا بيدي ڤيجا تباغتان المرأة من خلفها، واحدةٌ تقبض على صدرها فتشلُّ ذراعيها، والأخرى تعتصر عنقها، وأصابعها الموشومة تستحكم حول حلقها. فغرت المرأة فاها كأنَّها تصرخ، وما خرج صوت. التوت وتلوَّت، لكنها مثبتة كدبورٍ في عسل، وقدماها ترفسان في الفراغ بصمت.

قالت ساني: «لكنِّي أنا من دسَّ السُّمَّ في طعامكم».

قال الضخم وهو يستلُّ فأسًا شائكة من حزامه: «تغوَّطتُ ماءً ثلاثة أيَّام! لعلَّ ساباس سيضطر إلى جمع أشلائك».

قالت أليكس: «تمهَّلا»، وهي تلوِّح براحتها نحو الرجلين، تتأكَّد أن أعينهما عليهما بينما تضغط ڤيجا أكثر فأكثر، والدماء تسيل خطوطًا على ساعدها وتقطر من مرفقها: «يمكننا أن نعقد صفقة!».

قهقه الأصلع وقال: «بِمَ؟».

قالت أليكس، وقد مدَّت لفظة الجواهر مدًّا كما يمدُّ الكاهن اسم قدِّيس جوابًا لكلِّ دعاء: «جواهر. لديَّ منها مدفونة».

وقد تصارع الطمع والريبة على وجهيهما القبيحين، فيما خلفهما انقلبت عينا المرأتين، وركلاتهما تذوي إلى ارتعاشات.

همست ساني: «لا تخبريهم عن الجواهر!»، فالناس يزداد ولعهم بما نُهوا عن معرفته.

ويبدو أن الطمع غلب ولو مؤقَّتًا، إذ لعق الضخم شفتيه وقال: «لديكِ جواهر؟».

قالت أليكس: «ألستُ أميرة؟»، وهي ترفع ذقنها على نحوٍ أميريٍّ، بينما تُنزِل ڤيجا جثمان المرأة إلى التبن برفقٍ كأمٍّ تضع رضيعها إلى مهدٍ هادئ للنوم.

- لديَّ منها الكثير.

قال الأصلع، فيما تستل ڤيجا خنجرًا من حزام القتيلة وتزحف إلى الأمام: «أين؟».

قالت أليكس: «قريبة». وبدأت تبتسم: «قريبة جدًّا».

قال الضخم، وعيناه تتلألآن طمعًا: «أين؟».

مالت أليكس نحوه، كأنَّهم يتشاركون سرًّا مفرحًا صغيرًا. وقالت: «في دُبُرِك اللعين».

وعندها غرزت ڤيجا الخنجر في قمة جمجمة الأصلع، فهشّمتها بطقطقةٍ رطبة، واندفعت إحدى عينيه من محجره، وتناثر الدم على وجنة الرجل الضخم. فدار الضخم إلى الوراء إذ خرَّت الجثة عند قدميه. ونظرت إليه ڤيجا، حاجباها مرتفعان في تساؤلٍ ساخر، كأنَّها طرحت عليه سؤالًا عسيرًا وترقَّبت جوابه.

تبدَّد لون وجهه: «ذئب دانماركي آخر...».

قالت ڤيجا وهي تُظهر أنيابها المسنونة: «أنا سويدية».

هوى بفأسه، فأمسكت ڤيجا بمعصمه، وضربت بمؤخر كفِّها ساعده، فانكسر من المنتصف، كأنَّ له مرفقًا ثانيًا. فسقط الفأس من أصابعه المترهِّلة، وزمجر ألما وغضبًا، واستلَّ خنجرًا منحنيًا بيده الصالحة. فما إن فعل حتَّى قبضت على ذراعه الأخرى، وكسرتها كسرًا أفدح، حتَّى خرجت شظيَّة العظم من جلده المشعر، واندفعت الدماء حوله. خرَّ على ركبتيه يولول، والخنجر يهوي بجوار فأسه.

مالت ڤيجا فوقه: «أتنوي رفسي الآن؟ هيا، ارفسني إن كنتَ تجرؤ، نحن مستعدُّون!».

فإذا برجلٍ يقتحم الباب، وفي يده غصن غليظ لا تزال أوراقه عليه. احتاجت ساني إلى لحظة لتعرفه من دون ردائه الرهباني -جسده مشدود، وهائج، وغير حليق.

قالت أليكس وهي تبتسم: «أنت حيٌّ!».

حدَّق الأخ دياز إلى الجثتين: «يبدو أن القدير لا يزال له فينا حاجة».

وأحيانًا لا يحس المرء بالتعب حتَّى يزول الخطر. اهتزَّت رُكبتا ساني، وارتعشت أجفانها، ثم سقطت على ركبتيها، وأحدهم يربِّت على خدِّها ويقول: «هل أنت بخير؟ هل أنت بخير؟».

قبضت ڤيجا على عنق القاتل الأخير وهزَّته بعنفٍ هائج: «هل آذيتَها أيها الكلب؟». فأنَّ وخشخش، وذراعاه المكسورتان تتأرجحان خائبتي الرجاء. قالت: «سأمزِّقك نصفين من دُبُرك إلى رأسك!».

قالت ساني بصوتٍ خافت: «رفسني الفرس». وقد دار رأسها.

استدارت ڤيجا نحو الفرس المسروق وقالت: «هذا اللعين؟».

قالت أليكس: «لا، لا! فرسٌ آخر!».

قالت ڤيجا: «ليأمل ألَّا أعثر عليه!».

قال الأخ دياز: «ترفقي يا ڤيجا. ترفقي!».

صاح الرجل الضخم بصوتٍ مبحوح: «أستطيع أن أخبركم بما يُخطِّط له ساباس!»، والذي، في رأي ساني، كان يتعلَّم درسًا بالغًا: مهما كنت فظيعًا، فثمَّة دومًا من هو أفظع، وكلَّما استعرضتَ قوَّتك أكثر، عجَّلوا بك فكسروا ذراعيك كلتيهما.

قال الأخ دياز: «الدوق ساباس؟ الابن الثاني للإمبراطورة يودوكسيا؟ أهو هنا؟».

قالت ساني من بين أسنانها، وهي ترتكز على مرفقها: «لقد طاردنا طول الطريق».

قال الرجل وهو يئنُّ: «إنه آتٍ! ومعه سحَرتُه، وذئبه الدانماركي... آه!».

قال الراهب: «ڤيجا، أرجوكِ!». وجاهد لانتزاعها عنه، فما زاد إلا أن تعلَّقت به.

قال الرجل: «سأساعد، أستطيع إبلاغه رسالة!».

قال الأخ دياز، وهو ينتزع قبضة ڤيجا من على سترته الممزَّقة: «إنه صادق! آمرك أن تتركيه!».

قالت ڤيجا وهي تزفر: «صدَق. لا أنكرها عليه».

نفخت أليكس خدَّيها وجلست على ركبتيها، وتنهد الأخ دياز زفرةً طويلة، وترك ڤيجا شيئًا فشيئًا، ابتسم الرجل ذو الذراعين المحطَّمتين ابتسامةً بغصة، وهو في ألمٍ لا يوصف. فما لبثت ڤيجا أن لكزته بقبضتها ضربةً غاصت أنفه بها إلى عمق جمجمته، وارتطم بالحائط، ثم ارتدَّ عنه وتدحرج على التبن المتَّسخ، وتغرغر من فمه دماء، ثم سكن.

- بلِّغ الرسالة على خير وجه.

حدَّق الأخ دياز إلى الجثَّة وقال: «قلتُ لكِ لا تؤذيه!».

- قلتَ لي أن أتركه. وقد تركته.

وتمدَّدت ساني على التبن وأغمضت عينيها. فلم القلق على ما لا سبيل إلى تغييره؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

42

مناسبة بهيَّة

في حالٍ غير هذا، لغمر قلب بالثازار بالسرور بمثل هذا الزهو والمراسيم.

جلست الكونتيسة يوفانكا على السرج الجانبي، منتصبة انتصابًا يؤلم، تتلألأ حليُّها، على فرسٍ أشهب بهيٍّ، طويل متباين مع قِصرها، تسير في مهلٍ يكاد يُعَدُّ إساءة، قاصدة صفوفها الأحجار القائمة، حيث نُصبت مائدة مصقولة لماعة، عظيمة الحجم، تصلح أن تكون زينة وسط قاعة طعامٍ في قصر، وتحت ظِلِّ خيمةٍ زمرديَّة ضخمة، مشدودة على أربعة أعمدة مذهبة. بانت كنقطة لامعة في رأس سهمٍ من الجنود والخدم، والكتبة والنبلاء، وأهل السلاح ووصيفات الشرف، في حلل الأعياد. أما سينسلوس إجنيشوس، فقد استبدل قلنسوته الشاهقة بأخرى مرصَّعة بأشباه الجواهر، حتَّى إنَّ العدو ليحسبها برجًا من أبراج الحصار.

وفي المقابل، انحدر الوفد الخصم من السفح الآخر بنفس الوقار، لا يقبل أن يُغلب عددًا ولا مظهرًا، راياتهم تخفق، وأزمَّتهم تصطك، والشمس تومض على الدروع المصقولة والخيوط الذهبية.

ولكن، للأسف، فإن هذا الجمع المتلألئ الذي قد يشتهيه المرء عند نصره، هو آخر من يرجو أن يشهد مذلَّته. جعل بالثازار حذاءه، المنتزع من نبش قبور، خرقة تخوض في البلل وتصرُّ عند الخطو. وقميصه،

المسلوب من جثة، قد صلبه الوسخ، وتلطَّخ بشحم السناجب، وتفشَّى فيه قمل الموتى. وكان جائعًا، لم يَغتسل، وقد بلغ الغاية من التعب الجسدي والنفسي، يشبه من يعاون معاونَ مُجمَّع الروث، لا أحد كبار سحرة أوروبا.

فانسحب في انكسار خلف الكونتيسة وموكبها، يخترق الحلقة الخارجية من الحجارة، كل حجرٍ أطول من رجل، ثم عبر حلقة داخلية أطول منها بمرتين، وفي شقوقها نبتت الأزهار البرِّية، وهنا أحسَّ بالثازار برجفة الشعيرات الدقيقة، ووخز أطراف الأصابع، وذاك المسُّ اللذيذ لحضور القوى. هذا موضعٌ يلامس فيه المألوف الغيبي، وتبلغ فيه قوى السحر أوجها، وتجتمع تيارات الأرض الخفية، وتشفُّ فيه الحدود بين العوالم. وكم كان، يومًا ما، ليستشعر نشوة غامرة بما يُتيحه هذا الموضع من الإمكان. أما الآن، فما شعر إلا بتململ رباط البابا الجائع في أحشائه الممزَّقة.

شدَّ الكونت رادوساف لجام جواده القاتم حتَّى ارتفعت قوائمه، وللرد على كبريائه، أوقفت الكونتيسة جوادها في رصانة لا تصطنع. فوقف النبيلان متقابلين على جانبي الحلقة الحجرية، أمام أعين جيوشهم المتقابلة. تموَّج العشب وهفهف الخِباء في النسيم. وزقزق طيرٌ متربِّع في أحد الأحجار، لعلَّه فُجِع باضطراب هذا الصباح الهادئ. وكتم بالثازار تجشؤًا.

كان كل فردٍ من أفراد الموكبين، كأنما على عهدٍ صامت، ثبت بصره على نظير له من المعسكر المقابل. فالإجنيشوس شزَر بعينيه كاهنةً بثيابٍ لا تقلُّ فخامة. وبالثازار راح يطالع تلك الوجوه القاتمة، حتَّى اعترته رجفة مفاجئة من التعرف، فشدَّ طرف كُمِّ بابتيست.

همست بابتيست: «أجل، أخبث زوج أوغاد لا يُقتل».

فهنالك، في مؤخرة موكب الكونت رادوساف، وقف يعقوب الثورني، أكثر تصلُّبًا في ملامحه مما عهد بالثازار، وبجانبه البارون ريكارد، أكثر شبابًا مما بدا عند لقائهما الأخير. وقد رفع مصَّاص الدماء إصبعين إلى جبهته في تحيةٍ ساخرة.

قال رادوساف وهو يزأر: «هيا بنا»، وهبط عن سرجه، وجذب حزام سيفه المرصَّع إلى موضعه، وسار إلى المائدة.

فصفَّقت الكونتيسة بأصابعها ليلقي أحد الخدم نفسه أرضًا على أربع مكونًا سلَّمًا من ظهره. ومدَّ اثنان أيديهما فاختطفا الكونتيسة من السرج كأنها ملاكٌ صغير نزل من السماء، بينما أمسكت وصيفتان بأطراف ذيلها، فانسدل على العشب، وهي تنساب نحو المائدة.

همس بالثازار: «قد جعلوها فرجة ما بعدها فرجة».

قالت بابتيست: «أوه هذا لا شيء. لو رأيت محادثات الصلح بين الملكتين التوأمين في فرنكيا وإمبراطور بورغنديا! دامت ثلاثة أشهر».

قال بالثازار: «وشَهِدتِها؟».

قالت: «كنتُ المراقب المحايد لدوقة آكيتان».

هزَّ بالثازار رأسه بأسى: «دائمًا ما يكون لكِ الغلبة، أليس كذلك؟».

قالت وهي تروِّح بقبعتها على وجهها، وخصلاتها تتراقص: «لستُ أسعى، ولكنه الحال دومًا».

ضرب الكونت رادوساف المائدة المصقولة بقبضتيه المكفَّنتين بالقفاز في صوتٍ مسموع، يحدق وشفته العليا ملتوية بازدراء. أما الكونتيسة، فقد تفحَّصت أظفارها، ثم تنهدت، ورفعت رأسها بتيه، وبادلت نظره بسخريةٍ غلبة.

قالت الكونتيسة: «زوجي».

قال الكونت مزمجرًا: «زوجتي».

قطَّب بالثازار وقال: «مهلًا... ماذا؟».

* * *

قال يعقوب متجهِّمًا: «مهلًا... ماذا؟». وما عاد يعد من كثرة المجالس التي وقف عليها حارسًا، أحيانًا يخيِّب ظنه أن الحرب انتهت، وأحيانًا يسعى لإشعالها من جديد. لكنه لم يشهد صلحًا بين زوجين.

رفع البارون ريكارد حاجبيه وقال: «ظننتُ أن الجميع يعلم؟».

همس يعقوب بمرارة: «بعضنا ليس مرهفًا في شؤون الغرام، ولعل السبب قلة الخبرة...».

قال البارون: «كنتُ دومًا شديد التأثر بالرومانسيات»، وبينما جلس رادوساف على كرسيه يحدِّق إلى زوجته، وأردف: «وأحسبُ هذه إحدى تلك القصص التي لا يُعرف أين ينتهي فيها الحب وأين يبدأ البغض»، إذ جلست الكونتيسة على الكرسي المقابل، ونظرت إليه في علو وقالت: «كنتُ أنا ولوكريشا كذلك. كالهِرَرة والكلاب كما يقولون، لكن ببيتٍ أوسع وخرابٍ أشدَّ. كم من خصام وقع! كم شجار مهلك! ولكن المصالحات...»، وأغمض عينيه وتنهَّد: «كانت أفعى، طائشةً، أنانيةً، ماكرة. يا إلهي، كم أشتاق إليها».

ثم وقع صوتٌ أجوف حين ألقى سينسلوس إجنيشوس رزمة من الأسفار المجلَّدة فوق المائدة، فيما فردت الأمُّ ڤينتشينزا خارطة عظيمة.

طوى يعقوب ذراعيه، وتنقَّل بثقله من ساقٍ إلى أخرى، في جهدٍ عقيمٍ ليُخرج الأوجاع من وركيه: «أحسب أنهم سيمكثون زمنًا».

قال البارون ريكارد: «أكثر ما تفضِّله كنائس الشرق والغرب على القتال الصريح، هو الخصومة المطوَّلة في أحكام القانون، لكن انظر إلى الجانب المشرق».

قال يعقوب ساخرًا: «وهل ثمَّة جانب مشرق؟».

اقترب مصَّاص الدماء وهمس: «لن ينفد منا الوقت، على الأقل». امتدَّ النهار، وارتفعت الشمس، وزحف ظلّ الخيمة على العشب، وانتشرت الوثائق فوق المائدة، والكاهنان يتنازعان في كل تفصيلة، يتلاطم كلامهما كطعنة وردَّ طعنة، تفصله تعليقات الكونتيسة يوفانكا المزمجرة، واعتراضات الكونت رادوساف الصائحة. كلا الكنيستين قد تبجَّحتا على المنابر برحمة المخلِّصة، ولكن ما أعطتا في مجلس التفاوض شيئًا يُذكر.

أمر الكونت رادوساف بإحضار الخمر لنفسه، فشرب، وازداد وجهه شرًّا، ثم ملَّ من الشرب وحده، فأمر بالخمر للجميع. وقد أخذ يعقوب عهد الزهد، فردَّه كما يفعل دائمًا، وراقبهم يشربون، كما يفعل دائمًا، وندم على نذوره بمرارة، كما يفعل دائمًا.

وما ارتخى مزاجه قط، لكن مزاج الآخرين بدأ يرتخي. فتراخى الحرس عن القيام في انتباه، ثم اتكؤوا على الحجارة، ثم ارتموا على العشب، ووضعوا سلاحهم، ثم خوذهم، ثم بدؤوا يتخالطون ويتبادلون التحايا مع رفقاء قُدامى من الجانب الآخر.

قالت بابتيست وهي تمشي نحوه تروِّح على نفسها بقبعتها: «يعقوب، أيها العجوز اللعين! ما أعجب لقياك هنا!».

قال يعقوب وهو يومئ بقدر ما يسمح عنقه المتيبِّس: «بابتيست. سررت ببقائك حيَّة».

وقفا لحظة صمت، يتأملان الأمَّ ڤينتشينزا ترسم حدودًا على خريطتها، ثم سينسلوس إجنيشوس يرفع يديه ساخطًا.

قال يعقوب: «والآن ردي عليَّ بأنك سررتِ ببقائي حيًّا».

هزَّت بابتيست كتفيها وقالت: «أنت دائمًا حيٌّ. كيف انتهى بك المطاف في موكب كونت؟».

- كالمعتاد. تُركتُ في عربته المليئة بالجثث، ثم أقنعه مصَّاص دماء بأخذي. وأنتِ؟ كيف صرتِ تخدمين كونتيسة؟

- أوه إنها صديقة قديمة.

قال يعقوب، مجاهدًا ألا يَظهر عليه الحسد: «لطالما كان لك أصدقاء قدامى كُثُر».

- ومع ذلك، فلقاؤها هنا ضربة حظ.

قال يعقوب، مجاهدًا ألا يَظهر عليه الحسد: «لطالما حالفكِ الحظ».

- ما تدعوه حظًّا أدعوه استعدادًا دقيقًا، وحذرًا دقيقًا، وعدم مدِّ عنقي أبدًا.

قال يعقوب: «نحن في معبد الذرائع المُقدَّسة. وأعناقنا دومًا ممدودة». ثم رمق بالثازار، يحدِّق إلى معصمه المحروق بوجهٍ هو أحلك ما يمكن تخيُّله: «أرى أنكِ أبقيتِ ساحرنا حيًّا».

- لم يسهل عليَّ ذلك. بضعة أيامٍ أخرى وربما قتلته بنفسي.

قال: «ومن سيلومك، إن كان رباطه يؤلمه، فلا بدَّ أن الأميرة أليكسيا ما زالت حيَّة».

همست بابتيست: «يبدو ذلك. يظنَّ أنه قادر على أداء طقسٍ يتعقَّبها. هنا، عند الحجارة».

- أتعتمدين عليه؟

- وأيُّ خيارٍ عندنا؟

- كالعادة، أي لا خيار.

قالت بابتيست: «نحن معبد الذرائع المُقدَّسة. لا خيار لنا قط».

قالت الأمُّ ڤينتشينزا، وريشة قلمها تخدش الورق وهي تشطب بندًا آخر من قائمتها الطويلة: «التالي... مسألة المرعى المتنازع عليه بين النهر ومزار القديس بطرس الأعمى...».

قالت الكونتيسة يوفانكا وهي تنتفض: «أريد المرعى!».

قال سينسلوس إجنيشوس وهو يجري إصبعه الملطخة بالحبر على سجلِّه: «جلالتك؟ لا وزن له. اثنا عشر فدانًا لا أكثر...».

قالت الكونتيسة، ونظرت إلى زوجها: «له قيمة عاطفية».

وضع الكونت رادوساف كأسه: «التقينا هناك. وتنبت على ضفَّته صفصافات قديمة». ورفَّ وجهه قليلًا بلينٍ: «مكانٌ ساحر».

قالت الكونتيسة يوفانكا وقد ازدردت ريقها: «قلتَ لي إنه كان أحبَّ المواضع إلى قلب أمِّك».

- أرادت أن تُدفن هناك، لكن...

وضعت الكونتيسة يدها برفق على ذراع إجنيشوس وقالت وهي تحدِّق إلى زوجها: «أريد المرعى... لأقطع الصفصاف وأحرقه»، وانكشفت أسنانها حين لفظت الكلمات عبر المائدة: «كما أحرقتَ بلدتي يا ابن الكلب!».

قالت بابتيست وهي تسند رأسها إلى كفَّيها: «يا مخلِّصتنا، أعيننا».

صرخ الكونت: «لعنكِ الرب يا سيدتي!». وقفز من كرسيه حتَّى طار إلى الوراء: «كيف يُصالح المرء شيطانةً ملعونة كهذه!».

صرخت الكونتيسة: «لعنك الرب يا سيدي!». وشهرت يدها في الهواء تكاد تلطُم بها وجه أحد حرسها: «لا أستطيع أن أتنازل لمخلوقٍ من كيس مرارة!». ثم دفعت سينسلوس إجنيشوس جانبًا، ومشت بجانب المائدة في زهو، تتعثر وصيفاتها خلفها في الإمساك بذيلها.

قالت الأم ڤينتشينزا في يأس: «فلنبقَ جميعًا هادئين...». لكن الكونت دفعها بكتفه ومضى حول المائدة، وعيناه مثبتتان على زوجته.

قال البارون ريكارد وهو يسند مرفقيه على العشب وقد كان مستلقيًا، ويداه خلف رأسه يتأمَّل السحب: «أوه لا...».

اضطرب الحرس الذين نسوا القتل حول الحجارة، وبدؤوا يرجون عصرًا هادئًا. قبضت الأكفُّ التي كانت مكفوفة على مقابض السيوف، وانزلقت خلال أذرع التروس، وتلمَّست مقابض النصال في أغمادها.

همس يعقوب: «أوه...»، فقد بلغ الأمر لحظةً فاصلة، بعدها لا يعود الانحدار قابلًا للكبح. شعر بقرب العنف، كما يشعر البحَّار القديم بالعاصفة قبل أن تهطل قطرة على السطح.

صرخ الكونت: «لن يرضيني أقل من استسلامك التام!». وقد دار حول طرف المائدة واقترب خطوةً من زوجته. خلفه، رفع أحد ضبَّاطه يده المرتجفة نحو الجنود المصطفِّين على التلِّ، يكاد يشير بالهجوم.

قالت الكونتيسة ساخرة وهي تخطو نحوه: «استسلام؟ ها! سأدوسك تحت عقبي!».

تحرَّك الحراس المسلَّحون في انسيابٍ يكاد لا يُرى إلى الداخل، بينما انسحب الخدم العزَّل بنفس الخفة إلى الوراء.

قالت بابتيست: «أوه...».

قال الكونت وهو يزأر: «ستتوسَّلين الرحمة!».

همست الكونتيسة كالأفعى: «وستصيح طلبًا للصفح!».

عض كل من حولهما على نواجذهم، وتمتموا بالدعاء، وشدُّوا مؤخراتهم. حدَّق الكونت إلى زوجته، ومنخراه يتسعان في شموخ، وحدَّقت الكونتيسة إلى زوجه، صدرها يعلو ويهبط في تكبُّر. وفي لحظة رهيبة، حبس العالم أنفاسه.

ثم زقزق الطائر مرَّة أخرى، فقبضت الكونتيسة على طوق عنق زوجها، وقبض هو على درع صدرها المزخرفة، واشتدَّا كلٌّ على صاحبه في عناقٍ حميم، وأخذا يقبلان بشراسة، لا يعبآن بكاهنٍ ولا خادمٍ ولا جيشٍ ولا أحد.

رفع يعقوب حاجبيه وقال: «هذا ما لم أتوقَّعه».

قال البارون ريكارد وهو يعاود الاستلقاء: «من هو مرهف في الحب لن يتفاجأ».

وأخرج الموكبان زفرة واحدة طويلة. وتبادل الرجال من الجانبين التنهُّد والابتسام ورفع الحواجب. وأعيدت السيوف إلى أغمادها. وجُنبوا من سفك الدم.

أفلت يعقوب قبضته عن مقبض سيفه، وحاول أن يحرِّك أصابعه ليطرد منها الوخز، وتنفس الصعداء. أو لعله تنهد خيبة؟ ثم افترق الزوجان لحظة قصيرة، تطلَّع فيها أحدهما إلى عيني الآخر.

قالت الكونتيسة وهي تبصق الكلمات: «أحبك أيها الأحمق».

قال الكونت وهو يزمجر: «أقسم إني أحبك».

ثم عادا إلى التقبيل.

قال سينسلوس إجنيشوس وهو يلتفت إلى الأم ڤينتشينزا: «لعلَّنا ننصرف إلى كنيسة القديسة جلوريا، ونفصِّل ما تبقَّى من البنود؟».

لوَّحت الأم ڤينتشينزا بيدٍ يعلوها الإعياء: «فليكن».

عبست بابتيست تنظر إلى أصابعها، ثم رمقت التلَّ الذي تحتشد عليه الجيوش، شفاهها تتحرَّك دون صوت.

قال يعقوب: «ما الذي تخطِّطين له؟».

قالت: «أحسب ثمن رجلٍ واحد، ودرع، ورمح ثقيل، وسيف، وخنجر، وفرس، وخيمة، وطعام أشهر...»، ثم دفعت قبعتها إلى الوراء: «وأتساءل كم كلَّف هذا كلُّه».

قال البارون ريكارد يتأمَّل: «خاضت زوجتي لوكريشا حربًا مرَّة، خلافًا لنصحي، خضنا نصف معركة أو نحوها، وربحناها، على ما يبدو، لكنَّها أفلستنا رغم ذلك. أحيانًا أفكِّر بما كنا سننفقه على الزينة في

البيت بدلًا من الحرب، ويأخذني حزن لا يُحتمل». ثم رفع يده، كأنَّه يلمس شيئًا جميلًا: «كنتُ أفكِّر بستارة من الدمقس، في قرمزي لا أقدر أن أصفه، واضطررت إلى العدول عنها»، ثم مسح عينه بمفصل إصبعه.

رفع رادوساف يوفانكا ولفَّت ساقيها حول خاصرته، وتشابكت يداها في شعره، واتفقت أفواههما في غمغمة اللذة. ترنَّح إلى الوراء، واصطدم بالمائدة، فانسكبت بعض الكؤوس، وسال الخمر على الخرائط.

قال بالثازار وهو ينظر إليهما بذراعين معقودتين: «هذان خاضا حربًا... وأشعلتا نارًا وسفكًا دمًا في أرضٍ وُكلا برعايتها، وأهلكا الخلق والزرع... من أجل شجار عشَّاق؟».

رفع البارون ريكارد رأسه إلى السحاب المتحرِّك وقال: «ثم يسمُّوننا نحن الوحوش».

43

طمعي جوع لا يشبع

انطلق الكونت والكونتيسة أولًا، يُظنُّ أنهما مضيا في مغامرة فاحشة لا تقلُّ حرارةً عما دار بينهما من خصومة. لم يدر بالثازار أيَّهما أعظم في نفسه: القرف أم الغيرة. أما آخر مغامراته فهو في ذلك الباب، فذكرى غائمة، وصدقًا، لعلَّ نسيانها خير من استحضارها. فكلمة «مغامرة» تضفي على تلك السقطة من الكرامة قدرًا من التجميل لا تستحقه.

أما الكاهنان المتنازعان فقد انصرفا وما زالا يتنازعان في ألفاظ الصكِّ القديم، إذ العداء المتجذِّر بين كنيستي الشرق والغرب -لاهوتًا ومالًا وسلطانًا- أعقد من أن يُحلَّ في الفراش. وتفرَّق الحرس مبشِّرين بوقف القتال، وبدأ المعسكران المتقابلان على طرفي الوادي ينهاران، كقرب خمرٍ فُرِّغت من الهواء، يتقاطر فيهما الجنود عائدين إلى وجودهم التافه، لا خيال لهم ليدركوا النعمة التي هم فيها.

وقد نقل الخدم المائدة والخيمة، يتبعون سيدهم وسيدتهم، حتَّى إذا تدلَّت الشمس نحو التلال، وطالت ظلال الأحجار، لم يبقَ من ذكرى المفاوضات إلا بقعة من العشب المدهوس، وجلود فاكهة عجيبة كانت الكونتيسة قد رمت بها عرضًا. وفكَّر بالثازار لحظة أن يلتقطها ويكشطها بأسنانه، ثم حكم بأنَّ ذلك -رغم كل ما بلغ من التردِّي- لا يزال انحطاطًا لكرامته، وإن كانت تلك الكرامة قد هوَت حتَّى قَرُبت من باطن الأرض.

ولتأكيد ذلك، دفعت بابتيست بالثازار بطرف حذائها، كما تدفع الراعية معزة عنيدة: «أفلا نبدأ في تعقُّب أميرتنا الشاردة؟». ونظرت إلى يعقوب مطوي الذراعين في حزم، وإلى البارون ريكارد، متَّكئًا على حجرٍ قائم ينكش نابه بعود مشحوذ: «لا أظنُّ أن أحدًا سيعترض على قليلٍ من السحر الأسود هنا».

وقف بالثازار مُتعَبًا، وصفع البلل عن مؤخرة سراويل الرجل الميت الملتصقة به، وتنهد. بل أقرب إلى أنين، في الحقيقة، وقال: «لا أعتقد».

كان الشروع في طقسٍ -ولو من أبسط الطقوس- ليُلهبه حماسًا في سالف أيامه: ما المخاطر؟ كيف نتجنبها؟ ما أنسب الكلمات، وأقوى الرموز، وأبها الحركات؟ كان السحر عنده علمًا نافعًا وفنًّا باهرًا، مسرحًا للفكر، وأسمى ضروب التعبير عن الذات.

أما الآن، فلم يكن يشعر إلا بنفورٍ خافت، واشمئزاز من انحطاطه، وألم الرباط الذي لا يفارقه.

- سأحتاج إلى شيءٍ ذي رأس.

فلما مدَّت بابتيست ويعقوب أيديهما إلى أدوات الفتك، استدرك: «شيء يطفو على الماء، أو خير منه: على اللبن. رأس لبوصلة».

رفع البارون ريكارد قطعة خشبة: «هل يفي هذا؟».

قال بالثازار وهو ينتزعها منه دون حماسة: «عود أسنان مصَّاص دماء... أحسب أنه مناسب في بشاعته».

قال يعقوب: «وماذا بعد؟».

جلس بالثازار في مركز الدائرة وقال: «نطمره»، وراح يمزق العشب بأصابعه، يحفر قبرًا صغيرًا في التراب الرطب، لا يزيد عن بضع أصابع طولًا وعمقًا. قبر لآماله وطموحه. قبر الرجل الذي كان عليه. قبر صغير جدًّا، كما أصبحت قامته معنويًّا. ثم رفع يديه المثقلتين ليبدأ الإيماءات،

ولم يملك إلا أن يرى القذارة تحت أظفاره المتشققة، والدم القشري على مفاصله، والأوساخ المحفورة في خطوط راحتيه، والندبة الغاضبة التي تركتها محاولته الفاشلة في البندقية لكَيِّ الرباط، كَيًّا ما زاد الجرح إلا قبحًا. وقد كانت يداه يومًا ما جميلة.

همس: «إن وجدنا أليكسيا... فماذا بعد؟».

قال يعقوب بجلافته المعهودة: «نأخذها إلى طروادة».

قال بالثازار: «نجتاز العناء والجوع، ونتقاتل مع أبناء خالتها القتَلة، ونواجه مسوخ يودوكسيا، ومشعوذين، ومرتزقة، ووحوشًا؟».

قال البارون: «أغلب الظنِّ».

قال بالثازار: «دون شكر، ولا مكافأة، ولا رجاء في فكاك».

قالت بابتيست تزمجر: «لأكون صريحة معك، أنا لا أُشكر كفاية».

قال بالثازار: «منحدرٌ لا ينتهي من المهانة المقزِّزة».

قال يعقوب: «ذلك هو العمل».

قال بالثازار: «إن لم أُسجن في زنزانة مظلمة حقيقيَّة، فإني أحيا حبيس النسيان المجازي لرباط البابا، عبدًا لنزوات فتاة في العاشرة».

قال البارون في مرح: «ستكبر».

قال بالثازار: «أن أكون عبدًا لنزوات فتاة في الثالثة عشرة... ليس أهون».

قالت بابتيست: «بل أرجح أنه أسوأ. لكنك لست الأول في هذا البلاء».

قال بالثازار: «وقد بيّنتِ لي ذلك أوضح بيان». ثم نهض ببطء، ينفض التراب عن راحتيه: «سلسلة من الدجالين والساحرات والحكماء قد مرَّت بمعبد الذرائع المُقدَّسة، ثم إلى المجد والثروة والنجاح»، ثم رمق وجوه رفقائه غير المبشِّرة: «عفوًا، اعذروني، لقد ماتوا جميعًا».

فركت بابتيست مؤخر رأسها في ضيق: «لقد حُكم عليك من قبل الجوقة السماوية. فما البديل؟».

قال بالثازار مبتسمًا في أسًى: «البديل... أفكر فيه منذ فشلي المذلِّ في فك رباط البابا في البندقية، الذي تراكم فوق فشلي المذلِّ على الطريق». وشعر بجذب الرباط المعهود، ذلك الغثيان المتلوِّي، وطَعم المرارة الحارق، كأنَّ اليأس يغرز نصلًا في أحشائه: «أنا عبدٌ للأغبياء، مأدبة للقمل، نكتة لتسلية الحمقى. كلُّ ما كنت أعتزُّ به سُلب مني: كتبي، كرامتي، حريتي، مستقبلي».

قالت بابتيست وهي تتفحص أظفارها: «قصة محزنة».

قال يعقوب: «لكن هل لها مغزى؟».

قال بالثازار: «ما عاد عندي شيء». ثم استدار نحو أطول الأحجار: عمودان عظيمان يعلوهما ثالث كوَّنا بوابة بدائية، تسطع الشمس من خلالها الآن. هنا، عند ملتقى القنوات، حيث رقة الحجاب بين العوالم: «وما دمت مجردًا من كل شيء... فلا شيء أخسره».

رفع يديه عاليًا، ورسم بأصابعه الوسخة علامة الاستدعاء، وهيئة الترحيب. لا ضرورة لها، لكن ما معنى أن يكون المرء ساحرًا إن لم يسمح لنفسه ببعض التمثيل؟

قال البارون ريكارد وهو يقطِّب جبينه الناعم: «مهلًا... ماذا تفعل...».

ونطق بالثازار الاسم.

فللسحر الشيطاني أسبابٌ وجيهة جعلته أرهَب وأبغض فنون السحر قاطبة. فحتَّى أقواهم -من مهندسي قرطاجة السحرية فصاعدًا- كثيرًا ما هلكوا، وما تورَّعوا عن جرِّ الأبرياء والبهائم والمدن والبلدان إلى الهلاك معهم. فأن تُكره شيطانًا ضعيفًا على الدخول إلى العالم وربطه بإرادتك، حتَّى مع التهيئة الدقيقة، مخاطرةٌ لا تؤمَن. أما إن كان الشيطان راغبًا في المجيء؟ فما عليك إلا أن تقف في الموضع الصحيح... وتدعوه.

فإذا وجه البارون ريكارد يتحوَّل في لحظة إلى فزعٍ مطلق، وقال: «لا!...».

لكن الأوان قد فات. انفتح الباب بين العوالم، وانطفأت الشمس. أُلغي النهار وكلُّ ما وراء الحجارة، في طرفة عين. ثم انفتح الباب بين العوالم، طوله ثلاثة أمثال طول الإنسان، ومع ذلك كان عليها أن تنحني لتنفذ منه.

لمحة... تلك كلُّ ما استطاع بالثازار أن يحتمل. لمحة واحدة، ثم خفض عينيه الملتهبتين إلى الأرض. لمح قرونًا عظيمة، تسعة وعشرين فرعًا، سوداء كسواد الحبر المضيء، كسواد الزيت القزحي، تتدلَّى منها خواتم للأصابع، وأقراط للأذنين، وأساور للذراعين، تتدلَّى منها سلاسل تتلألأ، تلمع باللؤلؤ والجواهر، هدايا وفِدى وقرابين من كلِّ أمة تحت قبة الليل.

إن أردت استدعاء شيطان راغب في المجيء، فليس عليك إلا أن تطلب. لكن ما إن يأتي، تبدأ مشكلاتك.

بنشيج من فزع يائس ركعت بابتيست على ركبتيها، وغطت بكفيها وجهها، وانقلبت على جنبها، وانكمشت كرة مرتجفة. أما يعقوب فتجمَّد مكانه فاغر فاهه، والندوب على وجنتيه الشاحبتين أوضح من أي وقت مضى. وحده البارون ريكارد احتفظ بالقدرة على النطق. قال يتلهَّف، ويدٌ على عينيه، والأخرى مرفوعة كأنها تدرأ عنه المشهد النجس: «أوقفها أيها الأحمق! أعدها من حيث جاءت! أغلق الباب!...».

وقد ارتفع صوته حتَّى صار صريرًا، ثم صمت. صمتٌ تام، لا طنين نحلةٍ، ولا تغريد طائر، ولا هفيف ريح في العشب. فنطقت الشيطانة مثلما يقتحم البحر الجليدي جوف سفينةٍ خُرِقتْ ألواحها.

- أنا... قد دُعيت.

كان صوتها دويًّا من بعيد.

- أتطردني، أيها الطفيلي، أيها الدود، أيها العلق؟ أتنبذني؟ أنت، أيها القشرُ المتغطرس؟

قال البارون لاهثًا: «لا... آه، لا».

قالت: «أنا شاكسيب، دوقة الباطن. طعمي جوع لا يشبع. حسدي وباء. شهوتي طوفان. غضبي إعصار».

وكانت الكلمة الأخيرة برقًا قريبًا، وبسطت أجنحتها العظيمة، فألقت بالحجارة في ظلمة أعمق، وانطلقت ريحٌ كالعسل في عبيرها، صفعت وجه بالثازار، فأسالت دموعه، وظلَّ يلهث، والريش الأسود والغبار الذهبي يهبطان من حوله، يتساءل في هلعه الكامل: لعلَّها لم تكن أسوأ أفكاره... بل أحسنها؟

قال البارون ريكارد بصوت متهدِّج: «سأصمت».

قالت الشيطانة، وقد ازداد رضاها رعبًا عن غضبها: «خيارٌ حسن».

ورغم أن عيني بالثازار اللامعتين لم تبرحا الأرض، شعر بنظرها يقع عليه، فرجفت ركبتاه.

- والآن، يا بالثازار شام إيفام دراكسي... إلى العمل.

اقتربت بخطوات ناعمة وبطيئة، ومع كل خطوة، تسمع خشخشة العشب المتجمِّد تحت القدم.

- تجاسرتَ فدعوتني، فاستجبتُ لك. فاعلم أنَّك تقف على شفير الهلاك. وأنك تساوم الأبد. وأن وجودك معلَّق بخيطٍ واحد. فقل...

توقَّفت أمامه، وانطبقت أجنحتها في خفقٍ وصرير، ورنت الحليُّ على قرونها وتدلت، ثم سكنت. وساد الصمت.

- ما حاجتك؟

لحس بالثازار شفتَيه. وكان -ولا حاجة إلى القول- رجل حريص في كلماته.

- ألتمسُ...

- ألم تعلِّمك أمك الأدب؟

همس: «ما عرفتُ أمي».

- ذاك يفسِّر الكثير. إن سألتَ حاجة، فانظر إليَّ.

همس، والدموع تتجمَّد على خديه: «لا أجرؤ».

ورأى قدميها، في العشب المغطَّى بالصقيع، أصابعها كأصابع الطير، بلون الدم المراق، ومخالبها في طول الخناجر، منقوشة برسوم ذهبية قاتمة، تتلألأ في الظلمة.

- خشية أن يسلبني بهاؤك عقلي.

همهمت وقد تصادمت ريشاتها بصوتٍ خشن إذ سوَّت جناحيها: «مممم. أعجبتني. تخيَّل أن يكون لديك هذا القدر من التزلف اللذيذ متى شئت».

قال: «أهبكِ ذلك، وزيادة»، ثم انحنى على ركبتيه، وشبك يديه: «إن خلَّصتِني من قُيودي».

قالت شاكسيب وهي تضغط لسانها في سقف فمها، تؤ، تؤ، تؤ، وكلُّ واحدة كأنها مسمارٌ يُدقُّ في رأسه: «أُفضِّل صنع العبيد، أيها الطفل. إن حرَّرتك من هذه الأغلال، فستلبس أغلالًا أثقل. دَينًا أبديًّا لي».

قال وهو يمدُّ ذراعه المرتجفة: «لكنَّ هذه السلاسل... أكون أنا مَن اختارها».

- ما دمت لن تقول لاحقًا... إني لم أُنذرك. والآن...

وشعر بها تقترب، وكان أقصى ما قدر عليه ألا يُريق ما في جوفه خوفًا.

- دعني... أرى.

اجتاحته برودةٌ تقشعرُّ لها الأرواح، وشعر بأنفِه يتجمَّد، والذعر يسحق قلبه، والنشوة تقتله، إذ هو في حضرة قوَّةٍ تفوق الخلق، قوة تنثني لها سنن الوجود، وتُنازل بها الملائكة.

ثم قالت: «لا». وشهقت في ضيق: «عذرًا. لا أستطيع. ليس في هذا».

همس بالثازار: «مهلًا... ماذا؟».

قالت: «أستطيع أن أمنحك ثروة لا تنفد، أو أُحوِّل أعداءك إلى ملح، أو أي شيءٍ تقريبًا. لكن... ليس هذا».

قال متلعثمًا: «لكن... أنتِ...».

- دوقة الباطن، نعم. لكن ثمَّة حدودًا. ثمَّة قوانين.

وتنهَّدت تنهدًا كريح الشتاء، وارتعشت أجنحتها، وانسدل منها غبارٌ مذهَّب.

- الطامحون لا يدركون تلك الحدود إلا بعد فوات الأوان. القوة قفص يا بالثازار شام إيفام دراكسي.

همس: «لا تستطيعين؟ أنتِ؟ لا تستطيعين؟».

قالت، وصوتها عاد صاعقة: «أتراني مسرورة بذلك؟ ألقيتُ خطبة الجوع والطاعون كلَّها عبثًا!».

ولم يملك بالثازار إلا أن ينظر خلفها وهي تلتفت. رأى ظهرها، عضلات قرمزية بين ظلال الأجنحة، منقوشة برموز مذهَّبة، حلقات، سهام، دوائر لولبية من هندسة مستحيلة، وفي قلبها جرحٌ عظيم، ينزف ذهبًا مصهورًا لا يتوقَّف. ثم توقَّفت عند البوابة، والتفتت، والحليُّ ترنُّ وتخشخش، فانتزع بصره عنها، خشية أن تقع عينه في عينها، وترى فيها إجابةً على سؤال لا يحقُّ لبشرٍ تصوُّره، فيجنُّ.

- أمَّا روحك... فهي تعجبني. طيِّبة جدًّا. فتعالَ إن احتجتَ إلى شيء آخر.

أُغلق الباب، وعادت الشمس فجأة كضربة إصبع. ورجع المساء لطيفًا، والنحل يطنُّ، والطيور تصدح، وغمر الضياءُ الورديُّ التلال الغربية. لكن الشيء الوحيد الذي بقي: ريشٌ أسود متناثر، وغبارٌ من ذهب.

بكت بابتيست: «يا إلهي»، وزحفت قليلًا ثم تقيَّأت بصخب.

زمجر البارون ريكارد وهو يهزُّ بالثازار بعنف من كتفيه: «ماذا فعلت؟!».

لكن بالثازار بالكاد رآه، بالكاد سمعه، وهمس: «لم تستطع...»، وهو يرفع معصمه، يحدِّق إلى الحرق.

قال يعقوب بصوت مبحوح، ودموعه تنحدر: «رأيتُها». وعيناه مفتوحتان معلقتان بالفراغ حيث البوابة، ولم يبقَ سوى الغروب.

- رأيتها.

قال بالثازار يلهث: «حتَّى شاكسيب... لم تستطع».

وحدَّق إلى وجه ريكارد: «لا بد أن في الأمر خدعة... لم تكن هي!».

صرخت بابتيست: «ليست هي؟ المكان مغطًّى بريش الشيطانة!»، وأشارت إلى ريش منتثر بلون زجاج البركان، والذي بدأ يذوب كقطرانٍ قزحيٍّ.

قال بالثازار شاردًا: «لا بد أنها عقدت صفقة أخرى... مع الكاردينالة بوك مثلًا... لتخدعني!».

قالت بابتيست محتقنة: «كاردينال يعقد صفقة مع شيطانة... لأنك بهذه الأهمية، أيها الأحمق المتهوِّر؟!».

همس بالثازار وهو يحكّ معصمه: «سأعرف الحقيقة... سأبلغ لبَّ الأمر... لا بُدَّ أن أعرف...».

قال يعقوب، وهو يمسح وجهه المشوَّه بيده المشوَّهة: «مشكلة الأذكياء أنهم يظنون أن كل شيء لا بُدَّ أن يكون ذكيًّا». ثم نظر إلى

بالثازار: «لكن الأمر سهل. لا خدعة. لا حيلة. رباط البابا بندكتا أقوى من أن يُفكَّ، حتَّى على دوقة من الجحيم».

صرخ بالثازار ساخرًا: «أجل طبعًا! لأن تلك الطفلة المضحكة هي عودة المخلِّصة، ورباطها السخيف هو كلمة الرب نفسه؟!».

مزحة، طبعًا. أسخف مزحة خطر له اختراعها. لكن لم يضحك أحد. حدقت بابتيست إليه، ومسحت فمها. أما يعقوب فرمقه، ويديه على خاصرته. حتَّى ريكارد، صاحب الابتسامة التي لا تنقطع، لم يبتسم. فتراجع بالثازار خطوة، وشعر بشعر عنقه ينتصب. قال وهو يحدِّق إلى ريكارد، الذي لا يؤمن بشيء قط: «لا يمكن أن تصدِّق... أنت لا يمكن أن تصدِّق هذا؟!».

قال ريكارد، ولسانه يمرُّ على نابٍ مسنون: «كان عندي بعض الشكوك... حتَّى الآن. لكن جنونك في محاولة كسر الرباط قد أثبت عكس ما أردت. شاكسيب لم تستطع. فأي قوة أعلى منها؟».

شعر بالثازار بدوار. أراد أن يُنكر. أن يسخر. فتح فمه... لكن لم يخرج صوت. وفي النهاية، انطلقت منه ضحكة حادَّة مرتجفة، من أقل ضحكاته تصديقًا ذلك اليوم.

قال في نبرة أشبه بالصراخ من التهكُّم: «حسنًا! إن كانت المخلِّصة بيننا الآن، فلا بدَّ أن الساعة قد قامت!».

ساد الصمت.

ثم قال يعقوب الثورني، وهو يدير ظهره بتعب: «أخيرًا... فهم».

44

نهاية الزمان

ظلَّت أليكس تخُطُّ خُطاها برأسٍ مطأطأ. خيرٌ لها أن تُحدِّق إلى التراب، فهنا تنتمي. لو رفعت رأسها ستُبصر المسافة حتَّى الأفق، وكم ستكون الرحلة بائسة، وأنَّه لن يكون هناك شيءٌ يستحق عند بلوغها. والحق أنها ليست في أحسن أحوالها.

قالت ساني: «أتحتاجين إلى دور على الفرس؟».

قالت أليكس: «أنا؟ لا. هذا آخر ما أريده. أكره الخيل». ويا إلهي كم تاقت إلى دور على الفرس. قدمها اليسرى ما انفكَّت تؤلمها منذ أيام، وكأنها قرحة كبيرة، ثم وطئت حفرة أرنب وآذت اليمنى، حتَّى غدت لا تدري على أيِّ ساق تعرج. ظهرت على ساني أمارات الشكِّ وشيءٌ من الألم، وقد كانت منكفئة الكتفين حول قلنسوتها، تعانق أضلاعها بذراعيها.

قالت أليكس: «أنا بخير»، بنفس النغمة التي يُقال فيها: «أنا أحتضر»، غير أنَّ ساني، مع قدرتها على رصد فأر من نصف ميل، بدت عمياء عن أيِّ معنى وراء الكلام، ولو كان الذي يعرج بجانبها بوجهٍ كأنَّه مؤخرة مصفوعة. أو لعلَّ ساني فهمت المعنى الخفيَّ صريحًا، ولكنها لم تُرِد أن تنزل عن الفرس من أجل أليكس، وليس ذلك بمُدهش، فقد أفسدت أليكس صداقتهما، إن كانتا يومًا صديقتين. ومَن يرغب في تقبيل قطعةٍ

شرهة من القذارة مثلها؟ ما إن تلمس أطرافُها شيئًا فيه مسحةُ الخير حتَّى تدمِّره بطمعها.

قطَّبت جبينها ونظرت إلى صفٍ من الأعمدة المائلة على جانب الطريق باحثة عن مُشتت، وكانت كلها عوجاء كأن سكرانًا نصبها. هنا جمجمة شاة عتيقة مُعلَّقة فوق أحدها، وصوفٌ متعفِّنٌ يتطاير، وهناك حلقة من حديد أو دولاب من نحاس يُقرقِر ويطقطق في النسيم. قالت: «ما هذا كلُّه؟».

قالت ڤيجا وهي تخبط الأرض حافية القدمين كأنها لا تعرف أذى السَّير: «فيه نكهة وثنية لا بأس بها. يُذكِّرني بالدار... ولا أقول ذلك مدحًا... بل لا سبيل لذكر داري بالخير أصلًا... أو الماضي عمومًا...». ثم تلاشى صوتها وبدت حائرة: «عن أيِّ شيء كنَّا نتحدَّث؟».

قالت ساني: «السياج».

قال الأخ دياز وهو يحكُّ لحيته التي بدأت تنبت: «إنه إعلان عن حَرمٍ بابويٍّ وبطريركيٍّ مشترك».

قالت ڤيجا متذمِّرة: «ماذا بابوي؟».

رد عليها بعنف: «حرم!». وهو يشير إلى أقرب عمود. والرهبان والمستذئبون، وإن لم يكن بينهم طبعًا ألفة في الأسفار، فقد بدا أنَّ هذين الاثنين يثيران حنق بعضهما بعضًا أشد مما مضى.

- لا بدَّ أنَّه حدٌّ لإقطاعية كلياتا. أصابها الطاعون العظيم قبل ثلاثين عامًا. فأودى بربع أهلها.

همست أليكس: «يبدو أمرًا سيئًا». وقد تذكَّرت حين مرَّ الطاعون العظيم بالمدينة المقدسة. ساق الحراس المرضى إلى دور الحجر. ورائحة الدخان من حرق الجثث. والناس يتهامسون بأسماء القدِّيسين دَفعًا للأوبئة. والجوقات تنشد مغفرة الرب ليلًا ونهارًا.

قال دياز: «هو الوباء الرابع في الإقليم في عقدٍ واحد. وكان الداء الرئوي أشد من سابقه. ثمَّة سجلٌّ له في مكتبة ديري. مات من الناس

عدد لا تسعه المقابر، فدفنوهم في الحُفر بالمئات. دفنوهم في كلِّ شبرٍ من الأرض المُقدَّسة، تحت كلِّ ضريح وكنيسة ومعبد...».

ولم يختلف المنظر وراء السياج كثيرًا، غير أنَّ معرفة القصَّة أضفت عليه رهبةً ما. مقاطعة بأسرها أُزيلت من الخريطة. ارتعدت أليكس، وشدَّت معطفها المسروق على سترتها الممزَّقة. قالت: «يبدو فظيعا حقًّا».

قال دياز: «كان الأمر بالغ السوء حتَّى اندفعت الكنائس المتنازعة في الشرق والغرب إلى عملٍ مشترك، فأعلنت المقاطعة بأسرها ملعونة، وأمرت بإخلائها، ومنعت دخولها حتَّى يأذن الرب بتدخُّلٍ إلهيٍّ صريح».

همست ساني: «ويبدو أن الرب لم يظهر...».

قالت أليكس: «له حكمة في ذلك!».

قال دياز متجهِّمًا وهو يحدِّق إلى ما وراء الأعمدة، نحو الأرض المقفرة: «الطاعون من جهة، والحرب من الأخرى». ثم التفت نحو قريةٍ محترقة خلفهم وقال: «قد يخيَّل إلى المرء أنَّه آخر الزمان».

قهقهت ڤيجا وقالت: «أنتم معشر الكهنة لا تتعبون من قول إنه آخر الزمان! كالكهنة في قريتي. آه العلامات! أنظروا كيف تحلِّق الغربان! راجناروك يقترب! الجزارون يبيعون اللحم، والبراميل تُباع، وأنتم تبيعون آخر الزمان، به تملؤون مقاعد الكنيسة».

قالت أليكس: «أوليس الوثنيون بلا مقاعد؟».

قالت ڤيجا: «عندنا مصاطب، وربما بجلد الخرفان للأغنياء».

قالت ساني: «في حكاياتك كل شيء عليه جلد خروف. على ما يبدو، اسكندنافيا كلُّها دم وسفن وجلود خراف».

لوَّحت ڤيجا بكفِّها وقالت: «ذاك...». ثم حكَّت رأسها وهي تفكِّر، وقالت: «ملخَّص لا بأس به في الحقيقة، لكن المغزى هو...». ثمَّ حدَّقت نحو الأفق: «ما المغزى؟».

تدحرجت عينا الأخ دياز وقال: «كلُّ حديث تجرينه ينتهي هكذا! تمسكين بلجامه، وتُسرعين بالعربة إلى مستنقع، ثم تجلسين تسألين: كيف وقع هذا؟».

قالت ڤيجا، وقد انفجرت ضاحكة: «لكن عليك الاعتراف بأنه ليس مُملًّا! بحق فريا، انظروا إلى وجوهكم الكالحة!». ثم طوقت كتف أليكس بذراعها وضغطتها حتَّى تأوهت: «قتلنا الأوغاد في الحظيرة، أليس كذلك؟ لا أظنُّهم سيُقلقون أحدًا بعد الآن».

قالت أليكس بصوت متهالك وهي تهزُّ كتفيها لتتحرَّر من قبضة ڤيجا وتنظر إلى الخلف: «ليس من مات منهم ما يُقلقني، بل من بقي حيًّا».

قالت ڤيجا وهي تفلت كتفها: «لا تنظري خلفك، تلك نصيحتي»، فأحسَّت أليكس براحة عظيمة، ثم أمسكت برأسها بكفٍّ واحدة كبيرة، فشعرت بالألم، وأدارت وجهها إلى الأمام فآلمها وقالت: «ارفعي بصرك، وانفضي عنك طين الحقد والندم. فما نفع الهمُّ؟». ثم بعثرت شعر أليكس بأصابعها.

قال دياز: «لطالما غلب عليَّ الهمُّ، وصدقًا، من العجيب كمُّ المجازر التي لم أشارك فيها».

قالت ڤيجا: «وشاركتَ في بعضها على ما أعلم علم اليقين».

قال: «شهادا لا مقاتلة...».

قالت: «قصدي أنه لا بُدَّ لك أن تخلعي الماضي، كما تُقشر القشرة». ثم انتفضت بكلِّ جسدها حتَّى تدلَّت يدُها، وتهدَّل شعرها على وجهها، فنفخت شفتها لتُزيحه، فعلق بفمها، فبصقته. ثم قالت وهي تصعد إلى قمة المرتفع وتضع كفيها على خصرها: «قصدي هو... ما قصدي؟».

قال دياز: «عربة في مستنقع»، وقد وقف بجانبها: «حتَّى المحور». ثم لحقتهم أليكس، ونظرت إلى الوادي أسفلهم.

ثمَّة قرية في القاع. ليست بشيء عند فتاة نشأت في المدينة المقدسة، لكنَّ أضواءً تلألأت هناك في غبش الغروب البارد، وهل هذه صوت موسيقى تنساب؟ وسال لعابها بشوق مؤلم حين بلغ أنفها عبير طبخ.

قالت ڤيجا: «انظروا إلى هذا! حضارة! معنا نقود، أليس كذلك؟». وهي تصفع كتف دياز صفعةً كادت تُلقيه عبر السياج الغريب إلى داخل إقطاعية كلياتا المحرَّمة.

قالت أليكس: «معنا». فقد دُفع للأوغاد اللذين قتلتهم ڤيجا ليصطادوها على ما يبدو، ونقودهم الفضية الآن مبعثرة في ثلاث صرر معها، وفي الجوربين، وفي خرق مطويَّة تحت قميصها. وقد راودها أن تُخفي القطعتين الذهبيَّتين في مؤخرتها، وتلك عادة في صغرها حين تفتشهم جال ذات الصرَّة، لكنَّها لم تجد زيت زيتون، ولم يكن الأمر مريحًا، فخاطتهما في كُمِّها.

قالت ساني بعينين واسعتين: «لعلَّنا نجد علية فيها تبن، نقضي فيها ليلة بعيدًا عن البرد».

قالت ڤيجا تغنِّي وهي تكاد تقفز: «ونشتري لنا عشاءً، يا إلهي! أستطيع أن ألتهم ضلع خروف، أليس كذلك يا أخ دياز؟ ضلع خروف يغرق في مرق!». ثم عوت إلى السماء، ولحست أنيابها الطويلة بلسانها: «بحق مؤخرة بالدر، أستطيع أن آكل اثنتي عشرة منها!». ثم ركضت تهبط المنحدر.

نظرت أليكس إلى الأخ دياز بعينٍ قلقة وقالت: «الدخول إلى هناك قد لا يكون أحسن فكرة».

قال وهو ينظر إلى القرية، ويحكُّ لحيته المتفرقة: «قد لا تكون».

قالت: «وأخذ ڤيجا إلى هناك قد لا تكون أحسن فكرة».

قال: «قد لا يكون البتَّة». ثم التفت نحوها، وهزَّ كتفيه بيأس وقال: «لكن، بحقِّ القدِّيسة بياتريكس، أستطيع أن آكل ضلع خروف».

45

الكرام الأسخياء

قالت البابا وهي تتغنَّج وتشبك أطراف أكمامها رافعةً ذيل ثوبها: «أمتأكد أنك لا ترغب؟»، وشفاهها المطليَّة تلمع في ضوء المشاعل.

شدَّ بطريرك طروادة على العجلة الذهبية التي يعقدها على صدره، ورفع عينيه إلى السماء وقال: «عفَّتي لا تُشترى بأي ثمن، أيتها الشيطانة!».

وصَفُّ الجمهور -إن صَحَّت تسميته هكذا- لم يتجاوز عشرين فلاحًا، وتاجرين، وراهبًا، وأميرة، ومستذئبَة، وإلف خجولة تلتزم أطراف الظلال، وكلبًا ذا ملامح مندهشة. صفقوا جميعًا امتثالًا، إلا الكلب، فذاك لم يكن له ما يُصفِّق به، غير أن أليكس صفَّقت عن كليهما بصوتٍ عالٍ.

قالت وهي تنظر خلف كتفها: «لطالما أحببت الممثلين».

قالت ساني: «هممم»، وهي ليست ميَّالة إليهم. فقد افتتحوا العرض بمحاكاة ليوحنَّا الأنطاكي وهو يحطم دمًى ذات آذان مدبَّبة مرقَّعة، وهي حيلة تُنتزع بها الهتافات من أفواه أقسى المشاهدين، كما يشهد بذلك مدير السيرك الذي درَّبها، لكنَّه بعيد كلَّ البعد عن فنِّها المفضل.

قالت أليكس: «كل تلك الحكايات السخيفة، والكلام المتقن، والأزياء، والتهريج. تسحبك من نفسك هنيهةً، تخلِّصك من الجوع، ومن الديون،

ومن الخزي الذي ألقاه الناس عليك، أو الذي ألقيته أنت عليهم، بل وحتَّى من النقود التي دسستها في مؤخرتك».

قالت ساني: «نقودٌ في مؤخرتك؟»، لكن أليكس تابعت حديثها دون انقطاع.

- وأحسن الممثلين يجذبون الجماهير، وما دام الجمهور مشدودًا نحو شيء آخر، فذاك خير موضع لسرقة المحافظ.

قالت ساني: «هممم»، وتمنت لو تجد قولًا طريفًا أو فطنةً تباري بها، لكنَّ عقلها خاوٍ.

قالت أليكس: «كنت أحلم وأنا صغيرة أن أنضم إليهم. بدا لي الأمر وكأنه جنَّة، جماعة أنتمي إليها، دَيدنها الترحال، لا تقيم في مكان طويلًا حتَّى تُكره، بل تترك الندم خلفك، ويُدفع لك لتدعي أنك شخص آخر. ذاك كل ما رغبت فيه وأنا صغيرة، أن أكون غيري...». ثم خفت صوتها، وهي تحدق إلى الخشبة.

إن كان ثمَّة خطوة تالية، فعلى ساني أن تقدم عليها، لكن من قضى عمره في بناء الأسوار لا يهدمها في لحظة هوى. في كل يوم تنوي مرارًا لتفعل شيئًا، ثم يداهمها الظن فتكف.

رفعت البابا ثوبها مرَّة أخرى لتُظهر انتفاخًا مزيَّفًا مضحكًا، فضحك القوم جميعًا، ما شكل تشتيتًا لا بأس به. فانحنت ساني إلى الأمام، ومدَّت إصبعًا مترددةً لتُربِّت على كتف أليكس.

قالت ڤيجا وهي تخبط المارِّين في طريقها: «هاكِ!»، وقد ناولت أليكس سيخًا جديدًا من اللحم، وقد شوته امرأة ضخمة فوق نارٍ موقد، فتغطَّى اللحم بالسخام والدهون، ليس بذوق ساني البتة.

قالت أليكس وهي تغمض عينيها وتشمُّه: «شكله من الجحيم»، ثم أردفت وهي تقضم: «وطعمه من نعيم».

قال دياز وهو يعضُّ بطرف أسنانه الأمامية: «أشك أنه خروف».

قالت أليكس وفمها ممتلئ: «لو عِلمت أنه لحمُ إنسان، ما توقَّفت عن الأكل».

قالت ڤيجا وهي تلوِّح بسيخها نحو ساني: «ساني؟».

خفضت ساني قلنسوتها، وانسحبت إلى حائط الظلِّ: «شبعت».

قالت ڤيجا: «لكنكِ أنحف من قَصبة»، ثم أخرجت لسانها الطويل، وأدخلت السيخ في فمها وسحبته دفعة واحدة، وأخذت تمضغ وخدَّاها الموشومان يتضخَّمان، ثم سحبت خصلة شعر علقت في شدقها، ونظرت نحو الخشبة في دهشة بهيجة. وقالت: «ما الذي يصنعه هؤلاء الأوباش بحقِّ كل مقدَّس مدنَّس؟».

قالت أليكس: «الزنا محرَّم، هذه خلاصة كلامهم».

بصقت ڤيجا قطعة شحم وقالت: «والصعود نزول، والنهار ليل. كأنهم لا يرتاحون حتَّى يشقى الجميع. أقسم، لو أمكنهم لأطفأوا الشمس. أعطني قطعة فضَّة يا أليكس».

ضربت أليكس بيدها على راحة ڤيجا وأعطتها فضَّة صغيرة، فمضت لتجلب مزيدًا من اللحم. اقتربت ساني منها وهمست: «قولي لي إن تلك لم تكن مخبَّأة في مؤخرتك».

قالت أليكس وهي ترفع ذقنها نحو السماء: «لم أعد أضع إلا الذهب هناك هذه الأيام. أما علمتِ أنني أميرة؟».

وفي الختام، جُرَّت البابا الآثمة إلى الجحيم طبعًا، أو على الأقل خلف ألواحٍ خشبيَّة مطليَّة لهبًا، وفي يسار المسرح بانت أيدي محرِّكيها مرئية من حيث وقفت ساني. وألقى البطريرك خطبة هدَّارة في الفضائل الاثنتي عشرة، ولا سيَّما الإحسان والكرم. ثم، وبلا سابق إنذار، قفز من

الخشبة حاملًا وعاءه، فما كان من الجمهور إلا أن تفرَّقوا أسرع مما لو كانت ساني قد كشفت أذنيها للملأ.

لكن أليكس أعطت الممثلين حقهم. فلشخص نشأ على إخفاء النقود، كانت كريمة إذا أُتيحت لها الفرصة. رفع بطريرك طروادة حاجبيه الكثَّين -وكاد أحدهما يسقط لقلة الصمغ- حين نظر إلى ما وقَع في وعائه. وقال: «بركات على كرمك يا بنيَّتي»، ورسم بإصبعه علامة العجلة على صدر ردائه، والذي عن قُربٍ تبيَّن أنه مزيَّن بنثرٍ من قِشرة الرأس.

قالت أليكس: «البابا الآثمة أضحكتني بحقٍّ. لا أظن أهل الغرب سيُقبلون عليه على كل حال».

اقترب البطريرك وهمس: «في المشرق، البابا آثمة والبطريرك صالح، وفي الغرب نقلبها».

قال دياز: «وماذا عن الوسط؟».

قال البطريرك: «إن لم تعرف رأي جمهورك، فكن غامضًا قدر الإمكان».

انضمت البابا إليهم الآن، وقد نجت من الجحيم، وهي ترفرف بأثوابها لتدخل النسيم. قالت: «طُردت من أكثر من قرية على أيدي عامة مشعلين مشاعلهم، إذ أسأت تقدير مزاجهم».

أومأت ڤيجا وهي تقول: «ومن لم يُطرد؟»، ولم يبدُ على الممثلين أنهم انزعجوا من حضورها. فمَن اعتاد التمثيل في الفرجة الجوالة لا يستوحش الغرابة، ولكن لكل شيء حدٌّ، ولهذا حرصت ساني على خفض قلنسوتها أكثر.

ولا يزال القلق ظاهرًا على وجه دياز. فقال: «لكن أليس من واجب المسرح أن يهدي الناس إلى الحق، لا أن يدغدغ أهواءهم؟».

قال البطريرك وهو ينزع تاجه ليحكَّ رأسه الخفيف وخشن الشعر: «كلام طيب. لكن، صدِّقني، لا مردود يُذكَر منه».

قال دياز وهو يتنحنح: «الزنا... معصية، لا شك... غير أنَّ التاريخ زاخرٌ بتائبين من هذا الصنف، قد رجعوا إلى حضن المخلِّصة...». ثم تنحنح مرَّة أخرى.

قالت البابا بصوت خاشع وعينين مرفوعتين إلى السماء: «دع حضن المخلِّصة خارج هذا الحديث!».

قال دياز: «إذًا فلنقل إلى رحمة العليِّ الأعلى! الأمر... أن يُسحب المرء إلى الجحيم... حسنًا...». وتنحنح مرَّة أخرى، ثم أردف: «أنا أميل إلى الإيمان بإلهٍ غفور أكثر من إلهٍ منتقم، لا أكثر».

تمتمت ساني بصوت خفيض: «ألسنا جميعًا كذلك؟»، على أنها لم تكن واثقة بأن الأدلة معه.

قال البطريرك: «لست قسيسًا يا صديقي، وإن لبست الرداء، غير أني أرى أن الخطيئة التي عوقبت عليها لم تكن الزنا، بل النفاق».

قالت البابا، في انسجام نادر بين كنيستي المشرق والمغرب لا يُرى إلا على الخشبة: «ذاك هو! فوحوش الحقول كلُّها تزني».

قالت ڤيجا، ودهن الشواء على ذقنها، وخدَّاها ممتلئان باللحم: «حين يحالفها الحظ».

قال البطريرك: «لكنها لا تكذب. لا تنصح الناس بشيء وتفعل عكسه. لا تدين الآخرين وهي غارقة في الإثم».

قال دياز وهو يقطِّب حاجبيه نحو الأرض: «أصبت...». ولم يبدُ أن ذاك الجواب نال رضاه: «هممم».

قال البطريرك وهو ينحني انحناءة بالغة: «غير أنني أشكركم جزيل الشكر على عطاياكم. فقلَّما نلقى الأسخياء الكرام في أيامنا هذه، للأسف».

قالت أليكس، وهي تنظر إلى ساني وفي طرفها ابتسامة خفيفة: «علامات آخر الزمان!». وحاولت ساني أن تُقحم في وجهها الغبي ابتسامة تردُّ بها، لولا أن البابا نطقت من جديد.

قالت البابا وهي تومئ برأسها نحو الطريق الشرقي الذي اعتزموا سلكه عند الفجر: «من كان ذلك الرجل قبل أيام؟ ذو العباءة الذهبية». فتسلل وخز إلى قفا رقبة ساني: «أغبى عباءة رأيتها قط، لكنه كان من الكرام».

قالت أليكس، تحاول أن تضفي على صوتها خفة، لكن ساني سمعت الوتر المشدود فيه: «وما اسمه؟».

قالت المرأة التي مثلت دور البابا، تتلمس الاسم في ذاكرتها: «ساد آس؟ لا! ساباس». ولم يكن ذلك مفاجأة مزعجة لساني، فإن الأنباء السيئة لا تفاجئها، بل تؤكِّد عقبة ما استشعرتها منذ البدء. ثم أردفت: «قال إنه يبحث عن فتاة».

قالت أليكس، ونبرتها بالكاد تُسمع: «حقًّا؟».

قالت المرأة: «فأجبته أنني، مقابل عطية أخرى، سأمثِّل له أيَّ دورٍ شاء، لكنه قال إنه يبحث عن فتاة بعينها». ثم انحنت تقرُّبًا وأضافت: «صاحبة السمو أليكسيا پايروجينيتوس! الوريثة المفقودة لعرش طروادة!».

ألقى البطريرك نظرة متفكرة نحو مسرحه، وهو ليس إلا عربة مسطَّحة تحيط بها ألواح ملوَّنة زاهية، وقال: «لا أنكر أنَّني حين سمعت ما سمعت، قلت إنها تصلح لمسرحية فاخرة».

قال دياز بصوت متحفظ مشدود: «ستكون غير منطقية».

قالت البابا: «إن كان ثمَّة أمر واحد تعلَّمته في أربعين عامًا على الخشبة، فهو أن الناس يصدِّقون أيَّ هراء إذا أُلبس حُلَّة حسنة. لم تصادفكم أميرة في ترحالكم، أليس كذلك؟».

قالت أليكس وهي تضحك ضحكة متكلِّفة: «نخالط الملوك كل يوم!».

قالت البابا وهي تنزع الجورب عن رأسها، فانسدل منه شعر أحمر فائر لم يكن باديًا: «يا للأسف. فإن ساباس ذاك يعرض مكافأة عظيمة. تكفي لأن يُصبح الرجل من الكرام الأسخياء».

قال البطريرك وهو يعيد غطاء رأسه، مائلًا قليلًا، ويمنحهم تحية مسرحيَّة متباهيًا: «إن كان من أهل السخاء أصلًا». ولم تكن تحية بتلك الهيبة وقد نزع لحيته وانكشف ذقنه الضعيف، لكن صوته ظل رنانًا وقال: «ليصحبكم الحظ يا أولادي!».

نظرت أليكس إلى عيني ساني لحظة، ثم صرفت بصرها وقالت تتمتم: «ستكون معجزة».

46

العربة في المستنقع

تمتم الأخ دياز: «علمت في قرارة نفسي، حين رأيت سياج الطاعون المهيب، أنني سرعان ما سأجدني على الجانب الخطأ منه». تحسَّس خطاه بتحفُّظ مزعج، إذ قد جرفت العواصف القديمة نصف الطريق، ومسخت ما بقي منه صمغًا غادرًا بفعل العاصفة الراهنة. قال: «وحظي كما أعرفه، سينجيني من المستذئبين، والرجال السرطانيين، والسحرة، لأهوي في حفرة وأكسر عنقي».

تمتمت ڤيجا: «هذا أملنا». وقد أوشكت أحيانًا أن تألف الأخ دياز، أحيانًا، غير أنه مذ لقيا أليكس وساني، انقلب إلى ذاك النَّزِق المتشكي الذي كان عليه من قبل، مضافًا إليه عناد مرير. مرارة عنيدة؟ لعله كلاهما. كأنَّه لم يدرك أنه ضاجع مستذئبة إلا حين صار ثمَّة من يشهد عليه.

وليست حبال صبرها بأوثق ما يُرجى في مركب، ولكن منذ أن انحرفوا عن الطريق وسلكوا إلى داخل البارونية المحرَّمة، أيًّا كان اسمها، شعرت أن ذلك الحبل يتآكل مع كلِّ خطوة تخطوها. ولما جنَّ الليل اقترب القمر من تمامه، وهي تشعر به يتقلَّب خلف الغيوم، من وراء الأفق. سخونة وبرودة وخدر ووخز في آنٍ واحد. قلادتها ليست مشدودة، لكنها خنقتها، فظلت تحرِّكها متضايقة، تودُّ لو تفتق الخيط وتمزِّق الثوب وتنطلق زاحفة تزأر خلال الأدغال الملتفَّة، وفراؤها المبتلُّ يتلألأ تحت

نور القمر، وأنفها المبلول يعبق برائحة فريسة لزجة، تترصَّد وتسيل لعابًا طلبًا للحم طيب.

لكنها أقسمت أن تُبقي الذئبة مُكممة. فأنت لما أطبقت على عظم صدرها، وزفرت زفرة خرجت منها نفخة ضباب. قالت لنفسها: «طاهرة، طاهرة، لا شيء يدعو للقلق».

هزَّ الأخ دياز رأسه نحو السماء المنهمرة قائلًا: «أقسم إني معاقَب»، ثم نظر إلى ڤيجا من طرف عينه، كأنما هي جزء من العقوبة.

سألت أليكس وهي تطأ بحذائها المتشقق الطين: «ومن جعلك بطل هذه الحكاية؟»، وقد انشق أحد حذائيها من الأمام حتَّى بدا فمًا حزينًا تنكشف فيه أظفارها المتكسرة: «لعلَّ العذاب لي أنا».

قالت ڤيجا، وهي تنظر إلى الأخ دياز بطرف عينيها: «أو لي. فأنا وثنية نتنة، ووحشيَّة قاتلة، وزانية لا تتوب!».

وساد صمت ثقيل. فقالت أليكس: «ومن ذا يرغب في الزنا بمن هو غارق في التوبة؟ سيُفسد ذلك اللحظة!».

فلم يضحك أحد.

قالت ساني من تحت قلنسوتها المبللة: «لعلها نعمة. المطر يسترنا. ويخفي رائحتنا».

سألت أليكس: «أتظنينهم ما زالوا يلاحقوننا؟».

توقفت ڤيجا وحدَّقت نحو الطريق الذي جاؤوا منه وقالت: «إن كان معهم مستذئب... فلن تُجدي قطرات المطر لصدِّه...».

شعرت به هناك، في مكان ما. تكاد تشمُّه. قابعًا في الأدغال، منحنٍ على آثار خطواتها المطموسة، يشمُّ ويتشمَّم، يتبع أثرها. يطاردها هي، ذاك الوغد المشعر.

قالت بصوت خفيض غلبت عليه زمجرة الذئب: «ينبغي أن نقلب الطاولة. أن نصير الصيَّادين».

قهقه الأخ دياز ساخرًا: «نحن الأربعة؟ نحن إن وجدنا بقعة جافة لننام فيها نعدُّ ذلك نصرًا! ولست خبيرًا في فنون الحرب...».

زمجرت ڤيجا مقاطعة ومسحت شيئًا من الزبد عن زاوية فمها: «لا يعلمونكم هذا في الدير؟». مكتبة سُر مَن قرأ

تقدَّم الأخ دياز خطوة نحوها، ناظرًا في عينيها -وللمرَّة الأولى- فحسبت أنَّ فيه لمحة ازدراء، وقال: «لكن قداستها نصَّبتني قائدًا، وحتَّى أنا أعلم، أنَّك إن كنت في موضع ضعف فعليك أن تفرَّ...».

تقدَّمت إليه ڤيجا كاشفة عن أنيابها وقالت: «ليس إذا طال نحسك وقلَّ نصيرك. حينها، تهجم على عدوِّك في لحظة غفلته، في موضع تختاره، وفي توقيت تحدِّده. فتقتل أقواهم، وتحطم عزائم البقيَّة، وتلقِّنهم درسًا داميًا!».

ارتعش جفن الأخ دياز كأنَّه شم عبيرها، ثم شدَّ فكَّيه وبصق الكلمة في وجهها: «سخافة. لا يمكننا المجازفة بحياة الأميرة أليكسيا!».

قالت: «فاحملها أنت وأنا سأعود...».

- لا! لقد فقدتُ نصف جماعتي، وسنصل إلى طروادة. لن يقاتل أحد!

قالت بازدراء: «إن انتصرت، فيا له من نصر! وإن هلكت، فقد متُّ ميتةً مجيدة، ثم لا أدري...». فقد كانت حين يتحدث الكاهن عن هذا الشأن تُصغي حتَّى يبلغ قوله «تموت ميتةً مجيدة»، ثم ينقطع خيط التركيز عنها: «ترحب بك الفالكريات في ڤالهالا... أو شيءٌ من هذا القبيل».

رفع الأخ دياز ذقنه لينظر إليها من فوق أنفه، ولأنها أطول منه، اضطرَّ إلى رفع ذقنه عاليًا، وقال: «أنا لا أؤمن بالفالكيريات».

حدَّقت إليه ومنخرها يشتعل: «وأنا لا أؤمن بالرهبان، ومع ذلك فأنت هنا».

وظلَّا واقفَين هناك والمطر ينهمر، وكلاهما مبلَّل، يتنفسان بتسارع، وما كان ليشقَّ عليها تقبيله. بل كان الامتناع عن ذلك هو الصعب. الغضب والارتعاش والقمر، كلُّها امتزجت. ودت لو تلمس لسانه، وتجرُّه معها إلى الوحل، وشرعت تصدر زمجرة طويلة منخفضة...

صاحت أليكس وهي تغرز سبَّابتها في صدر الأخ دياز حتَّى كاد يتقهقر ويزلق في الوحل: «كفى! أنت، لا تستفزَّ المستذئبة!».

قالت ڤيجا: «هاه! قولي له... سُحقًا!». إذ غرزت أليكس إصبعها في صدرها هي الأخرى.

قالت: «وأنتِ، نحن ذاهبون إلى طروادة، لا ڤالهالا! عددهم يفوقنا كثيرًا، وساني ما زالت مصابة، وأنتِ الوحيدة بيننا تستطيع القتال».

قالت ڤيجا وهي تفرك الموضع: «لقد وخزتِ ثديي».

قالت أليكس وهي تحدِّق إليها ثم في دياز: «أحسني التصرُّف وإلا وخزت الآخر! ماذا حصل بينكما بحق السماء؟».

ساد صمت حرج.

لحست ڤيجا شفتيها وقالت: «حسنًا...».

ابتلع الأخ دياز ريقه وقال: «إيه...».

قاطعتهم ساني مشيرة إلى الطريق قُدُمًا: «ما ذاك؟».

وقد خف المطر، حتَّى إنَّ ڤيجا استطاعت أن ترى من خلال الضباب الرمادي في الجنوب تلَّة فوق الأشجار، وفي نهايتها شكلًا مسنَّنًا لا بُدَّ أنَّه صنع البشر.

قال الأخ دياز وهو يحدِّق إلى المطر: «يبدو كأنَّه برج جرس».

دفعت ڤيجا شعرها إلى الوراء، فانحدرت قطرة ماء باردة على عمودها الفقري، وسارت نحو الخراب قائلة: «علنا نحظى بسقف».

47

النذور

مكتبة
t.me/soramnqraa

قالت أليكس وهي تحدِّق بعينين نصف مغمضتين إلى الواجهة الآيلة للسقوط: «يبدو لا بأس به». وقد خُيِّل إلى الناظر أنَّ تلك النبتة الميتة المتدلّية على الجدار وحدها ما ترفع البناء.

همس الأخ دياز: «دير القديس ديمتريوس». وقف تمثال شفيع المرضى في كُوَّة ناضحة بالماء فوق البوابة، يده التي رُفعت يومًا للبركة قد قُطعت عند المعصم.

قالت ساني: «إنه من قديسيَّ المفضلين!».

- حقًّا؟

فنظرت إليه هي وفرسها المبتلُّ نظرة طويلة، وقالت: «بالنسبة إلى إلف مثلي، فالقديسون سواء».

تنهد الأخ دياز وقال: «كان الرهبان يُعالجون المرضى هنا بتفانٍ لا يعرف الكلل، حتَّى صدر الأمر بهجر المكان. ويُقال إن بعضهم بقي على الرغم من ذلك، ليؤدوا الطقوس الأخيرة للمحتضرين».

زمَّت ڤيجا جبينها وهي تتأمل المقبرة التي زحفت نحو جدران الدير. وقد غارت الأرض منذ عقود، والقبور تغمرها تحوطها نباتات القراس

وقد انحنت شواهدها نحو مستنقع آسن. قالت: «أتقيم لي الطقوس الأخيرة إن اتضح أنَّ المكان مسكون؟».

قالت ساني: «ألم تقولي إنك تريدين ڤالهالا؟».

أجابت: «ذاك اختياري الأول، لكن لا ضرر في تنويع الرهانات».

قال الأخ دياز وهو يدنو من باب الدير المتهاوي الذي سقط عن مفصليه منذ أمد بعيد والان مُلقى كخشبة متعفنة في المدخل: «الجنة للعاصين التائبين».

وكان لوح خشبي مغروز فيه، وقد محت السنون نقوشه، لكن بقيت عليه بصمتان: الدائرة وعجلة ذات خمسة أذرع. قال: «ختم البابا والبطريرك، والدخول محظور تحت طائلة الحرمانية الكنسية».

قالت ساني وهي تهز كتفيها: «لم يسبق لي أن أُحل لي كنسيا».

قالت أليكس وهي تتجاوز الأخ دياز وتخطو فوق الخشبة المتعفِّنة إلى تحت القوس الندي: «ولي معرفة خفيفة بثلاثة من كبار رجال الدين، البابا واثنين من الكرادلة. أظنني أستطيع أن أحصل على ترخيص».

وكان في الفناء المهجور مجارٍ مكسورة تقطر ماءً، وأحد الأركان قد استحال بركة، وامتد رواق ذو سقف منهار بمحاذاة الجدار.

استعاد الأخ دياز صورة ديره القديم، إذ سار مع الرهبان صفًّا واحدًا في ذلك الرواق إلى صلاة الصبح، وأنفاسهم تتصاعد في البرد كالدخان.

دخل قاعة باردة، والعناكب تعلِّق خيوطها في العوارض، لكن السقف ظلَّ متماسكًا عدا نقطة تسرُّب واحدة، والأرض يابسة. صُفت الطاولات والكراسي المغبرة بغير حراك منذ عقود، كأنها صورة مكررة من قاعة طعام ديره القديم. طعام لا مذاق له، وصمت خانق، وروتين طاحن، كل يوم تكرار لما قبله...

ثم استدار فجأة على وقع ضجَّة صاخبة، فإذا بقيجا ألقت معطفها المبلول على طاولة وشرعت تهزُّ جسدها بعنف، يناثر الماء من حولها.

ثم نفخت قطراتٍ من فمها، وانحنت تعصر شعرها بكلتا يديها، وقميصها المبلول قد التصق بظهرها حتَّى ظهرت رسوم الوشم من تحته كالأشباح، وسروالها قد التصق بجسدها حتَّى كأن لا حاجة إلى التخمين، وهو لا يحتاج إلى التخمين، فهو يعلم ما شكله، وما ملمسه، وما...

تمتم وهو يدير وجهه، ويعدِّل بنطاله بيد ويمدُّ الأخرى إلى صدره ليمسك بزجاجة التقديس: «يا قديسة بياتريكس الطاهرة».

وقد أدخلت ساني الفرس، تحاول فك الحزام وتضغط على أضلاعها معًا. فاندفع الأخ دياز إليها، راغبًا في التلهِّي عن نفسه: «دعيني أساعدك»، وجذب السرج الغارق ورماه أرضًا.

فكشفت ساني غطاءها المبتل، وأخذت تدلِّك الفرس وتهمس له. شعرها الأشقر اللاصق برأسها، عدا شعيرات ملتوية، كشف عن إحدى أذنيها. للإلفيين آذان مدبَّبة، هذه أوَّل ما يُعرف عنهم. لكن طرف أذن ساني كان مقطوعًا قطعًا خشنًا.

ولمَّا رأته ينظر، قالت بعينين واسعتين في العتمة: «قصوها لي بمقصِّ الغنم».

قال الأخ دياز وقد جفَّ ريقه: «من فعل؟».

قالت: «قالوا إنني عدوَّة للرب، إذًا فهم أصدقاء الرب؟». ثم عادت تفرك الفرس: «نزفت أكثر مما حسبوا، فتركوا الأخرى». وأدارت رأسها وأشارت تريه أذنها الثانية بطرف إصبعها.

قال الأخ دياز وهو يبتلع ريقه: «ذلك...». ثم لم يدرِ ما يقول. فهي من حيث المذهب عدوَّةٌ للإله، لكن لولاها لغرقَت بعثتهم المُقدَّسة في البحر الأدرياتيكي. وقد عرف بشرًا أضعف أثرًا للروح منها. فصرف بصره متحسِّرًا، ينشد تشتيتًا آخر.

قالت أليكس وهي تفرك كفيها قرب موقد خاوٍ: «أتظنون أننا نستطيع إشعال نار؟».

فردت ڤيجا: «لا ضرر في المحاولة».

فما كان من ڤيجا إلا أن أمسكت بكرسي، ولوَّحت به فوق رأسها ثم هوت به على آخر حتَّى تحطَّما معًا. ثم أظهرت أنيابها في ابتسامة مجنونة، وشرعت تدوس الحطام تحت عقبها العاري حتَّى جعلته فتاتًا. قوةٌ لا تكلِّفها شيئًا، ووحشيةٌ فيها بهجة، واحتقارٌ لكل عرفٍ أو قيد. صرف الأخ دياز بصره مجدَّدًا، مضطرًّا إلى تعديل بنطاله مرَّة أخرى: «يا قديسة بياتريكس الطاهرة...».

أفكار طاهرة! أفكار مملة! هذا ديرٌ بحق المخلِّصة، ولا يندر فيه الطهر والملل. وضع يده على منصَّة المغبَّرة، حيث كان الراهب القارئ يتلو نصوص الكتب المُقدَّسة على السامعين في أثناء الوجبات، ليثنيهم عن اللغو والفحش، ويصعد بعقولهم إلى المعاني السامية.

ثم دفع بابًا يئنُّ ففتح له إلى المصلَّى، تعشش الطيور في سقفه المقبب، والأرض مغطَّاة ببرازها. حوى ديره الأصلي ستَّة مقاماتٍ للقديسين، أما هذا ففيه نافذة زجاجية ملونة، فيها صورة للمخلِّصة منكبة فوق عجلة، وشمس المغيب تُضرجها بلون الدم. مشهد ورع، لا يحرِّك شهوة.

فهوى على ركبتيه، وشبك يديه على مضض، وحدَّق إلى وجه ابنة الإله. وقال هامسًا: «يا نور العالم، ماذا أفعل؟».

لكن المخلِّصة آثرت الصمت، فانتفض وجهه بأسى: «أعلم ما الذي ينبغي فعله وفق الدين، لا تضاجع المستذئبة، أو... لا تكرِّر ذلك، على الأقل».

ضحك ضحكةً خافتة ممسوخة، ثم ابتلعها قبل أن تخرج. فابنة الإله العالمة بكل شيء لا تُستمال بزيف التضرع، خصوصًا بواحدة مثل هذه.

قال: «لكن... لِمَ يغريني ذلك؟».

ولمَّا لزمت المخلِّصة صمتها، أطرق مجددًا، وقال: «أجل، أعلم طبعًا، منطقيًّا كي أُختبَر، فمن لا يُمتحن يسهل عليه الثبات، أليس كذلك؟ وأنا الآن ممتحَن، وأفشل. أفشل فشلًا ذريعًا».

وقد شعر أنه خرج من الصلاة ودخل في باب التملُّق، لكنه لم يستطع ردَّ نفسه. فالفاصل بينهما كان عنده رقيقًا.

قال: «ليست الملذات الجسديَّة...». فصمتت المخلِّصة، فزفر مرَّة أخرى. ما غايةُ الاعتراف إذا كنتَ تظلُّ تحاول أن تتملَّص من الحقيقة؟ «أعني، ليست ملذات الجسد فقط...». لكنه ما إن نطق بالكلمة حتَّى رد عليه ذكر الجسد، والوشوم المشدودة على عضل صلب، دافئ، مبلَّل بالعرق، قال: «لكنها كانت...».

فبحث عن وصفٍ يليق، وقال: «لحمية؟». وكان لفظًا شنيعًا، مقيتًا للغاية: «إنها فرصة لأكون رجلًا آخر! لا رجلًا أفضل، ليس بالضرورة، بل... رجلًا أرتاح له أكثر؟».

ذلك الذي جعلته خطاياه الأولى راهبًا. ثم زفر بأسى مجددًا. وقد اعتاد الزفير حتَّى صار وجهه على هيئة زفرة دائمة. قال: «أحتاج... الهداية». تحول من الدعاء إلى التملق ثم إلى نحيب صريح: «إيماني... مضطرب...». وتبين أنه أضعف كثيرًا من عجيزة مستذئبة في الحقيقة. وإنه لا يُنكر أن تلك العجيزة، في باب العجائز، مذهلة حقًّا، ملمسها تحت كفيه كأنها منحوتة من خشب... همس: «لا! لا، لا». فالصلاة في حال غُلمة لم تكن من الغرائب في الدير لكنها منكرة بلا شك، فأدار وجهه عن خيبة المخلِّصة، وتجمد.

وقفت ڤيجا في المدخل، في يدها بطانية مبتلة. ثم تبادلَا النظر، وفي الخارج نقر المطر ونقط وتسلل.

- تصلي؟

ابتلع الراهب دياز ريقه وقال: «أنا راهب».

- أوه، أجل. أنسى ذلك أحيانًا.

- بصراحة، وأنا كذلك.

في الأيام الجيدة على الأقل.

- هل تنفعك؟

- أن أكون راهبًا؟ لا، إن صدقت مع نفسي.

- أعني الصلاة.

قال وهو يحكُّ لحيته التي بلغت الطول الأسوأ وجعلت الحكة لا تفارقه: «ولا الصلاة، إن صدقت مع نفسي».

جلست ڤيجا على الأرض، وأسندت ظهرها إلى الحائط، وقالت: «أوقدت ساني نارًا هناك». ثم مدت الغطاء على ركبتيها ونظرت نحو النافذة.

- سيكتمل القمر الليلة، فأغلب الظن أني سأصبح مضطربة بعض الشيء. فالأحوط أن أبقى هنا، حتَّى لا أزعج أحدًا...

قال الأخ دياز: «لم تفعلي شرًّا».

رمقته ڤيجا بنظرة ريبة وقالت: «أنا وثنية عفنة، وهمجية قاتلة، وزانية لا تتوب، ناهيك بكوني مستذئبة مدانة من محكمة السماء».

قال: «نعم، لا ريب أنك... نادمة على أشياء كثيرة، ولكن...». ثم نظر إلى الباب وخفض صوته وقال: «أعني، فيما بيننا، فالذنب ذنبي. أنتِ بقيتِ أمينة لطبعك، لم تكسري نذرًا». ثم طأطأ رأسه، ونكش بإصبع قدم حذاءه التالف الفجوة بين حجرين من الأرض: «والرب يعلم، لقد أحسنتِ إليَّ أكثر مما أحسنتُ إليك. بل أكثر مما أستحق. فإن كنتِ وحشًا...». ثم رفع عينيه إليها وقال: «فعلى الأقل أنتِ وحش صادق».

قالت وهي تضيق عينيها أكثر: «أوه، كنتُ أظنك تمقتني».

قال وهو يتنفس بصدر مضطرب: «أسوأ من ذلك. بل النقيض تمامًا».

وساد بينهما صمت في مصلى مهدم بدير مهجور، لا يُسمع فيه سوى تقاطر الماء بلا انقطاع.

قالت: «إن شئت أن تبقى...». ثم رفعت طرف الغطاء بلطف وقالت: «فإني أعدك بليلة لا تُنسى».

قال الأخ دياز وعيناه مثبتتان على أرض بجانبها، رقعة من الحجر المستهلك لا تختلف عن غيرها، لكن لها وقع خاص في نفسه: «أصدقك القول إني سعيد بعرضك، أكثر مما تظنين، لكن لا يجوز أن نكررها». ثم نظر نحو الزجاج الملون، نحو وجه المخلِّصة، وقال: «بل لا يجوز أن يحدث... مطلقًا».

***

- أيها الأخ دياز.

تأوَّه وهو يرفع يده الخاملة ليحجب بها وهج الفجر الطاعن لعينيه، والضوء الملون يتلألأ من حول ظلٍّ قاتم. أزيارةٌ ملائكية؟ أهي رؤيا؟ أهي سكرات الموت؟ خشي أن يكون مثوله على باب السماء قد حان، ولا حظَّ له في النجاة.

قالت مجددًا: «أخ دياز؟».

ولما تبيَّن أنها الأميرة أليكسيا، شعر أولًا بالراحة لأنه لم يُبعث للمحاسبة، ثم بالأسى لما تذكَّر من أهوال الطريق المقبلة، ثم بالارتباك حين رأى وجهها يحمل صدمة عظيمة، وهو مستلقٍ فوق شيء دافئ يرتفع وينخفض بنعومة، ويصدر هديرًا خافتًا مع كلِّ شهيق.

صاح: «واه!». ثم اندفع من تحت الغطاء يتخبَّط، ليكتشف من اتساع عينا أليكس أنه لا يرتدي سوى قنينة القديسة بياتريكس، وهي زينة لا تليق بحاله تلك. فامتدت يده إلى الغطاء، لكنه ما لبث أن أدرك أن

ستر عورته سيكشف عن جسد ڤيجا بكل وشومه، فاضطر إلى أن يستر عورته بكلتا يديه.

- أستطيع أن أشرح!

نظرت أليكس إلى ڤيجا التي بدأت تتحرك تحت الغطاء، ثم إلى دياز، ثم إلى موضع يديه، وارتسم على وجهها شكٌّ قريب من الشفقة.

- حقًّا؟

وقف لحظة فاغرًا فاه، يأمل ربما، أن يُلهمه الرب كلمة، لكن ما من عبد كان أقل استحقاقًا للنفحة الإلهية منه. فانحنت كتفاه وقال: «لا، لا أستطيع بتاتًا».

قالت وهي تتراجع: «حسنًا، أتيت لأقول إن الشمس قد أشرقت وحسب...». ثم أضافت وهي تخطو نحو الباب مسرعة، وقد ارتطمت كتفها بإطاره وأطلقت زفرة ألم مكبوتة: «فلنغادر إذًا...».

همس دياز: «اللعنة»، واندفع ليرتدي بنطاله الملقى وسط فضلات الطير.

قالت ڤيجا وهي تنفخ خصلة شعر عن وجهها، ثم ترفع ذراعيها فوق رأسها في تمدد مترف: «والآن هل تعرف؟».

قال وهو يزفر وقد شرع يرتدي قميصه المبتلَّ: «نعم! أظن ذلك!».

قالت بابتسامة مليئة بالأسنان: «فابق إذًا. لديَّ لك شيء تحت هذا»، وتلك الابتسامة كانت تبعث في نفسه القزُّز سابقًا، أما الآن، فالرب يعينه، صار لها أثر آخر.

قال هامسًا، وقد بلع ريقه ونظر إلى الزجاج الملون: «ربَّاه...».

انتظرت لحظة ثم أومأت إلى أسفل وقالت: «أفهمت».

قال وهو يلتقط حذاءه: «أجل، أظنني حللت هذا اللغز». ثم عدل سرواله وركض إلى الباب، هاتفًا: «الأميرة أليكسيا! أليكس! انتظري!».

رجا أن يبدو نادمًا وهو يتبعها إلى قاعة الطعام المغبرة. والرب يعلم أن الندم ديدنه منذ عقدٍ من الزمان. فإن كان لأحد أن يُتقنه، فهو دياز.

قال: «أعلم أنني قصَّرت... تقصيرًا فادحًا...».

قالت أليكس وهي تحشو أغراضها في حقيبتها: «تستطيع قول ذلك! أليس من المفترض أنك راهب؟».

- نعم، أظن...

وكلَّما قطعوا ميلًا أحسَّ أنه أبعد عن الرهبنة.

- أعني، نعم... لكني لم أرد قط أن أكون راهبًا...

- اسألني إن كنت أردت أن أكون أميرة. هيا، اسألني.

- لست أدري إن...

- لم أرد ذلك قط. ألم تقسم نذورًا؟

قال وقد سحب فردة حذاء واحدة، ولم يكن لذلك كبير جدوى، إذ إنَّ ثقبًا في النعل قد اتَّسع ليشمل تقريبًا الحذاء كلَّه. لقد صار مجرَّد ادِّعاء لحذاء، كما صار هو ادِّعاءً لراهب: «بلى، على ما أظن... لكن ڤيجا قدَّمت حجةً قوية لثغرة في الأمر...».

فنظرت إليه أليكس نظرة شكٍّ عميق، ولم يملك أن يلومها.

- لكن الآن... لا تبدو حجتها مقنعة.

- أحقًّا؟ وعلى أرض المعبد؟

قال: «حين يدور الحديث عن... ما نتحدث عنه...». ولوَّح بالحذاء الآخر عبثًا: «فالمكان لا يصنع فارقًا كبيرًا».

قالت ساني: «عم تتكلمون؟». واتكأت إلى الحائط وذراعاها مطويتان وقلنسوتها مسدلة، بالكاد ترى وإن كانت مرئية.

فأشارت أليكس إلى دياز، ثم إلى الباب: «عنه... وعن ڤيجا...».

قالت ساني بأنف مزموم غير متعجبة: «هذا واضح».

قالت أليكس مندهشة: «أحقًّا؟».

قالت ساني: «ڤيجا مثل البلل، إن أعطيتها وقتًا كافيًا تسلَّلت إلى كل موضع». ثم استدارت وقالت: «سألحق بكما لاحقًا».

فأخذت أليكس حقيبتها ومضت نحو القوس الحجري.

قال دياز وهو يقفز خلفها إلى فناء الدير، ويحاول انتعال حذائه الآخر: «أرجوك! دعيني أشرح...».

قالت أليكس بحدة: «بل لا تفعل»، ثم أضافت بتنهيدة مرهقة وبنبرة أخفَّ: «أعني... ليس لي أن أغفر ذنوبك، أو ما شابه. أنا سارقة. فما قيمة مغفرتي؟».

- لكنها تعني لي.

قالت وهي تلوِّح بإصبعها في الهواء: «أنت على الأرجح مغفورٌ لك يا ولدي». ثم نظرت إلى قاعة الطعام وهمست بمرارة: «أغلب الظن أنني أحسدك وحسب، لأنك فعلت ما لم أجرؤ على فعله».

قال دياز مبهوتًا: «مضاجعة مستذئبة؟».

قالت: «أن تنتزع أي ذرة راحة متى وجدت». ثم توقَّفت لحظة، وزفرت ضحكة قصيرة: «أتذكر ذلك الراهب النكِد الذي قابلته في المدينة المُقدَّسة؟ من العجيب أن أجده... حيث وجدتك».

قال: «أجل». ثم خطر له كيف كانت حين عرفها أول مرَّة، مرتابةً كالقطط الضالَّة: «ويبدو أن لا أحد يخرج من رحلة كهذه كما دخلها».

تمتمت: «لست أدري. أظنُّني ما زلت الحثالة ذاتها. لم أقترب من الأميرة ولو خطوة...».

قال: «أخالفك الرأي، بكل احترام. لم تكوني كما توقعت. لكنني ما فتئت أزداد إعجابًا بشجاعتك، وبثباتك، وبروحك الساخرة في

وجه المصاعب، و...». ثم رمش بدهشة إذ وجد نفسه ينطق بالكلمة: «وبقيادتك».

نظرت إليه أليكس بشكٍّ قديم عاد إلى عينيها، وقالت: «أتحاول استرضائي بعد ما رأيت؟».

- أينجح؟

- ربما قليلًا.

قال: «ينبغي لإمبراطورة طروادة أن تعتاد الإطراء». ثم نظر إليها من طرف عينه وجرب ابتسامة وقال: «وعلى الأقل أنتِ حثالة تعرف القراءة».

قالت: «بل أكتب أيضًا». ثم ابتسمت، والشمس تغمر وجهها من بوابة الدير الخالية من باب، بعين مغمضة، وأخرى نصف مغمضة في وهج الفجر: «في الظروف الجيدة».

48

فخر

لأول مرَّة منذ أمد، ابتسمت أليكس وهي تخطو عبر البوابة. بدا دير القديس ديمتريوس مختلفًا في ضوء الشمس؛ أقل شبهًا بحصن من الكوابيس، وأقرب إلى أنقاض فاتنة. وتلألأت قطرات الندى على خيوط العنكبوت بين الشواهد المائلة كأنها كنز من الماس، والحجارة الساقطة تشع ببريق البلل، والطيور تزقزق في الأشجار المحيطة بالطريق المهجور.

ما طلبت شيئًا من هذا قط. لا أن تكون وريثة لإمبراطورية، ولا أن تطاردها وحوش بشرية، ولا أن تباغت رهبانًا مع مستذئبين، ولا أن تضرب سحرة متغطرسين وتصاحب إلفيين غير مرئيين. لكنَّها بدأت تتساءل في لحظات مجنونة، إن الأمر ليس بهذا السوء. على الأقل أفضل من كماشة بُسترو...

مدَّ الراهب دياز يده فجأة وأمسك بمعصمها.

عندها رأته أليكس. على ظهر جوادٍ فخم، وسيم الهيئة، كمَن ينتظر نفير الصيد الملكي، رداؤه المذهَّب مرفوعٌ عن كتفيه ومبسوطٌ فوق مؤخرة الفرس.

تلاشت ابتسامة أليكس سريعًا كعادتها، وفيما تدلَّت زوايا فمها، ارتفعت زوايا فمه، كأن بينهما حبلًا يشد هذا بذاك. فإن كانت ابتسامة

مارسيان كلها غضبًا، وابتسامة قسطنطين كلها جشعًا، ابتسامة هذا فخر صرف، ولسببٍ ما كان أشرَّهم جميعًا.

حرَّك جواده إلى الأمام وقال: «اسمحوا لي أن أعرِّف عن نفسي...».

تمتمت أليكس: «وهل لي أن أمنعك؟».

قال: «أنا... الدوق ساباس». نطق الاسم كأنما يسعده في كل مرة: «سيد ميستراس وإيكونيوم، أدميرال الأسطول الكريتي، قيم الإسطبل الإمبراطوري، وسيد الصيد الملكي، ابنٌ وحفيدٌ وابنُ حفيدٍ لإمبراطورات». خاطب السماء، كمن يخاطب جمهورًا أوسع، بصوت رجلٍ ما احتاج إلى أن يطلب شيئًا مرتين.

قالت أليكس: «قد خمَّنت».

قال: «وأنتِ...». وأخرج لفافةً أخرى من تلك اللفائف اللعينة، وتركها تنساب بثقل الختم الموقع في أسفلها. منشور البابا ليؤكد هويتها. ويبدو أنَّ كل من له مصلحة في عرش طروادة قد نال نسخةً منه. قال: «... بحسب عرَّافي البابا الطفل، لا بُدَّ أنك ابنة خالتي. السامية أليكسيًّا پايروجينيتوس!».

تأوَّهت أليكس: «وإن قلت إنِّي ما سمعت بها قط؟».

قال: «لاضطررتُ إلى أن أسمِّيك كاذبة، فضلًا عن مدَّعية». ثم رمى الرق على الأرض وداسه بجوادِه حتَّى غاص في الوحل: «أتصدقين حقًّا أنَّك، وأنت قصيرة، مهملة، مجردة من أي سِمة تميزك»، ورفع شفته العليا بازدراءٍ ظاهر: «تملكين حقًّا أسمى في عرش طروادة منِّي، لمجرد الغرفة التي ولدتِ فيها؟».

قالت أليكس وهي تحدِّق إليه: «وهذا من رجلٍ نال ألقابه اللامعة من أمِّه».

ابيضَّ وجه ساباس بغضب المولود في النعمة إذا قيل له إنه لم يستحقها. وجذب الراهب دياز يد أليكس برفق، متراجعًا نحو البوابة. وقال: «لعلَّ من الأحكم ألَّا نُغضبه...».

همست أليكس: «هذا الأحمق وُلد غاضبًا»، لكنها إذ لم تجد مفرًّا غير ذلك، فانسحبت معه.

قالت امرأة من خلف ساباس: «تأخَّر الوقت». كانت فارعة الطول، حليقة الشعر، رأسها كأنما صيغ من نحاس، وسلسلة من معادن مختلفة تلتف مرارًا حول عنقها. لحقتها أُخرى، نسخة عنها، لا شكَّ أنهما توأمان، وسلسلتها مؤلفة من خرز زجاجي بألوان شتى. قالت: «ظننا أنَّك لن تستيقظي أبدًا».

قال آخر: «على الأرجح أنك تتمنين لو لم تفعلي» وكان طويلًا كوجه المجاعة، وقد خرج من أدغال في جانب المقبرة متكئًا على رمحٍ ذو رأسٍ مشقوق، وهو نوعٌ تعرفه أليكس، يُمسك الرجل من عنقه ويمنعه من الحركة، وغالبًا ما سيفعل ذلك بالأميرات أيضًا.

ثم خرج صوتٌ خشن من اليسار بلكنة غريبة، صاحبه يخرج من بين الأشجار. كانت قد رأته من قبل، مضاءً بنار تلك البلدة المحترقة، لكنه بدا الآن أكبر حجمًا في ضوء النهار، سترته مفتوحة تكشف صدرًا مكسوًّا بالشعر والعضل، ومغطى بوشمٍ متشابك. وقد بان من بين لحيته نابٌ مسنَّن وهو يبتسم. قال: «وإن لم تتمني، فسوف تتمنَّين قريبًا».

ومن بين الأشجار المحيطة بالمقبرة خرج آخرون، وجوههم متحفزة كصيادين يأكلون قوتهم من مطاردة السارقين والقتلة والهراطقة الذين استعصوا على غيرهم. جماعة متنوعة، يحملون السيوف والفؤوس والأقواس، وأسلحة غريبة معقوفة ومُسلسلة تجعل كماشة بُسترو تبدو مريحة بالمقارنة. زمرة من صائدي البشر، قراصنة برٍّ، وانتشر الملاعين في كل مكان. كل ما استطاعت أليكس فعله هو الاستمرار في التراجع،

على أمل أن ترى ساني مخرجًا. لكن ساني لم ترَ مخرجًا. فقد فاقوهم عددًا بعشرة إلى واحد، والهوة تتَّسع. بينهم مستذئب، ما اضطرها إلى البقاء بعيدة عن تيار الهواء، وساحرتان متطابقتان، فوجب أن تظلَّ خارج أنظارهما. أما الرداء العظيم الذي ارتداه ساباس، فكانت تشعر أنه يخفي شيئًا، وليست كعكة عيد ميلاد. وليس وكأن أحدًا قدَّم لساني كعكة عيد في حياتها، ولا تدري متى وُلدت أصلًا، لكنها سمعت بها وظنَّت أنها لا بُدَّ أن تكون شيئًا جميلًا. شيئًا تأمل في نيله يومًا.

إن عاشت ساعة.

لقد شفيت قليلًا منذ رفسة الحصان، لكن أضلاعها لا تزال تؤلمها حين تحبس أنفاسها، ورأسها يضج جوعًا، وبطنها يعاني، إذ إنَّ أولئك الملاعين وصلوا في اللحظة التي كانت تقضي فيها حاجتها، بل إنها صفت بالفعل بعض أوراق اللبلاب اللامعة للمسح. واللبلاب خيارها المفضَّل، ناعمٌ ومتين.

ما رأت ساني سبيلًا للفرار، لكنها تحسن العمل مع الريح. فأخذت نفسًا، وتأوهت من الألم، ثم انسلت حول حافة المقبرة تبحث عن فرصة. رأت أول صائد صادفته يحمل نُشابًا مشدودًا لكنه منخفض. فمالت ساني فوق شاهد قبر وسحبت السهم بأطراف أصابعها حتَّى التصق الوتر بالرِّيش. الرجل التالي حمل سيفًا منحنيًا بحلقة جلدية عريضة على القبضة. فلمَّا حرَّك إبهامه ليرفعها، أرجعتها ساني إلى موضعها.

قال ساباس وهو يتيه فخرًا: «لقد جعلتِنا نلهث خلفكِ! كنت آمل أن أعود إلى طروادة منذ أسابيع أطالب بحقي، لا أن أغوص في هذا الإبط المنسي من أوروبا».

قالت ڤيجا وهي تمرُّ عبر القوس بخطى واثقة، واضعة يدها الثقيلة على كتف أليكس: «ألم تسمع، أيها الروث المذهَّب؟ إنه حقها».

وبمجرد رؤيتها، أصدر الدانماركي زمجرة عميقة أحست بها ساني في قدميها، وتحركت وشوم التحذير على ظهر قبضتيه الضخمتين وهو يقبضهما.

قال الأخ دياز، يطل من فوق كتف ڤيجا، رافعًا إصبعًا ينصح كعادته حين يصحِّح لأليكس كتاباتها: «ومن حيث العقيدة، فإن الرب متفق عليه أنه في كل مكان».

وقد انكمشت ساني خلف شجرة، تمسك بأضلاعها، تلهث أنفاسًا قصيرة. ثم شدَّت أسنانها، وملأت صدرها بالهواء، وانسلَّت من جديد.

تقدم رجل بدين في سترةٍ بأزرار نحاسية مصقولة إلى جانب ساباس، بجوادٍ محمَّلٍ، وفيه رماحٌ للصيد بأغماد جلدية فاخرة. فأخرج واحدًا وقدَّمه بحماس، فرأت أن له مؤخرة مقبض من فضة.

- رمح يا سُموك؟

قال ساباس وهو يلوِّح نحو الأخ دياز كأنما يزيل فتاتًا عن مفرش: «لا حاجة. ليس لدي أي اهتمام يُذكر ببقيتكم». تحرَّك جواده حين اقتربت ساني، لكنه أوقفه بجذبٍ متضجِّرٍ على اللجام، وهو أمر قدَّرته ساني، إذ إنَّ رفسة حصان أخرى كانت ستختم صباحها: «إن شئتم القتل فلكم ذلك»، قالها وكأنه يخيرهم بين ملحٍ أو لا ملح: «لكنكم مرحَّب بكم إن شئتم الفرار والعيش».

قطَّب الأخ دياز وجهه كمن يخطو في عاصفة. وقال: «يؤسفني...».

قالت إحدى الساحرتين: «ولا ألومكم».

قال: «... أن نرفض». وتقدَّم أمام أليكس، يُغطيها بجسده، وإن لم تكن درعٌ كافية، إلا أن ساني قدَّرت الموقف. قالت ڤيجا وهي ترفع معصمها: «رباط بابوي». وعملت ساني في تلك اللحظة، مع كل ما بها من وجع، على فك الدبوس من أول مشبك في حزام سرج ساباس، وأنزلت الحزام حتَّى تركته مرتخيًا.

- لكن لديَّ أربعة أسباب أخرى.

تحرك الحصان من جديد، وجذبه ساباس مرَّة أخرى بغضب: «تفضَّلي وأنيرينا».

زمجرت ڤيجا وهي تطوي إصبعًا: «لم أفطر». ثم ثنت إصبعًا أخرى: «لا أحبُّ من يأمرني». ثم ثالثة: «ولا يعجبني وجهك القذر».

امتد الصمت، وفيه كانت ساني قد انتزعت الحزام الثاني من دبوسه، ثم عطفت الدبوس جانبًا.

قالت الساحرة الأخرى: «لكن تلك ثلاث».

نظرت ڤيجا إلى يدها فرأت أنها تشير إلى السماء. وقالت: «آه. أنا لا أحسن العدَّ... أحسن القتل». وطوت الإصبع الأخيرة لتقبض كفها، وأمسكتها بالأخرى حتَّى طرقت مفاصلها. ثم قالت: «فأيُّ مهرِّج من مهرِّجيك يتقدَّم أولًا؟».

قال الدانماركي وهو يخلع سترته ويرميها لتسقط: «أنا أولًا... وآخرًا».

كان مغطًى بالوشوم والندوب مثلها، بل أكثر، وشَعره أظلم، وعضله أعوج. فتراجع بقية القتلة خطوة، حتَّى اضطرت ساني إلى القفز بعيدًا عن طريق إحدى المرأتين، فجلست على شاهد قبر تعض شفتها، ثم رفعت ساقيها وقفزت خلفها تلتقط أنفاسها. فها هو ذا وغدٌ حتَّى هؤلاء الأوغاد الفظيعون يهابونه، ومن ذا يلومهم؟ المستذئب الغاضب لا يفرِّق بين صديقٍ وعدوٍّ.

ومن ذلك خرجت فكرة لساني.

زحفت حول القبر تحبس النفس، وسحبت خنجرًا من غمده على ورك تلك المرأة وهي تمرُّ بها. النصل نحيف، قاسٍ، وحافَّته مشرشرة. من النوع الذي يُغضب مستذئبًا إن غُرز مثلًا في مؤخرته. لم يفلح مع ذاك السرطاني، لكن لعلَّها أوفر حظًّا الآن.

زأر الدانماركي في وجه ڤيجا، والزبد يسيل من فمه: «لقد علِق نتنك في أنفي أيامًا».

شمت هي الهواء وقالت: «ولك رائحةٌ أيضًا... بول وخوف».

غاص الدانماركي في وضعية قرفصاء مرتجفة، وشفتاه مرفوعتان.

مشت ساني على أطراف أصابعها، أضلاعها توجعها، وجهها يحترق، وقبضتها تزلُّ على مقبض الخنجر، وعيناها مسمَّرتان على مقعد بنطاله. كانت كغوَّاصة تبحث عن اللؤلؤ، تحبس النفس لحظةً أطول، تحفظ قليلًا منه للعودة إلى السطح، وغير واثقة إن كان يكفي، لكنها لم تكن تطلب محارة، بل مؤخرة مستذئب، ولا لؤلؤة، بل نوبة جنون.

قال ساباس وهو يتنهَّد: «مستذئبون، بربي. حسنًا. أفرغوا من الأمر بسرعة».

ابتسمت ڤيجا، وقد أظهرت أنيابها بجنون، وساني تشد على أسنانها وتجرُّ الخنجر إلى الوراء. وقالت: «أوه، لا تقلق. لن يطول الأمر».

وإذ بالدانماركي ينقضَّ صارخًا، عِقبُه يرمي الطين على وجه ساني وهو يشقُّ المقبرة، وڤيجا تهجم عليه في ذات اللحظة، فالتقيا بصدمة كثورَين يشتبكان، فانطرحا على الأرض، يتقلبان وسط الحشائش المبتلَّة والأوراق المتطايرة، محطمين شاهدي قبر، ومسويين ثلاث بالأرض.

تكوَّرت ساني، وقد تجمَّد خنجرها، ووجهها ملطخٌ بالوحل. أفضل أفعالها كان بلا خطة، لكنَّ هنا لم يكن هذا الحال. فتراجعت نحو الأشجار، وأعادت الخنجر إلى غمد المرأة حيث وجدته، ثم إذ لاحظت أنَّ عين المرأة منصرفة إلى نزال المستذئبين، أعادت سحب الخنجر وقطعت حزامها من الخلف، حتَّى تدلَّت سراويلها في خطرٍ ظاهر.

نهضت ڤيجا فوقه، وامتدت حرارة النصر اللذيذة في ذراعيها وهي تضرب رأسه في التراب. صرخت وضربته، لكنه صدَّها بذراع، وأزاحها بالأخرى، فتدحرجت على العشب وقامت مبتسمة، وفتحت كفَّها إشارةً

إليه أن يقترب. فوثب نحوها بسرعةٍ جعلت الأوراق تدور، وأصاب فكَّها بضربة جعلت أذنيها تطنَّان، ودمها يفور. ما من شيء كالنزال الجيِّد. لا متاهة حججٍ تتخبط فيها، ولا ذكرياتٍ تنفلت من بين الأصابع. فقط أنت، وعدوُّك، وأنفاسك، ويدانك، وقوَّتك.

غرزت قبضتها في بطنه، وأنفاسه الحارَّة على وجهها وهو يئنُّ، والثانية في ضلوعه، فأدارته. كان أكبر، أثقل، كتلةً من الوشم والعضل. لقد قاتلت دبًّا من قبل، لكنه كان أبطأ وأقلَّ حنقًا. ابتسمت، ورأته يبتسم أيضًا، هلالًا من أنيابٍ دامية، وعينين تتلألآن بحبِّ الحياة وحبِّ الموت.

ضربت كتفه لكنها أخطأت، فاختل توازنها، فأمسك بها ورفعها، وشعرها يضرب وجهها، والمقبرة تنقلب بأشجارها وجدرانها ووجوهها المذهولة. ثم صدمها بغطاء قبر، حتَّى ارتجَّت أضراسها، لكنها تمسكت بظهره وسحبته معها إلى الأسفل.

تصارعا بين القبور، وبين حطامها، جلدٌ على جلد، أنفاسٌ تختنق بأنفاس، عضٌّ وخمشٌ وشدٌّ، وكلٌّ منهما يسعى إلى تمزيق الآخر. دق قلبها بالجهد، بالخوف، بالفرح، مقامرةٌ كبرى، ابتلاءٌ عظيم في أعيُن الآلهة، آخر اختبارٍ للقبضة، للظهر، للأوتار المهددة بالتمزُّق.

نجحت في دسِّ ساق تحته، وحين ركلته حي أحست بالنفس، فارتطم بالشجرة، فهرب الرجال الضعاف من طريقه. ضربته، فانخفض، فارتطمت قبضتها بجذع الشجرة وكسرت منه وتدًا، وتناثرت الشظايا في الهواء.

ذئبها الداخلي قد استفاق، يزبد ويزمجر، فقد شمَّ ذئبه قريبًا كفايةً ليعضَّ، ويُذاق، ويُمضغ، ويُبتلع.

قفزت فوقه، وشق عليها ضمُّ قبضتيها لأن المخالب تفجرت من أظفارها، وشق عليها السب لأن فمها امتلأ بلسانها وأسنانها والفكِّ العريض، وصار اللعاب الحار يسيل من شدقها المفتوح على خطمه المشعر.

قال الأخ دياز وهو يضغط على قارورة دم القديسة بياتريكس حتَّى غاصت السلسلة في عنقه: «مخلصتنا... يا ذراع الرب اليمنى...».

علم أنه فقد كل حق في أن يطلب لنفسه.

- اسمعي دعائي...

لكن أليكس كانت، في أقل تقدير، إنسانة نصف صالحة، وذلك يكفي ليجعلها الأفضل في مدى بعيد، وأهلًا لفرصة للخلاص.

- نجِّينا من الشر...

وانقطعت صلاته بزفرة إذ دفع الدانماركي ڤيجا إلى تمثال ملاك كئيب، فانفجر الطحلب والحجر في كل اتجاه.

لم يكن يستطيع القول أي المستذئبين كانت له الغلبة، بل لم يعد يميِّز بينهما أصلًا، فهما يتقلبان بسرعة البرق، وشوم وشعر وثيابٌ تتمزق، وقبضات تطير، أو لم تعد قبضات أصلًا، إذ بدت تحوُّلاتهما إلى ما دون البشر قد بدأت بالفعل.

همست أليكس وهي تتلفَّت: «ماذا نفعل؟».

تمتم الأخ دياز: «وماذا عسانا نفعل؟». فقد تمزَّق أحد الصيادين بمخلبٍ طائش، ولم يرغب أن يكون التالي.

انكمش إلى جانب البوابة، وها هما يتدحرجان قريبًا، الدانماركي فوقها، ويمناه على عنق ڤيجا، واليسرى تمسك معصمها، ويمناها هي تمزِّق وجهه، واليسرى تمسك بمعصمه. كلاهما مغطًّى بالدم، والعرق والتراب والأوراق. ثم التوت ڤيجا، بارزة الأنياب، وتقلَّص وجه الأخ دياز حين بصقا على بعضهما، ومزَّقا بعضهما، وعضا على أفوههما... أو...

قالت أليكس: «أوه».

قال الأخ دياز: «أوه».

كانا لا يزالان يتقاتلان... نوعًا ما. لكن لعلَّهما كانا أيضًا يفعلان شيئًا آخر أيضًا.

قالت إحدى الساحرتين وهي تميل برأسها: «هل هما؟..».

قالت أختها متجهمة: «أُف».

ولم يمكن إنكار أنَّ حركتهما قد اكتسبت إيقاعًا وحشيًّا غريبًا.

رفع ساباس يده إلى صدغيه وقال: «شفقة عليَّ...».

تدحرجا مرَّة أخرى، وطوقت ساقا ڤيجا الدانماركي، وما بقي من ثيابهما سقط، ونبت الشعر من الجلد الموشوم، وطقطقت مفاصلهما، والتفت أطرافهما كل على الآخر، حتَّى ما عادت تُعرف حدود الذئب من البشري.

اضطر صيَّادٌ مسكين إلى أن يتدحرج بعيدًا إذ مرَّ الوحشان يزمجران من جانبه في خضم التحول. وتلاشت أصواتهما في الأدغال، ثم سِمع عواءٌ مزدوج بعيد، ثم ساد صمتٌ ثقيل. وما لبثت أعين الصيادين أن عادت إلى أليكس والأخ دياز المنكمشَين في مدخل البوابة على الجانب الآخر من المقبرة المُدمَّرة.

تنهد ساباس: «مستذئبون، هه؟». ثم أشار إلى حامل النشاب الأقرب: «لك أن تقتلهم الآن».

سمع الأخ دياز صوت انطلاق الوتر، وتشنَّج استعدادًا للألم الماحق، لكن السهم بدل أن يخترق صدره، انطلق مائلًا ودار في الهواء، وارتد بلا ضرر عن الحائط المهدوم على بعد عشر خطوات.

يبدو أنَّ المخلِّصة لم تتخلَّ عنه رغم ذنوبه الفاحشة. تمتم: «معجزة...».

قال الرامي وهو يحدِّق إلى سلاحه وقد علاه الذهول: «ما هذا بحق الجحيم؟». ثم ترنَّح رعبًا: «ما هذا بحق الجحيم؟!».

أمسكته يد. يد سوداء، عظمية ويعلوها التراب، تنبت من جوار شاهد القبر، والقراص يتحرَّك بجوارها، وانتفخت التربة ثم انفجرت، فخرجت منها أيادٍ تخمش، تجرُّ ساقي الرجل المذهول.

زأر ساباس: «كلكم! إلى...».

جفل جواده بنخيرٍ غاضب، وأحزمة السرج تتطاير وقد أمسك بها جسدٌ متحلِّل من الخلف، يعضُّ على فخذها بأسنانٍ متعفنة. تلوت جثث في كل مكان من الأرض المتشققة وتصارعت مع الصيادين. عندها تقدَّمت الساحرة ذات السلسلة المعدنية، وأصابعها مضمومة كألماسة، ونطقت كلمة، فارتجَّت الأرض وانشقت، وارتفعت في تلَّين مرتجفين مملوئين بالجذور والحجارة، ثم انطبقا كأمواج البحر، وسحقا عشرات الجثث وأعادوها إلى التراب. ثم أفلتت واحدة، وسقط فكُّها وذراعها أيضًا، وزحفت نحو الساحرة ذات السلسلة الزجاجية. فلوَّحت بازدراء لتنتزع شاهد قبر من الأرض، ودار في الهواء، وشطر الجثة نصفين. النصف العلوي تهاوى في العشب، والساقان تابعتا التقدُّم بخطًى مترنِّحة.

قطَّبت الساحرة حاجبها وركلتها بوحشية. وقالت: «معهم باعث موتى!».

وصاح صوت من الطرف المقابل للمقبرة: «واحدٌ من أفضل... الثلاثة في أوروبا!».

وقف بالثازار شام إيفام دراكسي بين الأشجار، وسرواله الممزَّق ممسوك بحبل مهترئ. قبض أصابعه كأنَّها مخالب، ورفعها، فانفجرت الأرض من تحتها، وسقطت الشواهد، وتقيأت التربة المعذَّبة الجثث الميتة.

لم يخطر ببال الأخ دياز يومًا أنَّه قد يفرح لرؤية أسوأ صنوف السحر تمارس أمام عينيه، لكنه الآن رفع قبضته يهتف. وكان شعر الساحر يتطاير في الريح، إذ مرَّ به يعقوب الثورني صاخبًا، على ظهر جواده، وسيفه يلمع في شمس الصباح.

49

وقفة أخيرة أخرى

اتسعت عينا أول رجل حين شقَّ سيف يعقوب جمجمته نصفين. فالدهشة تغني عن ألف مقاتل. هي ضرب من السحر يقلب أمهر الفرق تدريبًا إلى رعاعٍ مذعورين، وأقسى الفرسان جلدًا إلى مراهقٍ يبلل سراويله.

أما الرجل التالي، فكان يمكنه رفع قوسه، أو أن يولِّي الأدبار، لكنه لم يفعل غير التحديق. لم يحتج الأمر إلا إلى المسة على عنان الجواد حتَّى يدهسه.

خرج فرسان جماعة الحديد إلى القتال والصلوات على شفاههم، ويرددون بلا انقطاع «يا مخلِّصتنا» حتَّى فقدت معناها، يهدرون فوق ساحة المعركة كما تفعل النحل فوق النفل. اعتاد يعقوب ذلك طوال حياته، يزأر بدعاءٍ للرحمة وهو يخوض عبر الدماء، لكنه مع مرور السنين ترك الدعاء، ثم ترك حتَّى اللعنات. أما الآن فيعضُّ على أسنانه المتوجعة ويوفِّر نَفَسه، وترك الغاية العليا لمن أوتي إيمانًا أكثر وجراحًا أقل.

اندفع إليه رجل بلحية حمراء، يلوِّح بسيفٍ منحني...

لكنه علق في غمده. نسي أن يحرِّر الحلقة عن مقبضه. لم يجعل يعقوب نفسه من أكثر رجال أوروبا مقتًا برفض هبة كهذه. فأخطأ رأس ذي اللحية الحمراء لكنه حرَّك ضربته فشقَّ كتفه، ورماه يعوي على شاهد قبر حيث انفجرت أيدٍ عفنة من التراب، واحتضنته أذرع عفنة.

الموتى في كل مكان، تجاويف أعين فارغة، جلد كرقٍّ الورق مشدود على العظام، يقبضون، يلتقطون، ويعضُّون. ليسوا أمهر المقاتلين، لكنهم يبثُّون الذعر حين ينبثقون بلا دعوة بلا ريب. رجل برداء هو الأشد تفاهة مما رآه يعقوب -وقد رأى فيما مضى من الأردية المتبخترة- طعن أحدهم برمح مذهَّب، لكنه سلاح ضعيف على من مات، وكل ما فعله أنَّه قشَّر شرائح من الجلد العفن عن جمجمته.

قفز جواد يعقوب فوق قبر منهار، وكافح ليبقى على السرج، يقبض على اللجام بيده المتألمة الممسكة بالترس، القتال بالكاد بدأ وجسده يصدح بالألم. صار جريحًا أبديًّا، مجروحًا أبد الدهر. والجواد الذي لم يُعده إلى الكونت رادوساف دابة ذات بأس، مُدرَّب على الحرب، لا يزال راغبًا في الذبح. هو من قام بمعظم العمل.

فكَّ لابس العباءة نفسه من الجثث وشد جواده الحربي. فرفع رمحه ورفع يعقوب ترسه للقائه، فصرخ الرجل صرخة عجز إذ تقدَّم جواده، فانزلق السرج والفارس عن جنبه وكادا يصدمان مرتزقة تتخبَّط بين القبور، تحاول أن تمسك سروالها بيد، وتضرب جثة تتهادى باليد الأخرى.

شهد يعقوب أشياء غريبة في القتال -حظًّا مستحيلًا، أو عناية الرب، حسب من تسأل- لكنَّ هذا المقدار من الحظ بدا كأنَّه من عمل إلف خفي.

غدت حينها المقبرة ساحة فوضى. شقَّ طريقًا بالدماء عبر العدو، أو تمسَّك بجواده فيما شقَّ هو الطريق، على كل حال. واندفع بالثازار يركض، يتخبَّط في سرجه. ولحقته بابتيست، تنخفض، تمسك اللجام بيد، وقبعتها برأسها باليد الأخرى. فهي فارسة خبيرة قبل كل شيء. وقد قضت شهرًا تتسابق بالخيول في مضمار الإسكندرية.

ذكَّر طرق الحوافر يعقوب بهجومه لفك حصار كيراك. تلك الليلة قاد ألفًا ومئتي فارس إلى واحدة من أقوى قلاع أوروبا. وهذا الصباح قاد

باعث موتى مشوش الهوية ورجلًا ناقمًا على كل شيء إلى دير لا باب له. خلاصة تليق بمسيرته.

دخل الساحة المرصوفة، ينوي القفز من على جواده كما فعل في كيراك، حين سقط الفرسان الجوعى عند قدميه يشكرون الرب على بطولته. أما جواده فرغب في غير ذلك، ولا يزال يجذب اللجام، متلهفًا للكرِّ. بمعجزة ما رفع ساقًا فوق مؤخرة الجواد لكن الأخرى علقت في الركاب، فظلَّ يقفز مسحوبًا خلال بركة عظيمة في زاوية الساحة، يزأر بالشتائم.

قال: «تبًّا! قف!». وأخيرًا حرَّر قدمه وسقط على جنبه، وفمُه ممتلئ بالحشائش.

قالت أليكس: «أنت حيٌّ!».

وهي لا تزال تبدو أقل من يمكن أن تراهم يصلحون لإمبراطورة الشرق.

قال وهو يبرز أسنانه ويتسلَّق واقفًا: «حسنًا... لا يمكنك الحصول على كل شيء».

قال الأخ دياز: «الحمد للمخلِّصة أنَّك هنا!». وقد نبتت لحيته، وفقد رداء الرهبنة، ومزق قميصه، ونُفش شعره. بدا كمُتسوِّل سعيد على نحو مفاجئ.

قال بالثازار: «ما كنت لأقايض الأمر بالدنيا وما فيها»، وبدا كمُتسوِّل كئيب على نحو مفاجئ.

قال يعقوب رافعًا ترسه: «وقفة أخيرة أخرى».

قالت بابتيست تتطلَّع عبر حافة ثقب حيث كانت نافذة: «ثالث وقفة لنا في هذه الرحلة وحدها. متى سنبدأ بتسميتها وقفات؟».

تلاشت بهجة القتال. مثل سُكر شيخ طال عليه الزمن، يدوم سكره في كل مرَّة أقصر، أما الألم والاشمئزاز يأتيانه أسرع. ضغط يعقوب

ظهره إلى الحجارة عند البوابة، يحدِّق إلى المقبرة، حيث عشرون قاتلًا صلبًا تجاوزوا الصدمة وانتقلوا إلى الغضب بسرعة، يمزِّقون آخر جثث بالثازار إلى أشلاء تتقلَّص وترتعش.

قالت أليكس: «يا إلهي! هذا مثل النزل!».

قال بالثازار من بين أسنانه: «لا، لا. النزل له باب».

سقطت ساني في قبر حديث لتلتقط نَفَسها، وأسندت مؤخرة جمجمتها على شاهد مائل. في الحقيقة، لم يكن التقاط النَفَس جيدًا. كل شهيق خنجر في الأضلاع، كل زفير مطرقة في الظهر. صعب عليها حبسه ثم التحرك. وأصعب أن تحبسه وتقاتل.

لكن إن انتظرت الوضع الملائم، فلن تفعل شيئًا.

يعقوب، مع عبوسه، أحدث فرقًا في دخوله. قتل اندفاعه أكثر من صياد، وألقى آخرين يتقلبون ويصرخون، وزُرعت فوضى جميلة. فاختطف ساباس رمحًا آخر من خادمه الذي يركض خلفه يحاول نزع ذراع جثة متشبِّثة بعباءته الذهبية، ولوَّح به نحو الدير يصيح: «اقتلوهم جميعًا!».

ودت ساني لو تنزلق إليه وتركله، لكنها تعلَّمت منذ زمن ألا تفرض المسألة. فالصبر أول فضيلة من اثنتي عشرة، ومنها تنبع البقية، كما لا شك كان الأخ دياز سيلقي محاضرة مملة عنها. الزمن في النهاية يعطي كل امرئ الركلة التي يستحق.

أما الساحرات فهن الأشد قلقًا الآن.

تشابكت أيديهن، يمشين بين القبور وأعيُنهن مغمضة. حيث مررن، اقتُلعت الصخور من الأرض وسُحبت من القبور، تدور في الهواء حتَّى أحطن أنفسهن بدوَّامة من تراب طائر وقطع الشواهد، فقُشر الأموات حتَّى الهياكل، أو سُحقوا إلى دقيق عظمي بعاصفة الحصى.

اختزنت ساني نَفَسًا عميقًا، ثم قفزت من القبر وركضت نحو الدير، كما فعل أكثر الصيادين. وذاك الذي ربطت خيوطه نجح في فكها للتو، فدفعت كتفه في قبر مفتوح وهي تمر، وانسلَّت بين رجلين في البوابة، وضربت أحدهم في وجهه ثم انخفضت تحت لكمة غاضبة وجهها للآخر، وانزلقت إلى الفناء الداخلي.

والداخل لم يكن أقل اضطرابًا.

انطرح صيادٌ على الأرض، وبركة حمراء تتمدَّد تحت رأسه. وآخر يزحف إلى البوابة، يمسك ساقه، يترك خلفه لطخات حمراء. أما يعقوب فتراجع عبر الحجارة نحو الرواق المدمَّر، ينحني خلف ترسه، وسهمان من قوس النشاب مغروزان في خشبه. حينها قفز الجواد الذي جاء به بجنون في الزاوية المقابلة، ومن اللمحات التي أبصرتها ساني لبالثازار وأليكس والأخ دياز، متكومين خلف يعقوب وترسه، بدا عليهم الهلع التام. صار اثنان من الصيَّادين -أحدهما ضخم والآخر هزيل- يدوران عن يمينٍ وشمال، يريدان تطويق يعقوب من الجانبين. الكبير منهما وطأ جثمان رفيقه المطروح، فوثب الميت من مرقده كأنَّ نابضًا دفعه من أسفله، والمخُّ ينسكب من رأسه المفلوق، ثم غرز أنيابه في فخذ الصيَّاد.

تقدَّم يعقوب صوب الأضعف، ودفعه بدرعه. فانقضَّت من خلفه بابتيست، تضرب ساقه بخنجر، ووجهه بآخر، لكنَّ ذلك أبقى أليكس والأخ دياز بلا حماية، يتعانقان مذعورَين.

ثم جثا صيَّاد إلى جوار ساني، قد وجَّه نبالته المشدودة صوب أليكس، وهمس: «نلت منك، أيتها العاهرة الصغيرة»، وأطلق الزناد.

غير أنَّ شيئًا لم يحدث، إذ أن ساني أدخلت إصبعًا خلف الزناد. واضطُرَّت إلى أن تعضَّ شفتها وهو يعصره بغيظ، يعصر إصبعها بين الزناد والقاعدة، لكنَّ يعقوب أرجع الدرع إلى موضعه، ليحجب به ساني والآخرين.

قال الرامي متذمِّرًا: «ما هذا بحق الجحيم؟»، خفض الرامي قوسه ليعبث بالمزلاج. فلم يشقُ على ساني أن تدفعه بيدها الأخرى حتَّى صار إلى الأسفل، ثم جذبت الزناد بنفسها. فصاح صيحة عظيمة إذ انغرز السهم في قدمه وثبَّتها في الأرض، ثم اقتلعت ساني القوس من يده وقذفته عاليًا في الهواء، فوثبت بابتيست من خلف درع يعقوب والتقطتها وكأنها لعبة سيركٍ مدروسة.

قال الأخ دياز بصوتٍ مبحوح وهو يركض: «أهذه خطتكم؟».

سمعت ساني صرخة الأخ دياز وهي تنحرف حول الرامي المصاب وتنطلق نحو الآخرين، وأحشاء صدرها تلتهب من شدة الحاجة إلى نفس.

فقال يعقوب مُزمجرًا: «ولِمَ عليَّ أنا أن أكون صاحب الخطط؟»، بعدما ارتدَّ إلى تحت أحد أقواس الدير. وقد تهدم سقفُه منذ دهور، ولم يبقَ منه سوى عوارض جرداء تناطح السماء.

- ما خطتك أنت؟

تهيَّأ يعقوب لاستقبال رجل قصير عريض المنكبين يهرول نحوه عبر الساحة، غير أنَّ ساني مدَّت قدمها وأسقطته في هرولته، فتحوَّلت صيحته إلى شهقة دهشة، فاستغلَّ يعقوب توازنه المخلخل، ومال عنه ثم ضرب قفاه بسيفه ضربة واحدة قاطعة. وانسابت ساني خلف الفارس العجوز، تسند نفسها على ظهره لتلتقط أنفاسها، وكان شعور الاعتماد عليه مألوفًا، كأنما تستند إلى شجرة أحبتها.

همست: «سرَّتني رؤيتك».

فأجابها يعقوب وهو يزفر: «وسرَّني غيابك».

وشعرت بالارتجاج في كتفيه إذ تلقَّى ضربة على درعه، فتنفَّست ثم دارت مبتعدة. وقد التف صيَّادٌ ذو وجه كوجه ابن عرس على جنب يعقوب، يشدُّ رمحه ليطعن، غير أنَّ ساني أمسكت بالرمح لتثبت قدميها

بقوَّة. فاندهش الصيَّاد حين لم يتحرك الرمح، واشتدَّ ذهوله حين التفت فرأى ساني تجرُّه من مؤخرته.

ترك الرمح، فتعثَّرت ساني به وتلقَّت ضربة في فمها من مؤخرة الرمح. فاستدار إليها، يستلُّ فأسه، وقال: «أيتها الـ...».

فضربته بابتيست على رأسه بمؤخِّر القوس. فترنَّح صوب ساني، يرمي فأسه ويتلمَّس رأسه، فعاجله يعقوب بحافة درعه، فدفعه إلى أحد الأعمدة، فارتدَّ، ثم هوى على ساني فأرداها تتدحرج في مستنقع ماء.

- أريت هذا؟

حدق إليها طويلٌ من الصيَّادين، أو بالأحرى إلى حيث كانت حين التقطت نفسها، وجعل يوجِّه رمحه متجهمًا نحو تموُّجات الماء.

صاح قصيرٌ: «أين ذهبت؟»، وجعل يضرب الهواء بمطرقته ذات الرأس المعقوف، مرَّة بعد مرَّة، حتَّى كاد أنف سنِّه يصيب أنف ساني وهي تنأى متلصصة عبر المستنقع، حتَّى اصطدم ظهرها بالجدار، فكتمت أنفاسها، وانحنت تحت طرف رمح الطويل. وأقبل القصير ملوِّحًا بمطرقته، لكنه كان قد فرَّج بين ساقيه، فنزلت ساني بينهما زاحفة، وظهرت خلفه على أرض ناشفة، تلتقط أنفاسًا سريعة بينما ينظر صديقه الطويل في اتجاه آخر، والتفتت لتلطمه بين فخذيه أقسى ما استطاعت.

فعلت ساني أحسن ما في وسعها مع هبوب الريح، فحين انثنى القصير ألمًا، اتَّخذته مع صاحبه سلمًا بشريًّا، وضعت قدمها اليمنى على مؤخرته، واليسرى على قفاه، ثم اليمنى على كتف الطويل، ووثبت. وحلَّقت في الهواء وهي تكتم أنفاسها، فأمسكت برأس عمود متهدِّم، ورفعت نفسها فوق صفِّ العواميد المدمَّرة، صدرها يكاد ينفجر، ثم ارتمت على ظهرها وبقيت هناك تحدِّق إلى السماء الشاحبة، تحاول أن تتنفس بصمت، وقد أضناها الوجع في أضلعها، واللسع في فمها،

والحريق في كفيها، والرضوض على صدرها حيث صدمته بالجدار، وهي تأمل عبثًا ألا يرى أحدٌ قدميها تلوحان من فوق.

وسمعت ضوضاء المعركة ما تزال قائمة، الأسلحة تتقارع، الرجال يتشاتمون، الجرحى يولولون، وساباس يزأر: «شفقة علي، اقتلوا الأوغاد!».

شهقت شهيقًا أخيرًا، وأمسكته، ثم وثبت قائمة.

وعن يسارها، كان السقف المتهدم للدير، وبين العوارض المتعفِّنة أبصرت يعقوب عند أحد الأبواب، رافعًا درعه والآخرون يندفعون من خلفه. وعن يمينها كانت الساحة، والصيَّادون يصرخون، يشيرون، يحثُّون بعضهم صوب جماعة معبد الذرائع المُقدَّسة.

تناولت ساني حجرًا من الأرض، وقذفته نحو رامٍ، فلم يصبه، لكنه اقترب من رأسه فجفل، فارتجف سهمه وانحرف. والتف رامٍ آخر يلوِّح بقوسه نحو العوارض، فرأت ساني أن تنسحب من هناك، فجعلت تعدو على سقف الدير المهجور، تلتقط كل ما تجده من حجارة وتذريه بين الصيَّادين، فتجعلهم يتيهون بصدمة. فليس من عادة الناس أن ينظروا إلى أعلى، غير أنَّ عيني أحد التوأمَين كانت تحدِّقان نحوها من أعلى الأعمدة، وقالت: «هناك...».

أصابها حجرٌ في جبينها، فصرخت، وارتدَّت إلى جدار. وقد رأت في أن يُضرب ساحر أرض بحجرٍ عدالةً شاعرية، غير أن أختها لم تر فيها متعة. فمدَّت راحتَيها نحو الجدار، وأطلقت صرخة غضب، واستدعت عاصفةً من غبار وشظايا. وقد سرعت ساني الخُطى، تركض في ظهر الدير، لكن طرف الانفجار لطم جنبها، وخدش خدها، وكاد يطيحها من موضعها.

تمايلت ساني على حافة ذلك الحائط المُهدم، كلُّ خُطوة أشد وهنًا من سابقتها، حتَّى وطأت حجرًا مرتخيًا، فكادت تهوي، ولم تجد بُدًّا من ابتلاع نفسٍ عميق.

قال أحدهم: «هناك!».

فانهار صفُّ العواميد تحت قدميها، فهوت في الهواء، تتخبَّط، تتشبَّث بالفراغ، والأرض -شأنها في كل مرَّة- أسرعت لتلقاها، فتدحرجت في نبتٍ من القرَّاص الشائك، وتوقَّفت وهي تحتضن أضلعها، والحصى ينهمر فوقها، وهي تئن أنينًا طويلًا.

اندفعت الجماعة عبر الباب، أنفاسهم اللاهثة تخبو في الداخل. وكان الظلام كالذي يُضرب به المثل بعد ضوء الساحة الساطع، وأشعَّة الشمس تتسرَّب من كوة ضيِّقة وتُظهر غبارًا راقصًا في الهواء. ولما اعتادت عينا بالثازار العتمة، رأى قاعة طويلة، تزدحم بالأسرَّة المتآكلة مصطفَّة وسط خيوط العناكب. فاستدلَّ أنَّها المصحَّة، حيث كان الرهبان يواسون ضحايا الوباء المحتضرين إلى آخر لحظة. من قاع المقلاة إلى بيت الطاعون.

أنزل يعقوب درعه وانقضَّ بكتفه على الباب، يدفعه ليغلقه ما استطاع، كان قديمًا ملتويًا مثل الفارس نفسه، تتخلله شقوق تتسلل منها الضوء، وكثير من حديده أكلته الصدأ. وكان الأخ دياز، وهو يعبث بالمزلاج، يكتشف أنَّه لا قفل يعمل فيه، وليس له إلا مفصل واحد باقٍ.

هتف الراهب جزعًا: «إنَّه لا يعمل!».

فزمجر الفارس: «أرى ذلك. أبحث عن شيءٍ نسدُّ به الباب!».

أما بالثازار، فلم يكن حاضر الذهن، إذ ما زال عقله يركض خلف تلك الأختين الساحرتين: وكن ماهرتان في علم الأرض والهواء، وتلك علوم يُفترض أنها متضادة، وإذا بهما يعملان بانسجامٍ بالغ، بل ويستعملان نفس الحركات والتقنيات لتطويع العنصر الذي اختارتاه...

قال يعقوب وهو يئنُّ: «أأُصيب أحد؟».

قالت بابتيست حادة: «بل من لم يُصب؟»، وقد وضعت القوس الثقيل جانبًا، وجعلت تُثبِّت قدمها على درع يعقوب المطرَّزة بالسهام، تجتثُّ منها واحدة تلو الأخرى.

ضم بالثازار عقبَي كفَّيه يدفعهما بتأمُّل إلى الأمام، كما فعلت الأختان وقال: «استخدام السحر... لخلق موجة في داخل المادة...»، وقد رأى هذا يحدث في الماء من قبل، أمَّا الآن... أيمكن أنَّ حَسدَروبال وسَليبوس، وهما أعمدة الفهم القديم لطبيعة العناصر، قد أخطآ خطأً جوهريًّا؟ أيمكن أن الأرض والهواء ليسا متضادين، بل مصنوعين من جوهرٍ واحد؟..

قالت أليكس بصوتٍ مرتجف: «هل ساني هنا؟».

قال يعقوب عابسًا: «حواسها أفضل منا».

قالت أليكس: «على الأقل عدنا مجتمعين».

قالت بابتيست بتهكُّم: «نعم، لو أنَّنا متنا متفرقين لكانت حسرة... تبًّا!»، فقد انكسر أحد السهام بين يديها النازفتين، فاستلت خنجرًا لتحفر به حول الآخر.

همس بالثازار: «إلهي...»، وقد وجد نفسه على حافة إلهامٍ جليل، فهل يُعقَل... أنَّ جميع المواد تشترك في طبيعةٍ جوهرية واحدة؟ أنَّ...

ثم هزت ضربة عظيمة الباب من مفصله الوحيد وقطعت عليه خيالاته. قال الأخ دياز وهو يرتجف: «أيتها القديسة بياتريكس الرحيمة...»، وأسند ظهره إلى الباب بجانب يعقوب، وكعبي حذائه المهترئ يخطان أثرًا على الأرض القذرة تحت رجليه إذ كان الباب يرتعش من الضربات المتلاحقة.

ولمَّا رأى بالثازار الأميرة والراهب محتضنَين في مدخل الدير، أحسَّ لوهلةٍ بفرحٍ عجيب أن وجدهما سالمَين، غير أنَّه، وبعد لمحة يسيرة من لقائها، عاد يتذكَّر لِمَ كره هذا الشطر من الجماعة كرهه للشطر الآخر سواءً بسواء.

قال دياز مرَّة أخرى: «أيتها القديسة بياتريكس...».

فقال بالثازار قاطعًا: «أستبعد أن تُخرجنا من هذه المصيبة!»، وكانت الأسرة المهترئة ما تزال تصطف في القاعة، وبعضها مأهول على ما يبدو، بأجسادٍ هجرتها الروح إبان الوباء، ولم تُدفن بعد. فهتف: «وكالعادة، سيُجبر بالثازار شام إيفام دراكسي أن ينقذ الموقف!»، ثمَّ اجتذب لحافًا ممزَّقًا فتناثر منه الغبار، فكشف عن جثةٍ يابسة، ملتوية في سكرات الموت.

قالت أليكس وهي تنكمش: «تُف، أماتوا بالطاعون؟».

قال بالثازار وهو يجرُّ الأجساد: «لو نلنا حظَّ الموت بالطاعون، لعدَدتُها من المعجزات»، ولم يكن له وقتٌ لمداعبة الموتى ولا لاسترضائهم، بل جعل يشدُّ أحشاءهم من سباتهم بعنف، يجبرهم على الوقوف على أقدامهم من مرقدهم.

قالت بابتيست وهي تشيح بوجهها، وقد تعثرت بجثة تركت ساقها على الفراش: «آخ»، ثمَّ ترنَّحت الجثة فارتطمت بجثة أخرى، وسقط الاثنان في الممرِّ بين الأسرة.

قال دياز متقززًا، إذ انقلبت جثثٌ مهترئة نحو الباب وسقط فكُّ أحدها على كتفه: «آخ...»، فأبعدها عنه مرتعدًا.

قال بالثازار محتدًّا: «أبذل وسعي ضمن المواد المتاحة!»، وهو يجرُّ المزيد من الموتى ليترنَّحوا زاحفين صوب الباب: «هل أُثقل عليكم لو طلب القليل من الامتنان؟!».

داعب العرق وجهه من شدة الجهد، غير أنَّ الأجساد قديمة يابسة، وأوتارها هشَّة كالقشِّ. فانحل رأس أحدهم وهو يتدحرج من السرير، وانحلَّ آخر في مسيره حتَّى لم يبق منه غير ذراع تجرُّ قفصًا صدريًّا مكسوًّا بالخرق. ولو أنَّ أحدًا احتاج إلى ربط رباط نعله، لربما كان فيه من النفع، أمَّا في قتالٍ حتَّى الموت فلا فائدة تُرجى منه.

قالت بابتيست، باصقة الكلمات وهي تنقر تُرس يعقوب بخنجرها: «أهذا أحسن ما عندك؟ ظننناك أمهر باعث موتى في أوروبا... ها!». وذلك إذ تحرَّر آخر مزلج فدفعته إلى الأعلى ظافرةً.

قال بالثازار، وهو يمسح العرق عن وجهه: «هذه الجثث فيها مسٌّ من التحنيط! جلودها صارت رقًّا! لو أُتيح لي بعض الوقت لأُعِدَّ العدَّة...».

فزمجر يعقوب، والباب يندفع شِبرًا وهو يضغط ليغلقه ثانيةً: «أأطلبهم أن يمهلونا ساعة؟ راقبوا ذاك المدخل!».

فركضت أليكس صوب قوس في آخر الغرفة، ثمَّ تجمدت وهي تحدِّق إلى الأرض. قالت: «لا يبشر هذا بخير». فقد أخذ الغبار يتصاعد، وقد أهاجه تيار خفيف، وسُمع أزيز خافت إذ شرع الجصُّ المنثور على الأرض يرتجف، ثم ارتفع كذلك. قالت: «أيبشر بخير؟».

وكأنَّها إجابة، دوَّى دويٌّ، وتفرَّعت شقوق على الجدار، خمسة شقوق تتشعَّب كنجمة. همس بالثازار: «مدهش...». فلعلَّ أحد ذينك التوأمين أمهر من رآه من سحرة الأرض، وإن كان تلاميذ يودوكسيا يأتون بمثل هذا، فقد شرع يتساءل أكانت الإمبراطورة ذاتها تقذف بالصواعق...

فقالت بابتيست، تدفعه وهي تمسك بمقلاع مسروق في يد، وسهمٍ مُنتشل في الأخرى: «مدهش؟ أم مهلك؟».

قال بالثازار، وقد اضطر إلى الاعتراف: «شيء من كليهما. لعلَّ الأحرى أن نغيِّر موضعنا...».

فصرخ الأخ دياز: «إلى أين؟».

وقد أصاب الراهب لأول مرَّة. إذ إنَّ ما أدركه بالثازار وهم يندفعون صوب الدير -خلافًا لما أعلنه من رأي واضح- أنَّه مقام على طرف نتوء تعلوه منحدرات سحيقة من جهتين. ولا ريب أنَّه موضع بهيج لاعتزال الرهبان الذين عمَّروه قديمًا، ولكنَّه ليس ميزةً لزمرة من المهرطقين

المحكومين يحاولون النجاة بأعناقهم. والأغلب أنَّهم كانوا يتقهقرون إلى هاوية ليس دونها منجى.

ومع ذلك، وإذ كانت الشقوق تتفشَّى، والأحجار والكلس تهتزُّ وتطفو وتدور نحو السقف، وجد بالثازار أنَّ سقوطًا طويلًا في البعيد خير عنده من هدم هائل يتهدَّل عليهم. ولهم أن يقلقوا من السقوط إذا انقذفوا فيه، وهذا حالهم أصلًا مذ غادروا القصر السماوي. فإنَّ معبد الذرائع المُقدَّسة مؤسسة تتطلب سرعة البديهة.

صرخ بالثازار: «إلى أي موضعٍ كان! إنهم يهدمون الجدران!»، فانفصل حجران وتدحرجا إلى الأرض، حيث بقيا يرتجفان.

صاح يعقوب بالأخ دياز: «انطلق!».

فأنَّ الراهب: «أيتها القدِّيسة بياتريكس...»، ثم أفلت الباب وركض.

قال بالثازار أيضًا: «وأنت كذلك»، وقد قبض على درع يعقوب المحكوكة بالخنجر من مقبضها، فأدهشه وزنها لحظةً، وإن لم ينكر ذلك.

ولم يتوقف الفارس العجوز يكابد عند الباب، وجثث بالثازار تتحلَّل حوله، ونعلاه ينزلقان بين كومةٍ من أشلائها المكسورة. قال: «أبعدوا الأميرة».

ارتعد بالثازار من انشقاق عارضة عظيمةٍ بصوتٍ يصمُّ، والضوء ينفذ بغتةً من ثقوب السقف، فقال: «ليس هذا وقتا لبطولة. ولن تُكفَّر خطاياك تحت ركام الحجارة!».

قال يعقوب بعينين ضيِّقتين تلمعان في شحوب الضوء: «لم أظنَّك تبالي بخطاياي».

قال بالثازار وهو يدفع إليه الدرع: «بل محض أنانية! فحظوظي أحسن وأنت تمسك الدرع عني. لنخرج الآن، قبل أن ينهار علينا الدير بأسره؟!».

تعثَّر الأخ دياز عبر المدخل واصطدم مباشرة بأليكس، فانطرح الاثنان على أرضيةٍ حجرها منبعج في كنيسة مهجورة. قلب الدير، الذي اعتاد الرهبان أن يتوافدوا إليه ثلاث مرَّات في اليوم لتلاوة المزامير. أمَّا الآن، فلم يبق من الترانيم إلا ما تغرِّده الطيور في برج الجرس المتداعي.

أغلب الجدران ما زالت قائمة على ارتفاعها الأصلي، والزخارف الحجرية الدقيقة باقية في النوافذ الخاوية، ولطخات من الجصِّ تبيِّن آثار جداريات غنيَّة، لكنَّ السقف قد زال منذ زمن. بعض القناطر الكبرى ما تزال معلَّقة في الأعلى سوداء في وجه الضوء، وأخرى انهارت، وتحولت إلى أنقاض متناثرة يغمرها العُلِّيق. حجر المذبح ما زال في موضعه، كتلة من الحجر البركاني الأسود تشبه تلك التي في الدير حيث سُجن الأخ دياز. حيث سجن هو.

خلف المذبح، في أيامٍ أسعد، كانت النوافذ الزجاجية الملوَّنة تُظهر صعود المخلِّصة إلى السماء، أو أعمال القدِّيسين، أو ملائكة يسيرون إلى حرب عادلة، لمحة إلهية حُملت إلى الأرض. أمَّا الآن، فلم يبق إلا السماء الملبَّدة بالغيوم. انهار الدير بوضوح جرَّاء الهبوط الأرضي منذ طاعون البثور الطويل، والجدار الخلفي للكنيسة بأسره قد تهدَّم وسقط على منحدر الجرف، وصفائح الرصف المتكسِّرة معلَّقة في الهواء. نهض الأخ دياز مذعورًا، ثم استدار إذ تحوَّل هدير الأرض المضطربة خلفه إلى دويٍّ جعل أسنانه ترتجُّ.

تشبَّثت أليكس بذراعه. وقالت: «أين الآخرون؟».

قالت بابتيست وهي تئنُّ، والسهم المنتشل بين أسنانها، تكافح بكلتا يديها لشدِّ الوتر: «سيأتون. تبًّا!». إذ انزلقت قبضتها، وتخبَّطت أصابعها المجروحة.

تحوَّل الهدير إلى انفجار يصمُّ الآذان، وتراجع الأخ دياز متعثرًا، يسعل، إذ اندفع الغبار من المدخل إلى صحن الكنيسة المهدم. تبعت ذلك طقطقات خفيفة.

حبسوا أنفاسهم.

ثم ترنَّح يعقوب خارج الضباب، وضع ترسه على ذراعه، والذراع الأخرى على كتف بالثازار، وكلاهما مغطًّى بالدم والتراب. قال الأخ دياز، يزفر وهو يتقدَّم لمساعدتهما: «الشكر للمخلِّصة».

قالت بابتيست، وهي تدفع مؤخر القوس نحو بطنها في محاولة جديدة لتعميره: «اشكرها حين نصل إلى طروادة».

قالت أليكس: «من هنا!». وركضت عبر صحن الكنيسة المهجور نحو باب منخفض حيث انهار الجزء الخلفي منها. وانطلق الأخ دياز خلفها، مرَّ بالمذبح، وسطحه قد صُقل حتَّى صار كالمرآة من قرون الصلوات ثلاث مرَّات في اليوم.

قال يعقوب بصوت أجشَّ: «احذروا!». ثم استحال صوته سعالا متقطِّعًا إذ بدأت أليكس تمشي على الحافة المتكسِّرة، والسماء تتَّسع وراءها، وبعض الأعلام ما تزال متشبِّثة حيث نبت العشب وأشجار فتية. ثم، بفرقعة، سقط جزء كامل في العدم. لمح الأخ دياز وجه أليكس وهي تنزلق معه، ساقاها معلَّقتان خارج الحافة، ويداها تحفران في الأرضية المتشقِّقة.

اندفع نحوها، فكاد فكُّه يرتطم بالأرض، وأمسك بمعصمها، وتبادلا نظرةً عاجزة وهما ينزلقان معًا، والسقوط الطويل يظهر أمامه مشهدًا دوَّارًا، ليس عموديًّا تمامًا، لكنه كافٍ، والصخور المسنَّنة تمتد إلى الغابة السحيقة في الأسفل، وجزم أليكس تدفع الحجارة تتدحرج وهي تركل بحثًا عن موطئ قدم.

شق شيء في بطنه. وقد أمسكت بابتيست بسرواله. سمعها تزمجر وهي تشدُّه، وزمجر هو أيضًا وهو يجرُّ أليكس من معصميها، أسنانه مطبقة في غضب. وسمع بالثازار يئنُّ إذ أمسك بابتيست وأضاف وزنه إلى السلسلة البشرية. فبدأت أليكس تصعد شبرًا شبرًا...

صدر صوت تمزُّق، وفرقعة... ربما أبى الأخ دياز أن يترك قبضته، لكنَّ سرواله المنتشل لم يكن كذلك، إذ أحسَّ بنفسه ينزلق من حزامه الممزق. فشدَّ مرَّة أخيرة بكل قوَّته. صرخت أليكس، وتلوَّت، وأخيرًا أمسكت بموطئ ثابت، وعادت تزحف فوق الحافة المتداعية. وانهار الأربعة على حجر المذبح، يلهثون، غارقين بالعرق والغبار، يحدِّقون نحو السقوط الطويل.

لهثت أليكس: «الطريق الآخر».

قال يعقوب: «لا أظن ذلك»، وهو يتراجع نحوهم، وترسه مرفوع.

دخل رجال عبر الباب الكبير القديم للكنيسة، لا للصلاة. بل صيادون. بعضهم ينزف. وجميعهم غاضبون. لا يقلُّون عن اثني عشر. وكان الأخ دياز في حال لا تسمح بعدٍّ دقيق. جاءت الساحرتان التوأم معهم، ونظراتهما القاتلة المتماثلة مصوبة إلى المذبح. وتصاعد تصفيق بطيء من الجدران الحجرية العارية، وتبعهم ساباس. لا يزال يرتدي تلك العباءة العالية السخيفة، زحف خادمه بجانبه، مغطًّى بالغبار، قابضًا على ثلاثة رماح على صدره.

صرخ ساباس: «جهد شجاع!». وذلك إذ كانت أليكس تجرُّ الأخ دياز إلى أسفل خلف المذبح، الحجر الصلب من جهة، والهواء الخالي من الجهة الأخرى: «لكن يبدو أنكم وصلتم إلى نهاية الطريق!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

50

ملاك طروادة

جلست ساني بمشقَّة عظيمة.

ضلوعها تخفق ألمًا أشد من كل ما سبق، وفمها عليل وذراعها كذلك، وزيادةً على البلاء، سقطت في رقعة من القُرَّاص فلدغها في كل موضع. نهضت على قدميها. وسروالها ممزَّق وساقها مسلوخة دامية، لكنها لا تزال تنثني حيث ينبغي. كانت في مخزن قديم، لعلَّه كذلك، سقفه قد تهدَّم منذ أمد، ولا يخزِّن الآن إلا الأعشاب البرِّية والبرك. تتردَّد حولها أصوات غضب. صراخ وزعيق، وتصادم وضرب. المعركة لا تزال دائرة إذًا. فخطت نحو الباب الوحيد ثم تجمدت.

قال صوت بالغ الكراهية، بين الزمجرة والغناء: «أين أنتِ...؟ أعلم أنَّكِ هنا...».

يدندنها، ولم تعلم لماذا يفعل ذلك.

- لا حاجة إلى الاختباء...

قد سمعت صوته من قبل عند النار حين رأت ساباس أول مرَّة، وراودها شعورٌ عارم بوجوب الاختباء، فسحبت نفسًا بكل ما استطاعت، وانحدرت إلى وضع الاستعداد. برز رأس رمحه أولًا. ذاك الرمح ذو الشُعبتين، وحافَّتاهما مُسنَّنتان من الداخل من الداخل. ذكَّرها بخطاف

الصيد حين تُصاد به الحيتان، ولم تكن تريد أن تُصاد، فالتصقت بالحائط التصاق الجصِّ الطريِّ.

وصاحب الرمح كان أقل قبولًا من رمحه. طويل نحيل، شعره مرسل حول وجهه ذي البثور، وعنقه مغطًّى بكتلة من سلاسل مسروقة لا يليق بعضها ببعض.

قال: «أنتِ ماهرة، أليس كذلك؟». وعيناه تتقلَّبان بخبثٍ ويقظة تنذران بالسوء. وكان التحرك وسط الأعشاب والماء عسيرًا، فلبثت ساني ساكنة، ساكنة تمامًا.

- ماكرة جدًّا، لكنَّك لستِ الوحيدة...

لوَّح برمحه في قوس عظيم، رأسه يخمش الجدران، ثم قوس أدنى، فتقلَّصت ساني وتراجعت إلى الزاوية، تحدِّق بعينين حولاءين من طرفي الرمح الذي يدور أمام أنفها، وهواؤه يلدغ أرنبتيها بلطشةٍ تثير الدغدغة، هزَّت بأنفها لتطردها، فازدادت الدغدغة أكثر. يا إلهي، كانت توشك أن تعطس، ونَفَسها أوشك أن ينفد، ووجهها يحمى، وطرف أذنها الباقي يتوهَّج.

قال الصياد وهو يترنَّم ويستدير مبتعدًا ببطء: «في موطني... يدعونني صائد البشر، إذ لا أعجز عن صيد أتربص به».

وانقضَّ على الهواء، يطعن يمنة ويسرة، في العلوِّ والسفل. فمالت ساني جانبًا وهي تشفط بطنها، وارتجفت أضلعها ألمًا، بينما الرؤوس اللامعة تمرُّ بها من جانب، ثم من آخر، تكاد إحدى الشُّعب تلتقط طرف قميصها المتهدل.

قال يترنَّم من جديد، وهو يجوس خلال الغرفة: «لِمَ لا تخرجين؟ أظهري نفسكِ».

أيُّ عاقلٍ سيفعل ذلك؟ لرجل بهذا الصوت؟ بتلك الابتسامة؟ بذلك الرمح؟ دعوةٌ لا يُستجاب لها. ثم بدأ يستدير مبتعدًا، ينزلق بين الأعشاب، رمحه في يد، وخطاه خفيفة صامتة.

نبضت أضلع ساني ألمًا، ورأسها خفق، وبقع من الضوء تسبح في عينيها. أرغمت نفسها على كتم النفس لحظة أخرى، وهو يستدير ببطء، ببطء، حتَّى استدار، فشهقت.

رعشة في رأسه. نظرة من طرف عينه، لعلها كذلك. كانت قد اختفت من جديد، لكنه زأر بنشوة، واستدار، وسحب شيئًا من خلف ظهره. فانفتح في الهواء مثل شَبكة عنكبوت عظيمة. في يومٍ أفضل، كانت ساني لتكون سريعة بما يكفي لتنزلق تحتها. لكنَّها كانت محطَّمة، مرهقة، جائعة، ولم تستطع جر نفس كامل. فسقطت الشبكة فوقها أثقل مما بدت، فضربت وركلت، لكن لا مفر. كلما جاهدت زادت تعلقًا، حتَّى جثت في الزاوية على ركبتيها، وشعرت بشيء حادٍّ يضغط على جنبها، فتوقفت.

قال: «شش، شش، شش». وخزها برمحه ثانيةً، فأنَّت. لا معنى لحبس النفس الآن. سواء أبصرها أم لم يفعل، فقد رأى الشبكة يقينًا، فزفرت زفيرها.

- أليس هذا أفضل؟

ولم يكن هذا رأي ساني إطلاقًا، إذ جلست القرفصاء إلى جانبها، وأدخل أصابعه الطويلة خلال النسج.

قال وهو يترنَّم أكثر من قبل: «والآن انظر إلى هذا!».

ثم دفع ذاك الوغد رأسها إلى الوراء، ومرَّر يده في شعرها، وقرص طرف أذنها الباقي بين سبابة وإبهام.

- لعلَّهم يدعونني من الآن... صائد الإلفيين.

* * *

زأر يعقوب، والصيادون يتفرَّقون عند الطرف البعيد من صحن الكنيسة: «عندي لك عرض!».

وكان الموقف يائسًا، ورفاقه كلهم محتمين خلف المذبح، لا يملكون سوى سهم مقلاع واحد بينهم. وقد آن أوان التعلُّق بالفرص الضئيلة.

فقال ساباس، ساخرًا: «وماذا عندك مما لا أستطيع اقتلاعه من جثتك؟». وضحك عدد من أتباعه معه.

فنفخ يعقوب صدره واعتدل حتَّى أقصى طوله، وصاح: «الشرف!».

فارتدَّت الكلمة بين الجدران الخربة، وتوقَّف الضحك فجأة. كان يعقوب في زمنٍ مضى يفضل الشرف على الفضيلة، ويراه أغلى من كل جوهرة. وقد ساقه شغفه إلى الظلمة، وهناك، بين جثث أصحابه، تعرَّف على قيمته الحقيقية. لكن ثمَّة رجالًا لا بُدَّ أن يتعلَّموا هذا الدرس بأنفسهم.

قال، مشيرًا بسيفه نحو صحن الكنيسة المدمَّر: «أنا وأنت! هنا والآن! حتَّى الموت».

ولم يذكر أنَّ الموت أيسر لبعضهم من بعض، فقد أقسم يمين الصدق، لا يمين التفصيل.

نظر ساباس إلى أعوانه، وكلُّهم يردُّون النظر إليه. كلُّهم يقيمونه. لم يكن ثمَّة سبب وجيه لقبول التحدي. بل بالكاد سبب سيِّئ. إنما الكبرياء فقط. ويعقوب أعلم من أكثر الناس بالكبرياء. فقد أصيب به في شبابه إصابة كادت تودي به. ولم يرَ في عمره كلِّه رجلًا أكثر تضخُّمًا بالكبرياء من هذا الأحمق في العباءة الذهبية. فرفع ساباس ذقنه، وضيَّق عينيه، وساد صمت طويل.

همس خادمه: «مولاي، لا يمكنك...».

فقال: «صه». ولم يحوِّل نظره، بل مدَّ يده وفرقع بأصابعه، وعرف يعقوب أنَّه على صواب. فالذين وُلدوا بكل نعمة يشتعل فيهم شوق إلى إثبات استحقاقهم لها. شهق الخادم، ثم ناوله رمحًا.

قال ساباس، وهو يزدري، ناظرًا نحو المذبح: «ورفاقك... لن يتدخَّلوا؟».

قال يعقوب: «على شرفهم».

وكان يعلم أنَّ بينهم لصَّةً معترفة، ومهرطقًا مدانًا، وبابتيست، فلم يظنَّ أن شرفهم سيمنعهم عن شيء كثير.

تنهَّدت إحدى الساحرتين بازدراء، وقالت: «لا تأمن باعث أموات أبدًا. دعنا...».

فقال ساباس، مقاطعًا: «إن حاولوا غير ذلك، فاهدما الكنيسة فوق رؤوسهم. وإلا، فلا تتدخلا». ثم عاد إلى يعقوب برمية متكبِّرة من رأسه، وقال: «حتَّى الموت إذًا!».

قال يعقوب: «لو لم تكن كذلك، لما كانت مبارزة حقًّا». ثم تمهَّل في النظر إلى مرتزقة ساباس، وتنشَّق نفسًا طويلًا، وبصق على الحجارة المتشقِّقة. وقال: «خيب أعوانك ظني، إن أردت الحق. أخوك مارسيان جنَّد حضيرة بقر، وأخوك قسطنطين من قعر مستنقع».

ثم انخفض في وضع القتال، أو على الأقل ما استطاعت ركبتاه بلوغه منه.

قال: «أما أعطتك أمك لعبًا تلعب بها؟».

قال ساباس، يبتسم ابتسامة رجل لا يعترف بخطأ: «نلت نصيبي التامَّ من هبات يودوكسيا. أراد إخوتي، مثل آلهة صغار، أن يعيدوا صياغة تجارب أمِّنا على صورتهم. مارسيان حثَّهم ليصيروا جزَّارين يغزون له. وقسطنطين زيَّنهم قراصنة يسرقون له. ولم ينقص أحدهم الطموح».

ثم، بيده الحرَّة، فكَّ مشبك عباءته المذهَّبة.

- لكنهم ليسوا ذوي رؤيا البتَّة.

ثم، بحركة واحدة، قذف بها جانبًا، ومع خشخشة عظيمة ونفحة من الهواء، بسط جناحين هائلين في صحن الكنيسة، أطرافهما الريشيَّة البيضاء تكاد تلمس الأعمدة المتسلِّقة من الجانبين.

قال، قابضًا على خاصرته بقبضة، وضرب عقب رمحه بالأرض بصوتٍ صلصلة. رجل ذو جناحين. في هيئة تمثال: «الآن... ترى لِمَ يدعونني ملاك طروادة!».

وانفجر يعقوب ضاحكًا. لم يستطع منع نفسه. فسعل، وتجشَّأ قليلًا، واضطر إلى أن يرفع ترسه ليستر وجهه وهو يزدرد ريقه.

- رأيت ملائكةً وشياطين يا فتى.

ثم تنهد، ومسح عينيه بكُمِّه.

- أخافتني الملائكة أكثر. ذاك لأنني أفهم الشياطين أكثر.

ثم نظر إلى ساباس من أعلى إلى أسفل، وزفر بسخرية.

- ولن تصير منهم بمجرد خياطة أشلاء طير على ظهرك.

وذوت ابتسامة ساباس تدريجيًّا إلى عبوس.

- سنرى.

وفي الأشهر الأخيرة من حياة أليكس، صار الجنون مألوفًا، والرعب لا يثير العجب، والمستحيل أمرًا معتادًا. لكنها، حتَّى هي، رفعت حاجبيها لهذا. غمغمت أليكس: «له جناحان». أحيانًا لا تصدق ما ترى حتَّى تنطق به. وذاك يفسِّر الرداء الغريب على كل حال. ولعلَّه يعاني في طلب ثوب يلائمه.

مال ساباس إلى الوراء، ثم اندفع إلى الأمام، يده مقبوضة، وساقاه مثبتان، وجناحاه البيضاوان الخياليان يخفقان ويخفقان ويخفقان أشد خفق.

ضيَّقت أليكس عينيها لما أُثير من غبار ورماد وريش متطاير في الزوبعة. وتمسَّك يعقوب بترسه، يجهد في الثبات أمام العاصفة، فأخذ ساباس خطوة راكضًا، ثم وثب في الهواء، وخفق جناحاه دفعة واحدة عظيمة ليرفعاه فوق صحن الكنيسة. ثم انقضَّ بهدير يجلجل، ورمحُه ارتطم بترس يعقوب، فشقق حافته وارتطم بفكِّ الفارس العتيق، وألقاه على حجارة الأرض المغطاة بالطحلب.

ثم استقام ساباس، وبخفق من ريش جناحين بسطهما على مدَّهما، وقال: «سأجعل منك أشلاء طيور أيها البالي الحقير».

همست أليكس خلف حجر المذبح: «ما العمل؟». وكان صائدان يتسلَّلان على جانبي الكنيسة، يتخفيان في الظلال، ويتنقلان من دعامة إلى أختها. وآخرون يشدُّون أقواس النشاب، ويخرجون السهام، ويستعدُّون لصبِّ وابل من الهلاك. وهنالك الساحرتان، تتابعان النزال بقلق، أذرعهما مطوية، وعلى أتمِّ استعداد لنسفهم عن الجرف أو لزلزلة البناء بأسره.

قالت بابتيست وهي على ظهرها ورجلها في ركاب النشاب لتشدَّ الوتر بكلتا يديها: «لو تدخلنا، قتلونا».

قالت أليكس بينما نهض يعقوب ببطء: «وإن لم نفعل؟ يتركوننا؟ لا يمكننا الاكتفاء بالارتعاد وراء المذبح؟».

فقال بالثازار صارخًا: «إن أحببتِ الارتعاد في ركن آخر، فافعلي! ولن أرفض لو وسعتي لي!». ثم زاحم بابتيست وهي تعاني مع القوس. وقال: «ألا يمكنك التصويب بهذا الشيء؟».

قالت متذمِّرة: «قضيت صيفًا حارسة طرائد. بل نلت المرتبة الثانية في مسابقة للرمي».

فقال الأخ دياز: «ولِمَ لا تملكين قوسًا خاصًّا بك إذًا؟». وقد أخذ يعقوب وساباس يطوفان أحدهما حول الآخر.

قالت بابتيست، وقد برزت العروق في عنقها وهي تتقوَّس لتشدَّ الوتر: «لأنها، إن لم تكن لاحظت، ملعونة يصعب عليَّ شدها».

واندفع من يُسمَّى بـــ «ملاك طروادة»، بجناحيه يخفقان حتَّى كادت قدماه لا تمسان الأرض، ورمحه يُسرع بطعناته الخاطفة، يخدش بها وجه ترس يعقوب. فزمجر الفارس الشيخ إذ حكَّت الحديدة حافة الترس ومزَّقت كتفه، ثم انزلق الرمح تحت حراسته وخدش وركه، فهوي على ركبة واحدة أمام المذبح، وساباس يتراقص بعيدًا عنه مبتسمًا.

فنادى الخادم: «أحسنتَ يا مولاي!»، وكان قد خبَّأ الرماح الاحتياطية تحت ذراعه ليصفِّق بيده.

صاح ساباس: «ذاك بديهي!». ثم التفت نحو يعقوب وهو ينهض متعثرًا، يدور رمحه في أصابعه بخفة. وقال: «لا تستسلم بسهولة. أعجبتني». ثم ضرب بعقب رمحه أرض البلاط ضربةً دَوَّى صداها في الجدران العالية. وقال: «لكنني أحسبك تدرك أن وقتك قد انقضى».

قال يعقوب: «كثير من الرجال قالوا لي نفس الشيء على مرِّ السنين. وما زلتُ هنا». ثم اندفع، لكن ساباس صدَّ سيفه، وحديد السيف يصطكُّ على رمحٍ مذهب.

قال ساباس وهو يقذف بيعقوب بعيدًا: «لن أنكر أنك موجود. فالنمل ومرض الزهري كذلك. وهما أقرب إلى إنقاذ أميرتك منك».

وكانت أليكس ترى أن الزهري قد يهلك ساباس، لكن ليس سريعًا ليضمن بقاءها. ثم اندفع أحد جناحيه، وضرب يعقوب على كتفه، فأطاح به جانبًا، والآخر ضربه في رأسه، فجعله يتدحرج على الحجارة من جديد. ثم فرك ساباس الخدش اللامع الذي خلَّفه سيف يعقوب على طلاء رمحه المذهَّب.

قال: «تخريبٌ صريح». ثم مال إلى الأمام، وضرب جناحيه مجددًا، فأثار زوبعة جعلت أليكس تنكمش، وكان يبتسم كصبيٍّ أمام ذبابة

محبوسة، ويعقوب يجاهد في وجه الريح بكل ما أوتي من قوَّة، قدماه تخدشان بلاطًا مكسورًا، ينزلق نحو حافة الهاوية، ثم توقف ساباس فجأة، فتعثَّر يعقوب وهو يندفع نحوه فاقد التوازن، تمامًا في لحظة تقدُّم ملاك طروادة راقصًا. وقال: «خذ هذه!». ثم ضرب ترس يعقوب بعقب رمحه، فاقتلع لوحًا من حافته المعوجَّة، ثم اندفع بطرف الرمح، وطعن الفارس العتيق في عظم صدره.

تنفَّس يعقوب قائلًا: «أووووف...»، وقد خرج رأس الرمح الأحمر من ظهره. واهتزَّ لحظةً، وعيناه جاحظتان. وقال: «هذا... مؤلمٌ بعض الشيء». ثم تفل دمًا، وخرَّ على ركبتيه، وترسه المهشَّم وسيفه المثلوم يتدلَّيان من يديه الواهنتين.

ابتسم ساباس وهو ينتزع رمحه، والدم يتفجَّر، ثم التفت نحو المذبح وقال مترنِّمًا: «اخرجي يا بنت الخالة...».

وكانت أليكس تخفي سكينها خلف ظهرها، ويدها عرِقة على المقبض، وهمَّت أن تنهض لتستعد لاستدرار الدمع. أظهري الضعف. اجعليهم يغفلون. اقتربي منهم. ثم استهدفي البطن، والمغبن، والحلق، بكل ما تستطيعين جمعه من غيظ...

ثم أتاهم صوت من خلف ساباس: «قلت إنه مؤلم...». وكان يعقوب على ركبة، قميصه ملطَّخ بالأحمر حول موضع الطعنة، وتفل دمًا، ثم، وهو يتكئ على سيفه، دفع نفسه ببطء إلى الوقوف. وقال: «ولم أقل أننا فرغنا».

قال صائد الرجال، أو صائد الإلفيين كما غدا الآن: «ما أمسكتُ بمثلك قطُّ في شبكتي». ثم نفخ على ساني نفخة لم تغيِّر من رأيها فيه شيئًا. وقال: «وأحسبك تساوين ثمنًا لا بأس به...».

فأتاهم صوت: «عندي لك عرض».

فاستدار صائد الرجال سريعًا كالعقرب بذَنَبه ورمحه مرفوع.

اتكأ البارون ريكارد على الجدار، رأسه مرفوع وعيناه مغمضتان، وشعاع من ضوء الشمس يقطع ابتسامته. بدا أصغر بعقد كامل من يوم رأته ساني آخر مرَّة. لمسة من الشيب تزيِّن لحيته المهذبة. وتلميح أنيق لتجاعيد عند أطراف عينيه. لكنه كان، بلا ريب، في ذروة سلطانه. أدار رأسه نحوهم، وعلى وجهه نظرةُ فتورٍ ممزوجة بأسى رقيق، كأن الأمر كله لا عجلة فيه.

وقال: «أهبك حياتك مقابلها».

فرد صائد الرجال: «حياتي؟». ثم بدأ يدور بالرمح المرفوع، ويده الأخرى تنزلق نحو حزامه. وكان ينبغي لساني أن تحاول الخلاص من الشبكة، لكنها متعبة، ومتألمة، وقد بذلت جهدًا كثيرًا في الآونة الأخيرة، وظنَّت أن على مصَّاص الدماء هذا أن يتحرَّك قليلًا.

فدفع البارون نفسه عن الجدار، وقد انسحبت ملامحه الوسيمة من ضوء الشمس إلى الظلال، وعيناه تتلألأن وهو يترنَّح في مشيته نحوهم. وقال: «يُخيَّل إليَّ أنك ظفرت بصفقة رائعة، غير أني في الحقيقة لم أُعرف يومًا بصبري مع...».

لكن صائد الرجال سحب شبكة أخرى من خلف ظهره ورماها في حركة واحدة. فانبسطت في الهواء، وجعلتها أثقالٌ نحاسية صغيرة على أطرافها تدور دائرةً في الجوِّ.

فأتمَّ البارون ريكارد حديثه: «...المساومة». ولم يتحرَّك إذ سقطت الشبكة عليه. ومن خلف الحبال التي غطَّت وجهه، رأت ساني أنه تنهَّد. وقال: «فـ... هذا يعني الرفض؟».

قهقه صائد الرجال فرِحًا وهو يندفع. وطعن برمحه المسنَّن صدر البارون، أو لكان فعل، لولا أنَّه في تلك اللحظة تحوَّل إلى سحابة من دخان أسود، فسقطت الشبكة فجأة، وعلقت بأحد شوكات الرمح، وتدلَّت خاوية.

قال: «ما الـ...».

التفَّ الدخان، وتموَّج، وتمايل مع نسائم غريبة، ثم تفرَّع أذرعًا تدفَّقت نحو صائد الرجال تطوِّقه. فضربها ضربًا شرسًا، لكن كيف يُقاتَل الضباب برمح؟ فطفَت حوله، واحتضنته من الخلف، ثم فجأة صار البارون من جديد.

وقال: «من الصائد الآن؟». وكانت بسمته شديدة البياض، شديدة الاتِّساع، وعيناه سوداوان، خاويتان. فتخبَّط الصيَّاد، ومع أنه أكبر جسمًا، فإن ذراعي البارون لم تتحركا إلا قليلًا. وهمس: «لقد تحدَّيتُ الرب وملائكته. واغتسلتُ في الدم، وخضتُ في الذهب. وركع الملوك... عند قدميَّ. أتظنَّ حقًّا... أنك ستطعنني بشوكة؟».

ثم انتفخ، وارتفع، وشَعره الأسود يتحرَّك كأنما بريح، وعنقه يلتوي كجسد حيَّة، تعلوه شرايين نابضة كجذوع شجر. ثم انفرج فمه، واتَّسع، ثم ازداد اتِّساعًا، مكتظًّا بجحافل لا تُعدُّ من أسنان براقة، فغمضت ساني عينيها، وأدارت وجهها. سمعت الصرخة، ثم خبت في أنينٍ مبهور، يتخلَّله صوت مصٍّ مريع ولعقٍ مقزِّز.

وحين تجرَّأت على فتح عينيها، كان صائدُ الرجال ممدَّدًا على الأرض كأن لا عظم فيه، عيناه غائرتان، وجنتاه مجوَّفتان، وأثر أنياب غائرة في عنقه، في موضعها حمرةً ناشفة.

وهمس البارون متنهِّدًا بأجفان ترفُّ، وهو يمسح الدم عن خديه: «آهٍ... أيُّ شرابٍ هذا...». ثم لعق أطراف أصابعه كما يفعل الطفل بآخر فتات حلوى. ثم انفتحت عيناه سوداوان كقبرٍ مفتوح، خاليتَين كعيني سبعٍ في كمين، وارتفعت شفتاه الزرقاوان عن أنيابه، وفي لمحة حسبت ساني أنها نظرت في هاوية الجحيم.

ثم ابتسم.

ابتسامةٌ مشعَّة، حتَّى إنها أحسَّت بشيءٍ خافتٍ من الانجذاب، وهي التي لا تميل إلى البشر، ولا إلى الرجال، ولا إلى مصَّاصي الدماء، فضلًا عن وجوه ملطَّخة بالدم، وتساءلت كيف يكون العناق بين ذراعيه البيضاوين، وكيف يكون الألم حين تغوص أسنانه في لحمها، وتساءلت هل أفظع الوحوش كان بينهم، بل لم يفارقهم يومًا.

وقال: «لا يُنتظر من صائدي الرجال أدبٌ، فكيف بمن يصطاد إلفيين؟». وما رأته قطُّ أنضر منه وجهًا، حتَّى إنَّ فرحتها بنجاتها اقترنت بشيءٍ من القلق. ثم انحنى برشاقة، وشعره الأسود كالليل ينزلق على جبينه، فشعرت ساني بالحزن أن يُخفى عن الأعيُن جمال كهذا ولو للحظة. وقال: «وأما خرقي للأدب، فلا أملك سوى الاعتذار عنه».

فقالت ساني وهي ترفع يديها، والشبكة المتدلِّية تُغطِّيها: «مقبول. فهل تساعدني لأتخلص من هذه الشبكة اللعينة؟».

حدَّق ساباس إلى يعقوب المطعون، ولا يزال حيًّا، لحظةً واحدةً فقط. ثم، ولعلَّ لسبب وجيه، بدا له أن الأمر قد تجاوز الاحتمال.

فصاح: «اقتلوهم جميعًا!». وجناحاه يضطربان رعبًا وهو يتقهقر.

سمعت أليكس وَتَر القوس يُرخي، فانكمشت إذ انطلق سهمٌ عن زاوية المذبح ومرَّ بجوار أذنها. والصيَّادون يزحفون، فبلغ أحدهم عمودًا لا يبعد عنها إلا خطوات عشر.

قال يعقوب متأوِّهًا وقد غُرز سهم في فخذه: «تبًّا لهذا»، ثم ترنَّح وسقط. فأمسك الأخ دياز بمعصمه، وأليكس بظهره، فتدحرجوا به خلف المذبح، وتهاوى الطين والحجارة على جانبه، وتناثرت قطع البناء على الحافة الطويلة.

قال بالثازار وهو يزحف إلى الوراء، يداه على رأسه: «ساحرة الهواء الملعون! ستقذفنا عن الجرف!».

زمجرت بابتيست وهي تجرُّ وتد النشاب وتشبكه في الماسك: «أنا... لا...». ثم أدخلت السهم في مكانه، واعتدلت على ركبتيها، ورفعت القوس إلى كتفها بحركةٍ واحدة. وقالت: «أظنُّ».

ثم ضغطت على الزناد، فصدر صوت انطلاق، وبينما زحفت أليكس لتنظر من فوق الحجر، رأت الساحرة ذات السلسلة الزجاجية تتقهقر خطوة. ترنَّحت لوهلة. رمشت. وأدركت أليكس أن السهم مغروز بين عينيها. ثم هوَت على الأرض.

فصرخت أختها: «لاا!!». وشفتاها ارتعدتا غضبًا، وقبضتاها اشتدت من الحنق، وعيناها ضاقتا وهي تحدِّق نحو المذبح.

- همست أليكس: «يا إلهي...». ودار الغبار حول ثياب المرأة.

اهتزَّت الأرض. وانبعج بعض البلاط، وتهدَّل شيء من الأحجار من الجدران العالية. التفتت أليكس، وانكمشت بين الرفاق، كتفًا لكتف، تشاهد بعض الألواح المتشققة عند حافة الجرف تهتزُّ وتسقط.

ولول بالثازار: «أصبتِ المشعوذة الخطأ! مشعوذة الأرض اللعينة تلك ستُفجِّر المكان!».

قالت بابتيست وهي ترمي القوس: «كانت فكرتك اللعينة!». ثم زفرت: «ليتنا نملك مشعوذًا!».

فقال بالثازار وهو يكاد يصرخ: «ساحر! لكنني أحتاج إلى جثث!».

وكان ساباس يصفق جناحيه محاولًا الحفاظ على توازنه، ويصيح في الساحرة، لكنها وقفت فوق جثمان أختها لا تعير النداء التفاتًا. والأرض ترتجُّ بشدَّة، والسهم لم يعد يجدي، والصيَّادون يركضون بحثًا عن مأمن، أحدهم وضع ترسه فوق رأسه والحجارة تتساقط. وممَّا يسُرُّ أن السهام توقَّفت. لكنَّ نصف الكنيسة الآخر على وشك الانهيار من الجبل، وهم في قلبها.

قالت أليكس: «سنصير جثثًا عما قريب».

فقال الأخ دياز وعيناه تتوسَّعان: «جثث...». ثم استدار يصرخ من فوق المذبح: «أهذا أقصى ما عندك؟ الأرض تهتز أكثر حين أُطلق ريحًا!».

وقطَّبت المشعوذة حاجبيها، والعرق ينساب على رأسها المحلوق. ورفعت قبضتيها المرتجفتين، فاهتزَّت الأرض معهما، وتشققت الأحجار تحتها ليعلوها غبارٌ ناعم.

قالت أليكس مرتعدة: «أتريد أن تُغضبها أكثر؟».

فهمس الراهب: «أربعة أوبئة في عقد... عدد الموتى فاق ما تحتمله المقابر».

فزجره بالثازار منكمشًا تحت المطر المتساقط من السقف: «اختر وقتًا أفضل لدروس التاريخ!».

قال الراهب: «دفنوهم في الحفر، بالمئات. في كل شبر من الأرض المُقدَّسة...».

ضيَّق يعقوب عينيه. واتَّسعت عينا بالثازار. وتقلبت عينا أليكس إلى الأرض. اهتزت الأرض تحت البلاط الذي أنهكه الزمن، والعواصف، وخطى الرهبان. لكن لا تزال النقوش الباهتة تُرى على بعضها.

قال بالثازار مغمغمًا: «موتى الطاعون؟ مدفونون منذ عقود؟».

أمسكته أليكس من قميصه وقالت: «أتقول إنك لا تستطيع؟».

قال الساحر وهو يغمض عينيه: «ذبلت جثثهم. ودفنوا في الأعماق!».

فهزَّته أليكس وهتفت: «أعماق؟ ومن تظنُّ هذه اللعينة نفسها؟». فانكمش فكُّه.

وقالت: «أتظن أنها أقوى من بالثازار شام إيفام دراكسي؟». واتَّسع منخره. وقالت: «أعظم باعث موتى في أوروبا؟». وانفتحت عيناه فجأة. وقالت: «وأنت واقف فوق مقبرة عملاقة؟».

فصفع يديها وقال: «لا... أظنُّ ذلك».

قفز بالثازار فوق حجر المذبح، صدره مرفوع، كتفاه مشدودتان، قدماه راسختان، ويواجه تلك المشعوذة المختالة، ولا يفصل بينهما إلا ثلاثون خطوة من الأحجار المرتعشة.

فأطلق التحدِّي صريحًا. دعا كلَّ خصمٍ إليه. بلا تورية ولا خداع، أنزل تركيزه إلى الأسفل، عبر الحجر، والتراب، والجذور، إلى أسس الدير المهتزَّة الآن بسحره، وهناك وجد الموتى. وإذا بطقطقةٍ من تحته، وشقٍّ عظيم يفتح المذبح، وإحدى شطريه تميل نحو الحافة. فعثر، واضطرب ذهنه...

أمسك به من ساقه أحدٌ ما. فعقدت الأميرة أليكسيا شفَتيها بعزمٍ صلب. وأمسكت بابتيست بحزامه من الجهة الأخرى، والتقت عيناها عينيه لحظة، فأومأت له إيماءة خفيفة جدًّا.

استدار بالثازار نحو المشعوذة الباقية. سيكون ما ينوي فعله من بعث للموتى مما سيُروى في الأساطير في حلقات السحر عقودًا طويلة! وهذه الصخرة المغترَّة بسحرها الأرضيِّ لم تدرك قطُّ أنها تؤدِّي دور المساعدة له. أرخى شفتيه عن أسنانه، وصبَّ كل ما أوتي من قوة. لكنَّ الموتى أبَوا. فهم مدفونون في الأغوار. منسيُّون منذ أمد. لكن بالثازار لم يكن ليُردَّ. أمَر. فحَكَم. بغير كتاب، ولا دوائر، ولا عصًا، ولا طلسم، ولا دهنٍ مقدَّس، ولا حتَّى لفظٍ منطوق. لم يُدلِّلهم بأطراف أنامله، بل اقتلعهم من جوف الأرض قسرًا بإرادته المجرَّدة.

فهمس: «أطيعوا».

وانشقُّ أحد الأقواس العالية، وسقطت الحجارة على الأرض المرتجفة. فتمايل ساباس متقهقرًا، وجناحاه ملتفَّان حول رأسه درعًا. وانقطعت صيحة أحد الصيَّادين فجأة إذ سُحق تحت صخرة بحجم بقرة. ما من

ميتٍ يصعب على بالثازار. وإن دُفن عميقًا. وإن صار عتيقًا. فإن كانوا بقايا مهترئة، نسجهم من جديد. وإن كانوا شمع قبر، صاغهم لمراده.

وزمجر: «أطيعوا».

فشدَّت تلميذة يودوكسيا جهدها، وجهها ملتوي كقناع الموت، وزادت الأرض اضطرابًا، فتساقطت الحجارة، وجدران الكنيسة تفتت. لم يعُد يحتاج إلى أجساد كاملة. فقد رأى النور أخيرًا. لقد قصَّر في أمرٍ واحدٍ: الطموح. سمح لهم أن يصغِّروه. سلَّم للشكِّ. لكن ذاك انتهى.

تشقَّقت الأرض، والأعشاب اندفعت إلى أعلى، والحجارة تباعدت وتهاوت.

صرخ: «أطيعوا!».

بصوت كفناء الخليقة، انهار أرض صحن الكنيسة الممزَّق إلى باطنه، وكأنما فُتح صدعٌ في سقف الجحيم ذاته، واندفعت الجثث تغلي من تحته.

فهمس الأخ دياز: «يا مخلِّصتنا الطيِّبة»، ولم يدرِ أيغلق عينيه أم أذنيه أم أنفه.

يا لمنظر الرجس! فكوك تتدلَّى من الجماجم، ديدان تهوي من محاجر الأعيُن، قطع ثيابٍ ما زالت معلَّقة، أو بقايا لحمٍ أسود متعفِّن متشبِّث بعظام. دُفنوا معًا، وتعفَّنوا معًا، لا يُعرف لهم ذراع من ساق، كتلة بلا شكل من أسنان وأظفار وشعر وأقراط متآكلة وأبازيم صدئة، كثيرة الأيدي، كثيرة الأفواه، تتهاوى حتَّى في قيامها، وتندفع من جديد.

ويلي، ما أنتنَ الرائحة! لقد حضر مرَّة فتح قبر أحد الرهبان في تحقيق تطويب، قيل إن جسده لم يفسد، ثم تبيَّن العكس، ففرَّ الرهبان وهم يتقيؤون. وكانت تلك الرائحة نُتَفًا يسيرة من هذا القبر، الأقدم، والأوسع، والمغلق في عجلة، والمفتوح عنفًا، وهواءه لا يُتنفَّس، ولا يُحتمل، ولا يُوصف.

ويا مخلصتنا، ما أفظع الصوت! أترى الكتلة الملعونة تدوِّي كبحرٍ هائج على ساحلٍ يابس؟ أتحنُّ بآلام لا نهاية لها؟ أتعوي بغضبٍ أبله؟ أتبكي عبر مئات من الأفواه بلا ألسنة ولا شِفاه، تسأل الفكاك من الدنيا والرجوع إلى الجحيم؟ أم أنَّ الأخ دياز لم يسمع إلا دويَّ الكنيسة المنهارة، وصراخ الصيَّادين وهم يفرُّون من الرعب؟

قالت أليكس: «يا إلهي».

انشقت الأرض تحت المشعوذة، فهوت إلى الهوَّة مع أختها الميتة، والخادم يصيح وهو ينزلق بعدها، ومع ذلك ظلَّت الأرض تهتزُّ، وكأنها متقزِّزة من المشهد، والبلاط المتشقق عند طرف الكنيسة يسقط من الحافة الطويلة. وضاق الشريط الرفيع بين المذبح والجرف بسرعة، حيث يحتمي الأخ دياز ورفاقه.

ثم انهارت الأرض تحت ثلاثة من الصيادين، فسقطوا في الدوَّامة النتنة. وراح الآخرون يزحفون إلى الوراء، وأذرعٌ عمياء تمتدُّ إليهم، كأنها غيرةٌ رهيبة، أو احتياجٌ هائل. عانقتهم، احتوتهم، سحبتهم صارخين نحو الحافة، وهم يحفرون الأرض بأظفارهم، ويضربون بأسلحتهم ضربًا لا جدوى منه في أشلاء ميتة منذ زمن بعيد.

ثم شق صوتٌ السماء إذ انكسر قوسُ برج الجرس، وسقط صادمًا جدار الصحن فتناثر حجره، ودارت عجلة الحديد المُقدَّسة تدقُّ الأرض المرتجفة. بعدها انهار عمود، وسقط معه القوس وما يعلوه من الجدار إلى الهوَّة. وكان حجر المذبح قد انشقَّ، وراح يتحرَّك صارًّا وهو ينزلق أكثر. تعثَّرت أليكس، فأمسك بها الأخ دياز، وأسنَدها كما كانت تسند بالثازار.

حينها صاح ساباس صرخة مذعورة، وجناحاه العظيمان يخفقان، يثيران ريحًا عاصفةً في الخراب. ثم ارتفع قليلًا، خطوة أو خطوتين إذ تهدمت الأرض تحته، لكن لا مهرب من جوع الموتى.

فأمسكت يدٌ بساقه، وأخرى ربتت على ركبتيه، وثالثة جذبت ثيابه، وكان جبلٌ من الأجساد المتداعية يتسلَّق بعضه بعضًا. تمزَّق أحدهم وترك ذراعًا متعفنة تتدلَّى من حزامه. ركلهم بجنون، لكنَّهم أمسكوا بجناحٍ، وصرخ حين انتزعوا الريش قبضةً تلو أخرى، والآخر يخفق بلا طائل. مزقه جيوش موتى القدامى، ونهشوه، وجرُّوا من يزعم أنه ملاك طروادة إلى أحضان الهلاك المتعفِّنة داميًا يصيح.

صارت صرخته اليائسة عواءً هستيريًّا، ثم أنَّةً مكتومة، ثم صمتت إذ أطبقت الكتلة العفنة عليه. وأنَّ بالثازار، ثم ارتخى على ركبتيه فوق المذبح المنشق. وما زالت جثثٌ وأشلاء، تصعد من الحفرة، ثم تهاوت، وتكسَّرت، وسكنت.

حدق أحد الصيادين خلف عمودٍ ما زال قائمًا، ثم تنهد، ورمى قوسه النشَّاب، وركض باكيًا. وسقطت بعض الأحجار من حافة الهوَّة التي كانت صحن الدير، وتدحرجت إلى الداخل، وساد صمت.

كانت أليكس ما تزال تتشبَّث بساق بالثازار، دموعها تسيل بلا صوتٍ على وجهها المصدوم. أما بابتيست فكانت إلى جانب باعث الموتى، عيناها متسعتان خلف خصلاتها المتشابكة، تحاول النطق، لكن كل نفَسٍ يخرج منها يتحوَّل إلى شهقة بلا معنى.

وتنهَّد يعقوب وهو يترك سيفه يسقط، ثم هوى ببطء على ظهره، باسطًا ذراعيه، يتأمَّل الغيم يتحرك في السماء. حينها أدرك الأخ دياز أنه ما زال يقبض على حجر المذبح المكسور بيدٍ واحدة، قبضة الموت، وفمه مشدود كأنه يصرخ في صمت. ثم جاهد حتَّى أرخى أصابعه، ومسح دموعه.

وقال: «تبًّا».

51

إعجاز دوائي

قالت أليكس: «ما زلتُ حيَّة»، لكن بشكٍّ كأنها تسأل.

قالت ساني وهي ترفع يدها وتقرص خدَّها قليلًا وتحرِّكه بهزَّةٍ خفيفةٍ: «صحيح. على ما أعتقد».

جلستا متلاصقتين على مقعد ساباس المحفور، فوق وسائد ساباس المنتفخة، تحت عباءة ساباس المذهَّبة التي كانت، على غير ما توقعتاه، ناعمةً وقد لفتاها على كتفيهما. كانتا تحدِّقان إلى نار ساباس، وتحتسيان من خمر ساباس، وقد شربت ساني أكثر مما ينبغي، أي نحو ثلاث رشفات.

لطالما ظنَّت أن قطرةً من الخمر أكثر مما تحتمل، لكنها في الساعات الأخيرة انقلب في نفسها شيء، وأصبحت ترى فيه إعجازًا دوائيًّا. أول رشفةٍ منه طعمُه كالأقدام، لكنه يزداد حلاوةً مع كل جرعة، حتَّى يصبح مرجًا صيفيًّا في زجاجة، وشمسًا على اللسان. أما آلامها، فقد تضاءلت حتَّى صارت كاللا شيء، تسبح في خفَّةٍ مترنِّحة، وفيها حبٌّ دافئٌ للعالم، عالمٌ يكرهها ربما، ولكن فليذهب إلى الجحيم. لا تملك أن تختار كيف يكون الناس، إنما تختار كيف تكون أنت، وقد اختارت أن تكون خيرًا منهم.

حتَّى الغد على الأقل.

قالت أليكس وهي تلمس بطنها كأنما تبحث عن ثقوب: «لم أُطعن برمح، ولا قُطِّعت بسيف، ولا صُوِّبت إليَّ سهام...».

قال يعقوب بامتعاض: «سعيد لأجلك». ثم صاح: «آخ!». إذ كانت بابتيست تغرز إبرتها في جرح صدره العظيم وتشدُّ الخيط.

لم يكن الدير مغريًا بعد ما حدث. إلا لبالثازار وحده، إذ وقف يحدِّق إلى حفرة الطاعون المفتوحة بعينٍ ملؤها نشوةُ المعماري إذ يرى كاتدرائيته تُستكمل. فراحوا يعرجون ويترنَّحون، يستند بعضهم إلى بعض، ويضمِّد كلٌّ جراحه، من الكنيسة المدمَّرة إلى الفناء المحطَّم، ثم عبر المقبرة المتهدمة، ومنها إلى الغابة، حتَّى وجدوا معسكر ساباس وصياديه كما تركه ما يُسمَّى بملاك طروادة: خيام، وخيول، ومؤونة، وقدر عظيم من الخمر.

فلوَّحت أليكس بزجاجة الآن. وقالت: «لم يطأني جواد، ولا سحقتني الحجارة، ولا رماني رجلٌ بجناحين عن الجرف، ولا اجتذبني الموتى إلى حفرة الطاعون».

قالت ساني: «بالمجمل... أنا سعيدة».

قال الأخ دياز وهو يعبس لجلد ظهر يده المتقشِّر، ثم يديرها لينظر في راحة اليد: «وأظنني نجوت أنا أيضًا. رغم أني لا أستحق ذلك. قد يظن المرء... أن للرب خطةً لك».

قال يعقوب، ووجنتُه المندمِلة ترتجف مع كل غرزة: «لا أوصي بذلك».

همست بابتيست، وفمها المشقوق مشدودٌ في خطٍّ قاسٍ: «خطوةٌ قصيرة تفصل بين هذا وبين الاعتقاد أن كلَّ نزوةٍ تخطر لك جزءٌ من مشيئته».

قال البارون ريكارد: «وعند تلك اللحظة يصير أيُّ فِعلٍ فظيعٍ مبرَّرًا. وأنا رجلٌ برَّر الفظائع قرونًا، فخذوا كلمتي». ثم سحب زجاجةً أخرى

من صندوقٍ وتفحَّصها على ضوء النار. وقال: «لا بدَّ لي أن أقرَّ، خادم ابن خالتك يحتفظ بقبوٍ ممتاز».

قالت أليكس وهي تمدُّ زجاجتها له: «من المؤسف أنه سقط في الحفرة. قال لي خالي يومًا إن الدوقات يُصنعون دائمًا، لكنَّ الخادم الجيد كنزٌ نادر».

قال البارون: «لطفٌ منك، لكنني ارتويت». ثم نظر نحو ساني، والنار تتلألأ في سواد عينيه وبياض أنيابه. وقال: «شرابٌ مسكرٌ بحقٍّ».

سعلت ساني بتوتر، وشدَّت عباءة ساباس حولها اتقاءً للبرد، فمدَّت لها أليكس الزجاجة بدلًا منه.

فتلاقت أناملهما، وكان ثمَّة حرارةٌ غريبة، فنظرت أليكس في عينيها، وكان في النظر حرارةٌ غريبة أيضًا، فحوَّلت ساني عينيها على الفور، وارتشفت من الزجاجة، ومرَّغتها في فمها، وابتلعتها، ثم تنفَّست بخارها المثمر، فامتلأ رأسها بنكهته.

قالت أليكس وهي تنظر إلى العتاد الجيِّد الذي خلَّفه الصيَّادون: «ألا تقلقون من عودتهم؟».

قال بالثازار وهو ينظر إلى النجوم: «الذين سقطوا في الحفرة؟ لا».

- أعني الذين فرُّوا.

قال يعقوب وهو يزمُّ شفتيه نحو التراب: «بعد رؤية من سقطوا في الحفرة؟ لا».

شدَّت أليكس العباءة حولها، وكتفها احتكَّت بكتف ساني، احتكاكًا مريحًا جعلها تودُّ أن تحتكَّ هي الأخرى، كما تفعل الهررة، وتخرخر. وربما خرخرت ساني قليلًا.

همست: «أول مرَّة لا أشعر فيها بالبرد منذ أسابيع».

قال دياز: «أول مرَّة لا أشعر فيها بالرعب منذ أسابيع».

قال بالثازار: «أول مرَّة لا أشعر فيها بالألم منذ أسابيع».

قال يعقوب وهو يتمتم: «سعيد لأجلكم»، إذ سحبت بابتيست العقدة الأخيرة وقطعت الخيط بخنجر.

قالت: «استدر». ثم لعقت خيطًا جديدًا وراحت تُدخِل طرفه في الإبرة. وقالت: «سأخيط ظهرك».

قال يعقوب وهو ينفخ خديه: «تبًّا». ثم اعتدل متألمًا، يمسك بساقه المضمدة، واستدار وهو يئنُّ، وقد أنارت النار جرح الرمح الأكبر في ظهره.

قالت أليكس: «فما التالي؟».

قال دياز وهو يبتسم لزجاجته: «قليلٌ من هذا... ثم نوم».

- أعني عمومًا.

قال يعقوب وهو يتأوَّه: «بفضل قريبك المجنَّح...».

قال البارون ريكارد وهو يمدُّ ذراعيه نحو المعسكر: «كريمٌ أيَّما كرم!».

قال يعقوب: «لدينا خيول، لدينا مؤونة، لدينا مال...».

قالت ساني وهي تضغط خدَّها المُتورِّم على العباءة: «وعباءةٌ فاخرة».

قال دياز وهو يرفع زجاجة خمره في الهواء فارتفع بعضه لعنق الزجاجة وتناثر على الأرض: «وخمر! كثيرٌ من الخمر».

قال بالثازار: «أليست القناعة من الفضائل الاثنتي عشرة؟».

قال دياز: «لكنها في أسفل القائمة. ومن يملك كلَّ الاثنتي عشرة؟».

قالت ساني: «أنا لا أستطيع حتَّى أن أسميها كلَّها». وقد قيل عنها مرارًا إنها بلا روحٍ لتُخلَّص، فلا فرق إن أذنبت أم لا. ولعلها ينبغي أن تذنب أكثر.

قال يعقوب، كعادته، وهو يواصل مسيره بوجهٍ عبوس: «نتجه إلى الساحل. نبحث عن ميناء. لا يكون مزدحمًا».

تمتمت بابتيست: «كافالا، ربما؟».

قال البارون: «كافالا بهيَّة في هذا الوقت من السنة».

قال يعقوب: «... ثم نُبحر...».

انتفض بالثازار: «واحدة لا تغرق هذه المرَّة».

قال يعقوب: «... إلى طروادة».

قالت أليكس وهي ترمش نحو النار: «ثم ماذا؟ تتركوني على الأبواب؟».

قال الأخ دياز، وبدا عليه أنه يفكر في السؤال لأول مرة: «حسنًا... إن كان الدوق مايكل قد عاد إلى المدينة المُقدَّسة، وإن تعافى من جراحه، وإن كانت الكاردينالة زيزكا أمَّنت له طريقًا، فثمَّة احتمالٌ تام... أنه في طروادة بالفعل؟».

قالت أليكس وقد ازداد اضطرابها: «تلك كثير من الافتراضات».

- قد يكون مع صاحبته، ما اسمها؟

تمتمت أليكس: «السيِّدة سيفيرا؟».

قال: «تمامًا! يستعدَّان لوصولك!». ولوَّح بزجاجته مجددًا: «لعلَّ الجماهير تهلل لنا! أليس الرجاء أول الفضائل الاثنتي عشرة؟ التي... تنبع منها سائر الفضائل؟».

قالت أليكس وهي تبدو أقل طمأنينة من أيِّ وقت مضى: «ربما. لكن لم أجد فيه نفعًا يُذكر».

قالت ساني وهي تلتفت نحو الشجيرات: «هل سمعتم ذلك؟». ولم ترَ إلا حركةً واضطرابًا في الأغصان. فاستدار يعقوب، يتأوَّه وهو ينتزع نفسه من إبرة بابتيست، وأمسك بسيفه، لكنه لم يستطع فأسقطه. ورفع الأخ دياز زجاجته كأنَّما ليرميها، أما ساني فقد شهقت لتحاول التلاشي، لكنها تجشأت في المنتصف، فانكمشت خجلة، ورفعت العباءة إلى ذقنها.

وإذا بشخصٍ ضخم يخرج من الظلال، يترنَّح وقدماه مقوَّستان يتقدم إلى الضوء. هيئة ملفوفة ببطانيةٍ خشنة قذرة. ثم سُحبت البطانية،

فظهرت كتلة من الشعر الأسود المتشابك بالوحل والأوراق والأغصان، ووجهٌ قويٌّ القسمات منقوش هنا وهناك بوشوم تحذيرية.

ضحكت ساني فجأة وقالت: «ڤيجا! لقد عدتِ!».

ضيَّقت ڤيجا عينيها وقالت: «أعندكم خمر؟». ثم سحبت الزجاجة شبه الممتلئة من يد ساني. وقالت: «آخر مرَّة شربتِ فيها خمرًا فقدتِ كرامتك».

قالت ساني وهي ترفع يدها، ثم علقت بها تحت العباءة: «أنا بخير. انظري كم أنا بخير. وما فائدة الكرامة على كل حال؟ أتعانقينها إن شعرتِ بالوحدة؟».

قالت ڤيجا وهي ترفع الزجاجة وتبتلع، وحلقها يعمل: «لا تعانقينها». ولم تكن ساني متأكدة إن كانت هي من أمسكت بيد أليكس من الحماسة، أم أليكس بها، لكنها أدركت أنهما الآن متشابكتا الأيدي، تحت عباءة ملاكٍ ميت، ولم ترغب أن تفلتها.

- لحظة.

توقَّفت ڤيجا قليلًا، ونظرت حول النار، إلى يعقوب مكشوف الصدر، إلى بابتيست وخيطها وإبرتها، إلى بالثازار وزجاجته، ثم أخيرًا، باشمئزازٍ ما، إلى البارون ريكارد. وقالت: «أكان هؤلاء هنا حين غادرت؟».

قال يعقوب، وقد التقط سيفه أخيرًا ثم رماه مجددًا: «نعم. اقتحمنا المعسكر. بدا ذاك رأيًا صائبًا وقتها».

قالت أليكس: «سعدتُ بأنكم فعلتم. وماذا عن الدانماركي؟ هل قتلتِه؟».

شفطت ڤيجا الزجاجة ورمتها في الأدغال التي جاءت منها، وقالت: «لم أقتله».

رفع بالثازار حاجبيه وقال: «غريبٌ منكِ ألا تقتلي أحدًا».

قالت ڤيجا بفخر: «تضاجعنا»، ثم سحبت زجاجة بالثازار من يده وأخذت منها رشفةً طويلة، ثم تجشأت، ومسحت فمها. وقالت: «مثل وحوش الغابة. كان شيئًا يُغنَّى عنه».

تنهد البارون ريكارد وقال: «وأيُّ الأغاني تلك؟».

قالت وهي تشير بلا تحديد إلى السماء: «كان القمر بدرًا وكل شيء. ما كنت لأتوقف، حتَّى لو أردت».

- يُخيَّل إليَّ أنها لم تكن نيتك.

قالت وهي تجلس بحذر على جذع، ثم تتململ لتجد موضعًا مريحًا: «أكاد أتمنى لو فعلت. أشعر كأنني ضاجعتُ برج جرس القديس ستيفن».

ضيَّقت بابتيست عينيها قليلًا وقالت: «صورةٌ تلتصق في الذهن».

قالت ڤيجا: «لكنني نلت بقدر ما أعطيتُ!».

قالت بابتيست: «ومن ذا يشكُّ في ذلك؟».

قالت ڤيجا وهي تضحك: «سيعرج عائدًا إلى الدنمارك اللعينة ليُريح مفاصله في نهرٍ متجمِّد!».

تأوَّهت بابتيست وقالت: «وغرزَةٌ أخرى».

قالت ڤيجا: «كنتَ ستفخر بي يا يعقوب!».

تأمَّل الفارس العجوز لحظة، وقال: «أكنتُ لأفعل؟».

قالت: «ماذا حدث لذلك الأحمق ساباس؟».

قالت أليكس وهي تحدِّق إلى النار: «كان له جناحان».

تجمَّدت ڤيجا، والزجاجة في منتصف الطريق إلى فمها. وقالت: «ـَه. ومن هنا جاءت العباءة. ولعلَّ من الصعب أن يجد شيئًا على مقاسه». ثم شدَّت بطانيتها القذرة حول كتفيها بخشوع مصطنع. وقالت: «أعرف هذا الشعور. أكان يطير إذًا؟».

قالت أليكس: «ليس بما يكفي ليتفادى أن يُسحب إلى حفرة الطاعون على يد فيلقٍ من الموتى القدماء».

هزَّت ڤيجا رأسها متأمِّلة وقالت: «هه». ثم رفعت زجاجتها نحو بالثازار، فردَّ بتحية خفيفة، كأنهما خصمان محترفان يعترف أحدهما للآخر بجودة العمل.

زمجر يعقوب: «تبًّا لكِ!». وهو يلتوي على مقعده بينما بابتيست تنكأ جرح ظهره مجددًا.

قالت ڤيجا وهي ترفع الزجاجة نحو الضوء: «ينبغي لك أن تشرب من هذا. ليس خمرًا رديئًا، بل هو خمرٌ طيب. سيخفف الألم».

قالت ساني: «لا يريد تسكين الألم. إنه يعشق الألم».

قال يعقوب وهو يقبض على كرسيِّه بأصابعه المعقودة: «لقد أقسمتُ... يمين الزهد».

رفعت ڤيجا حاجبيها وقالت: «الحياة أقصر من أن نقطع فيها عهودًا إلى الأبد».

قال يعقوب وهو يشهق: «حياتكِ أقصر؟ حسنًا، يا لسعادتي... آخ!».

قالت ڤيجا: «فماذا فعلتم أنتم إذًا؟».

قالت بابتيست وهي تغلق جرح يعقوب وتغرز الإبرة مجددًا: «الأشياء المعتادة. نهبُ قبور، سجنٌ مؤقت على يد صديقة قديمة، ثم حضرنا مفاوضات سلام. بالثازار استحضر دوقًا من الجحيم...». ثم قطعت الخيط الأخير بخنجرها وتراجعت. وقالت: «ثم معركة أخيرة، وزلازل، وغبيٌّ مجنَّح، وحفرة الطاعون. وانتهيت».

قال يعقوب وهو يزفر ويلبس قميصًا جديدًا، لا بُدَّ أنَّه من متعلقات ساباس، مزيَّن بخيوط ذهبية عند الياقة والأكمام، وجعله يبدو كأرملٍ ثريٍّ قرر العودة إلى سوق الزواج: «شكرًا».

قالت أليكس وهي تشير بإيماءةٍ مبهمة: «أكلُّ مهمَّةٍ من مهامكم... تكون هكذا؟».

نظر البارون ريكارد بسعادة إلى السماء الليلية وقال: «إن مهام معبد الذرائع المُقدَّسة كأفراد رعيتها، كلٌّ منها مريعٌ على طريقته الخاصة».

قالت ساني: «وقد تكون أسوأ بكثير». والتفت الجميع إليها، وبدأت تتساءل هل سكرت. «أعني... نحن جميعًا على قيد الحياة، واجتمعنا من جديد».

قال بالثازار وهو يغمغم: «هَلِّلويا». وكان ابتهاجه بإنجازه في بعث الموتى قد تلاشى قبل أن يُكمل يومًا. وقال: «ما زلنا عالقين في وسط اللا شيء، في سبيل أكثر إمبراطورة غير مرجَّحة في العالم، بلا إهانة...».

قالت أليكس: «منصف تمامًا».

قال: «... بتكليف من بابا في العاشرة من عمرها»، ولوَّح نحو الأخ دياز، «تحت قيادة أضعف راهبٍ في القصر السماوي...».

زمجرت ڤيجا: «لا تخاطبه هكذا! إنه رجلٌ طيِّب! وصادق! وشجاع! وشريك ماهر! جريءٌ على نحوٍ مفاجئ...».

قال بالثازار وقد تحوَّل ذهوله إلى حيرة: «مهلًا... ماذا؟».

رمشت ڤيجا وقالت: «تبًّا».

قال يعقوب وهو يضغط جسر أنفه: «حقًّا؟ مرَّة أخرى؟».

قال بالثازار وهو ينظر من الراهب إلى المستذئبة ثم يعود: «متى... أين... كيف؟».

قال الأخ دياز متألمًا: «أيمكننا... الحديث عن شيءٍ آخر؟».

قالت بابتيست وهي تنزع حذاءها: «تمضي أعوامًا تنسخ المخطوطات، وتترنَّم بالأناشيد، وتزرع في بستان الدير، ولا يودُّ أحد الحديث إلا عن المرَّة التي ضاجعتَ فيها مستذئبة».

قالت ڤيجا: «ثلاث مرات، في الحقيقة».

قال البارون ريكارد بنبرةٍ واعظة: «مرَّة واحدة قد تُعدُّ زلَّة، لكن ثلاثًا تُصبح خطيئةً متعمدة!».

قالت ساني في حيرة: «وكيف تكون مرَّة واحدة زلَّة؟».

قالت بابتيست وهي تغنِّي بلهجةٍ تمثيلية، وتخلع الحذاء الآخر وتريح أصابع قدميها أمام النار: «يا كارديناله زيزكا، أعترف أنَّني انزلقتُ في أثناء الصلاة، وتعلَّق ردائي في مسمارٍ شارد، وكانت شهوتي، كما هي دائمًا حين نتغنى بحبِّ الرب، متأججة، فانتهى به الحال عرضًا في حضن مستذئبة».

قال بالثازار وهو يحملق في ظلمة الغابة بعينين متسعتين: «لقد سمعتُ كلَّ شيء. لم يبق للكون سرٌّ عني».

صرخ الأخ دياز: «حسنًا! طريق التوبة يبدأ بالاعتراف». ثم شرب من زجاجته مغمض العينين، وهتف فجأة: «كانت أربع مرات!».

ضيَّقت ڤيجا عينيها نحو السماء، ثم اتسعتا. وقالت: «آه! صدقتَ!».

قال البارون ريكارد: «القلب وما يهوى».

قالت ساني: «وكذا العين، على ما يبدو».

قال الأخ دياز بصوتٍ عالٍ: «ولا أندم على شيء!». وقد سمعت أنَّ السُّكر يجعل من الصعب التمييز إن كان الآخرون سكارى، لكنها أيقنت أن الراهب ثمل. وقال: «ما رأيكم؟ ڤيجا شريكة ممتازة». ثم ناولها زجاجته. وقال: «رقيقة على نحوٍ مدهش، ومفعمة بالإحساس».

قالت ڤيجا وهي تقذف شعرها المتشبِّع بالأغصان وتلتقط الزجاجة رافعةً إياها له بتحية: «أشكُّ في أن الدانماركي يوافقك الرأي. لكن لي لحظاتي».

قال بالثازار وهو ينظر من ڤيجا إلى دياز بدهشة: «الآن قد سمعت كلّ شيء. كيف أُصاب بالإحباط والإعجاب، من كليكما؟».

قال يعقوب وهو يفرك صدره برفق، حيث ظهرت بقعة دمٍ على قميصه الجديد: «إنه لأمر عجيب... أن يحيا المرء كما حييت، ويرى ما رأيتُ...». لم يكن يبتسم حقًّا، لكنه لم يكن يعبس كذلك، ونظر في النار. وقال: «ثمَّ لا يكفُّ العالم عن إدهاشه».

قالت ساني وهي تنهض مترنِّحة، شاعرة بأنَّ في نفسها شيئًا بالغ الأهمية لتقوله: «إنه حال مرٌّ!». ثم حاولت جمع أفكارها، وحرارة وجهها تجعل الأمر أصعب، والعالم يدور حولها. وقالت: «... ويجب أن نتمسَّك... بأيِّ فرحٍ نجدها». أغمضت عينيها، لكن ذلك زاد الطين بلَّة، ففتحتهما، ورفعت يدًا عاليًا. وقالت: «ولذا أودُّ أن أرفع نخبًا...». ثم تجشأت، ثم تقيأت فجأة على نفسها.

قالت ڤيجا: «لعلَّكِ بالغتِ في النخب».

قالت ساني وهي تعتدل، ساقاها تتمايلان، وتمسح ذقنها المبتل: «هل فقدتُ كرامتي؟».

قالت بابتيست: «بعضًا منها».

قال يعقوب وهو يحدِّق إلى الظلام: «وما فائدة الكرامة على أيِّ حال؟».

قالت ساني: «هاهنا»، إذ شعرت بذراعها ترتفع، ورأس أليكس ينزلق تحت إبطها، وكان ذاك موضعًا حسنًا له. فأمسكتها وساندتها، وكان ذلك حسنًا، إذ إنَّ ساقَي ساني تريدان الانطلاق كلٌّ في اتجاه.

كانت خيمة ساباس مظلمة، تكاد تبهر الأبصار ببهرجتها كما عباءته. وضوء النار يلوح من خلال القماش، وتبرق الزخارف الذهبية هنا وهناك، والسرير الكبير يليق بإمبراطورة بحقٍّ، ولعله أفضل ما رقدت عليه ساني في حياتها. ولم تكن المنافسة شديدة، فقد اعتادت في السيرك النوم في سلة كلاب.

تعثَّرت بشيء وكادت تسقط، لكن أليكس أمسكت بها، وضحكت قليلًا، وكان ذلك غريبًا عليها، فلم تكن ممَّن يضحكن. وربما لم تجد في حياتها شيئًا يُضحك. قالت وهي تلهث، والخيمة مظلمة، تدور، وتفوح منها رائحة الأزهار: «شكرًا... على المساعدة».

شعرت بأن أليكس تهز كتفيها وقالت: «أنتِ أنقذتِ حياتي، حين كنتُ مطاردة».

قالت ساني: «فعلتُ ذلك، أليس كذلك؟».

قالت أليكس: «أقلُّ ما يمكن أن أفعله هو أن أساعدكِ إلى السرير... وأنتِ سكرانة».

قالت ساني: «أتظنينني سكرانة؟».

ثم ارتمت فوق السرير على ظهرها، وألقت أليكس بنفسها كذلك، على ركبتيها، ويداها على جانبي كتفي ساني. فلبثتا هناك لحظة، في العتمة، وأصوات الآخرين خارجًا، بالثازار يقول شيئًا، وڤيجا تضحك، وأليكس لم تكن إلا ظلًّا أمام وهج النار خلف القماش. ثم بدأت أليكس تتحرَّك مبتعدة، فأمسكتها ساني، وكانت مغامرة خطرة لضعف توازنها، حدقت إليها وعادت تستلقي، وتلهث.

ساد الصمت، ووجه ساني مشدوه، وأنفاسها تدغدغ شفتيها، وأليكس ما تزال متجمِّدة قريبة منها. سمعت حينها صوت ڤيجا خارجًا تقلِّد يعقوب بصوتٍ أجشَّ، والضحك يتعالى.

همست ساني: «يمكنكِ العودة إلى الآخرين. إن أردتِ». كانت دائما تعجز عن قول ما تفكِّر فيه. لكن الآن لم تستطع التوقف.

- أنا بخير. وحدي. اعتدتُ ذلك.

قالت أليكس، ووميض في عينها يوحي بابتسامة، أو هكذا أملت ساني: «العالم مكان مرٌّ. ويجب أن نتمسَّك بأيِّ فرحٍ نجد».

قالت ساني: «كلامٌ حكيم. حكيمٌ جدًّا».

قالت أليكس همسًا: «هل أنتِ واثقة من هذا؟».

قالت ساني وهي تمرّر يدها إلى مؤخر رأسها: «ومن ذا يتيقَّن من شيء؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الجزء الرابع

شعلة القديسة نتاليا

52

نهاية الطريق

قالت أليكس: «إنها ضخمة».

في الظلمة التي تسبق الفجر، بدا بريق شعلة القديسة نتاليا من بعيد كأنما يطفو فوق الأفق، كنجمٍ متقد فاق ضياؤه الحد. فلمَّا أفاضت الشمس ذهبها على جبال المشرق، وسفينتهم ذات البطن الممتلئ تخور صوب مرساها الأخير، انكشف اللغز.

قال الأخ دياز: «بل شديدة الضخامة».

ذاك عمود طروادة قد جاوز الوصف، حتَّى صار أشبه بالأرض منه بالبنيان، كتلةٌ جبارة من الصخر المصقول ترتفع من البحر كشكلٍ لِقطعَةِ جذعٍ ضخم، تعلوها خضرة هي حدائقها المعلقة الشهيرة، وفوقها تنتصب أبراجٌ صغار كمسنَّنات تاج.

قالت ڤيجا: «إنه ضخم».

وقدَّر أحد الحمقى أن تحكمه وضيعة مثل أليكس. فوضعت كفَّها على بطنها المتقلب، كأنها تريد عصر القلق عصرًا، لطالما علمت أن في توليها للسلطة ضربًا من الجنون، ولكنها ظنت أنهم عاجلًا أم آجلًا سيأتون بفكرةٍ أرجح، ثم يضحكون جميعًا. أتذكرون ذاك النمسَ الأهوج الذي أردنا أن نجعله إمبراطورة؟ أيُّ سخفٍ ذلك؟ لكن ها هي الآن، تقترب من طروادة، ولا تسمع لأحد ضحكًا. خاصًّا ليس منها.

قال بالثازار، وقد انطبعت على وجهه دهشةٌ فتيَّة وهو يرى الشمس تطلع على المدينة: «ثمَّة أشياء كثيرة في هذه الحياة... نالت من المديح أكثر مما تستحق، ونُفخت شهرتها وهي دون ذلك بكثير».

قالت بابتيست: «مثل ثالث أمهر باعث أرواح في أوروبا؟».

زفر ثالث أفضل باعث موتى في أوروبا زفرةً ملؤها السأم. وقال: «... لكن عمود طروادة ليس منها، مثلما هو واضح. هو بقايا عصرٍ أعظم، يبدو عصرُنا في ظلِّه وكأنَّه حاشيةٌ تافهة». وضيَّق عينيه نحو أليكس: «من بناه؟».

قالت على الفور: «مهندسو قرطاج السحريُّون، وإن كان يُشاع أنَّهم قيَّدوا الأمير الشيطاني هوكسازيش ليعمل مهندسًا».

- ولماذا بُني؟

- على حسب من تسأل. يقول التجَّار إنه لضبط طرق التجارة برًّا وبحرًا. الكهنة يقولون إنه معبدٌ للقوى الشيطانية. والنبلاء يقولون لإثارة الرعب في قلوب المغلوبين. والجنود يقولون إنه حصنٌ شرقيٌّ ضدَّ الإلفيين.

همس يعقوب: «كلٌّ منَّا يرى العالم من خلال عدسة هوسه».

أومأ بالثازار إلى أليكس بأضعف إشارة رضا. وذلك أعظم ما يقدِّمه من مدح. قال: «سرَّني أنك كنت تُصغين. ووفقًا للتواريخ، كانت قرطاج القديمة نفسها تملك ثلاثة أعمدة على نطاقٍ أعظم، لكنها سقطت حين سحبت بوَّابةٌ إلى الجحيم معظم المدينة».

قال البارون ريكارد، وهو يمرِّر أنامله في شعره الأسود الغرابي ويدعه لريح البحر كرايةٍ لامعة: «يومٌ سيِّئ لسوق العقارات على ما يُظن».

قالت أليكس، وهي تشير إلى صفٍّ الأقواس الصغيرة التي تربطه بالجبال شرق المدينة: «حين سقطت قرطاج لم يكن عمود طروادة قد اكتمل. باسيل الأوَّل، الذي لُقِّب لاحقًا بباسيل البنَّاء، هو من أتمَّ القناة العظمى، وغرس الحدائق المعلَّقة، وبدأ العمل في المنارة. شعلة القدِّيسة نتاليا لم تُوقد في أعلاه حتَّى خمسين عامًا بعد موته. ولم يطل الوقت بعد ذلك حتَّى وُضع حجر الأساس لكاتدرائية الزيارة الملائكية، إثر... انتظر... زيارة ملائكية».

أخرج بالثازار زفرةً مُرَّة: «والآن صرت تتفاخرين بذاكرتك فحسب».

حدَّقت أليكس نحو العمود، وأحد جانبيه في الظل، والآخر يلمع بنور الشمس الطالعة، وقد بدأ بساط من أبنية جديدة ضئيلة بالمقارنة، يظهر حول قاعدته، وقالت: «تعلَّمت هذا من الأفضل». ثم همست: «ماذا لو أنهم يمقِتونني؟ شعبي...». وبالكاد استطاعت أن تنطق الكلمة.

قال يعقوب: «لن تكوني أسوأ من أكثر الحكَّام».

قال بالثازار: «ليس لزامًا على الإمبراطورة أن تُحَبَّ، ما دام أمرها يُطاع».

قالت بابتيست: «ربما ستغيِّر رأيك لو أنك ذُقت الشعور».

فتح بالثازار فاه كأنه سيعارض، ثم أغلقه كأنه أدرك أنه لا يستطيع.

تحركت أليكس مضطربةً مع موجةٍ أخرى من القلق، تلمس بأصابعها ثانيةً قماش فستانها المذهَّب. وكانت بابتيست قد تدرَّبت تلميذةً لخياطةٍ في أفينيون لبضعة أسابيع، وأمضت الصباح بدبابيس في فمها، تلفُّها بقماشٍ من عباءة ساباس. كان الفستان ضيِّقًا من الخصر، ومنتفخًا في الصدر، كأنه قُصَّ لهيئةٍ أجمل منها.

واعتادت جال ذات الصرة أن تقول: «تظاهر بما تريد أن تكون، فلعلَّك في يوم لا تكون متظاهرًا». بدا ذلك حكيمًا لأليكس، التي اعتادت التظاهر كثيرًا، لكنها شكَّت أن ذلك سيجعل نهدي أي أحدٍ أكبر.

تمتمت: «أشعر كأنني هدية عيد ميلادٍ لعينة».

قال البارون ريكارد: «ومن لا يحبُّ تلقي تلك؟ لا تخشي شيئًا يا سُموك، فلن تجدي استعدادًا أحسن».

وأشار إلى نفسه بإيماءةٍ مبهرة. قال: «تلقيتِ تعليمًا خبيرًا في آداب السلوك»، ولوَّح نحو بالثازار، «المفاخرة»، وأشار إلى الأخ دياز، «والحروف»، ولوَّح نحو يعقوب، «والعبوس»، ولوَّح نحو ڤيجا، «والذبح العشوائي...».

قالت أليكس، متجهِّمة: «الذبح الـ...ماذا؟».

قالت بابتيست: «يعني بلا تفكير».

فتحت ڤيجا فمها كأنها ستعترض، ثم أغلقته، كأنها أدركت أنها لا تستطيع.

قال البارون ووجه أصابعه البيضاء إلى لا شيء: «ثم هناك ما أعطتك إيَّاه ساني من دروس، أيًّا تكن. فحش خفي، على حدِّ علمي...».

قالت ڤيجا، عابسة: «ما هو الخفي؟».

قالت بابتيست: «يعني...».

قال الأخ دياز: «نحن نعلم ما يعنيه».

قال البارون، وهو يشير إلى بابتيست: «وأخيرًا، وليس أقل شأنًا، كلُّ شيءٍ آخر».

وكانت -وقد ألفت أرقى القوم ومن دونهم- أدَّت ركوعًا نموذجيًّا، وإن بدا غريبًا في حذاءٍ تصل إلى الركبة.

قال البارون: «تذكَّري أن بعضًا من أكثر الناس مقتا، وأقلَّهم موهبة، وأسوأهم حظًّا، صاروا ملوكًا لا بأس بهم حين تُوِّجوا. ولستِ دون المعدَّل».

قالت أليكس: «ذلك تشجيعٌ عظيم».

قال: «بالطبع». وابتسم، كاشفًا عن أسنانٍ ناصعة، إن لم نقل أنيابًا.

قال: «شكرًا للرب على وجودي».

قالت أليكس، وقد عاد إليها قلقٌ مزعج وهي تنظر إلى العمود: «لكنني لم أُتَوَّج بعد. لا يزال لي ابن خالة حيًّا...».

قال يعقوب: «أركيديوس».

قال بالثازار: «الأكبر».

قالت بابتيست: «وأقواهم جميعًا، حسب الروايات».

قال الأخ دياز، وهو يحكُّ لحيته بقلق: «كان الإخوة خصومًا مريرين على العرش. وقتل البقيَّة لم يزده إلا خطرًا».

قالت أليكس: «عظيم. هذا عظيم».

توقعت انقضاض مراكبه من كل خليج، ومرتزقته يطلقون السهام من كل مدينة، أو أن تهاجمهم سحاليه المجنَّحة من كل غيمة مرُّوا بها في رحلتهم. وعدم ظهورهم لم يُطمئنها، بل جعلها تتيقَّن أنَّ محاولةً أشد هولًا على حياتها ما تزال بانتظارها.

فوضعت كفَّيها على معدتها المتقلبة. وقالت: «ذلك عظيمٌ حتَّى إنني قد أتقيَّأ».

وكأكثر الأشياء، كان أسوأ عن قرب. غص الميناء بالسفن المتزاحمة عند الأرصفة كخنازير جائعة تتنازع على ضرع. سفن الشمال ذات المقدمة الوحشية، نحيلة وشرسة، تقزمت أمام سفن ثلاثية الطوابق من إفريقيا، وقد خُيطت الدروس الخمسة بخيطٍ من ذهب في أشرعتها.

قُذفت التحيَّات والتهديدات بين البحَّارة المارِّين بلغاتٍ لم تفهمها أليكس، وإيماءاتٍ لا تحتمل اللبس. ارتفع العمود فوق كلِّ شيء، فألقى بطرفٍ من الميناء في ظلِّه العظيم، وجعل خطَّ التلال وراءه يبدو قزمًا. ففي مواضع منه، بدت جدرانه كأنَّها جروفٌ طبيعية، صفائح عظيمة

من صخرٍ بلا فاصل، وفي مواضع أخرى مشيَّدةٌ من حجارةٍ متداعية على مقياسٍ غير بشري، دعاماتٌ بعِظم أبراج النواقيس، وقناطر تظلل شوارع بأكملها، كلُّها مبلَّلة من أثر المطر، مرقَّطةٌ بخطوطٍ هابطة، مغطَّاةٌ برقعٍ من السرخس الأخضر والمتسلِّق الأحمر، تغصُّ بها أسرابٌ من طيور ملوَّنة اتخذتها مأوى.

وقد نُحتت مساكن هناك، سلالم وأبواب ومداخن يخرج منها الدخان، محفورة في الصخر، أو مبنيَّة على سقالاتٍ شاهقة، تتدلَّى منها سلالم وجسور مرتجفة، وحبال وسلاسل تمتدُّ نحو المدينة يُرفَع بها الفطور في دلاء. وكان الماء يتدفَّق من كلِّ موضع، فصارت القنوات في جانبي العمود سيولًا رغوية وشلَّالات لامعة، يرشُّ رذاذها أسطح الشوارع من تحت، ويُنشئ قوس قزح فوق المدينة. وفي تلك القنوات، رأت أليكس عجلاتٍ ضخمة تتحرَّك، وتروسًا جبَّارة تدور، كأنَّ البناء كلَّه فيه أحشاءُ ساعات، نصفه آلة ونصفه بناء.

طُويت الأشرعة، واقتربت السفينة، وبدأت أليكس تبصر الناس. جموعٌ تملأ كلَّ سطحٍ ورصيفٍ وميناء. اقتربت أكثر، فخافت أن تكون تلك الآلاف من الوجوه موجَّهةٌ إليها.

همست: «أهُم... ينتظروني؟».

تأفف يعقوب: «ليسوا في انتظاري، هذا مؤكد».

قالت: «يا إلهي». مدينةٌ بأكملها. إمبراطوريَّة بأكملها. وكانت أليكس تعضُّ شفتها السفلى المتشقِّقة اليابسة، التي تشبه سجقًا طهي أكثر من اللازم، أبعد ما تكون عن شفاه إمبراطورة. أسوأ شفاه يمكن أن تراها.

همست: «هل فات أوان العودة إلى المدينة المُقدَّسة؟».

قالت ڤيجا: «أتساءل ذات الشيء»، وهي تطلُّ من خلف الصاري، في حين احتكت الأخشاب بالحجارة والبحَّارة يقفزون إلى اليابسة ليثبِّتوا الحبال.

قال البارون ريكارد، وكانت زفرته نسيمًا باردًا على عنق أليكس وهو ينحني نحوها: «يا للسماوات الرؤوفة، لدينا مستذئبة خجولة. تذكَّري يا سُموك، هم ليسوا غرباء عليك، بل أصدقاء قدامى أحباء يسعدك أن تلتقيهم من جديد».

- يا إلهي.

كان هنالك وفدٌ مُرحِّب، يُشوى تحت شمسٍ اشتدَّت وطأتها، وحرسٌ متلألئ، وخيولٌ بسروجٍ برَّاقة، تقودهم امرأة بوقار الإمبراطورات. إمبراطورةٌ حقيقية، لا مدعية مثيرةٌ للضحك.

قال ريكارد: «انفجارٌ من السخاء والاستبشار سيلتمع في عينيك عند كلِّ تحيَّة. أريد ألعابًا ناريَّة اجتماعية. واستقيمي بحقِّ السماء، فقد أتيتِ لتقودي أمَّة، لا لتبحثي عن قرطٍ ضائع».

قالت أليكس، خافضةً كتفيها ثانيةً: «عذرًا».

- ولا تقولي عذرًا.

- عذرًا. تبًّا!

- ولا تقولي تبًّا.

امتدَّ الجسر الخشبيُّ إلى الحجارة. وكان هناك سكونٌ مروِّع. ثم... نمشي. على النحو الذي علَّمها البارون. كأنَّ بين عظمتي ترقوتيها جوهرةً لا تقدَّر بثمن، يستحقُّ كلُّ أحد أن يرى لمعتها. فمشت عبر الجسر كأنَّها تعوم. وانزلقت فوق الرصيف كأنَّها تسبح. وكأن وهج الشمس القاسي، والأنظار الأشد قسوة، والحكَّة المتزايدة في أسفل ظهرها التي لا تستطيع حكَّها في هذا الفستان، كلُّ ذلك من أعظم ما يُمتعها. ثم...

نبتسم. فرحٌ وسرور، وهي لا تشعر البتَّة أنَّها توشك أن توسخ سراويلها أمام مئاتٍ من رعاياها المستقبليين. نبتسم. وكلُّ شيءٍ كما تشتهي، ولا احتمال لأن توسخ نفسها. نبتسم. ثم حرارةٌ وتمنِّياتٌ طيِّبة، وأمعاؤها تحت السيطرة الكاملة، وحتَّى لو وسخت نفسها، فلن يستطيع أحدٌ أن يقول إنَّها لم تبد مستمتعة.

وأقسمت أليكس إن تلك المرأة تكبر مع كلِّ خطوةٍ تخطوها. فكادت تساوي يعقوب طولًا، ولكن ببشرةٍ أبهى كثيرًا. بشرة إمبراطورة، إن كان للإمبراطورات بشرات تخصهن. أفضل بشرةٍ تراها في حياتك. شعرت أليكس أنَّها طفلة شحَّاذة سخيفة في حضرتها. بل ليست حتَّى وغدا. بل لطخة. ذرَّة. يا رب، هل أنفها يتصبَّب عرقًا؟ ذرَّة براز بلون تفَّاحةٍ دودية منسحقة في جلد سجقٍ ذهبيٍّ صُنع من عباءة رجلٍ ميت.

توقعت أليكس أن تنفجر المرأة ضاحكةً حين وقفت في ظلِّها المتطاول النحيل، ثم ينضمُّ إليها الجميع. لا، بحقِّكم، أخرجوا الحقيقية. لكنَّ المرأة انخفضت في انحناءةٍ بالغةِ الاحترام، تنساب ثنايا تنُّورتها في بركةٍ متلألئة، بسلاسة كأنَّها نزلت على منصَّةٍ خفيَّة.

قالت: «الأميرة أليكسيا، لي الشرف أن أرحِّب بكِ في وطنك. أنا...».

قالت أليكس: «لا بدَّ أنكِ الليدي سيفيرا. وصيَّة القاعة الإمبراطورية. ذكرَك خالي كثيرًا».

- أتمنَّى ألا يكون قد أثقلني بالكلام؟

- قال إنكِ صديقةٌ عزيزة، وإنَّكِ خاطرتِ بكلِّ شيءٍ لترسلي إليه رسائل. وإنَّه ائتمنك على حياته، وإنِّي أستطيع أن أثق بكِ كذلك.

غرقت الليدي سيفيرا في انحناءٍ أعمق، إن كان ممكِنًا.

- خالك لطيفٌ أكثر ممَّا ينبغي، لكنَّ تجربتي تُخبرني... أنَّ من الحصافة ألا تثق الإمبراطورة بأحدٍ أكثر ممَّا ينبغي. هل لي أن أنهض؟

قالت أليكس: «ماذا؟ تبًّا، نعم! أعني... تبًّا. نعم! عذرًا».

قالت سيفيرا: «لا حاجة لسموُّك إلى أن تعتذري أبدًا». ثم نهضت إلى أن أصبحت تُطلُّ عليها برأسٍ أطول منها برأسٍ على الأقل، ويا له من رأس.

قالت أليكس، وهي تصغِّر عينيها: «أهناك فرصة... أن تنهضي أقل قليلًا؟».

- هل تفضِّلين أن يأتي جنود الحرس بصندوقٍ تقفين عليه؟ أم يحفرون لي حفرةً أقف فيها؟

بدأت أليكس تبتسم وقالت: «أشعر أنَّك تمزحين يا ليدي سيفيرا».

قالت: «وقد عُرف عني المزاح في مناسباتٍ خاصَّة. لكن لا حاجة لسموُّك إلى أن تخاطبيني بلقب. سيفيرا تكفي». ثم انحنت تهمس: «بصفتك إمبراطورة، لكِ أن تناديني بالعاهرة، أو الفرس، أو الخنزيرة، أو الطفيلية، دون أن تخشي التصويب. وإنَّ سلفك كانت تفعل ذلك كثيرًا، وكنت دائمًا أشكرها على تلك اللفتة الكريمة. ما تشتهينه يا سُموك فهو واجبي ومسرَّتي. أمَّا الآن، فواجبي ومسرَّتي أن أقودك إلى الدوق مايكل...».

- أهو هنا؟

- هو هنا منذ عدَّة أسابيع، يُرتِّب دخولك إلى المدينة. هو في انتظارك عند المصعد العظيم لهِرَقليوس، في نهاية الموكب.

قالت أليكس، وقد تشقَّق صوتها: «موكب؟». وكان عندها نصف توقع أن يُفصل رأسها فور نزولها من السفينة.

قالت سيفيرا: «يرغب شعب طروادة في تحيَّة إمبراطورته القادمة». ثم أشارت إلى فرسٍ بيضاء عظيمة. وقالت: «هل تركبين يا سُموك؟».

همست أليكس: «بغاية السوء».

وبينما سارت نحو تلك الثروة في هيئة فرس، قذف طائرٌ بفضلاته على الحجارة بصوتٍ عالٍ.

وانتقل السكون من الغرابة إلى القلق.

وظنَّت أنها سمعت همسًا: «أهذه هي؟».

قال يعقوب: «مهلًا»، ومدَّ ذراعه فأوقفت أليكس خطاها، وقلبها في حلقها، تتساءل أيَّ تهديدٍ رآه. ثم تقدَّم، وقبض بيده اليسرى على مقبض سيفه، ثم استجمع نفسًا كأنَّه يوشك أن يأمر بهجمةٍ ضدَّ احتمالات صعبة، ثم زأر بأعلى صوته الخشن: «هُتافٌ لسموِّها، الأميرة أليكسيا پايروجينيتوس!».

قال صوتُ طفلٍ، رفيعٌ بفرح بريء: «الأميرة أليكسيا!»، وكأنَّ تلك القطرة شقَّت السدَّ، فانطلقت صيحات وصفير وهتاف من كلِّ موضع، وتطايرت الطيور من الأسطح مذعورة.

فزأر يعقوب برضًا: «كانوا فقط بحاجةٍ إلى دفعة».

وكان في المقدِّمة كاهنان بلحيتين، يحملان مجسمين على عصوين مذهَّبتين، للقدِّيسة نتاليا والقدِّيس هادريان، على قول الأخ دياز الذي يعرف القدِّيس متى رآه. ثمَّ راهبتان، تحمل إحداهما صندوقًا بلَّوريًا فيه قدمٌ محنَّطة، والأخرى تلبس درعًا ذهبيَّة فيها ريشةُ ملاك مخلَّلة. ثمَّ اثنا عشر حارسًا، ترفرف ريشاتهم الأرجوانية في النسيم، وتلمع أسلحتهم الاحتفالية تحت الشمس. ثمَّ جاءت في سرجٍ جانبيٍّ على فرسٍ بيضاء فاخرة بسرجٍ مرصَّعٍ بالجواهر، مركزُ الحدث المتعرِّق، لصَّةٌ سبق أن ضُربت ضربًا شديدًا لمحاولتها سرقة عكَّاز مجذوم، يصحبها مصَّاص دماء، ومستذئبة، وقاتل سفاك خالد.

وكان في هذا كلِّه تصديقٌ آخر على إحدى مقولات جال ذات الصرة المفضَّلة: «احكِ القصَّة الصحيحة، وسيشتري الناس أيَّ هراء قديم».

كانت طروادة مدينةً للشمس الساطعة، وللألوان التي تَفوقها سطوعًا. القباب المصقولة تتلألأ، والأبواب المجلوَّة تبرق، والفسيفساء التي تزيِّن أبواب الكنائس تتوهَّج ببلاط الذهب والفضَّة، تحيط بصور القدِّيسين، ويتوارى عند أقدامهم المتسوِّلون.

مرُّوا بسوقٍ يبيع كل ما هو على وجه الأرض، حيوانات ذات خطوطٍ وبقعٍ عجيبة تدور في الأقفاص، أوانٍ مزخرفة وزجاجٌ لامع، صحافٌ من التوابل النفَّاذة تعادل في حجمها الأحواض، بلونٍ أخضر فاقع، أو بنيٍّ، أو برتقاليٍّ، أو ذهبيٍّ، ولفائف من الكتَّان الأبيض الساطع، والحرير المشعِّ بجميع الألوان.

ثم مرُّوا بورشة صباغة عظيمة، حيث تُحوَّل مياه العمود إلى بركٍ مصبوغةٍ بألوانٍ غريبة، والعُمَّال فيها، شبه عراة، يخطون في الماء وقد تلوَّنوا هم أيضًا. ونُشرت من حولهم على غاباتٍ من الأعمدة أقمشةٌ لا تُحصى لتجفَّ، كأنَّها أشرعة مراكب عظمى، بحارٌ من الأزرق اللامع، والأحمر القاني، والأخضر المشعِّ، تنتفخ في الريح.

ثم سلكوا منعطف جادَّةً حول قاعدة العمود، فتفتَّح لهم في كلِّ خطوةٍ منظرٌ جديد من وجوهٍ باسمة، تتصبَّب عرقًا في ثيابٍ زاهية كأنها أُعدَّت ليوم عيد، حتَّى كادت أليكس أن تسقط من صياحهم وهتافها.

وقد كانت الأجراس تكاد تعادل في كثرتها أجراس المدينة المُقدَّسة. تطل على المدينة، وتنبعث أصواتها من الكنائس ذوات القباب النحاسية وقد اخضرَّت من طول العهد، وتعالت أصداؤها من مصليات معلَّقة بأعلى القناة المائية الشاهقة كما يتعلَّق صدَف البحر بسلسلة المرسى، وتُقرَع في معابد طُلِيَت جدرانها بصور متقشرة لفرسانٍ صليبيين يتهكَّمون وهم يجزُّون أعناق الإلفيين بسيوفهم.

تركها ذلك تتساءل أين ذهبت ساني. أتنسلُّ خفيةً بين الحرس؟ أم تتسلَّل دون أن تُرى في الزحام؟ أم تزحف تحت فرسها؟ ولعلَّها تجعل

ساني تزحف من تحتها هي لاحقًا. ابتسمت حين خطر لها ذلك. لكن الابتسامات كانت أسهل في تلك الساعة، إذ اجتاز الموكب إلى ساحةٍ عريضة عند قدم العمود، واشتدَّت الهتافات.

همست ليعقوب: «ترى... أَيُحبُّونني؟».

وكان عبوسه ذو الندوب مرساةً رمادية في ذلك الجنون الملوَّن.

تململ: «بل يعشقونكِ. كما يعشق المرءُ من لم يره قطُّ، ولن يراه. إنَّهم يحبُّون فكرتك. صورة أن يصبحوا أفضل ما فيهم. أن يُفدَوا. أن يكتملوا». ثم هزَّ رأسه تجاه الجموع المصفوفة عند الساحة. وقال: «أيًّا يكن الحاكم، فالعالم سيبقى العالم. والناس سيبقون الناس».

قهقهت بابتيست: «لا تصغِ إلى هذا المتحف المتذمِّر».

قالت أليكس: «فهي نهايات سعيدةٌ للجميع إذًا؟».

قالت ذلك فيما وقف الكهنة برموزهم، ثمَّ الراهبات بآثارهن، ثم الحرس المذهَّبون عند منصَّةٍ مبنيَّة من حجر العمود، وعلى رأسها طائفةٌ من النبلاء في ثيابٍ زاهية، يشاهدونها تقترب.

قالت بابتيست: «أشكُّ في ذلك». ثم نفخت قبلةً إلى الحشود: «النهايات السعيدة ليست إلا حكاياتٍ لم تنتهِ بعد».

- خالِي!

فبرز وجه الدوق مايكل المألوف من بين جماعة الأثرياء تلك، بابتسامة أوسع من جميعهم.

ونسيت أليكس في تلك اللحظة كلَّ ما يخصُّ الآداب، فانسلت عن فرسها، في حين لهث خادمان وهما يجلبان درجًا مذهَّبًا، ثمَّ اندفعت بين عمودين منقوشين بانتصاراتٍ غابرة، واندفعت إلى أحضان الدوق مايكل. فأمسك بها، ورفعها، وأدارها، واحتضنها.

قالت وهي تدفن وجهها في كتفه: «ما أسعدني برؤيتك». وقد أدهشها كم كانت صادقةً في قولها. لم ترَ ذلك الرجل منذ شهور، ولم تعرفه آنئذٍ إلا لأيام، لكنه كان دائمًا في صفِّها.

- كنت أحلم بهذا اليوم منذ زمنٍ طويل. وراودني الظنَّ مرارًا أنَّه لن يأتي. أعلم أنَّ الطريق وعر. ويحزنني أنني لم أكن معكِ.

ثم شدَّ عليها، وأبعدها عنه بيديه. قال: «لكنني بالكاد أعرفك! كبرتِ! ولا أستطيع أن أصف... كم أصبحتِ تُشبهين والدتكِ...».

قال شيخٌ تبدو عليه الهيبة، ولحيته تبلغ حزامه: «لا تكن نهمًا، أيها الدوق مايكل. دع لسائرنا فرصةً لنرحِّب بالأميرة في وطنها!».

قال مايكل، وقد يكون قد مسح دمعةً من عينه: «بالطبع! أقدِّم لكم رئيس كنيسة الشرق، البطريرك الأعظم ميثوديوس الثالث عشر».

شعرت أليكس بإغراءٍ شديد لسؤاله عمَّا أصاب الاثني عشر الذين سبقوه، لكنها هذه المرة رأت أن تلتزم بكلام البارون ريكارد، فغرقت في ركعةٍ، متظاهرة بغاية الاجتهاد أنَّها أميرة.

- يا صاحب السعادة، لقد طلبت قداسة البابا أن أنقل إليكم تحياتها الأخوية، وأمنياتها بدوام العافية، ورجائها بأن يجتمع خادما المخلِّصة، والفرعان اللذان يمثِّلان الكنيسة الواحدة الحقَّة، قريبًا في أسرةٍ واحدة من جديد.

رفع البطريرك حاجبيه الكثَّين وقال: «مشاعر تقية يا سُموك، ومُعَبَّرٌ عنها بحرارة. سيكون عزاءً عظيمًا، بعد زمنٍ عصفت فيه الابتلاءات بإيماننا، أن يجلس الوريث الشرعيُّ لثيودوسيا مجدَّدًا على عرش الأفعى. وقد فحصكِ عرَّافون من جوقة السماء كما فهمت؟».

وكان في عينه لمعةُ حساب، وهو يعينها لتنهض، لكنها ظلَّت تبتسم كأنَّه جدٌّ حبيب، وكأنَّ إثبات نسبها أحبُّ المواضيع إلى قلبها.

- نعم يا صاحب السعادة.

- في غرفةٍ شاحبة مطهَّرة كما ينبغي؟

- حسنًا، أنا أميرة، لا ساحرة، لكنَّها كانت غرفةً بيضاء كبيرة.

وضَحكت، ونثرت الابتسام على من حولها، وسرَّها أن ترى كثيرًا من النبلاء يضحكون معها.

قال الدوق مايكل وهو يفتح لفافة: «وقد رأيتم الوثيقة التي تؤكِّد وضع ابنة أخي كوريثة من آل پايروجينيتوس». وكانت مختومةً بختمٍ ثقيل، موقعة بتوقيع الكاردينالة بوك وقداسة البابا.

فسأل البطريرك، وقد ارتسم التهكُّم في طرف فمه وهو يتفحَّص الورقة البابوية تفحُّصًا دقيقًا: «البابا ذات العشر سنين؟».

قال يعقوب، دون تهكُّم: «البابا».

قال ميثوديوس وهو يحدِّق إلى جلدٍ خلف أذن أليكس: «وتلك الوحمة؟ أرجو ألا يكون من الوقاحة أن أسأل، لكن... أيمكنني رؤية القطعة النقدية المشهورة؟».

فأخرجت أليكس نصفها من تحت طوقها، ورفعت الحبل عن عنقها وقدَّمتها. وأخرج مايكل نصفه وسلَّمه للبطريرك. وحين رفعهما إلى الضوء لم يكونا متشابهين كثيرًا، إذ كان نصف مايكل باهتًا، بنيًّا ملوَّثًا، ونصف أليكس لامعًا، مصقولًا، لكن وجه الإمبراطورة ثيودوسيا كان قد تآكل بفعل الجلد على مرِّ السنين، ومع ذلك كانت حوافها المقصوصة تنطبق.

شهقت إحدى النبيلات. وهزَّ رجلٌ ذو شاربٍ ضخم رأسه بوقار. وهمس رجلٌ عليه سلسلةٌ ذهبية ثقيلة لجاره بكلماتٍ خافتة. ولم يكن ذلك دليلًا على شيءٍ كبير. فقد خدعت أليكس حُجَّاجًا أكثر حذقًا من

أجل بعض العملات، فكيف بإمبراطوريَّة بأكملها؟ لكن ليس من حاجةٍ إلى دليلٍ كبير حتَّى تُثبت ما يرغب الناس أصلًا في تصديقه.

نظر البطريرك إلى الدوق مايكل، ونظر مايكل إليه، ورأت أليكس أن ما يعرضه خالها قد اشتُرِيَ بالفعل. فرفع بطريرك الشرق نصفي العملة في يد، وورقة البابا في الأخرى، ليُبصرهما الناس. وإن كانتا من ذلك البعد لا تختلفان عن رسالةٍ من الأخ دياز إلى والدته، ونصفين من خصية ثور.

ثم زأر: «الأميرة أليكسيا پايروجينيتوس! بِكر إيرين، بِكر ثيودوسيا، مُباركة من عرافي جوقة السماء ومُعلَنة كأولى ورثة العرش، قد عادت إلى طروادة! قد عادت إلينا. قد عادت لتستردَّ حقَّها في المولد، ولتحمي ممالك البشر من رعب الإلفيين، وتقود إمبراطوريتنا إلى عصرٍ جديد من الرخاء!».

ومن ذا يشكُّ في قولٍ يُنادى به بهذا الصوت الجهوري؟

وانطلقت الهتافات العظيمة، إذ فكَّر كلُّ من في الجموع كيف يمكن أن يستفيد من هذا، وببساطةٍ كهذه، نالت أليكس إقرار البابا والبطريرك كوريثةٍ شرعية لعرش الأفعى في طروادة.

واجتهدت أن تتظاهر بأنَّها تصدِّق ذلك، ثم تهافت العليَّة والكِبار ليحظوا بشرف التعارف.

بلصة وغده.

عالمٌ عجيب، أليس كذلك؟

53

نزال مع الجبابرة

أدخل الحرَّاس سورًا من حديد في موضعه عند طرف المنصَّة. وأدت امرأةٌ تقلَّدت سلسلة من تروس مذهَّبة أداءً متكلفًا وهي تجذب ذراعًا طويلًا. فأحدثت رجَّة جعلت الجميع يترنَّح، ثم، لا بقعقعة معذِّبة للتروس، بل بهمهمةٍ ناعمة، بدأت المنصَّة بأكملها، ومن عليها من اثنين وعشرين نفسًا أو أكثر، ترتفع في المجرى القائم في جانب العمود.

همس بالثازار: «مذهل».

ثم أخذت أعمدة النصر والمباني المهيبة تنحدر عن أنظارهم، والحشود في ثيابها المزركشة تتضاءل حتَّى غدت جماعةً مبهمة لا يُعرف فيها أحد، وبان البحر الإيجي بلونه الأزرق من وراء حائط الميناء. ارتفعت، ثم ارتفعت أكثر، والأفق يمتدُّ بعيدًا، وتشعبت متاهةٌ من الأزقَّة حتَّى بلغت أسوار المدينة المتصدِّعة وتجاوزتها، وبرزت قباب على أسطح فسيحة من السقوف المبلَّطة، وقد أضحت خضراء من الصدأ، بل وظهرت فيه قبابٌ أُحكم نصبها حديثًا على قصور ذوي الثراء، يلمع نحاسها النقيُّ في حرِّ الشمس المتَّقدة.

طروادة، جوهرة المشرق. لقد حسبها بالثازار من قبل حلمًا لا يُنال، وكان جازمًا أن الأميرة أليكسيا، تلك الصبيَّة السخيفة، مصيرها إلى أن تلتهمها نيران المشعوذين، أو يأكلها رجال السرطان، أو تدفن تحت دير

منهار. لكن ها هي الآن، قائمة في صدر المجلس، تُكرَّم من ذوي القوة، وريثة للعرش، بل وتبدو -والحقُّ يُقال- جديرة بالمقام.

أدرك بالثازار أن الابتسام يكاد يغلبه، فحوَّل نظره خشية أن يُرى. أيعقل أنه يشعر بشيءٍ من العطف الأبويِّ نحو هذه الغرة الجاهلة؟ وعلى كثرة نقائصها، لا يُنكر أنَّ لها صلابة، وعقلًا حادًّا فطنًا إذا أُثير بتعليمٍ صادق. بل لا يُنكر أنَّ بالثازار نفسه كان له يدٌ جليلة في نجاتها. وهو يشكُّ في أنَّه سينال جزاءً على ذلك، لا منصبًا ولا وسامًا. غير أنَّه، إذا قُضي الأمر، فما قيمة مدح الغرباء؟ إنَّه يعلم ما صنع، أفلا يكفيه ذلك؟ رمق التروس تدور بجانب المصعد، وشعر أنَّ ابتسامته قد اتَّسعت.

قالت السيِّدة سيفيرا، وقد استدارت إليه من قرب: «إن عجبك هذا...».

قال وقد انتبه إليها: «فماذا إذا بلغنا الذروة؟».

قال مترددًا: «حسنًا... إني...». حلم بالثازار أشهرًا أن يخالط من جديد قومًا من ذوي الحسب والتهذيب. وها هو ذا، وقد خاطبته آيةٌ في تلك الخصال، يجد لسانه قد انعقد.

قال: «أخشى أني قضيت وقتًا طويلًا بين البرابرة... فلا تؤاخذيني على قبح منظري...».

قالت: «لقد أعنتَ الأميرة على بلوغ ديارها، مجتازًا أهوالًا نعجز عن تصوُّرها. فاجعل من كلِّ لطخة على ثوبك وسامًا. أنا...».

قاطعها قائلًا: «يا سيدة سيفيرا، لا ريب، فقد سمعتُ حديثك مع الأميرة أليكسيا على الرصيف...». وكان قد أعجب بها إعجابًا شديدًا، لا لهيئتها وحدها، بل لما بدا من تواضعها، وهو خلق لم يكن من عادته أن يُجلَّه، لكنَّه لاحظ أنَّ من قلَّ احتفاؤه بمنزلته، علت منزلته. فمَن ذا الذي يحتاج إلى تكرار عظمته؟ إلَّا من لا عظمة له أصلًا: «أنا بالثازار»، وانحنى انحناءة يسيرة، مفكرًا كم كانت ستبدو سخيفة تلك الانحناءات المتكلِّفة التي تعلَّمها يومًا أمام المرآة.

- بالثازار فقط؟

قال مشيرًا بيده كأنَّه يدفع عن نفسه الزخرف: «لي من الألقاب أكثر، لكن بالثازار يكفي».

- أأنت مهندس؟

مهندسٌ في فنون السحر، ومُصلِحٌ لأسرار الأكوان، ومُشغِّلٌ لدواليب الحياة والموت المتشابكة! لكن بالثازار عضَّ لسانه وقال: «لستُ إلا هاويًا، ونظريًّا أكثر من كوني عمليًّا. بل لقد شهدتُ بعض الظواهر مؤخرًا جعلتني أعيد نظرًا في ماهية المادة». وضمَّ كعبي يديه كما فعلت مشعوذتا الهواء والأرض من قبل: «وأوشكتُ أن أظن أنَّ عنصري التراب والهواء، وإن بديا متضادين، فإنَّهما من جوهرٍ واحد...».

وما لبث أن أدرك أنه قد أوغل في كلامٍ لا يجد فيه أكثر الناس لذَّة، لكنَّ السيِّدة سيفيرا نظرت إليه بعينٍ قد ضاقت من التفكر، وقالت: «أتجرأت إذًا على مجابهة هزدروبال وسِليبوس؟».

حدَّق إليها، وقد بهرته جرأتها، وقال في نفسه: برحمة الرب! وفوق هذا كله، هي ضليعة في أركان الفلسفة؟ «لا رغبة لي في النزال مع الجبابرة... ولكنَّ الوقائع قد تجبرني عليه...». وكانت نظراتها النافذة تؤثِّر فيه تأثيرًا مقلقًا، فتنحنح وحوَّل عينيه وقال: «كنت أعلم أنَّ شيئًا من بناء قرطاجة القديمة قد بقي في طروادة -كعمودكم العظيم وقناتكم المائية- لكنني ما تصوَّرت أنَّ آلته ما زالت تعمل».

قالت سيفيرا، وهي تعدُّ على أنامل فنانة: «الإمبراطورة يودوكسيا كانت لها عيوبها. من مجلس المشعوذين، وأولادها المتغطرسين، إلى الإعدامات التعسفية، والتجارب الشنيعة».

قال بالثازار، وقد سُرَّ لمصادفة حديثٍ خالٍ من الرومانسية: «قد واجهنا بعضهم في رحلتنا. كائنات هجينة من البشر والوحوش.

مخلوقات مشوَّهة في كثيرٍ من الوجوه، وإن سحر التلاعب فيها باهرًا لا يُضاهى».

- هذا ما تظنه؟

- لم أشهد له مثيلًا. كانوا من أشرس المقاتلين.

قالت: «لم تكن نية يودوكسيا خلق المحاربين، أو هكذا قيل. بل إنَّ أبناءها هم من تولوا ذلك. أمَّا هي، قد ابتليت منذ مولدها بداءٍ مُنهِكٍ يفني الأجساد، فجعلها... بعيدةً كل البعد عن المثال الإمبراطوريِّ للكمال. فالتمست سبيلًا تحفظ به لحمها الواهن، ثم شغفت بالروح». وتمسَّكت بالسياج، عابسةً تطلُّ على المدينة: «بمكانها، وكيف تُحرر، كيف تُصطاد».

همس بالثازار: «أمرٌ مشوقٌ بحق...». متفكِّرًا: تُرى، هل بلغت الإمبراطورة الراحلة شيئًا من حلَّ معضلة الروح ومكانها في الجسد؟ ثم انتبه إلى أنَّ فضوله قد ساقه مرَّة أخرى إلى أرضٍ موحِلة، فقال مسرعًا: «وجنونٌ محض، وخطيئةٌ كبرى، وجنايةٌ على الدين، وما إلى ذلك. كانت يودوكسيا، ولا شكَّ، ربَّة عملٍ عسيرة المراس».

اقتربت منه سيفيرا قليلًا، وهمست بما كاد يشكرها عليه: «لا تظن أنَّك وقفت على شيءٍ من فظائعها. لكنَّها كانت تلميذةً نجيبة في التاريخ. فأصلحت آلاتٍ عتيقة في جوف العمود، تسير على ماء القناة، ومن جملتها هذه المصاعد الثلاثة. فلا سبيل إلى القمة إلَّا بها، إلا أن تكون ممَّن يتسلق بثقةٍ بالغة».

قال بالثازار، مغتنمًا فرصة الابتسام: «مشروعٌ نبيل. فالناس، وأخصُّهم العظماء، لا يُحكم عليهم حُكمًا واحدًا، فليسوا جميعًا بأبطال ولا جميعًا بأشرار».

قالت: «الأمور كلُّها نِسبيَّة». فهل تجرَّأ على الظن بأنَّ في شفتيها بادرة ابتسامة؟ «أظنك في خدمة البابا بندكتا؟».

فغدا ابتسامه تكشيرة، كما يفعل كثيرًا، وقال: «أنا... أجد نفسي في خدمتها...». ولم يرَ من الحصافة أن يذكر إداناته المتكرِّرة بالكفر، والسحر الأسود، ومصاحبة الشياطين.

ثم اقتربت سيفيرا أكثر، وقالت، وأحسَّ أن نفسه يلامس عنقه: «أحقًّا ما يُقال... أنَّ الطفلة هي المخلِّصة قد ولدت من جديد؟».

بلع ريقه وقال: «لو سألتِني قبل أشهر، لضحكت في وجهك رغم تجاوزك للذوق. فلن تجدي كافرٍ أعند مني في أرجاء أوروبا، ولما أبصرتُ البابا الرضيعة بأمِّ عيني... لم تدهشني».

- فهمت.

- لكن...

- لكن؟

قال: «لقد كنتُ، على الدوام، أحرص ما أكون ليحسبني الناس حكيمًا، وبدأتُ أفطن أنَّ الأجدر بي أن أكون كذلك في الحقيقة. وإنَّ الرجل الحكيم حقًّا، لا بُدَّ أن يعترف أنَّ ما يجهله أضعاف ما يعلم».

همست سيفيرا: «تلك هي الحكمة حقًّا».

قال: «وقد جعلتني الوقائع... أراجع رأيي في البابا».

وفي تلك اللحظة اهتزَّ المصعد وتوقَّف، فكاد يتعثَّر، فمدَّ يده دون وعي، فإذا بها تُمسك بذراعه بإحكام. وقالت: «عليك أن تجد وقتًا لتحدِّثني أكثر عن هذه... الوقائع». هل عصرَت معصمه عصرًا لطيفًا قبل أن تبتعد عنه؟ أم أنَّه فقط تمنى ذلك بشدَّة؟

قالت بابتسامة من زاوية فمها، وقد اقتربت منه بابتيست: «أبعد ما تكون عن مستواك».

ولم يكلِّف بالثازار نفسه عناء الإنكار، بل همس قائلًا: «فدَعِ الرجل يحلم».

54

أنهار في السماء

وطأ الأخ دياز قمة عمود طروادة، فإذا به يدلف إلى عالمٍ آخر. المدينة في الأسفل يابسةٌ مغبَّرة، محاطة بالأسوار ومكسوَّة بالحجر. أمَّا هاهنا، في الروابي الملوكيَّة، فكلُّ شيءٍ يلمع بالخُضرة في كنف زرقةٍ ساطعة. أشجارٌ تلوح في العلوِّ كأنها من غابةٍ شاهقة، وبساط من العشب الأخضر مفروشٌ كأنَّه يدعو، وشجيرات قد زُخرفت بنفائس الزهر، وكلُّ ذلك مغروس بعنايةٍ فاتنة كأنَّ البذور نثرت من كفٍّ إلهية.

اصطف صف مزدوج من الحرَّاس في زي لا غبار عليه على جانبي الطريق المرصوف، وحين دنَت أليكس، ضربوا جميعًا عقبًا واحدًا، فدوى صوت واحد كهدير البأس العسكري، وخفضوا الرماح المذهَّبة ليقيموا ممرًّا من معدن مصقول.

همس الأخ دياز، وهو يومئ إيماءة رضا نحو الدروع: «كثيرٌ من الحرَّاس».

همست أليكس، وقد رمقت الشفرات المعلَّقة فوقها بعينٍ مرتابة: «كثيرٌ من الحرَّاس».

قال الأخ دياز: «الخوف... عادةٌ صعب كسرها، أعلم ذلك. كنت أظنُّ أنَّ أصعب اختباراتنا ستكون عند منتهى الطريق». ومدَّ يده يمرِّرها بين سعفٍ نديٍّ، أوراقه تلامس ما بين أصابعه: «أنأمل أنَّ الشرَّ قد انقضى؟».

قال يعقوب الثورني، متنهِّدًا: «لا تعوِّل على ذلك». ولكن حتَّى قسمات وجهه الصلب بدأت تلين. فالمدينة من تحتهم خانقة، ملتهبة، يعمُّها النتن والذباب. أمَّا هنا، في الجنائن المعلَّقة، فإن نسيمًا عليلًا يداعب البشرة، وجعل الشمس البرَّاقة تتلألأ بين أوراقٍ بألف شكلٍ ولون.

تنفَّس الأخ دياز شهيقًا مفعمًا بعبير الزهر والصمغ، وأطلقه زفيرًا هادئًا. وقال: «ما اقتربت قطُّ من الجنَّة مثل الآن».

قالت أليكس، وقد رفعت كفَّيها حين تساقط حولها وابلٌ خفيف من بتلاتٍ ورديَّة صغيرة حملها النسيم: «سمعت أنَّه في عهد الإمبراطورة يودوكسيا، كان في هذه الروابي مثالٌ لكلِّ نبتةٍ خلقها الرب».

ابتسم الدوق مايكل وهو يراها، وقال: «قُل ما شئت عن يودوكسيا -فقد قتلت أختي، واغتصبت عرشها، وكانت جبَّارةً كافرةً تستحقُّ سعير الجحيم- لكنَّها لم تبخل على العمود والقناة، ومنحتنا لمحةً من بهاء الأزمنة الغابرة». ثم ضحك وهو ينظر إلى الماء الخفيض، إذ اجتازوا جسرًا فوق قناةٍ متعرِّجة: «حين كنت صبيًّا، لم يكن هنا إلا خيطٌ من ماءٍ مالح، والجنائن لم تبقَ إلا بضع نخلات عطشى، ولم يكن يعمل من المصاعد إلا واحد، ولا يتحرَّك إلا إذا طابت له الحركة. أمَّا الآن؟ أنصتوا».

المدينة من أسفل كانت تضجُّ بالهتاف، وصليل التجارة، وزئير البهائم على أربعٍ وعلى اثنتين. وأما هاهنا، فلم يكن سوى همس الورق، وتغريد الطير، وفي كل مكان خرير الماء يجري قريبًا، وهمس المطر يتساقط بعيدًا.

قال الأخ دياز همسًا: «أنهارٌ... في السماء».

قال الدوق مايكل: «الماء يفيض في القناة من ينابيع في الجبال، فيسري عبر أنابيب خفيَّة من تحتنا، أو يمتدُّ في سواقٍ تنحدر على جوانب العمود، تُحرِّك المصاعد، وتنساب إلى أحياء المدينة لتسقي الحدائق وتملأ الحمَّامات العامَّة. يقول العلماء إنَّها كانت تفعل أكثر من ذلك، لكنَّ تلك الأسرار ضاعت».

قال بالثازار، وقد شهق: «هذا المقدار... صعب التصديق...». وحتَّى هو نسي ترفُّعه المعتاد.

ابتسم الدوق مايكل وقال: «إنَّ قمة العمود تمتدُّ في العرض مئات الخطوات. ومهندسات قرطاجة الساحرات ما كنَّ قليلات الهمة، ولا كان أسلافي كذلك، إذ شيَّدوا فوق إرثهم. وعلى الجانب الشرقيِّ، رفعوا كاتدرائية الزيارة الملائكيَّة». وأشار إلى طريقٍ مرصوف يعجُّ بالحجَّاج المقنَّعين، والواجهة الشاهقة للكنيسة في نهايته، وقد أحاطت بها زرقة السماوات، كانت مكسوَّة بنقوشٍ هندسية وصورٍ متلألئة للملائكة. والأبراج الأربعة في زواياها بحجم أبراج الأجراس، وبرجا الأجراس الصاعدان فيها أطول من ذلك.

هاهنا عظمةٌ لطالما ابتغاها الأخ دياز، وعجز عن الظفر بها في المدينة المُقدَّسة. فقال مغمضًا عينيه لحظة: «مكانٌ يشعر فيه المرء بوجود الرب حقًّا».

قال الدوق مايكل: «وعلى الجانب الغربي من العمود، شيَّدوا القصر». ثم أشار إلى عنقودٍ مذهل من الأبراج الموشَّاة بحزامٍ من الحجارة القاتمة، ووضع يده بحنوٍّ على كتف أليكس: «قصرُكِ، وفوقه شعلة القدِّيسة نتاليا، التي أضاءت لقرونٍ سبيل أبناء طروادة إلى ديارهم». ضاقت المنارة صعودًا كحدِّ السيف، أعلى الأبراج المبنيَّة فوق البرج العظيم، ولهبُها في قبَّتها العليا يلمع حتَّى في نور الشمس.

ثم أشار الدوق إلى عمائر أخرى جليلة، تتراءى من خلال الخُضرة، وقال: «وقد رفعوا مساكن العائلات النبيلة، ومقرَّات الجيش والبحرية، وحصونًا تؤوي نخبة الإمبراطور، وسائر آلة الإمبراطوريَّة الكبرى. مدينةٌ في قلب مدينة!».

قال بالثازار، وقد رمق بناءً يرتفع من الحديقة إلى جوارهم، له سقيفةٌ تتكئ على عشرة أعمدةٍ شاهقة، منقوشةٍ بمشاهد من الفنون والمعارف: «مدينةٌ بين السحاب... أتلك دار الحكمة المشهورة؟».

هزَّ الدوق مايكل رأسه وقال: «مدنَّسة ومُهانة. فقد طردت يودوكسيا العلماء، وأحلَّت محلَّهم المشعوذين والكيميائيين، وجعلتها موطنًا لدراسة السحر الأسود».

قال بالثازار: «استخراجُ الأسرار الخفيَّة... لا في حياءٍ خفي، بل في فخرٍ مبتهج! تخيَّلوا فقط!». ثم تنحنح وقد وجدهم جميعًا يحملقون فيه: «و... أمرٌ مروِّعٌ بالطبع».

قال يعقوب: «لقد صادفنا في الطريق عدد من تلامذة يودوكسيا».

- وكانوا شرًّا عظيمًا فرادا كانوا أم أزواج. فكيف لو اجتمعوا طائفةً واحدة؟

وأسرع الأخ دياز يرسم دائرةً على صدره.

قالت السيِّدة سيفيرا: «بعضهم بايع أحد ولدي الإمبراطورة، وسائرهم هربوا عقب وفاتها».

قال الدوق مايكل، ناظرًا نحو أليكس: «كقمل الخشب، فرُّوا من النور. لا شكَّ أنهم شعروا بطلوع الفجر، وطلوع الحساب معها! وكثيرٌ من المدينة، مثل دار الحكمة، يحنُّ إلى أن يُبعث. ومكتبته ما زالت، على ما يُروى، من أعظم المكتبات في الدنيا».

ما فكَّر الأخ دياز في الكتب منذ أشهر، لكنَّ ذكريات الساعات المبهجة بين الرفوف قد طفحت إلى قلبه. فسأل: «كم عدد المجلدات؟».

فأجابته سيفيرا: «إحصاؤها جهدٌ في ذاته، لكنَّها تزيد كثيرًا على مئة ألف».

شهق الأخ دياز، فلطالما تباهى أنَّ في ديره ألف كتاب، وهو يعلم أنه يبالغ. فلم يستطع تخيل منظر مئة ألف! تخيَّل فهرسها فحسب! يا مخلِّصتنا الطيِّبة، أيَّة سلالم متحرِّكة تسعها؟

همس: «أودُّ جدًّا أن أراها».

قالت سيفيرا: «سأرتِّب لك أمر الدخول، لكن عليك أن تعدني ألَّا تتجوَّل فيها وحدك. فما زال هناك... أشياء بقيت من تجارب يودوكسيا...». ونظرت نحو سراديب منخفضة محفورة في الأساسات عن جانبي السلَّم، وقد أُغلقت بأبوابٍ مشبَّكة من حديد. فذكَّرت الأخ دياز أكثر مما يُحبُّ أن يتذكَّر بزنازين الكنيسة تحت معبد الذرائع المُقدَّسة. وأضافت: «أشياء لا نجرؤ على مسِّها...».

قال الدوق مايكل: «جدِّي الأكبر جمع حديقة وحوش في أسفل البناء، جلب فيها مخلوقاتٍ عجيبة من جليد القطب، ورمال إفريقية. وقد نوى دراستها، والفرح بها، والتعلم منها».

قالت سيفيرا: «لكنَّ يودوكسيا سخَّرت الحيوان لهدفٍ آخر».

قال يعقوب، وقد ضاق نظره: «من هنا صُنعت تلك الكائنات التي قاتلت لمارسيان وقسطنطين». وتراجع الأخ دياز خطوةً مرتجفًا، إذ ظنَّ أنه أبصر شيئًا يتحرَّك في ظلمةٍ خلف القضبان.

قالت بابتيست: «ومن هنا نبتت أجنحة ساباس، ونصَّب نفسه ملاك طروادة».

صرخت السيِّدة سيفيرا، بغضبٍ مفاجئ: «يا لجحود هؤلاء المتخمِين! المواهب التي بدَّدوها، وهم يتنازعون ما لم يكن لهم! كان يجدر بي أن...».

قال الأخ دياز برفق: «لا ينبغي أن تلومي نفسك على خطاياهم».

قالت، وهي تبتسم ابتسامةً خفيفة وقد ولَّت عن دار الحكمة لتقودهم نحو القصر: «لو لم يَلُم أحدٌ نفسه على ما لا يقدر عليه... ألن يُفلس ذلك الكنيسة كلها؟».

55

قبل أن تطلبيه

الغرف الإمبراطورية

فتحت السيدة سيفيرا بابين عظيمين من مصراعيها، وقالت: «المخدع الإمبراطوري. بصفتكِ پايروجينيتوس، فهنا... كان مولدُ سموِّكِ».

همست أليكس: «هكذا أخبرني عرَّافو البابا. أمَّا ذاكرتي... فيها شيءٌ من الغبش». الغرفة الواسعة في الجهة الأخرى كانت ملتقى دار فاحشة رفيعة بكاتدرائية لإلهٍ خبيث، كلُّها رخامٌ قاتم، وتذهيب، وأهدابٌ من حريرٍ بلون الحلق المذبوح. ثلاث فتحاتٍ عظيمة مقوَّسة في الجدار الغليظ للبرج كشفت مشهدًا يكاد يستعصي عن التصديق للسماء الغربية، والغيوم مصبوغةٌ بالذهبيِّ والورد مع غروب الشمس.

سارت أليكس نحوها، والنسيم يُقبِّل وجهها، وشعرت بانقباضةٍ محبَّبةٍ في أحشائها إذ بان لها الميناء بعيدًا في القاع، والسفن تخطُّ بحروفٍ بيضاء على صفحةٍ قاتمة من البحر الإيجي. كاد صعود كل تلك الدرجات يبدو مستحقًّا.

قالت وقد استدارت تنظر في أرجاء الغرفة: «المنظر باهر». ولأن كان الآداب على يد البارون ريكارد لا يخلو من تعليم الذوق، أردفت: «لكن الغرفة تشبه بعض الشيء موضعًا يُستحضر فيه شيطان».

قالت السيِّدة سيفيرا، وهي تتأمَّل السرير الهائل: «وبالنظر إلى سمعة يودوكسيا... فلن يدهشني شيء. سأصدر أمرًا بجعلها أقلَّ... شيطانية». ثم فرقعة بإصبعيها فانفتحت أقسامٌ من الجدار الخشبيِّ بانفجارٍ حادٍّ حتَّى فزعت أليكس وهمَّت بالفرار ظنًّا أنَّ في الأمر وحوشًا جديدة.

لكنَّ الداخلات لم يكن وحدهنَّ وحوش. بل انسلَّت من الأبواب أربع شابَّات، لا مسوخ، رؤوسهنَّ منحنية. ربما كنَّ في سنِّ أليكس، لكنَّهنَّ جئن من جنسٍ أطرافه أملس، وشعره أصفى وألمع. من ذلك الجنس الذي تنتسب إليه السيِّدة سيفيرا. مكتبة سُر مَن قرأ

الأثرياء.

ومن تنوُّع ألوان بشراتهنَّ، وأشكال الوجوه، وما عليهنَّ من حليٍّ تنوء بها الأعناق، بان أنهنَّ من أطرافٍ شتَّى من أنحاء الإمبراطوريَّة. ولم تبدر من إحداهنَّ حركةٌ عدوانيَّة. ما لم نعدَّ التواضع المُفرط نوعًا من الغزو، وهو ما كانت أليكس تميل إلى اعتباره كذلك، قليلًا.

قالت السيِّدة سيفيرا: «هؤلاء وصيفاتك. أثناي، كليوفا، زينونيس، وبلاسيديا. اختيرت كلُّهن من أسرٍ لا يبغضها الغبار».

قالت أليكس: «حسنٌ». وما عرفت لنفسها أهلًا قطُّ قبل أن تلقى الدوق مايكل، إذ كانت تُضرَب لأجل خردةٍ في سوق السمك. وأقرب شيءٍ عرفته للأسرة كان نصَّاب الأزقَّة الخلفيَّة وكتيبتها من صِبية النشل. فتمتمت: «لا نريد أن يدنو من العرش أحدٌ عليه غبار...».

قالت سيفيرا: «إن لم يُرضينك، فثمَّة طابورٌ طويل من المرشَّحات...».

صرخت أليكس: «لا!»، إذ كان في نبرة سيفيرا من البرود ما يخيفها أنَّها ستقذف من تُرفض منهنَّ من النافذة، وتضع غيرها قبل أن تصل الأولى إلى سطح البحر. ثم قالت: «تبدين جميعًا رائعات». وأطول بكثير ثم همست: «متأكدة أن لقب الأميرة يليق بكن أكثر...». ثم خفت صوتها حتَّى تلاشى في صمتٍ محرِج.

قالت السيِّدة سيفيرا: «فعدُّوا هذا أسبوعًا للتجربة. سبعة أيام لتصِرنَ لسموِّها لا غنى عنكن». فانحنَت الفتياتُ أعمق، والذقونُ تمسُّ الحناجر، وتبعن سيفيرا إذ قادت أليكس في رحلةٍ طويلةٍ عبر الغرفة، وقد تراءت من وراء الأبواب المفتوحة غرفٌ أخرى، تلوح منها لمحاتٌ مدهشة من منسوجاتٍ ورسوم، وخزف وصحاف، وزجاج ملوَّن، وشموع متَّقدة.

قالت أليكس: «ألي مصلًّى؟».

قالت سيفيرا: «وكان للملوك من قبلك كاهنٌ خاص، مرشدٌ روحيٌّ وكاهن اعتراف. لكن ذاك المقام شغر منذ زمن، فالإمبراطورة يودوكسيا لم تكن... من أكثر الملوك تديُّنًا. وهذه الغرفة أقرب إلى هواها».

أطلت أليكس داخل غرفةٍ تفوق حجمَ تلك التي اقتسمتها قديمًا مع سبعة لصوص بثلاث مرَّات، يتوسَّطها حوض برونزيٌّ ضخم.

قالت سيفيرا: «أذنتُ أن يُجلب الماء إلى هنا توقُّعًا لمقدم سموِّك. ظننت أنَّك قد ترغبين في الاغتسال بعد السفر».

همست أليكس: «يا إلهي»، وهذه من المرَّات النادرة التي تنطقها فيها عن رضًا. تصاعد البخار، وبتلات الأزهار طفت، وفيه زيتٌ طيِّبُ الطَّعم، حريفُ الرائحة، فسال لعابها وشعرت بالعطاس في آنٍ معًا. ثم قالت: «أتقرئين أفكاري؟».

قالت سيفيرا: «من واجبي ألَّا أكتفي بتلبية ما تطلبين، بل أن أعلم ما ترغبين فيه قبل أن تطلبيه».

أحطنَ بها الوصيفات، أيديهنَّ فوقها دون أن تلمسها تمامًا، يحللن ما ربطته بابتيست من ثوبٍ في أوَّل النهار.

قالت أليكس: «أنتنَّ...». وكان شعورها بالغَرَق قد بلغ ذروته، فآخر ما تحتاج إليه هو أن تُجرَّد من ثيابها على يد أربع غريبات: «تبدأن مباشرةً...».

قالت إحداهنَّ، كليوفا أو لعلَّها بلاسيديا: «لن تحتاجي إلى أن تفتحي زرًّا ما دمتِ على العرش يا سموَّ الأميرة».

قالت أليكس: «ذاك مريح. فالأزرار... أسوأ ما عانيتُه إلى الآن». وتنحنحت. شعرت كأنَّها قنفذ يخدمه فهود: «أنتنَّ... طويلاتٌ جدًّا».

قالت سيفيرا: «الإمبراطورة يودوكسيا كانت أقصر منكِ».

- حقًّا؟

- وساقها اليسرى مشوَّهة، تسير بعكَّاز كل عمرها، ولم يجرؤ أحدٌ على الاستخفاف بها، صدِّقيني. كانت رُعبًا يملأ الإمبراطورية.

قالت أليكس: «لا أريد أن أكون رُعبًا». شعرت بالعُري وأنها نحيلة وكلها ندوب، جسدها موشومٌ بعلامات حياةٍ بائسةٍ مملوءة بهزائم صغيرة دافعت عنها بضراوة. أصابع قدمها اليسرى معوَّجةٌ كلُّها بعد أن دُهِسَت بعربة. وكادت أن تغطِّيها بالقدم الأخرى لتخفيها. «يكفيني ألَّا أكون نكتة».

قالت سيفيرا: «ما من أحدٍ هنا يضحك يا سُموك...».

ثم سُمع ارتطامٌ صاخب إذ وضعت إحدى الوصيفات ثوب أليكس على ذراعها، فسقط منه خنجرٌ كانت قد انتزعته من جنديٍّ مهشَّم في بلدةٍ تحترق، وتدحرج على الرخام حتَّى استقرَّ عند قدمي سيفيرا.

قالت أليكس، متأوِّهة: «آه. نسيت أنه هناك».

تناولت سيفيرا مقبض الخنجر بين إصبعين، ترفعه كما يُرفع جرذٌ ميتٌ من ذنبه.

ثم قالت: «احتياطٌ معقول». وقلبت الخنجر في كفِّها، ثم دسَّته في كُمِّها بحركةٍ دلَّت على أنَّها ليست تجربتها الأولى: «لكن إن لم يكن لسموِّك اعتراض، فسأنتقي لك نصلًا يليق بالمقام الإمبراطوري».

قالت أليكس، وقد تنحنحت: «لا اعتراض».

ثم شهقت حين غاص جسدها في الماء، والحرارة تشدُّ أوصالها ثم تُذيبها شيئًا فشيئًا حتَّى أطراف أصابعها. مشطت إحداهنَّ شعرها، وأخرى فركت كعبيها المتقرِّحين، وثالثة نقت أظفارها من الطين. ما اعتنت قطُّ بأظفارها، فكيف أن يفعلها أحدٌ لها؟

رمقت ببصرها لمحة بريقٍ في طرف عينها، فاستدارت، فإذا بالتي تمشِّطها قد أخرجت خنجرًا هي الأخرى، يلمع حده في نور الغروب.

صرخت أليكس: «اللعنة!»، وارتفعت في الماء فاضطربت، فتناثرت القطرات.

شهقت الوصيفة، وسقط الخنجر في يدها المرتجفة، وقالت: «أستحلفك عذرًا يا سموَّ الأميرة... كنت فقط أزيل عُقدة. لم أقصد قطُّ...». وارتجفت شفتاها، وبدأ الدمع يفيض على خديها.

فنهضت من الحوض عارية، والماء يقطر منها، وبتلاتٌ ذابلة ملتصقة بها، وماءٌ معطَّر يدور عند ركبتيها، ويديها مشدودتان كأنَّها مصارِعٌ مستعدٌّ لكلِّ طارئ: «يا إلهي. يا ويلي. أعتذر».

تقدَّمت سيفيرا بخطى هادئة وقالت: «لا ينبغي لسموِّكِ أن تعتذري. الدوق مايكل أخبرني كلَّ شيء».

قالت أليكس وقد ازدردت ريقها: «كل شيء؟».

قالت سيفيرا: «ما يكفي». ومدَّت يدها: «ما يكفي لأعلم أنَّكِ واجهتِ محنةً هائلة». فأمسكت أليكس يدها، تلك اليد الباردة الواثقة، ولمجرد لمسها شعرت بالقوة تسري. فقالت سيفيرا: «لكن ذلك صار خلفك الآن». ثم أعانتها على الخروج من الحوض: «كما أنقذتنا قدِّيستنا نتاليا، فقد خرجتِ من النار سالمة».

قالت أليكس: «لكني أحيانًا... أشعر أنَّ النار مسَّتني»

قالت سيفيرا: «بل لُفِحتِ، لكنكِ حيَّة». ثم أبقت عينيها في عيني أليكس، وأشارت إلى الوصيفات أن يقتربن: «في هذه الغرفة خمسٌ من الخدم يفتدينكِ بأرواحهنَّ».

رمقت أليكس الفتيات، وقد اقتربن كلٌّ واحدةٍ منهنَّ تمسك بملاءة، وقالت: «لست أدري إن كنتُ قد استحققت ولاءكنَّ...».

أجبنها: «لقد حصلتِ عليه سلفًا». وبدأن بتنشيفها، فركًا رقيقًا من كل جانب، لا ينظرن إليها ولا يغضضن الطرف، كأنَّهنَّ نحاتاتٌ يملسن تمثالًا: «وإن أحببتِ، فيمكنك أن تكسبيه لاحقًا».

قالت أليكس: «مما رأيتُ، لا يبدو أنَّ الأمور تسير على هذا النحو...».

- للإمبراطورات، فهكذا تسير الأمور.

اقتسمت فتاتان شعر أليكس بينهما، كل واحدة تجفف جانبًا.

- تحتكِ في القصر، وفي سائر الأبراج والجنائن على العمود، مئات من الحرَّاس أقسموا أن يحموكِ.

قالت أليكس: «مئات؟ ممَّ يتوقَّعون أن يحموني؟».

قالت سيفيرا: «يتوقَّعون؟ لا شيء. مستعدُّون؟ لكلِّ شيء». ثم هزَّت كتفيها، ولم يكن بدٌّ من الانتباه إلى كيف تتحرَّك التجاويف حول ترقوتيها. «أنتِ في أمان».

شهقت أليكس نفسًا متقطِّعًا، وقالت: «أنا في أمان». لكن قلبها لم يصدق بعد، فما زال يقرع في أذنيها. لقد ظلَّت مفزوعة لزمنٍ طويل، كفارسة على جوادٍ هائج. تحركت الفتيات حولها بنعومة، وانقضَّ النصل على العُقدة وقطعها دون أن تكاد تشعر.

همست: «أنا في أمان».

رشَّت إحداهنَّ ماءً طيِّب الرائحة من قارورةٍ تشبه المقمعة الفضية، ونفخت أخرى غبارًا لامعًا من منفاخٍ صغير. وحرَّكت أليكس شفتَيها دون صوت: «أنا في أمان».

جلدها يطنُّ بلذَّة، كأنَّه مجروحٌ ولين في آنٍ واحد، وبدأت تتساءل، دغدغةً خفيفةً في مؤخر رأسها... لعلَّها صادقة.

لفَّت إحداهنَّ جسدها برداءٍ ناعم، ومدَّت أخرى يدها لتُفرغ الحوض. وقالت أليكس: «دعيه، أرجوك. قد أغطس قدميَّ فيه لاحقًا».

قالت سيفيرا: «طبعًا». ثم فرقعت بأصابعها ثانية: «والآن، أظنُّ أنَّ سموَّ الأميرة ترغب في بعض الخلوة».

ثم خرجت الوصيفات من الغرفة دون أن يدرن ظهورهنَّ، بطريقةٍ ما. وتوقَّفت السيِّدة سيفيرا عند العتبة، وقد وضعت يدًا على كلٍّ من المصراعين، كأنَّها كاهنةٌ تنشر ذراعيها في بركة.

لو رأى البارون ريكارد عرض هذا اليوم، لربَّما دحرج عينيه في يأس، لكنَّ أليكس حاولت أن تُحسن الختام على الأقلِّ. فقالت: «لقد كانت خدمتك فوق التوقعات».

قالت سيفيرا: «نحن رهن إشارتكِ إن احتجتِ إلى شيء». ثم أغلقت البابين بطقطقة مزلاجٍ مدهون.

تنفَّست أليكس نفسًا عميقًا، وزفرته زفيرًا ناعمًا. ثم قالت: «أنا في أمان».

سارت نحو النافذة. بل إنَّها سمحت لنفسها بشيءٍ من التبختر. شعور مريح أن تعود أليكس من جديد بدلًا من الأميرة أليكسيا، ولو للحظة. فخطفت بعض العنب من طبقٍ في الطريق. رباه، ما أشهاها، أغمضت عينيها وهي تفجرها واحدةً تلو أخرى في حنكها، ثم نظرت نحو الشمس وهي تهبط. طفت أصوات المدينة من بعيد، خافتة، والسفن الصغيرة تنساب في الميناء، والناس الأصغر حجمًا يزحفون

على الأرصفة. من هذا العلوِّ، بدت المدينة لعبة، والناس دمى، والتفكير في حكمها سهل.

شعرت بوخزةٍ خفيفةٍ في شعر قفاها، فابتسمت.

قالت: «يمكنك الخروج الآن».

وكأنَّما نُودي عليها، كانت ساني قد استندت إلى النافذة بجانبها، وزفرت نفسها الطويل. ثم رفعت الغطاء عن رأسها، ودعكت شعرها الأبيض بأصابعها.

قالت: «ظننت أنهنَّ لن يغادرن أبدًا».

قالت أليكس: «أليس ذلك مروِّعًا؟ أمقت أن يخدمني أحدٌ بكلِّ هذه العناية، لكنَّ أدنى القوم يريدون أن يشعروا أن أحد يحتاج إليهم، فأتحمَّل ذلك من أجلهم».

- القديسة أليكسيا، ما أزهدها وما أكرمها.

- ينبغي أن يُقيموا لي مصلًّى! أوه، انظري، وقد فعلوا.

قالت ساني وهي تتمايل نحو باب المصلَّى: «ضئيلٌ قليلًا. لا يتَّسع لأكثر من ثلاثين».

قالت أليكس، وهي تقودها عبر الفضاء الفسيح: «لكن إن ضاق بنا المكان... ففي الحوض متَّسعٌ لثلاثين آخرين». ولوَّحت إليه: «أبقيته مملوءًا لأجلك».

مرَّت ساني إلى جوارها، وانحنت تشمُّ الماء.

قالت: «أغتسل في قذارتك؟».

قالت أليكس: «أوه... يمكنني أن أجعلهم...».

رفعت ساني حاجبها الأبيض.

تنهدت أليكس وقالت: «لا أزال لا أُميِّز مزاحك».

أفعال ساني تقتل الحشمة قتلًا. خلعت ثيابها كما يفعل الأطفال عند ضفة النهر صيفًا، وقضت دقيقةً تتخبَّط لتنتزع جوربًا، هزيلة كغصنٍ أبيض. ووقفت أليكس عند الباب ترقبها. لم تستطع التوقف عن التفكير كم هو غريبٌ وجميلٌ أنَّ لها الحقَّ في أن تفعل.

قالت ساني، وهي تطرح الجورب خلف كتفها وتغمس إصبعًا طويلة في الماء: «ظننتكِ ستلكمين تلك الفتاة صاحبة الخنجر».

- ظننتني سأفعل.

قالت ساني: «ما شككت فيكِ. كانت لها الأفضلية، لكنَّكِ تزدادين ضراوة إذا حُوصرتِ». ثم انزلقت في الماء، ولم تُحدث إلا أدنى تموُّج: «آه». أغمضت عينيها وهي تغطس حتَّى ذقنها: «آه يا إلهي».

- أعرف.

قالت ساني: «أعني، إنَّ لي موقفًا معقَّدًا من الإله، وهو يلعنني، لكن... آه يا إلهي». ثم انزلقت ساني تحت الماء ببطء، شعرها الأبيض يطفو مع بتلات الزهر، وبقيت هكذا حتَّى كادت أليكس تقلق، ثم خرجت فجأةً ونفثت نافورةً مصحوبةً بصوتٍ الضراط. ومع التصاق شعرها برأسها الرطب، بان طرف أذنها المدببة، وغياب الأخرى. جلست أليكس على حافة الحوض، ومدَّت يدها تمشِّط شعر ساني بأصابعها. لم تستطع التوقف عن التفكير كم هو غريبٌ وجميلٌ أنَّ لها الحقَّ في أن تفعل.

قالت ساني، وهي تنفخ وجنتيها: «أما تلك السيفيرا...».

قالت أليكس: «أعرف». ثم أطلقت تنهيدةً شاردة: «ينبغي أن يكون لكلِّ أحدٍ واحدة».

- لكن لا أظنُّ الجميع يقدر على ذلك. تبدو باهظة الثمن.

قالت أليكس: «أستطيع أن أدعوها». ثم تركت يدًا تسبح في الماء: «أطلب منها أن تفرك ظهرك».

قالت ساني: «أحسب أن الإلفيين أقل شعبيَّة هنا من المدينة المُقدَّسة، بعد الغزوات والمجازر والحملات الصليبيَّة وأكل الناس. فلعلَّ رؤيتي في الحوض تفاجئها».

قالت أليكس: «لستُ أدري، تبدو صعبة الانزعاج».

قالت ساني، وقد أمسكت بطرف ردائها بكلتا يديها، وقبضتاها تلامسان صدرها: «ولا أظنُّني أغرب شيءٍ... وُجد عاريًا... في هذه الغرف...». وابتسمت أليكس ابتسامةً خفيفة، وأنفاسها تتسارع، وتفكِّر كم هو غريبٌ وجميلٌ...

ثم جذبت ساني ردائها فجأةً، فسقطت أليكس وجهًا إلى الماء. وخرجت جاثية، تهزُّ رأسها، وتزيح الشعر المبلَّل عن عينيها.

قالت: «سيتعيَّن عليهم تمشيطي من جديد الآن».

كانت ساني تضغط بطرف لسانها في ذلك الفراغ بين أسنانها. وقالت: «سيساعد ذلك صغار القوم على الشعور بأنَّ لهم دورًا».

نظرت أليكس إلى ردائها المشبع، وتساءلت، بدافعٍ قديم، بكم كانت ستقدره جال ذات الصرة. ثم أدركت أنَّها تستطيع أن تصفِّق بأصابعها فتحصل على عشراتٍ مثله. فنزعت الرداء وألقته على الأرض بصوتٍ رطب.

56

أشباح الغد

ببقية جهدٍ أخير، جَرَّ يعقوب ساقه المشتعلة، المتصافقة، المرتجفة، وصعد بها ما بقي من الدرجات حتَّى بلغ الضياء في أعالي منارة طروادة.

وكان أعزُّ ما يتمنَّاه قلبه المضطرب أن يهوي على الأرض ويتمرَّغ صارخًا كمن شبَّت فيه نار. إذ من حال رُكبتيه، لن يُستغرب أن يرى اللهيب يلفهما. لكنه قبض على فَكِّه المزموم أبد الدهر، واكتفى بوضع يده على قوس الباب تثبيتًا، وتنفَّس بين أنين وصراخ. وكما فعل عشرات الآلاف من المرات، جعل من ألمه سَوطًا يدفعه إلى الأمام. رفع رأسه، وحدَّق من خلال إحدى عينيه إلى ضوء لهب القديسة نتاليا الساطع.

انبعث من صحنٍ عظيمٍ من نحاس في وسط البهو عمود من نارٍ مقدسة كما في الأسفار، ثم سُحب إلى الأعلى عبر مدخنة، تقوم عليها راهبة صامتة، فلا تخبو أبدًا. وقد رُصِّع جَوف القبة ببريق من قطع المرايا المصقولة، تتلألأ في أعاليها، تحملها عقودٌ من الحجارة، فينعكس ضوء نتاليا المبارك مضاعفًا، يبعث الطمأنينة في أهل البرِّ والبحر على مدى الأفق.

من يجرؤ على تسلُّق هذا الموضع العالي في طروادة، يُستقبل بمناظر كأنها من جنان السماء، بعد أن تعتاد العين سطوعها. في الغرب، البحر والسماء تضربهما حمرة الغروب. في الشرق، قناة الماء الكبرى تلتف

نحو الجبال المعتمة. في الشمال، الساحل المهلهل وشقُّ هيلِسبونت الأسود يخرق البلاد، وأنوار كالإبر تمشي على الطرق نحو المدينة.

أما الدوق مايكل، وقد خلَت ساقاه من الجراح الشديدة، قد وقف على بُعد خطوات، يضع قبضتيه على حافةٍ منقوشة بأسماء الزائرين منذ قرون، ينظر نحو الجنوب. نحو الأرض المقدسة. من حيث جاء الإلفيين، ودُحروا بثمنٍ بالغ.

ومن حيث سيعودون.

همس يعقوب: «لعنهم الرب».

التفت إليه دوق مايكل، ولهيب نتاليا يلقي على وجهه نصفًا من النور ونصفًا من الظلمة وقال: «أتعني الإلفيين؟».

قال يعقوب وهو يطحن عقدةً موجوعةً في ورقٍ تنبض بالألم: «الدرجات. أولئك لا يأتون إلا مرَّة في القرن. أما الدرجات، فلا تغيب عني لحظة».

قال الدوق وهو يبتسم نحو البلاد المعتمة: «إن كنت تكره الدرج... فقد جئت إلى المدينة الخطأ».

قال يعقوب: «أنا من معبد الذرائع المُقدَّسة. ونحن نذهب حيث نُؤمر».

ألزم يعقوب نفسه بترك القوس من يده، وأكره ظهره الأعوج على الاستقامة، وزجر رئتيه المتهالكتين حتَّى هدأتا، وأمر ساقيه المرتجفتين أن تخطوا خطوة بعد خطوة. ثم تعدَّى أخت الشعلة في قلنسوتها الرهبانية، ساكنةً صامتةً على مقعدها كأنما هي ثوب محنط. وعبر ذلك الموضع المشترك بين مزارٍ وبيت حراسة وعشِّ عقاب.

تأمله الدوق مايكل كمن يفحص سجادًا ليقدِّر لها ثمنًا، ثم قال: «لكنك لست كغيرك من الجماعة. لم تمتثل بين يدي المحكمة السماوية».

- ربما كان ينبغي لي.
- ولم يُحكَم عليك بالخدمة.
- ربما كان ينبغي لي.
- دخلتها من تلقاء نفسك. ولك أن تغادرها متى شئت.

قال يعقوب متنهِّدًا: «هذا لو استطعت أن أهبط الدرجات»، ثم وضع يديه على الحافة، على الأسماء المنقوشة لمن سبقوه إلى هذا الموضع، وقد بهتت بنوائب الأعوام والقرون.

قال دوق مايكل: «لا ريب عندي أنك إن عزمت على شيء، أدركته. أمثالك من أصحاب التجربة الطويلة هم الأحق بموضع شرف. ولك أن تستردَّ مصيرك»، وقالها وقبض على الحافة بكفه، يحكُّها بنقوشها، وعيناه تتوقدان.

قال يعقوب، وقبضته كلها ندوبٌ وعُقد: «كنت أؤمن بالمصير. وأني موعودٌ بكل ما هو عظيم، وأني أداةٌ لإرادة الرب! وأنه لا بُدَّ أن أكتسح كل عقبة، وأن أستبيح كل وسيلة. وكان في الطريق امتحانات، واختبارات للإيمان، اختبارات للالتزام. فقلت لنفسي أنني لن أتهاون! إذ أي غايةٍ عظيمة تُنال بيسر؟ فضحَّيتُ بكل شيء، وبكل أحد. كسيت نفسي بالمجد، ولطخت نفسي بالدم. حتَّى بلغتُ ذروة تلةٍ من الجثث، وبلغتُ مصيري، ثم تجاوزته...». فتح قبضته المثقلة بالأوجاع، وتركها تهوي: «فلم أجد شيئًا. وأبصرت أني ما اتَّبعتُ خطة الرب، بل صدّقتُ الأكاذيب التي اختلقتها بنفسي لأجمِّل بها طمعي وغروري».

نظر إليه الدوق وقال: «والآن جعلت نفسك سهمًا رُمِي من قوس غيرك. ووثقت أن الرامي يُحسن التوجيه، وقلت: ليس عليَّ حسابُ الصواب والخطأ. سيسمِّي البعض ذلك جُبنًا».

همَّ يعقوب أن يخنق ضحكةً سخر، لكنَّ في ذلك عناءً لم يحتمله، فاقتصر على تأوُّه: «صدِّقني، ما عدتُ أبالي بما يسمّيه الناس». وكان

لهيبُ نار القدِّيسة نتاليا خلف ظهره شديد الحرارة، فامتن للنسيم المسائي إذ لفح وجهه، ثم قال: «رأيت كل شيء، ورأيت كل شيء يُعاد. جبنُ رجل هو حكمةُ آخر. خيانةُ أحد هي شجاعةُ آخر. مصيرُ رجل هو هلاكُ غيره».

- فكل أمرٍ يتعلَّق بموقعك؟

- ومَن بلغ سني، وقف في كل موقع. أن أكون السهم، ذلك يتطلب كل ما بقي عندي من إيمان. أما تصويب السهم... فأدع ذلك لمن لا يزال يؤمن.

قال الدوق وهو يلتفت إلى سلَّم الدرج مبتسمًا: «وعلى ذكرهم...»، إذ أقبل الأخ دياز، يعلو نَفَسُه ويضطرب أكثر من يعقوب نفسه.

قال الراهب وهو يمسح جبينه بكُمِّه: «يا مخلِّصتنا، ما أصعب صعودها»، واتسعت عيناه لما نظر من وراء القوس، ثم اتسعتا أكثر حين مال يتحسَّس الحافة، فإذا بسربٍ من الطير يضطرب في جوِّ الأصيل، فوق المدينة، لكن دونهما بدرجات.

- ويا مخلِّصتنا، يا له من ارتفاع.

ثم التفت نحو المجمرة، والنار تصعد متأجِّجة في مجراها الأعلى، وقال: «فهذه إذًا نار القدِّيسة نتاليا؟».

أجابه الدوق مايكل مشيرًا برأسه نحو الراهبة وأكوام خشب الأرز المُنَضَّدة بجانبها: «ولم يدعوها تخبو مذ أوقدتها نتاليا، منذ قرون. أو إن خبت يومًا، فلا أحد يُقِرُّ بذلك».

خطا الأخ دياز خطوةً فضولًا نحو السلسلة المُتدلِّية بجانب المجمرة، كلُّ حلقة منها مصوغة على هيئة أفعى تأكل ذنبها، وقال: «وماذا عن هذه السلسلة؟».

قال الدوق مايكل: «إنها تنثر مسحوقًا في النار، فتصبغ اللهب زرقة. إنذارٌ لمن يراه أن الإلفيين جاؤوا». ثم دنا من الأخ دياز: «فالأولى ألا نُطلق إنذاراتٍ كاذبة. فلم تُستعمل قط في حياتي».

تراجع الراهب بحذر، ورسم فوق صدره علامة الدائرة، وقال: «نرجو ألا تُستعمل ثانيةً أبدًا».

قال يعقوب بصوت خفيض: «الرجاء مَورِدٌ ثمين، فلا ينبغي لنا أن نهدره في وجه ما لا مفر منه».

هزَّت أخت النار رأسها موافقةً بصرامة، ثم التقطت حطبًا آخر، وألقته في الحوض، فازداد اللهيب زئيرًا.

قال يعقوب: «فلندخل في الأمر إذًا». فكلما اقترب وقت راحته استبشر أكثر: «ينبغي أن تُتوَّج الأميرة أليكسيا بأعجل ما يكون».

قال الدوق مايكل: «لقد رأيت ذلك في منامي نصف عمري، ولستُ نصيرها الوحيد. فالناس يتطلَّعون إلى أمجادٍ غابرة تُسترجَع، وآمالٍ جديدة تُستحدث، وهي تعدهم بكِليهما. لا زال لي أنصار هنا، وقد استعدت منصبي القديم قائدًا لحرس القصر، وشهدتُهم يُجدِّدون أيمان الولاء».

مسح يعقوب لحيته وقال: «القَسَم نافعٌ إن صَدَق. أأنت واثق بأنَّ بقايا زمرة يُودوكسيا قد تفرَّقوا؟».

قال الدوق مايكل: «ذرتهم الريح. وأما المعارضون لحق الأميرة أليكسيا، فمعارضتهم طبيعية».

قال يعقوب: «الخصوم الطبيعيين يقتلونك كما يفعل أهل السحر سواء. كنيسة المشرق؟».

تنهد الدوق مايكل وقال: «هم دائمًا مشقة لا تنقضي. فلا ترى التواضع والسخاء إلا مفقودَين فيمن يلبس عجلة الدوران».

- وفي خبرتي، من يلبسون الدائرة ليسوا أفضل منهم.
- يخشى الكهان نفوذ البابا، يخافون أن يصبحوا تحت يد زيزكا وبوك، وأن تُنزع عنهم امتيازاتهم. لكن الإلفيين بدؤوا بالتحرك، والبطريرك ميثوديوس ليس من أهل العناد. وقد استطعت إقناعه بشرعية دعوى ابنة أختي».

قال يعقوب متذمرًا: «أو قل إنه وجدها نافعةً لرغباته».

وهز الأخ دياز رأسه.

سأل يعقوب: «وأين ولاء النبلاء؟».

قال مايكل: «وأنا منهم، فأشهد أن ما من طائفة في أوروبا أضيق صدورًا، ولا أشد نميمة ومكرًا».

- ولهم في ذلك خصوم لا يقلون دهاء.
- سيطلبون ثمنًا باهظًا لدعمهم. قد قدموا إليَّ قائمة يسمونها مظالم قديمة، وما هي إلا شكوى تافهة وابتزاز فاجر.

قال الأخ دياز: «هل لي أن أراها؟».

- أتوسل إليك أن تريحني من ثقلها العظيم.

وأخرج رزمة أوراق، فجعل الراهب يتصفحها على ضوء نار القديسة نتاليا.

قال مايكل: «لكن الذي يقلقني أشد القلق هم أبناء يُودوكسيا».

قال يعقوب، وهو يتحسس الموضع المتقرح من صدره حيث نفذ سيف قسطنطين: «مارسيان، وقسطنطين، وساباس ماتوا».

قال الدوق: «أخيرًا بشرى طيبة».

وأغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا. ثم قال: «لقد أسديت إلى طروادة خدمةً جليلة».

قال يعقوب: «لكنها لم تنتهِ، فهناك أركيديوس».

قال مايكل: «أدهى الأربعة وأعظمهم شأنًا. إنه أمير أسطول الإمبراطورية. ظل يدفع أجور البحارة في سنوات إهمال يُودوكسيا، فأحبوه. يمكنه أن يفرض حصارًا على المدينة غدًا، فيجوعها في أسابيع، وهذا ما لم يثر التجار غضبًا في ساعات انقطاع تجارتهم».

تمتم يعقوب: «تلك سنة السياسة في كل زمان ومكان، فلا توقف المال أبدًا. فأركيديوس هو الخطر الأعظم إذًا».

قال مايكل: «بلا شك، لكن لدي خطة له...».

قال الأخ دياز وقد رفع رأسه من مطالعة مطالب الأشراف: «دار الحكمة. قالت السيدة سيفيرا إن فيها سجلات؟».

قال مايكل: «سجلات تعود لقرون. فليس بين أمم الأرض من يباري دولة المشرق في البيروقراطية».

قال دياز: «هل لي أن أطلع عليها؟».

قال مايكل: «لا أرى بأسًا، ما دمت لا تبرح موضع الكتب. فثمة بقايا شديدة الخطورة...».

ثم بدا أنه يتحرى اللفظة، وقال: «بقايا... من عهد يُودوكسيا لا تزال محبوسة في أسفل المكان».

قال الأخ دياز وهو ينحنح: «لقد شهدت أهوالًا في الشهور الماضية. فصدقني إن قلت لا رغبة لي في رؤية المزيد».

راقبه الدوق وهو يمضي نحو الدرج، لا يزال يتأمل قائمته، ثم دنا من يعقوب وهمس: «لطالما راودني العجب أن يكون الراهب هذا قائدًا. أفيه ما لا أراه؟».

قال يعقوب: «كل امرئ فيه ما لا يُرى. الأخ دياز رجل يفتش عن غاية، فإن لم يجدها بدا غريبًا في موقعه، وإن وجدها... فمن يدري ما عساه يصنع؟».

وكانت حرارة الصعود تخف، وتتحول إلى وجع مألوف، ولهيب الشعلة يدفئ ظهره، فالتفت إلى المشهد وقال: «من ينظر إلى هذا يوشك أن يصدق أن كل شيء ممكن».

- أنسى كم يهز المنظر نفس من لم يره من قبل.

- رأيته من قبل. وقفت في هذا الموضع عينه ورأيت جيش الإلفيين، ونيرانهم مبثوثة كالكواكب في ظلمة البلاد.

ثم مد يده يتحسس أسماء منقوشة، وقال: «أظن... هذا اسمي».

وكان تمييزه صعبًا، فقد طُمست الحروف بطول السنين، كحال الرجل الذي نحتها.

قال مايكل وهو يومئ بإصبعه: «كنت أعلم. أنت يعقوب الثورني الذي قاتل في الحملة الصليبية الثانية! لكن ذلك كان قبل قرن! كيف يكون ذلك؟».

- قصة طويلة وحزينة.

ومرر أصابعه على أسماء أخرى، وتذكر رجالًا نقشوها، وتعجب من قوة تلك الذكريات التي صيغت في أوج شبابه.

- هذا الملك ويليام الأحمر من صقلية، وهذا ساقيه، بيوردو أمبرا، من أشرس المقاتلين الذين رأيت. وهذا السيد جون جالت، دعوه دعامة الإيمان، وقد نقش اسمه بظفره، وظننتها أجمل ما رأيت.

همس مايكل: «أسماء عظيمة. أبطال كلهم».

قال: «أبطال الأمس». ثم نزع أنامله عن النقوش الباهتة، وسرعان ما ستبهت كلها.

- أشباح الغد.

- لكنك لا تزال معنا.

ضحك يعقوب ضحكة جافة، لا تكاد تكون أكثر من أنين، وقال: «أنا شبح منذ الآن».

- لكني أرى فيك بقية قتال.

ثم عبس ونظر نحو الجنوب والشرق، نحو الأرض المقدسة، وسأل: «قل لي... الإلفيين، أهم أشرار حقًّا كما يُقال؟».

قال يعقوب: «لقد صرت أظن... أنهم ليسوا أسوأ من البشر».

ثم أخذ نفسًا طويلًا، وقال: «إذًا... نعم».

57

أقرب إلى السماء

قالت السيدة سيفيرا، وهي تدفع الأبواب دفعًا حتَّى انفرجت عن سعتها: «هنا الفلسفة، والتاريخ، واللاهوت، والنجوم، والحساب، والعلوم الطبيعية والسحرية...».

تنهد الأخ دياز وهو يتبعها: «يا قديس جيروم الطيِّب...»، ومن ذا سواه يناديه في مثل ذاك المكان، وهو شفيع المتعلِّمين؟

فقبة دار الحكمة، القائمة في صميمها، كانت أقرب إلى السماء من كل ما طمح إليه يومًا أو ظن أنه يستحقه. فتخللت أشعة من النور الملائكي منارات عُليا، تنبعث من قباب مضيئة، تحيط بها رسوم من أخبار طروادة القديمة: هكتور يذلُّ أخيل، وكاسندرا تخدع أوديسيوس، واحتراق جواد طروادة، وظفر أستياناكس وخراب ميسينا. وتحت ذلك كله، صفوف من الرفوف تدوِّخ الناظر قد غشيت الجدران من أسفل، جرف منحنٍ منها، يعادل طوله عشرة أمثال الرجل أو يزيد، مشدود إلى سقالات كالمتاهة من جسور ومصاعد وسلالم، كأنما أقامها مجنون، وقد انفجرت عن كتب لا يدرك عدَّها عقل. جحافل منها. أراض منها.

أشارت سيفيرا إلى أبوابٍ أخرى في أثناء نزولها الدرج، وقد دخلا من أدنى شرفات القاعة المتحلِّقة، وأرض القبة غائرة إلى الباطن: «الدراما والكوميديا من هناك...».

قال الأخ دياز، وقد انفتح فمه دهشة وهو يرفع بصره: «لم تنتهِ بعد؟».

- أوه، لا. الطبُّ والعقاقير في الجناح الغربي، والنصوص واللاهوت في الشرقي، ومجموعة الخرائط في موضع منفصل، وهكذا دواليك...

قال الأخ دياز، وقد انقطع صوته فجأة إذ هبط ببصره عن الرفوف: «عجيب...»، فإن تكن السماوات من فوق، فربما الجحيم من أسفل.

امتلأت الدائرة الأرضية بنقوش أعظم من نقوش ظهر ڤيجا، دوائر في دوائر، ومثلثات في مخمَّسات، ومخطوطات لولبية من رموز متشابكة يعجز العقل عن إدراكها، وتصيب الناظر بدوار مروِّع. كُتبت بأحبار شتَّى، وصيغت من معادن مختلفة، ونُقشت في الرخام نقشًا، رسائل تامَّة لا تُفهم، مكتوبة بخطٍّ متعرِّج كخط المجانين. وذكرته -على وجهٍ لا يريحه- بترتيبات بالثازار في البندقية، ولكن على أضخم وجه. فلربَّ قائل قال إن تلك الأرض كُتب عليها فنَّ السحر الأسود في كل موضع منها.

سارت السيدة سيفيرا على تلك النقوش سَيرًا رشيقًا، وصوتُ فستانها يهمس فوق الرموز في صمت ثقيل، ولم يكن أمام الأخ دياز إلا أن يتبعها. وفي الوسط، انتصب قضيبٌ نحاسيٌّ، تحيطه أسلاك، مسودٌّ كأنما احترق، وعلى جانبيه مقعدان، وقد حفتهما الرموز التفافًا كأنها حيَّات. ولمَّا دنا منهما، رأى -وما زاده ذلك إلا جزعًا- أنهما مشدودان بأربطة غليظة، كأنهما وُضعا ليثبَّت فيهما أسيرًا.

قال متردِّدًا: «أهذا جهاز... لتجارب يودوكسيا؟».

- تجربتها الأخيرة.

نظر الأخ دياز إلى المقعد القريب منه، وإذا الحشوُ عليه متفحِّم. قال: «تلك التي ماتت وهي تقوم بها...».

قالت: «اعتادت الموت أعوامًا طوالًا». ثم عقدت حاجبها ناظرةً إلى المقعد الآخر وقالت: «فقد وُلدت سقيمة. أصغر أبناء ثيودوسيا، لها أخت قديسة وأخ بطل. فليس عجيبًا أن وُجد في صدرها شيء من السخط».

قال: «وما كان ذاك بعذرٍ لاغتصاب إمبراطوريَّة».

قالت سيفيرا: «بل كانت تحرسها. أو... لعلَّ هذا ما كانت تتوهَّمه حُجة لها. ولما رأَت في نفسها النقص، أرادت أن تُخرج من سحرها كمالًا. غير أن أزواجها خذلوها، وغدروا بها، واحدًا بعد آخر، ثم لحق بهم أبناؤها. فانزوت، وانكمشت في هذا الموضع، بين كتبها، تلتمس في سحرها غاية الكمال».

- لكن ذلك السحر خانها في نهاية المطاف...

- كذا يبدو.

وكانت هنالك جرَّتان مشدودتان إلى القضيب النحاسي. فغلب فضول الأخ دياز خوفه، فاقترب ينظر خلال زجاج إحداهما المشوَّه. أيُرى فيها شيء يسبح؟ ريشة سوداء عظيمة لامعة. قال وقد أجبر صوته على الهمس: «ما الذي كانت تحاول صنعه؟».

- لعلها أرادت أن تحرِّر نفسها. من جسدها الذابل، من أخطائها.

- أأراك تُكنين لها بعض الإعجاب؟

فرفعت سيفيرا رأسها وقالت: «لقد كانت وحشيَّة، حاقدة، مرتابة، وطاغية. ومساعيها في إنقاذ طروادة جرَّت عليها التراجع. وبدل أن تبني حلما، أنجبت كابوسًا. هجرت إخفاقاتها، سواء كانت تجاربها، أم تلامذتها، أم أولادها. لكنها ما انفكت تُخطئ، حتَّى لفظت أنفاسها. أأُعجِبتُ بها؟ كلا. أفهمتها؟ أجل. أليس لكلٍّ منا عذرٌ؟ ألسنا جميعًا أسرى عيوبنا؟».

فأومأ الأخ دياز برأسه ببطء، إذ لا شك أنه نفسه يحمل عيوبًا عليه مكابدتها، وأخطاءً عليه التكفير عنها. فقبض على رزمة المطالب التي

أعطاها له الدوق مايكل، وشدَّ كتفيه، وقال: «ستكون لنا إمبراطورة جديدة. وفجرٌ جديد. ولا سبيل لنا... إلا أن نُحسن العمل».

قالت سيفيرا: «صدقت أيها الأخ دياز». ثم رفعت ذقنها، وشبكت كفيها، وعادت سيِّدة البلاط الإمبراطوري كما عُرفت، لا تحسبها تعرف الشعور، فضلًا عن أن تُظهره. ثم قالت: «الأرشيف من هذا الطريق». وسارت عائدةً إلى جوف القبة، ومشى الأخ دياز خلفها، عازمًا على ما جاء من أجله، لا آسفًا على خطايا يودوكسيا، ولا على خطاياه هو.

58

نظيفة من الداخل

انتفضت ڤيجا من نومها بعطسة رجَّت رأسها وأوجعت بطنها. بصقت، وتفلت، وشرعت تُقشِّر التبن عن لسانها. لم تعد تفرِّق بين التبن واللسان، وكانت عُريانة كل العُري، وفي فمها طعم دم. ما من شيء في ذلك يُعَدُّ غريبًا، ولكن أمرًا واحدًا حيَّرها. إن كانت قد استيقظت، فلِمَ كانت تشخِّر؟

خرج الشخير، فتحرَّك كدس التبن، ثم ارتفع، ثم انهار وتفلَّق.

قالت ڤيجا، إذ انكشف لها رجل: «آه».

لم يكن عليه ثوب هو الآخر، والتبن في شعره، ونظر إلى نفسه نظرةً فيها من الارتباك ما ينزل الدموع.

- ما الذي حدث؟

ضيَّقت ڤيجا عينيها. فكم تكره تذكر الأشياء.

قالت: «هل خسرت في النرد؟»، فإن لعبت النرد فهي خاسرة لا محالة.

قالت: «هل سقطت في نافورة؟»، فإن مرَّت بنافورة غرقت فيها لا ريب.

قالت: «هل لطمت جملًا؟»، فإن رأت جملًا...

قال مرتجفًا، وقد طوى ذراعيه على صدره: «من أنت؟».

فربَّتت على وجهه برفق وقالت: «أحيانًا... من الخير ألَّا تعلم».

تسلَّقت من التبن ووثبَت إلى أرض الإسطبل، وكانت الأرض الصلبة مكسوَّةً بشقوق من ضوء إذ تطلَّعت تلك المتطفِّلة، الشمس، من خلال الفجوات بين الألواح.

وما زالت إحدى ساقي سروالها ملتفَّة على كعبها، وذلك حظ طيِّب، لكنها إذ حاولت إدخال قدمها في الساق الأخرى، انزلقت، وتدحرجت فوق شيء ظنَّته روثًا لفرس، وقد يكون روثًا منها هي، على كل حال هو روث. وما الفرق إذا التصق بالشَّعر؟

تمتمت: «اللعنة»، وهي تشدُّ أحد الخفَّين. فرأت الخفَّ الآخر يطلُّ من تحت حوض ماء للخيل، فتقدَّمت، وغمسَت رأسها فيه، والماء البارد يُقبِّل وجهها، ثم يسيل من شعرها وهي ترفعه، ثم انتفضت باستمتاع. نظر إليها فرس من داخل مربطه.

قالت ڤيجا، نافخةً عليه رذاذًا من قطرات: «أدِّب نفسك! أما أخبروك أن التحديق فظاظة؟».

فأدار الفرس رأسه، مطلقًا صوتًا لم تدرك معناه، غير أنها خافت أن يكون قد فاز بالحجَّة. وأحسَّت بأن ريحًا منتنة تفوح منها، أكثر من العادة حتَّى بمقاييس الحظيرة. فشمَّت إبطيها، فإذا هي -كما لا يُفاجَأ أحد- مصدر الرائحة. فاغتسلت غسلة سريعة، وفركت جسمها على عجل، ثم سارت نحو الأبواب.

وقد أُلقي ثوبٌ أخير، مهلهل، ومجعَّد في شريط من الضوء أمامها. وكانت أحيانًا إذا لَهَت، وجدت ثيابها مطويَّة طيًّا أنيقًا، وذلك أمر غريب، إذ لا تذكر أنها فعلت إلا أن تخلعها وتدعها حيث تسقط. لكنه أمر لطيف، وكأنه لبس ثياب جديدة.

غير أن ذلك لم يحدث هذا الصباح، وللأسف.

فدفعت شفتها السفلى، وقلبت الثوب الملتصق بالقش ذات اليمين وذات الشمال، تحاول تمييز موضع رأسه من ذيله. قالت: «هذه ليست صدريتي»، لكنها لم تجد غيرها، فدسَّت جسدها فيها متنهِّدة، والخيوط تشكو وتتنهَّد، والجلد يوشك أن يتفتق تحت إبطيها.

قال الرجل من العلية، ويداه مضمومتان على عورته: «أما من ثياب لي؟».

قالت ڤيجا، وهي تمسك بمقبضَي باب الإسطبل: «أأنا خيَّاطة؟».

- لا أعلم ما أنتِ!

قالت: «لست خيَّاطة». ثم جذبتهما.

قالت: «أخ!»، وقد وضعت يدها على عينيها تقيها نور الشمس الفاجع، وخرجت تتعثر، عينٌ مغمضة، والأخرى تطرف بجنون.

ربما هنالك نهر؟ طريق مرصوف على جانبيه مزدحم بالناس، وجسور صغيرة على ماء سريع الجريان، ومبانٍ ذات سقوف من قرميد ونوافذ شاهقة، دكاكين ومنازل، وهناك كنيسة، فوق بابها وجوه صغيرة مرسومة، وهناك...

انبعث من حلقها خوار خافت طويل، والذئب في صدرها بدأ يزحف خلف أضلاعها، متلفِّتًا مرتابًا، وما كانت لتلومه.

عبَرت الزحام، وخطت على جسر إلى حانة من طراز ما جلس على موائدها أناس في الخارج.

قالت بحدَّة: «لماذا أنت هنا؟».

وكان البارون ريكارد يعبث بخيط منفلت من قميصه المطرَّز، أكمامه ملفوفة إلى مرفقيه، وفتحة صدره مفتوحة إلى سرَّته، كاشفةً عن بطن مشدود أبيض كالعاج المصقول.

قال: «بانتظارك. لا بُدَّ أن يمنعك أحد من اقتراف الفظائع. أو قل، مزيدًا من الفظائع. ما صنعتِه في تلك النافورة البارحة... أيَّتها المخلِّصة الرحيمة».

ثم تناول كأسًا بأصابعه، ودوَّرها لحظة تحت أنفه كأنه ذواق النبيذ الأوحد، ولعق شفتيه برجفةٍ شهوانية، وأغمض عينيه ليشرب.

ليس نبيذًا. شمَّت ڤيجا رائحة مالحة، فسال لعاب الذئبة في جوفها، وأطلت أفكار اللحم الطيب من أركان عقلها المظلمة، حامية، آثمة. ومن غير أن ينظر، دفع البارون إليها بصحنٍ بظَهْر كفه.

قطعة كبيرة من اللحم كانت عليه، تسبح في عصارة دامية.

- طلبت لكِ.

ففاض فم ڤيجا بلعابها هي، غير أنَّ كِبرها منعها.

قالت، متوعِّدة: «أتظنني كلبة؟».

قال ريكارد، رافعًا حاجبه الأسود: «ومتى كنتِ تكترثين لرأيي؟ السؤال الأجدر أن يُقال: هل تظنين أنتِ نفسكِ كلبة؟».

فردَّت عليه بنظرة نارية، لكن رائحة اللحم لم تتغيَّر، وجوعها موجع، وكبرياؤها ممزق كل مُمزق. فخطت فوق مقعد وجلست، وخطفت قطعة اللحم، وشرعت تنهشها بأسنانها.

راقبها البارون بتلك الابتسامة المتغطرسة، وهي من أكثر تعبيراته إغاظة لها.

همس: «ذاك سؤالٌ قد أجبنا عليه».

قالت نادلة، مائلة فوق المائدة، تحدِّق إلى ريكارد بعينين واسعتين دامعتين: «أأحضِر لك شيئًا آخر؟ أيُّ شيء؟».

قال البارون، مبتسمًا وهو ينحني نحوها: «لا، لا يا عزيزتي. لقد فعلتِ أكثر مما يكفي». ثم بلَّل طرف منديله بطرف لسانه الطويل، وراح

يمسح نقطتين صغيرتين من دم فوق طوق عنقها. فزفرت الفتاة زفرة يائسة حين لمسها، وجفناها يرفرفان.

زمجرت ڤيجا باشمئزاز، وما زال فمها ممتلئ بلقمة نيئة.

قال البارون متنهِّدًا: «رجاءً لا تكترثي لرفيقتي... هي كما ترين».

قالت ڤيجا، وهي تتكلم من بين أسنانها: «وأفتخر بذلك»، وما كانت تشعر في داخلها إلا بخزيٍ دفين.

قلب ريكارد كأسه، ثم لحس جوفه، ثم أنزله بلطف، ورمى قطعتين نقديتين إلى جانبه.

قال، وهو ينهض من المائدة ويسير: «يصعب التصديق أنه سيُطبع على هذه النقود وجه أليكستنا الصغيرة قريبًا».

وخلَّف وراءه الخادمة تحدِّق إليه، ويداها مشبوكتان على صدرها.

هزَّت ڤيجا رأسها وهي تتبعه، تمزِّق ما بقي من لحمٍ على العظم بأسنانها، لكنَّ أمرًا في الشارع أوقعها في حيرة. إذ بدا كأنه ينتهي، على بُعد غير بعيد، في غابة من خضرة جامحة على أبراج شاهقة، تشبه تلك التي على قمة العمود. لكن العمود كان على علوٍ عظيم، وهذه الأبراج تحتهم، وفي السماء فسحة واسعة.

قالت، وهي تتلفَّت خلف ركن الحانة ثم ترتدُّ مذعورة: «أين نحن؟».

وراء درابزينٍ منخفض كان انحدار مذهل نحو المدينة، وسور الميناء أبعد، والبحر أبعد من ذلك، كله تحتها بعيدًا سحيقًا، فداهم ڤيجا دوار وغثيان، فأفلتت العظم وتمسَّكت بركن المبنى.

قال ريكارد، كأنما يعلن أمرًا بديهيًّا: «على القناة الكبرى، بالطبع».

قالت: «أنا أكره العلو!»، ثم انسحبت مرتجفة من الحافة، فاصطدمت بأحد المارة.

قال البارون برقة: «لقد صمد هذا البناء في وجه الحروب الأهليَّة، وسقوط الإمبراطوريات، وغزو الإلف. وأعلم أنه سيتحمَّل حتَّى وزنكِ».

قالت ڤيجا: «لسنا كلنا نستطيع التحول إلى وطواط!».

ولم تقدر أن تزيح من رأسها صورة القناة من الأسفل، كم أن أقواسها رقيقة، والمنازل المعلقة على قمتها متأرجحة. هذه المنازل تبدو وكأنها على شفا الانهيار، رغم ما تحمله من جمال.

قال ريكارد: «لا تحبين المرتفعات، ولا تحبين الزحام. صدقًا، لقد وقعتِ في أسوأ مدينة على الإطلاق. لكن لا تقلقي، لن نبقى طويلًا. فمهمَّتنا تشارف على النهاية، أليس كذلك؟ ما لم يكن لديكِ بنودٌ من البروتوكول تريدين مراجعتها بخصوص تتويج الأميرة أليكسيا؟».

قالت ڤيجا، محدِّقة إليه بعين نصف مغمضة: «بُنود من ماذا؟».

قال ريكارد، وهو يتابع سيره مختالًا: «سآخذ ذلك السؤال كجواب».

وماذا يمكن أن يُقال عن مشيته تلك؟ أتراه يتمخطر؟ أم يتسلَّل؟ أم يتراقص؟ خطواته خفيفة كنسيم على الماء، ووركه يتمايل بين الأفعى والإنسان. والمثير للغيظ أنه أجبر ڤيجا أن تفعل نقيض ذلك، فتسير متثاقلةً، متجهِّمة، كهمجية ضَجِرة. فنظر إليها البارون بتلك الابتسامة الوقحة، كأنه قرأ خواطرها.

قال: «تعلمين أن تجهمكِ وتخبُّطك كثور ذي خصيتين متقرِّحتين، لا يجعلني أبدو أسوأ. بل، على العكس، يبرز رهافتي ولطفي، كأن يختار حسان المظهر أصدقاء دميمين، ليظهروا كجوهرةٍ في مزبلة».

قالت ڤيجا: «لا تخبرني كيف أمشي».

- أوه، ما كنت لأحاول تغييركِ، ولو راودتني أحلام بأنه ممكن. لا ريب في أنك منفِّرة كلكِ، لكن ما من أحد ينكر أنك فريدة لا نظير لها.

قالت عابسة: «أهذا مدح؟».

وهل تفرح أم تحتقر مديحًا يأتي ممَّن تكره؟

قال: «مدح من طراز ما. نحن نكره بعضنا، ذلك جلي، لكن... أكان للعالم طعمٌ من دونك؟».

خرجت امرأة أنيقة من متجر، فترنَّحت على عتبة الباب، وتتنهَّد تنهيدة خافتة لما مرَّ بها البارون.

- انظري إلينا. وحشان يمشيان.

قالت ڤيجا: «تكلَّم عن نفسك. أنا قيَّدت الوحش وكممت فاه».

- أحقًّا؟

قالت، وهي ترفع ذراعيها العاريتين: «أترى فروًا؟»، وكان هناك زغب خفيف تحت المرفق، نعم، لكن لا شيء يُسمَّى فروًا.

- ما رأيتكِ مقيَّدة في تلك الحانة قرب المدينة المقدسة.

قالت ڤيجا، بأنف مرفوع: «كنت محبوسة في تلك العربة أيَّامًا. أألام على فرد ساقي؟».

- وما كنت مكمَّمةً في تلك السفينة في البحر الأدرياتيكي.

- الأخ دياز استغاث، وأنا اخترت أن أنقذه. أنا من اخترت. وهذا المهم.

- وفي دير القديس سيباستيان؟

- ذاك الدانماركي أطلق ذئبه، فأطلقت ذئبتي لتلعب معه.

بل أحسَّت بنخسة لذيذة في صدرها إذ تذكَّرت، وقالت: «الذئبة لم ترحل، ولن ترحل، أعلم هذا. لكنني أنا أختار متى أكون ذئبة. لا الأغلال، ولا الكرادلة بالسياط، لا أنت، ولا يعقوب الثورني، ولا القمر حتَّى» -ولم تستطع أن تكتم رجفةً إذ تذكَّرت وجه القمر الممتلئ الفضي- «وطبعًا

لا الذئبة نفسها. أنا أختار. أما سائر الوقت، فسأكون طيِّبة، وآمنة، وطاهرة».

قال البارون، رافعًا حاجبًا: «طاهرة؟ أذاك روث في شعرك؟».

فحطت ڤيجا رأسها في غضب، وانتزعت خصلةً والتفَّت بأصابعها، وتشابكت بالروث، ثم لوّحت بيدها وهي تحاول أن تخلِّص نفسها من الكارثة.

قالت: «ليس من الخارج! يمكنك أن تكون طاهرًا... من الداخل».

ثم ضربت صدرها بإصبعيها، وقد لوَّثت الصدريَّة -أو صدريَّة من كانت؟- لكن المغزى وصل، فإن الذئبة انسحبت إلى داخلها مذعنة كجرو صغير.

قالت، وهي تفرد صدرها: «أرأيت؟ ذاك صدر امرأة، لا صدر ذئبة. وإن جاز لي القول، صدري مثال نادر في البهاء».

- حقًّا؟

- حقًّا. وبلا شك.

قال: «إذًا، إن كنتِ نظيفةً من الداخل...»، والتقت عيناه وامرأة تمرُّ، فترنَّحت كمن صُفع، وارتعشت جفناها، فقال: «أبارك لكِ...». ثم اقترب منها، وشفته تتقلَّبان، ولسانه يلامس رأس نابه، وعيناه شاخصتان إلى عنقها...

ثم انتزع نفسه بصعوبة ومضى.

وسمعت ڤيجا همسًا منه تحت أنفاسه: «ليتني كنت كذلك».

59

التسوية المرضية

قاعة العرش في طروادة فضاء صُمِّم بعناية ليبعث المهابة في النفس. وحسب ظن الأخ دياز نجح في ذلك. فأول ما يُذكر هو مكانها. إذ يُروى أن العرش كان فيما مضى في قاعة استقبال عظيمة في الطابق الأرضي من القصر، غير أن أحد المستشارين من ذوي الحيلة، أوصى بنقله إلى الأعلى، بل إلى أعلى موضع يُبلغ، إلى الطابق الأقصى من المنارة، تحت لهيب القديسة نتاليا مباشرة. فحتَّى أعتى السفراء كبرًا لا يسعه إلا أن يُبهر بمنظر العلياء المنبسط خلف النوافذ العظام. وحتَّى أكثر الزعماء طغيانًا يتلقى، دون كلام، تذكرةً صارخة بالهاوية السحيقة التي تنتظر من يثير سخط مولاه. وحتَّى أشد المتضرعين بأسًا يصل راكعًا، وقد هشَّت ركبتاه من قسوة السلالم، لا ترجوان إلا الانحناء.

ثم يجيء بعد ذلك استعراض الثروة الساحق. أعمدة من رخام من شتَّى الألوان، آنية من الكهرمان بطول رجل، أستار من قماش مذهَّب، كنوز مهداة من أقصى المتوسِّط إلى أقصاه تتنافس على إذهال البصر. ثم هنالك سلاح ودروع معلَّقة على الجدران، تكفي لتجهيز فيلق. رماح دقيقة من إفريقيا، وسيوف ذات مقابض مذهَّبة من الصحاري، وفؤوس من الشمال المتوحِّش، وسيوف من الغرب العنيد، إشارات ماضية إلى قرون من انتصارات الطرواديين على كلِّ وافد. بل، في صدارة العرض،

رماح معقوفة، وخناجر مشرشرة، وسهام قاسية ذات صنعة غريبة تنشر في النفس رجفة رعب. تذكارات من الحملات الصليبية على الإلفيين، وشهادة على إمكانيَّة الظفر تلمع في كل زاوية من القاعة.

ثم، أخيرًا، عرش الأفعى نفسه: هيكل شامخ من أفاعٍ ملتفَّة، منحوتة من حجارة شفَّافة مختلفة الألوان، يتلألأ نورها من النوافذ وراءها حتَّى كأنها تلتفُّ حيَّة، وأنيابها بارزة. مقعد يليق بجَبَّار من أساطير الزمن. وهو ما جعل فكرة جلوس أليكس عليه تبدو -حتَّى في عين الأخ دياز- شيئًا من العبث.

ولم يبدُ أن أحد يدرك ذلك أكثر من مدَّعية العرش نفسها، جالسة شاحبة مهمومة على مقعد صغير عند أسفل درج العقيق، على رأس مائدة مصقول لمعانها، تعبث بأطراف أظفارها في قلق.

عن يسارها السيدة سيفيرا، وصيَّة بلاط القصر الفخمة الوقور، وعن يمينها مايكل، دوق نيقيا المشهور. إلى جانبه جلس الصليبي الخالد يعقوب الثورني، كأنَّه جزيرة من التجهُّم الرمادي في صحراء من الألوان المبهرة. وفي مواجهته جلس الأخ دياز. أمين مكتبة معاون، من دير لم يسمع به أحد في ليون، فضلًا عن طروادة. رتَّب كدسات دفاتره، وصكوكه، ووثائقه التي أتى بها -كأنما النجاح رهين باصطفافها المحكم المتوازي مع حافة المائدة- ثم، بعد أن رفع دعاءً خافتًا إلى القديسة بياتريكس، أومأ إلى أليكس.

فكأنما ممثلة خلف الستار تستعد للصعود إلى المسرح، فردت كتفيها، وصفعت خديها، ومطَّت عنقها، وأزهرت في وجهها ابتسامة واثقة، حتَّى بدت مهيبة، هادئة، حتَّى بانت عليها لمحة ملكية.

قالت: «نحن جاهزون!».

فانحنى كبير الوُكلاء، وهو رجل يبدو كأنَّه قضى جلَّ عمره منثنيًا عند الخصر.

قال: «إذًا أتشرف بتقديم من اجتمع من الممثِّلين... عن النبلاء... من إمبراطورية طروادة!»، وانزلق جانبًا كسرطان البحر، في حين فتح حارسان مدجَّجان بالأطراف أبواب القاعة الشاهقة.

قال بصوت جهوري كأنه يُعلن النصر النهائي على الإلفيين: «الدوق كوستاس فرانتزِس دوكوس، دوق إيوليس وأيونيا! وصيُّ جزر ليسبوس وبيلوس، حامي بلوماري، أميرال الأسطول الإمبراطوري الخامس، فارس الوردة من الدرجة الثالثة!».

أما الدوق كوستاس، فما بدا عليه شيء من المهابة، واكتفى بأصغر إيماءة تجيزها الأصول نحو أليكس، ثم سار إلى مقعده بأنف في الهواء.

قال كبير الوكلاء: «الدوقة هيلين تزامبلاكون آرسينيوس جيلاند من تراقيا...»، وعبرت العتبة امرأة هرِمة، ترتدي شعرًا مستعارًا هائلًا، ترفض بعصبية يد خادمٍ أراد مساعدتها.

ومضى الأمر على هذا المنوال، قصفٌ من الأسماء الثقيلة، يليه وابل من الألقاب، والمناصب، والتشريفات. حتَّى غصَّت المقاعد ببطء شديد، وباتت الأميرة أليكسيا المتألقة وحاشيتها الأربعة محاصرين بخمسة أمثالهم من النبلاء المتأفِّفين، رجالًا ونساءً، حتَّى إن الأخ دياز تساءل: أيفترض بهم بعد الانتهاء من الأسماء أن يخرجوا لتناول الغداء؟ أو لعلَّه العشاء؟

قال كبير الوكلاء: «وأخيرًا...».

قالت أليكس هامسة، وهي تعلو بابتسامتها: "آه، نعم!».

قال كبير الوكلاء: «... الدوق أركيديوس...».

قالت أليكس، وقد كادت ابتسامتها تفلت من وجهها: «آه، لا!».

قال كبير الوكلاء: «... الابن الأكبر لصاحبة الجلالة الإمبراطورة يودوكسيا، الأميرال الأعظم ل...».

فربَّت أركيديوس على كتف كبير الوكلاء وقال: «هم يعرفون من أكون»، وغمز له غمزة متآمرة.

كان طويلًا، نحيلًا، حسن الهيئة، يحمل في جسده ثقة المتنعِّم الذي لم يسمع لفظ «لا» قط. نظر إلى أليكس بابتسامة نصف مغلقة الجفن، لا تشبه قط سخرية إخوته المسمومة. وقد شعر الأخ دياز فورًا بعدم الاطمئنان إليه. فإن نيَّة إخوته القاتلة كانت ظاهرة جلية منذ البدء. أمَّا أركيديوس، فما يزال لعبه خفيًّا.

قال: «لا بدَّ أنكِ ابنة خالتي أليكسيا»، ثم ضمَّ كعبيه معًا، وانحنى انحناءة كانت -بلا ريب- أكثر لياقة من كل الضيوف.

قالت، تحدِّق إليه: «أأخيب ظنَّك؟».

ارتمى على الكرسي عند ذيل المائدة، وأماله على قائمتين، وألقى بأحد خُفَّيه فوق سطحها المصقول، وجعل يتبسم مُديرًا ناظريه في أرجاء الغرفة: «أنا؟ أبدًا! أنا سريع الرضا، اسألي أي أحد».

قال دوق، وقد نبت له شارب هائل أخفى معظم وجهه، وهو ينهض مترنِّحًا: «أتكلَّم باسم الجمع... لا شك... حين أقول إننا مسرورون... بعودة ابنة إيرين... إلينا».

وما بان في أحد السرور، حتَّى هو نفسه.

- لكن، قبل أن نُعنى... بصعود سموِّكِ إلى العرش، فهنالك بعض... المظالم... والمطالب... والديون... ينبغي تسويتها.

قال الدوق مايكل، بجفاف: «الأول في السلسلة هو الأول، سواء أعجبكم ذلك أم لا. إنها أليكسيا پايروجينيتوس!».

وعند نطق الاسم، وكأنها أدركت أنها لا تبلغ مقام روعته، جلست أليكس بأشد ما تقدر من الاعتداد.

- ابنة إيرين، وُلدت في منارة طروادة، ونُصِّبت الوريثة الشرعية الوحيدة لعرش الأفعى من قِبل البطريرك والبابا معًا. أليس في إمبراطورية الشرق بقية من توقير؟ من ولاء؟ من واجب؟

قالت كونتيسة لها عنق طويل، وجملها قصيرة متقطِّعة، فذكَّرته برُخ من طيور الماء: «بلى. يا دوق مايكل. ولكن. السيوف ذات حدَّين. والإمبراطورة لها واجب تجاه رعيَّتها».

قالت دوقة عجوز، بصوت أجشَّ، وعيناها ذاهلتان إلى موضع عن يمين أليكس: «واجب الرعاية... وواجب العدالة».

قال أحدهم: «لم يكن عهد يودوكسيا... هيِّنًا على أحد...».

غلظ مايكل صوته: «كان أشد على بعضٍ دون بعض».

قال كونت ذو قبَّعة مذهَّبة: «ولكنَّنا جميعًا... نرغب في عهدٍ جديد من الاستقرار والرغد، وأن يكون طريق العرش ممهَّدًا...».

فقال أركيديوس، وهو ينفض ذرَّة غبار عن صدر بزَّته ويفتلها بين الإبهام والسبابة: «لا أن يكون معركة قضائية لا نهاية لها في غابة من الاعتراضات».

ثم قال: «والآن، مَن أول المتذمِّرين؟».

دفعت الدوقة العتيقة ذقنها إلى الأمام، فتضرجت اللغاديد تحتها واضطربت: «فلنبدأ... بالأقدم منزلة؟».

وقال الكونت الضخم بصوت مدوٍّ: «أو بحجم الأملاك؟».

وقال الدوق انفجر شعره الأشيب في كل جهة: «أو بعدد الألقاب؟».

فجدَّدت أليكس ابتسامتها، ووجَّهتها نحو المقعد الأيسر الأقصى.

قالت: «ولِمَ لا نسير حول المائدة على التوالي؟».

قال ذو الجبهة الفسيحة: «حسنًا يا صاحبة السمو. أنا، كما لا شك بلغكِ، الدوق كوستاس فرانتزس دوكوس. أسرتي قد احتفظت، على

مدى قرون، بإقليمَي إيوليس وأيونيا نيابة عن أسلافك. غير أن التاج، طيلة أكثر هذا الزمن كان يدير قاعدة بحرية في جزيرة ليسبوس. ومع تزايد الثكنات والمخازن والتحصينات، لم يعد في وسع أسرتي ممارسة حقِّها في رعي الأرض وصيد المياه...».

وبينما هو يواصل حديثه كالماء الراكد، مرر الأخ دياز إصبعه على قائمة المطالب، ويقابلها بملاحظاته الخاصة، ثم يقلب في دفاتره إلى العلامات التي وضعها، وينظِّم أوراقه كما يُعدُّ الفارس عدته قبل النزال.

قال الدوق مايكل، مقاطعًا: «دعني أفهم الأمر. أأنت تطلب من ابنة أختي أن تدفع لك أجرة حمايتها؟».

قال الدوق كوستاس: «لا أطلب سوى تعويض عادل، لا أكثر! وقد قدَّر وكيل أملاكي ما لنا من ديون مستحقة...».

خفق قلب الأخ دياز الآن، كما يخفق قلب الفارس عند دخوله حلبة المبارزة. فما عهدَ الخصومة في مجال القانون ضد خصوم ذوي شأن، لكنه قد جرب ما هو أصعب حين قذف بنفسه من سفينة مشتعلة، وخرج منها حيًّا. بثيابٍ ملطخة، نعم، لكن حيًّا. فأعطى قارورة القديسة بياتريكس ضغطة أخيرة، ثم نهض دفعة واحدة قبل أن يتغلَّب عليه التردُّد.

قال، بصوت أعلى مما ينبغي: «يا أيها السادة والسيدات! أتسمحون لي بالحديث؟».

وساد صمت كريه، التفتت فيه جميع الأعين إليه، إلا عيني الدوقة العجوز، فقد كانت تحدِّق فوق كتفه الأيسر.

قالت: «من يكون هذا... الشخص؟ راهب؟»، وقد نطقت لفظ «شخص» كأنها لم تُجز له بعدُ دخول جنس البشر.

قالت السيدة سيفيرا: «انتُخب بأمر من قداستها، ليؤمِّن وصول سموِّها إلى طروادة».

فقال الكونت الضخم: «آه! راهب محارب!».

قال الأخ دياز، وهو يصقل حنجرته: «في الحقيقة... أقرب إلى... أمين مكتبة».

قال أحدهم ساخرًا: «دودة كتب؟»، فضحك الجمع.

قال دياز: «دودة كتب لا يُرجى شفاؤها».

ثم أطلق ابتسامته الودودة، تلك التي يستعملها قبل عرض أي حجة. وقال: «فتصوَّروا مدى بهجتي إذ أُذن لي، بفضل السيدة سيفيرا الفاضلة، بدخول أرففكم العجيبة في دار الحكمة المدهشة تلك».

ثم وضع يده في حنوٍّ على الكتب والأوراق التي جمعها. وقال: «كنت أظن أننا نعرف شيئًا أو شيئين في أديرة الغرب، لكنني في الأيام الأخيرة تعلمت عن الأرشفة ما لم أتعلمه في عشر سنين راهبًا!».

قال كونت مسنٌّ، يرفع بوق أذن: «ما الذي يقوله؟ ما تقول؟».

قالت الدوقة العجوز، وهي تتهالك في كرسيها: «لا فكرة عندي. يهذي بكلام لا يُفهم».

قال دياز، ضاحكًا وهو ينشر كنوزه على سطح المائدة المصقولة: «لستِ أول من قال ذلك! وسأبلغ الغاية من قولي...».

قال الدوق ذو الشارب العظيم مازحًا: «إن... كانت لك غاية أصلًا»، فضحك الحضور من جديد.

قال دياز: «هذه الصكوك، وتلك السجلات الموازية في دفتر أملاك دوقية أيونيا، تُثبت أن الأرض المعنيَّة كانت دومًا من ملكية التاج، لم تُمنح لأسرة فرانتزِس إلا على سبيل الإيجار. وإن نظرتُم إلى تواريخ الأختام، لرأيتم أن عقد الإيجار قد انتهى منذ قرنين من الزمان».

قال الدوق كوستاس، وقد قطب جبهته من الذهول: «ماذا؟».

قال دياز، متنهِّدًا كطبيب يزفُّ نذيرًا سيئًا: «وأخشى... أن الأمر لا يقف عند هذه الأراضي. لقد ظللتم ترعون، بل تبنون، في مساحات واسعة من أملاك التاج منذ عقود».

ثم دفع بالورقة الرابعة عبر الطاولة، وسوَّاها بدقَّة أمام الدوق. وقال: «وهذه تقدير لما أنتم مدينون به».

فغدت الجبهة المهيبة شاحبة، والدوق يقلب النظر في الورقة. وقال: «أهذا الرقم صحيح؟».

فرفع دياز يديه وقال: «تقديرٌ عُجِل به. وقد يرتفع على أقل تقدير».

وسُمع همس متضايق وهو يغمس القلم في الحبر، يصفِّي رأسه، ثم يشطب أول بند من قائمته.

لكن الضحك انقطع.

قال وهو يلتفت إلى التالي: «والآن، دوق أولوجيوس من بافلاجونيا؟»، وكان وجهه محمرًّا كأنه قد سُلِق.

قال: «تزعم أن التاج مدين لك بعدة سفن حربية؟ أخشى أن يكون قد وقع التباس في قراءة العقد الأصلي...».

فلما انعقدت المنازلة القانونية، شعر الأخ دياز بالطمأنينة، وكان بهاء المكان لا يثبطه، بل يحمِّسه ويشحذ ذهنه. فقلَّب الصفحات كالعاصفة، ويُقابل البيانات كالصاعقة. وقد بلغت المبالغ حدًّا هائلًا -إذ في موضعٍ ما، انتقل ملك مدينة بأسرها إلى عرش الأفعى- لكن الأصول لم تختلف كثيرًا عن منازعات حقوق تخمير الجعة في أديرة أستوريا. فقدَّم تنازلًا في إصلاح جسر، ثم واجه بمطالبةٍ عن صيانة الطرق تساويها عشرة أضعاف. وهجم بالحسومات والفوائد المركَّبة، واستخرج دقائق فقه المناجم. وظنت الكونتيسة طويلة العنق أنها اصطادته في مسألة مصايد السمك، لكنها انكمشت حين علمت أن حجَّتها تنفي عنها نصيبها من الممرات البحرية الثمينة. حتَّى كأن المرء شعر بتحول كفَّة السلطة.

جلست أليكس أرفع قامة في كرسيها المذهَّب، وغدا وجه الدوق مايكل من مُظلم إلى شامخ.

وهل رُؤيَ على طرف فم السيدة سيفيرا ابتسامة تكاد لا تُرى؟ وأخذ دياز يشطب الشكاوى من قائمته واحدةً إثر أخرى، حتَّى بلغت الشمس ذروتها ثم مالت نحو الغروب. وما قطع الأخ دياز الجلسة لغداء. فما احتاج إلى طعام. كان وقوده الإدارة الخالصة. أما آخر الأرستقراطيين، الكونت جوليان، فقد اغتمَّ أشد الغمِّ لما كشف الأخ دياز أن وثائقه مُزوَّرة، بل رديئة التزوير. فوضع قبضتيه إلى جانبي الوثائق المُحرَّفة، ونظر إليه نظرة من نار.

قال: «أقسم بالرب، لولا أنك رجل دين، لطلبت إنصافي منك في ميدان القتال!».

وإنَّ الأقوياء حين تُحبطهم الحجَّة، يلوذون بالوعيد، ظنًّا منهم أن الضعفاء يرضخون للتهديد. وقد عُرض دياز لمثل ذلك في سالف أيامه، لكنه تذكَّر قول المخلِّصة: لا يبلغ المرء كماله إلا إن ابتُلي. وأدرك عندها كم تغيَّر منذ أن غادر المدينة المقدسة. فقد أبصر ما لا يُتخيَّل، ونظر في أعيُن الوحوش الحقَّة. فما كانت تهديدات هؤلاء المعطَّرين لتثير فيه غير ابتسامة كتمها. لكنَّ التواضع هو أول الفضائل الاثنتي عشرة، ومنها تنبع سائرها، لذلك لم يردَّ الأخ دياز إلا أن مدَّ يديه وقال: «أنا رجل كتب ليس إلا. وإن قاتلتك، فليس لي إلا أن أجرحك بقَطع ورقة. فإن كنتَ مصرًّا على المبارزة...».

قال يعقوب الثورني، هادرًا: «فحدثني أنا ورفاقي. فلعَّا يعجز الأبرار عن حلِّ مشكلةٍ لدى قداستها... ترسلنا نحن. نحن من أوقف الدوق مارسيان، والدوق قسطنطين، والدوق ساباس عن حضور هذا المجلس. صدقني حين أقول...».

أتمَّت أليكس القول: «... إنكم تفضلون التعامل مع الراهب».

ساد صمت ثقيل غير مريح، لكن اللافت فيه أن أحدًا لم يلجأ إلى العنف. وكانت تلك أول مساهمة ليعقوب في الجلسة، وآخر ما احتاج إلى أن يقوله.

قال الأخ دياز، باسمًا للجمع: «لا شكَّ أن ما سمعتم قد خيَّب آمالكم. لكني خيَّبت آمال الناس طيلة عمري، وليس لي إلا الاعتذار، غير أنني لم أخدش سوى السطح. فإن رأت سموُّها أن أواصل عملي في دار الحكمة... فما أدراني كم من المظالم والمطالب والديون سأكشفها بعد؟».

فالتفت الدوق مايكل إلى ابنة أخيه وقال: «أتأذنين يا صاحبة السمو للأخ دياز أن يواصل عمله في دار الحكمة؟».

فمالت أليكس إلى الوراء في كرسيِّها، وشدَّت شفتها السفلى في تفكُّر، وطقطقت بطرف ظفرها على مسند الكرسي، لتَدَع القلق ينمو في قلوب النبلاء الطامعين.

قال الأخ دياز، معرِّضًا: «لا شك أن من أبدوا رغبتهم... في إعلان ولائهم الخالص للأميرة... يمكنهم، في مفاوضات لاحقة، أن يعوِّلوا على سخائها، وطول أناة جلالتها؟».

فبدت ابتسامة أليكس أكثر صدقًا من ذي قبل. وقالت: «تلك هي الصفات التي عُرفت بها دائمًا».

فوثب الدوق كوستاس واقفًا وقال: «فدعوني أكون أوَّل من يُقسم الولاء للإمبراطورة المقبلة!».

وصاح دوق بفلاجونيا: «وأنا الثاني! لا أطيق صبرًا لرؤية سموِّك على عرش الأفعى!».

ونهض ثلث الجمع يعلنون الولاء لفتاةٍ لم يكن مضى على تسوُّلها في شوارع المدينة المقدسة غير أشهر معدودات. أما الثلث الثاني، فقد تمتموا وتلفَّتوا وتحفَّظوا. والباقون عبسوا وتذمَّروا. فاستدار الدوق ذو الشارب العظيم إلى أسفل الطاولة وقال: «ألك قول، يا دوق أركيديوس؟».

قال أركيديوس، وقد نهض وجمع قبضتيه أمامه، وعيناه ترمقان عرش الأفعى بظلال لا تُحبُّ: «بلى، وقولي هو هذا».

ثم قال، وانفجر ضاحكًا: «لا تعبث أبدًا مع أمين مكتبة».

قهقه، ثم خفت ضحكه، ثم تنفَّس تنهيدة طويلة، ومسح عينيه بمفصل إصبعه وقال: «والآن، ثمة أمر عليَّ أن أُناقشه مع سموِّها، قد يُلقي على كل هذا ضوءًا مختلفًا. شيء يحسن أن يُناقش دون حضور ممثِّلي أرستقراطيَّة الإمبراطوريَّة. وأرجو أن نغادر القاعة في وقتٍ أقصر مما استغرقناه للدخول!».

لكن أركيديوس ما كان بحاجة إلى القلق من تلك الناحية. فكما هو حال منازلات الملاكمة، يتبختر الكثير عند الدخول إلى الحلبة، لكن المنهزمين يغادرونها سريعًا لا التفات لهم.

وما إن انغلقت الأبواب، حتَّى ضرب أركيديوس الطاولة بكفِّه، ونظر إلى الأخ دياز مبتسمًا: «يا ابنة الخالة، أعجبتُ كثيرًا بسفَّاحكِ المبتسم! ظننت ذاك الفارس ذو وجه كمطرقة قديمة هو القاتل، لكن راهبكِ هو من ارتكب مذابح هذا الصباح!».

وأشار بازدراء نحو الأبواب. وقال: «دعكِ من أولئك الحمقى، فهم ككل الكلاب الصغيرة، لا بُدَّ لهم من كلب كبير يلتفُّون حوله. سينهش النبلاء بأسنانهم، لكن، في نهاية المطاف... إن رضيتُ أنا، رضوا».

ضيَّقت أليكس عينيها وقالت: «كنت أشتري وأبيع قليلًا. وغالبًا ما أبيع. ومن يبيع، يدرك متى كان المشتري قد أبرم الصفقة في رأسه سلفًا».

قال أركيديوس، وقد بدت عليه بعض الحيرة: «بل تعلمين أني كذلك. علينا جميعًا أن نُجري تسوية، ونلتقي في منتصف الطريق، من أجل صالح الإمبراطوريَّة، أليس كذلك؟ أعني، هي ليست فكرتي أصلًا...».

ثم نظر إلى الدوق مايكل، الذي بدا عليه الضيق المفاجئ، ثم إلى أليكس، وقد احمرَّ وجهها بالذهول، ثم عاد إلى مايكل وقال: «ألَم تُخبرها؟ أنت خالي أيضًا، لكنها حماقة بالغة».

قالت أليكس، وقد شحب لونها: «عن ماذا يتحدَّث؟».

لكن الأخ ديان، في تلك اللحظة، فهم اللعبة التي يلعبها أركيديوس. بل ربما كانت لعبة الدوق مايكل منذ البدء. فقال، بصوت خافت: «يتحدث عن الزواج».

وكانت كتفا أليكس قد بدأتا تنكمشان مجددًا حين قالت: «الزواج... بمن؟».

قال يعقوب، مغتمًّا: «ليس بي قطعًا».

قال الدوق مايكل، معتذرًا: «آسف يا أليكس».

قالت أليكس، وقد علت نبرتها: «أنا؟ أنا وهو؟ أنا؟ وهو؟».

قال أركيديوس، وقد نهض ضاربًا فخذيه: «كان لقاءً لطيفًا، لكني أرى أنكِ تملكين كثيرًا مما يجب التفكير فيه، وأفترض أني الآن في انتظار جوابك على عرضي؟ أعني... يمكنني أن أركع على ركبة؟ أيساعدك ذلك؟ لا؟ لا».

وما إن أغلق الحرس الأبواب من خلفه، حتَّى تلاشت آخر قطرة من مهابة أليكس للإمبراطورية.

قالت، وهي تستدير إلى خالها صارخة: «ما هذا الحمق؟!».

وكان وجه مايكل كوجه قبطان يُدخِل سفينته إلى العاصفة حين قال: «أرجوكِ يا صاحبة السمو، خشيت إن أخبرتكِ أن ترفضي...».

قالت: «حقًّا؟ ظننتَ هذا؟ عليَّ أن أقطع رأسك! أيمكنني قطع رأسه؟».

فقالت السيدة سيفيرا، بهدوء تأمُّلي: «الآن؟ لا أنصح. بعد التتويج؟ بكل تأكيد».

قال مايكل، وهو يفرك كفيه: «أليكس! عليكِ أن تري وجه الحكمة في هذا. في ضربة واحدة تجعلين من ألدِّ أعدائك أوثق حلفائك! من دون أركيديوس سيكون عرشُكِ هشًّا، بالكاد تتمسَّكين به، وستقضين الليالي والأيام في القتال لتبقي. لكن إن صار قرينك، فلن يجرؤ أحد من الحمقى على معارضتك. يمكنكِ أن تحكمي حقًّا! يمكنكِ أن تفعلي الخير!».

وضعت أليكس يدها على بطنها وقالت: «أظنني سأستفرغ. سيدة سيفيرا، كلميه!».

تريَّثت وصيَّة البلاط لحظة، ثم وضعت يدًا ناعمة على سطح الطاولة. وقالت: «أركيديوس ليس كإخوته. هو رجل متروٍّ، ماكر، سياسي بارع... محبوب من النبلاء والعامَّة على السواء».

قالت أليكس، وقد أمسكت برأسها: «لا تقولي إنكِ تؤيدين هذا!».

قالت سيفيرا: «ثم إن هنالك مسألة النسل الحساسة. فإن أردتِ العرش آمنًا، لا بُدَّ أن تقدِّمي وعدًا لا بحُكم فحسب، بل بسلالة. لا بُدَّ من وعود بورثةٍ للعرش».

قالت أليكس، وقد شخص بصرها وارتفع صوتها: «ورثة؟! يعقوب!».

فأطلق الفارس العجوز نخيرًا مرًّا وقال: «فراشكِ شأنكِ...».

قالت منتصرة: «بالضبط!».

قال: «لكن...».

فخفتت فرحتها.

- من وجهة نظر عسكرية... أركيديوس يسيطر على الأسطول. ويمتلك الحصون المهمة. وله الدخل والموارد. وها أنتِ مُحاطة بالأعداء يا صاحبة السمو. وهذه الخطوة وحدها كفيلة بنقلكِ من الضعف إلى القوَّة.

قالت أليكس، منكفئة أضعف مما كانت قبل دخول النبلاء: «لكن... وعدتُ الكاردينالة زيزكا...».

قال مايكل، منفجرًا: «إنه فكرتها! قالتها لي قبل مغادرتي المدينة المقدسة!».

تألَّم الأخ دياز، إذ إنه تطلَّع إلى لحظة يُمدح فيها لأول مرَّة ربَّما. لكن بدا أن الجميع منشغلون الآن بما هو أضخم من أي مدح. وألقت أليكس عليه نظرة مستنجدة، نظرة من يعرف أنه قد فقد زمامه. وقد كرس دياز عشرة أعوام من عمره في خدمة الكنيسة، فكان تعاطفه معها يسيرًا. لكن المشكلة في التعاطف أنه لا يمنع زواجًا سياسيًّا طارئًا. فقال، ناشرًا كفَّيه للمرة المئة في ذاك اليوم: «حسنًا... قد يحلُّ حقًّا عددًا كبيرًا من المشكلات...».

مكتبة
t.me/soramnqraa

60

ليس لا شيء

صرخت أليكس وهي تخط ذهابًا وإيابًا في غرفة النوم، والتي كانت رحلة طويلة في كل اتجاه: «اللعين أركيديوس!».

أما ساني، فرقدت على السرير، وهذا حالها في الآونة الأخيرة. كم من مرَّة أُتيحت لها أن تستلقي على فراش وُلد عليه ورثة إمبراطورية؟ بل، على أيِّ فراش أصلًا؟ قالت وهي تنظر إلى السقف: «رأيتُه حين دخل... لم يبد بذلك السوء...».

قالت أليكس: «إنه أسوأ الأربعة اللعينين!».

صادفت ساني في حياتها أناسًا بغاية الفظاعة، غير أن مارسيان وقسطنطين وساباس، كلٌّ بطريقته، كانوا أفظعهم. فنهضت على مرفقيها وسألت: «وماذا فعل؟».

قالت أليكس، صارخة وقابضة قبضتيها: «طلب أن يتزوَّجني!».

قالت ساني: «آه». وما كان عندها غيرها.

ولم تُشعر الكلمة أليكس بأي تحسُّن، بل جلست على طرف السرير، ودفنت وجهها بين يديها.

البشر أغرب الخلق، فكَّرت ساني. ولو كانت مثلهم، لعلَّها عرفت ما يجب قوله، لكنها لم تكن، فما عرفت. ورغبت بشدَّة أن تأخذ نفسًا عميقًا،

وتختفي، وتنسلُّ من الغرفة، وتتناسى أن هذا الحديث وقع أصلًا. وهي بارعة في تناسي ما وقع، من واقع خبرة طويلة.

لكن يعقوب يقول دومًا: «الحياة ليست في أن تفعل ما هو سهل».

وهو يعرف، لأنه عاش قرونًا، وفي كل مرَّة يفعل الأصعب. فأخذت ساني نفسًا عميقًا... ولم تختفِ. بل زحفت وجلست إلى جانب أليكس. وقالت: «عندي شيء أريكِ إياه».

لكن أليكس لم تُجب، فدفعتها ساني بكَتفها. وقالت: «سيُشعرك بالتحسُّن».

ففتحت أليكس أصابعها، ونظرت من بينهما، نظرة جانبية.

- أهي جثة أركيديوس؟

- ليس إلى هذا الحدِّ من التحسُّن.

ثم أخذت معصم أليكس، وسحبتها معها عبر الغرفة، إلى المعبد. تراقصت جزيئات الغبار في ضوء الزجاج الملون، والمخلِّصة تُكسر على عجلة العذاب بأيدي أعداء الربِّ الجائعين، كما هي العادة.

قالت أليكس: «أتقودينني إلى الصلاة؟».

- أبدًا.

ثم انكمشت ساني على الجدار، تمرِّر أصابعها على الزخارف حتَّى عثرت على المشابك المخفية، موضوعة في أصعب المواضع. فضغطت عليهما معًا. فصدرت طقطقة خفيفة، وانفتح لوح من الجدار إلى الداخل، كاشفًا عن مربع من الظلمة المطبقة.

قالت أليكس، وقد علا في صوتها طيف من حماسة، بالضبط ما أملته ساني: «باب سرِّي؟! أليست هذه فقط في الحكايات الرديئة؟».

قالت ساني: «وبعض القصص الجيدة أيضًا».

وكان هناك مصباح صغير داخل الباب، صنيعة بارعة، يُشعل شرارة حين يُنزَل الغطاء الزجاجي. فأشعلته ساني، وتوهَّج الفتيل، وانكشف ممرٌّ يكفيهما وهما واقفتين، وليستا طويلتين أصلًا.

- وكيف عثرتِ عليه؟

قالت ساني: «ليس لي ما أفعله في يومي». ثم دخلت الممرَّ، وجذبت أليكس خلفها: «فحين شعرت بنسيمٍ خفيف، تبعتُه».

انعطف الممر يسارًا، تبعًا لانحناء البرج، ضيِّقًا حتَّى إن أليكس وهي ذات أكتافٍ ضئيلة، اضطرت إلى ضمها لتنفذ، متجنِّبة شِباك العنكبوت.

قالت ساني: «لكن مكان كهذا؟ يُخيب الأمل إن لم يكن فيه ممرٌّ سريٌّ أو اثنان».

وبدا ضوء النهار على حوافِّ الحجارة، ثم انزلقتا إلى حجرة مقبَّبة صغيرة، فيها مقعد مغبَّر تحت شقٍّ نافذة.

قالت ساني: «موضع اختباء. إن احتاجت الإمبراطورة إلى هربٍ سريع».

قالت أليكس، تنظر إلى درج ضيِّق حلزوني: «هو بالضبط ما أحتاج. وإلى أين يفضي؟».

- ينزل إلى غرف الضيوف، والمطابخ، والمخازن. ويصعد حتَّى قاعة العرش.

منظرٌ عجيب من هناك.

فانهارت أليكس على المقعد: «لستُ واثقة بأني أقدر على التسلق».

ثم أدارت ظهرها إلى الحائط، ورفعت قدميها الحافيتين على المقعد، وضمَّت ركبتيها إلى صدرها.

قالت ساني، ببطء: «ما خُطبتُ لأحدٍ من قبل، لكن المؤكَّد، مقارنةً -مثلًا- بأن تصدمك سفينة... أنتِ تملكين حقَّ الرفض؟».

قالت أليكس: «في هذه الحالة، لا أحد يظنَّ ذلك».

ومرة أخرى لم تعرف ساني ما تقول. فقالت: «أوه».

حدقت أليكس حزينة عبر النافذة إلى الأفق، والنسمات تعبث بشعرها: «يقول الدوق مايكل إنني أستطيع تحويل ألدِّ أعدائي إلى أوثق حلفائي بكلمة».

قالت ساني: «والحلفاء شيء طيب».

- وتقول السيدة سيفيرا إن وعد النسل يجلب الاستقرار.
- كل الناس يحبُّون... الاستقرار.
- ويقول يعقوب إن في ذلك حكمة عسكريَّة. وإن أركيديوس يملك الأسطول، ويقدر أن يُجَوِّعنا حتَّى الموت في أسابيع.
- وقد نسي يعقوب من الشؤون العسكريَّة ما لن أعلمه أبدًا. لكنني جرَّبت الجوع، ولا أنصح به.
- ثم يقول الأخ دياز إن هذا يحلُّ مشكلات كثيرة.
- نعم.
- وقد بدا عليه الأسف حين قالها. دائمًا يبدو عليه الأسف. لكنه لا يغيِّر شيئًا أبدًا.
- عدد كبير من الأسباب.

وأحسَّت أن أليكس تنتظر منها أن تذكر أسبابًا لئلَّا تتزوَّج أركيديوس، لكن ليس من شأن ساني أن تفعل. وبعد لحظة، تكلمت أليكس.

- ربما لاحظتِ... لستُ من صنف النساء اللائي يتزوَّجن.
- لكن لا أظن أن للإمبراطورة في ذلك خيار.
- صرت أحسب أن للإمبراطورة خياراتٍ أقل من السارقة.
- لكنك تملكين ثيابًا أبهى.

قالت أليكس، تزمُّ شفتيها، ناظرةً إلى النافذة: «لا أظنه أوان المزاح».

- فكوني جادَّة إذًا.

- ماذا؟

قالت ساني، تهزُّ كتفيها: «قد آن أوان الجدِّ. أنتِ الإمبراطورة أليكسيا پايروجينيتوس، المولودة تحت اللهيب!».

لكن أليكس جلست ملتفَّة في تلك الكوة، كأنها أسيرة تتلمَّس نسمة على خدِّها، لا وريثة عرشٍ مقدَّر لها.

قالت، بصوت خافت: «لا. لستُ كذلك».

- ليس بعد، ربَّما، لكنك ستكونين. أنتِ الأميرة أليكسيا...

صرخت أليكس: «لا!». ثم أطبقت عينيها، واحتضنت ركبتيها بشدَّة.

- أنا لست اللعينة أليكسيا!

رمشت ساني، وسألت في اضطراب: «ماذا تعنين؟».

قالت أليكس، وقد انفجرت بالكلمة: «أمي كانت تبيع الجبن!». وفي وجهها من الغضب ما جعل ساني تتراجع خطوة.

- ما كانت وريثة لأي عرشٍ ملعون، إلا إن كنتِ تعدِّين الكُرسي الذي تحلب عليه عرشًا!

رمشت ساني مرَّة أخرى.

قالت أليكس: «أمي كانت تبيع الأجبان، ثم ماتت، لأن هذا مصير الناس». ثم تسرَّب الغضب من أليكس كلُّه، ووهنت مرَّة أخرى، ثم أعادت وجهها إلى النافذة، والنور يصبغ أحد شِقَّي وجهها: «وأبي كان يحفر الخنادق، ولمَّا بلغتُ السابعة من عمري، أخذني إلى المدينة المُقدَّسة في رحلةٍ مخصوصة، ولمَّا بلغناها قال إنَّه لا طاقة له بنفقتي، فباعني إلى جال ذات الصرة لأكون سارقة، وهناك... هناك لقيتُها».

قالت ساني بتردد، ولم تكن واثقة بأنها تريد السؤال، ولا أنها تريد الجواب: «لقيتِ... من؟».

قالت أليكس: «أليكسيا».

فرمشت ساني مرَّة أخرى وقالت: «آه».

قالت أليكس، وهي تُخرج قطعة نحاسية صغيرة على سلسلة في عنقها: «وذات يوم، أرتَني هي العملة».

نصف قمر من النحاس الصافي، مقصوص قصة خشنة. قالت: «ثم أرتَني الوحمة، وأخبرتني من تكون.

لم أصدِّق. من يصدِّق ذلك؟ عرش الأفعى؟ هراء في هراء!». ثم عبست، وراحت تعبث بإصبع قدمها وقالت: «لكنني رأيتُ أنها تُصدقه، وكنتُ أغار منها كثيرًا. لأنها كانت تظنُّ نفسها شيئًا. وأنا علمت أنني لا شيء».

رمشت ساني مجددًا. وقالت: «أوه»، مرَّة أخرى. وقد غدت عادة، عادة لا نفع منها.

قالت أليكس، أو من تكون أليكس: «ثم ضربنا الطاعون الطويل، وكانت من غير المحظوظين، و... ماتت، لأن الناس تموت». وبكت. «فسرقت العملة، لأني سارقة، وثنيتُ سلكًا ليشبه وحمتها، وأحرقتُ نفسي خلف أذني وسرقتها أيضًا، لأني قمامة، ثم سرقتُ اسمها، لأن... كنت فقط أريد... أن لا أكون لا شيء».

لبثت ساني لحظة تنظر إليها، ثم قالت: «لكن... ألم يتحقق العرافون...».

قالت أليكس: «كل ما فعلوه أن أمسكوا بيدي وتفوهوا بهُراء! عن أبراج، وعن إلف، وعن نار. بوك هي من قرَّر المعنى. بوك وخالي، الذي

ما هو بخالي! أظن... أنهم أرادوا لها أن تكون الحقيقة. وماذا كنتُ لأفعل؟ أُكذِّب دوقًا وكارديناله؟».

وهذه المرة لم تقدر ساني حتَّى على قول «أوه».

وفي تلك الغرفة السرية، الدفينة في جدران المنارة السميكة، كان الصمت كالقبر.

قالت أليكس، وهي تجلس وتقبض على يد ساني: «يمكننا أن نغادر. لا مكان لي هنا. وصلنا إلى هذه المسافة، فلِمَ لا نمضي أبعد؟ ونبحث عن مكانٍ... ننتمي إليه».

وبدت في أمس الحاجة وبائسة ومجنونة.

ودت ساني لو تضمَّها، وتهمس لها أن كلَّ شيء سيكون على ما يرام. لكنها تعلم أنه لن يكون كذلك. ورأت ما يجب فعله. لأجل الجميع. إلا نفسها. فأجبرت نفسها أن تبقى واقفة. وجعلت وجهها جامدًا، لا يُظهر شيئًا. ولم يكن ذلك صعبًا. فهي لم تُظهر شيئًا منذ سنين. وقالت: «وفي رأيكِ... أين سأجد ذلك المكان الذي أنتمي إليه؟».

اهتزَّت أليكس كمن صُفع، وتساءلت ساني أيهما تألَّم أكثر من هذا القول. لكنها قالته. حتَّى لا تضطر أليكس إلى قوله. وقالت: «لديكِ فرصة في صنع الخير. لا تضيِّعيها. فالخير في هذا العالم نادر. كنتِ تريدين ألَّا تكوني لا شيء؟».

ورغبت أن تمسك يدها، وتشدُّ عليها، لكنها اكتفت بتربيتة خفيفة، تربيتة باهتة لطيفة، ثم أفلتتها: «ها أنتِ شيء الآن».

نظرت أليكس إليها، وقالت: «كان يمكننا أن...».

قالت ساني: «لا أظن ذلك. لطالما علمنا... أن هذا لن يدوم».

والحق أنها لم تكن تفكِّر بذلك قط، ولم تره على حقيقته إلا الآن: «وما إن تُتوَّجي، فرباط البابا سيعيدني إلى المدينة المقدسة. وسيحين الوقت... لأحصل على واحد أخرى».

مدَّت أليكس يدها نحوها: «لكنكِ... الشيء الوحيد...».

فتراجعت ساني: «ستجدين شيئًا آخر. أنتِ أميرة. وأنا إلف. وتلك، كما تعلمين، تبدو نكتة سمجة. وهي فعلًا نكتة».

ثم خيَّم الصمت. في الظلام. والاثنتان، على هذا القرب... وهذه المسافة المستحيلة. ثم نهضت أليكس. واعتدلت في وقفتها، كما علَّمها البارون ريكارد.

- أنتِ محقَّة.

ثم سوَّت مقدِّمة ثوبها. وقالت: «ليس لي في الحماقات... بعد الآن».

ومشت تمرُّ بجوار ساني، عائدة إلى حجرة الإمبراطورة.

- أليكس!

فالتفتت، وكان عند طرف عينيها بصيص أمل.

فقالت ساني، وهي تسلِّمها المصباح: «خذي المصباح. أنا لا أحتاج إليه كي أرى».

وكان يعقوب راكعًا في شريط الضوء عند النافذة، ورأسه مائل، ويداه مشبوكتان، كأنه قدِّيس قديم في لوحة زيتية، يتهيَّأ للاستشهاد. فتقدَّمت ساني إلى الباب، وفتحته شيئًا، ثم انسلت إلى الخارج. ولئلا تكون وقحة، اختارت لوحًا مائلًا في الأرضيَّة تعلم أنه سيصرصر، ووطأت عليه بكامل ثقلها. فارتجف يعقوب، واستدار، ورقَّ صوته: «ساني؟ أهذه أنتِ؟».

أطلقت زفرة وجلست على السرير، رأسها يتدلَّى.

- كم عدد الإلفيين غير المرئيين الذين تعرفهم؟

قال: «قد يكون الروح القدس»، ثم نهض ببطء.

- ولمَ يزورك؟

حدَّق يعقوب إلى اللوح المفتوح، وشقَّ الظلام المتسلِّل من خلفه: «لديَّ ممرٌّ سرِّي؟».

- مكان مثل هذا، فيه كثيرٌ منها. وما الذي تفعله؟

تنفَّس يعقوب، كأنَّه يوشك على الكذب، ثم عدل عن ذلك.

- أُصلِّي.

- ظننتك لم تعد تؤمن بالرب.

- ربما كنتُ أرجو... أن يكون هو لا يزال يؤمن بي.

ثم تأوَّه، وهو ينخفض بجسده ليجلس إلى جوارها على السرير، وأنَّ هو وهيكله معًا.

- أليكس تملك سريرًا أريح من خاصتك.

- هي أميرة، وأنا قاتل.

ثم صمتا. وكان يعقوب لا يُجيد الكلام، لكنه كان سيِّدًا في الصمت. فأخذت ساني نفسًا عميقًا.

- أظنُّها ستتزوَّج أركيديوس.

فأخذ يعقوب نفسًا بطيئًا، كذلك: «وأظنُّ، في النهاية، أن ذلك أفضل».

همست ساني: «أفضل لمن؟». وكانت ترغب بالبكاء، لكنها لا تعرف كيف. فمالت جانبًا، وظلَّت تميل، حتَّى سقطت على حجر يعقوب، ويداها مشبوكتان على صدرها. وبعد لحظة، طوَّقها بذراعيه. وكان الرفق آخر ما تتوقَّعه ساني من الفارس العجوز، لكن لرجل أمضى عمره يقتل الإلفيين، كان جيدًا على نحو مدهش في عناق إحداهن.

- كنت فقط أريد...

- لا أحد أحقُّ منكِ به.

- لكن لا سبيل إليه.

فغمرهما الصمت من جديد. وبعيدًا، فوق النافذة، دارت الطيور وزعقت.

قال يعقوب: «حين كنتُ شابًّا، ظننت أنني أبني شيئًا. أصنع شيئًا يدوم. حالة من الكمال في العالم. وفي نفسي». ثم حرَّك ساقه تحتها بلطف، ثم الأخرى: «لكن حين تبلغي سنِّي، تفهمين أن لا شيء يدوم. لا حبَّ، لا كره، لا حرب، لا سلم. وإن بدا لك أن شيئًا لم ينتهِ... فاعلمي أنكِ لم تنتظر بما فيه الكفاية».

قالت ساني، وهي تشهق شهقة خفيفة: «أفي هذا عزاء؟».

قال: «إنما هو الصدق. كان لكِ شيء. فاشكري لذلك». ثم أطلق يعقوب زفرة طويلة، فيها وجع كثير. وقال: «والآن عليكِ أن تتركيه».

61

السيف والكتاب

ما تبدَّل شيء في كاتدرائية الزيارة الملائكية منذ الزيارة الأخيرة ليعقوب.

ذلك السكون الفسيح، الذي تولَّد من أعماقه صدى كل خُطوة، وكل لفظ، وكل همسة. تلك الرائحة الحلوة المُرَّة من الدهان القديم والبخور العتيق. صفوف المقاعد التي لا تنتهي المعدَّة للآلاف، صقلتها مؤخرات العُبَّاد طيلة قرونٍ حتَّى غدت تلمع في الظلمة. والراهبات في أرديتهنَّ القرمزية، كل واحدة منحنية على شمعة متَّقدة، فوق غابات من شموع نابتة من أكوام الشمع المنصهر القديم. ونجم من مئة رمح يعلو المذبح، مثبَّت على عجلة عظيمة من الفولاذ والذهب. رماح أبطال الحملة الصليبية الأولى، أولئك قاتلوا وانتصروا، ثم خسروا، قبل أن يُولد يعقوب نفسه. وفي الوسط خمس قوارير من زجاج، في كل واحدة ريشة ملاك محفوظة، من بقايا زيارة الملاك التي دفعت القديس هادريان لوضع حجر الأساس للكاتدرائية، مطمورًا عميقًا تحت المذبح. وحتَّى هذه اللحظة وقف البطريرك وفوج كامل من الكهنة فوقه، حُللهم المذهَّبة مرصَّعة بجواهر قاتمة، يعدُّون أنفسهم لإقامة تتويج إمبراطوري وزفاف مَلَكي في ضربة واحدة.

ما كنتَ لترى الجدران من فرط ما فيها من التماثيل، وقد حُشرت إطارًا بإطار من أرض الفُسَيفساء حتَّى القبة الغارقة في الظل. منها ما هو صغير ككفِّ يعقوب. ومنها ما هو عظيم كباب إسطبل. منها ما جُعل من فضة وذهب. ومنها ما ثُبِّت في خشب خشن النحت، صقله حبُّ الأصابع المؤمنة على مدى القرون. آلاف مؤلفة من القديسين، وملائكة على هيئة أصحاب أجنحة، وملائكة في صورٍ مجردة: دوائر من الأعيُن، حلزونات من الأجنحة، أشعة من النار، وأجمات من الأصابع القابضة.

وقد شدَّ أحدهم نظر يعقوب على وجهٍ مخصوص: لم يُرسم كقدِّيس، بعينين مرفوعتين إلى السماء في خشوع، بل مجروح الوجه، وعلى محيَّاه ابتسامة خفيفة. كأنَّه بدلًا من تأمل الفضائل، خطرت له نكتة، ويكتم ضحكته.

سأل الأخ دياز: «القديس ستيفن؟».

قال يعقوب: «الحامي العظيم. شفيع المحاربين». ثم تنبَّه إلى أنه مدَّ إصبعه حتَّى كاد يلمس الإطار، فسحب يده: «كنت أحمل مجسما كهذا سنين طوال. مثبَّت على ظهر ترسي. شيء بدائي لا يبلغ روعة هذه».

- ما الذي جرى لها؟

قال يعقوب: «دفنته مع صديق». ثم تألَّم. وقد اعتاد الوجع، لكن ما لذعه حينها كان وخزًا شديدًا: «أو لعلَّه كان عدوًّا».

سأل الأخ دياز، مشيرًا إلى ضريح إلى جوارهم، وقد تآكل منبره ونقوشه وصفوف قبوره: «قبور مَن هذه؟».

قال يعقوب: «أبطال طروادة، الذين بذلوا أرواحهم دفاعًا عن المدينة في الحملة الصليبية الثانية. ذاك المفترض أنه ويليام الأحمر». ثم رفع بصره إلى التمثال، فارس كامل، يحدِّق بنظرة صارخة: «لا أظن النحَّات رآه قط. ما كنت لتحزر أن إحدى ساقيه أقصر من الأخرى، وأن أنفه أعوج أنوف أوروبا. انظر إليه الآن. شباب مؤبَّد. مجد لا يزول».

وأشار الأخ دياز إلى صندوقين من حجر، لا نقش عليهما، لا يزالان ينتظران حمولة العظام. وقال: «لعلَّك تظفر بمكان إلى جواره يومًا ما».

قهقه يعقوب وقال: «ربي لا تسمع منه».

- فما الذي تريده إذًا؟

- أن أموت في سكينة نومي وألا أدع خلفي أثرًا.

قال الأخ دياز، وقد بدا مذهولًا: «أنت؟! أوليس من الأحق أن يُحتفى بحياتك؟ كم حملة صليبية خضت؟».

تنفَّس يعقوب زفرة غائرة، حتَّى لسعته جراح صدره القديمة، كل واحدة منها تحكي قصة فشل أو ندم أو خطيئة. قال: «اثنتان ضدَّ الإلف. وواحدة على الوثنيين في ليفونيا. وواحدة على الساريميين في بورغنديا. وواحدة على الشكَّاكين في باڤاريا، وإن لم يكن فيها قتال يُذكر، بل قتلًا مباشرًا. ثم حملة البابا إنوسنت الرابع على أتباع الدروس الخمسة». ثم قهقه ضاحكًا، وكان في الضحك ألمٌ غائر: «ما بلغنا إفريقيا قط. توقفنا في صقلية لنتزوّد، وبدا أن نهب ميسِّينا أيسر، فعدنا نجرُّ أذيال الخزي، غير مغفورٍ لنا».

قال الأخ دياز: «ومع ذلك، فأنت محاربٌ مقدَّس، تأتمر بأمر البابا ذاتها!».

- لعلّها لم تَحسُن بعدُ فراستها في الناس.

- لقد أبصرتُ بعينيَّ، أربع مرات على الأقل، كيف تغامر بحياتك لتذود عن الأميرة أليكسيا!

- من لا يموت لا يخاطر، يا أخ دياز.

- لكنك خضت معارك عظام، وحقَّقت انتصارات جسام، وتحملت جراحًا لا تُحصى...

- أعظم معاركي خضتها مع نفسي، وكلها خسرتُها. وما قاسيتُ إلا دون ما أستحق.

نظر الأخ دياز إلى تمثال ويليام الأحمر، وهو يحدِّق إلى الأفق. ثم قال: «ألذلك تظل تبحث عن المزيد؟».

- المزيد من ماذا؟

قال: «العذاب. أترى أن ليس لك للخلاص سبيل؟». ثم أشار إلى الظلمة الرنانة فوقهم. وقال: «ذاك حكم الرب وحده».

- من لا يموت لا يُحاكَم.

قال: «ومن لا يموت لا ينفد وقته ليُدرك الخلاص. ليُصدر على نفسه الدعوى، ويُجري عليها الحكم، ويُنطق عليها بالعقوبة...». ثم هزَّ رأسه برفق. وقال: «في ذلك قمة الكِبر يا يعقوب الثورني. في ذلك قمة من الغرور».

قال يعقوب: «الآن أبصرتَ قلبي يا أخ دياز. أنت أحكم مما ظننتك».

- يسهل على المرء أن يكون حكيمًا في شؤون سواه، وفي اختيارات غيره.

- ومع ذلك، قلَّ من يفلح في ذلك. أعترف أنني حين التقينا أول مرَّة، لم أُعَلِّق عليك أملًا يُذكر.

- كنت رقيقًا، ساذجًا، مشغولًا بنفسي. ولا أدري إن تغيَّر ذلك كثيرًا...

قال يعقوب: «بل تغيَّر». ما اعتاد يعقوب أن يمدح. في شبابه لأنه كان يشتهي المدح كله له، كتنين يخبئ الذهب. وفي شيخوخته لأنه خشي أن يهلك ما يُعجَب به. لكن الكلمة المهذَّبة قد تدفع النفس نحو النور، وما تغيَّرت نفس إلا تغيَّر بها العالم، وإن بمقادير صغيرة. لكن للأفضل.

- طوال عمري... كنت رجل السيف. أحكم على الرجال بالحديد. شجاعتهم. بطولتهم. سعيت أن أخلِّص نفسي من هذه العادة، لكن من نشأ على شيء شاخ عليه.

قال الأخ دياز: «تعلَّمتُ احترام السيف، صدِّقني. السيف يقطع الأخطار، ويحمي المُحِقِّين. كما فعل سيف القديس ستيفن. وكما رأيت سيفك أنت يفعل».

قال يعقوب: «في أحسن الأيام، أحب أن أظنَّ ذلك. لكن ما يقدر عليه رجل السيف حقًّا هو أن يقطع الطريق، ليخوضه رجال أفضل. أن يُفسح الأرض، ليبني عليها أهل الحكمة ما يستحق البناء». ثم استدار عن القبور، وأومأ إلى الأخ دياز. وقال: «فلنُكرِّمهم إذًا. لقد أبهرتني أيَّما إبهار ذاك اليوم في قاعة العرش».

رَمَشَه الأخ دياز وقال: «أُقرُّ أني كنت... كالغريب في أغلب مراحل رحلتنا. وربما كانت تلك المرة الأولى التي رأيتني فيها على ساحة نزالي».

- وإن تكن تلك ساحتك، فلعلَّك أنت من يُبنى له الضريح الفاخر.

قالت بابتيست وهي تتبختر صاعدة، تحدِّق مبتسمة إلى تمثال ويليام الأحمر: «أو أنا! لا بُدَّ من تمثال فيه قليل من البهاء، أليس كذلك؟».

صعد بالثازار خلفها، وكانا كالهرِّ والكلب، لا ينفكان يعضُّ أحدهما الآخر، ولا ينفكان يشتمان أعقاب بعضهما، فقال: «وماذا نكتب على اللوحة؟ مساعدة حلاق فاشلة، فتاة جزَّار فاشلة، متدرِّبة خياطة فاشلة، عارضة فنون فاشلة؟».

هزَّت بابتيست رأسها وقالت: «لعلمك، كنتُ عارضة باهرة للفنانين».

قال بالثازار ساخرًا: «لذا داومتِ على المهنة أسبوعًا كاملًا؟ إن أردت تمثالًا كبيرًا، فعليك أن تمدي عنقك».

زجَّت ڤيجا وجهها بينهما وقالت: «أيسر على الجميع لو أنكُما ترافقتما».

قال بالثازار وهو يزم شفتيه قرفًا: «تف».

قالت: «أو لو قتل أحدكما الآخر».

قالت بابتيست، وهي ترفع حاجبها متفكرة: «هممم».

ثم دفعتهم ڤيجا جانبًا وقالت: «فالضريح لي إذًا!».

نظر الأخ دياز بوجل إلى حشد الكهنة المُحتشدين عند المذبح، وقال: «لا أدري ما يكون رأي البطريرك في تمثال لذئبة وثنية في كاتدرائيته».

نظرت ڤيجا كئيبةً وقالت: «أصبتِ» ثم أشرق وجهها فجأة وقالت: «فماذا لو بدَّلتُ ديني؟ أعني، ما الذي قدمه لي أودين في الآونة الأخيرة؟».

قال البارون ريكارد، متكئًا على مقعدٍ قريب: «وما الذي قدمه أودين يومًا لأحدٍ غير أودين؟».

قالت ڤيجا: «ينبغي أن أُعمَّد!». ثم صفعت يعقوب على كتفه بيدها الثقيلة فارتعد، وقالت: «أوه. ظننت أن الأخرى هي التي تؤلمك».

قال يعقوب وهو يدير كتفيه في دوائر تطقطق: «كلُّ أكتافي مصابة. وقد عُمِّدتِ من قبل».

- أنا؟

- مرَّتين. مرَّة بيد البابا بايوس، رجاءً في طرد الذئبة.

قالت ڤيجا متقززة: «تلك العجوز ذات الحوض؟ ظننتُ أن رائحتي أزعجتها».

قال بالثازار همسًا: «ظنٌّ ليس في غير موضعه».

- استغربت لِم لَم يَفْرُكُوني فركًا أشد...

- ثم في كولونيا، مع الحُجَّاج، ألا تذكرين؟ رأيتِ الطابور وقلتِ إنكِ ستأخذين ما يأخذون.

قالت: «ظننت أنهم يوزعون الخبز. لكن هذا يفسِّر لماذا غمسونا في النهر بعدئذ...». ثم رمشت، وقالت: «ولماذا كان الخبز قليلًا ورديئًا».

قال الأخ دياز: «ذاك كان جسد المُخَلِّصة».

قالت ڤيجا: «لا، لا، كان شيئًا كالبِسكُوتة الصغيرة». ثم عبست وقالت: «لحظة... أأنا من المُخَلَّصين إذًا؟».

زفر يعقوب زفرةً طويلة وقال: «ليس تحديدًا».

قال الأخ دياز همسًا: «وها هي تأتي...». وعلى وجهه بسمة متأملة، كأبٍ ينظر إلى عروس تتقدم في الممر.

قال بالثازار، إن لم يكن فخورًا فليس ساخرًا: «يكاد المرء يخطئها فيحسبها أميرة».

قالت بابتيست وهي تمسح دمعةً مصطنعة من طرف عينها: «فتاتنا... قد كبرت...».

جاءت متأهبة للتتويج، وقد خيط على ثوبها بذهبٍ اسم «مخلّصتنا»، ووصيفاتها الأربع يرفعن ذيل فروها، وجواهرها تتلألأ وهي تخترق أعمدة النور. وتقدمت في طليعة كتيبة من الأتباع، كما يليق بالإمبراطورة، وعن يمينها الدوق مايكل وعن يسارها السيدة سيفيرا، وهما أقصر قامةً منها، لكنهما لم يكونا دونها قدرًا.

انحنى البارون ريكارد انحناءة شديدة إذ دنت منه، وعينُ كل وصيفة من وصيفاتها الأربع ترمقه مفتونةً، كهررة تتابع عربة القصَّاب. وقال: «ها قد أقبلتِ يا صاحبة السمو! أو أأجرؤ فأقول: يا بهجة الأنوار؟ يبدو أنك كنتِ تُصغين إلى دروسي في فن الطلة بعد كل شيء».

قالت أليكس مشيرة إلى وصيفاتها: «ظننت أن أبذل جهدًا مضاعفًا. بل لنكن صرحاء، أن يبذلن هنَّ الجهد. فلا تتوج الفتاة إمبراطورة الشرق كل يوم وتتزوج ألدَّ أعدائها، أليس كذلك؟».

فمال الدوق مايكل نحوها وقال: «وبذكر الزواج، يا صاحبة السمو...».

تجهمت أليكس وقالت: «ألزامٌ علينا ذلك؟».

قال: «لديَّ... رجاء... أرجوه». ثم بلع ريقه ومدَّ يده، فابتسمت السيدة سيفيرا، ووضعت يدها بلطف في يده. وقال: «أنتِ تعلمين أن السيدة سيفيرا وأنا صديقان عزيزان منذ سنين».

حدَّقت أليكس إلى أيديهما وقالت: «آهًا...».

قالت السيدة سيفيرا: «ومنذ عاد مولاي إلى طروادة، تبيَّن أن ما بيننا كان أعمق من ذلك».

همس بالثازار: «لعنك الرب».

همست بابتيست: «قلتُ لك».

قال الدوق مايكل فجأة: «لقد طلبتُ يد السيدة سيفيرا للزواج!».

قالت السيدة سيفيرا: «وقد نلتُ شرف القبول، ما دامت صاحبة السمو تأذن بذلك، بطبيعة الحال».

سكت القوم لحظة. ثم زفرت أليكس وقالت: «ما كنت لأستأثر بسعادة الأزواج وحدي».

قال الدوق مايكل مبتسمًا وهو يرمق سيفيرا، ثم الجمع: «وقد جعلتِني أسعد رجل في أوروبا! باسم الأميرة أليكسيا، وباسمي، وباسم عروسي، وباسم كل مواطن في طروادة...». ثم أخذ بيد يعقوب بكلتا يديه وهزَّها هزَّ الأخوة. وقال: «شكرًا لكم على كل ما قدمتموه».

قال يعقوب، وهو لا يستسيغ شيئًا بقدر ما يمقت الشكر: «ما كان إلا تنفيذًا لأمر قداستها».

قال الدوق: «لكنه كان عملًا جللًا! أنتم مرحبٌ بكم دومًا هنا، جميعكم». راودَهُ الشك في صدق القول، لكنه قدَّر المجاملة: «أُجِّر لكم مركبًا ينتظركم في المرفأ». ثم ربت على كتف الأخ دياز، وأعطى

يد يعقوب هزَّتها الأخيرة، وتركها: «آمل أن تكون رحلتكم إلى المدينة المقدسة... أهدأ قليلًا».

قالت بابتيست: «لا تعوِّل على ذلك أبدًا».

اتسعت عينا أليكس وقالت: «أأنتم راحلون؟».

قال يعقوب: «ما إن يُوضع التاج على رأسك، حسب شروط عهد قداستها، وجب علينا الرحيل».

قال بالثازار بمرارة: «شئنا أم أبينا».

قالت أليكس بخفوت: «كنتُ آمل... أن تحضر ساني...».

قال يعقوب: «لعلها حاضرة بالفعل. لكنَّ الظهور لا يُعدُّ رأيًا صائبًا».

قالت بابتيست وهي تشهق: «تظنين أن الإلف مكروهون في المدينة المقدسة؟ هنا، في عيد القيامة، يُلبسون المجرمين آذانًا مزيَّفة ويطاردونهم في الشوارع».

قالت أليكس وهي تبلع ريقها: «صحيح. إذًا... بلِّغوها... أنني آسفة».

قال يعقوب وهو يومئ: «هي تعلم».

قالت أليكس: «كنت أعلم أننا سنفترق في الختام». ثم نظرت إلى الرفاق، واحدًا واحدًا. وقالت: «ما كنت أظن... أخي دياز، لعلَّك، قبل أن تبدأ المراسيم... تلقي علينا بركة؟».

نظر الراهب نحو صحن الكنيسة إلى حيث البطريرك في حلَّته المتلألئة، ثم نظر إلى ثوبه المتواضع: «أنا، ينبغي أن يكون أسقفٌ على الأقل...».

قالت أليكس: «أليست المُخَلِّصة نفسها كانت راعية غنم وضيعة؟».

ابتسم الأخ دياز وقال: «سأفتقد جدالاتنا في اللاهوت».

وما إن تقدَّم الراهب إلى المنبر أمام القبور، حتَّى تذكَّر يعقوب الحملة الصليبية الثانية. والبركة قبل الهجمة الأخيرة. المعركة التي

صدَّت الإلف. المعركة التي لم يعد منها كثيرون. الفرسان يركعون كتفًا إلى كتف. والبطريرك كوسماس، بصوت كالرعد، يستمطر غضب الملائكة على أعداء الرب.

لكن الأخ دياز كان واعظًا من طينةٍ أخرى. وضع كفيه على المنبر بلين، يمر بأصابعه على حوافه بمحبة، فيما اجتمع القوم أمامه على هيئة هلال. قال: «لم أطمح يومًا لأن أكون كاهنًا. بل انزلقت إلى الأمر...».

قالت ڤيجا: «بدأ الأمر بوخزة أولًا».

ضحك الراهب وقال بخجل: «لم تخطئي تمامًا. لكنهم يقولون: في الدروب الدنسة يتجلى الرب لأعيننا. وقد كان لي ذلك. أعترف، لم أطلب هذه المهمة. ولم أطلب صحبة هؤلاء».

قال يعقوب متذمرًا: «كلٌّ يُرزق بما يستحق».

- سلكنا دربًا متعرجًا، كثير الحفر. وكم ظننت أننا لن نبلغ طروادة. امتُحن صبرنا في الطريق. جميعكم تذكرون ذلك النزل.

قالت بابتيست: «ليتني أنساه».

- وخيانة الأسقف أبولونيا.

قال البارون ريكارد متجهمًا: «من أكثر الأساقفة الذين عرفتهم خيانة. وبينهم منافسة شديدة».

- ودار الساحر المُوهِم، والرؤوس المتكلمة.

ضحكت ڤيجا: «كانت تسيل شيئًا بشعًا».

- ثم معركة البحر.

قالت أليكس: «ما زلت أشمُّ رائحة رجال السلطعون».

- والقبر الوبائي تحت دير القديس سبستيان.

قال بالثازار ببسمة شاردة: «أيامٌ طيبة، أيام طيبة».

قال: «لكننا مع كل خطوة، تجاوزنا معًا العقبة. صحيح أننا تنازعنا». فنظر بالثازار وبابتيست إلى بعضهما نظرة مخصوصة: «لكننا في النهاية، تناصرنا. وأنتِ، أليكس... صاحبة السمو... رأيتك تتعلمين. رأيتك تنضجين. من فتاة كانت تُنعَت بابنة عرس، إلى امرأة تنهض بمصير إمبراطورية».

قالت أليكس وهي تهز كتفيها: «ما زال بي بعض العرسية، لا أنكر».

قالت ڤيجا: «والإمبراطورة الحقَّة لا بُدَّ لها من أنياب».

قال الأخ دياز وهو يرسم دائرة الإيمان: «ليباركك الرب، وقديسوه، والمخلِّصة، كما باركوا رحلتنا في خواتيمها. حين بدأنا، ظننتكم وحوشًا. وقد علمت، فيما أحسب، أنكم بشرٌ فحسب. لعلكم طائفةٌ من الشياطين، لكنكم في هذه المرة، عملتم عمل الربِّ». ثم ابتسم وأومأ، وانصرف عن المنبر.

رمقه بالثازار بفم مزموم كخبيرٍ يقيّم قارورة خمر. ثم مال جانبًا وقال: «ليس سيئًا في الحقيقة، أليس كذلك؟».

همس يعقوب: «أفضل كثيرًا مما ظننا، في المجمل».

62

في مقام عالٍ

بلغ الضجر من ڤيجا أن تبلد عقلها.

تلك التراتيل التي لا تنقضي، والصلوات التي لا تفتر، والهراء واللغو يتلوه كهول مملين. وخبا ما كان في نفسها من توق إلى الخلاص خفوتًا سريعًا، وشرعت تميل إلى الوثنية، فإن أولئك الوثنيين لا تطول دعواتهم عن مدة إفراغ المرء مثانته.

ولقد ناح بعض الأوغاد، أكبرهم لحيةً، في كلامه عن زرع الحقول نواحًا طويلًا، حتَّى حسبته يُتوِّج المحراث. فلمَّا أراح المساكين من نعيبه، وتنهدت ڤيجا تنفَّس الراحة، قام آخر، لحيته أطول، ليحدِّثهم عن السمك.

تمتمت تضطرب في مجلسها: «ما هذا الهراء؟ أنحن نتوج سمكة؟».

همس الأخ دياز: «ليس الأمر عن السمك، بل هو عن الصدقة».

سألتها ڤيجا، متحيِّرة: «فلِمَ لا يقول ذلك فحسب؟».

وما كانت من عشَّاق أودين ولا فريا ولا فريير وسائر جماعتهم، فما نفعوها يومًا، لكنها تفهمهم. هم صغار النفوس، شرهون، شهوانيون، مثلهم مثل غيرهم، بل أشد، وما فائدة الألوهة إن لم يكن صاحبها أقوى؟

أما المخلِّصة، فتلك في مقام عالٍ. حدَّقت إليها ڤيجا في الزجاج الملوَّن، وذراعيها مبسوطتان على الدولاب كأنما تستعجل النحر. فضائل وصبر وتحمُّل. وڤيجا لم تطق صبرًا قط، حتَّى قبل العضة.

رفيقها يعقوب من أهل الصبر المفرط. كل ما يفعل، أن يصبر. انظر إليه، إلى جنبها على المقعد، فكُّه المندمل مطبوقٌ، يحبس في صدره ما به من الكظم. لا شراب، لا كذب، لا فُحش. لم يقسم يمينا لمجانبة اللذة فيما علمت ڤيجا، غير أنه يفعل ذلك وكأنه قد حلف.

لِمَ يعيش أبد الدهر ما لم يكن في عيشه حياة؟

تمدد وراءه البارون ريكارد، باسطًا ذراعيه على ظهر المقعد كأنما هو أريكة في بيت مومسات. والسيدة التي إلى جانبه تُلقي عليه النظرات، أنفاسها متلاحقة كأنها أجهدت نفسها في عدو، والعرق ينسكب منها، تروح بيدها على وجهها، وتكاد تنطق بلسان حالها تسأله العضَّ. وما كانت ڤيجا تدري كيف تهفو امرأة إلى هذا الجثة المتبخترة، وهي في غالب أمرها تهفو إلى كل ذكر إذا هبَّت بها النزوة، ولكن من الحُبِّ ما قتل، أليس كذلك؟

تلوَّت من جديد، فإن ردفها ما خُلق ليلتصق بالمقعد: «خصيات أودين اللعينة، مللت! أو مهلا، إن كنت قد تعمَّدت، فهل يليق أن أقول أثداء المخلِّصة؟ أعليَّ حرَج في ذلك؟».

فرك الأخ دياز صدغيه، وقال: «ليس في الكاتدرائية على الأقل».

والآن جلست أليكس على مقعد أو شيءٍ كذلك، والكاهنُ ذو اللحية الأضخم قائمٌ خلفها، يواصل ثرثرته التي لا تنتهي. فدخلت فتاتان، وأرخيتا على منكبي أليكس عباءة أرجوانية، وثبَّتتها الاثنتان الأخريان بمشبكٍ ذهبيٍّ عظيمٍ مربع.

وضعت السيدة سيفيرا قبضةً من سنابل القمح في يدها اليسرى، ومدَّ الدوق مايكل رمحًا مذهَّبًا في اليمنى، ورأسه يترنَّح حتَّى ودت ڤيجا أن يُصيب عين البطريرك، فيجعل في الموقف حياة، غير أنَّ الرجاء خاب.

كل ذلك عبثٌ، ولكنها لما نظرت إلى وجوه القوم المنصتين، تساءلت إن كان ثمة مغزى. أن تُولَّى السلطة فتاة في السابعة عشرة، بالكاد تمسك رمحًا، لمجرد أنها خرجت من رحمٍ دون رحم، ضربٌ من العبث ظاهرًا. لكن متى لُفَّت بالأبهة المتلألئة والشعائر المهيبة، بدت كأنها فكرة متلألئة ومهيبة.

تمتمت: «ما عَزَّ صُنعه، عزَّ كسره».

فصبَّ البطريرك الزيت من ملعقة ذهبية على رأس أليكس، ثم أخذ تاجًا من فتى يحمل وسادة، وأخذه بكلتا يديه، وراح يُنزله، ببطءٍ بطيء، يُطيل اللحظة، والجواهر تُومض وتغمز في الظلمة الحبرية، ببطءٍ بطيء.

فهمست ڤيجا، وقد بلغ بها الضيق مبلغًا، وسُمع صوتها إلى الصفوف الأخيرة لما خيَّم السكون: «أنزله عليها ودعني أتبول!».

وشعرت بتحوُّل إذ أنزل البطريرك ثقل الذهب على رأس أليكس. ذاك الجذب القلِق في جوف أحشائها الذي ساقها إلى طروادة، يعود الآن فيجذبها نحو البحر.

قال بالثازار، وهو يدلك معدته: «إذًا قد تمَّ الأمر». وعرفت ڤيجا أنه شعر به كذلك.

قال ريكارد، مطبقًا عينيه: «تمَّ». بل كلهم شعروا به.

وإذا بأربعة من النبلاء ينحنون، وعلمت ڤيجا أن أليكس تجلس على ترس ذهبي، فرفعوها على أكتافهم، يُظهرونها للناس كما تُعرض البضائع في مزاد. ونهض الجميع عن مقاعدهم، وركعوا، وانبعثت جلجلة عظيمة، فامتنت ڤيجا لذلك، إذ حرَّكت ساقيها أخيرًا. ترنحت أليكس تحت ثقل التاج، وعيناها تنظران قلقًا، خشية أن يسقط التاج

وتتهاوى منه السنابل والرمح، فتصير تتخبَّط بها طول صحن الكنيسة. غير أن التاج ثبت، وشرعت الفتيات يترنَّمن، وأخذت الأجراس تدقُّ، فضحكت ڤيجا، إذ لطالما أحبت الأجراس مذ سمعت أول جرس يُهشِّمه أولاف في غارة، وصليل هذا العدد يملأ ذلك المكان الجليل، حتَّى راودها الظن أنها قد تؤثر الخلاص على الوثنية. فما كانت تجيد الثبات على خيار، حتَّى قبل العضة.

قال يعقوب وهو ينهض متأوِّهًا: «حان وقت الرحيل». وقادهم خارجين واحدًا إثر آخر.

لمحت ڤيجا نظرة أخيرة إلى أليكس، والدوق مايكل والسيدة سيفيرا يبتسمان إليها، وتساءلت كيف سينتهي بها الحال. لكنها لن تحظ برؤية ذلك الفصل. إذًا إن معبد الذرائع المُقدَّسة أشبه بعربة الموتى، لا لنتنها فحسب، بل لأن الناس يرضون برؤيتها إذا ألمَّ البلاء، لكن لا أحد يهوى أن تُركن أمام داره بعد أن ينكشف الخطر.

دقت الأجراس حتَّى حين عبروا الأبواب العظام، وتخطُّوا الحراس الكثيرين، ودخلوا نور النهار الموشى.

قالت ڤيجا، وهي تنسلُّ عن الطريق، تُخفض سروالها وتجثو في الحشائش: «خسارة لم نبقَ للزفاف. وإنِّي لأظنُّهم سيجعلون منه أمرًا مملًّا كذلك».

تأفف بالثازار وقال، مدحرجًا عينيه: «أفي هذا الموضع؟ أما تستحين؟».

- أما كان في استطاعتي أن أفعلها هناك؟ لكنني خشيت أن يجتمع البلل في المقعد، ولن يشكرني أحد على ذلك.

قالت بابتيست: «لها وجهة نظر في هذا».

قالت ڤيجا وهي تجهد: «لماذا إذا اشتدَّت الحاجة... تصعب الاستجابة؟». ثم أطلقت الزفرة وقد فرغت، تُعدل فخذيها حتَّى لا ترشَّ سروالها، ولن تكون أول مرَّة.

وبين الأجراس الرنَّانة، وحلِّ العُقدة من البطن، ولذَّة البول المتسرب، وجدت في الأمر متعة أخيرًا، غير أن الآخرين لم يشاركوها فرحتها. لم تستغرب ذلك من يعقوب، غير أن بابتيست، التي تبتهج لكل شيء، لم تفعل. حتَّى البارون ريكارد، ليس على عادته من التبختر.

قالت ڤيجا، وهي تضرب بيدها ما تبقى، ثم تمسحها بأقرب ورقة: «مؤخرة فريا، انظروا إلى وجوهكم الطويلة».

قال بالثازار، وهو يمشي: «نُسافر من فورنا إلى المدينة المُقدَّسة. عائدين إلى القيد، والحقد، والاحتقار. عائدين إلى الرقِّ».

قالت ڤيجا، عابسة: «آه. نسيت ذلك».

63

رفقاء السوء

وقفت أليكس، تحدِّق إلى الفراغ، ووصيفاتها يحمن من حولها كالنحل.

كأنها ظلت واقفة هكذا يومها كلَّه، والناس يطنُّون حولها، ويثرثرون إليها، وعليها، ومن فوقها. يديرونها كما يديرون تمثالًا من جصٍّ للمخلِّصة في يوم العيد. يُلبسونها ويعرُّونها كما تُدار دُمية الخيَّاط. يضعون فوق رأسها أغطية شتَّى كأنها عمود قبَّعات.

وما مضى على خياطتها في هذه الحُلة المزينة كلها بالأدعية، إلا الصباح، وها هم الآن يقطعونها عنها بالمقصِّ.

ولم تدر أأصابها الدُّوار من التصفيق، أم أتعبتها التكاليف، أم أرعبتها ولاية الإمبراطورية، أم أرهبتها ليلة الزفاف. أرادت أن تضحك، وتستفرغ، وتختبئ تحت السرير، وتركض نحو الميناء، كل ذلك في آنٍ معًا.

تمتمت، للمرة المئة تقريبًا: «أنا إمبراطورة طروادة».

قالت السيدة سيفيرا، تراقب نزع اللباس كما تُراقب الجوهرة تُفكُّ من صندوق: «بلا ريب يا إشراقة الجلال».

وكان لهذا أن يُطمئنها لو أنها صدَّقت أنها صارت خالتها بالمصاهرة، غير أن هذا ذكرها على الفور بزواجها القريب، وأثار فيها الرغبة في الفرار من الباب.

قالت تغمض عينيها: «أنا إمبراطورة طروادة... وزوجي في الطريق».

قالت السيدة سيفيرا: «أخشى أن ليلتك هذه ليست كما كنتِ تحلمين بها».

قهقهت أليكس: «بصراحة، ما حلمت قط أنني سأبلغ العشرين». وبصراحة، لم تكن لتضع رهانًا جيِّدًا على ذلك حتَّى الآن.

قالت سيفيرا: «لا داعي للقلق. زينونيس وبلاسيديا ستكونان خارج الباب، وأنا والدوق مايكل في الطابق الذي أسفل».

قالت أليكس: «فإن حاول زوجي أن يطعني، أتصلون في الوقت لتمنعوا الخنجر؟».

قالت سيفيرا: «زوجك لن يطعنك، ليس بخنجر على كل حال».

تمتمت أليكس: «ليس بخنجر...»، وإحدى الفتيات -خيل إليها أنها كليوفا، أو لعلها أثناي- تقطع خيطًا من درعها، وأخرى تنثر على البساط حفنات من الزهر.

سعلت السيدة سيفيرا بلطف وقالت: «ألستِ... عذراء؟».

قهقهت أليكس قهقهة أسمع من الأولى: «ولا حتَّى جارة لها».

قالت سيفيرا: «حسن. حسن».

قالت أليكس: «أليس من المفترض أن تكون العروس عذراء؟».

قالت سيفيرا: «المثالية... ليست دومًا مثالية. ستملكين تصورًا عمَّا ينتظرك، على الأقل».

قالت أليكس، وهي تتنفس ارتعاشة ثم تزفرها، مع تمزُّق الغرز: «سيئ إلى هذا الحد؟ أشعر كأنني أتحول إلى شيء جديد منذ أشهر. والآن عليَّ أن أتحول إلى شيء آخر مرَّة أخرى. ولا أعلم ما هو».

قالت سيفيرا: «التحول... جزء من الحياة. مرعب، لكنه ضروري. جميل حتَّى. فاليرقة تصير فراشة».

قالت أليكس: «والفراشات لا تعيش طويلًا».

وفي ذلك الثوب الحريري الذي ألقوه على كتفيها نكهة الفراشة الهالكة لا ريب، إذ ما إن لامس جسدها حتَّى تدلَّى، يتمايل مع نسيم النوافذ المفتوحة، ولا يترك للعقل خيالًا إلا وأوقده. ثم طُرق الباب. ولعله طرقٌ عادي، لكنه وقع في سمع أليكس كدقِّ المسامير في التابوت. ومشت إحدى الفتيات -ربما بلاسيديا، أو لعلها زينونيس- لتفتح، فيما هاجت الباقيات حول أليكس هياج التهيئة الأخيرة: جذبٌ، قطفٌ، نفضٌ، وتمليس، كأنَّ قليلًا من اللون في وجنتيها قد يصنع الفرق بين نعيم الزواج وعذاب العمر مقيدة إلى نذل. ووضعن على رأسها إكليلًا من ورق الذهب، لا يدري المرء أهو للزينة أم للهيبة، وذلك مما يلائم رأسها، إذ لم تعلم أتميل إلى هذا أم ذاك.

فلما انفتح الباب، وجدت نفسها قد أسندت ظهرها إلى أحد أعمدة السرير، مكتوفة الذراعين، حاجبها الأيسر مرفوع قليلًا، وفمها في عبوسٍ خفيف. كأنها طباخة متجهمة قد طال بها الانتظار لوصول صبيِّ الفرَّان. ووقف أركيديوس في عتبة الباب، لا يلبس ثوبًا رقيقًا، بل قميصًا مُزركشًا، وسترةً نشَّها النشاء، وجزمةً تلمع كالمرآة، سيتزوج وهو يردتي هذه.

انحنى انحناءةً أنيقة، وفي ذلك راحة، إذ لا يليق أن يُقتل المرء بيد رجلٍ بلا أدب.

قال: «يا إشراقة الجلال. أم أقول... زوجتي؟». ورفع طرف عينه وفيه لمحة ابتسام.

قالت أليكس، ولسانها يتلعثم: «يا سُموك. أم أقول... زوجي». ونثرت آخر الفتيات -أثناي ربما، أو بلاسيديا- آخر حفنة من الزهر، ثم أغلقت الباب خلفهما، تاركةً الزوج والزوجة، الإمبراطورة وقرينها، أليكس والرجل الذي حتَّى الأمس ظنته ألدَّ أعدائها... وحدهما في المخدع.

جميل.

قال أركيديوس، وفي صوته نبرة ارتباك: «أعترف أنني أشعر إنني... مثقل باللباس» ثم سعَل، وكانت أول علامة أنه متوتر بعض الشيء، ثم تابع، يفكُّ أزرار سترته المتلألئة، ويُلقي بها على الكرسي، ويشرع في طيِّ كُمَّيه: «لعل قليلًا من الخمر... يُريح أعصابنا».

ولم تعرف أليكس الراحة مذ زمن. بل لم تذكر أنها ذاقتها قط. لكنها لم تذكر أيضًا أنها بلغت مثل هذا التوتر.

همست: «لا أمانع»، فيما انسكب الخمر من الإبريق إلى الكأسين، يلمع بلون الدم في ضوء المغيب.

تقدَّم إلى السرير، وأحد الكأسين في يده: «يومك كان طويلًا».

فتناولت الكأس، تتساءل في نفسها هل يمكنها رؤية السمِّ؟

- ولم ينقضِ بعد...

رأى تردُّدها، فقال: «لو كان مسمومًا...». واحتسى من كأسه: «لكنت قتلت نفسي».

- لعل السمَّ في كأسي فقط.

قال رافعًا حاجبيه: «ذاك مما قد تفعله أمي. تُعطيني من الفضل أكثر مما أستحق».

ثم بدَّل كأسها بكأسه، وشرب منه كذلك. وقال: «وربما أقل مما أستحق».

شربت أخيرًا. وكان طعمه طيبًا. لكن السمَّ الذي يستخدمه دوق لإمبراطورة، لا بد أنه لا رائحة له، ولا طعم له. جلست على حافة السرير. وحاولت أن تُدير ذيل ثوبها الفاضح لتستر ساقيها بشيء، لكن الأمر كان كمن يُخفي خنزيرًا بريشة طائر.

قال أركيديوس، يتأملها: «تبدين...».

- كأنني ابنة عرس؟

- كنت سأقول متوترة.

- إخوتك حاولوا قتلي، جميعهم.

- بلغني ذلك، وفكَّرت أنها وقاحة.

ثم دار إلى الجانب الآخر من السرير وقال: «وعزائي الوحيد أنهم لم يُجيدوا المحاولة. فقد سعيت لثنيهم، لكنهم -رغم تباينهم- كانوا جميعًا كأمنا في استحالة إقناعهم بشيء. لكنني أعدك، الآن، أنني...».

ثم جلس على الطرف المقابل من السرير، ونظر في عينيها: «لن أحاول قتلك أبدًا».

قالت: «ذاك أدنى ما يُنتظر من الزوج، أليس كذلك؟».

قال أركيديوس: «أخشى أنه حدٌّ لم يبلغه كلُّ أزواج الأباطرة في التاريخ». ثم خلع حذاءً من قدمه، وقذف به جانبًا بضربة. قال: «لكني أرجو أن أتجاوزه تجاوزًا مشرفًا». ثم تأوَّه وهو يجهد في الجزمة الأخرى، وقال: «اختلفت عن إخوتي في وجوهٍ كثيرة، غير أنَّ أهمها، ولعلَّ أجلَّها، أني، وإن كنت أكبرهم سنًّا...». ثم نزع الجزمة أخيرًا، ورفع قدميه إلى السرير، محرِّكًا أصابعها، وقال: «ما رغبتُ قطُّ في أن أكون إمبراطورًا، لا قليلًا ولا كثيرًا».

أليكس من الكذَّابين المجربين. ولعلَّ من حولها من الكذَّابين كانوا أرفع مقامًا من أولئك الذين عرفتهم في أزقَّة المدينة المُقدَّسة، ولكنها لم تشعر أنَّه يكذب. فارتشفت رشفةً أخرى من الخمر، واتكأت على وسائدها.

- أتتزوَّجني عن هوًى إذًا؟

تبسَّم أركيديوس وقال: «إنك فاتنةٌ، لا شكَّ...».

- حتَّى اللفتة ستُغدو فاتنة إن قامت وصيفاتي بتلبيسها.

- لكن اللفتة لا تعينني على إنقاذ إمبراطورية الشرق.

ولم يزل يحدِّق إليها بذلك المزيج من الجِدِّ والانشراح. وقال: «منذ عقودٍ، أو قولي قرون، صار زعماء طروادة شرَّ أعدائها. خيرة أبنائها يأكل بعضهم بعضًا. يتقاتلون على السلطان، ويهدمون الهيكل على من فيه، تحت ظلِّ كارثةٍ ذات أُذنين مُدبَّبتين تلوح في الأفق. أريد أن أردَّ ملك آبائي إلى ما كان عليه من المجد. وربما، إن كُنَّا اثنين... يكون لنا في ذلك نصيب؟».

وأقرَّت في نفسها أنها أعجبت بما يقول، بل وبطريقته في القول. أيعقل أنها بدأت تميل إليه؟ وتلك دوامة لا يُؤمن مآلها.

- أركيديوس...

- أصدقائي ينادونني آرتشي.

- حقًّا؟

- صدقًا، لي عدد لا بأس به منهم.

- أُصدِّق ذلك.

- أشكركِ.

- لك طبعٌ ساحر.

- أكرمتِني.

- لكنِّي عرفتُ قومًا ساحرين كانوا شياطين بحق.

- والشرِّير خير صديق، ألا ترين؟ فهم من يصنع لأجلك ما لا يصنعه الصالحون قطُّ.

وكانت أليكس، التي أنقذتها زمرةٌ من الزنادقة الشياطين، لا تجد في نفسها حُجَّةً تردُّ بها هذا القول.

- أتُريد أن نكون أصدقاء؟

- ذاك أولى من أن نكون أعداء في الزواج.

- رأيتُ أمِّي تعقد هذه الصفقة مع أربعة رجال، وما خرجوا منها بخير. ولا أرى وجهًا لتكرار خطايا السالفين. أتوافقين؟

- بالكاد أعرف والديَّ.

رفع عينيه إلى السقف وقال: «رباه، ليتني لم أعرفهم قطُّ. أتسعين لإثارة غيرتي يا أليكسيا؟».

- أصدقائي يُنادونني أليكس.

- منطقي.

- وصدقني حين أقول إنهم قلة، وأكثرهم غادروا إلى المدينة المُقدَّسة.

قال أركيديوس: «وإن كان للأصدقاء الأشرار وجود... فهُم أولئك».

فاشتدَّ بها الغيظ قليلًا، وقالت: «لا ريب أنهم... شرائم متفرِّقة».

- قيل لي إنَّ من بينهم مصَّاص دماءٍ مميت، ومستذئبة هائجة، ومتلاعبًا متكبِّرًا في شؤون الموتى.

فشدَّت أليكس ثوبها الفاضح، تلتمس منه ما يستر.

- لكلٍّ منا عيوبه.

قال: «وأنا أشهد. عيوبي لا تُعدُّ، لكنَّ النفاق ليس منها». ثم تنهد وقال: «وأحسُّ أنك لا ترغبين كثيرًا في إتمام عهدنا هذه الليلة، ولا ضير، فإني أشاركك التردد». ورفع يده، وقال: «مسألةُ ذوق، لا صلاح. ولي أن أحزر... هل تفضِّلين الخواتم على الأصابع، هل أصبت؟».

رفعت أليكس حاجبيها تطابقه وقالت: «وأنت، لعلكَ من أهل الأصابع؟».

- ويبدو أنَّ زوجتي بصيرةٌ بالجمال كما هي بالذكاء.

- أهكذا تصفني بالبلاهة والقبح دفعة واحدة؟

ثبت بصره في عينيها وقال: «بل على النقيض تمامًا».

- والسرير عريض، يسعنا كلينا كل ليلة، وقد لا نكاد نرى بعضنا.

- قيل إن سرَّ الزواج الصالح، فراشٌ عريض.

قالت: «لكننا سنلتقي وسطه في آخر المطاف. وقد جرى حديثٌ عن...». وسعلت، ثم قالت: «الورثة».

- آه، نعم. يولدون هاهنا، تحت الشعلة، كما وُلدتِ. وأحسب أننا، بيني وبينك، سنجد حيلةً نُخفف بها من النفور المتبادل».

وكان الأمر يسيرًا بأدبٍ فوق ما كانت أليكس تأمل. وقالت: «ما في العالم من نفورٍ يكفينا، فلا نزد عليه».

- وهذه مشاعري كذلك.

ثم ربَّت على وسادةٍ براحة يده، واتكأ عليها مترفًا، ونظر إلى السقف، أزرق داكن منثور بالنجوم الذهبية. وقال: «ربما... نستعين بأشخاصٍ أقرب إلى هوى نفوسنا؟ وسِتارٍ ما؟».

قالت، وهي تتمدَّد وتنظر معه: «وفيه ثقب؟».

فاستدار إليها، يشكِّل حلقةً بإبهامه وسبابته، ويبتسم خلالها، وقال: «ثقب صغير فحسب. وربما شيءٌ من الزيوت المعطِّرة».

- تبدو حفلةٌ لا بأس بها.

***

رمقت ڤيجا الرصيف بعين الحسرة، والمشاعل تضئ فيه مع المغيب، والصخب والموسيقى والضحك والهتاف يملؤونه، والجموع المتزينة بألوانها تحتفل بالعهد الجديد الذي ساهم معبد الذرائع المُقدَّسة في ولادته ولن يكون منه قط، وقالت: «بل منظر حفلةٍ باهرة».

قال الأخ دياز وهو يتجه صوب السلم: «حسرةٌ أننا لم نُدعَ. أنا دياز! وأحسب أن تذاكرنا إلى المدينة المقدسة قد دُفع ثمنها».

تأملهم الربَّان -وهذا ما عرفت من قبَّعة عليه- واحدًا واحدًا: يعقوب، يحدِّق من تحت حاجبيه كأن عينيه حجر، بابتيست، تبتسم بخفَّة، البارون ريكارد، مستندٌ بتراخي، بالثازار، مزدرٍ بأنفٍ مرتفع، ڤيجا، مظهرها كمظهر مستذئبة من الفايكنج، وأخيرًا ساني، وكانت أعظمهم رِيبةً، وجهها غارقٌ في ظلِّ قلنسوتها، لا يظهر منه إلا خصل الشَعر الفاتح.

ولو اختفت تمامًا لكان خيرًا، لكنها أبت أن تختفي، أو تتكلم، أو تنظر في وجه أحد. ولو أن الإلف قادرين على الاكتئاب، لعدَّها الأخ دياز من المصابين.

تفل الربّان إلى البحر وقال: «آمل ألا أندم».

قال البارون ريكارد متنهدًا: «ستجد، كما وجدنا، أنَّ الرجاء والندم أُختان متلازمتان».

ساد السكون هنيهةً، وظنَّ الأخ دياز أن مصَّاص الدماء قد جاوز بحكمته احتمال القوم.

قال يعقوب، يعيدهم إلى الأرض: «نحن مستعدون للانطلاق».

فنظر الربَّان إلى لوحٍ مسمَّر عليه قائمة وقال: «ليتني مثلكم. لكن كما ترى...».

ومرت بحَّارة، تحمل برميلًا فوق كتفها، تكاد تطرح دياز في البحر.

- ما زلنا نحمِّل. كلُّ هذا الصخب مع الإمبراطورة الجديدة عطَّلنا عن كل شيء.

قال بالثازار وهو يخطو فوق الجسر: «وقد عطَّلني ستة أشهر. سنصعد إلى قلعة السفينة الخلفية وننتظر».

قال الربَّان: «كنت أفضِّل أن...».

تبسَّمت ڤيجا وقالت: «سأجلس عليك بدلًا من ذلك؟ إن أحببت».

وكعادتها، لم يُدرَ أهو تهديد أم غزل. وأخذه الربَّان على أنه مزيجًا من الأمرين.

قال: «لا، لا، القلعة الخلفية... لكم».

قالت ڤيجا: «رائع. نادني إن بدَّلت رأيك».

وكان البارون يقول، وهو يصعد الدرجات: «كانت هذه من أطول مهامِّ المعبد بلا شكٍّ».

قالت بابتيست، وهي تنزلق على السارية حتَّى جلست مستندة إلى ظهرها: «لكن كاهننا نجا! هل حدث هذا من قبل؟».

قال يعقوب: «الأم بييرو صمدت ثلاث مهمات. لكن ذاك قبل عهدك».

- وما كان مصيرها؟

اتكأ يعقوب على الحاجز، عابس الوجه، محدِّقًا إلى البحر، وقال: «خيرٌ ألا نتكلم في الأمر».

وأما ما كان من شعور النصر عند رؤية تتويج أليكس أخيرًا، فقد بدأ يتلاشى تدريجيًّا بينما الأخ دياز يتأمل ما سيأتي: «ما التالي في رأيك؟».

قالت بابتيست: «في حياة معبد الذرائع المُقدَّسة، ما كنت لتخمن قطُّ ما يكون بعد».

قال يعقوب متفكرًا: «شياطين في دوسلدورف؟».

تأففت ڤيجا: «ساحرات في ويكسفورد؟».

تردد بالثازار: «عفاريت في جدانسك؟».

قال البارون: «جدانسك جميلة هذا الوقت من السنة».

قالت بابتيست، ناظرة إلى الشمس الآفلة، وأشعتها تتلألأ على الماء: «لعلِّي أؤجل التقاعد. لأرى كيف ستؤول الأمور في المهمة التالية...».

قال يعقوب وهو يهزُّ رأسه: «كل مرَّة. تتذمَّر طيلة الرحلة، ثم تبقى لمهمة أخرى».

قال ريكارد: «الشيء الوحيد المؤكد يقينًا، أنه سيكون عملًا قذرًا».

قال الأخ دياز، ناظرًا بكآبة إلى الاحتفالات عند الرصيف: «كيف يكون غير ذلك؟ إن للأعمال النظيفة خُدَّامًا آخرين لدى قداستها».

قالت ڤيجا، وهي تخرج قارورة مُسكِر، ثم بطرفة إصبع قذفت السدادة في البحر: «وأما أول خطوة في رحلة بحرية ناجحة... فلنسكر حتَّى الثمالة».

* * *

قال أركيديوس: «وأما أول خطوة في تحالف ناجح، فأقترح أن نسكر شرَّ سُكر».

ثم انزلق عن السرير وخطا نحو الباب. وتقلبت أليكس بين وسائدها، وفرغت كأسها. لطالما ظنت أنها تكره الخمر. ثم تبين لها أنها تكره الخمر الرديء. أما الطيِّب، فقد استلذَّته كثيرًا.

صرخ زوجها في الرواق: «مزيد من النبيذ، أرجوكم!». ثم عاد متبخترًا إلى السرير وهو يبتسم: «أجد أن قلَّة من العلل لا يخفِّفها المزيد من الشراب».

سألت أليكس: «ماذا عن فأس في الرأس؟».

فكر هنيهة ثم هز كتفيه وقال: «لن يزيده سوءًا».

دخلت إحدى الوصيفات تتسلل خلفه، عيناها على الأرض. بلاسيديا، وكانت أليكس شبه متيقِّنة من ذلك، تحمل إبريقًا جديدًا على صينية من فضة.

قالت أليكس، وقد كانت سكرى إلى حدِّ المزاح، أو نصف سكرانة ربما: «ماذا لو كان هذا مسمومًا؟». فلم يخطر لها في أسوأ ظنونها أن ليلة زفافها ستكون كهذه، وقد بدأت تستمتع بها.

قال أركيديوس، وهو يرفع الإبريق إلى فمه ويشرب منه مباشرة: «الارتياب مذموم في الزوجة، لكنه في الإمبراطورة فضيلة واجبة. أليس كذلك؟». ثم التفت إلى بلاسيديا، وعُقد حاجباه وقال: «أأعرفك؟».

قالت أليكس: «هذه بلاسيديا. من أسرة لا غبار عليها».

قال: «بعكسنا نحن... سأتذكر بعد لحظة...».

رفعت بلاسيديا بصرها، فصفق أركيديوس بأصابعه وقال: «وجدتُها! لو كان شعرك أسود، لكنتِ نسخةً تامة... من إحدى تلميذات والدتي...».

مالت بلاسيديا برأسها وقالت، وقد ألقت صينيتها فتدحرجت على الرخام بصوتٍ حادٍّ: «أوه، كم ضقت ذرعًا بهذا».

قالت أليكس، وقد تمسكت بأحد أعمدة السرير لتنتصب جالسة: «مهلًا... ماذا؟».

أطلت زينونيس برأسها من الباب. لم ترَ أليكس لها ابتسامة قط، لكنها الآن تبتسم. ابتسامة مشرقة وجائعة. وعلى جانب وجهها نُقَط دم. قالت: «أأدركوا الأمر؟».

قالت أليكس، بالكاد تمتمت: «انتظري... ماذا؟». فقد تلاشى دفء الخمر، وحلَّ محله رعب كالجليد.

فتراجع أركيديوس خطوة وقال: «أوه، لا...».

قبضت بلاسيديا على معصمه وقالت: «أوه، بلى».

صاح متألمًا، محاولًا انتزاع نفسه، وقد ابيضَّ موضع يده حيث أمسكته. قال: «آه!». وكان الزغَب الجليدي ينتشر من يدها، وعروقه تنتفخ بلون أزرق مسود. فسقط الإبريق من يده وتحطَّم، وانسكب النبيذ نصف المتجمد من حطامه.

ثم استدار ببطء إلى أليكس، وبصوت متخشب همس: «اهرُبي...». وتحول لفظه إلى نفس دخاني فوق شفاهه الرمادية، والجليد ينتشر في وجنتيه، وعيناه تلبَّدتا بالحليب.

صرخت أليكس: «تبًّا!». ثم تدحرجت عن السرير، والتفَّت حولها الأغطية، وارتطمت بالأرض وسط سُحب من الوسائد.

قالت زينونيس وهي تزحف نحوها، أسنانها مكشوفة، وشعرها يتمايل مع لفحٍ حار من اللا شيء، كما فعلت الساحرة النارية في النزل، وقد خنقت أليكس هذه الذكرى بالرعب: «مولودة في النار؟ فلتلقين حتفك فيها...».

قالت أليكس، وهي تقذف كأس النبيذ الفارغ: «اللعنة عليكِ!». وارتطم خد زينونيس ثم تهشَّم على الجدار. فدارت أليكس، وانزلقت، وزحفت على أطرافها نحو الكنيسة، وقدماها العاريتان تنزلقان على الرخام.

قالت: «يا إلهي...». ثم التفتت مذعورة خلفها، وهي تترنَّح نحو اللوحة السرية، وتلمس الأقفال المخفية.

تجمد أركيديوس، وخدُّه يلمع بثلج ناعم، وضباب بارد يتصاعد من شعره الذي غدا أبيض كالفرو. ثم صفعته بلاسيديا بزئير، فتهشَّم جسده كلُّه إلى شظايا، وارتدَّت قطع من الثلج الوردي على الأرض المصقولة. ثم رمقت أليكس بنظرة حادَّة، وألقت بيد زوجها المتجمِّدة من فوق كتفها.

ثم بطقطقة انفتح الباب السري، واندفعت أليكس خلاله، تتشبث بالإطار. وقد نهضت زينونيس، والدم يسيل على وجهها من شق في خدها. وبدأت جدارية خلفها تسودُّ وتدخِّن، ثم رفعت يديها وأطلقت موجة عمياء من اللهب.

فأغلقت أليكس الباب دفعة واحدة، وقد اشتعل الجو من حولها، وحرارته كلكمة على الوجه. تراجعت مترنِّحة في الظلام، تلطِم أطراف ثوبها المحترقة، تسعل من رائحة الكبريت.

قالت: «يا إلهي...». وكان عندها من الوعي ما يكفي لتأخذ المصباح من محجَّته: «يا إلهي...». ثم أنزلت غطاءه ورفعته مرارًا حتَّى اشتعل الضوء: «يا إلهي...». أكان الباب يتوهَّج؟ أكان الدخان يخرج من الخلف؟ أكان الممرُّ يزداد حرارة؟ ثم ترنَّحت، تزيل خيوط العنكبوت، حتَّى وصلت إلى الغرفة الصغيرة ذات النافذة الصغيرة، حيث جرى حديثها الأخير المرير مع ساني. كم تمنت لو أنَّ ساني هنا الآن، لكن الجميع رحل. ساني، ويعقوب، وڤيجا، والأخ دياز أيضًا، جميعهم في طريقهم إلى المدينة المقدسة...

الدوق مايكل! غرفه في الطابق الأسفل. والحراس سيظلون أوفياء له. ركضت نحو السلم الضيق، والحجر بارد تحت قدميها العاريتين، وخطت خطوة واحدة إلى الأسفل، وترددت أصوات من تحت. خطوات تُجَر؟ أكان أحدهم يصعد؟

قالت: «يا إلهي...». ملئت رائحة الحريق فمها. وخدشٌ حلقها. فقبضت على طرف ثوبها بيد، والمصباح بالأخرى، وصعدت الدرجتين في كل قفزة، كتفها العاري يحتكُّ بالحائط. انزلق الإكليل الذهبي فوق عينها، فنزعته ورمته يتدحرج إلى أسفل الدرج.

ثم دفعت بابًا فانفتح إلى قاعة العرش، المضاءة بأربعة مصابيح معلَّقة، والشمس توشك أن تغيب خلف النوافذ العظام، تلطخ عرش الأفعى بالأحمر القاني. هرعت نحو الأبواب البرونزية العظيمة، وجذبت أحد مقابضها. وما إن انفتح شقٌّ حتَّى سمعت صراخًا بعيدًا، وقرقعة لهب. أكان ذاك ضحك فرح؟

تراجعت، تحدِّق حولها بجنون. جداريات، تماثيل، أسلحة مشدودة إلى الجدران. لا مأوى. خلف العرش، يصعد درج ضيق. هو الدرج المؤدي إلى شعلة القديسة نتاليا. فركضت إليه، وسحبت جسدها صعودًا بيديها وقدميها، ككلبة. الإمبراطورة الكلبة، وأنفاسها اللاهثة تتردَّد في الأرجاء.

ثم اندفعت، ترمش في الضوء، إلى الرواق العلوي، أزهى من ضوء النهار، وشعلة القديسة نتاليا تتأجج من الوعاء في المركز. فتراجعت حين التفتت إليها هيئة مظلمة، لكنَّها لم تكن سوى راهبة من أخوات الشعلة، في قلنسوتها الحمراء، وقد أقسمت الصمت، وأقسمت ألا تُطفئ الجمر أبدًا.

لا شيء هناك سوى حِزَم الحطب المصفوفة حول الحاجز، والاثنين والعشرين قوسًا أسفل القبة العاكسة... والسلسلة المتدلِّية. تلك التي تنذر المدينة بقدوم الإلف. وقفت أليكس لحظة تحدِّق إليها. لكن ما بقي لها شيء كثير تخسره. فاتسعت عينا الراهبة حين مدَّت أليكس يدها إلى النهاية وجذبتها. فانفتحت الجرة أعلاها، ومع فرقعة وهمس وانفجار شرر ذي رائحة كريهة، اندفعت سُيول من البودرة إلى المجمرة.

***

في البحر اندفعت سُيول من ماء المجاري الأسود، وراقبها بالثازار مأخوذًا، تتسع دوائرها، ثم تبتلعها الأمواج القادمة، فتلطم حائط المرفأ، ثم ترتدُّ، تنقسم وتلتقي في رقصة عجيبة متشابكة.

ثم ارتدَّ فكره مرَّة أخرى إلى الساحرتين التوأم اللتان لقيهما عند دير القديس سبستيان. طريقتهما المتماثلة، ونتائجهما المتعاكسة. أمواج. في التراب. وفي الهواء. هيكل مشترك لكل مادة... لم يبارحه ذلك التصوُّر. كان كاملًا، جميلاً في سهولته، متسقًا مع الكون المنتظم

الذي ما زال مصرًّا على الإيمان به. أيمكن أن يُبعث موجٌ في أي شيء، بالسحر المناسب...

سألت ساني: «ما ذاك؟». فتبع بالثازار إصبعها الطويلة، ناظرًا إلى قمة المنارة. وهناك في العتمة، توهجت شعلة القديسة نتاليا زرقاء مضيئة في عتمة المغيب.

قطَّب الأخ دياز ناظرًا إليها وقال: «ظننتهم لا يفعلون ذلك إلا عند غزو الإلف؟».

فشعر بالثازار بتلك الهاوية المألوفة في أحشائه. ذاتها التي شعر بها كلما حاول كسر الرباط وفشل. وذاتها حين قُرئ الحكم في محكمة السماويين. وذاتها حين انقضَّ عليه صائدو السحرة من القبور.

لاحظ يعقوب وبعض من على الرصيف ذلك أيضًا وأخذوا يشيرون ويتحدثون بحماسة، فقال غاضبًا: «ثمَّة خطبٌ ما».

قال بالثازار متألمًا: «ليس شيئًا يعنينا، أليس كذلك؟».

قفزت ساني من مؤخرة السفينة إلى السطح، عابرةً القبطان الذي كان يأمر بإغلاق منفذ الشحن الأخير: «أليكس في خطر».

قال بالثازار متوسلًا: «لا نعلم ذلك. لا يمكن أن تعلم هي ذلك!».

قال يعقوب، وقد سحب بضعة إنشات من فولاذ سيفه، ثم أعاده إلى غمده بضربه: «وإن لم يكن ثمَّة ما يُقلق، نعود سريعًا».

قال بالثازار متأوِّهًا: «إنها إمبراطورة طروادة، ستكون دومًا في ورطة! لا يمكننا إنقاذها من كل طارئ تافه!».

قالت ساني: «لن أطلب من أحد أن يأتي...».

قال الأخ دياز، قابضًا على القارورة تحت ثوبه: «أنا قادم».

قال يعقوب: «قد يكون في الأمر خطر».

ضحكت ڤيجا وهي تنهض، وتصفع مقعد سروالها: «وأين المتعة في الأمان؟». وكانت بابتيست قد شرعت تتسلق من مكانها عند السارية كذلك.

قال بالثازار، نافخًا أنفه بامتعاض وهو يراقب: «أثق أنكِ على الأقل لن تغامري بجسدك؟».

قالت بابتيست، وهي تراجع خناجرها، ثم ترفع بصرها نحو المنارة وتشدُّ فكَّها: «يأتي وقتٌ لا بُدَّ فيه من مد العنق».

قال بالثازار، وقد عقد الدهشة لسانه: «ماذا؟ أنا لن أذهب، وهذا قرارٌ نهائي!».

قالت، وهي تربت على ذراعه في مودة، ثم تهرول إلى الدرج المؤدي إلى السفينة: «بالطبع لن تذهب». ولم يكن في قولها هذه المرة أيُّ مرارة. لا اشمئزاز ولا ازدراء. ومع ذلك، شعر في كلماتها تلك من الوخز ما لم تبلغه إهانة قبلها.

صرخ القبطان وهو يراهم يركضون عبر الجسر: «لقد أزعجتموني طوال النهار تطلبون الرحيل! والآن لما جهزنا، تودُّون البقاء؟».

صاح بالثازار من خلفهم: «لن ننتظركم إذًا!».

ثم التفت إلى البارون ريكارد، وهو لا يزال مستندًا إلى حاجز السفينة، تمامًا كما كان حين لاحظوا لون الشعلة، وقال: «يسرُّني أن أراك على الأقل ما زلت تحتفظ برؤيتك الصائبة».

قال مصَّاص الدماء وهو يراقبهم بعادة ابتسامته الرائقة: «دائمًا».

قال بالثازار: «أشهرًا كنت مقيدًا لحمايتها، وجاهدت بكل وسيلة للتحرر من ذلك. والآن وقد فُكَّ القيد، أرفض أن أواصل الكفاح لأدعها تهلك!».

قال ريكارد: «قرارٌ عقلاني تمامًا. ما كنتُ لأتوقع غيره».

سأله بالثازار: «ما الذي يدور في رؤوسهم؟».

قال ريكارد: «من يدري؟ كلٌّ يختار خياره في النهاية، لأسبابه الخاصة. وحده. مع ضميره». ثم كشف عن أنيابه بابتسامة وقال: «مهما يكن من أمر هذا الضمير».

قال بالثازار، مزمجرًا: «حقًّا. تمامًا».

قال ريكارد: «ولهذا السبب سأذهب أنا أيضًا».

حدق بالثازار إليه وقال: «أنت؟ إلى هناك؟».

قال ريكارد: «لعلَّ الإمبراطورة أليكسيا في خطر».

قال بالثازار: «لكن... أنت مصَّاص دماء!».

قال ريكارد، واضعًا أطراف أصابعه برقة على صدره: «ألا أملك قلبًا؟».

تجمد بالثازار في مكانه، مشدوهًا كما لم يفعل حتَّى مع بابتيست. وقال: «كل هذا الوقت كنت تراقب جهودي في كسر الرَّابط... وتشجعني عليها... لتكسرها بنفسك...».

قال ريكارد، مبتسمًا بغمزة خفيفة: «أهذا ما ظننته؟ شجعتك لأنني وجدت محاولاتك مسلية. وللإنصاف، بلغت في الفشل أقرب ما يكون إلى النجاح من أي ساحرٍ عرفته. أي أنك كنت بعيدًا كل البعد. لكنني لم أرد كسر الرباط بنفسي قط. ولا احتجت إلى ذلك».

قال بالثازار: «لكن... ماذا...».

قال ريكارد، واضعًا يده بلطف على كتفه: «مشكلتك يا بالثازار، أنك تظن أن كل شيء يجب أن يكون ذكيًّا. الرَّابط يعمل على الروح يا بالثازار». ثم رفع كتفيه وقال: «وأنا مصَّاص دماء. لا روح لي».

قال بالثازار، يتلمس الكلمات كما يتلمس الأعمى موضع الخلاء: «لكن إن لم يكن الرباط يؤثِّر فيك... فأنت... جئت إلى هنا باختيارك؟».

قال البارون، وهو يربِّت على كتفه مودعًا: «حين يبلغ المرء سني... لا بُدَّ له من عمل يملأ به وقته». ثم انفجر في سرب من الخفافيش، تصرخ وتطير نحو المساء.

قال القبطان، وقد صعد لتوه إلى مؤخرة السفينة، وبدأ يرسم دائرة الإيمان على صدره، مشلول الذهول: «يا مخلِّصتنا، احفظينا...». ثم صرخ نحو رجاله: «حلُّوا الأربطة! نغادر الآن!».

استدار بالثازار إلى الرصيف، وصاح، مغتاظًا: «لن أفعل ذلك، تبًّا لكم! قد فعلت ما طُلب مني. بل فعلت أكثر مما طُلب! لا تستطيعون إرغامي على الذهاب!».

وما من أحدٍ كان يسأله أصلًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

64

لغة العنف

إنهم قادمون.

سمعت أليكس وقع أقدامهم في قاعة العرش أسفلها، نقرًا واثقًا لأحذيةٍ نفيسةٍ على أرضٍ نفيسةٍ.

حدَّقت حولها بعينٍ يائسةٍ في عشِّ النسر على قمة المنارة، يغمره الآن ضياءٌ أزرقُ سقيمٌ، يومض من آلاف آلاف الشظايا الزجاجية التي غشت جوف القبَّة.

إنهم قادمون.

صرخةٌ شنيعةٌ مزَّقت حجبَ الليل. فحيحٌ كفحيحِ البخارِ من أسفل، ثم غدت الصرخة أنينًا فائِرًا، ثم انقطعت.

تسمَّرت أليكس في مكانها، والعرق يدغدغ فروةَ رأسِها. من وهجِ الشعلة. من وعثاءِ الصعود. من رعبٍ سافرٍ لا يُطاق. والراهبة شاخصةُ الفاه، لا يُدرى أَمُتشبِّثةٌ بيمينِ صمتِها أم أنَّها فقدت قدرتَها على الكلام.

إنهم قادمون، ولا مخرج.

بل إنَّ هناك عشرين مخرجًا، غير أنَّ ما وراء كلِّ قوسٍ واسعٍ لا يُرى إلَّا منظرًا باهرًا لإمبراطوريتها المظلمةِ، وسقوطًا هو الأطول في أوروبا. بلغت الخطى الدَّرَج أسفلها.

قالت أليكس: «يا إلهي». فاندفعت إلى أقرب فتحة، وانحنت على حافةِ الشرفة، وانقلبتْ معدتُها.

هوَّةٌ سحيقةٌ ترامياتٌ من الشفق تحتها. جدارُ الفنارِ منحدرٌ، وجانبُ العمودِ منحدرٌ بعده، ثم أنوارُ المدينة كأنَّها رؤوسُ دبابيس، ففوانيسُ السفنِ في الخليج، فبقايا الغروب تتلألأ على مرآةِ المرفأ السوداءِ.

حين فرت من رجالِ قسطنطين الأسماكِ بين الحبال، ظنَّت نفسَها في علوٍّ شاهق. ما أحقرَ غطستَها يومئذٍ في الأدرياتيك البارد مقارنةً بما تشهده الآن. ولا رحمةَ في ذلك إلَّا أنَّ باسيل البنَّاء كان مولعًا بنقوشِ الزينة، لا يوفِّر جهدًا في أعمدةٍ زائفةٍ، ونوافذَ خدَّاعةٍ، ونباتاتٍ منحوتةٍ، ووجوهٍ وبهائمَ، فجعل يضع نقشه في كل موضعٍ.

التقطت الريحُ العاليةُ الباردةُ شعرَ أليكس وعبثت به في وجهها المتقرِّح، ورفرفت بثوبها الشفَّاف حول ساقيها المقشعرَّتين. وسمعت أصواتًا على الدَّرَج.

قالت: «يا إلهي».

فكَّرت في أركيديوس، مكسورًا إلى آلاف الشظايا الجليدية.

لا أحدَ يرغب في رؤيةِ الشكوك.

فجلست على أسماءِ القرونِ الغابرة، وعضَّت على نواجذها، ومدَّت ساقيها كلتيهما. ثم انزلقت، متشبِّثةً بالحاجزِ المجاور، حتَّى حفر الحجرُ البارد تحت إبطيها، وقدماها الحافيتان تتخبَّطان في الهواء إلى أن لامست إصبعها شيئًا بارزًا من جدار البرج. غولٌ حجريٌّ. لم تكن ترى جدوى من هذه القباحات يومًا، لكنَّها الآن شكرت الربَّ عليها. تمايلت عرضًا، جالسةً على رأسِ حجريٍّ صغيرٍ لا يسع قدميها كلتيهما. عضَّت على نواجذها بصلابة، وتطلَّعت إلى أسفل، مركِّزةً على أصابعها. لا إلى ما وراءها. لا إلى ذلك البعدِ المُبتلِعِ المُغثي. لا إلى الأبنيةِ الصغيرةِ والأنوارِ النقطيَّة والسقوط. كم تطول مدَّة السقوط؟

- يا إلهي.

قالت لنفسها إنَّ ذلك لا يهم. ومن ذا يكترث إن انكسر عنقُها فحسب، أو انفجر جسدُها حساءً؟ ما الأمر إلَّا كأنَّها سارقةٌ تتسلَّق ماسورةً خلفيَّة لأحد التجار. أرغمت نفسَها على تركِ الحاجز، وكفَّاها تنسلَّان على الحجر، فيما تثني ركبتيها، رويدًا، رويدًا، والريحُ الباردةُ تلسع كتفًا، والحجرُ الباردُ يخدش الأخرى، وهي تلهج بالدعاء ألا تفقد التوازن.

- يا إلهي.

دقَّ قلبُها في فمِها. ودقَّ خلف عينيها المحترِّقتين. أوصلت أطرافُ أصابعِها المجهدةِ المتنمِّلة إلى الغول، وفخذاها تنغرز في بطنها المضطرب. رفعت قدمًا عنه، ثم الأخرى. قرناه الحجريان القصيران خدشا ساقيها، ثم ركبتيها، ثم بطنها، ثم صدرها. ذراعاها ترتعشان، وكفَّاها تحترقان من الجهد وهي تُنزل نفسَها، معلَّقةً فوق الفراغ، كل عضلةٍ تؤلمها وهي تتمدَّد.

لطالما تمنَّت أن تطول، لكنَّها لم تتمنَّها قط كما تمنَّتها في تلك اللحظة.

لامس رأسُ إصبع يبحث عن ثباتِ الحجر، ومع أنَّةٍ خافتةٍ، سلَّمت أمرها للقدر وتركَت. فضربت عقباها حافةً، فنهضت تلهث، ملتصقةً بتجويفٍ ضحلٍ، واحدٍ من سلسلةِ تجاويفَ تطوِّق المنارة، تقابل صفَّ الأقواسِ في الأعلى.

قال صوتٌ من فوق: «أين هي؟»، فشدَّت أليكس جسدَها أكثر إلى الصخر، لا تجرؤ حتَّى على التنفُّس.

- سألتك، أين؟

هبت فجأةً هبَّةُ ريح، تبتغي قلعها من المنارة، وأكمامُ ثوبها الإمبراطوريِّ المحروقة تصفع وجهها، فغرزت أطرافَ أصابعِها في أوراقِ كرمةٍ منحوتةٍ، وتشبَّثت تشبُّثَ الميتِ بالحياة.

قال الصوت: «أأنت أختُ الشعلة؟ أستطيع أن أعطيك شعلة». ثم دوَّى صراخٌ شنيع. لم تستطع أليكس كتمانَ شهقةِ الفزع إذ اندفع شيءٌ يهوى بجانبها، متَّقدًا بضياءٍ ساطع، يتخبَّط بجنون، يصيح كإبريقٍ يغلي.

الراهبة.

قالت بلاسيديا، وصوتُها باردٌ حتَّى لم تصدِّق أليكس أنَّها الفتاة التي سرَّحت شعرَها صباحًا: «كان ذاك هدرًا».

قالت زينونيس: «لا كلام بعد الآن. لا مؤامرات. لا تقليمَ لأظفار تلك الفأرةِ الخرقاء. آن أوانُ استرداد ما لنا».

قالت الأخرى: «إذًا لا بُدَّ أن نمسك جرذتنا الصغيرة ونقتلها».

عندها أدركت أليكس، برعبٍ جديدٍ، أنَّ بلاسيديا تقترب من الحاجز وتنحني لتطالع أسفل. فشفطت بطنها إلى الداخل، وانكمشت على المنارة، تنأى عن الوميض الأزرق فوقها، عيناها مغمضتان بإحكام، وأصابع قدميها ترتجف متمسِّكة بالحافة، وأطراف أصابعها تنبش النقوش، تمسك بطرف من ثوبها المرفرف لئلا يفضحها، وتحبس أنفاسها كما تفعل ساني، وتتمنَّى لو استطاعت أن تختفي مثلها.

وفي أي لحظة، ستسمع الضحك القاسي، وترى الوهج يمرُّ عبر جفنيها، وتحسُّ باللهيب، وتتبع الراهبة المسكينة إلى أسفل، أقصر وأبأس عهدٍ في تاريخ طروادة ينتهي بشعلةٍ بشرية...

قال صوت بلاسيديا وهو يبتعد: «إلى الأسفل. فتشوا قاعة العرش من جديد».

فأطلقت أليكس زفرةً مرتجفة. ودت لو تنتحب أو تعوي أو حتَّى تصرخ، لكنَّها لم تجسر على النطق همسًا. أرغمت قدميها على الحركة، أن تزحف على ذلك الرفِّ الحجري. فنزعت ظهرها المبلَّل عرقًا من الحجر، واستدارت لتواجه الحائط، قدمٌ تتلمَّس الفراغ، وأصابعها تمتدُّ نحو حافة التجويف التالي...

خفق شيء نحوها، خبط من حولها، أجنحةٌ ترفرف، ومناقير تصيح. فانفلتت يدها، وتدلَّت بالأخرى، تتشبَّث بالفراغ، وثقلها يتمايل نحو السقوط، تتأرجح بلا سيطرة، فأطلقت شهقةً مبحوحة...

ضرب حجرٌ وجهها، فامتلأ رأسها بالنجوم. ثم تعلَّقت بأظفارٍ مكسورة مرتجفة. وملحٌ في فمها. ورأسها يدور. كانت قدماها على الحافة التالية، مغروزةً بين حطام أعواد، زلقة بروث الطيور وبيضٍ مكسور. ورأت أعشاشًا في العلوِّ. حاولت أن تتنفس ورأسها يدور، وألمٌ نابض في فكِّها.

أدركت أنَّ بجوار التجويف عمود. فزحفت إليه، ولفَّت ساقيها حوله، وتشبَّثت بأوراقٍ منحوتةٍ في أعلاه. حاولت أن تنزل ببطء، لكنَّها ما بدأت حتَّى انزلقت، ترتعش، تتخلخل، تشقُّ غرز ثوبها ليتمزَّق القماش الشفَّاف.

أغمضت عينيها، تئنُّ بين أسنانها، والحجر الخشن يسلخ جلدها...

ثم اصطدمت قدماها بشيء، وأدركت أنَّها توقَّفت عند حافة في قاعدة العمود. وبجوارها نافذةٌ عظيمة، واحدةٌ من نوافذ قاعة العرش، ونور المصابيح ينساب منها إلى الغسق.

وقد قضت أليكس ليالي سيئة في الشوارع، لكنَّ فكرة «الداخل» لم تكن قط مغريةً كما الآن.

زحفت بقدميها المجروحتين نحو النافذة، وتشبَّثت بالإطار بأصابعها الدامية، وتطلَّعت إلى داخل القاعة، فتجمَّدت من جديد. ها هنَّ هناك. بلاسيديا مقرفصة، أطرافها الطويلة تبدو أطول من أيِّ وقت، عيناها غائرتان في هالاتٍ سوداء، وشفاهها مائلة إلى الزرقة، وجواهرها تتلألأ بالصقيع. وزينونيس واقفةٌ بجانبها، خطوط الدم تسيل على وجهها من الجرح الذي أصابتها به أليكس، وعيناها واسعتان جامحتان، وثوبها المحروق وشَعرها المتلألئ يتحرَّكان كأنَّهما في لفح نار. وإلى جانبهما، اثنتان من ساحرات يودوكسيا المفقودات، كنَّ معها طوال الوقت. لعنت

أليكس في سرِّها. أناسٌ بهذا البهاء، يخدمون خرقةً مثلها؟ لقد نسيت آخر دروس جال ذات الصرة! لا تثق أبدًا بالأغنياء. فهم أغدر من الفقراء.

قالت زينونيس، وهي تنكز شيئًا بطرف حذائها: «كيف أفلتت؟»، وكان ذاك الشيء كومة من دهنٍ يغلي ودِرعٍ مسوَّدة، لعلّه كان حارسًا يومًا.

قالت بلاسيديا، وكل كلمة تخرج منها كأنَّها نفثة دخانٍ بارد: «الجرذان مخلوقاتٌ ذكيَّة، حين يتعلَّق الأمر بثقوبٍ يختبئن فيها. أخبري الباقين أنَّنا سنضطر إلى الطريق الصعب. فتِّشوا القصر، واقتلوا كل من يُحتمل ولاؤه لها».

قهقهت زينونيس وقالت: «يعجبني الطريق الصعب».

وارتدَّ بصرها البارق نحو النافذة، فانكمشت أليكس على الصخر، وأغمضت عينيها، ثم فتحتهما فجأة.

الدوق مايكل! لا بُدَّ من تحذيره!

وربَّما، ربَّما فقط، يستطيعان معًا النجاة من هذا.

تشبَّثت بجدار قصرها من الخارج، وهبَّت ريح باردة لفحت عجزها العاري... هل شعرت بنقط مطر في الهواء؟

قالت: «يا إلهي...». وأيُّ فتاة لا تهاب المطر في يوم زفافها؟

مع أنَّ أغلب العرائس لا يتسلقن منارات عظيمة بعدما يتهشم العريس إلى ألف شظيَّة.

* * *

لم يكن يعقوب يومًا رجل كلام. لكنَّه، في لغة العنف، كان شاعرًا.

ترعرع فيه منذ أن كان رضيعًا، ونطق به بطلاقةٍ قبل أن يمشي. ورغم ما بذله لتعلّم غيره، بقي العنف لسانه الأول. عرف له كل لهجة، من معركة حانة إلى ملحمة ميدان. وأدرك كل لطائفه وتعابيره. فكان لسانه الأم، ولا سواه. فلمَّا سمعه يُهمس في طرقات طروادة، فهم معناه.

نغمة وحشية في أعين المحتفلين، ونبرةٌ صادحة في صراخهم وهم يشيرون من خلال الرذاذ نحو شعلة القدِّيسة نتاليا التي ما تزال تتَّقد بزُرقةٍ شبحية. ولئن كرهت عامة أوروبا الإلفيين، فإنَّهم عند أكثرهم شرٌّ بعيد، كُل عشاءك وإلَّا أكلك الإلف. أمَّا هنا في طروادة، حيث طغى توحُّشهم المفجع على خرائط الذاكرة القريبة، فالحقد والرعب ضربٌ آخر، أبق سيفك حادًّا، وعينك يقظة، لئلَّا يأكلوا أهلك كما أكلوا جدَّك.

وقد احتشد جمعٌ مبتلٌّ أمام المصعد، يحجزهم صفَّان من حرَّاس القصر. وصاح قائدهم: «كل شيء على ما يرام!»، مع أنَّ سيفه المسلول لم يطمئن قلبًا: «الإلفيين لن يأتوا!».

قالت ڤيجا بصوت خفيض وهي تخترق الحشد الغاضب: «إلفٌ واحد لا أكثر».

صاح الراهب: «أنا الأخ دياز!». وقد خرج من خلفها، لم يُبدِ ذعرًا من الفولاذ العاري: «مبعوث قداسة البابا، وأخشى على سلامة الإمبراطورة!».

تمتمت بابتيست من جانب فمها: «من هذا الوغد الوقح، وماذا فعل بالأخ دياز؟».

قال القائد بنظرة مرتابة: «أعرف من أنتم. لكن لا يوجد ما...».

قال دياز، قاطعًا: «فلمَ الشعلة الزرقاء؟»، وغمغم الجمع بموافقةٍ ساخطة.

انسلَّ يعقوب أمامه وأشار إلى القائد أن يقترب، ناصحًا كصاحب حرفةٍ لصاحب حرفة. وقال: «لا نبتغي أن نزيد همَّك، ولكنَّ لنا من يأمروننا وعلينا أن نجيب».

قالت بابتيست، وذهبٌ في فمها يتلألأ حين ابتسمت: «دعنا نصعد، وسنُعينك في تهدئة القوم».

تأمَّل القائد الحشد المتكاثر، ثم نظر إلى جنوده. فرفع أحدهم كتفيه، وهزَّ آخر رأسه. قال: «حسنًا»، وأغمد سيفه واستدار نحو المصعد. «سنصعد معًا».

يعقوب فصيح في لسان العنف. كانت له ظنون، لكن حين ركبوا السياج خلفهم، وسحب القائد الذراع، ودارت الآلة، وبدأت المدينة تهوي عن أنظارهم، لم يَعُد ثمَّة ريب.

رأى كيف أنَّ واحدًا من الحرس جعل ثقله كله في قدمه الأماميَّة، جسده ملتفٌّ كقوسٍ موتر. وكيف أنَّ ثانيًا يُمسك بإبزيم حزام سيفه، وإبهامه يقرع، قرعًا عصبيًّا. وثالثٌ يراقب بابتيست، واقفًا قريبًا منها أكثر من اللزوم، وعضلةٌ تنبض على جانب رأسه.

قال الأخ دياز، باسمًا للحارس بجانبه: «سررت بمرافقتكم!». وكان قد أبدى علمًا عجيبًا في شتَّى المواطن. لكنَّه في لسان العنف، أمِّيٌّ لا يعرف أحرفها.

لم يعرف يعقوب عدد الحرس من حوله تمامًا، إذ لم يشأ الالتفاف، فلا يُكشف أمره، ولا يؤذي عنقه. فأبقى عينيه أمامه، وأخذ نفسًا طويلًا، وزفره بهدوء. والعجيب أنَّه لا يهدأ إلا في مثل هذه المواقف. وأحيانًا، أن تعلم ما سيأتي، عبءٌ ثقيل. وأحيانًا، راحةٌ لا توصف.

قال: «حرَّاس قصر الإمبراطورة من خير جند أوروبا عدَّةً وعتادًا».

أجابه القائد وهو يلمحه: «كل رجل يبتاع سلاحه بنفسه، من فرط ما يعتزُّ بالخدمة».

قال يعقوب، مُعجبًا: «سيقان الرماح من خشب الأكاسيا؟ تُجلب من إفريقيا؟».

رفعت ڤيجا حاجبًا يدلُّ على الفهم، نحو رماح الحرس الأربعة المقرَّبين، قالت: «من أجود الأنواع». وكانت، وإن غفلت عن المعنى في ألسنةٍ شتَّى، لا يخفى عليها شيءٌ من لسان العنف.

قال القائد، وقد قبض بيده اليسرى على سيفه: «وأنتم تحملون الباراميريون». واضطر إلى ترك قبضته ليُري الذهب على المقبض.

قال يعقوب، وهو يجعل يمينه مستريحة على خنجره، وإبهامه تحت القبضة: «لطالما أحببت السيوف المستقيمة. نشأتُ عليها. لكنِّي رأيت سيوفكم تفعل الأعاجيب، لا سيَّما على ظهور الخيول. الإمبراطورة لا تبخل على خاصَّتها، أليس كذلك أيها الأخ دياز؟».

قال الراهب، متجهِّمًا: «لا أظنُّ، ما بك أصبحت كثير الكلام، فجأة».

ربت يعقوب براحته على كتف الحارس المبلَّل بجانبه -وكان رقيبًا في وجهه ندوبٌ جعلته أخطر الموجودين - وقال: «إنِّي بين رجالٍ يتكلَّمون لغتي! خضت حروبًا كثيرة. كثيرة. لكنَّ ثمَّة عتادًا تفتقرون إليه. وقد يغيِّر ميزان المعركة».

زمجر الرقيب: «وما هو؟».

- إلفٌ خفيٌّ.

لفَّ صمتٌ المكان. فأطلق القائد ضحكة مترددة. وضحك رجلان من جنوده. أمَّا يعقوب، فبقي جامدًا، وأحكم قبضته على كتف الرقيب. وسرعان ما خمد الضحك، وطروادة تهوي تحت المطر المتقطِّع.

قال يعقوب: «لا، حقًّا».

كانوا جنودًا مَهَرة، لكنَّ قاموسهم في لسان العنف محدود. دُرِّبوا على الحرب، لا على عراكٍ في المصعد. وغريزتهم تقودهم إلى استخدام الرماح، أو سحب السيوف، وكلاهما لا يصلح في هذا الضيق.

أما يعقوب، فقد كان مرتاحًا في طعنات الأزقَّة ككماشة الفرسان الثقيلة. وما إن حرَّك القائد يده نحو سيفه، حتَّى رفع يعقوب قدمه. ومع أنَّه متكئٌ على كتف الرقيب، فلم يبلغ ما تمنى من الارتفاع، لكنَّها

أصابت القائد في خاصرته، فخطا للخلف. وذاك كافٍ، إذ تعثر بما لا يُرى، واندفع خارج الحاجز، واختفى عن الأنظار مع صرخةٍ عالية.

وفي كثير من اللغات، قد يكون الصمت البلاغيُّ فتاكًا. أمَّا في العراك، فكل ضربةٍ يجب أن تُسدد سريعًا، عسى ألا تترك لعدوك جوابًا.

استل يعقوب خنجره، وضرب مؤخرة مقبضه على فم الرقيب. فسقط الرجل يتفل أسنانه، ويعقوب يلوِّح بالنصل للجهة الأخرى. أدار الرجل عن يمينه وجهه، فلم يصبه في عينه، بل انزلق على خوذته وشقَّ منها قطعةً عظيمة من وجهه. ثم تقهقر، وأصابعه الملطَّخة تضغط على الجرح، ويده الأخرى تعبث بسيفه. فثبَّت يعقوب السيف وهو في نصف خروجه، وداس قدمه، ثم نطح وجهه المجروح، وأمسكه بدرعه الزلِقة، وأدار جسده، ثم رمى به نحو زميله، ومع عون قدمٍ خفيَّة في الوقت المناسب، هوَيا معًا خلف الحاجز.

تخبَّط الأخ دياز وهو متشابكٌ بالأذرع مع الحارس الذي كان منذ لحظة يُبدي بهجةً بمرافقته. أما بابتيست، فزأرت وهي تغرز خنجرًا في رجل، وسلاحٌ في كلِّ يد. ووقف آخر مدهوشًا يتخبَّط في غمد سيفه. ثم برزت ساني هنيهةً، تتنفس بشدَّة، متشبثة بذراعه.

تقدَّم يعقوب، ودفع بمرفقه حلق الرجل، فأسقطه أرضًا مطبقًا على عنقه.

وانطرح ثلاثة من الحرس وقد قُطعوا بالأرض عند قدمي ثيجا. فأمسكت بمعصم الرابع حين هوى عليها بهراوة، وقبضت خوذته باليد الأخرى، ثم دفعت بها إلى الحائط الخلفي وهي تدفعه عليه. فصرخ الحديد، وتناثر الشرر، وزعق الرجل إذ رُسم خطٌّ عريضٌ دمويٌّ على الجدار.

أما الحارس الأخير، فوقف عند الدرابزين، وذراعه المدرَّعة تطوِّق عنق الأخ دياز، وخنجره على حلقه. صرخ، يبصق مع كل حرف: «لا تقتربوا! ابقوا بعيدًا أيها الشياطين، وإلَّا قتلتُه!».

زمجرت ڤيجا وهي تدع الجثة تهوي: «لا أنصحك». ورأس القتيل لم يكن سوى كتلة مشوهة من لحمٍ لامع وحديدٍ، وذراعها الموشومة مغطاة بالأحمر حتَّى الكتف.

قال يعقوب وهو يبسط كفَّيه وأصابعه ترتجف من الألم: «فلنتوقف لحظة! لا تفعلوا شيئًا... متهورًا».

ثم أطلت ساني من العدم، تطوِّق ساعد الحارس بأسنانها وتغرزها في قبضته. فشهق مذهولًا، وأسقط خنجره، فتحنى الأخ دياز. وحين استعاد بصره، رأى ڤيجا قد قبضت على درعه بكلتا يديها، وجعلت تحنيها إلى الخلف فوق الدرابزين.

أمسك الأخ دياز بمرفقها وقال: «ڤيجا! انتظري!».

فكشرت عن نواجذها، وهي تدفع الرجل نحو الهوَّة متزايدة العمق، وهو يتخبَّط يائسًا في معصميها الموشومين، وقدماه تفقدان الأرض: «أنتظر ماذا؟».

صرخ الأخ دياز: «آمرك ألَّا تؤذيه! ماذا يجري في الأعلى؟ هل الإمبراطورة أليكسيا في خطر؟».

رمق الرجل ساني، ثم الأخ دياز، ثم يعقوب وهو يفرك مفاصله النابضة. قال: «لا حيلة لكم! مدعيتكم لن تدنِّس عرش الأفعى ل...».

قالت ڤيجا، وقد زمجرت وهي ترفعه: «أوه، أخرس»، ثم قذفته من فوق الدرابزين. وأطلق صرخة غير مصدقة، ثم تهاوى متخبطًا وغاب.

حدَّق الأخ دياز إلى أثره: «قلتُ لا تؤذيه!».

حكَّت ڤيجا رأسها وقالت: «تبًّا. نسيتُ على ما يبدو».

وكان ثمَّة مزيد من الحرس على قمة المصعد، لكن ساني لم تضيع فيهم لحظة. فأليكس تحتاج إليها.

حبست أنفاسها، وانطلقت جانبًا بين رؤوس الرماح المشهرة، وهم يصرخون بالتحدي، خارج المسار المرصوف وعبر شجيرات مختارة

بعناية في الحدائق المعلَّقة، نحو القصر. ولم يكن في ذلك مفاجأة، أن الشغب لم يقف عند المصعد. فالأصوات العنيفة تنهش سمعها من كل جهة، وضوء المشاعل يطغى بينما تركض الأجساد خلف الأشجار.

وقد ساعدت ساني على إشعال تمرُّدين، ولم يكن أيٌّ منهما ممتعًا. وهذا يشبههما كثيرًا. كتمت تجشُّؤًا، وتألَّمت وهي تبلع الحموضة. إذ كان رباط البابا يشتدُّ، يشدُّها نحو المدينة المُقدَّسة، وكأنَّها المعضلة الإضافية التي تلزمها الآن، وهي تحاول كتم نفسها وسط حرب أهلية.

لكن أليكس تحتاج إليها.

مرَّت بجنديين يتدحرجان على العشب المبلَّل، يتصارعان على خنجر. كان بإمكانها أن ترجِّح الكفَّة، لكن إلى أيِّ جانب؟ من مع الحقُّ؟ ومن مع الباطل؟ ومن هي، عدوَّة الرب، حتَّى تفصل بينهما؟ فتسلَّلت حولهما، وهم يتقاتلون للموت، وهمست باعتذارٍ صامت، ثم اختبأت وراء جذع شجرة كي تلتقط نفسًا آخر، ثم واصلت الركض.

وكان باب القصر مفتوحًا، وذلك سيِّئ. بلا حرس، وذلك أسوأ. فدلفت ساني عبر الرواق، ولوحات قاتمة لأباطرة وإمبراطورات مكفهرِّين تحدِّق إليها وهي تمرُّ. ثم وجدت شريطًا عريضًا من الدم قد امتصَّه طرف البساط، وطرطشةً واسعة على الحائط، ثم لطخات تقودها إلى الأمام، وآثار أقدام حمراء على الرخام. وكل ذلك بدا فظيعًا.

لكن أليكس تحتاج إليها.

عرفت موضع اللوح، وآليته على الجانبين، ففتحتهما ودخلت في عتمة أحد السراديب السرِّية، حيث استطاعت التنفس، وإطلاق تجشُّؤ موجع، ومسح العرق البارد عن جبينها.

ثم مشت نحو أقرب درج، وبدأت بالصعود.

***

زحفت أليكس على وجهها من نافذة الدوق مايكل، وتمرَّغت فوق مكتبه، تبعثر ما عليه على الأرض، وأخيرًا سقطت وتنهدت تنشج على سجَّاده.

رئتاها تتأججان، وقدماها تغطت بذرق الطيور، وكل عضلة فيها ترتجف من عناء التمسُّك بجدار قصرها المزلق تحت المطر. وثوب زفافها ممزَّق ومحروق، ملتصق بجسدها من البلل. وكل موضع ناتئ فيها -وما أكثرها- قد قُشِّر بحجر القصر، وما لم يُخدش، فقد برد حتَّى اقشعر جلده. ولم تشتهِ شيئًا أكثر من البكاء، ولكن الخطر ما زال قائمًا، وكذلك على الدوق مايكل.

فقامت، وركبتاها المسحوقتان ترتعشان، ويدها الملطخة بالدم تمسك حافة المكتب، وتجمع بالأخرى ما بعثرته -قلم ريشة، شمعة منطفئة، ورقة مكتوبة...

من مكتب هيئة الكنيسة الدنيوية إلى سموِّ الدوق مايكل النيقائي، في عيد القدِّيس جيروم، الخامس من شهر الكَظم.

أبلغتني عيوني وآذاني في البلقان أن خططنا أثمرت فوق المأمول. فالتحق الدوق ساباس بأخويه مارسيان وقسطنطين في الجحيم، والشياطين تحمل الأميرة أليكسيا الآن إلى طروادة.

بدا الأمر في البداية عصيًّا، لكنِّي بدأت أرى فيه عناية الرب، فقد خطر لي أن عرض الزواج الملكي قد يغري الدوق أركيديوس بالدخول في حالةٍ من الهشاشة، حالةٍ قد تسمح لتلاميذ يودوكسيا، الذين وُضعوا موضعهم

بعناية، بإزاحته عن مكانه. وقد يُضطرُّ إلى تتويج أليكسيا في النهاية، لكن ليكن عهدها أقصر ما تقتضيه الضرورة.

فإنَّ مصلحة كرسيِّ قداسة البابا الدنيوية، بل ومصلحة البشريَّة، أن تُرفع أنت إلى عرش الأفعى، وأن يُلتئم الشقاق بين كنيسة الشرق الضالَّة وأمِّها في الغرب، وأن تقود جيوش أوروبا المتَّحدة في حملة صليبيَّة جديدة ضدَّ آفة الإلف القادمة.

وأعلم أنَّك رجلٌ تملك نصيبًا وافرًا من الفضيلة الثالثة عشرة، فلا يداخلك تردُّد حين يُطلب ما يجب. وأدعو الرب أن يكتب لك التوفيق.

ولا حاجة إلى القول: الأفضل أن تُتلف هذه الرسالة.

زيزكا

لهنيهةٍ، لم تتنفس أليكس. حدَّقت إلى الورقة، والرعب يسري إلى أطراف أصابعها كثلجٍ ذائب.

فالدوق مايكل شريك في المؤامرة، ذلك الغادر! بل هو المستفيد الأكبر منها! خالها، يخطِّط لقتلها! وإن لم يكن خالها حقًّا، لكنَّه يجهل ذلك، ذلك الكاذب! فقبضت على الرسالة بقبضتها المرتجفة، ولطَّختها بالأحمر من أظفارها المشققة. والكاردينالة -تبًّا لزيزكا- شركاء كذلك! تلك المرأة أفعى...

قال صوت: «أليكس! أشكر الرب!».

فدارت نحو الباب، فإذا به هناك.

قال وهو يمدُّ يده: «علينا أن نُنقذك!»، وكان يبدو صادقًا، مخلصًا، قلقًا، حتَّى كادت تمدُّ يدها إليه.

قال وهو يتقدَّم خطوة: «أظنُّ أنَّ معظم حرَّاس القصر سيبقون أوفياء!»، فارتدَّت خائفة. ثم رأى الرسالة في يدها، وقال: «لكن لا نعلم...»، ثم انتقل نظره من الورقة المكرمشة إلى وجهها: «من نثق به؟».

نظر في عينيها، ونظرت في عينيه. تأخرت كثيرًا عن إخفاء صدمتها، تأخرت عن تمويه ما قرأت. وفي لحظةٍ، علمت... أنَّه علم... أنَّها علمت.

قال، متنهِّدًا: «آه»، وأغلق الباب بصوتٍ حاسم: «لا تقولي إنَّ أحدًا علَّمك القراءة؟».

الأنف نفسه، الفم نفسها، العينين نفسهما، لكن لا أثر للطيبة. لا ندم. لا شعور قوي البتَّة. رجلٌ كُلِّف فجأةً بعملٍ ثقيل.

همست: «كان عليَّ الإدراك. كان عليَّ الشك».

قال وهو يتَّجه إلى صندوق عليه إبريق وأكواب: «أنت تقسين على نفسك». وسكب لنفسه خمرًا: «فأنت في النهاية حمقاء، وهذا يسري في العائلة. أختاي كلتاهما كانتا غبيَّتين. يودوكسيا، معوقة منحرفة مهووسة بالألعاب. إيرين، مغرورة فاضلة لا تملك الجرأة لتوسيخ يديها. ولا تذكريني بأبناء أختي -حقد، طمع، غرور، كسل. لطالما كان عرش الأفعى من حقي». ارتشف رشفة وتنهَّد: «أنا أيضًا وُلدت في غرفة الإمبراطورة، لا تنسي. مايكل پايروجينيتوس، ألا يرنُّ في الأذن نغمة عذبة؟».

همست أليكس: «فلماذا بحثت عني؟ لماذا جلبتني؟».

- احتجت إلى طُعم. لا أكثر. رجوت أن تلهي أنتِ والشياطين أبناء يودوكسيا بما يكفي لأغرز قدميَّ في المدينة.

تمتمت أليكس: «ومن هناك حصلوا على المرسوم البابوي... أنت من سلَّمه لهم!».

قال وهو يغرغر الخمر في فمه ثم يبلعه: «وزَّعت نسخًا مسبقة. ما كنتِ لتكوني طُعمًا نافعًا إن لم يعرفك أحد. عائق سهل أنَّ مارسيان وجدنا مبكرًا. كنتُ سأكون بعيدًا قبل أن يتعقَّبك. كنت سأزعم أنني سقطت عن فرسي». واتَّخذ وجهًا حزينًا: «لا أستطيع المتابعة! تابعي دوني يا أليكس!». ثم ضحك، وهزَّ رأسه، كأنَّها نكتة رائقة: «لكن النتيجة كانت حسنة، أليس كذلك؟ ما كنتُ لأحلم أنك ستقضين على ثلاثة من الأربعة. عملٌ رائع!». ورفع كأسه وارتشف: «ثم، يا للمصادفة، وصلتِ إلى طروادة، فكنتِ الطُعم الأمثل لخصمي الأخطر. ظننتُ أني سأخوض حربًا جديدة ضد أركيديوس». ثم أعاد الكأس إلى الصندوق: «وما تدرين كم وفَّرتِ عليَّ من جهد».

زمجرت أليكس: «يسرُّني أن أكون في خدمتك اللعينة».

اختفت ابتسامة مايكل. وقال: «هل ظننتِ حقًّا... أن نسمح لخرقة قذرة من أزقة المدينة المُقدَّسة أن تجلس على عرش الأفعى؟ سارقة متسوِّلة تكون أمًّا لسلالة؟ قمامة تتوَّج إمبراطورة لطروادة؟». ثم استلَّ سيفه: «حقًّا، لا».

اقترب خطوة، فارتدَّت أليكس، وليس لها مهرب إلا أن تصطدم بالمكتب. نبشت أعلاه تبحث عن سلاح، فلم تجد إلا القلم الريشي.

قال مايكل، متقدِّمًا: «مؤسف أن نقول...». ورفع سيفه: «إنَّ القلم، في القتال... لا يغلب السيف...».

دوَّى ارتطام، فترنَّح، واستدار، يضرب الهواء. ورأت أليكس لمحة مفاجئة ومرحبًا بها من ساني، تنحني تحت النصل، ثم تختفي.

صرخ الدوق مايكل وهو ينخفض، وعيناه تدوران: «تبًّا ل... أوف!»، وانحنى، عيناه جاحظتان. وتمنت أليكس أن تركله -مرئية أو لا- لكن سيفه ما زال يدور في خطر، ثم أحسَّت قبضة على معصمها، فلم تملك

إلا أن ترمي بالقلم عليه وهي تترنَّح إلى الممر، تراقب الريشة تتطاير، والباب يُغلق وراءها.

فظهرت ساني، وأدارت المفتاح، ثم رمته بعيدًا.

همست أليكس: «عدتِ لأجلي؟».

قالت ساني: «بالطبع عدتُ».

- لا أستحقُّك.

قالت ساني: «بالطبع لا»، وجذبت أليكس عبر الرواق.

65

الجانب الحق والجانب الباطل

لطمت ڤيجا أحد الحرس على خوذته بسيفه هو، فانكسر النصل، وارتدَّ طرفه متدحرجًا على الحجارة المرصوفة. وهنا مكمن العلَّة في السيوف، أو لِنَقُل هذا، تفاهة أثمانها، والزيت اللا متناهي، والتلميع الذي لا ينتهي. لطالما فضلت ڤيجا شيئًا فيه ثقل. فانحنت حين هوى عليها حارسٌ آخر، ولفحت ريح نصل رمحه شعرها. أما هذا ففيه ثقلٌ بحق، ولهذا صفعته في فمه بمقبض سيفها المكسور، حتَّى تدلَّى رأسه، وانتزعت الرمح من يده المرتخية وهو يهوي، ثم قذفته برأسه نحو ثالث. فرفع هذا ترسه في حينه ليحرفه، فانطلق الرمح يخترق الأدغال، لكنَّ ڤيجا وصلت إليه، فلكمته من جهة، ثم من الأخرى، حتَّى ترنَّح، ثم أمسكته من درعه الغائرة، ورفعتها، وأدار جسده، فغرزت رأسه في الأرض.

لعلهم يستحقون، ولعلهم لا، لكنَّ هذا سؤال يُطرح بعد الموت، أو لا يُطرح البتَّة. الحياة معقَّدة، لكن القتال لا بُدَّ أن يكون سهلًا. اللحظة التي تمضيها تفكِّر في الحقِّ والباطل هي اللحظة التي يُغرز فيها رمح في صدرك. وكان أولاف يقول دومًا: «الندم نعمة بعد القتال، لأنَّه يعني أنك نجوت».

صاح الأخ دياز: «هيا!»، يعدو وسط الرذاذ المتهالك نحو القصر، ظلًا مسنَّنًا في العتمة المتكاثفة، وأنوار النوافذ العديدة تتوهَّج، وشعلة القدِّيسة نتاليا ما تزال تتَّقد بالأزرق في أعلاها.

قالت بابتيست، وهي تمسح خنجرها على كمِّها: «أهو يقودنا حقًّا؟».

ضحكت ڤيجا وقالت: «يمد عنقه! من كان يظن؟»، وخطفت رمحًا، وركضت ضاحكةً في أثره.

ذكَّرها ذلك بأيام النشوة، قبل العضة، حين كان العالم يبدو مشرقًا، حافلًا بالفرص. تركض على الشاطئ مع رفاقها القدامى، وطعم البحر في فمها، ورائحة الريح في وجهها، وقبضة الفأس في كفَّيها. تضحك وهي تغمس يديها في الفضة المسروقة، والقطع الباردة تدغدغ أصابعها. تضحك وهي تقتل خنزيرًا لمجرَّد أنَّه حيٌّ. تبتسم وهي تطعن الراهب الساقط، وهو يئنُّ ويزحف، وينزف على دقيقٍ مسكوب في أرض المخبز، أبيض كثلجٍ جديد. تراقب وهم يسوقون الراهبات الصارخات إلى المصلى، ويغلقون الأبواب عليهن. تعبس وهي ترى الآخرين يلقون المشاعل على السقف المسقوف بالقصب. وتلقي مشعلها هي أيضًا، لأنَّ ذاك ما يُفعل. وسألت أولاف: «أكانوا يستحقُّون؟»، فهزَّ كتفيه: «إن لم يكونوا كذلك، فليمنعونا». وحدَّقت إلى هارالد، وهو يعبث بها بيد، ويشدُّ أمعاءه باليد الأخرى، والدم الوردي ينزف على الرمل المالح، يحاول أن يقول شيئًا، لكنه لا يفعل إلا أن يسعل دمًا، يسعل دمًا حتَّى منتصف البحر، ثم توقَّف، فدحرجوه إلى البحر، بعيدًا عن مرأى اليابسة، خيرهم مصيرًا لا نُقش له ولا ذكر. نشت بأنفها حين قسموا نصيبه، وعيناها تدمعان وهي تحدِّق إلى حفنة من العملات، تتساءل: أكان هذا يستحقُّ؟

وها هي تحسُّ الآن دموعًا على خدَّيها، وتفكِّر: لعلَّه لم يكن هناك زمنٌ أفضل، بل أصدقاء موتى، وراهبات محترقات، وأحشاءٌ مفرغة، ونقود لا

تساوي شيئًا، ودمٌ على البياض. أكان كلُّ شيءٍ سيئًا منذ البدء؟ أكانت سيئةً دومًا؟ حتَّى قبل العضة؟

قال يعقوب وهو يعرج إليها، ممسكًا ساقه: «أأنت بخير؟».

قالت، وهي تمسح وجهها بظاهر كفِّها: «أنا؟ طبعًا». ثم أرغمت نفسها على الضحك: «مطر لا غير، أليس كذلك؟». وإن انقطع المطر.

وكان ثمَّة قتالٌ أمام القصر. حرسٌ قتلى في كل موضع. ليست هي من قتلتهم، لكنَّها كلَّما رأت جثثًا تساءلت. ورائحة الدم جعلت الذئبة فيها تنهض على رؤوس أناملها، تفيض لعابًا خلف أضلاعها، فضربت صدرها وتلك ردَّت عليها تعوي، فأرَتها دون مواربة من الذي يكمم الآخر.

ركض حرسٌ آخرون نحو القصر الآن، والدروع تتلألأ في ضوء المشاعل، ويُحسب لهؤلاء الأوغاد أنَّهم لا يتوقَّفون.

قال الأخ دياز: «أتظنُّهم من الأصدقاء؟».

قالت ڤيجا، وهي تومئ برأسها نحو المنارة العظيمة: «لا أراهن على حياتك. اصعد إلى هناك، وابحث عن فتاتنا يا يعقوب. وسأكفل لك ألا يزعجك أحد هنا».

تراجع يعقوب، يشدُّ أسنانه، يتطلَّع إلى شعلة القدِّيسة نتاليا: «لعلَّ الدرجات تُجهِز عليَّ أخيرًا...».

قالت ڤيجا، وهي تهزُّ كتفيها: «لكن سيؤسفني أن أبلغ أليكس، ثم أقتلها. فقد كدت أقتلها مرتين أصلًا».

قالت بابتيست، وهي تدفع يعقوب بكوعها نحو القصر وتصعد إلى يسار ڤيجا: «كلامها وجيه. سأحرس ظهرك».

قال الأخ دياز، وهو يقف إلى يمينها، فكُّه مشدود: «وأنا... سأحرس الجهة الأخرى من ظهرك؟».

فضحكت ڤيجا، وأعطته الرمح، وأحاطت بابتيست بذراع، وبه بالأخرى.

وذكَّرها ذلك بأوقاتٍ كانت زاهية، قبل العضة، حين كان العالم جديدًا، يعجُّ بالمغامرة. هي وقلة من رفاق المجداف، وحدهم في وجه المصير. فشدَّت على بابتيست، وقبَّلت خدَّ الأخ دياز. لا بغزل، بل كرفقة السلاح. مع أنَّها حين فكَّرت في دغدغت لحيته شفتيها، ربَّما أدخلت فيه بعض الغزل.

قالت ڤيجا وهي تشدُّ قبضتيها، تراقب الحرس يقتربون: «لا تقاعس، حسنًا؟ لا تقاعس أبدًا!».

* * *

زحفت أليكس كالسارقة في قصرها، يعتصرها الإعياء، وترتعش خوفًا، تتلمَّس خطواتها خلف ساني التي تبرق وتخبو، من بابٍ إلى باب، ومن زاوية إلى زاوية، ومن سلَّم إلى آخر، تسير في دربٍ حذر إلى الأسفل.

قالت أليكس بصوتٍ مبحوح: «إلى أين نمضي؟».

همست ساني، وهي تنزلق إلى زاوية وتتطلع إلى سلَّم آخر: «المطابخ. الحرس كثيرون في الخارج. بعضهم خانك». ثم توقَّفت: «بل أغلبهم، ربَّما».

- كلهم؟

فدفعت ساني بطرف لسانها إلى تلك الفجوة الصغيرة بين ثنايا أسنانها الأمامية.

قالت أليكس، وهي تبلع ريقها: «كيف نعرف من الوفي؟».

قالت ساني: «الخونة هم الذين سيحاولون قتلك».

فبلعت أليكس ريقها من جديد: «فلنتجنَّبهم كلَّهم إذًا».

همست ساني: «ذاك ما كنتُ أفكِّر فيه». لم يكن ثمَّ رخامٌ ولا زينة من ذهب هنا، في كواليس القصر، بل رائحة طعام قديم. لا بُدَّ أنَّه السلَّم الذي كابده الخدم وهم يصعدون بخمر أليكس، أو فاكهتها، أو ثيابها

النظيفة، أو ماء استحمامها الساخن. ولم تدرك إلا الآن أنَّها لم تفكِّر يومًا من أين يأتي. عجيبٌ كيف يعتاد المرء الدلال، حتَّى وإن نشأ في أحقر الأماكن.

همست أليكس: «والباقون؟».

- قادمون. يعقوب لا يستسلم.

قالت أليكس: «ما دامت ركبتاه تصمدان». وكانت ركبتيها هي، المجروحتين، توشكان على الانهيار، وهما أصغر من ركبتيه بقرنٍ كامل: «ربَّما ينفعنا بالثازار قليلًا». تسلَّلتا من أسفل الدرج، وسارتا في ممرٍّ معتمٍ جدرانه من طوب عارٍ. وعفنٌ أسود يزهر من زاوية نافذةٍ متعفِّنة. قالت: «الرجل وغد، لكنَّه يعرف سحره». قالت ساني: «هو وغد. ولهذا ظلَّ في السفينة».

- ظلَّ في السفينة؟

- ڤيجا جاءت. وبابتيست. والأخ دياز.

- رائع. حين تمزِّقني المستذئبة إربًا، يستطيع الراهب أن يتلو صلاةً على أشلائي.

هزَّت ساني كتفيها: «أفضل من لا صلاة، على ما أظن».

حدَّقت أليكس إليها لحظة، ثم هزَّت كتفيها هي الأخرى: «ربما».

طقطقت النار خامدةً على جانبٍ من المطبخ، قاعةٌ طويلة مقبَّبة، وسقفها ملطَّخ بدهون العقود. وجثَّةٌ على وجهها فوق الموقد، نصفها الأعلى مطهوٌّ، وساقاها مستلقيتان على البلاط. وأخرى انفجرت كأنَّها سقطت من علو، وأمعاؤها منثورةٌ في كل ناحية.

غطَّت أليكس فمها وهي تزحف خلف ساني.

- لماذا قتلوهم جميعًا؟

قالت كليوفا، التي كانت تقصُّ أظفار أليكس من قبل بعنايةٍ لا تكاد تُحسُّ: «لأنَّ ذلك يُشعرني بالقوة». ودخلت من الباب البعيد، وأثناي خلفها، وثوبها الجميل ملطَّخ بالدم على أحد جانبيه.

همست ساني: «اهربي!»، واختفت في لمحة.

تفوَّهت كليوفا بكلمة، فانبعث ضباب من لا مكان في دوَّامةٍ ملتفَّة، وظلٌّ رابضٌ في مركزها.

قالت أثناي، وهي تخمش الهواء: «هناك!»، فانفجر الضباب تحت ضربةٍ مزَّقته إلى أشلاءٍ متطايرة. تأوَّهت ساني وهي تصطدم بالجدار وسط وابلٍ من طعامٍ متناثر، وأدواتٍ تطنُّ، وخزفٍ يتحطَّم. شهقت أليكس، ومزقن شظايا كتفها وحكت خدَّها. فرفعت ساني، واندفعتا معًا عبر عتبة الباب، ومزقت نفخةٌ أخرى ثوب أليكس، وانفجر برميل على إطار الباب ليغرقهما بالشراب. فتعثَّرتا إلى رواق، على أحد جانبيه رفوفٌ محمَّلة بمئات القوارير من الخمر.

قالت زينونيس، واقفة على بعد عشرين خطوة، باسمة: «يا بهاءك! هذه المؤونة للخدم وحدهم».

ورفعت كفَّيها، والحرُّ يتماوَج حولهما. فأمسكت أليكس بأحد الرفوف، وصرخت وهي تشدُّ بكل قوتها، فأسقطته على الحائط المقابل، فتكسَّرت القوارير.

انفجر لهيب بنفثةٍ محرقةٍ من النار. وكانت أليكس تفتح فمها لتصرخ حين دفعتها ساني عبر الباب، والنار تتسلَّق ما خلف الرفوف المنهارة وتلحس الأطراف الجانبية، ثم ركلت الباب، وسحبت المزلاج.

صرخت ساني: «يا رب!»، وظهر ساني يشتعل، فأخذت أليكس تضرب النار بيديها.

قالت: «يا رب!»، وأدركت أن ذيل ثوبها الممزَّق يحترق كذلك، للمرة الثانية في تلك الليلة، فصاحت، وضربت ساني عليه، وبدأتا تدوران

وتصيحان وتصفعان حتَّى انطفأت النيران، والرماد يرفرف من حولهما، وريح الدخان الدهني يلسع أنف أليكس.

قالت، تلهث: «يا رب...»، رأت أن شوكةً مغروزة في كتفها. ليست عميقة، لكنها مغروزة لا شك. فسال الدم في خطوط، وهي تعضُّ أسنانها وتنتزعها، وراح كفَّاها المحترقان يغنِّيان بالألم، وذراعها مغطاةٌ بجروح صغيرة وخدوش، كأنها وسادةُ إبرٍ مثقوبة بشظايا الخشب والخزف المكسور.

قالت ساني، تلهث: «ثمَّة ممرٌّ». وكانتا في غرفة أحذيةٍ مكسوَّة بالألواح، مقاعد وفرشاة ودهان في كل مكان، وأحذيةٌ مرصوصة على الرفوف. قالت: «هنا في مكانٍ ما...». وراحت تعبث بأحد الألواح، وأسنانها مكشوفة.

همست أليكس: «ساني...». وكانت تسمع الوصيفات في الردهة، وتحطِّم الرفوف والزجاج. فزحفت ساني إلى اللوح التالي، تمسك بجنبيها: «ساني!».

قالت، وهي تصيح: «أعلم!»، فانفتح الباب، وانطلقت داخله، وأليكس تزحف خلفها، وأغلقت الباب خلفهما. خطٌّ من الضوء مرَّ على وجه ساني المدمى وهي تتراجع في الظلمة وتلهث.

همست أليكس: «أيعرفن هذه السراديب؟».

قالت ساني: «شش»، وضيَّقت عينيها تسمع. فاحتكَّ شيء، ثم علا، واقترب وقعُ الخُطى.

همست أليكس: «يا رب. إنَّهن يعرفن السراديب».

* * *

قال الأخ دياز، وهو يرسم الدائرة فوق القتلى، وواحدٌ منهم ما يزال يختنق بدمه: «ليرحم الرب أرواحهم».

قالت ڤيجا، وهي تكشط طرف أنفها برمحها المكسور ثم تقذفه في الأدغال: «الرحمة مبالغٌ فيها. والأرواح كذلك إن سألتِني».

قال الأخ دياز: «ليرحمهم الرب على أي حال». وصارت الغرغرة زفيرًا، ثم توقفت: «وليرحمنا كذلك...».

ولم يكن ذلك ببعيد، فلو سُئل من هم الأشرار في الحكاية، لأشار بكل ثقة إلى المستذئبة، والفارس الملعون، والإلف. لكنَّ الأمور أحيانًا معقدة. من على الحق؟ ومن على الباطل؟

ثم سمع صرخةً يائسة، فاستدار، وإذا بالسيدة سيفيرا تتهادى على درج القصر، عيناها جامحتان، ولطخة دمٍ حديثة على خدِّها. أمسك بها الأخ دياز، وكادت تسقط في حضنه، تلهث.

قالت: «خيانة... الوصيفات... أحلك سحر أسود... الإمبراطورة أليكسيا في خطر!».

قال، ورغم كلِّ شيء أحسَّ بنزرٍ من الرضا أنَّه ليس هو المذعور هذه المرَّة: «لا تخافي. أنتِ في أمان الآن».

قالت سيفيرا: «لا أحد في أمان!»، ونهضت، وأمسكت بمعصم ڤيجا: «لكن... أنتِ مجروحة».

لمست ڤيجا بأطراف أصابعها الملطخة بالدم شعرها الدامي، وضحكت: «صدقيني، رأيتُ أسوأ».

قالت بابتيست، تحدِّق إلى الخراب البشري عند أبواب القصر: «وأذقته لغيرك أيضًا».

قالت سيفيرا: «لا، دعيني»، ومدَّت يدها لتلمس وجه ڤيجا، لكنها في اللحظة الأخيرة لوت معصمها، ونقرت جبهتها برشاقة.

وساد سكونٌ محيِّر. وكان ظهر ڤيجا إلى الأخ دياز، فلم يرَ تمامًا ما حدث. لكن وجه سيفيرا تغيَّر. لم تعد خائفة، ولا مضطربة. مسحت الدم

من تحت أنفها، بثقةٍ ساكنة كأوَّل ما رآها في الميناء. واستدارت ڤيجا ببطء.

غرزت إبرةٌ في جبهتها، عليها مربعٌ صغير من قماش، ومطرَّزٌ على القماش حرفٌ غريب، لا يعرفه الأخ دياز. طلسمٌ لعلَّه.

وتكلمت ڤيجا، وتكلمت السيدة سيفيرا، وشفاههما تتحرك في آنٍ معًا. قالتا: «من الأفضل... أن تضعوا أسلحتكم أرضًا».

وكان عجيبًا غاية العجب أن يسمع ڤيجا تتكلم بلسان سيِّدةٍ من نبلاء طروادة.

عجيبٌ... وباردٌ كالثلج.

* * *

وفي موضعٍ آخر من المنارة، توقَّف يعقوب على المصطبة، لا يدري أيَّ ساقٍ منهكة يمسك أولًا، فحشر سيفه تحت إبطه ليمسك كلتيهما، وضغط إبهامًا متألمة في فخذٍ تشتدُّ، وإبهامًا أخرى في وركٍ تنبض. ذاك الذي كانوا يلقبونه «مطرقة الإلف»، و «قضاء ليفونيا»، و «رعب الألبجويين»، ها هو يضع سلاحه ليدلِّك ساقيه.

قال من بين أسنانه المطبقة أبد الدهر: «يا له من بطل!».

لمَ لم تكن باريس؟ في ذاك القصر المترامِي الذي يبيت فيه ملوك الفرنكيين؟ لا درج فيه. أو بورغنديا، حيث الإمبراطور دافيد الأعرج بنى جناحه العظيم في الطابق الأرضي، وجعل الخدم ينامون فوق.

قال متأوِّهًا، فقطعه زئيرٌ غليظ: «لكن لاااااا...»، ثم اختنق بأنَّةٍ حين اخترق ركبته ألمٌ فظيع.

لا بدَّ أن تكون طروادة. أكثر مدن الأرض ارتفاعًا.

لا حاجة إلى أن يبعثوا إليه جيشًا. الدرج وحده يكفي لهزيمته. نظر إلى أعلى، نحو السلَّم العظيم، عدوٌّ رخاميٌّ لا رحمة فيه يتكرر بلا نهاية،

درجة بعد أخرى، يلتفُّ ويعود، ثم ينقسم في الطابق الذي يليه، ثم يلتفُّ ويجتمع من جديد في الطابق الذي فوقه. يا إلهي، أليس لهذا من نهاية؟ سؤالٌ ظلَّ يسأله لنفسه منذ قرن أو يزيد.

حريٌّ به أن يلقي سيفه في البحر، ويبقى في السفينة مع بالثازار. بل أن يبقى في المدينة المقدسة، وقدماه في ماءٍ دافئ، وعنده شيءٌ طريٌّ يُمضغ بسهولة.

قال متألمًا، فقطعه أنينٌ من أسفل ظهره: «لكن لاااااا...».

لا بدَّ له أن يجد معارك لا تُربح ليخسرها. أن يعرج إلى الأبد في هذا الدرب الأعوج إلى لا مكان. أن يتصارع مع نفسه في مأزقٍ أبديٍّ، وهو يسعى إلى أن يُخلِّص من لا يُخلَّص...

دوَّى ارتطامٌ على السلَّم، فكاد يسقط سيفه وهو يدفع جسده عن الحائط، وتهالك في وضع قرفصاء، يكتم أنفاسه حتَّى لا يُسمع. سمع أصواتًا. نسائية، ربَّما؟ غاضبة، لا شك. مسح العرق بكمِّه. وأمسك بمقبض سيفه من جديد.

فوجد قبضته فيه ما تغيرت، كمفتاحٍ في قفل. أطبق فكَّه المتألم، وسوَّى كتفيه المعوجَّتين. وبلغ تلك القناعة الحزينة التي بلغها ألف مرَّة من قبل: لا يكون هو هو، ما لم يكن في يده سيف.

ثم مضى. خطوةً تلو أخرى. حذاءً بعد آخر. كانوا كجيش. معًا، يبدو أنهم لا يُقهرون. لكنَّ كل رجلٍ رجلٌ واحد. وكل درجةٍ درجةٌ واحدة.

تركهم وراءه مهزومين، كما ترك أعداء كثر حطامًا في أعقابه.

وكثيرًا من الأصدقاء.

* * *

فتحت ساني الباب السرِّي ببطء، وأطلَّت على المعبد الخاص.

همست أليكس: «حذارِ». ولم تكن في أحسن حال، تلهث أنفاسها، وشعرها ملتصقٌ بوجهها المتعرِّق، وثوبها ممزَّقٌ ومحترق، جسمها مليء بالشظايا، وشوكةٌ مغروزة، وذراعها اليمنى اللزجة بالدم معقودةٌ إلى صدرها.

ودت ساني لو تمنحها ابتسامةً تشجيع، لكنها لا تحسن ذلك، وغالبًا لم تلق بها. فقالت وهي تمسك بجنبها المتورِّم بكفِّها المحترقة: «أنا دومًا حذرة»، ثم حبست نفسها.

وانسلَّت خلال الباب، وعبرت غرفةً بجدران تكسوها مجسمات القدِّيسين. هنا في طروادة، يعشقون المجسمات. لم تمانعهم ساني ببعضها، لكن كثرتهم تُقلقها. تذكِّرها بجمهور السيرك، يصيحون ويقذفون النقود.

قاربت الشمس المغيب من خلف النوافذ، محاذيةً البحر الغربي، وغرفة الإمبراطورة تفيض بالظلال المتسلِّلة. وبعض الستائر محترقة من الحريق، ورُقعٌ ونقاطٌ على الرخام، كأنَّ عربةً من فضلات الجزَّارين قد انسكبت.

همست ساني: «ما هذا؟ أهو لحم؟».

تمتمت أليكس، وهي تنظر من فوق كتفها: «زوجي».

قالت ساني: «آه». وماذا يُقال؟ ومشت تتجنَّب كتل اللحم، تميل بقدميها ذات اليمين وذات الشمال، تقف على رؤوس أصابعها. «أتلك أُذُن؟».

قالت أليكس: «يا رب»، ورفعت ظهر كفِّها إلى فمها، تتبعها: «يا رب»، وموضع قدمها الحافية صرير فوق الرخام الرطب.

تمتمت ساني: «قد تكون هنك ليالي زفافٍ أكثر فوضى... لكنَّ هذه جنونية».

خَطفت أليكس من على كرسيٍّ سترةَ العرس التي تخصُّ أركيديوس، وأطلقت تأوُّهًا وهي تدسُّ ذراعها الدامية في كُمِّها المطرَّز. كانت فضفاضة عليها، مزخرفةً بالزهور من خيوط الذهب، تتلألأ في الظلمة.

قالت، وهي تطوي كمَّيها الطويلين: «ما بك؟».

همست ساني: «لا يبدو أنكِ ستندسين بهذه».

قالت أليكس: «إن سمحتِ لي، فسأموت مرتديةً شيئًا».

وكان الباب مواربًا، والرواق المظلم خلفه خالٍ.

همست أليكس: «إلى أين نذهب؟».

- نقصد السلَّم الرئيسي، ونحاول النزول من هناك.

- ألن يراقبوه؟

- أحيانًا، يبحث الناس في كل مكان إلا الموضع الأوضح.

- قول واهن. قول واهن حدَّ اللعنة.

نظرت ساني إليها، وهزَّت كتفيها. وقالت: «يمكنكِ أن تبقي هنا. مع زوجك».

بلعت أليكس ريقها: «السلَّم الرئيسي إذًا؟».

قالت ساني: «فكرةٌ طيِّبة». وتسلَّلت إلى الدرج، وأطلت، ثم أشارت إلى أليكس، وأمسكت بيدها حين اقتربت، تنزل بها... ثم توقَّفت.

همست أليكس: «ما الأمر؟».

- شش.

سمعت خشبةً تصرُّ أسفل.

قالت أليكس: «يا رب».

ثم أصوات. قالت واحدة من الوصيفات: «لم تمرَّ من هنا». وشكت ساني فيهنَّ دومًا، لكنها مؤخرًا كرهتهنَّ فعلًا: «لا بدَّ أنها فوق».

قالت الأخرى: «فنطاردها إلى أعلى. هي وتلك الإلف الوغدة».

تمتمت ساني: «وقحة»، ولم يكن ذاك بأسوأ ما سمعت.

ثم قالت واحدة، تغني: «ماكرةٌ هي، لكنِّي سأجدها».

فجاء صوت الدوق مايكل: «فلتجديها إذًا». وتمنَّت ساني لو ضربته أقوى. بفأسٍ ربما.

قال مايكل: «عاجلًا أم آجلًا، لن يجدن مكانًا يختبئن فيه».

همست أليكس: «يا رب...»، وتراجع، ترتدي سترةً يصعب أن تخفى، وتاركة آثار أقدامٍ دامية على كل درجة، ولم تملك ساني الوقت ولا الوسيلة لتنظيف الأثر.

قالت ساني: «عودي! إلى أعلى!».

قالت أليكس، تنظر إلى السلَّم الأعلى، آخر سلَّم يؤدي إلى قاعة العرش: «إلى أعلى؟».

قالت ساني: «أو يمكنكِ أن تبقي هنا. مع زوجك».

بلعت أليكس ريقها: «إلى أعلى إذًا؟».

66

ارموا البقايا

تدحرج الأخ دياز، يتصبَّب عرقًا عبر العتبة، فانزلق حين استدار، وأمسك بأحد البابين، بينما أمسكت بابتيست بالآخر، وكلاهما يشدُّ بكلتا يديه على الخشب العتيق، يكشران عن أنيابهما من فرط الجهد، وأقدامهما تنزلق على الرخام الذي صقلته قرونٌ من أقدام الحُجَّاج.

اختلس الأخ دياز نظرةً إلى الممرِّ المظلم الممتدِّ من القصر إلى الكاتدرائية، فرأى ثيجا تقترب بخطى أنيقة لا تشبه وطأها المعتاد، وسيفيرا إلى جانبها. وكأنَّ احتمال النصر على مستذئبة وساحرة لم يكن مستحيلًا بما فيه الكفاية، فقد بدا أنَّهما التقطتا في الطريق جماعةً من حرَّاس القصر المتعاطفين.

لهث وقال: «إنَّهم قادمون!».

صرخت بابتيست، ومفاصل الباب تصرخ: «بئس لك، لقد لاحظت!».

تأوَّه الأخ دياز: «ادفعي!»، وأسند كتفه إلى الباب وهو يتحرَّك قليلًا.

استدارت بابتيست لتلصق ظهرها بظهره وقالت: «وماذا تظنَّ أني أفعل بحقِّ الجحيم؟».

قال لاهثًا: «لا تسبِّي... في بيت الرب!».

والتقى البابان مطقطقين، فدفعت بابتيست ثلاثة مزاليج حديدية، بينما رفع الأخ دياز العارضة الخشبيَّة العظيمة المائلة على الإطار. وقد نُقشت على ظهرها أولى كلمات «مخلِّصتنا»، إلا أنَّ ذلك لم يُخفِّف من وزنها شيئًا.

قال، لاهثًا، وكل مفصلٍ فيه يرتجف، وهو يتخبَّط مرَّة ذات اليمين، وأخرى ذات الشمال: «ساعديني...».

تأوَّهت بابتيست، وقد أمسكت الطرف الآخر قبل أن يطحنه تحت ثقله، وقالت: «وما تظنُّ... أنِّي أفعل؟»، ثم رفعت العارضة إلى كتفها، وثنَت ركبتيها. فرفعاه معًا، ووجَّهاه ليسقط على جانبه، وانتزع الأخ دياز يديه حين هوى في الحلقات الحديدية المنقوشة. وكاد يتهالك عليه لاهثًا، إذ دوَّى ارتطامٌ هائل رجف معه الباب، فارتدَّ.

همس، وهو يتقهقر: «هل سيصمد؟»، وتسرَّب الغبار من السقف.

قالت بابتيست وهي تبتعد معه: «ضدَّ ثيجا؟ لا أنصح أن تراهن بحياتك».

ثم دوَّت ضربةٌ أخرى عبر الكاتدرائية، فقفز الأخ دياز، وارتعشت العارضة في قاعدتها.

قال بصوتٍ جهير: «من هذا الذي يقرع أبواب بيت الرب؟».

فاستدار مذعورًا، فإذا بوجه البطريرك ميثوديوس، وقد غطَّاه العمر بالخطوط، يحدِّق إليه بكامل هيئته الرسمية، رأس الكنيسة الشرقية الأعلى، ومثال السُّلطان الروحي بعينه. صحبه موكب فيه كاهنان قسيسان، وثلاثة رهبان لا تفتر ألسنتهم عن الدعاء همسًا، وفتى يحمل شمعة عظيمة، وآخر يتعثر بحمل نسخة هائلة مرصعة بالجواهر من الكتاب المقدس. وخلفهم، جمع خائف من الراهبات والخدم والكتبة، ملتجئين تحت المجسمات، من الذين فرُّوا إلى الكاتدرائية طلبًا للملاذ

من الفوضى التي استشرت في قلب طروادة. أولئك الذين جاؤوا كما جاء الأخ دياز، سواءً بسواء.

قال دياز، وقد غمره فرحٌ كاد يستخرج منه الدمع: «يا سماحتكم!».

قال البطريرك: «ما الذي جاء بك إلى هنا بهذا الاضطراب يا بني؟».

قال دياز، وهو يضع يديه على ركبتيه يلتقط أنفاسه: «حاجةٌ ماسة! قتالٌ، في الحدائق المعلَّقة. في القصر نفسه!». وكأنَّ القدر شاء التأكيد، فارتجَّ الباب بضربةٍ أخرى: «خيانةٌ وخذلان، ضدَّ الإمبراطورة الشرعية أليكسيا، التي توَّجتموها أنتم في هذا البيت المقدَّس قبل ساعات. والسيدة سيفيرا تطاردنا، وهي... هي...».

تمتمت بابتيست: «كاذبة لا تُضاهى».

قال دياز: «ساحرة!».

فتراجع بعض اللاجئين، فزعًا من وقع الكلمة، لكن البطريرك لم يظهر عليه أثر ذهولٍ ولا دهشة.

- أعلم.

قال دياز، وقد ازدرد ريقه: «ماذا؟».

قال: «السيدة سيفيرا أولى تلميذات الإمبراطورة يودوكسيا. ولحقها كثير».

رجف الباب من جديد، أشد رجفةً، وبابتيست ترمقه بعينٍ مرتابة، والشظايا تتناثر من حوافِّ العارضة المرتجفة.

قال دياز، وقد تضعضع صوته ثانية: «وأنتم...؟ لا بأس عندكم بذلك؟».

ضيَّق ميثوديوس عينيه وقال: «سلفي، البطريرك نكتاريوس، كان رجلًا من أعلى مراتب الطهارة الخلقية. ولمَّا اغتصبت يودوكسيا العرش، اعترض بكلِّ عنف. وقبره في سرداب الكنيسة فارغ. فلم يبق ما يُدفن

منه. ولمَّا خُيِّرتُ لأخلفه، لم يكن لي من خيار إلا أن أفعل ما هو... موافق للضرورة. وأنت تعلم هذا جيِّدًا».

تنحنح الأخ دياز. وكان الحقُّ أنَّه، إذا ما سُئل عن موقفه اللاهوتيِّ من السحر الأسود، فلن يجد تحت قدميه تلك الأرض الصلبة التي عهدها. وارتجَّ الباب من جديد، فتساءل: أيمكنه أن يختبئ خلف ذاك الكتاب الضخم؟ وقرَّر: نعم. ولكن ليس لوقتٍ طويل.

قال البطريرك: «وأمَّا الإمبراطورة يودوكسيا، فعلى كثرة عيوبها، أبقت السحر الأسود محصورًا في دار الحكمة...». وأشار إلى الباب، الذي ما زال يرتجف بضرباتٍ متتالية: «وتركت بيت الرب للرب. ولخدامه المعيَّنين بحق».

قال دياز: «الذين لم تقتلهم»، وجعل يشير بإصبعه.

قال البطريرك: «أولئك، وإن زُيِّنت بهم جنَّات السماء، فلا أثر لهم في تدبير الأرض، أليس كذلك؟».

وشعر الأخ دياز بذلك الشعور الغارق المألوف. وقال: «يا سماحتكم، كلُّ ما أريده -كلُّ ما نريده جميعًا- أن نرى جماعة المُخَلَّصين متَّحدة من جديد ضدَّ أعداء الرب»، وسمع في صوته أنينًا محتاجًا لم يستطع إخفاءه: «أن تتَّحد كنيسة الشرق وكنيسة الغرب كأسرةٍ واحدة...».

فصاح البطريرك، بنبرة العظة النارية: «وتريد أن ترى كنيسة الشرق خاضعةً للغرب! أن نخرَّ سُجَّدًا للنساء! أن تؤمَّنا امرأةٌ في الصلاة! أن تعمِّدنا، وتثبِّتنا، وتدفننا النساء! أن ننحني أمام فتاةٍ صغيرة! دميةٍ في ثوبٍ بابويٍّ مسروق!».

فقال الأخ دياز، وقد انتقل من خيبةٍ دامعة إلى غيظٍ يتوهَّج -وهذا لعله تطور ما: «لكن مخلِّصتنا امرأة! ابنة الرب التي بذلت نفسها لخلاصنا!». وأشار إلى الزجاج الملوَّن فوق المذبح: «وها هي على نافذتكم!».

قال البطريرك، دون أن يتردَّد: «ومكانها النافذة، لا أن تُملي علينا شريعة الكنيسة! لا، أيها الأخ دياز!». ورفع ذراعيه إلى الصور التي تغطِّي الجدران كلَّها: «الملائكة يحدِّقون إلى خيانة إيمانك بيأس! لن أحتمل هذا! لقد أعطتني السيدة سيفيرا الضمانات بشأن مكانة كنيسة الشرق!». ثم أشار إلى كهنته أن يتقدَّموا، والضربة العظيمة تتردَّد في أروقة الكاتدرائية: «افتحوا الأبواب يا إخوتي!». أوقف الأخ دياز راهبًا من الرهبان واضعًا كفَّه على صدره وقال مزمجرًا، وقد انفلت من غيظه المحتقن إلى سخطه المستعر: «الشياطين تقرع أبوابكم! أتفتحون لها الأبواب؟».

فصاح ميثوديوس: «بل الشياطين دخلت! وما أُدخلُ إلَّا المكنسة لتكنسهم!».

فقال الأخ دياز: «تبًّا لهذا كلِّه»، ثم لكم البطريرك على ذقنه مباشرة، فتدحرج إلى الخلف، وقد ارتدَّ التاج الكبير عن رأسه وتدحرج في الممر، وبسط ذراعيه كما ذراعا المخلِّصة في النافذة أعلاه. فتسمَّرت الأبصار ذاهلة، ولا أحد أكثر ذهولًا من دياز نفسه. فهمس: «لقد أسقطتُ بطريرك طروادة أرضًا».

فأجابته بابتيست، وقد أمالت رأسها لتتأمَّل الحبر المصروع: «لعلَّ فيك أملًا بعد».

ثم انشقَّ في الخلف صوتٌ عظيم، فالتفت الأخ دياز، فإذا بالقضيب الحديد انحنى ثم تحطَّم فتطايرت أليافه، وقد اقتلع أحدُ قوائمه وارتطم بين المقاعد.

انفتحت الأبواب، ودخلت ڤيجا، ويداها مخضَّبتان بالدم، والطلسم لا يزال معلَّقًا على جبينها، وتبعتها الليدي سيفيرا، تخطو خُطاها بخُطى موزونة كأنما تقلِّدها في الوقار كما فعلت حين مشت خلف أليكس إلى التتويج من قبل.

وانتشر حرَّاس القصر في طرف الهيكل الآخر، وراحوا يتقدَّمون بين المقاعد، مبدِّدين أيَّ أملٍ في الفرار.

فهمست بابتيست، تتراجع نحو المذبح: «كان ينبغي أن أبقى في السفينة... علمتُ أني ينبغي أن أبقى...».

فناداها الأخ دياز بصوتٍ واهن وهو يتبعها: «ألا يجوز... لو قلنا إنَّا قد احتمينا ببيت الرب...».

فأجابته ڤيجا وسيفيرا بصوتٍ واحد، وابتسامة صغيرة متقنة: «ما عهدتُ نفسي يومًا متديِّنة، وأُرجِّح أن صاحبتك الاسكندنافية لم تَعرف من الدين حتَّى اللفظ نفسه».

فقال دياز: «لكنها عُمِّدت لعلمك».

فقالت بابتيست: «مرَّتين».

فقالتا: «ومع ذلك، فليست هذه أوَّل كنيسة تدنِّسها».

وقد تراجع موكِب البطريرك مذعورًا، ثم أفلت صبيٌّ الشمعة من يده ولاذ بالفرار، وتفرَّق الباقون خلف المذبح، حيث تجمَّعت الراهبات والخدم جزعين كالغنم في الزريبة.

فقالت الليدي سيفيرا وڤيجا معًا: «أحسب أن الوقت قد حان لتُلقوا السلاح».

فقالت بابتيست: «أتضمنون لنا حسن المعاملة؟».

فأجابتا: «لنقل إنها خيرٌ من المعاملة التي ستنالونها إذا ما رفضتهم».

فابتلع الأخ دياز ريقه وقال: «ميتة سريعة إذًا».

فقالتا، وقد نفختا وجنتيهما: «قد تبدو العبارة مستهلكة، لكن حين تجرِّب ميتات بطيئة كما شهدت... تُدرك قيمتها».

ثم تقدَّمت ڤيجا وخطت فوق جسد البطريرك.

فهمست بابتيست: «كان ينبغي أن أبقى في المدينة المُقدَّسة...».

وأغمض دياز عينيه وانكمش متراجعًا، وصرف وجهه...

وإذا ريحٌ عاصفة تهبُّ بلا منشأ، واشتعل شعر ڤيجا يتطاير حول رأسها، وانقلعت الإبرة التي تثبِّت الرقعة على جبينها، فارتفعت في الهواء كأنما اختطفها النسيم.

فصاح صوتٌ من ناحية المقاعد: «نجح الأمر!».

ونهض أحد الحراس فجأة، وقد ضمَّ كفَّيه ودفع بهما إلى الأمام وقال: «الأرض والهواء! البنية المشتركة لكلِّ عنصر، أنا عبقري!».

وكان صوته، بل نبرته، مألوفة على نحوٍ غريب.

فقالت بابتيست، ولأول مرَّة في حياتها تبدو مندهشة: «بالثازار؟».

فخلع الحارس خوذته، ومسح شعره المبتلَّ، فإذا هو وجه أحد أعظم مَن اشتغل ببعث الموتى في أوروبا، وقد أشرق بالفرح: «أنقذت الموقف مرَّة أخرى!».

- لِمَ ثوبك مبتل؟

فأجاب: «أبحرت السفينة، فاضطررتُ إلى السباحة». قالت ڤيجا وهي تفرك جبينها كمن أفاقت من سُكر ثقيل: «ماذا حدث؟ لقد رأيت في منامي أنني سيدة» ثم رمقت البطريرك الملقى بين قدميها بازدراء وقالت: «ومن هذا الوغد؟».

زمَّت سيفيرا شفتيها ونظرت إلى بالثازار في غيظ ممزوج بعدم التصديق وقالت: «أعُدت؟ ولماذا؟».

أجابها بتلويحة خفيفة: «فلنقل إنه كبرياء مهني».

استلت بابتيست خنجرًا من حذائها، وخنجرًا آخر من موضع ما في ظهرها، وانخفضت في وضع الاستعداد وقالت: «ألم تستطع أن تدع لي الكلمة الأخيرة؟».

قال بالثازار: «ما كنت لأقدر، يا آنسة أولاستوتر؟».

نظرت إليه ڤيجا وقالت: «أحب وقعه على الأذن».

ضيَّق عينيه نحو الحرس وقال: «أتمنحونني بضع جثث أعمل بها؟».

شبكت ڤيجا إحدى قبضتيها بالأخرى وطرقت مفاصلها ثم كشفت عن أنيابها وقالت: «بكل سرور بحق الجحيم».

* * *

تعثرت أليكس خارج السلالم وأغمضت عينيها تحت وهج قمة المنارة، تلك الليلة للمرة الثانية، لكنها هذه المرة أشد إنهاكًا واحتراقًا والتصاقًا بالعرق وتلطخًا بالدماء مما كانت عليه في أول صعودها، أما فزعها من الموت لا يقلُّ تلك المرة. وما زالت شعلة القديسة نتاليا متقدة في مِجمرتها، تنعكس بإبهار على قميص زفاف زوجها الميت المزركش. فبدا أنها ستموت دافئة على الأقل.

تمتمت: «نفدت الأدوار».

ركضت ساني إلى أحد الأقواس المطلة وحدَّقت عبر حافَّة السور وقالت: «ربما يمكننا التسلق إلى الأسفل من الجهة الخارجية...».

لم تدرِ أليكس أتبكي أم تضحك، حين تخيلت أن تفعلها مرَّة أخرى وقالت: «سيمسكون بي حتمًا» وهي تؤثر الموت في موضع له أرض: «اذهبي أنت». ثم وضعت يدها على كتف ساني، والدم متيبس تحت أظفارها. حاولت الابتسام، فما استطاعت: «لا يمكنك أن تنقذي الجميع».

قالت ساني: «كل ما أريده أن أُنقذك. لا يزال بوسعنا...».

قالت أليكس: «قد فعلتِ فوق ما أرجو، وأبعد مما أستحق».

ظلت ساني تهز رأسها وتقول: «لا».

قالت أليكس: «أرجوك، دعيني أكون نبيلة، لمرة واحدة» ثم رفعت ذقنها، عسى البارون ريكارد يفتخر بهيئتها لو رأى، وقالت: «دعيني أستحقه. ما سرقته. ميراثها. اسمها».

فدفعَتها ساني وقالت: «قلت لا».

صعدت كليوفا الدرج مبتسمة وقالت: «آه أرجوك، لا تجادليها». بدا أن أحدًا ما يستمتع بالمشهد على الأقل.

قالت أثناي وهي تظهر من خلفها: «يسرُّنا أن نقتلكما معًا. بل قد نضطر إلى ذلك».

وثبتت ساني، وغابت عن الأبصار، لكن كليوفا لفظت الكلمة ثانية، فاضطربت الشعلة وانبعث الضباب من العدم. فنبحت أثناي ككلب غاضب، وتراجعت أليكس إلى الوراء حين ارتطمت ساني بالعمود الذي بجانبها، وسقطت أرضًا تتأوه.

قالت بلاسيديا وهي تتهادى بين المرأتين، والدخان البارد يتصاعد من شفتيها الزرقاوين: «إلف. تقدر على الاختفاء».

قالت زينونيس وهي تدخل القاعة وتكمِّل اجتماع الوصيفات: «ينبغي أن نشرحها، وننظر ما بداخلها».

وقفت أليكس بين ساني والعدو، وقبضتاها مشدودتان وقالت: «دعُوها وشأنها. أرجوكم...».

قالت كليوفا بشفة مرتفعة وقرف ظاهر: «لستِ في موضع مساومة».

قالت أثناي وهُنَّ يُطبِقن عليها: «يا إمبراطورة الحشرات».

قالت زينونيس: «السؤال الوحيد...».

رفعت بلاسيديا يدها، والدخان البارد ينبعث من أصابعها وقالت: «هل ينبغي أن نجمِّدك كما جمدنا زوجك الراحل...».

أشارت زينونيس إلى شعلة القديسة نتاليا، فاشتعلت أبهى من ذي قبل، وأليكس تنكمش: «أو نحرقك حتَّى لا يبقى منك غير رماد دهني».

قالت كليوفا: «أو نرميها من البرج؟ وندع الأرض تقوم بما ينبغي. فننجو من اتساخ أيدينا بها».

عبست بلاسيديا وحدقت إلى السماء من خلال الأقواس وقالت: «أتسمعن ذلك؟».

وفجأة، غصَّت القاعة بخفافيش طائرة. فتشبثت أليكس بساني، والخفافيش تدور حولهن، أشد التحامًا وأضيق دوائر، فيما الساحرات الأربع يتفادينها ويلطمن الهواء ويتفوَّهن بالسباب، حتَّى التحم جمعها أمام أليكس والتفَّ، ثم تجسَّد دفعة واحدة، وإذا به البارون ريكارد.

رفع مصَّاص الدماء حاجبًا في سخرية، نحو ساني الممددة على الأرض، ثم نحو أليكس المنحنية فوقها، ثم نحو الساحرات الأربع المستعدات لأن يفتحن أبواب الجحيم كلها. وزفر زفرة طويلة يملؤها الضجر وقال: «يا آنسات».

همست أليكس: «تأخرت، اللعنة عليك».

فقال: «أحسبني أخبرتك من قبل أن من الأدب ألَّا يبكر المرء في حضور حفلة».

همست زينونيس وهي تنحني، والحرارة تنبعث من أصابعها: «المعلم في فنون الذوق».

قال البارون: «ويا له من تطابق، إذ يبدو أن دروس الأدب باتت مطلوبة». ثم راقب بهدوء الوصيفات الأربع وقد انتشرن حوله في نصف دائرة وقال: «أحسبكن من التلميذات المفقودات من مجلس الإمبراطورة يودوكسيا؟».

قالت أثناي بصوت مزمجر: «كنَّا تلميذاتها».

رفعت بلاسيديا رأسها في كبرياء، والضباب ينهال من شعرها ونالت: «وأصبحنا الآن من صاحبات الفن الأسود!».

ابتسم البارون بأسف ليريهن أطراف أنيابه وقال: «وتحسبن أنفسكن تعلَّمتن الظلمة؟ فدعوني أنبئكن، إن في شرق بولندا...». وكان في صوته

جاذبية لا تقاوم، حتَّى إن أليكس لم تستطع صرف بصرها عنه: «حيث كانت لزوجتي أراضٍ هناك...»، وكأنه ضياء يتلألأ منه، ساطع وبهي، حتَّى إن شعلة القديسة نتاليا خبت في بهائه.

قال: «يُقدَّم فيها نوع مخصوص من الزلابية...».

* * *

دخل يعقوب قاعة العرش يلهث، والنحيب ممزوج بالزفير، متكئًا نصفه على عمود، ونصفه الآخر يتهاوى. وضع ساعده على الرخام البارد، ومدَّ ساقيه الواحدة تلو الأخرى ليتخلص من تشنُّج الحوض، وما استطاع، كما لم يستطع منذ سنين. وأخيرًا، أطلق زفرة طويلة، ومسح العرق عن وجهه المنتفخ، وحدَّق نحو عرش الأفعى.

قال يتمتم: «ما أتعس هذا التوقُّع».

كان الدوق مايكل جالسًا حيث لا يجلس إلا الأباطرة، وسيفه مقلوب، مقبضه بين إبهامه وسبابته يقلبه في هدوء وقال: «المفاجأة الجيدة، إذا كُشفت، فلا بد أن تبدو بديهية، بل حتمية».

قال يعقوب ساخرًا: «الخال؟ هذه مفاجأتك؟ دومًا ما يكون الخائن الخال اللعين!».

قال مايكل: «فلعلك رأيت الأمر من قبل؟».

قال يعقوب وهو يذكر يمين الصدق التي أقسمها: «لا... لكني كنت دومًا أرتاب في الأخيار، وأثق بالأشرار. لعلي أفهمهم أكثر».

فقال الدوق مايكل: «تلك عثرات البشر التي لا تنفكُّ تتكرَّر؛ الفضيلة، والصدق، والغفران. كلها محمودةٌ في السطور، لكنها، والحق يُقال، مملةٌ حتَّى السأم. هات الطموح، والغدر، والانتقام! أليست لها سطوة في النفوس؟». ومسَّ بأطراف أنامله ذراع العرش المنقوشة بأفعى، تمسيدة إعجاب. ثم قال: «فلنستنكر الطغاة والجبابرة ما شئنا، ولنردِّد العبارات

المتزلفة مع بقية المتزلفين، لكن قل لي، أفي وحشة الظلمة، أحين يخلو المرء إلى نفسه، أيحلم بفعل الخير؟». ورفع بصره إلى يعقوب: «ربما بعضهم يفعل. الأخ دياز وأشباهه من الطهورين. لكني أؤكد لك أني لا أفعل، وأكاد أجزم أنك كذلك. فلعل العبرة أنَّا لا نُفلِت من طباعنا قط».

- حاولت. مذ أمد بعيد.

- ونجحت؟

- ويا خيبتي... ليس كثيرًا.

تبسَّم الدوق مايكل وقال: «هات لي رجلًا لا يندم على شيء، أُرِك رجلًا لم يصنع شيئًا».

- أين أليكس؟

- فوق. وصيفاتها يلبِّين لها كل حاجة. وأين قطيعكم الضائع، الملعون، الشقي؟

- حُبسوا في الأسفل. وسأفي إنا بالغرض.

وحاول أن يصوغ الجملة الأخيرة في صورة التهديد المزمجر، لكن نفسه خانه، ولم يخرج من صدره سوى أزيز شيخ هرم.

غير أنَّ مايكل لم يضحك، بل نهض واقفًا وقال: «يعقوب الشهير الثورني؟ القائد، وصائدُ الساحرات، الصليبي وفارس الهيكل، والبطلُ والجلَّاد؟ من ذا يخيب رجاءه بمثل هذا الندِّ؟».

ثم هبط الدرجات والسيف في قبضته وقال: «أخبرني... كم قتيل أنت مسؤول عنه؟ ألف؟».

ولم يجب يعقوب، بل انتحى عن العمود.

- ألفان؟

ولم يجب يعقوب، بل اعتدل في وقفته.

- عشرة آلاف؟

ولم يجب يعقوب، بل اندفع نحو العرش وهو يعرج.

قال مايكل، وقد اتخذ هيئة المهاجم: «وكنتُ أظنني أنا الشرير».

***

ضربت ڤيجا حارسًا بقوة هائلة حتَّى غاصت هراوتُه نفسها في مقدمة خوذته المهشَّمة. تلقَّاه بالثازار، مجازًا، قبل أن يمسَّ الأرض، وإلى ذهول رفقائه، رفعه من جديد إلى قدميه وكأن خيوط دمية قد شُدَّت دفعة واحدة.

شقَّ عليه تحريكه ووجهه متهشم تمامًا، غير أنَّه أدَّى نفعًا كدرعٍ لحميٍّ حين حاول حرَّاس آخرون طعن ڤيجا برماحهم، فبعد طعنات قليلة، غدا جسدًا مترنِّحًا كأنه رأس مطرقة يتهادى، قد انغرزت فيه أعناق رماح مكسورة من كل صوب.

وقد أضافت ڤيجا آنذاك عددًا آخر من الجثث، وقد شرع بالثازار بالفعل يقذف بهم، وهم يرشحون، يثبون، وفي مرَّة يعضُّون، إلى ساحة الحرب. آه، لذَّة الموتى الجدد! كان في وسعه اقتناء كائن فاعل، إن جاز التعبير، ودفعه مباشرة إلى ساحة الفعل. لا خطر من تفتُّته في أثناء النقل، ولما كانوا عازمين على العنف قبل فناء أرواحهم، فقد غدا أيسر ما يكون أن يُعاد توجيه تلك النزعة نحو رفاقهم الأحياء.

وهكذا قاتلوا معركة كرٍّ وفرٍّ عبر الحدائق المعلَّقة، بين دروب مصفوفة بالأشجار، وصفوف من خضرة الظلال المرتَّبة، فوق جسور خلَّابة، وحول نوافير متدفِّقة. رشُّوا أحد عجائب الدنيا بالدم، ومزَّقوا الغسق بصراخ الغضب، وأنين الألم، وعويل الفزع. قاتلوا خلال الظلمة المضاءة بالمشاعل، والنيران، ولمعان السحر. قاتلوا حتَّى الموت، وفي حالات كثيرة، بعده. طاردوا السيدة سيفيرا وحرسها على قمة العمود،

من أبواب الكاتدرائية نحو ظل دار الحكمة القاتم، والموتى من خلفهم يثبون، ويزحفون، ويتمايلون، ويتقدَّمون مترنِّحين.

ولما التقى بالثازار ڤيجا أول مرَّة، حسبها همجيَّة تفوق الحيوان بدرجة، أو تقلُّ عنه بدرجة. لكنَّ التجربة المكلفة ألزمته أن يقرَّ بأنَّ الهمجي، في المواطن الوحشيَّة، هو الخيار الأمثل. فمطالبة المرء بخصال تناقض طبيعة الشخص خيبة كبيرة. كانت ڤيجا جسورًا بلا حدٍّ، بوفاءٍ لا تتزعزع، ولم يُقابل بالثازار مَنْ يُجاريها في إزهاق الأرواح. فإذا نحَّيتَ عن وجهها وعن وجهه ما بينهما من مقتٍ مشترك، وتأملت الجانب المهني، ألفيتهما غاية الانسجام.

تُحول ڤيجا الأعداء إلى جثث، وبالثازار يحوِّل الجثث إلى أصدقاء.

قذفت رجلًا بجسده عبر الهواء، فاصطدم بجذع شجرة فتناثرت الشظايا. خطفه بالثازار، لكنه كان أعوج كورك دجاجة تهشَّم حوضها، وعلى كل حال كانت سيفيرا قد شقت الهواء بغضب وقطعت هذا ومعه جثة أخرى نصفين عند الخصر. سقط زوج الأرجل فورًا، فيما واصل الزوج الآخر الترنُّح بضع خطوات. أمَّا النصف الأعلى، فقد زحف خلال العشب نحوها وهو يلهث، مردِّدًا لسبب ما: «وجدتُ واحدًا، وجدتُ واحدًا»، وقد انحلَّت أمعاؤه اللامعة في أثره.

وكانت بابتيست والأخ دياز يزحفان خلفهم، مذهولين. أو لعلَّهما مرعوبين، لكن، هل ثمَّة فرق يُذكر؟ لم يشعر بالثازار من قبل بمثل هذه القوة، قلبه يدقُّ ببخار يغلي، وأفكاره تبرق كالبرق الحارق، وحواسُّه مشحوذة كحدِّ الموسى.

وعلى المسطح الأخضر أمام دار الحكمة، دارت السيدة سيفيرا لتطلق في الظلمة نفثًا من نار لاهب حتَّى إنَّه أحرق العشب تحته حتَّى اسمرَّ. شهقت بابتيست، وصاح الأخ دياز رعبًا، لكنَّ بالثازار، وللمرَّة

النادرة، كان مستعدًّا. وقف أمام الثنائي العاجز، وأخرج ورقته، وقد نُقشت دوائرها بأدوات مسروقة من رسَّام هندسي.

حرَّك شفتيه بتعويذته الخماسيَّة، لم يتوقَّف، لم يشكَّ، فامتصَّ مخطَّطه النار إلى مركزه، وبدأت الطلاسم تتوهَّج عبر ظهر الورقة. لسعت الحرارة أطراف أصابع بالثازار، لكنه لم يُفلتها. شعوذات سيفيرا خامًا محتدمًا، أما هو فقد قهرها، وضبطها، وكبحها! قد تكون فنَّانة حقيقية، يسوقها الحسُّ والاندفاع، لكنه مهندس يقيس، فجعل تعويذته كزنبرك: كلما امتصَّ قوةً أكثر، ردَّها أضعافًا.

فحين نضب الهجوم أخيرًا، وأذناه ما زالتا تصطخبان، وحلقه يلدغ من طعم الكبريت، لم يحتج إلا إلى أن ينطق كلمة واحدة، فانفجرت النار من بين كفَّيه بثلاثة أضعاف شدَّتها.

اتسعت عينا سيفيرا لحظة، ثم انحنت وضمت كفَّيها. فانشطر اللهيب، وزأرت النيران على جانبيها. احترق حارسان وسقطا في العشب المدخِّن، دروعهما تتوهَّج كأنها خارجة من كير. ترنَّحت سيفيرا إلى الوراء، شعرها المحترق ملتصق بوجهها، وثوبها يتصاعد منه دخان خافت. اشتعلت شجرة خلفها كأنَّها مشعل، تنفجر مخاريطها، ويتفجَّر صمغها من الجذع المتشظِّي، فتقذف جنونًا متوهِّجًا فوق مشهد المذبحة.

ولم يتوقَّف بالثازار. قذف بورقته المتفحِّمة، ورفع يده، فنهضت الأجساد المحترقة للتوِّ، ما زالت تدخِّن، وبدأت تترنَّح نحوها، أذرعها المتفحِّمة ممدودة.

همس الأخ دياز: «يا قدِّيسة بياتريكس الطاهرة».

لا ريب في أنَّ حرَّاس القصر رجالٌ شجعان، ذوو بأس وتجربة، لكنَّ خيار الأحياء لا يحمل في جوفه إلا قدرًا محدودًا من القتال. فرَّ الناجون ملقين بأسلحتهم أرضًا. وانسحبت السيدة سيفيرا، متقهقرة على درجات

السلَّم نحو أبواب دار الحكمة، بأسنان مطبقة، ويدين مرفوعتين، إذ كان الموتى القساة يقربون الخُطى. الموتى وقيجا، تهمهم في حنجرتها همهمةً وئيدة.

قالت وهي تزمُّ شفتيها وقد أرسلت إليهم نظرة قاتلة: «أن يُكدَّر صفوي هكذا... من أجل هذا العرض التهريجي».

صرخ بالثازار، يرقب حركتها أدقَّ ما تكون المراقبة: «إنك ساحرة قديرة لا ريب! لكن لا بُدَّ أنك ترين الغلبة لمن. والأمر قد قُضي!».

فأجابته، دون صرف نظرها عنه، وقد أدارت رأسها لتنادي من خلفها: «بل نحن في البداية الأمر. أطلقوا البقايا!».

صدر صرير معدني من جوف دار الحكمة، وعلى جانبي الدرج أخذت الأبواب المسنَّنة ترتجف، ثم شرعت ترتفع. أرأى بالثازار شيئًا يتلألأ في الداخل؟ شيئًا ينحلُّ في ظلمة حظيرة الوحوش المهجورة؟ شيئًا عظيمًا، يصدر أنينًا نابضًا لا هو بالحيواني ولا بالإنسي، بل أدنى من كليهما.

لقد انشغل بنفسه ووهمِ قوَّته حتَّى غفل عن تجارب يودوكسيا العاثرة.

- يا ويلي.

وإذ ارتفعت الأبواب المسنَّنة، وهبط باب آخر على مدخل دار الحكمة. فقفز بالثازار بلا روية، يصعد الدرج خُطوتين في الخطوة، ثم تدحرج تحت أهداب الباب المسنَّن لحظةً قبيل انغلاقه مرتطما.

67

حربٌ مصغَّرة

المبارزة بالسيف حربٌ في هيئة مصغَّرة، وكثيرًا ما تُكسب الحروب أو تُخسر قبل الضرب. في ساحة التدريب، في ورشة الأسلحة، في مكتب التموين. في فطنة العدو، واستبطان قوَّته، واستشراف عجزه، واستقراء حيله، ومعرفة المرء لنفسه.

السياف البصير يعرف نده قبل أن تتلاقى النصال. من قبضة اليد على المقبض، من كيفيَّة سحب السيف، ومن طريقة عرضه. ولمَّا اتَّخذ الدوق مايكل موضعه أمام عرش الأفعى، لم يظهر عليه جزعٌ ولا حماسة، ولا غلظةٌ ولا رهبة. بل إنه ذا نظرة سويَّة كأنَّه لاعب شطرنج يتأمَّل النقلة الأولى.

انزعج يعقوب إذ ذكرته وقفته بقسطنطين. تلك المبارزة الخاسرة على القداس الغارق. لعلَّ الخال وابن الأخت تبارزا في أيَّام الصفاء، أو لعلَّ الأكبر درَّب الأصغر. لكنَّه لم يرَ في تقديم مايكل لسيفه أثرًا من زهو قسطنطين، بل عرضه عرضًا ساكنًا مستقيمًا. ذلك خُلُق رجل ذاق الخسارات، يعرف أن هاوية الفشل تفغر فاها خلف عقبه، فلا يأمن شيئًا.

وربما تجاوز مايكل ذروته، لكن يعقوب قد تجاوز ذروته بعقودٍ قبل ولادة مايكل. والمبارزة، بما أنَّها حربٌ مصغَّرة، فإنَّ معرفة الميدان من

أصول النصر في الحروب. كل تلٍّ، وكل دربٍ، وكل شجرةٍ أو مجرى، قد يُجعل سلاحًا، بل لا بُدَّ أن يُجعل سلاحًا، لا سيما حين يكون المرء الطرف الأضعف.

فحين عرج يعقوب إلى وسط الأرضيَّة الدائريَّة، جال ببصره في أرجاء القاعة، يبتلع كلَّ تفصيل. الأعمدة الرخام، يقدر المبارز الحاذق أن يناور بينها فيفسد هجمة خصمه. الأستار الثقيلة، قد تعوق وتشتبك. التماثيل، تصلح دروعًا. المصابيح المعلَّقة، قد تسكب زيتًا مشتعلًا. وعرش الأفعى نفسه، قيم، ولكن سهل الكسر، أي من الأمور التي يحرص مايكل عليها، فلعلَّه يتردَّد أن يوجِّه الضرب صوبه. أمَّا خزائن الأسلحة المأسورة المثبَّتة إلى الجدران، فقد تُنتزع ويُستنجد بها في الشدَّة، بعد قرونٍ من آخر دم سفكته.

توقَّف يعقوب، على مسافة جسدٍ ميت من خصمه.

المبارزة حربٌ مصغَّرة، وفي الحرب لا بُدَّ من الاستعداد لكل طارئ. يعقوب رأى كلَّ شيء، ثم رأى كلَّ شيء يتكرَّر، وما من رجل حيٍّ يحمل أثقل من عبء تجربته. فلمَّا ثنى ركبتيه المتصدِّعتين، نسج في ذهنه ألف احتمال. جزر القتال ومدَّه فنون الضرب المتوقَّعة، ووجوه صدَّها. ادَّخر في ذهنه جملة من الحيل القاتلة.

تماست نصالهما عند الأطراف، بأدنى ضغط، وحدَّق يعقوب إلى عيني الدوق مايكل.

المبارزة حربٌ مصغَّرة. فيها أنماط لا ينساها المجرب. السكون المتوتِّر المفعم بالشكِّ والضيق، واللحظات الوجيزة من رعبٍ مسعور، حيث يُقامر المرء بكلِّ ما يملك على ضربة، أو اندفاعة، أو طعنة. لكن لا اثنتان تتشابهان تمامًا. ولا نتيجة معلومة. ولهذا يواصل الناس القتال، وإن ضاقت الآمال، وإن تكرَّرت الهزائم. فثمَّة دائمًا فرصة.

وربما أحسَّ الدوق مايكل بنشوة المجازفة، إذ ابتسم ابتسامة خفيفة، حين شعر يعقوب بتحوُّل في ثقله. شعر بخفوت الضغط عند طرف سيفه بمقدار هنيهة. أحسَّ أن الضربة آتية. تيقَّظ لقطع يوشك أن يهوي، واستعدَّ ليلوي رسغه عند طعنة، وأعدَّ نفسه لتحويل التمويه دفاعًا يُردف به هجومًا...

لكن عيني مايكل انحرفتا إلى الجانب، وانكمش ما بين حاجبيه في ريب. همس: «أليكس؟».

نظر يعقوب نحو الجهة الأخرى، وغمغم ألمًا إذ لسعَ عنقه. ثم دوَّى احتكاك الحديد حين انقضَّ الدوق في لمح البصر. وكانت ساقا يعقوب واهنتين من أثر الصعود، فلم يستطع إلا أن يدفع سيف مايكل بضع أصابع. فانغرز شاقًّا قميصه تحت أضلاعه السفلى. واتَّسعت عينا يعقوب إذ انزلق النصل في جوفه حتَّى المقبض، فظلَّ يتمايل على عقبيه.

قال بصوتٍ مختنق: «أووووووف». فمهما تكرَّرت، لا يعتاد المرء أن يُغرز فيه الحديد.

المبارزة حربٌ مصغَّرة. تُكسب أحيانًا بالدهاء أو الجرأة.

لكن تُخسر غالبًا بغفلةٍ حمقاء.

* * *

رأت ڤيجا في حياتها مشاهد تجعل أشجع الشجعان يوسخ سرواله.

في أوَّل قتالٍ حقيقي خاضته، هجم القوط العراة من بين الضباب، جلودهم مسلوخة جزئيًّا، وعقولهم مشروخة من أثر الفطر. وتلك الكتلة العمياء من لحمٍ شيطانيٍّ ينوح، والتي كانت الساحرات يطعمنها في ألمانيا. وحين انشقَّت وجوه أهل القرية في المغارة الملوَّنة، ورأت على ضوء المشاعل الصارخ ما كان يقطن داخلهم طول الوقت...

لكن حتَّى ڤيجا لم ترَ قبحًا كهذا، وهو يلتوي ويتقلَّب ويزحف من جوف الظلمة. صنعت يودوكسيا وحوشًا، لكن أقبحها ذلك الذي جمعته من البقايا.

قال الأخ دياز همسًا: «ليعيننا الرب...». وهو يتعثَّر ويتراجع حتَّى سقط على قفاه.

له من الأعضاء ما لا يُحصى، وكان أكثر من اللازم عددًا، تتفرَّع في كل اتجاه، ملوية، شائكة، مشعرة على نحوٍ مقزِّز، أقدام ومخالب وأكفٌّ تعبث بالهواء، أرجل بثلاثة مرافق ومفصلين للكعب، وأذرع كلها ركب، ورفع قدمًا مكسوَّةً بالآذان، ترتعش كأنَّها تصغي لموسيقى بعيدة.

قالت بابتيست، وعيناها تتَّسعان: «كان ينبغي أن أعتزل... بعد برشلونة...».

ترنح متقدِّمًا في مشيته الملتوية، يجرُّ جسده الملتفَّ كأنَّه كيسُ غنيمة مهترئ، لكن ما بدا داخله لم يكن سوى أمعائه المختلَّة. أفعى عظيمة من جثثٍ ملصوقة، تنِّينٌ هجين من الجلد الرمادي والجلد الأصفر المخطَّط والفرو المرقَّط. ما انفكَّ يتقدَّم، والمزيد من الفظائع تنبثق من الظلام في رشقاتٍ لزجة، يورمنجاند مرقَّع، ينبت قرونًا ونابًا وقرونَ ظباء، تغطِّيه ندوب دامعة. زلقة جَبَّارة تخلِّف أثرًا من المخاط المتلألئ، أطراف طيور دقيقة تنهش عبثًا، وأطرافُ ثيرانٍ هائلة مشدودةٍ إلى حوافر نافرة.

قالت ڤيجا: «بحق... أودين...». وسقط رمحها المكسور من يدها. أودين ماذا؟ حتَّى الأب الأعلى، العارف بكلِّ اللغات، ليعجز عن تسمية هذا الرجس.

أبصرها. ولما له من أعيُن كثيرة، فكأنَّه يبصر كلَّ شيء ولا يبصر شيئًا. ثم استقام فجأة، وانكفأت كتلة الأطراف عند المقدمة كاشفةً عن

فم مستدير فُتِحَ مثل زهرة فاغرة وفي داخله فم، وفي داخله آخر، بئر من الأسنان تبكي كبكاء رضيع كئيب.

وانقضَّت عليها بسرعة رهيبة وجوع رهيب، وأقدامها المتعدِّدة منها تمشي أمامًا، ومنها خلفًا، ومنها جانبًا، تقفز على العشب، وأكفُّها بالعشرات تنبجس قابضة نحوها، وريحٌ نتنة تعصف من ثغرها المسنَّن، وتذكَّرت ڤيجا، أوَّل مرَّة منذ أمد طعم الفزع الحقيقي.

لقد خدعت نفسها بأنَّها كممت الذئبة. أوهمت نفسها أنَّها أطاعت. لكن الذئبة أمكر، تختفي في الظلال متقمصة هيئة الكلب المطيع، حتَّى إذا واتتها الفرصة، تمزَّقت من قفصها الواهي في أضلاعها وابتلعتها دفعةً واحدة. فلمَّا فتحت ڤيجا فاها لتصرخ، خرج منها عواء الذئبة المهول، وحين حاولت دفع تلك الغابة من الأطراف المختلطة، امتدَّت مخالب الذئبة الرهيبة لا يداها، وحين اندفعت الفظاعة إلى صدرها، صادفت جوع الذئبة الذي لا يُروى.

تقلَّبت ڤيجا-الذئبة تقلبًا عنيفًا بين الأزهار أمام هذا الرجس المتلوي، تتصارع وتتحارب. وكانت تلك الشيء تلكم وتخمش وتنقر بأطرافها التي لا تُعدُّ، لكن ڤيجا-الذئبة أطبقت عليها بين فكَّيها الخنجريين، ودارت في هيجانٍ دمويٍّ، تُكسِّر العظام، وتقتلع العروق، وتُلقي الأذرع والسيقان وبقاياها هنا وهناك.

قبضت عليها بمخالبها الأمامية، ومزَّقت بطنها المندمل بمخالبها الخلفية، وهي تلهث وتلعقها بأفواهها التي داخل أفواه، تجرحها وتخدشها وتشجُّها بأسنانها المتشابكة. تلوت ونهشت، وحفرت وحفرت، فقد علمت أن اللحم الطيِّب -إن وُجد في هذا العالم- لا بُدَّ أن يكون داخل هذه المخلوقة المخططة، الرهيبة، التي تعادي الرب، ولا بد لها أن تفتحها وتكشف عن كنوزها.

ولمَّا كانت تنهش، رأت خطأها. إذ بينما تنهش عند رأسها، اشتدت كتلتها اللحمية حولها، حتَّى طوقتها من كل صوب بلحمٍ مقرن، مُقشَّر، مُكسوٍّ بالفرو. فانفلتت منها إذ استدار عليها، مخدوشة بالشوك والعظم، انبثقت من بين مخالبها كفلِّينة من قنينة، وفراؤها مغمسٌ بدمها وبلزوجتها، تتمايل وتتصارع وتعوي بالخزي.

أما البقايا فقد حرَّكت الأرض بأكفِّها ذات الأظفار الأرجوانية، تقلع العشب وتذرُّ التراب، والبخار المتناثر يتصاعد من مناخيرها، وأعيُن بشر، وتيوس، وأفاعٍ تنتفخ فيها على حد سواء. تقدَّمت تسحق الأرض بحوافرها العظام، فترج التراب، وترتعد الأشجار، وتحرث ندبةً في الحدائق، وتسقط مطرًا من الأوراق والأغصان والأزهار.

لكنَّ ڤيجا-الذئبة لم تكن أنيابًا وغضبًا وحسب، بل ضغائن دفينة، وصبرًا سامًّا أيضًا. فانزلقت خلال الأشجار في لولبٍ من الفرو، شرارة من المخالب واللعاب. تباطأت البقايا وهي تتعثَّر بجذع، ثم تتدحرج وتترنَّح وأطرافها تتخبَّط، وتحطِّم جذعًا آخر، ثم اندفعت خلف ڤيجا-الذئبة نحو فجوةٍ ضيِّقة، فاندسَّت بين شجرتين ضخمتين، تشدُّ إلى الأمام بكل أيديها الكثيرة، تعوي وترتجف، وعروقها تتفجَّر، ولكن كلما زاد هزٌّ عنيف زاد حشرها، فتتخبط في زبد دموي، ولحاء الشجرتين العتيقتين يمزِّق جلدها المرقَّع.

زحفت ڤيجا-الذئبة تحت أنيابها القاطعة، وانسلَّت تحت بطنها المتدلِّي ذي الحلمات المتعدِّدة، وشقَّت بطنها بمخلبٍ طويل. فانهمر سائلٌ أسود، يضجُّ بالفروخ المتلوِّية، ديدانٌ بحجم الأفاعي تلتفُّ وتعضُّ بعضها بعضًا، منها ما له أفواه، ومنها ما له أيادٍ، ومنها ما له آذان، والأم تصرخ في جُنونها الأعمى على ذُرّيتها العمياء، وتدوسهم في هيجانها، فتسحقهم سحقًا.

انزلقت ڤيجا-الذئبة خارج الجسد العالق، تعوي نصرها وتباهي بظفرها. فصرخت البقايا، كل يد ورجل ولسان يمتدُّ نحوها، وفي فجأة رهيبة انشقَّت نصفين، وسُكبت أمعاؤها الحارَّة كالمرق، وتمزَّق جزؤها الأماميُّ، واندفع نحوها بأطراف عوجاء كثيرة.

نهشتهم ڤيجا-الذئبة، لكنَّهم كانوا أكثر من أن يُنهشوا، وأقوى من أن يُردُّوا، فسحبوها، وفمُها الباكي الفائر يفتح مرَّة أخرى، وابتلعها وهي تولول، جرفها إلى أنيابه، وهضمها كاملةً، ويا للمفارقة!

فلا عجب أنها ما وجدت اللحم الطيِّب...

إذ كانت هي اللحم الطيِّب...

طوال الوقت.

***

اندفع بالثازار عبر البابين المفتوحين، وتوقَّف منزلقًا عند الدرابزين، يحدِّق مشدوهًا إلى الرواق المعتم لمكتبة دار طروادة للحكمة. الفضاء الهائل مزدحمٌ بالظلال، لا يُضاء إلا ببعض وهج النيران المنعكسة عبر نوافذ عالية، تلمع بين الفينة والأخرى على حواشٍ مذهَّبة لصفوفٍ وصفوفٍ وصفوف من الكتب، تمتدُّ صعودًا بلا انقطاع نحو القبة البعيدة، إحدى أعظم خزائن العلم في العالم المعروف.

وبعد الفوضى في الخارج، بدا المكان ساكنًا على نحوٍ مريب، ساكنًا حد القلق، فكلُّ خطوةٍ يخطوها بالثازار وكلُّ نفس يلتقطه يولِّد صدى. وكان قلبه يقرع كطبولٍ مُسرَّعة، وهو يهبط إلى الأرض الدائريَّة، فمه جاف، وجبينه يرشح عرقًا أسرع مما يستطيع مسحه، مستعدًّا في كل لحظة أن يثور عليه فزعٌ قاتل من غياهب الظلمة.

وكانت هناك لمعةٌ باهتة في الرخام. دوائرٌ سحريةٌ هائلة، محاطةٌ برموزٍ منحوتة، وطلاسم مكتوبة بخطٍّ دقيق، طلاسمُ طقوسٍ عظيمة

ومعقَّدة. لا بُدَّ أنَّ هذا هو معمل الإمبراطورة المجنونة يودوكسيا، حيث مزجت الإنسان بالوحش في سعيها العقيم لبلوغ الروح. وهذه -كما اقترب من المركز- لا بُدَّ أن تكون بقايا تجربتها الأخيرة القاتلة.

ومطاردة أخطر ساحرة عرفها لم تكن فرصة مثالية لاستكشاف النظريات الغامضة، لكن ساحرًا كبالثازار، لا يشبع فضولُه، لا يملك إلَّا أن يُلقي نظرة على الأدوات المهجورة وهو يمرُّ. فهي، على كلِّ حال، شيء لم يُشاهد مثله من قبل...

قضيبٌ معدنيٌّ، احترق بالنار، أو... لمس الرماد المترسِّب عليه، دعكه بين سبابته وإبهامه... أم بصاعقة؟ وهذه اللفائف النحاسية، قد شحبت باللون الأخضر كأن تفاعلًا محمومًا قد اجتاحها لحظة، ولا تزال تفوح برائحة الحمض.

أداةٌ صُممت لتسخير البرق، ذاك التجلي الأشد تقلبًا ووحشيَّة من طبائع الكون...

همس: «محال».

ومع ذلك، هذه الجرار... مثبَّتة على جانبي القضيب بدقةٍ محسوبة. هل هذا شيءٌ مخلل يطفو داخلها؟ تمنَّى لو لديه نورٌ أكثر، حتَّى ألصق أنفه بزجاجها المشوَّه. ريش؟ ارتدَّ مبتعدًا، وقد برق في ذهنه طيفُ زيارة شاكسيب لعالمهم بدعوته اليائسة. حوت إحدى الجرار قلم شيطان. والأخرى ريشة ملاك. قطبان روحانيَّان متضادَّان، وُضعا لضبط تدفُّق القوَّة الخفيَّة. لتُوازن كما توازن الأكوان.

وانحنى ليمسح بطرف أنامله رُقَى الشقِّ المرسومة في الأرض أسفلها... لم يرَ استخدامًا لها هكذا قط... لتقسيم طاقة... ثم توجيهها نحو المقعدين، المزوَّدين بأحزمة، إما لتقييد أسيرٍ غير راغب... وإما تثبيت موضوعٍ فاقدٍ للوعي؟

أداة صُمِّمت لا لاكتشاف الروح فحسب... بل لإطلاقها...

تمتم: «محال...».

ومع ذلك... مقعدان. قطَّب جبينه وهو يحدِّق إلى النقوش المتشابكة التي تحيط بهما، والهندسة التي تفصل بينهما وتربطهما معًا. ذكَّره هذا بحجرةٍ شاحبة رآها يومًا، أنشأتها محاكم التفتيش في نابولي ثم هجرتها مسرعة -لا ريب أنها استعانت بعَرَّافين لاصطياد الزنادقة، يا لسخرية القدر- لكن الفارق ظاهر. فالنقوش هنا غير دقيقة، عاطفية النزعة، خالها للوهلة الأولى أخطاءً، ثم، لمَّا تأمَّلها، بدأ يرى خلاف ذلك. هناك: وجوه التسخير والحركة. وهناك: وجوه التحوُّل والمقايضة. كانت تعديلاتٍ مقصودة. تحسيناتٍ مدهشة. إضافاتٍ بارعة! عناصر تلحيم قد سُبكت بإتقانٍ ضمن دائرة الروح -الجسد والروح معًا- فداخِل عقله من جرأة الطموح.

أداة صُممت لا لإطلاق الروح فحسب...

بل لنقلها...

زفر بالثازار وهو يرفع نظره: «محال...». ولمح بلمح البصر حركةً، مرتسمةً على الجانبين المقوَّسين لهاتين الجرَّتين.

فدار بالثازار على عقبه، رافعًا كفًّا وقائيَّة، ليبصر سيفيرا مقرفصةً، تكشر عن نواجذها، مشيرةً إليه بإصبع واحدة.

واندلع وميضٌ متوهِّج، فأضحت بئر الظلمة الشاهقة، المصطفُّ فيها رفوف من الكتب، نهارًا ساطعًا إلى سقفه الفسيفسائي، وقد ارتسمت على صفوف الرفوف ظلال السلالم والشرفات والممرَّات بدقَّة الخنجر.

لم يكن ثمَّة متَّسع لحركة، ولا حتَّى لكلمة، بل لفكرةٍ واحدة فحسب: طلاسم الانقسام. تخيَّلها بالثازار، عظيمة في ذهنه حتَّى ملأت كيانه كلَّه، وبها شقَّ برق سيفيرا شطرين ويده مرفوعة.

فانفجرت الرفوف خلفه، وراحت أوراقٌ محترقة تتطاير كقصاصات عرسٍ ملعون، وانحدرت انهيارات من الكتب الممزَّقة المشتعلة على

جانبيه. ترسَّخت في عينيه صورة شجرة البرق المتكسِّرة، وصدى الطنين في أذنيه، ولسع أنفه ريح كيميائية نفَّاذة، وجلده يتلظَّى بالطاقة المتأججة، وشررٌ لم يتوقف يتقافز من كفِّه نحو الأرض.

تطلعت إليه سيفيرا بحدة، إصبعها ما زالت ممدودة، وشراستها تتوهج على ضوء الكتب المشتعلة، فتهيَّأ بالثازار للهجمة التالية بأصابع مرتجفة لصوغ الحركات، وقلبه ينبض بألم وهو يتساءل: أترى في نفسه من الثبات الذهنيِّ ما يكفي لمجابهة ضربتها التالية؟..

لكنَّها لم تأتِ.

انهار رفٌّ آخر من خلفه، وتطايرت بضع مجلدات محترقة عبر الأرض المنقوشة بالطلاسم، كفروخ اقتربت من الشمس أكثر مما ينبغي، ثم هبطت واستقرَّت.

وهمس وقد غلبت الدهشة صوته: «لقد رميتِ برقًا...». كل شعرة من جسده انتصبت كأنما بها مسٌّ، وما برح بعضها في ساعده يتصاعد منه دخان رقيق.

فأجابته سيفيرا: «وأنت أمسكتَه»، وهل يتوهَّم أنَّ نبرةً خفيَّة من الإعجاب تسللت إلى صوتها؟

قال بالثازار: «لقد أخبرني تلاميذ يودوكسيا أن الإمبراطورة تقدر على هذا...». ولم يكن يصدِّقهم حتَّى رأى ذلك بعينيه اللتين لا تزالان تحترقان. «علَّمتكِ هي الطريقة؟». لكن أيَّ ساحرٍ يُعتدُّ به، خاصةً من بلغ من الغيرة مثل يودوكسيا، يُطلع غيره على أسراره العميقة؟ «أم... لعلَّ...». وتجمَّد جلد بالثازار، وارتعد مؤخر رقبته، كأنَّه على حافة اكتشاف عظيم. ونظر إلى الجهاز: القضيب، والريش المحنط، والمقعدان التوأمان.

وبدأت سيفيرا تبتسم، وعيناها تتلألآن بضوء الورق المشتعل. ابتسامة لا تليق بتلك الملامح الموقَّرة عادةً.

ابتسامة انتشاء. ونصر. وجنون.

قال بالثازار، يلفظه وكأنه تنفسه: «تجربة يودوكسيا... نجحت».

تعرَّف على تلك الابتسامة. لقد ارتسمت على وجهه من قبل، حين أثبت نظريَّته في ماهية المادة في كاتدرائية الزيارة الملائكية. فخر المكتشف الخفيِّ، إذ يخطو خطوة الإنسان الأولى في أرضٍ لم تحطأها قدم، ويغور في أسرار الخلق، ويقتحم بجرأة موضعًا لم يُؤذن فيه إلا للملائكة والشياطين.

همس كأنَّ صوته شبح: «تجربتكِ... نجحت».

قالت السيدة سيفيرا -الإمبراطورة يودوكسيا، وقد انكشفت حقيقتها، إذ لبست لحم خادمتها كما يلبس المرء حلة فاخرة جديدة-: «المفاجأة الجيدة ينبغي أن تخرج من غموض في لمعة مدهشة، كهزة برق في سماء ملبدة».

***

قال البارون ريكارد: «فإن كنتُ قد استحوذت الآن على انتباهكم التام...». وجال ببصره قمة المنارة ليتثبت أن الأبصار قد صُرفت نحوه جميعًا، وقد كانت، بلا ريب، في خشوع مندهش. فقد خرَّت بلاسيديا على ركبتيها، ويدها مشتبكتان كراهبة بين يدي محراب. وفي أثناء نسيت أن تغلق فاها، وانسدل من شفتها خيط ريق. أما أليكس، الراكعة إلى جنب ساني، فأطلقت زفرة حادَّة من فرط الترقب حين التفت إليها مصَّاص الدماء.

قال: «وأحسب أني قد فعلت... إليكم مقصدي». لم تعد بشرته ناعمة كما كانت، ظهرت خطوط الضحك في أطراف عينيه، غير أنَّ عينيه... كأنَّما نفذت إلى روح أليكس، فعرفت أغوار رغائبها، وهمَّت أن تهبه

إيَّاها. فشهقت أليكس خائبة إذ صرف نظره عنها. ثم قال: «والآن، ما اسمكِ؟..».

قالت زينونيس، رافعة ذراعها بخفة ولهفة، كطالبةٍ تتشوَّق إلى أن تجيب أستاذها: «زينونيس!».

قال البارون، باسمًا كاشفًا عن أسنانٍ بارعة التناسق، ولكم تمنت أليكس أسنانًا كأسنانه: «وأنتِ ساحرة نار؟ أفهم سحر اللهيب جيِّدًا... ما أبهى النار، وما أفتكها، بل إنما بهاؤها من فتكها».

تمتمت ساني، وهي مسنَدةٌ إلى الجدار، ضامَّةً ضلوعها، وعيناها أوسع مما اعتادتهما: «إنَّه يتكلَّم ببراعة».

فصاحت أليكس: «هشش! اخرسي!». لم تطق تفويت حرف. لم يكن ثمَّ صوتٌ آخر إلا همسة لهِج لهب القديسة نتاليا، حتَّى ذاك بدا خجلًا من مقاطعته.

تابعت عيناها إصبع البارون الممدودة وهو يشير: «أرى أنَّ عليكِ أن تريها...».

قالت كليوفا، بلهفة: «كليوفا!».

قال: «أسماء ساحرة لفتيات ساحرات، أرى أنَّ عليكِ أن تري كليوفا بهاء النار».

همست بلاسيديا: «يا للفكرة المذهلة».

قالت أليكس، مبهورة: «يا للفكرة العجيبة». لمعت في ذهنها ذكرى مشاحنةٍ سابقة مع هؤلاء الفتيات، لكنَّها بدت تافهة الآن، وكلَّهنَّ توحَّدن في الرغبة في إرضاء البارون. لا يمكن أن يكون مصَّاص دماء. ذاك محض وهم. إنَّه قدِّيس. الشكُّ فيه مستحيل، ومخالفته لا تخطر على البال. هو مَلَك. تمنَّت أليكس لو عرفت كيف تحرق أحدًا لسروره. إنَّه إله، وتمنَّت أن تُحرَق لترضيه.

قالت كليوفا، مصفِّقة: «يا لها من فكرة عظيمة لعينة!».

قالت بلاسيديا: «أنا التالية!». وكادت تقفز طربًا.

قالت زينونيس، باسمةً في سعادة، وعظام أصابعها تتوهَّج كالجمر تحت الجلد، وأكمامها تدخِّن وتتفحَّم: «لا تقلقن، النار تكفيكنَّ جميعًا».

وشعرت أليكس بقبلة الحريق تمسُّ خدَّها، حين اندلعت النار في ثياب كليوفا. لمحَت وجهها الباسم آخر مرَّة قبل أن يشتعل شعرها كمشعل، وتسوَّد جلدها وتفسخ، وسقطت تغنِّي من البهجة، وإن بدا لحنها لا يختلف كثيرًا عن صرخةٍ شنيعة، تتلوَّى وتحترق نشوةً.

وسالت دمعة على خدِّ أليكس. دمعة غيرةٍ خالصة، أن كليوفا نالت حظوة النار قبلها.

قالت، بمرارة: «لِمَ لا يختارني أحد أبدًا؟».

قالت ساني، من بين أسنانٍ متألِّمة: «أنا اخترتُكِ».

قالت أليكس: «اخرسي!». ثم زحفت على ركبتيها المسلوختين مقتربةً من ريكارد، تتعلَّق بالأمل أن يختارها التالية.

قال: «ما أبهى احتراقها!». وكان ضوء النيران يرقص في تجاويف وجهه الغائرة، وجلده المتجعِّد يرتعش من الجهد.

قالت زينونيس، وهي تعقد جبينها: «أ... أظنُّ... أمتأكِّدٌ أنت؟ أن...».

فقال البارون بحدَّة: «بلى، بلى! والآن... قدِّمي لذة النار إلى...». وحدَّق إلى أثناي.

قالت: «أثناي»، وجبينها المتناسق ينكمش، «لكنني بدأت أظنُّ...».

فصاح البارون، من بين أسنانه، ولحيته، وشعر صدغيه الذي اشتعل شيبًا: «فكِّري فقط في تلك الزلابية! تلك المحشوة بالخنزير، بقليلٍ من البصل، مقليَّة في الزيت...».

لكن أليكس لم تجد الزلابية بتلك الروعة التي كانت تراها قبل لحظات، ويبدو أن وصيفاتها شعرن بالشيء ذاته. ربما لأنَّ رائحة اللحم المشوي صارت أكثر تشويشًا، أو لأن العرق الدمويَّ الذي لمع على جبين البارون جعل شيئًا يرتجف في أعماقهن. حدَّقت زينونيس إلى جثَّة كليوفا المتفحِّمة، ثم رفعت بصرها نحو بلاسيديا. تمتمت: «زلابية؟».

هزَّت أليكس رأسها. ألم يكن ثمَّة أمرٌ غاية في الأهميَّة كنَّ بصدده؟

واتَّسعت عينا أثناي: «مت!». صرخت، ورفعت كفَّيها المفتوحتين نحو البارون. فتحطم أحد الأعمدة، وانهار جزءٌ من القبة معه، وتناثرت كتلٌ من الحجر في ليل السماء الفارغ.

لكنَّ ريكارد لم يكن هناك. لقد غدا سحابة من دخانٍ أسود، تمزَّقت ثم تجمَّعت مجدَّدًا، بينما كانت أثناي تدور وتُطلق قواها في جنون. تكوَّرت أليكس فوق ساني، تحمي رأسها بذراعيها، وقد انهمر الجصُّ من فوق الرواق. سقطت كتلة حجرٍ قربها، وجانبها المنحني ما زال مغطًّى بالمرآة. تفرق الدخان وتجمَّع حول أثناي، وغدا البارون مجددًا، وجهه المتغضِّن ثابتٌ في ابتسامةٍ جائعة، يثبِّتها من خلفها، يكمش ذراعيها، وفمه ينفتح أكثر مما ينبغي، وأسنانُه الكثيرة أكثر بياضًا، أشد حدَّة. غرَزها في عنقها، ومزَّق نصفه مع قطعة من كتفها، والدم يندفع من الجرح الفاغر كنافورة.

صاحت زينونيس: «لا!». ورفعت يديها المتلألئتين، في اللحظة التي نهضت فيها أليكس مترنِّحة، ترفع معها تلك الكتلة الحجريَّة، والمرايا تتوهَّج.

قالت زينونيس: «سأريكِ الـ... أغغ!». فضربتها أليكس على قفا رأسها، فدوَّت الضربة بخفوت.

دارت زينونيس مترنِّحة، والدم ينتشر في شعرها، ويتسلَّل على جبينها. ارتعش جفنها، وسقطت يدٌ من يديها، رخوة. ثم رفعت الأخرى، وما زال الحرارة تتوهج حولها. قالت: «سأُر... ي...».

فحطَّمت أليكس وجهها بالحجر. تراجعت زينونيس، وتأوَّهت ساني وهي تمدُّ قدمًا، مرئيَّة على غير العادة، لكنَّها فعَّالة كعادتها. تعثَّرت زينونيس، ترنَّحت، وسقطت، ومدَّت يدها في محاولة يائسة للإمساك بالحاجز، لكنها اختفت. سقطت من خلال الفجوة العظيمة التي فجَّرتها أثناي، وانقلبت في ظلمة الليل.

ثم سمعت أليكس زمجرة نصر، والتفتت تحدِّق، فرأت بلاسيديا تمسك بالبارون ريكارد، وبلَّورات من الجليد المتلألئ تنتشر على ذراعيه. قالت: «أمسكتُ بك!».

فكشف عن أنيابه المفرطة الحجم، وأطبق يديه الباردتين على ذراعيها، واللحم يئنُّ ويصرُّ من التجمُّد. فقال: «لا...». وقد انزلقت قدماها، وتجاعيد وجهه تزداد. تمتم البارون، وهو يرفعها، وشعره يتلاشى إلى خصلاتٍ مجمَّدة: «أنا... من أمسَك...».

ركلت بلاسيديا وتخبَّطت، لكنه، في جهدٍ أخير، انقلب بها، ودفعها إلى نار القديسة نتاليا. كانت الشُّعلة تخبو، نارها لا تعلو عن خصرها، لكنَّ البارون نطق بكلمة، فاندفع من شفتيه الزرقاوين زفير، وتوهَّجت النار بيضاء، ألسنتها تزمجر خلال فجوات القبة المحطَّمة.

صرخت بلاسيديا، تمزِّق البارون بمخالبها المحترقة، لكنه تمسَّك بها، وذراعاه تشتعلان، وعيناه السوداوان تتلألأن بلظى اللهب. خمدت صرخاتها إلى خَرخَرة، ثم سكتت. ترنَّح ريكارد إلى الوراء، شيخًا كما رأته أليكس أوَّل مرَّة، لكنه الآن مغطًّى بالجليد المذاب، وذراعاه تشبهان السجق المحروق. تعثَّر بقدمه، وانهار إلى جوار الحاجز، كومةً مدخِّنة. وانبعث عمودٌ من الشرر من المجمرة، لم يبقَ فيها إلا جمرٌ متوهِّج.

وتناثر الرماد على الرواق الخرِب، يغمر أليكس، وساني، وجثث تلامذة يودوكسيا، كثلجٍ أسود.

* * *

وقف يعقوب، والسيف يخترقه.

وكان الألم لا يُوصف، بالطبع.

لكنَّه استطاع التنفس. فالسيف لم ينفذ إلى الرئة، ولا إلى القلب. فظلَّ واقفًا، وكز على أسنانه. ونظر إلى الدوق مايكل، وهزَّ كتفيه. تمتم: «هَه. ذقتُ أمرَّ من هذه».

حدَّق الدوق مايكل إليه، لا يعلم ما يفعل. إحقاقًا للحق، طعن الخصم غالبًا ما يكفي. فجذب مقبض سيفه، لكن يعقوب أمسك بالصليب بيده اليسرى، وأنَّ من الألم والجهد وهو يرفع سيفه بيمينه.

أفلت مايكل قبضته، وتراجع على ظهره، شهقَة ذهول، إذ اجتاز سيف يعقوب رأسه في حركةٍ عرجاء، وكعبا حذائه يصرَّان على الرخام وهو يزحف هاربًا.

تمتم: «يا إلهي...». وهو ينهض مترنِّحًا، بينما عرج يعقوب نحوه، سيف في يده، وآخر في جوفه، والدم يخضِّب المقبض، ويقطر من القبضة، ناثرًا بقعًا داكنة على البلاط.

زأر يعقوب وهجم ثانية. تفاداها الدوق، وكاد يتعثَّر، وارتطم بالحائط، فيما سيف يعقوب -الذي في يده لا في بطنه- يشطر جانب جرَّة عظيمة، فتناثرت قطع من الخزف المذهَّب على الأرض.

أمسك مايكل رمحًا عتيقًا، لكن القواعد لم تتحرَّك. فابتعد حين هجم يعقوب عليه، خادشًا الجدار، نافثًا غبار الجص، ثم انخفض حين ضرب يعقوب ثانية، فخلَّف شقًّا طويلًا في أستار خضراء زمرديَّة.

تلمَّست يدا الدوق خنجرًا إلفيًّا، جذبه بكل ثقله، فانفكَّ بسهولة كادت تسقطه. وبالكاد تفادى سيف يعقوب المتخبِّط، وارتطما معًا.

نطح يعقوب وجه مايكل، فترنَّح الآخر بأنفٍ دامٍ، وانزلق في دم يعقوب، كعبه يخلِّف مسحةً طويلةً وهو يسقط، ثم عدَّة مسحاتٍ أخرى وهو يقوم ثانية. غدت المبارزة أقرب إلى مسرحية عبثيَّة قاتلة من رقعة شطرنج. ترنَّح يعقوب مزمجرًا، أو نائحا، لكنَّ مايكل تدحرج مرَّة، ثم أخرى، وسيف يعقوب يضرب الأرض، مخلفًا ندوبًا طويلة، وذراعه تهتزُّ من الرجَّة.

تهادى على عرش الأفعى بكتفه اليمنى، أنفاسه تُحدث صفيرًا خافتًا، ونظر إلى الأسفل. ثم غرز الخنجر الإلفي في أضلاعه، وقبضته الدامية برزت من جنبه. تم الأمر في أثناء المبارزة، ولو كان عنده نفس لضحك. قضى الإلفيون عقودًا عاجزين عن غرز خنجر فيه، وها هو أمير طروادة يفعلها.

قال، متنهِّدًا، يتذوَّق الدم في كل نفسٍ أجوف، ويرى فقاعات حمراء حول المقبض: «يبدو أنَّ هذه... اخترقت الرئة».

قال الدوق مايكل، يتراجع بين الأعمدة بحذر: «هل سألت نفسك... ما الذي يحدث إن ربحت؟».

أنَّ يعقوب، وزفر زفرةً أليمة، وابتعد عن عرش الأفعى، يعرج خلفه بعناد، كلُّ خطوة طعنة جديدة، كلُّ نفس غرز جديد. كأنَّه يسير في المنفى الأبديِّ، على طريقٍ تملؤه الجثث، في انسحابٍ لا ينتهي على السهوب. قدمٌ بعد قدم.

قال: «الإلف قادمون». ازدادت القاعة عتمة. ولهيب المصابيح يخبو، ويترك خطوطًا ناريَّة عبر عينيه: «سيلٌ مدبَّب الآذان، وكلُّ ما يريدونه محو البشر من الوجود». الإلف دائمًا قادمون. اضطرَّ يعقوب إلى أن يضيق عينيه ليعرف من يتكلَّم، من يقاتل. أكان وجه شيمون بارتوس

ذاك الذي لمحَه عند العمود، يختفي قبل أن يضربه؟ «ستكون طروادة الحاجز الذي تتحطَّم عليه العاصفة أولًا. فهل تكون أقوى وعلى العرش الإمبراطورة أليكسيا؟».

قال يعقوب: «ذاك الاختيار... للرب». وبصق دمًا، ثم هوى بسيفه على ويليام الأحمر، فقطع قطعة من الرخام في العمود حيث كان رأسه، وتناثرت الشظايا على الأرض.

لا أحد يرغب في رؤية الشكوك.

قال بطل الإمبراطور، وجلاد البابا، وسيد الفرسان: «يقولون إن العدالة عمياء». وكان يتراجع نحو تمثال لإمبراطورٍ مات منذ زمن بعيد، بينما يعقوب يلاحقه، يتسرَّب منه الهواء، والدمع، والدم، ويخلِّف خطًّا متعرِّجًا من كلِّ ما يُفترض أن يبقى في الجوف: «وأنا أقول: إنَّها صماء، بكماء، وحمقاء. تختار من يختار نفسه».

دوَّى ارتطامٌ شديدٌ في الأعلى، وتمايلت إحدى المصابيح المعلَّقة، ولهيبها يرتعش. وقف يعقوب مترنحًا، وسيفه منغرز في الأرض كعكَّازٍ يتكئ عليه. هزَّ رأسه، وحاول أن يثبِّت بصره. وتماوجت الرؤية أمام عينيه.

قال الدوق مايكل، وهو يبتسم نحو السقف: «وذاك صوت... اختياره لي».

قال يعقوب: «أحقًّا؟ أنا كنتُ أظنُّ...». دارت الأرض. مالت، كأنَّها سطحُ سفينةٍ في العاصفة: «لعلَّه البارون ريكارد. مصَّاصو الدماء اللعينون... يتأخرون دائمًا». لم يكن يعقوب في مزاجٍ للابتسام، لكنَّه أبان عن أسنانه الملطَّخة بالدم: «تتساءل أحيانًا... أكنتَ أنتَ من يُماطل؟ أم أنا؟».

ثم اندفع بآخر اندفاعاته المرهقة، لكن الطيف الذي على هيئة مايكل تفاداه، واستدار خلف التمثال بينما يعقوب يلهث محاولًا أن يستعيد

توازنه، فدفعه عن قاعدته. واستعاد يعقوب توازنه بوخزةٍ قاتلة، في اللحظة التي رأى فيها التمثال يتهاوى فوقه.

قال: «أووه، تبًّا...».

وسقط تحته، وانفلق رأس التمثال على الأرض بضربة مفزعة.

لم يكن أغلب الثقل فوقه على ما ظنَّ. لكن ما يكفي. ذراعه اليسرى سُحقت. وبالطبع، ما زال مطعونًا بسيف. لا ننسَ الخنجر أيضًا. وكان لا يزال متمسِّكًا بسيفه. لوَّح به في الهواء في حركةٍ شاردة. وغرائز لا طائل منها.

ناداه صوت الدوق مايكل من بعيد: «ابقَ هناك! نكمل لاحقًا!».

وانطرح يعقوب على ظهره، وكلُّ نفسٍ يتطلب جهدًا داميًا، وحدَّق إلى السقف.

لم يعد يشعر بالألم حقًّا. وهمس: «ورطةٌ».

68

سلوك غير مقبول

همس بالثازار: «لقد استوليتِ على جسد السيدة سيفيرا...».

فقالت يودوكسيا، أو سيفيرا، أو روح إحداهما في جسد الأخرى: «جسدي كان يموت صراحة، أما جسدها، فأيضًا صراحة، بديع». ثم سوت ثوبها بطمأنينة. «وقد خانتني سنين طوال، تنقل أخباري إلى أخي، فماتت في جثتي الذابلة، بعد أن ظنت طَوال الوقت أن بي مسَّ جنون».

فقال بالثازار في خفوت: «لا ريب عندي في ذلك. بل جنون بهي».

لم يُعقد بينهما ميثاق، ولا رُفع لواء مفاوضة، غير أنهما، دون أن يصرف أحدهما نظره عن الآخر، انتصبا من وضع الاستعداد بأشد ما يكون الحذر.

قالت: «وحدك أنت الذي رأيت الحقيقة رؤية العارف. لا أولئك النمل ضيِّق الفكر ممَّن حاولتُ تعليمهم، ولا المقربين المتزلفين، ولا شعبي من المنتفعين، ولا تلك الغربان المزهوَّة المسماة أبنائي». ثم تفلت متقززة: «بل أخي نفسه، وهو أغبى الغادرين، ما أدرك الروح التي تسكن هذا الجسد، حتَّى إنه عرض عليَّ الزواج!».

قال بالثازار وقد صفَّى حلقه بوقار: «وقد قبلتِ عرضه؟».

فأومأت كتفها إيماءة خفيفة وليست بهزة نفي. وقالت: «رأيتُه الطريق الأسلس للعودة إلى العرش». وكان يحسب أنَّ من اغتصب إمبراطورية، ودمج بين الإنسان والحيوان، ثم ختمها بسرقة جسد وصيفته في جريمة زندقة، لا يرى في زواج من الأخ إلا هفوة لا تُذكر.

قالت: «طالت السنين ولا يشغلني إلا نيل القوة، ثم إحكام قبضتي عليها». مشت نحوه رويدًا، وبالثازار متأهِّبٌ متيقِّظٌ، حواسه كلُّها مجندة ترقبًا لهجمة أخرى. قالت: «غدت عادة، بل إدمانًا. أما الآن... فأوشكتُ أتساءل: هل أرغب بها أصلًا؟». ثم مدت يدها، ولمست الوسادة المحترقة على أحد المقاعد برفق. قالت: «قد أُتيح لي أن أرى العالم بعد موتي، وإنِّي لأجزم أن أحدًا لم يحزن علي. أبنائي لم يمهلوا ساعة، حتَّى مزَّقوا جثتي مجازًا. أما الحقيقة، فقد أُحرقت بلا تأبين». ثم رمشت، كأنها تنبَّهت للأمر أول مرَّة. وقالت: «عرش الأفعى ما نفعني. ولا أنا نفعته».

قال بالثازار: «فهل تتركينه لأليكسيا إذًا؟».

فرفعت يودوكسيا بصرها إليه وقالت: «بما أنك قلتها، فلم لا؟ طالما أحببتُ المستضعفين. ولا شك أنَّ طروادة شهدت من هم أسوأ. كانت قاعة العرش، لي، موطنًا للغيظ والخيبة. أما انتصاراتي الحقة... فهنا!». ثم رفعت ذراعيها، فارتد بالثازار خطوة، ويداه تتحفَّزان لردعها.

ساد سكون هشٌّ، ثم ضيَّقت عينيها وقالت: «إن واصلنا هذا النزال، فواحد منا لن يخرج حيًّا».

فأومأ بالثازار برأسه ازدراءً وقال: «هذه المرة موتك سيكون أبديًّا».

فردَّت بالمثل، وكان عنقها، وقد سرقته من أحسن أعناق أوروبا، أقوى بيانًا من بيانه. وقالت: «لي رأي آخر. وإن انتصرتَ، فبم ستظفر؟ مجد؟ مال؟ حرية؟ علم؟».

ففكر مليًّا، ثم قال: «لا شيء من ذلك».

- لقد رُبطت لتُجلِس أليكسيا على العرش.

- نعم.

- ولستَ ملزمًا بمنازلتي.

قال: «لست كذلك». بل هو ملزم بالرجوع إلى المدينة المقدسة من فوره، وقد غصَّ صدره مذ قفز من السفينة.

- فلا شيء يمنع أن يخلي أحدنا سبيل الآخر.

فقال بالثازار: «كان أولى بكِ أن تعرضي هذا قبل أن تبذلي وسعك في إحراقي».

- لكنك حين أظهرتَ أنك نظير لي، أثبتَّ أنك أهل للعرض.

وقد أقامت حجتها. ما شعر بالثازار بالحياة تفيض فيه كما في نزال الموت ذاك، ولا شعر بجلال قوته كما حين مدَّها إلى أقصى غاياتها كي يرد سحرها. وكان خيال برقها قد أخذ يخفت. وثوبها محروق، ممزَّق عند الكتف. وشَعرها مشدود من جانب، متدلٍّ من الآخر. وشفتها مشقوقة، ودم لامع على فكها. جسدها المسروق ناله من العناء ما ناله جسده.

ومع ذلك، ما بدا أجمل منه قط.

همس: «وكيف يبلغ المرء العظمة، إن لم يختبرها بأعداء عظام؟».

قالت: «أنت خصم عظيم». وهل انحدر بصرها من وجهه إلى قدميه ثم عاد؟ ثم قالت: «ولا يسعني إلا أن أظنك أعظم حليف».

قال، وهو يصفي صوته وقد خشُن قليلًا: «أتقترحين... أن أنضم إليك؟». كانت فكرة أن تُفتن به حسناء كهذه مسكرة، لكن الأشد سكرًا أن تُعجب عبقرية كهذه بمواهبه السحرية.

- تخيَّل! ساحر مثلك، في خدمة مشعوذة مثلي؟ أمراء أوروبا، كرادلة الكنيسة، بل حتَّى الإلف أنفسهم، سيرتعدون أمامنا! العالم كله سيلتمس رحمتنا تحت أقدامنا!

وما كان يخطر له غير ذلك، مذ كفَّت عن محاولة قتله.

قال: «عرضك لا يخلو من إغراء... عظيم. سأقرُّ أنني كنت، أو على الأقل كنتُ في الماضي، رجلًا طموحًا...». ثم كتم تجشؤًا وقال: «لكن ثمَّة معضلة مزعجة، وهي رباط البابا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

- رباط ألقاه طفل؟

- حضرتُ الطقس وضحكت.

- لكنه مؤثر؟

- منذ ذلك الحين، قلَّ ضحكي أو انقطع.

- فلعلَّنا نجد ما نكسر به الرباط، ونضحك الضحكة الأخيرة.

فلعق بالثازار شفتيه وقال: «حتَّى شاكسيب نفسها لم تستطع».

قالت: «طوعت شيطانًا من أمراء الجحيم لأجل ذلك؟». ولم يذكر أنه ما طوعها، بل استدعاها ثم توسل إليها بلطف، فقد كان يستلذُّ شرارة الاحترام التي لاحت في عيني سيفيرا المسروقتين.

- أنت ساحر جسور، أكثر مما ظننت.

قال: «ومن ساحرة جسورة مثلك، تلك كلمات أُثمِّنها. في زمان مضى كنت لأقفز إلى عرضك فرحًا، غير أن الحقيقة هي...». واستشعر بالثازار أمرًا ما كان ليظنه: «أنني لم أعد أرد الحرية».

- تختار أن تبقى عبدًا؟

- وجدت نفسي، في طريق معوجٍّ، وحقير لا شك، قد أصبحت في خدمة رجعة المخلِّصة نفسها.

- أتؤمن بهذا حقًّا؟

قال: «أنا رجل علم. وقد نظرت في الأدلة». ثم هزَّ كتفيه وقال: «وأي موضع أرفع لطموح ساحر من هذا؟».

وخالج نفسه خاطرٌ دفين أن الرجال الذين انضمَّت إليهم يودوكسيا فيما مضى -أربعة أزواج، وأربعة بنين- ما خرج منهم من نال خيرًا. ولكن ثمَّة سببًا آخر، وإن لم يبح به لها، ولا يكاد يبوح به لنفسه، أقنعه بالبقاء مع جماعة معبد الذرائع المُقدَّسة، وهو شعور يكاد يخنقه حنقًا لو فاته سحق غرور بابتيست ويُلصقه بجدران مجد ذلك اليوم الباهر.

ولم يكن ليلومها لو أنها صعقته بالبرق مرَّة أخرى، غير أنها اقتصرَت على ضم شفتيها متفكِّرة. ثم قالت: «لقد فعلتَ ثلاثة أمور لا يفعلها الرجال قط. أثرتَ إعجابي، ثم نلتَ اهتمامي... ثم رفضتني».

قال: «آمل ألا أكون قد أغضبتك». ثم انحنى، وعيناه لا تفارقانها. وقال: «وأرجو أن نفترق على خير».

قالت: «الخير مطلبٌ عصي عليك». ثم انسحبت إلى باب القاعة البعيد، والذيل الممزق من ثوبها يمسح على الرموز التي خطَّتها بنفسها في سالف الدهر. ثم قالت: «لكن أن نخرج أحياء؟ فذاك ممكن».

وتوقفت في الظلال، وللحظةٍ ظنَّ بالثازار أن الهواء سينفجر نارًا.

- ينبغي أن نكرر هذا.

- سأعدُّ الساعات.

***

قال الأخ دياز هامسًا: «مخلِّصتنا...».

الحدائق المعلَّقة أمام دار الحكمة، الذي ذكره جماله منذ أسابيع بالفردوس، قد صارت منظرًا من جحيم، ما جرؤ أعتى رسَّامي المدينة المقدسة أن يصوِّروه. فلو أنَّ إعصارًا اجتاح مسلخًا مشتعلًا، ما خلَّف وراءه هولًا كهذا: أطراف مشوَّهة، وحرسٌ قتلى، وأحشاء لا سبيل إلى معرفتها، كثيرة منثورة كأوراق الخريف، تبرق في لهيب الشجر المحترق.

ويا رحمة المخلصة، فقد رأى نخلةً شاهقة، تتدلى منها أمعاءٌ تقطر، فقال في نفسه: «يا رحيم، يا منجي...».

أما آخر مشاهد الهول، فحيةٌ مقطوعة الرأس، تعادل سفينةً طويلةً في حجمها، ومخلوقٌة بهلوانية مرقَّعة الجلد، كأنَّها جمعت ألوان حيوانات الحديقة الإمبراطورية كلَّها، عالقة بين شجرتين، ترتجف كدودة مقطوعة، وتتناثر منها الدماء. ولا شك في أنها أبشع خلق الرب قاطبة... إلى أن يقع البصر -في شؤمٍ فاغر- على مقدِّمتها: كيسٌ من لحم بقرون، مسلوخ مهلهل كالعنكبوت، يحيط بفمه الخلفي غابة من الأطراف المشوَّهة المترجرجة، وقد ابتلع ثيجا ابتلاعًا.

فهمس الأخ دياز: «لو نفخ الموت في عنقي... لن أخاف». قذف ذاك الشيء نفسه دحرجةً وتجشَّأ، ثم اندفع مترنِّحًا نحو دياز وبابتيست، ينسلُّ وراءه سيل من الأحشاء المشوَّهة المتشابكة، يسحب جسده المخرَّب بسرعة مهولة بذراعيه السفليتين، بينما العلويتان تمتدان، وفمه ينشق كالغلاف لينكشف عن بئر من الأسنان الدامية.

جذب الأخ دياز بابتيست إلى الخلف، متقدِّمًا أمامها، وانتزع قارورة القديسة بياتريكس من طوقه، وأطبق عليها بكفِّه. ولم تكن له فكرة أفضل.

همس: «أنا عبد ضعيف، أعلم»، وما كان يتلو هذه المرة تكرارًا عن ظهر قلب، بل صبَّ فيها كلَّ روحه، وقال: «لكن املئيني من نورك».

وقد زحف ذاك المركَّب الشنيع من التشوهات نحوه بمخالبه، وجثثه المتورِّمة تنضح من عند الخياطة، والأعيُن تدور، والآذان ترتعش، والأطراف تتراقص.

قال: «نجِّيني من الشر، لأحيا بفضائلك! لأكرس نفسي لكِ!».

شمَّ نَفَس الشيء العفن، وامتلأ أنفه برائحة المدافن المتعفِّنة. ها هو الموت، وكان موتًا كريهًا بشعًا، ولا شيء بعده يخسره.

قال، مزمجرًا، وعيناه تضيقان، وقبضته تشتد على القارورة حتَّى غاصت في راحته: «نجِّيني من الشر! الآن، أو سأهلك!».

فكأنَّما ارتطم بجدارٍ غير مرئي، ارتجَّ الشيء وتوقف. ارتجف، وكلُّ أصابعه ترتعش، وانكمش. ثم أمال فاهه نحو السماء، وأطلق أنينًا شبحِيًّا، وكلُّ طرف فيه يتخبَّط.

حدَّق الأخ دياز، لا يكاد يصدِّق أنَّ دعاءه استُجيب. قال: «إنها معجـــ...».

انفجر الشيء، فاندفع الدماء يغمره، وتمزَّق كيس جسده المرقَّع عند خياطاته، وانبثق شيء ينقب طريقه من الداخل. مخالب، كالزجاج الأسود، ثم خطم يزأر، وخرجت الذئبة ڤيجا من الرعب الممزِّق في سيل من الدم، تعوي وتغرغر، وشعرها ملبَّد بالصديد، تزحف إلى ضوء النار اللامع.

قال دياز وهو يلهث: «آه، نعم!».

فلمعت عين الذئبة نحوه. عين شيطان، متَّقدة ببغضٍ دامٍ لكلِّ حيٍّ. ثم نفخت نفخة هائلة، ونثرت ضبابًا من الدم، وهزَّت جسدها برجفةٍ مدوِّية. ثم انسلت من بين بقايا مخلوق يودوكسيا المتشنِّج، فكاها ينفتحان ولسانها المتصاعد بالبخار يتدلَّى على العشب.

قال دياز متنفِّسًا: «آه، لا».

ثم ترنَّح خطوةً إلى الوراء، وركبتاه لا تقويان، والذئبة العظيمة تتسلل نحوه، وساقها الخلفية الملتوية تجرها، وشَعرها المنعقد يلتوي، وكتفاها تتحرَّكان، ومخالبهما العظيمة، كأيدي البشر، تقبضان على العشب المبلل بالندى الدامي.

ثم شعر بيدٍ تمسك بذراعه، وتدفعه جانبًا، وتقدَّمت بابتيست أمامه.

قالت بصوت مشدود، ويداها مشدودتان: «ڤيجا...».

ثم تقدمت مادة عنقها، وصاحت بكل ما أوتيت: «هذا السلوك غير مقبول!».

فارتدت الذئبة الوحشية. بعيدًا عن بابتيست، وبرحمة المخلِّصة، بعيدًا عن الأخ دياز. فهل بدت أقل وحشية، أكثر إنسانية؟ وهل لمح، خلف تشابك الشعر، ملامح وجه لا خطمًا؟ ثم ساد سكون غريب، لا يُسمع فيه إلا النزع الأخير للنصف الخلفي من أبشع تجارب يودوكسيا. فكشَّرت الذئبة ڤيجا عن أنياب تعادل الخناجر، وأطلقت زمجرةً رجَّت الأرض، وتقطَّر الزبد الدامي من فكيها على الطين، وهي تنزلق نحوهما.

لم تكن ڤيجا. بل الذئبة في عنفوانها.

قال دياز همسًا، مرَّة أخرى: «آه، لا».

قالت بابتيست وهي تبلع ريقها: «كان ينبغي لي أن أستقيل... قبل برشلونة...».

* * *

قالت أليكس: «هل تستطيعين السير؟».

قالت ساني، وهي تسند رأسها إلى الحاجز المحطم وتُظهر أسنانًا مضرَّجة: «وهل أقدر؟ لعلِّي... أستلقي هاهنا فحسب».

قالت أليكس وهي تسحب ذراعها المتدلِّية: «كلا. أُصدر مرسومًا إمبراطوريًّا».

- حسبتُ أنَّ من حسنات كوني إلفًا... ألا أُطيع تلك المراسيم...

ثم تأوَّهتا معًا، إذ نهضت أليكس، ترفع ساني معها. ولحسن حظها أنَّ جسد ساني لا يزن أكثر من هرةٍ متوسطة، وإلا ما استطاعت حملها. فتكاتفتا نحو الدرج، وسماء الليل تلوح من خلال الفجوات في القبة، وقطع المرايا الباقية ملوثةٌ باللون الأحمر، ووهج شعلة القديسة نتاليا آخذٌ في الخفوت. استلقى البارون ريكارد عند الجدار ككومة خرَقٍ قديمة، مغمض العينين، وذراعاه قد نضجتا.

قالت أليكس: «مصَّاص دمائنا بدا أفضل من هذا».

استهجنت ساني: «وقد بدا أسوأ».

تلمست أليكس طريقها بين جثة كليوفا التي ما زالت تتصاعد منها الأبخرة، وبركة الدم التي نزَّت من عنق أثناي وقالت: «أسوأ من هذا؟».

- قضى أربعين سنةً عظامًا. سيتعافى من هذه.

همست أليكس: «أما أنا... فلا أظنني سأتعافى».

فقد كانت مضروبة، ممزقة، يعتصرها الألم من كل موضع، وذراعها الممزَّقة تلتهب من الرسغ حتَّى الكتف تحت قميص زوجها الميت. فرفعت ساني إلى موضعٍ أيسر، وبدأت تتهادى نحو الدرج.

- لقد كانت أسوأ ليلة لعينة...

فقال صوت من الجهة المقابلة: «ولم تنتهِ بعد». وكان ذلك صوت الدوق مايكل، صاعدًا.

شهقت ساني، ثم غابت عن الأنظار، لكن قبضة مايكل انطلقت سلفًا، ولما ظهرت ثانيةً، كانت الضربة قد أصابت فكَّها وقذفتها جانبًا، فاصطدم رأسها بالحائط. انهارت، وجذبت أليكس معها، لكنها انسلَّت وراحت تتسلَّق الدرج من جديد، فيما بقيت ساني مطروحة، فاقدة الوعي.

نفض مايكل يده ودخل القاعة المحطمة، وعيناه تراقبان أليكس تزحف على البلاط كأنها دودة، وذيل ثوبها يخلِّف أثرًا في الجصِّ المحطم والحصى وشظايا المرايا المكسورة، وقال: «انظري إلى حال هذا المكان. لقد تركتِ منارتنا المباركة توشك على الانطفاء».

اشتعل الدهن في المشعل، وآخر ما بقي ظاهرًا من جثة بلاسيديا هو ساق تتدلى، لم تمسها النار من الركبة فما دون، وفي قدمها حذاءٌ نفيس.

قال وهو يركل الساق بطرف حذائه حتَّى انكسرت وسقطت في زخة من الشرر والرماد: «اختيار رديء للوقود ربما».

قالت أليكس بصوت خافت: «اضطررتُ إلى الارتجال». تلك حالها منذ سنين.

ثم تسلقت، تبحث عن شيءٍ تحارب به، أو مكانٍ تهرب إليه. لكن الدوق مايكل تقدَّم بخطى واثقة نحو الحطب المرصوص. لا مهرب منه، وكلاهما يعلم.

قال وهو يلقي حطبًا على الجمر: «الناس ينظرون إلى شعلة القديسة نتاليا يسترشدون بها. يتوقعون أن تظل فوقهم، ثابتة، نقية، مضيئة. كما يتوقعون رفع أعينهم فيروا الإمبراطورة».

قالت أليكس: «أو... لا تخبرني... الإمبراطور؟».

ابتسم مايكل: «بدأتِ تتعلمين». ثم أمسك قارورة، وسكب الزيت على الحطب، ثم تنحَّى، فانفجر اللهب أبيض ساطعًا، انعكس من المرايا فأضاء المكان بوهج لا يرحم.

- الشعلة أوقدت من جديد... كما ستتجدَّد طروادة، بديهي.

ثم صفَّق راحتيه، وتخطَّى جثة كليوفا المحترقة. وقال: «من الصعب جدًّا أن تجد خدمًا أمناء. لقد حذَّرتُ عاهرات يودوكسيا الغبيات أن ينتظرن حتَّى ترحل شياطينك إلى الأفق».

تراجعت أليكس، وقد كادت الأرض أن تنفد من تحتها. قالت: «ربما ما استطعن أن يحتملن وجودي لحظةً أخرى».

قال: «كان عليهن أن ينتظرن هذه اللحظة كما انتظرتُها أنا. يومان آخران، ما كانت لتغيِّر شيئًا». ثم نظر من خلال الثغرة في جانب المعرض، تلك التي أحدثتها أثناي، وسقطت منها زينونيس، والتي يدفع أليكس إليها. وقد انفجر جانب المنارة، لا أعمدة ولا حاجز، بل هوةٌ واسعة، وسماء الليل منبسطة، والنجوم مشتعلة فوق الأرض المعتمة.

- لكن أحيانًا، ينبغي لنا أن نخسر كل شيء... كي نربح كل شيء.

- بل تقصد لتسرق كل شيء.

قال: «أنت أدرى، فأنت السارقة. مع أني أعترف، ما كنتُ لأعرفكِ الآن. كنتُ أتوقع اللصة الكئيبة التي انتشلتها من المدينة المقدسة. تخيلي دهشتي حين نزلت من السفينة أميرة صغيرة. ما ظننتُكِ ستجدين شيئًا من الكرامة يومًا». ثم اقترب، ينظر إليها من رأسها حتَّى قدمها، وهي تتراجع. وقال: «أنت تذكرينني بأمك، تعلمين؟ كانت لها هذه النظرة ذاتها، حين أدركت أنني سممتها».

رمشت أليكس وقالت: «حين... ماذا؟».

قال: «ثم ألقيت اللوم على يودوكسيا، وطبعًا كره الجميع تلك الساحرة المشوَّهة، فصدِّقوني».

لم تكن أليكس تظن أنَّ رأيها في هذا اللعين يمكن أن ينحدر أكثر، غير أنه وجد سبيلًا إلى ذلك.

- أنت من بدأ الحرب الأهلية... من الأصل...

فقال الدوق مايكل، متأففًا بملل: «هل نحن مضطرون حقًّا إلى النبش فيمن فعل ماذا منذ أعوام طويلة؟ ما يهمُّ حقًّا...». ثم استنشق نفسًا مشبعًا بالرضا من أنفه، وزفره: «أنني قد انتصرت. أخشى أنني خلَّفت سيفي في صديقك يعقوب، لكن خنقك أمر سهل. عادة راقية مع الإمبراطورات. أو لعلي أفلق رأسك؟».

ولم يعجب أليكس أي من الخيارين. فواصلت تراجعها، ولكن خطوتين أخريين، ويكون عقبيها على حافة الهاوية.

قال: «أو بوسعك دومًا أن تقفزي». ثم هز كتفيه، كأنما هذا مصير حزين علينا أن نعين بعضنا عليه: «فتظفرين بلحظات أخرى في الطريق إلى الأسفل. وقد وجدت أنَّ الناس، حين تحين الساعة، يفعلون أي شيء لأجل لحظات قليلة. خصوصًا... حسنًا...». وابتسم. ابتسامة فيها لمحة احتقار متكاسل. كأنَّ لمحة تكفي لمثلها: «حثالة مثلك».

ويعلم الرب كم مرَّة قالتها أليكس عن نفسها. لكن أن يقولها هو؟ ذلك الخائن المتبجِّح المنتفخ، الأمير المولود في المخدع الإمبراطوري، يشكو من قسوة ما لاقى؟ كيس الشفقة واللزوجة هذا، الذي أُعطي كل شيء يتمناه المرء، ثم قتل أختًا، واتهم الأخرى، وأشعل حربًا ليسرق المزيد. طوال حياتها، كان هناك دومًا وغد يريد أن يدوس على عنقها. لكن هذا الحقير؟ هو الأسوأ. وقد اعتادت أليكس البكاء متى شاءت، فزمَّت وجهها وتركت الدمع ينهمر. كما علَّمها يعقوب قديمًا.

قال الدوق مايكل ساخرًا: «حقًّا؟».

قالت مستعطفة، بصوت خافت مرتعش، وهي تنكمش: «أرجوك... لا أريد الموت». ولم يكن معها خنجر، لكن يدها خلف ظهرها كانت ترتجف في قبضة مشدودة.

قال: «بحق الشفقة». واقترب خطوة: «أنتِ إمبراطورة متوَّجة، كان يمكنك على الأقل المحاولة...».

عندها وثبت أليكس، وقبضت على قميصه بيدها المفتوحة، وسددت قبضتها مباشرة إلى فمه. كانت أقوى ضربة وجَّهتها في حياتها، باغتته بها، وارتد رأسه. لكنها لم تكن امرأة ضخمة، وهو كان ضخمًا، لم يسقط، إنما ترنَّح خطوة واحدة. وقد كانت أليكس إمبراطورة لساعات، وأميرة لأشهر، لكنها قضت حياتها جرذَ شوارع، وفعلت ما يفعله الجرذان في أزقة المدينة المقدسة، هجمت عليه.

صرخت: «تبًّا!». وهي تطوق كتفيه، وتلفُّ ساقيها حول خصره: «أنت...»، وتحول صراخها إلى زئير أخرس حين غرزت أسنانها في أنفه ونهشت ما استطاعت.

فعوى الرجل بعواءٍ مجلجل، وتشبث بها، يشدُّها، يحاول نزعها، وأخيرًا لكم خاصرتها، فأطلقت شهقة، وتراخى فكَّاها، وفقدت القبضة.

ثم رأت قبضته آتية، ثم وجدت نفسها مطروحة إلى الحاجز، رأسها يدور في دوامة من النجوم. حاولت طردها وترنحت.

انهضي، أليكس، انهضي.

رباه، وجهها كله نابض بالألم. مجددًا. تقلَّبت، وجثت جلوسًا. وقميصها الطويل الثقيل ملتفٌّ حولها. قد تُطرَح أرضًا، لكنها لا تبقى مطروحة. رمشت، وتأوهت تحاول التركيز. ثم نهضت على ركبة. اهتزت المنارة أمامها كأنه هلام. والدوق مايكل فوقها، يده المضرجة تضغط على أنفه المقضوم. قال: «لقد عضضتني!»، ولم يكن الألم فيه بقدر الغضب. ولعلها ستخسر، ولعلها ستموت، لكن تبًّا لهذا النذل.

قالت، بلسان أعوج، لكنه فهمها: «أنت الحثالة»، وأظهرت له أسنانها في ابتسامة دامية، وضحكت في وجهه: «أنت أكبر حثالة في أوروبا».

قال: «أيتها الكلبة الصغيرة». وأمسك بعنقها ورفعها.

انقطع نفسها. تلوَّت، وتمسكت، وركلت. لامست أصابع قدميها البلاط الخشن بالكاد. وأسنانه بارزة كوحش بري. كيف سُرَّت يومًا برؤية هذا الوجه البغيض؟ انقطع الهواء. خدشت يديه، وجذبت كتفيه. لكن ذراعاها أقصر من أن تنال منه. لطالما أرادت أن تكون أطول. والدم ينزف من أنفه إلى لحيته. لا هواء. وأرغى حلقُها وأزبد. وجهها ينبض. رئتاها تنفجران. ورغم اللهيب، كان السواد يزحف إلى قمة المنارة.

وسط هدير الدم في أذنيها، ظنت أنها سمعت خبطًا. خَدشًا. من الدرج. فرمشت عين مايكل. فالتفت جانبًا. تراخت قبضته قدرًا يسيرًا، كافيًا لأن تطأ أليكس الأرض بقدم. كافيًا لترفع الأخرى، وتركله في خصيتيه.

قال: «آآه...»، وتوسَّعت عيناه. ثم تراخت قبضته أكثر. فزحفت نحوه، وأدخلت ذراعها المخضبة بالشظايا في عينه، وبآخر ما بقي فيها، غرزت ظفرها المكسور في عينه.

- صرخ: «آغ!»، وأطلقها، وترنَّح إلى الوراء نحو الحاجز المحطَّم، نحو هوة الليل، في اللحظة نفسها التي اندفع فيها شيء من عمود شعلة القديسة نتاليا.

يعقوب الثورني، وأسنانه دامية، وعيناه مجنونتان. ومقبض سيف مغروز في بطنه، ومقبض خنجر في جنبه.

ترنَّحت أليكس إلى الوراء، تلهث في يأس، وسقطت، والفارس العجوز يندفع عبر اللهب كشيطان من الجحيم، وملابسه، وشعره، ولحيته، مشتعلة. خطا خطوة متعثرة، وذراعة تتخبط، والأخرى تتدلى، يكاد يسقط أكثر مما يندفع. حاول مايكل الالتفاف، لكن يعقوب اصطدم به أولًا. كلاهما كان ضخمًا، ويعقوب لم يتوانَ. كلاهما فارق الأرض لحظة في الفضاء، يكتنفهما اللهيب، أمام سماء الليل.

ثم سقطا.

تسمَّرت أليكس بفم مفتوح، وأنفاسها تلهث. ثم لفت على بطنها، وزحفت إلى الحافة.

همست: «يا إلهي...».

رأت نقطة مشتعلة، في البعيد تتدحرج على جانب العمود، تصغر وهي تهوي نحو البحر.

ثم انطفأت.

* * *

قال بالثازار، وهو يجر العتلة: «تبًّا». لم يكن بارعًا قط في الأعمال اليدوية، وجسده يرتجف من الإعياء بعد نزال سحري مع إمبراطورة سارقة للأجساد. وما رفعه إلا أمل شماتته في بابتيست.

قال: «تبًّا». ذراعاه تؤلمانه من الجهد، ويداه محروقتان، والعرق على جبينه، والباب الحديدي أمام بيت الحكمة يعلو في بطءٍ قاتل.

وتخيل وجهها حين يذكرها بما جرى. وسيفعلها كل ساعة. أتتذكرين حين أنقذتك من مستذئبة خاضعة لساحرة متلاعبة؟ ثم نازلتُ واحدة من أعظم مشعوذات أوروبا وكدت أتغلب عليها؟ بل... لا. وقد هزمتُها تمامًا! من ذا يصحِّح الرواية سواي؟ ثم أثبتُّ أنني الوحيد الذي كشف أنها الإمبراطورة يودوكسيا الميتة بعينها!

قال: «تبًّا!»، وهو يجر العتلة في حنق. هذا هو نصره القاطع على معذبته الكبرى، النصر الذي حلم به طويلًا. هزيمة لن تملك إلا أن تعترف بها مهما راوغت!

بالثازار شام إيفام دراكسي... هكذا ستنطق اسمه، حرفًا حرفًا، ثم تقول، بوجه متجهِّم فيه لذة: «لقد أخطأت فيك كل الوقت. لستَ موضع سخرية، بل أنت من أعظم السحرة، لا في زمانك فحسب، بل في كل زمان». لم يكن ذاك صوتها، يعترف، لكنه المعنى! «قدرتك هائلة، وبصيرتك فريدة، وساقاك لا بأس بهما!».

ثم تنظر في عينيه، وتقول: «كنت مخطئةً فيك كل الوقت. لقد عدتَ لأجلنا. لأجلي. أنت...».

ثم توقف، يحدِّق إلى الفراغ، وهمس: «رجل طيب».

ثم أطلق العجلة، والسلاسل تصطك، فتمزق قميصه على مسمارٍ وهو يندفع تحت الباب.

قال وهو يضحك: «لن تصدقوا ما جرى!»، وخرج إلى الليل: «سيفيرا كانت...».

قليل من الرجال شهدوا أعجب من عجائبه، وأشنع من خوارقه. لكن المشهد الكافر أمام بيت الحكمة أوقف حتَّى بالثازار. كأنَّ كيسًا هائلًا من جثث الحيوانات، والناس، والدماء، قد سقط من علو وانفجر. الدماء في كل مكان، الأعمدة ملوثة، جلود الحيوانات الغريبة معلقة في الأشجار

المحطمة، والأعضاء التي يعجز العقل عن تسميتها مبعثرة في العشب المبلل.

وفي وسط هذه المجزرة، جثا الأخ دياز، وقيجا على أربعٍ قربه. كانت عارية تقريبًا، مغطاة بالدم، وتصدر أنينًا غريبًا، ما يدلُّ على أنها خرجت توًّا من أحد تحوُّلاتها. وذلك كافٍ لتفسير حال المكان. فما عُرفت إلا بكثرة الجثث.

كمَّم بالثازار أنفه، وأزاح شظايا اللحم بقدمه، وركل ذراعًا مقطوعة مشوهة بتقزُّز. ولم يكن دياز في حالٍ تؤهله للإنصات، فما التفت إليه قط.

قال بالثازار، وهو يتحرك حول كومة من لحمٍ ميت، وعظام مشوهة، وأطراف محنيَّة، وأسنان وقرون: «كما كنت أقول... لن تصدقوا... ما الذي جرى...».

ثم خفت صوته، حين أصدرت قيجا أنينًا متقطعًا، انقلب إلى غرغرة مريضة. واتضح أن كثيرًا من الدم الذي يغمرها كان ينزف منها. ورأى جرحًا هائلًا في ظهرها الموشوم. وساقها ممزقة ملتوية تحتها، وذراعها وبعض أصابعها لا تبشر بخير. وهل قطعة من وجهها تتدلى؟ تلك بحاجة إلى ضماد عاجل.

قال بالثازار وهو يحدِّق حوله: «أين بابتيست؟ لا بُدَّ أنها... تختبئ، تلك المرأة اللعينة لا... تمد عنقها أبـــ...».

وهز دياز رأسه ببطء، ووجهه ملوث بالدموع والدم. ثم رأى بالثازار شيئًا ممدودًا بين المستذئبة والراهب. جثة؟ مشوهة بفظاعة، معظم الجمجمة مفقود. هل تلك... جزمة طويلة في ساقيها المكسورتين؟

جفَّ ريق بالثازار فجأة. ونظر إلى قيجا، ترتجف، وتشهق، وتنزف على أربع قوائم.

همس: «ما فعلتِ؟».

فاندفعت إلى الأمام، وتقيأت بصوت يغثي، تنشج وتتقيأ معًا، تخرج أحشاء دامية. ثم سعلت، وارتجفت وهي تسحب شيئًا من فمها، شيئًا طويلًا، ملطخًا، عالقًا بين أسنانها. خصل من الشعر الأسود المجعد.

قال بالثازار بصوت مزمجر: «ما فعلتِ؟!».

فأطلقت عواءً منكودًا، واندفعت على يديها، وتقيأت ثانية، قطع لحمٍ أسود تتناثر في بركةٍ دامية. وشيء ما تلألأ هناك. أكان... سنًّا من ذهب؟

حدَّقت ڤيجا إليه، وأنينها لا ينقطع، ودموعها تقطر.

فانحنى بالثازار فوقها، وصاح بها: «ماذا فعلتِ؟!».

69

خزائنٌ لا تنفد

فُتِحت أبوابُ قاعة العرش، ودخلت زيزكا بخطى واسعة. لبست سوادًا وقورًا، تحفُّه حُمرة الكرادلة، وتبعها وفدٌ صامتٌ من اثني عشر قسيسًا يجرُّون خطاهم ورؤوسهم منكَّسة. إن كانت قد هابت بهاء القاعة وما تطلُّ عليه من جلال، أو من هول منظر أليكس وهي جاثمة على العرش بين الأفاعي في سكونٍ مهيب، أو حتَّى من السلالم التي اضطُرَّت إلى صعودها، فما أظهرت شيئًا من ذلك.

قالت بصوتٍ وقور، وانحنت انحناءة خفيفة: «يا سموك». ثم رمقت الكدمات التي تركها من قاتلت أليكس على وجهها وعنقها، والتي امتنعت عن إخفائها بالمساحيق، وما حرَّكت جفنًا. قالت: «أحمل إليكِ تحيَّات قداسة البابا، وأتحسَّر أنَّه بوصفِي ممثلة عنها، لا يؤذن لي أن أركع».

تمتمت أليكس، متذمِّرة بصوت خفيض: «لولا ذلك لكنتِ تزحفين».

قالت زيزكا، والتفتت نحو دياز الواقف على درج العرش عن يمين أليكس: «والأخ دياز. لا بُدَّ لي من أن أُهنِّئك على...».

قال دياز: «بل الأب دياز، إن شئتِ الدقَّة».

ما اضطربت زيزكا، ولا اعتراها عجب. تأمَّلت رداء الكاهن الذي استبدل به لباس رهبانيَّته، والعجلة الفضية التي حمَلها عوضًا عن

دائرته الخشبية، ففهمت الأمر في طرفة. قالت: «قد طاب لسموِّها أن تُدخِلك إلى كنيسة المشرق إذًا».

قالت أليكس، وهي تكافح ألّا ينفلت غضبها باكرًا: «بصفته كاهني الخاص ومُعترفي. قد أثبت ولاءه. ومن في مكاني لا يُقدِّر الثقة بثمن».

الأب دياز لم يكن ممن يُزعجهم الغضب. وبان باسِمًا. قال: «كنيسة القصر أزهد بكثير من منصبي السابق، لكنَّ لهذا الدور تبعات إدارية أظنها أوفق لمهاراتي، على قلَّتها. أرجو أن تبلِّغي قداسة البابا امتناني لهذه الفرصة، غير أنِّي أذكر أنَّ سموِّكِ الكريم قالت إنَّها لا تتوقَّع أن يلبث كهنةُ معبد الذرائع المُقدَّسة... طويلًا في مناصبهم؟».

لم ترفَّ لزيزكا عين. قالت: «سيشعر القصر السماوي بالوَهَن لفقدان لاهوتيٍّ واعد مثلك، لكننا سنحاول العرجَ دونك. فلنبدأ. أحمل إليكِ هديةً من قداسة البابا...». وصفَّقت بأصابعها لأحد قساوستها، فتقدَّم متعثِّرًا مطأطئ الرأس، يحمل صندوقًا مرصَّعًا بالجواهر: «أثر من القديسة نتاليا المباركة، أُعيد بعد قرون إلى مسقط رأسها، ومسقط رأسك. عربونُ سرور قداسة البابا إذ رأتك تستعيدين موضعكِ الحق إمبراطورةً لطروادة، وعربوني أنا، طبعًا...».

لم تتمالك أليكس نفسها، ورفعت رأسها تهتف إلى السقف: «هاه!».

تجمَّدت الكاهنة في مكانها، مرتعبة، والصندوق يرتعش بين يديها الممدودتين. ورفعت سيدتها حاجبًا بالكاد يُرى. قالت: «أبعدَ الذي فعلتُه نيابة عنها، أتشُكُّ...».

قالت أليكس، وصفَّقت بأصابعها: «أوه، ما في نفسي ريب!». ففتح الأب دياز الرسالة الموجَّهة إلى الدوق مايكل، وهبط عن المنصَّة وقدَّمها إلى زيزكا.

نظرت إليه، ثم إلى أليكس. وتناولت الرسالة. وهزَّتها. ولوّحت في تبرُّم لكاهنٍ آخر، فتقدَّم وناولها عدستين مثبتتين في مقبض. قرَّبتهما

من عينيها، وأمالت الورقة حتَّى بلغها الضوء المناسب، وحرَّكتها جيئة وذهابًا حتَّى بلغت المسافة المطلوبة. حدَّقت لحظة. رأت ختمها وتوقيعها. البرهان القاطع على خيانتها. أنزلت العدستين، وأعادتهما إلى الكاهن، ثم أشارت إليه أن ينصرف. ومَدَّت الورقة إلى الأب دياز بين إصبعين، وتنهدت تنهيدة مُتعبة.

قالت بهدوء: «ولهذا بالذات قلت له أن يُحرق الرسالة».

حدَّقت إليها أليكس. قالت: «أهذا كل شيء؟». ما كانت تدري ماذا تنتظر. إنكاراتٍ مُتناقضة تنهالُ عليها، أو توسُّلاتٍ دنيئة ترفضها بحدة. لكنها لم تلقَ إلا هزة كتف خفيفة. قالت، ونبرتها تحمل أثرًا من طفوليَّة جرحت: «لقد تواطأتِ مع خالي...». ثم أكملت وهي تصرخ بأقصى ما عندها: «لتقتليني يا لعينة!».

صرخت حتَّى تمزَّقت أضلاعها، حيث ضربها الدوق مايكل. فاشتد الألم، واشتدَّ الصراخ.

ارتجف الأب دياز. اضطرب الحُرَّاس. وتراجع كهنة زيزكا. والكاهنة حاملة الصندوق ضمَّته إلى صدرها. لكن الكاردينالة نفسها لم تتأثر بغضبٍ ولا بصيحة ولا بهلع.

قالت: «الناس يحاولون قتلي على الدوام. ما داموا يفشلون، فلا آخذ الأمر على محملٍ شخصي».

حدَّقت إليها أليكس: «ماذا؟».

قالت: «أنا أفهم حنقكِ...».

- بل قولي غضبي!

- لكنني وُضِعت أمام خيار. قد خدمتُ خمسًا من الأمهات القدِّيسات بوصفِي رئيسة الهيئة الدنيوية. وهذا المنصب يُوجب تضحياتٍ جسيمة، وموازناتٍ مؤلمة، وخطواتٍ ضرورية...

- شريرة؟

أكملت زيزكا: «ما يكون شرًّا عند امرأة، يكون... مصلحة عند أخرى. ومهمتي أن أمشي في الظلال، لتقف قداسة البابا في النور. وأنتِ، بوصفك إمبراطورة، قد تجدين نفسك في الظلال أكثر مما تتمنين. ستواجهين تضحيات وموازناتٍ تخصك، بل وستُجبرين أحيانًا على اختيار ما هو أصلح. ذلك ثمن الكرسي الكبير». وأرسلت بصرها إلى عرش الأفعى: «وليس ثمة كرسي أعظم من هذا. فما الذي تريدينه؟».

قالت أليكس، وهي تضمُّ أضلاعها: «الاعتذار كبداية!».

- أعتذر. وماذا أيضًا؟

لم تزر أليكس جال ذات الصرَّة إلا وقد أحصت ما تريد الخروج به. ولذا قالت: «أريد الشياطين. أريد فك الرباط البابوي عنهم وتسليمي إيَّاهم».

عند ذلك، عبست زيزكا. وقالت: «محال».

قالت أليكس: «ولا أنتِ في موضعٍ يتيح لكِ...».

قالت زيزكا: «أنا لا شيء، لكنني أقف أمامك ممثلةً لقداستها، وقداستها هي صوت الرب على الأرض». ولم تصرخ، غير أنَّ صوتها صنع شيئًا في الكلمات الأخيرة كأنه وخزٌ في الأذن. ورفعت إصبعها نحو السقف، بينما صداها يخبو. قالت: «ومهما علا عرشك، فإنك تجدين القدير فوقك. طلبكِ واضح، بل يُحسب لكِ. لقد كانوا حرَّاسك. عبروا بك النار. لكن لا تنخدعي بحقيقتهم. ڤيجا أولاستوتر كانت بلاءً فوضويًّا قبل أن تصير ذئبةً بشرية. فكيف ستسيطرين عليها الآن؟ لعلنا نسأل بابتيست؟».

ساد السكون. وأدركت أليكس أنها تعبث بلفائف الضماد على ذراعها، فكفَّت يدها.

تنحنح الأخ دياز وقال: «لعلنا نُقِرُّ أن ڤيجا أولى بالبقاء في القصر السماوي...».

قاطعتهم زيزكا: «إن ظننتم أن الآخرين أقل خطرًا، فأنتم في غفلة. لقد حظيتم بريكارد البارون في طيب مزاجه. وسوء مزاجه محا مساحات شاسعة من شرق أوروبا. ولا تفتحوا لي سيرة نباشي القبور ومَن يساومون الشياطين. فماذا يقول رعيَّتك عن إمبراطورةٍ تؤوي هذه الصحبة؟».

بلعت أليكس ريقها. أجل، تضحياتٌ وموازنات، لا ريب. قالت: «فماذا عن ساني إذًا...».

قاطعتها زيزكا: «أأنت واثقة؟ تلك الإلفية عاشت عمرها مفصولةً عن بني جنسها، تُعذَّب ويُنكَّل بها على أيدينا. وأما أنا، فأجد أمرها غامضًا، أليس كذلك؟ أيمكنك الجزم يقينًا لا يخالطه شك، أنه لو عثر عليها قومُها، لوقفت معنا دونهم؟ واعلمي أن قدومهم وشيك، فهُم، إن كرههم أهل الغرب وخافوهم، فإنَّ أهلَ هذا الموضع يمقتونهم مقتًا لا مزيد عليه، وذلك عن سبب وجيه. فإن أبقيتِها حيوانًا أليفًا لك، وكُشِف الأمر، فغالبُ ظني أن قومك سيُحرقونكما معًا».

حاولت أليكس مرَّة أخرى: «الشياطين... الجماعة... ليسوا أشرار...».

قالت زيزكا: «ما زعمت أنهم أشرار. فإنَّ الشرير يُمكن مفاوضته. لكنهم أخطر من ذلك بكثير. إن كلٌّ منهم أشبه بالأطفال، ولكن بقوَّة وحوش، ويجب أن يعودوا معي إلى المدينة المُقدَّسة حيث يمكن احتواؤهم. هو أصلحُ لك، والحق أنه أصلحُ لهم كذلك. عاجلًا أو آجلًا، ستُضطرين إلى حبسهم بيدك. أو سيهلكونك. وأظنُّ فطنتك تدرك ذلك».

وكانت أليكس تعلم ذلك لو أرادت الصدق. فما خرجت يومًا من عند جال ذات الصُّرَّة بما أرادته كاملًا، وزيزكا تفاوض في طبقةٍ أعلى

بمراتب. تابعت الأخيرة: «يعقوب الثورني شأنٌ مختلف، لا أنكر. وتوقعت أن أراه هنا...».

قال الأب دياز: «سقط في البحر».

قالت زيزكا: «تصرُّف أرعن منه».

قالت أليكس، مُحتدَّة: «من أعلى هذا البرج! غارقًا في اللهب! ينقذ حياتي! من صاحبك، الدوق مايكل!».

قالت زيزكا، غير منزعجة أدنى انزعاج: «حركة يعقوبية بحق. فإنَّ هذا الرجل الكئيب لطالما أحبَّ البهرجة في ميتاته. ولعلَّ الموج يلفظه يومًا ما. وإن فعل، فله أن ينضمَّ إليك. فهو لم يُدَن في جرمٍ بعد. لكن أنذرك، أنه قد يكون أخطرَهم جميعًا».

ثم تقدَّمت زيزكا خُطوةً إلى الأمام. وما كانت امرأةً ضخمة، لكنَّها ملأت الغرفة حضورًا، كأنها برجٌ أسود في وسط هذه البهرجة المتكلِّفة. قالت: «أتسمحين لي بالصراحة يا سُموك؟».

- بعد اعترافكِ بمحاولة القتل، لا أظنُّ أن الكلام الصريح سيزيد الطين بلَّة، أليس كذلك؟

- حين عرفتُكِ أول مرَّة، رأيتُ طفلةً يائسة، سارقةً شحَّاذة، خاليةً من الأصلِ والتعليمِ والمروءة، لا تصلح لخدمةِ غرفةٍ، فضلًا عن عرشٍ. وكنتُ، صراحةً، أظنُّكِ ستفرِّين من أول فرصة سانحة، أو تبيعين قضيتنا برغيف.

ثم سكتت طويلًا، كأنها تدعو أليكس للردِّ، بل كأنها تتحدَّى أحدًا أن يخالفها. فلم ينبس أحدٌ ببنت شفة. تقدَّمت خطوةً أخرى وقالت: «أما الدوق مايكل، فكان أفعى. غير أنِّي أعرف كيف أتعامل مع الأفاعي. والاختيار بينه وبينك، ما تطلَّب جهدًا».

رفعت أليكس ذقنها كما علَّمها البارون ريكارد. وقالت: «فماذا ترين الآن؟».

قالت زيزكا: «النسب يُلفَّق، والتعليم يُكتسب. لكنَّ الذي يُعوَّل عليه هو الخُلق. وفي هذا الباب...». تأمَّلتها قليلًا، ثم قالت: «لعلِّي استعجلتُ الحكم. أرى امرأةً، إن أصغت لأصوات الحكماء، واختارت بحكمة، فلعلَّها تنمو في منصبها نموًّا يليق».

قالت أليكس، وهي تعدُّ بأصابعها: «ولا تنسي أنَّ سائر المرشحين قد... مزَّقهم ذئب، أو غُرزوا بسيفٍ في سفينةٍ تغرق، أو سُحبوا إلى حفرة طاعون على يد جيشٍ من الموتى، أو جُمِّدوا ثم تكسَّروا شظايا لحمٍ يذوب، أو تهاووا محترقين من أطول شاهقٍ في أوروبا إلى البحر».

سكتت زيزكا لحظة، ثم تقدَّمت خطوة وقالت: «يبدو أن القرار، مرَّة أخرى، اتخذ نفسه بنفسه. وستكتشفين، للأسف، أن كلَّما زاد سلطان المرء، كلَّما كثرت القرارات التي تتخذ نفسها دونه. وإذا واجهنا المحتوم، وجب علينا، من أجل من يُعوَّل علينا في أمنه ورزقه، أن نحسن التصرُّف».

قالت أليكس: «فأنتِ إذًا تنصحينني أن أدفن مشاعري لأجل الخير العام؟».

قالت زيزكا: «هذا قولكِ. لكنه في رأيي، قولٌ موفق». ولم يُبدِ صوتها أدنى انفعال، وهي تخطو خطوةً أخرى، حتَّى كادت أصابع قدميها تلامس أول درجة من درجات عرش الأفعى. قالت: «وإن كنت صريحة، فإنَّ مكانتك لا تزال مضطربة. أصدقاؤك قلَّة، وخصومك كثر، وإمبراطوريتك محاطة بالأعداء من كلِّ صوب. وذلك قبل أن نذكر خطر الإلف، وآلهتهم المخبولة، وشهواتهم المرعبة، أولئك الأعداء الذين يَرجف أمامهم الشجعان، ويبحث في مواجهتهم الأقوياء عن كلِّ نصير. وليس

ثمة من يمنحكِ هذا العون إلا قداسة البابا، إن قادت أوروبا موحَّدةً تحت كَنَف الكنيسة الحقِّ الوحيدة».

قالت أليكس: «تعنين بها الهيئة الدنيوية إذًا؟».

قالت زيزكا: «تبدين حكيمةً على سِنِّك».

وساد الصمت. ونظرت أليكس إلى الأب دياز، فرَفع حاجبَيه، وهزَّ رأسه إيماءةً خفيفة. ما كانت الطريق التي سلكوها هنيئة، لكنَّها في نظرهم، الوجهة منذ البداية. السارقات والإمبراطورات، وجب على كلاهن أن يصنعن الأحسن بما أُعطين.

ثم تنفَّست أليكس نفسًا طويلًا، وأسندت ظهرها على المقعد المزعج. وقالت: «نحن على استعدادٍ أن ننظر في وحدةٍ بين كنيستي الشرق والغرب، والسعي نحو إنهاء الانقسام الكبير». ثم رمقتها بنظرةٍ حادَّة، وقالت: «لكنَّ ذلك سيكلِّفكم الثمن!».

وساد الصمت، وهما تتبادلان النظرات. ثم ارتسم على فم زيزكا أدقُّ ابتسامة. وقالت: «للرب خزائنُ لا تنفد».

70

سُمٌّ رجل آخر

قال أحدهم: «ثدي المخلِّصة! إنه حيٌّ!».

رأى يعقوب في المنام أنَّه يهوي وأنَّه يحترق وأنَّه يغوص في الأعماق، رأى خاتمةَ كلِّ شيء، والبرد الذي يعقبها. لكن حتَّى في منامه، أحسَّ بألمٍ صغير، وحاول أن يتحرَّك، فتحوَّل الألم إلى خفقٍ نابض، وسرعان ما انتشر من صدره إلى أطرافه كلِّها.

قال أحدهم: «انظر! لقد تحرَّك!».

قال الآخر: «كيف يتحرَّك يا أحمق، لا بُدَّ أنه غرق منذ أيام...».

تأوَّه يعقوب تأوُّهًا خافتًا، لكن لم يتحرَّك هواء، وفزع فجأة، فقلَب جسده وتقيَّأ في شهقةٍ هوجاء تخرج دفقة من ماء البحر الخام.

- ثدي المخلِّصة! إنه حيٌّ!

ثم ارتدَّ، وكلُّ سعالٍ طعنةً ساحقة في صدره، وجنبه، وحتَّى أطراف قدميه. سمع الطير، وضربَ الأمواج على الخشب وكان ضوء النهار المسلَّط عليه عذابًا، ولكن كلَّ شيء كذلك: الضوء، والظلمة، والطيور، والأصوات.

وفوقه شخصان واقفان. كأنَّهما مَلَكانِ قائمَان للحساب.

همس أحدهما: «كيف يكون حيًّا؟». وما هم بملائكة، إذ بدأت عينا يعقوب تعتادان النور. بل صيَّادان. أحدهما فتى، والآخر شيخ، وفي لحاهما من الشعر ما تُحشى به وسادة.

قال يعقوب بصوتٍ مبحوح: «هذه... قصة طويلة...».

ثم عاد فتقيَّأ ماء البحر، واستلقى هناك على ظهره فوق ظهر السفينة المتمايلة، يطعنه النفس طعنةً جديدة في كل شهيق، وتخرج منه قرقرة مالحة في كل زفير. ألَّا يتنفس أبدًا، كان ذاك الأمل العظيم. أملٌ لا يستطيع إدراكه.

ما زال حيًّا. وكلما أدرك ذلك من جديد، شعر بوخزة خفيفة من الخيبة. شمَّ رائحة السمك. لأنه كان عاريًا، ممدَّدًا في كومةٍ من الأسماك. وقد اصطيد مع حصاد اليوم في شباكهم. كاد يضحك، لو لم يمنعه الألم.

همس: «من يحكم طروادة؟».

نظر الفتى إليه وقال: «الإمبراطورة أليكسيا».

قال يعقوب: «هَه». وأسند رأسه إلى الوراء. فسمع صرير الخشب تحته. وغيمتان بيضاوان تزحفان في زرقة السماء.

- هذا حسن.

أو هذا ما رجاه، على الأقل، الزمن كفيل بالكشف.

يعقوب الثورني، ذلك الذي كان فيما مضى المعلم الأعظم الشهير لجماعة الذهب، ثمَّ البطل الذي لا يُقهر لإمبراطور بورغنديا، ثمَّ القائد الأعلى المرعب لحملة ليفونيا الصليبية، يمشي منحنِيًا في الحدائق المعلَّقة، متَّكئًا على جسده الملفوف بأسمالٍ مستعارة من صيَّاد، متصبِّبًا عرقًا، شاتمًا، يضمُّ ذراعيه على صدره، ويحاول التنفس نَفَسًا قصيرًا من بين أسنانه المطبقة، كيلا تُمزِّقه جراح صدره التي بالكاد التأمت.

وكانت الكاتدرائية ضبابًا شاحبًا من وراء دمعه، فتوقَّف قبل أن يبلغها، وانحرف عن الطريق، وأسند جبينه إلى أقرب جذع شجرة. طيلة حياته الطويلة، كان يعود زحفًا، أشد كسرًا من ذي قبل، إلى مواضع الهزائم القديمة.

قال البارون ريكارد، وهو مستلقٍ على مقعدٍ يشمس نفسه كحرباء عتيقة: «تبدو كما أشعر أنا».

ما بقي في هيئته أثرٌ للإله الشاب الذي شقَّ شوارع المدينة قبل أيام، فتبعته أعين الخدم والهررة. وقد ذوى شعره الكثيف الأسود إلى خيوطٍ بيضاء، وعيناه الزمرديَّتان إلى بياضٍ دامي، وجلده الذي كان كالخزف الجديد ترهَّل حتَّى غدا كجلدِ سِرجٍ مهترئ. وليس أنَّ يعقوب بدا أحسن حالًا، فقد تورَّم وجهه وتقشَّر من تخليل ماء البحر.

قال يعقوب: «الدوق مايكل طعَنني». ثم أضاف، متأوِّهًا: «مرَّتين. ثمَّ ألقى عليَّ تمثالًا».

قال البارون، مبتهجًا: «فليتعفَّن في الجحيم. حيث سنجتمع نحن الثلاثة لا شك يومًا ما».

قال يعقوب، وهو يحاول أن ينتصب فهاج جرحه، فتراجع: «لكن لا أعلم... كيف يمكن لعذاب الجحيم... أن يختلف عن صباحاتي المعتادة...».

قال البارون: «المزيد من الشوك والنيران، وحسب اللوحات التي رأيتُها...». ثم حاول التلويح بيده، لكنها كانت ملفوفةً برباط كأنَّها قفاز، فاستسلم، وقال: «وأشياء غريبة متدلية من الظهر!».

قال يعقوب: «ما شأن... رسومات الشياطين... وتدلي الأشياء من الظهر؟».

- هذا يُخبرك أكثر عن الرسَّامين، لا الشياطين. فبعض الناس يدفعون المال الطائل لذلك.

- أتعني... لوحات الشياطين؟

- بل الأشياء الغريبة المتدلية من الظهر.

قال يعقوب: «قوت رجل...». ثم تأوَّه متألِّمًا وهو ينزل ببطء إلى المقعد بجانب البارون، وساقاه ترتجفان، ثم ارتطم أخيرًا بمؤخرته. قال: «سمٌّ رجلٍ آخر».

وفي وجه البارون الشاحب بقايا تلك الابتسامة المألوفة. قال: «لقد كنَّا رُعب الزمان، أنا وأنت. فانظر إلينا الآن».

- مهما قاتلت، فلن تغلب الزمان. فهو يُسقط كلَّ إمبراطورية، ويُقوِّض كلَّ طاغية.

عندئذٍ دارت عينا ريكارد الحمراوان المُلطختان المصفرتان جانبًا، وذهب أثر الابتسامة، وقال: «هل سمعت؟».

وهوَت في نفس يعقوب تلك اللفحة المألوفة. فالموت ما كان يومًا مفاجأة له. بل يتعقَّبه عمره كلَّه. ولم يمسك به. وتساءل: هل ينسحب؟ هل يعود إلى البحر؟ لكنَّ عليه أن يفكِّر في قسمه. فعضَّ على نواجذه، كمن ينتظر الجلد، متى هوي السوط على ظهره.

- من؟

- بابتيست.

وتقلَّص وجه يعقوب. تلك آلمته. كطعنة من سيف. وقد رأى كثيرين يموتون. بل جلُّهم. لكن بابتيست كانت حياةً متحرِّكة. همس: «ماذا جرى؟».

قال ريكارد: «على ما قال الأخ دياز...». ثم هزَّ كتفيه، وقال: «لقد مدت عنقها للخطر».

- ما كانت لتمنع نفسها.

وزفر زفرةً طويلة، ونظر إلى السماء.

- كنتُ أظنُّني سأرحل قبلها. لكنني ظننتُ أنني راحل قبل الجميع. ولطالما أخطأت.

وأشار بعصًا معلَّقة على المقعد: «أيمكنني استعارتها؟».

قال ريكارد، مُغمض العينين: «بكلِّ سرور. فإنني في المرة القادمة لا أنوي الحركة إلا محمولًا».

وإن كان داخل كاتدرائية الزيارة الملائكية لم يتبدَّل في قرون، فلِمَ يتبدَّل في أيام؟ لا تزال صفوف المقاعد كثيرة، والمجسمات لا تُحصى، وعبق البخور القديم، والصمت الذي يتضاعف فيه وقع كلِّ حذاءٍ يجرُّه يعقوب، وكلِّ طرقٍ من عصاه المستعارة، فيخرج من كلِّ طرقة دويٌّ.

غير أن هنالك فرقًا واحدًا، عند ضريح الحملة الصليبية الثانية. فإن أحد القبرَين الفارغَين قد مُلئ، ورخام غطائه، المقطوع حديثًا، كان أنصع من قبور الأبطال القدماء. وقفت أليكس هناك، يضيء التاج الذهبي على رأسها، وتلمع جواهر أصابعها، ولآلئ ثوبها في ضوء الشموع. ولمَّا اقترب يعقوب، التفتت ورأته، فاتَّسعت عيناها.

توقَّف ليلتقط أنفاسه، متكئًا على عصاه. قال: «لا تتصرَّفي كأنك ما رأيتِ الموتى يمشون من قبل».

- أنت حيٌّ!

قال: «دائمًا... أووف». إذ هرعت إليه وضمَّته، وكان ذلك العناق كطعنةٍ جديدة، فتراجع مترنِّحًا، وبجهدٍ خارق حال دون أن ينهار تحتها.

قالت: «أعتذر!». ثم أطلقته ممسكة بذراعها الملفوفة، وقالت: «آخ». وكانت في عينيها وعنقها كدمات، وعلى أنفها قشرة.

تمتم يعقوب وهو يمسك أضلعه: «حالنا كحال حصاني حرب عجوزين».

قالت أليكس: «كان عليك أن ترى ذاك اللعين الآخر. هل فقدت شيئًا من حاجبك؟».

قال يعقوب وهو يضع يده على الحرق المرقَّط الذي أكل نصف حاجبه وبعضًا من لحيته: «تضحيتي الخاصة لنار القديسة نتاليا».

وانقطع كلامهما إلى صمتٍ مربك، كما يحدث في أحاديث يعقوب عادةً، وكلاهما ينظر إلى ضريح الحملة الصليبية الثانية. ينظران إلى ذلك القبر الجديد.

قالت أليكس بخفوت: «هل سمعت؟».

- سمعت.

- آسفة.

- وأنا كذلك.

تنحنحت أليكس وقالت: «فكرت أن أصنع لها تمثالًا». وضحكت ضحكة قصيرة: «تخيَّلها واقفة هناك، بجوار ويليام الأحمر».

قال يعقوب وهو يضغط أسنانه: «ستوافق. أعطِ المكان شيئًا من البهاء».

- خسارة أنها ليست هنا، كانت ستنحت التمثال بنفسها.

- أظنها عملت عملًا جزئيًّا كقطاعة حجارة في صيفٍ ما. ينبغي أن ترسلي إلى دوق ميلانو.

- ولماذا؟

- عنده لوحة لها. يمكنك أن تستعمليها كمرجع.

- ولماذا لدى دوق ميلانو لوحة لبابتيست؟

ابتسم يعقوب ابتسامة خفيفة: «قصة طويلة». ثم تنحنح وأومأ نحو فتاتين تقفان قرب المنبر: «أرى أنك وجدت خادمتين جديدتين». حدقت

السمراء إلى المجسمات بعينين متَّسعتين إعجابًا، أما الشقراء فلها نظرة ماكرة كأنها تقيم ثمن كل شيء على طاولة اللصوص.

قالت أليكس وهي تهمس قربه: «يتيمتان. وجدتهما في دار الفقراء».

- عليهما تعلم الكثير.

قالت أليكس متنهِّدة: «أقل مما تعلَّمت أنا حين خرجنا من المدينة المُقدَّسة. أقل مما أتعلم حتَّى الآن. لكن على الأقل سنفهم بعضنا ونحن نفعل ذلك». وأشارت إلى الشقراء أن تقترب، وهي تحمل شيئًا ملفوفًا. قالت: «لدي لك شيئًا». وبدأت تفكُّه من راية معركة قديمة: «أعني، كم رجلًا يمكنه القول إنه ضحى بحياته من أجلي أكثر من مرة؟».

توقع يعقوب ما بداخلها من الشكل. لكن حتَّى هو، الذي رأى مئة ألف سيف، لم يكن مستعدًّا لما ظهر حين أزالت آخر قطعة قماش. كان جلد الغمد مصقولًا إلى لمعانٍ رقيق بفعل الزمن، مزخرفًا بالفضة ومرصَّعًا بالجواهر. وقبضة السيف مشدودة بأسلاك ذهبية، وعُقدة المقبض على شكل العجلة المُقدَّسة، محفورة من حجر براق. لم يكن أحد ليشكَّ في لمحة أنها تحفة أقدم منه.

قالت أليكس بصوت خافت: «يقولون إن فحم الفولاذ جاء من قطعة من العجلة التي ماتت عليه المخلِّصة».

قال يعقوب وهو يمدُّ أصابعه برفق نحو الغمد: «يا للعجب... إنه جميل. بقدر ما يمكن لسيف أن يكون جميلًا».

- كان يخص يوحنا الأنطاكي.

قال يعقوب: «قائد جيش طروادة. قاد جيوش ليو الأعمى ضد الإلف... في الحملة الصليبية الأولى...». وأطلق ضحكة قصيرة وهو يدرك المغزى وراء الهدية.

قالت أليكس وهي تخطو خطوة نحوه: «إذًا تفهم قصدي. الجميع يقولون إن الإلف سيعودون عاجلًا أم آجلًا، وسيكونون جياعًا. أحتاج إلى جندي أثق به. قائدًا ليقود الحملة الصليبية الجديدة. ومن خير من رجلٍ قاتل في معظم الحملات السابقة؟».

عليك الاعتراف أن أليكس عرفت كيف تعرض الأمر. فقد قطعت شوطًا طويلًا عن تلك اللقيطة المرتبكة التي التقاها في القصر السماوي. أغمض عينيه لحظة ثم فتحهما فجأة وقال: «أتساءل أحيانًا كم سيفًا حملت. كم واحد كان سيفي. لقد ساعدتُ في طرق أول سيف لي، منذ زمن بعيد وأنا فتى. كان شيئًا مشوَّه الصنعة، لكنني كنت فخورًا به. ظننت أنني لن أحتاج إلى غيره أبدًا».

مرَّر يعقوب أصابعه على الواقية الذهبية وقال: «الإمبراطور أودو البورغندي أعطاني سيفًا بعد أن فزت له بمقاطعة شاروليه في مبارزة. تحفة فنية، مقبضه جسد تنين من الذهب، والواقية جناحاه، وعيناه ياقوتتان صغيرتان. كان أشبه بجوهرة منه بسلاح، لكن حين تشدَّه على خصرك... تشعر أنك ملك».

ثم قبض يعقوب كفه المعروقة على مقبض السيف: «ثم كان ذلك الذي حملته كجلَّاد بابوي، وقد نُقشت آيات من الكتب المُقدَّسة على نصله. كانت مقدمته مسطَّحة، لا حاجة إلى طرفٍ حاد، وتوازنه رديء للقتال. طويل جدًّا. ثقيل جدًّا. لكن حين تشهره، وتقف فوق المحكوم عليه...». ثم سحب سيف يوحنا الأنطاكي، وانساب نصل الفولاذ المتموج من غمده والتقط ضوء الشموع: «تشعر كأنك إله».

سمع يعقوب صوت أليكس وهي تبتلع ريقها، فرفع نظره. كان قد نسي أنها واقفة هناك، والآن بدت عليها مسحة خوف. فأرغم نفسه على إعادة السيف إلى غمده، وإخفاء ذلك النصل الجميل.

قال: «حين قدمتُ إلى طروادة أول مرَّة، كنتُ حامل رمحٍ لا أكبرك. أتشوق إلى رؤية الإلف. أتلهف لإثبات نفسي أمام المحاربين العظام». نظر إلى تمثال ويليام الأحمر وهزَّ رأسه: «أن أحمل سيفًا كهذا، وأن أقود جيشًا لإمبراطورة مثلك، كان سيكون فوق أحلام ذلك الصبي».

قالت أليكس: «أليس ذلك سببًا لأن تقول نعم؟».

تنهد يعقوب تنهيدة طويلة وأرخى أصابعه المتألمة. قال: «لهذا عليَّ أن أقول لا».

هزَّت أليكس رأسها: «لكن يمكننا أن نصنع الكثير من الخير».

قال يعقوب: «هكذا تبدأ دائمًا. القضية العادلة. القتال الشريف. وفي كل مرَّة، أقول لنفسي إنه سيكون مختلفًا. لكن مع مرور الوقت، يتلاشى الخير. وفجأة... أكون قد جعلت من نفسي شيطانًا. لهذا أقسمت أن أخدم قداستها. ولهذا عليَّ أن أفي بقسمي». ثم، وفي مرارة السكير الذي يدفع الكأس بعيدًا، ترك أصابعه تنزلق عن مقبض السيف الذهبي: «كان يوحنا الأنطاكي بطلًا عظيمًا».

- هذا ما يقولون.
- وكان خائنًا لعينًا.
- هاه؟
- بعد الحملة الصليبية الأولى، انقلب على الإمبراطور وحاول أن يستولي على عرش الأفعى. أشعل حربًا أهلية لم تكن بأفضل من الإلف. تسبب في مقتل الآلاف، وخسر، وفُقئت عيناه، ونُفي، ومات فقيرًا معدمًا.

قالت أليكس متجهِّمة وهي تنظر إلى السيف: «تبًّا. لا يذكرون هذه الجزئية من القصة. حسنًا، أتوقع أنك كنت ستتركه مغروزًا في غول أو شيء كهذا». وأعطته إلى خادمتها الشقراء، التي كانت تبتسم بخبث

وهي تحدق إلى المقبض المرصَّع بالجواهر. قالت أليكس: «سأتأكد أنه عاد إلى مكانه».

فانحنت الفتاة انحناءة ركيكة بقدر ما كانت ابتسامتها ماكرة: «حكيمة جدًّا يا سيدتي».

قالت أليكس: «من القديس الضاحك؟».

نظر يعقوب إلى المجسم قرب الضريح، ليس بأكبر من يده، وقال: «القديس ستيفن. حامي المحاربين. وناصر اليائسين».

- ملائم.

قال يعقوب: «كان الفرسان الرهبانيون يثبتون صورته على ظهور دروعهم. كنت أملك واحدة، لكن...».

قالت أليكس، ببساطة وهي تفك المجسم وتقدِّمه له: «هاك. لن أدعك تخرج خالي الوفاض».

نظر يعقوب حوله في أروقة الكنيسة: «أأنتِ واثقة؟».

قالت: «إما هذه وإما دوقية. أظن أن نيقيا شاغرة». ولوَّحت بالصورة الصغيرة نحو الفضاء الصدَّاح أعلاه، وجدران الكنيسة تغطيها وجوه القديسين. قالت: «وأعتقد أن لدينا ما يكفي لنتعامل معه».

تقدم يعقوب خطوة نحو قبر بابتيست ووضع يده على الغطاء. قال: «كان ينبغي أن أكون أنا. منذ زمن بعيد. في الحملة الصليبية الثانية. ثم كنت سأدفن هنا. مع الأبطال. حين كنت لا أزال أستحق ذلك».

قالت أليكس مقلِّبة كتفيها: «ومَن كان ليحميني حين كنت يائسة؟».

تناول يعقوب المجسم بكلتا يديه وقال: «ربما لا يزال باستطاعة الرجال الأشرار أن يعملوا خيرًا».

- إن فعلوا ما يكفي، ألا يصيرون رجالًا صالحين؟

قال يعقوب: «ربما. ربما يومًا ما». لأنه رأى رغبتها في التصديق. أما هو فلم يكن متيقنًا.

قالت أليكس: «حسنًا، ما زال هناك قبر فارغ». وأشارت إلى القبر المجاور لبابتيست، الأخير: «سأبقيه لك». ثم همست قريبة منه: «إذا حالفك الحظ».

ضحك يعقوب حينها. ووضع ذراعه حول إمبراطورة طروادة، ورغم الألم، شدَّها بقوة. قال: «حظًّا سعيدًا يا أليكس». ثم أفلتها بسرعة، وأخذ يعرج نحو الباب.

نادته أليكس: «أتظن أنني سأحتاج إليه؟».

ولم يلتفت، وقال: «كلنا نحتاج إليه».

71

كل ما هو سيئ

قالت أليكس: «ظننت أني قد أجدكِ هنا».

قالت ساني: «المكان لطيف». ثم أمالت رأسها إلى الوراء تتأمل شقوق السماء الزرقاء بين خضرة الأغصان: «الشمس من خلال الورق، والريح في الغصون».

جلست أليكس إلى جانبها، وأشرطة الضوء تنزلق على وجهها المُكدَّم، وقالت: «إلفٌ تحبُّ النبات. فكرة مبتذلة».

ليس النبات بحد ذاته، بل الظلال. أحيانًا من الجميل أن... أتنفس فحسب.

ثم ساد صمت. صمتٌ لم تعلم ساني كيف تكسره.

قالت بعد هنيهة: «سنغادر».

- أعلم.
- اليوم، على الأغلب. الكارديناله زيزكا ستأخذنا عائدين إلى المدينة المقدسة.
- وقع بيني وبينها... خلاف.
- من عرف الكارديناله زيزكا، خالفها.
- حاولت قتلي.

- أنت وغيرك كثر، إن كان في الأمر عزاء.

قالت أليكس: «عزاءٌ يسير». ثم نظرت إليها: «من ذا الذي يرغب بالبقاء وحيدًا؟».

حدَّقت ساني إلى الأرض. كأن ثمَّة ما يشدُّ النظر بين حذائيها. وقالت: «أعجبتني شجاعتكِ في الوقوف في وجهها. أعتقد أن الإمبراطورة لا يصحُّ أن تخاف».

- الإمبراطورة تخاف على الدوام. لكنها لا تُظهره. حاولت... أن أستعطفها لتحررك، ولكن...

قالت ساني: «لكنها أبت». ولم تكن تجد في هذا الحديث ما يُحتمل. كان الأسهل، في الختام، ألَّا تشعر بشيء.

قالت أليكس: «ليتك تبقين».

- أعلم. لكنني لا أستطيع.

- وليتني أرافقكِ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أعلم. لكنك لا تستطيعين.

ثم ساد صمت آخر.

- من سينقذني الآن؟

قالت ساني: «لو جرت الأمور على ما يُرام، فلعلَّك... لن تحتاجي إلى من ينقذك؟».

نظرت إليها أليكس نظرةً مطيلة.

فحوَّلت ساني وجهها نحو الأشجار وقالت: «الأب دياز إذًا».

- ذلك الأحمق لا يعرف حتَّى كيف يختفي.

- ربما عليك أن تنقذي نفسكِ.

- خفت أن تقولي ذلك.

هبَّت نسمة، فحرَّكت الأشجار، ومرَّت بينهما. وكانت المسافة بينهما ضيقة، لكنها لن تُجبر.

قالت أليكس، بصوت خفيض، ولسانها يلعق شفتها: «وإن... اكتشفوا... أنني لستُ الأصل».

- أنتِ الأصل الآن. أيًّا كان أصلك.

- لكنني... ما فعلت... لستُ خيرة...

- ما فعلتِ لا يُحدِّد خيركِ أو شرَّك. ما تفعلين بعده هو الذي يُحدِّد.

قالت أليكس ساخرة: «إلفٌ يعظ إمبراطورة في الفضيلة؟».

- لا بدَّ لأحد أن يفعل. وكاهنكِ كان مع ذئبةً بشرية.

فأطلقت أليكس ضحكة خفيفة، سُرَّت ساني أنَّها أفلحت. لكن سرعان ما خفتت ابتسامة أليكس.

- هل ثمَّة شيء... أقدِّمه لكِ؟ أنتِ تستحقين... شيئًا.

فأشاحت ساني بنظرها وقالت: «لا أحتاج إلى شيء».

همست أليكس: «لعلِّي أراكِ ثانية».

ولم تردَّ ساني النظر. ظنَّت من نبرة صوتها أنها تبكي، ولم تُرِد أن تراها كذلك.

قالت: «ربما». وكان يعقوب يقول دومًا: «قلما يطيق الناس الحقيقة كاملة». وظنَّت أن هذه من تلك اللحظات. فوقفت، وصفعت مقعدها براحتيها، وقالت: «ربما».

قالت أليكس، وفجأةً بدت غاضبة، قالت بصوتٍ حادٍّ: «ليس من العدل! لقد خاطرتِ بحياتكِ لأجلي مرارًا! ولا أستطيع أن أفعل لكِ الأمر نفسه!».

قالت ساني: «فافعلي ذلك لشخصٍ آخر إذًا». وقد راقها هذا التصوُّر. أن تصنع خيرًا لأحدهم، فيصنع خيرًا لآخر، ثم يجيء يومٌ ويرتدُّ الخير

إليها في حلقةٍ كبيرة من المعروف. لم يحدث هذا بعد. لكنَّ المرء يستطيع أن يأمل: «افعليه من أجل الآخرين كلِّهم».

- من أجل الناس، ها؟

قالت ساني: «ولِمَ لا؟ أحبُّ الناس». ثم أخذت نفسًا عميقًا: «ليتني منهم».

حدَّقت أليكس إليها وقالت: «أنتِ أفضل إنسانٍ التقيتُه أبدًا».

وكان ذلك شيئًا طيبًا يُقال. لعله أطيب ما قيل لها في حياتها. لا يعني كثيرًا، ولكن لا بأس.

قالت أليكس، والدمع في عينيها، والابتسامة على شفتيها: «انظري إلى هذا. لقد ابتسمتِ أخيرًا».

رفعت ساني أصابعها إلى وجنتيها. وبدا أن لهما شكلًا مغايرًا للمعتاد.

وتمتمت: «هه. من كان يظن؟».

* * *

رقدت ڤيجا في قفصها.

ما سحبوها إليه. بل زحفت بنفسها. حفرت في التبن كأنها جرذٌ لا ذئب، ورقدت في الظلمة لا تتحرَّك، لا تتكلَّم، لا تفكِّر، ليست بشيء، بل لحمٌ لا يُؤكل.

جُرحت وقُطعت وعُضت في كل موضع. جراحٌ ممزَّقة خلَّفتها أنيابٌ عظيمة خاطها أحمق. أقلقتها الضمادات فمزَّقتها، ثم أزالت القشور ففتحت الجروح، ثم عاد أحمق آخر فخاطها، ثم جاءت الكارديناليّة زيزكا فألبستها طوقًا من حديد وقالت إن هي عبثت بالضمادات ثانيةً لجلدت جلدها الموشوم حتَّى ينسلخ، فتركتها وشأنها.

وقد لُسِعَت بالسياط من قبل، وكان ذلك فظيعًا.

أما قدمها فتالفة. قد تشفى. وقد لا تفعل. أما الآن فهي لا تقوى على القيام، ولا تبالي. هي بهيمة، ولا تستحق أن تقوم. هي بهيمة، تستحق أن تلبس طوقًا، وتزحف على بطنها في القذارة، وقد تبولت في التبن حيث ترقد، ولم تُزِح جسدها عنه.

كانت بابتيست صديقتها، والذئبة قتلتها. الذئبة قتلتها، لكن تحت أظفار ڤيجا ظلَّ دمها يابسًا. وفي فم ڤيجا لا يزال طعم لحمها. فحفرت لسانها بأسنانها، وبصقت، وبكت، وتقيأت، وملأت فمها تبنًا وبصقت ثانية، لكن ذلك الطعم لا يفارقها. ولن يفارقها.

ما رأت أفظع، ولا أحقَّ بالشفقة من تلك البقايا التي زحفت من تحت المكتبة، لكنها كانت أفظع، وأحقُّ بالشفقة منها، لأنها تتظاهر بأنها إنسان. وأحيانًا، تخدع نفسها لحظات. لكنها كانت حمقاء لعينة. سهلة الخداع. ليست طاهرة. ليست آمنة. إنها دَنَس، وخطر، كأي شيءٍ سمح له الإله، أو الرب، أن يحيا.

وقد بدأت تشكُّ.

ثم جاءت أصوات في الظلمة. قال أحدهم: «أيلزم أن تبقى في القفص؟».

فجاء ردٌّ: «بالطبع يا أبانا. لقد رأيتَ ما هي عليه».

قال دياز: «الذئبة... ليست هي يا سماحتكم. الذئبة... لعنة!».

ضحكة سخرية.

- لا تخدع نفسك بأنها لعنة يمكن علاجها. حتَّى قبل العضة، كانت وحشًا. كانت فايكنج تُرعب سواحل أوروبا، تُحرق الكنائس وتقتل الرهبان لهوًا.

- هي تستحق الشفقة، لا الكراهية...

- لا هذه، ولا تلك. ليست بأفضل من كلاب الحراسة في القصر السماوي. يمكن أن نصنع منها سلاحًا يضرب الفجَّار، ويُلقي الرعب المقدَّس في قلوب أعداء الكنيسة. ولهذا فقط، سُمِح لها أن تعيش.

قد كبَّلها الوثنيُّون في قفص، وجوعوها، وساقوها، واستخدموها لتقتل أعداءهم. وها هي ڤيجا ترى الآن أنَّ الوثنيين والمُخَلَّصين ما كانوا يتباغضون لاختلافهم، بل لأنَّهم متشابهون.

قال دياز: «لقد أنقذتِنا». وسمعَته يقترب. صوته يلين: «لقد أنقذتِني». وسمعت أنامله تلامس القضبان. صوته ألطف، كأنه همس: «بأكثر من وجه». قالت من تحت التبن: «أنا سعيدة». ثم تمتمت، مكتومة الصوت: «لكنني لا أستطيع أن أنقذ نفسي».

لم تلتفت. لم تُرد أن تراه. وزيزكا على حق. لا شفاء لها، ولا تستحق لا شفقة ولا بغضاء. شعرت بالذئبة في داخلها تنوح كي تُطلق. لا تنام. لا ترتوي. تنوح أبدًا كي تُطلق.

- أنا لست آمنة. أنا لست طاهرة.

ثم انحشرت أعمق في التبن، ودفنت وجهها، وقالت: «ولن أكون».

***

حين خطا بالثازار متحفظًا على لوح العبور، تجهَّم تحسُّبًا لوخزة لسانٍ لاذعة، وحين قفز قفزةً ثقيلة إلى سطح السفينة، تطلع إلى أعلى، متوقعًا أن يرى تلك الابتسامة المزعجة، وبريق السن الذهبية خلف الشفة المشقوقة...

لكنه لم ير شيئًا من ذلك طبعًا، ولن يراه ثانيةً.

كم مرَّة تمنى غيابها؟ والآن، وقد غابت، بدا غيابها موجعًا.

ما انفك يفكر في أشياء كان عليه قولها. يعيد في ذهنه أفعالًا كان يمكن فعلها. ينسج سيناريوهات أغرب من الخيال. لطالما تخيل أنه سيفوز عليها في لحظة نصرٍ ساحق. أو لعلَّ ينشأ بينهما فهم، أو احترام، أو إعجاب. أو... من يدري؟ شيئًا ما، على أية حال. نهاية من نوع ما.

أما الآن فما بقي إلا مقدمة مشوِّقة قُطعت من منتصف الجملة، تُركت غير مكتملة، لن يُتمّها أحد. فاضطر بالثازار إلى أن يمسح عينه، متظاهرًا بأنَّ الريح هي السبب. وجب عليه أن ينفض عنه هذه الميول المنهزمة، وهذه الدورانات البكائية المدلَّلة. فهو أحد أعظم باعث موتى من أصل أربعة في أوروبا في نهاية المطاف! سيِّد أسرار القبر! كيف يُربكه موتٌ واحدٌ هذا الإرباك كله؟ فقبض قبضتيه، وجرَّ نفسًا من هواء البحر المالح. ولطالما كره البحر. كره كلَّ رائحة خارجية سوى عبير المقابر المغري، لكن شعوره بهذا، كما بغيره، قد تغيَّر في الأشهر الأخيرة تغيرًا جذريًّا. لقد صار رجلًا جديدًا، أُعيد سكبه في قالب جديد، وقد أشعلته غايةٌ جديدة!

وقد أدرك الآن أنه ظلَّ صغيرًا، في سنوات دراسته الطويلة، ضيِّقًا في طموحه، محبوسًا في غيرةٍ مقيدة. لكن خدمته للبابا، في مفارقةٍ تليق بفيلسوف قديم، قد حررته من سجنه الذي صنعه لنفسه. وها هو الآن على أهبة النمو! العالم منبسطٌ بالاحتمالات، وهو عازمٌ على السير إلى الأمام ليقتنصها! ومشى إلى يعقوب الثورني، المتكئ على درابزين السفينة، ووجهه يحمل تلك الكآبة الأزلية.

- متى تُكلِّفنا قداستها بمهمة جديدة؟

قال الفارس العتيق: «حين تحتاج إلى مواهبنا».

ثم أردف، متأوِّهًا: «الرحلة إلى المدينة المقدسة تستغرق أسبوعين على الأقل. وربما ثلاثة».

قالت الكاردينالة زيزكا، وقد تبعت بالثازار عبر لوح العبور إلى ظهر السفينة، وخادمان ضخمان يساعدان في حمل متاعها: «لكن لا تخشَ شيئًا! ستسافر على طرازٍ رفيع!».

قال بالثازار: «أحقًّا يا سماحتكم؟».

- أُعدَّت أفضل مقصورة لك.

قال، وقد لمعت عيناه: «حقًّا؟».

ما كان يتخيَّل أن الآخرين، ناهيك برئيسة الهيئة الدنيوية نفسها، قد يسارعون إلى مكافأته على تغيُّر قلبه.

- بما تقتضيه روح التعاون، لديَّ ما أُفصح عنه من أمرٍ جليل! وأعتذر، إذ إنَّ الأحداث... المتعلقة بببابتيست...

ثم اختنق صوته عند الذكرى، وضرب صدره، واستجمع قواه.

- ما بدا لي الوقت مناسبًا من قبل، لكنَّه اكتشاف يخصُّ السيدة سيفيرا...

- آه، التي أفلتت منكما.

- بلى، وإن المدهش في الأمر...

- هي التي تركتَها أنت تفلت.

تنحنح بالثازار بحرج وقال: «أحسب أنَّكِ تودِّين سماع...».

قالت: «إذًا فعليك أن تلبس أفضل حين تكلِّمني».

وتغيَّر وجه بالثازار، إذ رأى الخادم الأكبر -الذي تبيَّن أنه أوفى وصفًا بأن يكون سجَّانًا- يُخرج بمجهودٍ مجموعةً من الأغلال الحديدية الغليظة، وقد حُفرت على معدنها الأسود نقوشٌ سحرية بإتقانٍ خشن. نقوش احتواء وكبح. قيود صُممت لتمنع المشعوذين من استعمال السحر. أو السحرة، بطبيعة الحال.

قال الرجل، مغلظًا صوته: «يداك».

ابتسم بالثازار ابتسامة باهتة وقال: «حقًّا ليست ضرورية».

قالت زيزكا: «لكنها ضرورة».

قال بالثازار: «يا سماحتكم! أتأذنين لي بكلمة؟».

- أتقدر أن تجعلها كلمةً واحدة؟

وأطلق ضحكته المصطنعة المعروفة. حتَّى بعد كل انتصاراته الأخيرة، لم يستطع منع نفسه منها إذا خاف.

- لقد بلغت استنتاجًا يا سماحتكم. كأنه إلهام! وأعترف بأنني، في رحلتنا من المدينة المقدسة، قد حاولت ثلاث مرات... أن أفك رباط قداسة البابا، وفشلت ثلاث مرات. وفي المحاولة الأخيرة، عند صخورٍ قائمة قرب نيكسيك...

شهق يعقوب فجأة، ووقع في نفس بالثازار، حين رأى زيزكا تضيق عينيها أكثر، أنَّ استدعاء دوقٍ من الجحيم قد لا يُستحسن عند علية رجال الدين.

- على كلٍّ، فلنتجاوز... دقة الدليل، لكني على يقينٍ الآن أنَّ البابا بندكتا هي بعينها عودة المخلِّصة!

لكن إقراره لم يُفضِ إلى البهجة التي رجاها.

بل استنشقت زيزكا نفسًا طويلًا من أنفها، ورفعت حاجبًا فتاكًا إلى يعقوب الثورني.

- باعث الأرواح وجد الدين؟

- الإيمان غير ضروري يا سماحتكم! أنا رجل عقل، والعقل هو الذي ساقني إلى هذا اليقين! لم أعد بحاجة إلى أن أُجبر على خدمة قداستها!

- لأنك حاولت ثلاثًا أن تخرق رباطها، وفشلت ثلاثًا.

قال بالثازار، مشرقًا: «بالضبط!».

شهق يعقوب ثانية.

قال: «لا، لا... ليس لذلك السبب». وكان في نظرة زيزكا، كأنها أفعى، ما جعله ينسى ما كان يريد قوله. وقد واجه سيوفًا مشهورة لم تُرعبه مثل هذه النظرة.

- بل لأنني... سأخدمها عن طيب خاطر. لقد كنت أبحث كما ترين عن غاية، ربما طوال حياتي. عن مهمة. عن قضية أصبُّ فيها مواهبي!

ابتسم. ولم تبتسم هي.

ما تلقَّى إلى الآن دليلًا أنها تقدر على ذلك أصلًا.

- وما أسمى الغايات، في نهاية الأمر، من خدمة بنت الرب ذاتها؟

ولم تتسع عينا زيزكا قيد شعرة.

- أخيرًا... وجدنا ما نتفق عليه.

قال، مشرقًا: «كنت أعلم أننا سنجدها!».

قالت: «أحسنت». ولوَّحت إلى السجَّانين: «خذوه إلى الأقفاص».

وقف بالثازار، فمه مفتوح، والرجل الأكبر يمدُّ نحوه الأغلال الثقيلة.

قال الرجل، مرَّة أخرى: «يداك».

قال بالثازار: «يا سماحتكم! القفص ليس ضروريًّا...».

قالت: «ضروري، ونافع، ومريح». ثم أشاحت عنه بيدٍ ضجرة، كأنَّها أعطته من وقتها أكثر مما يستحق.

- ذلك كله ليس هو الموضوع. القفص هو موضعك.

ثم أغلق السجَّان الأكبر إحدى الأغلال على معصمه بصوت صريرٍ لا يرحم. ثم تقدَّم الأصغر ليتأكد من الإحكام. وقد بدأ بالثازار يشعر بالأثر من فوره. كأنَّه غاص في الماء برأسه، من وجهة نظر سحرية، وانطفأت الحواس فجأة.

قالت زيزكا: «يا بالثازار شام إيفام دراكسي، أنت زنديق. حوكمت، وجُرمت، وحُكم عليك من قِبل المحكمة السماوية. أنت مستدعي للشياطين وعابث بأجساد الموتى».

قال بالثازار محتجًّا: «لكني أعترض بشدة على لفظة عابث...».

قالت زيزكا: «والجرائم التي اقترفتها -وهي جرائم بحق الإله ذاته- لا كفارة لها سوى موتك وإلقائك في الجحيم».

انطبق السوار الآخر بصوت حك معدني، واشتدَّ تأثير الإخماد.

تمتم بالثازار: «حسبت أن المخلِّصة تفرح بتوبة العاصي...».

قالت زيزكا وقد أدارت ظهرها: «لعلها تفعل، لكنها لا تمسك بطرف سلسلتك».

أطلق بالثازار شيئًا قريبًا من العويل حين قُذف على التبن بعنفٍ لا مبرر له، وأُغلق الباب من خلفه بصوتٍ مدوٍّ، وأُديرت المفاتيح في الأقفال المتعدِّدة، ثم خيَّم الظلام في القبو حين أُطبقت الفتحة العلوية.

ليس بقفص وحسب، بل ضيقٌ حدَّ القهر، مفروشٌ بتبنٍ قذر، في قاع لا يدخلها ضوء. زمجر: «لعنهم الرب!». وضرب الأرض بقبضته، ثم ندم من ساعته، وفزَّ مذ سمع حركةً في الظلمة، وأخذ يتفرَّس في العتمة الكثيفة. قال: «من هناك؟».

جاءه الأنين الواهن من البارون ريكارد: «إنه أنا لا غير».

أتراه، وقد اعتادت عيناه الظلمة، أبصر بريقًا خافتًا في عينيه العتيقتين؟

قال آخر: «وأنا»، وظهرت أنامل شاحبة في شقٍّ من الضوء، تمسَّكت برفق بقضبان الجهة المقابلة، ثم بان من الظلمة وجهٌ نحيل مكسوٌّ بالقشور، وعينٌ عظيمة تطوِّقها الكدمات. أومأت ساني برأسها إيماءة جانبية وقالت: «وثيجا أيضًا».

جاء التأوُّه منها، كأنَّه نشيج.

لم يضمر بالثازار مُقتًا في نفسه على ڤيجا لأجل مقتل بابتيست، فهي أسيرة طبيعتها. إنما المقت كلُّه نزل على الكرادلة الفاسدات، وبالبابا الطفلة، والكنيسة العفنة التي يلومها! وهو عازمٌ على الانتقام.

زمجر وهو يمتص الدم من مفاصله المجرَّحة: «عامَلونا كبهائم، بل أسوأ من البهائم. بعد ما بذلنا! قبعونا في الظلام! في أقفاص!».

قالت ساني بخفوت: «فأين عساي أذهب؟»، وسحبت أناملها من القضبان، وغابت في الظلال.

سمع ڤيجا تهمهم: «يليق بي القفص. من مصلحة الجميع».

قال بالثازار: «افعلوا ما شئتم! أما بالثازار شام إيفام دراكسي فلن يرضى بهذا الذل!».

تنهَّد البارون في الظلمة تنهيدةً متعبة، وقال: «فليكن، هج كما تشاء. لكنك ستخضع، صدقني».

همس بالثازار: «لا...». أيُّ ساحرٍ جديرٍ بسحره لا يخفي أعظم أسراره؟ ولحسن الحظ، فإنَّ هوية الليدي سيفيرا الحقيقية ما زالت طيَّ الكتمان، لا يعرفها سواه.

ابتسم وقال: «لا...». فإنَّ الرباط يعمل على الروح، ومن أدرى بالروح من ساحرةٍ نقلت روحها إلى جسدٍ آخر؟

قال: «سأجد سبيلًا للفرار...». إن استطاع أن يوصل إليها رسالة، ويستميل عونها، فلربما، بين سحرها وسحره... «سأفكُّ الرباط».

ولو اضطر إلى هدم أعمدة الخليقة، لأوجد السبيل. كبَحَ تجشؤًا مريرًا، وقبض على القضبان حتَّى أوجعته مفاصله، وقال: «أقسم بذلك!».

قبض يعقوب على الدرابزين الخشبي القديم حتَّى أوجعته قبضتاه. كأنَّه، إن غاب الألم عنه لحظة، ألزم نفسه أن يؤلمها. قطَّب جبينه نحو

المدينة، ولهيب شعلة نتاليا المُقدَّسة يلمع كأنه خيط نارٍ في الأفق، ينعكس خافتًا على أثر السفينة.

انتفض قائلًا: «أعلينا حقًّا إبقاؤهم في الظلام؟».

قالت زيزكا وهي تلقي عليه نظرة جانبية: «بلى. لعلك نسيت ما هم عليه يا يعقوب. وأخال أنك بحاجة إلى تذكيرٍ بكثيرٍ من الأمور».

قال يعقوب: «قد جرى الأمر بأقل الأضرار»، وهي عبارة لا تنطبق على كل حربٍ خاضها على مرِّ السنين: «طروادة كانت حصنًا عظيمًا في وجه الإلف ذات حين. وقد شهدتها. ومع زعيمٍ جيد، تعود كما كانت».

قالت زيزكا بشفةٍ ساخرة: «وأنا معك في ذلك كلَّ الموافقة. ولهذا كنت أود تنصيب حاكمٍ موثوق. حاكمٍ متوقَّع. يضع حدًّا للانشقاق الكبير، ويوحِّد كنيستي الشرق والغرب. والإمبراطور مايكل كان سيكون خير من يخدم غرضنا».

قال يعقوب بغلظة: «تلك لم تكن شروط رباط قداستها».

فنفخت زيزكا احتقارًا: «رجلٌ قد نذر الصدق، ثم يلوك الكلام، ونذر الفقر، ثم يتعاظم فيه الكبر، لو لم تكن نذرت الزهد لقلت إنك ثمل». ثم بصقت في البحر من فوق الحاجز وقالت: «قداستها، التي لا ننسى أنها في العاشرة من عمرها، طلبت منك أن تضع الإكليل على رأس أليكسيا. وفي ذلك أهنِّئك. وفيه فقط. إذ كل ما تلاه، كان من صنعك وحدك، وقد خرَّب جهود سنين من التدبير. أتعلم أين مكمن علَّتك يا يعقوب الثورني؟».

- أن ساحرة لعنَتني فأصبحتُ لا أموت؟

قالت وهي تقترب أكثر تحدق إليه: «بل لنكن أكثر دقة: إن من لعنتك حتَّى لا تموت هي عشيقتك. وهنا موضع العطب! فعلى ما بك من ندوب، وما فيك من مرارةٍ وتجارب، وما تدَّعيه من تشاؤم، ما زلت تفتقر إلى الفضيلة الثالثة عشرة. ما زلتَ غارقًا في العشق».

وخالج يعقوب خاطرٌ جامحٌ أن يرمي برئيسة الهيئة الدنيوية في البحر المتلاطم. ولو كان في ريعان فتوَّته لفعل، ولعن التبعات. لكنَّ سنيه الطويلة علَّمته كبح الرغبة. فقبض على الدرابزين بأصابعه الموجوعة.

قالت زيزكا وقد أدارت ظهرها بازدراء، ونظرت إلى طروادة التي غدت في البعد سرابًا: «كالعادة، سيقع على عاتق الواقعيين أن يُصلحوا ما أفسده الحالمون. لا تريدني عدوة لك يا يعقوب الثورني».

قال: «حاشا وكلا يا سماحتك»، وانحنى تواضعًا، وقد وخز عنقه الألم حين استقام. ثم رنا إليها بعينه، وأطال التحديق، حتَّى لا يبقى لبس، وقال: «لكنَّك لن تكوني الأولى».

***

قالت أليكس: «اعذرني على الإزعاج».

فاستدار الأخ دياز نحو الباب، أو لعلَّه الأب دياز نحو الإمبراطورة أليكسيا، إذ إن الأمر بحاجة إلى وقتٍ حتَّى يستقرَّ في النفس. قال: «بل لا عليك»، وأشار إلى النافذة الزجاجية المصبوغة: «كنت أحدث المخلِّصة فحسب».

- أكانت كثيرة الكلام؟

- كعادتها، لا تزيد ولا تنقص. لكنها بارعةٌ في الإصغاء.

قالت وهي واقفة على العتبة: «صفةٌ نشترك فيها. هل لي أن أدخل؟».

- بالطبع.

وقف الأب دياز، رافعًا يديه ليُحيط بهما أرجاء المعبد. وقد لبث فيه من الوقت ما فاق إقامته في عمله السابق في القصر السماوي، ومال إليه أكثر. فعلى تواضعه في المساحة والزخرفة، قدَّر أن احتمال شويه

بِنارٍ كروية، أو يُمتص حتَّى الجفاف على يد مصَّاص دماء، أو يغرق في حفرةٍ عظيمةٍ من الجيف، أضعف بكثيرٍ في هذا الموضع.

وأما احتماله لمجامعة ذئبةٍ ممسوخة، فكان قريبًا من العدم. تنحنح وهو يومئ لأليكس أن تدخل، وقال: «هو معبدك في نهاية الأمر».

قالت أليكس وهي تخطو: «لا يكفَّ الناس عن قول ذلك. غرفتي، قصري، مدينتي. لكن من اعتاد العدم، صعب عليه أن يعدَّ شيئًا ملكه. فكيف بإمبراطورية؟».

- سيألفها قلبك مع الأيام. لطالما بدا لي أنَّكِ سريعة التعلم.

قالت: «قد حظيت بأساتذة أكفاء»، ثم مرَّت بأناملها على ذراع كرسيٍّ عالٍ، ورنت عيناها بالرضا وقالت: «نظفته».

قال: «كان أبي يقول: طهارة المعبد من طهارة النفس. وإن لم يكن يُكثر التنظيف بنفسه. ومن هيئة هذا المكان، أظنُّ سلفك لم تكن تكثر من الصلاة».

قالت: «يودوكسيا؟ لا. لكنها صلَّت أكثر مني لا شك. فقد نشأتُ في المدينة المقدسة. وأهلها لا يدخلون الكنيسة إلا ليسرقوا صحن النذور».

- وما أسمى أن تُحذف الوسائط، وتُعطى الصدقة للفقير مباشرة!

قالت وهي تبتسم لحظةً ثم تثقل: «ذلك ما كنتُ أقول دومًا. إذًا... رحلوا؟».

- رأيتُ سفينتهم تنسلُّ في البحر من نافذتك. وقد توسَّلت إلى يعقوب أن يحمل رسالة عني.

- أخيرًا بعثتَ برسالة!

- مجرد سطور وجيزة إلى والدتي. أطلعها على مكاني، وعلى ما آلت إليه الأمور.

- ترى، ما عساها تقول حين تعلم أنك كاهن إمبراطورة؟

ففكَّر الأخ دياز مليًّا، ثم رفع حاجبيه وقال: «أتدرين... ما عدتُ أبالي».

حدقت أليكس إلى الزجاج المصبوغ بوقار وقالت: «ليتَنا استطعنا أن نقدم لهم أكثر».

خفض صوته وقال: «بوسعنا أن نُصلِّي لخلاصهم. ولعلنا، في الوقت ذاته، نُصلِّي لأنفسنا».

- ليس مختوم على قلوبهم؟

- لا أظن. وإن ظنُّوا هم. ومن ذا الذي لا إثم عليه؟

قالت: «لستُ أنا، هذا أمرٌ مؤكد»، ثم قطَّبت جبينها وهي تنظر إلى الأرض، ورفعت يديها إلى رأسها، وقالت: «ما الذي أعرفه بحق الجحيم عن إدارة إمبراطورية؟».

لربما مقت الأخ دياز لسانها، لكن الأب دياز ادَّخر مقتَه لما هو أجدر. فقال: «إدارة الإمبراطورية ليست من شأن الإمبراطورة».

- فما شأنها إذًا؟

قال: «أن تختار من يديرها عنها. وفي ظنِّي المتواضع، قد اختارت فخامتكِ أولَ خيارٍ صائب». ثم ربَّت على صدره، حيث استقرت القارورة الصغيرة، وقال: «سأدعو القديسة بياتريكس أن تهديكِ دومًا».

- أعجبُ أنك ما زلتَ تبعث لها بالدعاء، بعد ما جرى لنا.

- بل أكثر من ذي قبل! ألم تُنجِنا؟ كم مرَّة واجهنا الموت؟ وها نحن، واقفان، أقوى مما كنَّا، وقد قُدنا إلى مكانٍ نرجو فيه الصلاح. فإن لم يكن هذا من تدبيرٍ إلهي...

قالت أليكس متشككة: «إلهي؟ القديسة بياتريكس لم تنقذنا في النزل. من أنقذنا مسخٌ ذئبي. ألا تذكر؟».

ازدرد الأب دياز ريقه، وقد قرع قلبه فجأة بوجع. قال: «ذكرى لا تُمحى».

- ولا أنقذتنا في الدير. بل منقذنا كان باعث أموات.

وتذكَّر الأب دياز حفرة الوباء، وسرت برودة العرق في ظهره.

- هل قفزت القديسة بياتريكس عبر لهب القديسة نتاليا لتنقذني؟ لا. بل فارسٌ ملعون.

- أعترف...

قاطعتْه: «وفي صواري تلك السفينة، وفي براري الحرب، وفي السراديب الخفية لهذا القصر، هل هي من خاطرت بكل شيء من أجلي؟ لا. بل من يُقال إنها عدوَّةٌ للرب».

سكت الأب دياز، يتأمل ما سمع. ثم قال: «صراحةً... لم أكن بارعًا في علم اللاهوت. بل ميَّال إلى الأرقام أكثر. لكن... لعل الذئبة، والساحر، والفارس الملعون، وحتَّى عدوَّة الرب... كانوا أدوات القديسة بياتريكس؟».

قالت أليكس: «قديسةٌ ترسل زمرة شياطين لتحوِّل لصَّة إلى إمبراطورة؟».

فقال وهو لا يزال قابضًا على القارورة، ثم أرخى يده وهزَّ كتفيه: «إذا اختصرنا القول... فهكذا يبدو الأمر».

مكتبة
t.me/soramnqraa

72

يوم القدِّيسة تابيثا

كان اليوم الرابع من شهر الجُود، وقد حضرت الأم بيكيرت باكرًا لموعدها مع قداسة البابا.

تمتمت قائلة: «ليرحم الرب أرواحهم»، وهي ترسم دائرة التقديس بيمينها، إذ كانت العربة تُصدم بمسيرةٍ من الجلَّادين النائحين، وجلود ظهورهم مخضَّبة بالدم، ووجوههم مرهقة بالدموع والوجد، يجلدون أنفسهم تحت رايةٍ كُتب عليها: «توبوا». إذ لا حاجة إلى بيان ما يُطلب التوبة منه.

أفلسنا جميعًا من الآثمين؟

انفتح باب العربة بقعقعةٍ مفاجئة، فدخل معها ضجيج الصلوات، وصخب التجارة، وتوسُّلات السائلين، وتضاعف كذلك النتن: بخورٌ خانق، ومجارٍ تختنق، وسوق سمكٍ قريب.

دخل شاب طويل القامة، نحيل الجسد، متأنِّق الهندام، وسيم القسمات، حدَّق إليها بدهشة، كأنَّه لم يتوقَّع أن يجد أحدًا داخلها. وكانت الأم بيكيرت لا تثق بالوسيمين. إذ اعتادوا الإفلات من العقاب.

قال بصوتٍ رقيقٍ فيه لحن الأغنياء، لكن لم يغب عنها أنه ليس صوت نشأته: «آسف أشد الأسف، ما كنتُ أدرك أنني سأشارك أحدًا العربة».

قالت الأم بيكيرت: «أنت تعرف الكنيسة. بخيلة دائمًا».

جلس قبالتها، ومسح عرق جبينه، ثم انطلقت العربة في سيرها البطيء، كالسلحفاة، وهو أقصى ما تبلغه عجلات المدينة المقدسة. قال: «أتراكِ إلى القصر السماوي أيضًا؟».

- يقولون إنَّ الجميع ذاهب إلى هناك، شاؤوا أم أبوا.

- آمل ألَّا نكون تأخَّرنا. الشوارع تغصُّ!

قالت: «ذاك احتشادٌ ليوم القدِّيسة تابيثا. تُقرأ معجزاتها الموثَّقة كلها اليوم على المنابر». ثم هزَّت كتفيها وقالت: «لكنها المدينة المُقدَّسة. كلُّ يوم فيها هو يوم قدِّيس. والكل متأخِّر دومًا. لذا يؤخرون المواعيد جميعها لذلك».

- أراكِ خبيرةً بالمكان؟

قالت: «كنتُ كذلك»، ثم قطَّبت جبينها، كأنَّ رائحة كريهة باغتتها. وهذه المدينة ما خلت قطُّ من رائحةٍ منفِّرة، لا سيَّما في حرِّ القيظ.

- لكنِّي فقدتُ شهوتي لها.

- وعادت إليكِ اليوم؟

قالت: «كلَّا، لم تعد قط». ونظرت من النافذة نحو الزحام اللاهب، وتمتمت: «الكرادلة، من يُسمُّون أنفسهم بالمُخَلَّصين. جعلوا منها أكثر الأماكن دنسًا على وجه الأرض».

بدأت أجراس صلاة الظهر ترنَّ عبر أرجاء المدينة، تبدأ برنَّةٍ هزيلة من مَزارات الطريق، ثم تعلو إلى صخبٍ متنافرٍ كلَّما أضافت كنيسةٌ جرسها المحموم، تتسابق فيها دور العبادة لاقتناص الحُجَّاج، وجذبهم إلى مقاعدها، وإلى صناديق نذورها. ولو أنَّ آلةً عُظمَى صُنعت لتسلب المؤمنين، ما بدت غير ما يرى المرء الآن.

مسح الشاب عرقه مجدَّدًا، ونفخ في طوق قميصه الفضفاض وقال: «الحرُّ هذا العام شديد، حتَّى على الموسم»، قالها بلهجة مَن يخشى الصمت ويريد أن يملأه.

وكانت الأم بيكيرت قد قضت معظم حياتها في صمت، بل وفي أقصى الأحوال من الحرِّ أو غيره. تحمل كلمة المخلّصة إلى الظلمات التي تقبع خلف أطراف الخرائط، إلى غابات إفريقيا المتبخِّرة، وجبال النرويج حيث لا يذوب الثلج، بل حتَّى إلى نوفجورد، حيث اغتسلت في نهرٍ متجمِّد وسط ذهول الأهالي، وسألتهم بلغتهم أن يزيدوها جليدًا. فالحرُّ يُطهِّر الجسد، والبرد يُحدُّ الذهن، وكلَّما اشتدَّت مكابدة الجسد، ازداد صفاء الإيمان.

- اعتدتُ قسوة الطقس.

- أهكذا؟ ومن أين أتيتِ؟

- من إنجلترا.

- أسفي عليكِ.

- لا تؤاخذهم، فلا حيلة لهم. وأنت؟

- من الإسكندرية.

- لا تبدو سكندريًّا.

ابتسم وأبرز سنًّا فضية: «أنا خليط. وجداي ليس من نفس الوطن. أنا من كلِّ مكان ولا مكان».

- وما يصنع المرء إن كان من كلِّ مكان ولا مكان؟

قال: «قليلًا من هذا، وقليلًا من ذاك». ثم مدَّ يده، وقد صُقلت أظفاره بالمبرد، وقال: «اسمي كوروسو».

نظرت إلى يده، ثم إلى ابتسامته. لا شكَّ أنه يظن نفسه مخلوقًا فريدًا. وأكثر الناس كذلك. لكنها ترى ما خلف الستار، وتعلم أن الجميع إذا قُشِّروا عنهم الزيف، فهم سواء.

- لكني أظن لك أسماء أخرى.

فابتسم ابتسامة واسعة وقال: «إذا اضطررت».

فأخذت يده وقبضت عليها بقوَّة وقالت: «أنا دومًا الأم بيكيرت».

- أألمانية؟

- لو شققت أمعائي، لوجدت عليها ختمًا يقول: صُبَّت في شُوابيا.

- كأجود الدروع.

- لكن أصلب معدنًا.

- آمل ألَّا تُعرض أمعاؤكِ على الناس!

فأطلقت الأم بيكيرت نخرة من الضحك، ونظرت إلى النافذة، وقالت: «سنرى».

زحفت العربة خلال ساحةٍ ضيِّقة، حاميةٍ كالتنور، صاخبةٍ كمجزرة، قذرةٍ كمرحاضٍ مهجور. عن أحد جوانبها حظيرة مطلية، يُحشر فيها الشحَّاذون المرخَّصون، ومنصةٌ من خشب الزيزفون لعقوبات العلن، عليها صبيةٌ يحرقون دمى محشوة قشًّا على هيئة إلف، والناس من حولهم يصيحون مشجِّعين. وعلى الجانب الآخر، تَزَاحَمت البغايا في جمع غفير، يبرزن شِفاهًا مطليَّة، ويعرضن أطرافًا أحرقتها قيظ شمس الظهيرة.

تمتمت: «ما كنتُ أظنُّ الأمر ممكنًا، لكنَّ عدد البغايا قد زاد عما سبق».

قال كوروسو، وفي عينيه لمعة: «ألا توافقين على وجود البغايا؟».

ربما كان سوء فهم، وربما سخرية. والأم بيكيرت قد تخلَّت منذ زمنٍ عن كلِّ زينةٍ أو غرور، لكنَّ السخرية من الكاهن استهزاءٌ بالإيمان، والاستهزاء بالإيمان استهزاءٌ بالرب، وذلك مما ينبغي اقتلاع شأفته.

فثبَّتت نظرها في عينه، بلا رمشةٍ ولا ميل، كمن ينظر في عين المتَّهم، فيرى الحقَّ جليًّا، ولا ينتظر إلا الإقرار.

قالت: «كانت أمي بغيًّا. وبشهادة الجميع، كانت بارعة. وكانت أمًّا صالحة كذلك. فلا يُعقل أن يُحكم على المرء بمهنته وحدها. فالبغايا، كالقروح على جسد الموبوء، عرضٌ وليس علَّة. هنَّ يشبعن الشهوة. وما يقلقني هو سعة تلك الشهوة، وعِظَم ذاك السُّقم. لا سيَّما هنا، في المدينة المُقدَّسة على أطلال قرطاج القديمة، في ظلِّ ألف كنيسة في صدى أجراسٍ مباركة، حيث ينبغي أن تكون الأبصار مرفوعةً إلى السماء».

ثم مالت نحوه، لا تزيح عينها عن عينه، وقالت: «قل لي، يا كوروسو، ما الذنب الوحيد الذي لا تغفره المخلِّصة؟».

بدأت ملامحه توحي بالضيق، وهو أمرٌ حسن في حقِّه، إذ أن أكثر الناس كانوا ليتمتموا اعتذارًا ما، ثم يلزمون الصمت بقية الطريق. قال: «أعترف أني لستُ بعالمٍ في اللاهوت...».

قاطعتْه: «ومن كان فيه قليل من كلِّ شيء، فينبغي أن يكون فيه قليل من اللاهوت أيضًا، أليس كذلك؟ إنَّ المخلِّصة تغفر كلَّ ذنب يعترف به المرء بصدقٍ ويكفِّر عنه. ما يجعل الكذبَ وحدَه هو الذنب الذي لا يُغتفر». ثم كشَّرت عن نواجذها، وتفلَت الكلمة كأنَّها نُكر: «النفاق يا سيد كوروسو. أن تدَّعي أنَّك خيرٌ مما أنت عليه، أنبل مما أنت فيه، أتقى مما أنت فيه... فتلك أسوأ ضروب الكذب قاطبةً. وذلك ما أكرهه».

ثم سكتت. وتركت الصمت يتمدَّد، حتَّى رأت أن السخرية قد خمدت. فقالت: «قل لي إذًا، ما الذي جاء برجلٍ من كلِّ مكان ولا مكان إلى المدينة المُقدَّسة؟». وكانت قد بدأت تتوقع الجواب.

قال: «آه، حسنًا...»، وأخرج رسالةً ورفعها أمامها. ورقها ناعم، وعليها ختم قرمزي من الشمع، منقوشٌ عليه مفتاحان متقاطعان من مفاتيح البابوية. قال: «قد طُلب مني الحضور. من قِبل قداستها».

قالت الأم بيكيرت: «لعلَّ موعدك مع قداستها، لكن اللقاء سيكون مع الكاردينالة زيزكا».

قال، مدهوشًا مشوبًا بالفزع والفرح: «رئيسة الهيئة الدنيوية؟». وكان خوفه وفرحه أعظم ممَّا لو قيل له إنَّ اللقاء مع البابا نفسه، وذلك قولٌ فيه الكثير.

- الرسالة تذكر أنني بديلٌ عن أحدهم، لكن... لم يُذكر من هو.

- لطالما عشقت زيزكا الألغاز.

- أتعرفين سماحتها؟

- منذ كُنَّا فتيات. كنا نشترك في الزنزانة في مدرسة اللاهوت.

- صديقتان قديمتان إذًا؟

ضحكت الأم بيكيرت ضحكةً نادرة، وقالت: «بل قد مقتنا بعضنا منذ اللقاء الأول. وأعجبنا ببعضنا أيضًا. لأن كلَّ واحدةٍ منَّا كلُّ ما ليست عليه الأخرى. لكننا نعلم أن كلًّا منَّا تمثِّل ما تحتاج إليه الكنيسة. زيزكا كاليمِّ. لا تشبع، ولا تهدأ، تتغيَّر، وتراوغ، وتزحف كما يشاء التيَّار. فإن وقف مبدأٌ في طريقها، صاغت سواه».

ازدرد كوروسو ريقه، وربما هاله رؤية أقوى امرأةٍ في أوروبا تُنتقد بهذه الخفَّة.

- لعلَّها سياسية إذًا...

- تلك نعمتها ونقمتها.

- وأنتِ بخلافها؟

نظرت إليه بعينها النظرة التي تنظر بها إلى المدانين عند النطق بالحكم، وقالت: «أنا الصخرة التي ترتطم بها المياه. تلك نعمتي». ثم تنفَّست طويلًا وقالت: «ونقمتي».

- لكن البحر على مرِّ السنين يفتت الصخر.

قالت: «أعلم ذلك علم اليقين. وزيزكا قد استدعتني أيضًا». ثم أخرجت رسالتها بأطراف أناملها ورفعتها: «كبديلٍ عن أحدهم».

قال، وقد فلت من لسانه شيء من لهجةٍ ألمانيةٍ خشنة: «عن مَن؟».

- لم تذكر. لكنِّي أظنها تريدني أن أعود إلى رعيَّتي القديمة. إلى معبد، داخل القصر السماوي.

قطَّب كوروسو وقال: «أشكُّ في أن معبدًا قد يحتاج إلى مواهبي».

قالت: «لعلَّك تُدهش». وتنفَّست الأم بيكيرت بعمق. وقد تخلت عن خوفها كما تخلت عن زهوها، لكنها تلكأت حين سُمِّي المكان، كأنَّ لفظ اسمه يُثبِّته، ويجعل الهروب منه مستحيلًا. ثم قالت بهدوء: «هو المعبد الثالث عشر».

قال كوروسو: «أليس في القصر السماوي اثنا عشر معبد؟ اثنا عشر، في مقابل اثنتي عشرة فضيلة؟».

فابتسمت الأم بيكيرت، إذ بُرِهِنَ لها ما توقَّعت بالضبط، وجلست إلى الوراء، وتركت جسدها يتمايل مع العربة. قالت: «لديك بعضٌ من هذا يا سيد كوروسو، وبعضٌ من ذاك. لكن في أمر الفضيلة...». ثم نظرت من النافذة، إلى الزحام، إلى الحُجَّاج، وإلى البغايا، وقالت: «لا يزال عليك أن تتعلَّم الكثير».

الإهداءات

وكالعادة لأربعة أشخاص لولاهم لما تحقق هذا العمل...

برين آبركرومبي، الذي أعييت عيناها من القراءة.

نيك آبركرومبي، الذي أُرهقت أذناه من سماع الحكايات.

روب آبركرومبي، الذي كلَّت أصابعه من تقليب الصفحات.

ولو آبركرومبي، التي وهنَت ذراعاها من مساندتي.

ثم إلى كبار القديسين:

إلى أولئك المهندسين السحريين في نشر الكتب البريطانية، ممَّن تجرَّؤوا على جلب الشياطين إلى عالمنا، وأخصُّ منهم، لا على سبيل الحصر: كايتي إسبينر، وآنا ڤالنتاين، وبول ستارك، وبول هوسي، وكيت دايفز، وجينا بيتس، وماركوس جيبس، وبريندان دوركن.

ثم إلى من ساعدني في صناعة هذه الكتب، ونشرها، والترويج لها، وترجمتها، والأهم بيعها، أينما حلَّت في هذا العالم.

ولنشرهم «الكنيسة الحقَّة» في البلاد ما وراء البحر، حتَّى إلى العالم الجديد: ليندسي هول وديڤي پيلاي.

ولجرائمهم في فنون السحر الأسود وتصميم الغلاف: وِل ستايل.

صليبيةٌ باسلة، تصاب ولا تُهزم: تيم ميلر.

من بين أفضل ثلاثة -وربما اثنين- في قراءة الكتب الصوتية في أوروبا: ستيفن بيسي.

ولإتقانهم فن تمرير صحن التبرعات: روبرت كيربي وجينجر كلارك.

وأصحاب المذبحة الأدبية في أڤيليس: دييجو غارسيا كروز وخورخي إيفان أرجيز.

ولكلِّ كاتبٍ صادف طريقي في الشبكة أو الحانة أو غرفة الكُتَّاب، وقد منحني المدد، والعون، والضحك، وأفكارًا كثيرة جديرة بالسرقة. أنتم تعلمون أنفسكم.

وأخيرًا، بل أولًا:

الكاردينال ريدفيرن. لعلَّ الكتَّاب ينهضون صفًّا واحدًا، حين تُقرَع الأبواق السماوية، إيذانًا بالحملة القادمة...

مكتبة
t.me/soramnqraa

الشياطين

فازت الرواية بجائزة Dragon لأفضل عمل فانتازي.

دُعِي الأخ دياز إلى المدينة المقدسة، وهو على يقين بأن ثناءً مشهودًا وتكليفًا جليلًا في أمر من أمور الدين ينتظره. غير أن رعيته الجديدة قومٌ من قتلة لا توبةَ لهم، وأرباب سحر مشؤوم، ومسوخ، والمهمة التي أوكل بها تستوجب منهم جميعًا إراقة الدم، ليبلغ بها غاياتها العادلة.



الجان يربضون عند تخومنا، يشتهون لحومنا، والأمراء الطماعون لا يرون غير مطامعهم وراحتهم. ومع رحلة جنونية مائلة أمامه، فمِن الأفضل للأخ دياز أن يكون الشياطين إلى جانبه.

"لدحض الشياطين.. عليك أن تكون مستعدًا لتطويع الشياطين".

مكتبة
t.me/soramnqraa

غلاف: محمود هشام

عصير الكتب

9 789779 926025

aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com

الشياطين

فازت الرواية بجائزة Dragon لأفضل عمل فانتازي.

دُعِي الأخ دياز إلى المدينة المقدسة، وهو على يقين بأن ثناءً مشهودًا وتكليفًا جليلًا في أمر من أمور الدين ينتظره. غير أن رعيته الجديدة قومٌ من قتلة لا توبةَ لهم، وأرباب سحر مشؤوم، ومسوخ، والمهمة التي أوكل بها تستوجب منهم جميعًا إراقة الدم، ليبلغ بها غاياتها العادلة.

الجان يربضون عند تخومنا، يشتهون لحومنا، والأمراء الطماعون لا يرون غير مطامعهم وراحتهم. ومع رحلة جنونية مائلة أمامه، فمِن الأفضل للأخ دياز أن يكون الشياطين إلى جانبه.

"لدحض الشياطين.. عليك أن تكون مستعدًا لتطويع الشياطين".

مكتبة
t.me/soramnqraa

غلاف: محمود هشام

عصير الكتب

9 789779 926025

aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com